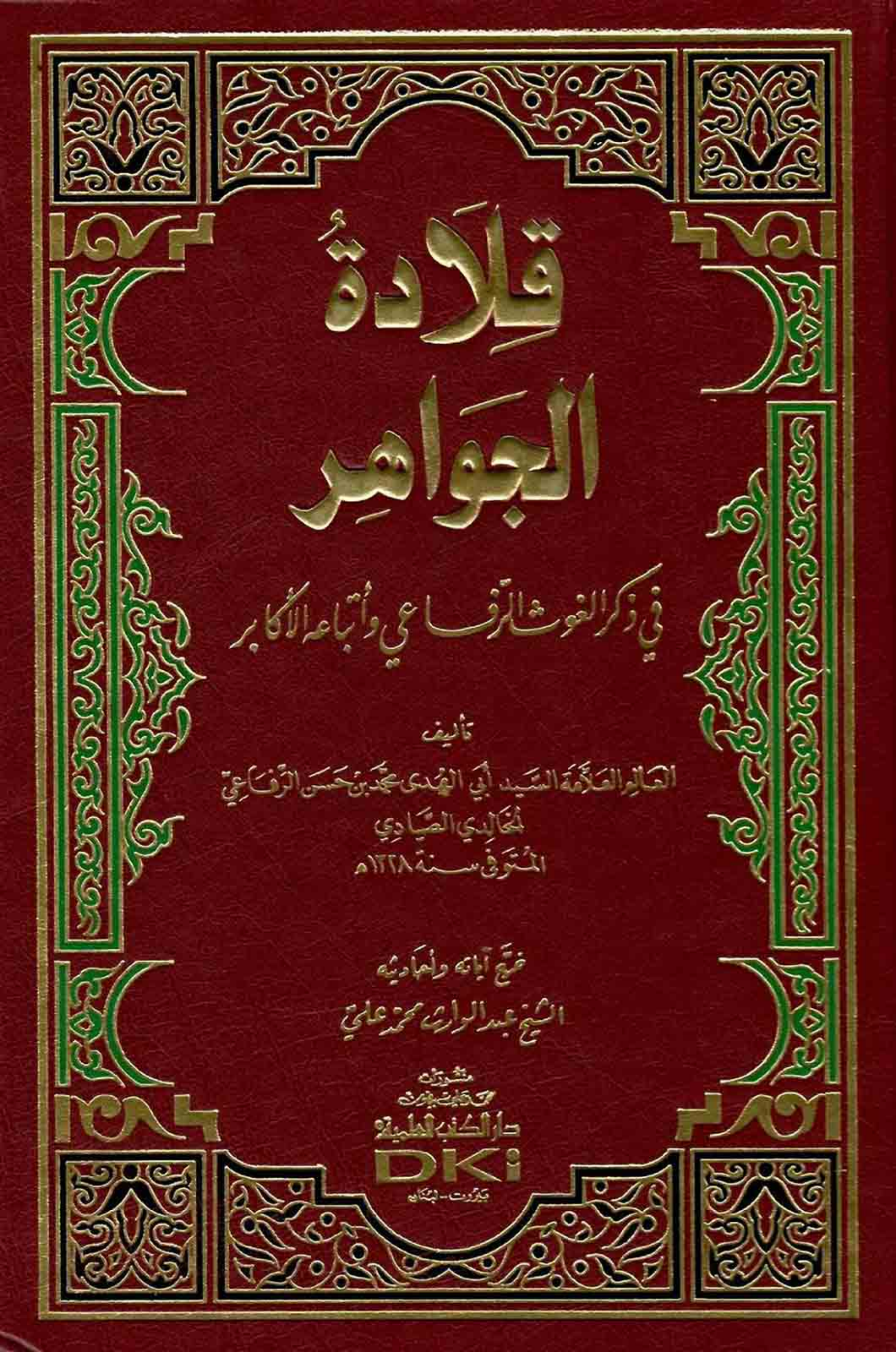

قلادة الجواهر
في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر
تأليف
العالم العلامة السيد أبي الهدى محمد بن حسن الرفاعي
الخالدي الصيادي
المتوفى سنة ١٣٢٨هـ
خرّج آياته وأحاديثه
الشيخ عبد الوارث محمد علي
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
DKI
بيروت - لبنان



تأليف

العالم العلامة السيد أبي الهدى محمد بن حسن الرفاعي
الخالدي الصيادي
المتوفى سنة ١٣٢٨هـ

خرج آياته وأحاديثه
الشيخ عبد الوارث محمد علي



بسم الله الرحمٰن الرحيم

ترجمة المصنِّف(١)

هو أبو الهدى محمد بن حسن وادي بن علي بن خزام الصيادي الرفاعي الحسيني، أشهر علماء الدين في عصره. ولد في خان شيخون (من أعمال المعرّة) سنة ١٢٦٦ هـ ـ ١٨٤٩ م، وتعلّم بحلب، وولي نقابة الأشراف فيها. ثم سكن الآستانة، واتصل بالسلطان عبد الحميد الثاني العثماني، فقلّده مشيخة المشايخ، وحظي عنده فكان من كبار ثقاته، واستمرّ في خدمته زهاء ثلاثين سنة. ولما خلع عبد الحميد نفي أبو الهدى إلى جزيرة الأمراء في «رينكيبو» فمات فيها سنة ١٣٢٨ هـ ١٩٠٩ م.

كان أبو الهدى من أذكى الناس، وله إلمام بالعلوم الإسلامية ومعرفة بالأدب وظرف وتصوّف، وصنّف كتبًا كثيرة يشكّ في نسبتها إليه، فلعله كان يشير بالبحث أو يملي جانبًا منه فيكتبه له أحد العلماء ممّن كانوا لا يفارقون مجلسه. وكانت له الكلمة العليا عند عبد الحميد في نصب القضاة والمفتين.

من كتبه: «ضوء الشمس في قوله ﷺ: بُنِيَ الإسلام على خمس»، و«قلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر» وهو

---

(١) من الأعلام للزركلي (٦/ ٩٤).

الكتاب الذي بين أيدينا، و«فرحة الأحباب في أخبار الأربعة الأقطاب»، و«الجوهر الشفاف في طبقات السادة الأشراف»، و«تنوير الأبصار في طبقات السادة الرفاعية الأخيار»، و«السهم الصائب لكيد مَن أذى أبا طالب»، و«ذخيرة المعاد في ذكر السادة بني الصيّاد»، و«الفجر المنير» من كلام الرفاعي؛ وله شعر ربما كان بعضه أو كثير منه لغيره، جمع في «دواوين» مطبوعة. ولشعراء عصره أماديح كثيرة فيه، وهجاه بعضهم.

بسم الله الرحمٰن الرحيم

[مقدمة المؤلِّف]

الحمد لله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين، والصلاة والسلام على السيد الأعظم أبي القاسم النبي الأمين، أشرف المرسلين، سيدنا ومولانا ونبينا وشفيعنا محمد حجة الله على العالمين، وعلى آلهِ وأصحابهِ الطيبين الطاهرين، وعلى التابعين وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين، آمين.

أما بعد: فيقول أضعف عباد الله، وأحوجهم إلى كرم الله وعفوِ الله، خُوَيدم العلماء، وتراب أقدام الفقراء محمد أبو الهدى ابن السيد حسن وادي ابن السيد علي ابن السيد خزام ابن السيد علي الخزام ابن السيد حسين برهان الدين الخالدي الرفاعي الصيادي غفر الله ذنوبهِ وستر بمحض فضلهِ وعنايتهِ عيوبهُ، آمين. إنَّ أحسن ما انصرفت إليه عزائِم الرجال وأكرم ما وقفت عنده حجاحجة الأبطال مقام العبودية ومرتبة التخلص من تجاوز البشرية، وألطف كأس عذوبتهُ سارية ونشأة لذته باقية كأس التوكل على الله والالتجاء إليه جَلّ علاه، على أنَّ الدنيا فلكٌ يدور وسَفَرٌ وعبور، ودارٌ انقطع فيها أمل الإقامة ودفترٌ يقرأُ يوم القيامة، وقد أشار إلى أدب الإقامة فيها نبينا الرسول الغيور بقوله: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابرُ سبيل وعدَّ نفسك من أهل القبور»[1]. وما هي إلا لقمة وخرقة تقيم صُلب المرءِ وتستر عورته ووراءها الموت والسؤال وتحول الأحوال، فما بقي بعدُ إلا الأمل واختلاف المذاهب في العمل، وإني أرى عُلُوَّ الهمّة بصرف همّتك

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (٧/ ٢١٩)، ٨١ ـ كتاب الرقاق، حديث رقم: (٦٤١٦)، والترمذي في سننه حديث رقم ٢٣٣٣، والبيهقي في السنن الكبرى (٣/ ٥١٦) الجنائز، حديث رقم: ٦٥١٢.

يا أخي عن حركة الفلك وأحوالهِ وكمال الشرف بغضّ طرفك عن الزمان ورجالهِ، وخذ نصيحة مجرّبٍ فَتَقَ رَتقَ الزمان وجال مفاوزه في كل ميدان فما رأى إلا التسليم للفعّال المطلق وبهذا السلامة والنجاح المحقّق، وقد طاب أن أقول لك ما الزمان وما الفلك الذي اشتغلت به الأذهان.

كتابٌ كريمٌ في مطاويهِ حكمةٌ ... إذا نشرت أبدت لنا مقصد الفلكْ
يدور لنقل الحال من كل بارزٍ ... عليك إذا عارضتهُ أو تدر فلكْ
فكن في مجازاة الطريق مشاهدًا ... معانيهِ في الأرضين والسمك والملكْ
ولا تكُ مغمومَ الفؤاد لواقع ... فيوسف بعد السجن والرقّ قد ملكْ
وصبرًا إذا اشتدّ الخناق فإنما ... إشارة فتح الباب كانت بهَيتِ لكْ
ولا تقطع الآمال إن سدّ مأرب ... فلا بد أن يكفيك من صاغ هيكلكْ

بلى يلزم عليك أن تعمل بقولهِ عليهِ الصلاة والسلام: «احفظ الله يحفظك»[(١)] وأن تُجَرِّدَ كلَّ شيءٍ عنك وأن تسلك طريق الناجين وأن تتأدب بآداب العارفين «أولئك أهل الله والسادة الأولى»، وأن تأخذ عنهم قانون الأدب مع الله والخَلق وأن تغنم منهم نتيجة السلوك والخُلُق، فإنهم والله أهل الهِمَمْ العَلِيّة والآداب القدسية والمدارك الناجحة والتجارة الرابحة، عرفوا حَدَّ البشرية وما تجاوزوا مقام العبودية ولا حجبتهم الحجب المستعارة الفانية عما وراءها من الشؤونات الصحيحة الباقية، فألجموا الألسُنَ عن الكلام بغير الحق وصرعوا شوكة النفوس إن تَعْلُو على الخلق وإني تبركًا بآثارهم وتشبثًا بغبارهم وتشبهًا باتّباعهم «إن التشبّه بالكرام فلاح» أدُلك على الطريقة التي تُلْحِقُكَ بأعتابهم وتقرّبك من أبوابهم بقصيدةٍ قصيرةٍ طويلةِ الذيل عند أهل البصيرة وهي:

عمّن تشأ استغن تكن نظيره ... واحتج لمن شئت تكن أسيرَه
ولا ترِ نفسك شيئًا إنها ... مهما تعاظمتَ بها حقيره
صغيرة بل هي لا شيء وكم ... صغيرة تجني وكم كبيره
فبعظام نخرت أقصابها ... إن فخرت فاذكر لها الخميره
بقية من المبال انتظمت ... ومن مبال خرجت فقيره
يذلها الجوع ويضنيها العري ... ولم تزل بينهما كسيره

(١) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٦٢٣) كتاب معرفة الصحابة، حديث رقم: (٦٣٠٣/ ١٩٠١).

هذا ولما كان من أثبت القوم الكرام في مقام العبودية قَدَمًا. وأعلاهم في ميدان الانسلاخ عن نفسهِ عزمًا وهمًا شيخنا الغوث الأوحد والقطب الفرد الأمجد، إمام الواصلين وسيد العارفين، تاج صدور الأقطاب وملجأ أكابر الأنجاب، أبو العلمين قرة عين جدِّه الإمام الحسين، ذكيّ السلسلة شيخ مَن لا شيخ لهُ، الشارب من كأس الصفا المُشَرَّفُ عام حَجِّه بتقبيل يد النبي المصطفى، ملاذ العجزة والمساكين وأستاذ أعيان المقربين شيخ الإسلام والمسلمين، وموئلُ كُمَّلِ الواصلين، من خضعت لهيبة سلطان ولايته هامات فحولِ الرجال وذَلَّ لبأسهِ الأسود والأفاعي، الشريف الخاشع الخاضع المتواضع مولانا وسيدنا السيد الشيخ أحمد محيي الدين أبو العباس الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ وقدس أسراره وشيد بفضلهِ العميم ركن إرشاده ومناره، آمين. أردت أن أجمع أكثر مناقبهِ وأحوالهِ وكراماتهِ وأقوالهِ وسلوكِ طريقتهِ ومدارك حقيقتهِ خدمةً لجنابهِ الرفيع وتقرُّبًا لبابهِ المنيع وعملاً بقول النبي المنتخب: «المرءُ مع مَن أحب»[1].

وغير خافٍ أن أهل الله الدالين على الله الناصرين لشريعة رسول الله لا زالت طبقاتهم تظهر في هذه الأمة المرحومة طائفةً بعد طائفة، سابقة وخالفةً وأول طبقاتهم بعد نبينا تاج الأنبياء العظام عليهِ الصلاة والسلام طبقة الأصحاب والآل الكرام ثم التابعين الأعلام ثم الأولياء الفخام رضي الله عنهم، وقد اشتهر في المشرق والمغرب بين المسلمين شأن الأربعة الأقطاب المعظمين أعني شيخنا ومفزعنا السيد أحمد الكبير الحسيني الرفاعي وسيدنا السيد الشيخ عبد القادر الجيلاني الحسني وسيدنا السيد الشيخ أحمد البدوي الحسيني وسيدنا السيد الشيخ إبراهيم الدسوقي الحسيني، فهؤلاء الأربعة بلا ريب خلاصة بقية السلف وأئمة جميع الخلف وأعلام الأولياء وأولياءُ الصلحاء وأشياخ الخرقة والطريقة وأقطاب الطريقة والحقيقة ثبتت لدى المسلمين غوثيتهم وولايتهم ووجبت عند الموحدين حرمتهم ورعايتهم، وهم رضي الله عنهم بمنزلةٍ واحدةٍ في النسب والمرتبة إلا أنَّ الأقوال تنوعت فيهم وفي مشاربهم وأحوالهم ومذاهبهم، وقد وفق الله لكلِّ واحدٍ منهم من أتباعه من جمع آثاره وذكر أخلاقهُ وأطواره، والآن قد وفقني الله والحمد لله لخدمة رئيس حزبهم وقائد ركبهم صباح المعرفة المنير مولانا السيد أحمد الرفاعي الكبير، فخدمتهُ بهذا الكتاب المستطاب ورتبتهُ على عشرة أبواب، فجاء بحمد الله كتابًا لا نظير لهُ كقلادةِ جوهرٍ في سلسلة، ولذلك سميتهُ: قِلادة الجواهر في ذكر الغوث الرفاعي وأتباعه الأكابر، ولم أقصد فيما اندرج فيهِ من الأقوال الراجحة والمآثر الواضحة إعلاء منزلتهِ العلية وخفض مرتبة أحد إخوانهِ الأولياء أهل المراتب الرفيعة الجلية، وإنما القصد البحث

(١) أخرجه مسلم في صحيحه رقم: (٢٠٣٤)، وأبو داوود في سننه رقم الحديث: (٥١٤٧).

عما منَّ الله بهِ عليهِ وأفاضهُ من نعمهِ إليهِ خلافًا لبعض الجهلة من المتصوفة الذين لا يعرفون مناهج الشريعة الغراء والمحجة البيضاء، فيأخذون بلا علم ولا هدى ولا كتاب بتفضيل مشايخهم الأنجاب على غيرهم من إخوانهم الأئمة الأقطاب، ويرومون بذلك موافقة الخلق أجمعهن وكأنهم يريدون بذلك إحياء أصل في الدين يقودون إليه إجماع المسلمين، وما تلك إلا لإعلاء أنفسهم الخسيسة ولانقطاع ملاحظ عقولهم عن آداب الشرع وميزان الطريقة النفيسة وإن جميع ما بحثتهُ في هذا الكتاب المبارك من السيرة المباركة الرفاعية زبدتهُ أنَّ سيدنا السيد أحمد قدَّس الله سرّه من أكمل المتمسكين بسُنَّة النبي ﷺ وأخلاقه ومن الذين أتحفهم الله بالولاية العظمى وخصَّهم بالكرامة والمراتب العليا، وكل القوم أهل الله بمنزلة واحدة إلا من ثبتت رفعتهُ على بعض إخوانه بالنص، والاعتقاد بهم بركة والتسليم لهم فيما يقبل التأويل سلامة. وإن السيد أحمد قدّس سرهُ من أصح القوم وصلة وأقربهم فيضًا لأن طريقةُ طريقي ومنهجهُ منهجي وأرى أن كلَّ رجلٍ من أتباع الأولياء يجب عليه هذا في شأن شيخه كما يجب على مقلد مذهب العمل بقول صاحب مذهبهِ مع تعظيم باقي الأئمة رضي الله عنهم، خلافًا للممقوتين والجاهلين الذين يعملون بالهوى ويشترون الضلالة بالهدى ويقولون بأقوال جماعة من المجهولين ولو عارضت قول رب العالمين، فما هذا والله بطريق العارفين ولا بسلوك السلف الصالحين، نعم من الأدب أن يُعَظِّم التابع متبوعهُ قلبًا ولسانًا ونطقًا وجَنانًا لكن بشرط تقييد ذلك بنفسِه لا غير، وفي هذا الأدب عند القوم حصول الفيض والخير، وقد أشرت إلى ذلك مع التنبيه على ما تجب مراعاتهُ للسالك من العقائد السنية في الله تعالى ورسلهِ والأولياء الذين هم صفوة البرية في هذه القصيدة اللطيفة الفريدة فقلت:

خذ مذهب العرفاءِ والأحباب — واترك أخيَّ طريق كل محابِ
واعمل بما قال الرسول وما أتى — للناس مشروعًا بخير كتابِ
فالله أوجب أن ننزه ذاتهُ — عن رأي كل مشبه كذابِ
إذ ليس عزّ كمثلهِ شيءٌ ولا — يعزى إلى جهة عظيم جنابِ
نور السما والأرض جلَّ جلالهُ — مجري الرياح مسبب الأسبابِ
وهو الغني بذاتهِ عن حاجب — في شأن قدرتِهِ وعن بوابِ
لا كيف لا تمثيل لا تجسيم لا — تشبيه يصلح فيه للألبابِ
بالعدل يمنع ثم يرزق مَن يشأ — فضلاً وإحسانًا بغير حسابِ
في الأرض قدرتهُ ودولة أمره — فوق السما نفذت على الأربابِ
وجميع ذرّات الوجود فقيرة — مقهورة لجنابهِ بالبابِ

ولهُ تعالى في حقيقة خلقهِ … سرٌ بهِ ذلوا مع الإعجابِ

أمضى عليهم أمره حكم الفنا … فإلى التراب يعود كل ترابِ

فالعبد عبد والإله منزه … عن سوء قول المشرك المرتابِ

قد أرسل الرسل الكرام لخلقهِ … فتراهم للخير كالأبوابِ

نصحوا الخليقة للطريقة وفق أمـ … ـر القادر المتفرد الوهابِ

فهمُ براهين الهدى وأدلة الـ … أكوان للمولى بفصل خطابِ

وهم عبيد الله إلاّ أنهم … أحبابهُ يا سادة الأحبابِ

وأجلّهم قدرًا وأعظمهم هدى … خير الورى المرجو للأرابِ

ذو القدر والجاه العريض ومؤئل الـ … ـمحتاج في يوم شديد حسابِ

صبح الهدى نور الرسالة روحها … والصاعد الراقي لكل حجابِ

أعلى الإله على الشرائع شرعه … وأعزه بصحابهِ الأنجابِ

فأعزّهم مجدًا وافضلهم أبو … بكر إمام أئمة الأصحابِ

بعد النبيين العظام أجل من … داس التراب وأمَّ في المحرابِ

وأجلّ أصحاب ابن هاشم بعده … عمر المعالي هازم الأحزابِ

من شاد دين المسلمين بهمة … عرفت فلا تحتاج للإطنابِ

وإمامهم من بعده عثمان فاذ … كر شأن ذاك الصابر الأوابِ

فهو الإمام مجهز الجيش الذي … شهد الرسول لهُ بحسن مآبِ

وإمامهم زين الصحابة بعده … أعني عليًا طاهر الأنسابِ

صهر الرسول وزوج فاطمة البتو … ل وسيفها المسلول يوم حرابِ

والستة الأعيان قدمهم وقف … عند النصوص بعترة وصحابِ

واذكر شؤون التابعين مراعيًا … خير القرون فهم سباع الغابِ

والأوليا اذكرهم بخير أنهم … تبعوا الرسول بصحة الآدابِ

خدموا شريعتهِ وما اتّبعوا الهوى … متمسكين بأشرف الأسبابِ

صحّت ولايتهم بشاهد حالهم … فعلوا وصاروا وجهة الطلابِ

لهم الكرامات التي ظهرت بنا … كالشمس ما حجبت ببرد سحابِ

شهدت بها مذ شوهدت أهل الملا … وهي اختصاص الواهب السلابِ

ظهروا ببرهان الرسول تسلسلاً … حتى لعهد الأربع الأقطابِ

مردودٌ والشاهد الذي يرده الشرع مجحودٌ، وإذا قال لي كلُّ واحدٍ من الطوائف المذكورة: إن شيخي أفضلُ من شيخك بدليلِ كذا وكذا عندي وقيَّدها بنفسهِ فإني لا أردُّ عليهِ بل أقول لهُ ثَبَّتك الله على محبتك وصدقك لشيخك، وإن عممها ولم يقيدها بنفسهِ وطلب إلزام غيره صفعتهُ بعصا الشرع وعلمت جهله ورديت عليهِ، وأما لو جال في خاطرك سبب اعتقادي بعلوية سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ وأفضليتهِ على غيره. فأقول لك: إن أرفع أقدام الصالحين، القدم الثابت على سنة سيد المرسلين وأحسن الأخلاق الخلق المأخوذ عنهُ والموروث منهُ ﷺ، وقد ثبت عند كلٍّ من الفقراء وأصحاب هذه الخرقة أن السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ أكمل رجال عصره اتباعًا بالقدم والخلق للنبيّ عليهِ الصلاة والسلام، وقد طابق اسمهُ اسمَهُ وحالُهُ حالَهُ وفقرُه فقرَه وكمالُهُ كمالَهُ، وانطبعت حقيقته على سنته وطريقتِه وزهده وتواضعهِ وتعظيم ما كان عليهِ ﷺ، وليعلم لديك أنَّ نسبة الفقر لهُ عليهِ الصلاة والسلام كمال وعلوّ شأن، فإنهُ تجرّد من الأغراض الفانية لعلو منزلتهِ وشرف مرتبتهِ ولم يشتغل بغير ربهِ، مع أن الجبال عُرِضت عليه أن تكون ذهبًا فأباها، وعلى هذا الأثر فقر شيخنا السيد أحمد قدّس الله سرّه، فإنهُ قال رَوَّحَ الله روحه: «بايعتُ الله على ترك الغَرَض والنفس والمال» وشهد لهُ بذلك المنهج والحال، وإني أُجِلُّ منزلة كلٍّ من القوم شرَّف الله مراتبهم وأراهم بعين التعظيم بالسوية إلا مَن قام لهُ دليلٌ زيادة الأتباع للنبي ﷺ أو أمرني بإجلال منزلتهِ مَن هو فوقهُ وميّز لي بينهُ وبين غيره ممن هو دونه.

وأما أقرب الطرق إلى الله فالطريق إليه الشرع وأما ما سمعتهُ من أن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق فتلك طُرُق القبول الداخلة في دائرة الشرع كقول القائل: «الله» وقبوله عند قولها، وكصلاةٍ في جوف الليل وقبولِهِ عندها، أو كصدقةٍ وغير ذلك فإذا تشرَّعتَ فإنك دخلت حيطةً في دائرتها تجد الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق:

شريعة المختار للطرائقِ　　دائرة تجمع للحقائقِ
بعدِّ أنفاس الخلائق انطوت　　طرائق الوصل بها للخالقِ

انتهى. فهذا في الحقيقة خَبَر الطريق وسرُّه وطيهُ ونشره وما زاد عليهِ فمن أهوية النفوس الأمارة والعاقلُ تكفيه الإشارة.

وقد طاب لي أن أفتح سيرتهُ الزكية ومناقبهُ المسكية بهذه القصيدة الفريدة المرصعة بذكر أوصافه العلية الحميدة وبعدها أتبرّك مفتخرًا ببسط شأنه من البداية إلى النهاية أعاد الله علينا من بركاتِه وبركات أهل الولاية آمين.

نشر شعري في مضمر التسطير　　فاح منه أنواع نفح العبيرِ

وترقت نتائج القصد منهُ ... فعلت بالصعود هام الأثيرِ
وسرت في سرادق الملاء الأعـ ... ـلى لبيت الحقيقة المعمورِ
عمل ظاهر بهِ صعد الأمـ ... ـلاك بالذكر وهو للتذكيرِ
فانجلى منهُ في المعارج مجلى ... كلمات كاللؤلؤ المنثورِ
رصعت ذيل خرقة العلم الفر ... د الرفاعي غوث الوجود الكبيرِ
عيلم الصدق صاحب الفتق والرقـ ... ـقُ ضيا الشرق ملجأُ المستجيرِ
كعبة المجد حجر زمزمة القصـ ... ـد فتى المدمدة التنويرِ
شيخ كل الرجال سلطان أهل الـ ... ـحال حلال كل عقد عسيرِ
قبّة الكشف كاشف الكرب باللّـ ... ـه وصبح الوصول للمستنير
أخذ المنح طارحًا ربقة الشط ... ح بطورٍ علا عن التعبيرِ
وبتبر انكساره حول الأعـ ... ـيان والانكسار كالإكسيرِ
وسرت منهُ في محبيهِ أسرا ... ر تجلّت لمبصر وبصيرِ
فرآها أهل النهي باحتفال ... والأداني بكل طرف حسيرِ
يا لهُ من ضئضيء وارد فيض ... ليس في بحره انتها للعبورِ
وعلى ساحل الكرامة منهُ ... سفن الأوليا رست للمسيرِ
أخذوا عنهُ خرقة الخلق في الخلـ ... ـق لإصلاح مضمرات الضميرِ
وارتدوا منهُ كسوة الذل منسو ... جة حر وأين نسج الحريرِ
وقفوا دونهُ وما ثم مرقى ... لكبير في عصره وصغيرِ
فكّ فيهم طلاسم الكنز عن جو ... هر رمز الهدى بعزم شهيرِ
وروى ما روى الكتاب بفعل ... واقتفى سنة البشير النذيرِ
صدر إنجيل نكتةٌ خط فيها ... سرّ آي التوراة بل والزبورِ
وهو فرقان حكمة أوضح الفر ... ق بمسراه بين حق وزورِ
كل علم للعارفين خفي ... بارز في كتابهِ المسطورِ
وانطوى فيه مشهد العالم الأكـ ... ـبر ذوقًا من عالم التقديرِ
وامتطى ذروة الغيوب بقلب ... معرض عن قليلها والكثيرِ
تخضع الأسد حين يذكر ذلاً ... لتجليهِ بانقطاع الزئيرِ
ونصول السيوف ينصل منها الـ ... ـقطع والسم معكس التأثيرِ

ولهيب النيران يخمد فانظر دولة عزّ مجدها عن نظيرِ
وارجع الطرف للعظيمة تقبيـ ـل يد المصطفى بجمٍّ غفيرِ
يا لها من كرامة قابلتها ال أوليا خضّعًا بباع قصيرِ
فاز فيها ونال ما نال منها رغم أنف المكابر المحقورِ
معجزات لجده باهرات أضمرت فيه وارتقت للظهورِ
هذا سيد تباشر أهل الـ ـله غيبًا بجيشهِ المنصورِ
وصغت منهم المسامع قدمًا لتدليهِ من بطون الظهورِ
نزّهوه عن رتبة القطب والغو ث وهذا فضل الكريم القديرِ
علم الله ما حباه فأعلا ه فسبحان ذي الجلال الخبيرِ
نسخة أنبأت عن السنة الغر اء أخلاقهُ بلا تغييرِ
شربتها النفوس كاسات هذي طهرتها من لوث خبث الغرورِ
وجلت بالصفا العبودية المحـ ـضة توحيد عارف مبرورِ
رفضت مذهب الضلالة رفضًا خط سطر الهدى بلوح الصدورِ
وبعليا آياتهِ الغرّ أحيى رسم شرع أضحى قليل النصيرِ
كلما غاب كوكب من هداه قام بالكوكب المضيء المنيرِ
روح رشد قدمًا تجلّى عليها الـ ـلهُ بالمظهر العظيم الكبيرِ
فلذا سار سرها وهو يعلو بتدلي أعوامنا والشهورِ
سيدي يا أبا العواجز ياغو ث البرايا ويا ظهير الحقيرِ
يا أعم الأقطاب نفعًا وأعلى الـ ـكل جمعًا بجبر قلب الفقيرِ
لك من باهر العناية كف كفت الخطب عن صريخ كسيرِ
ولعلياك بين جحفل أهل الـ ـحال سلطان دولة في سريرِ
فاقبل اقبل نسيجةً طرزتها شيم منك رصعت في السطورِ
وعليك السلام من حضرة القد س يوافيك في ممر الدهورِ
والتحيات بالرضا تتوالى لك تغشى ثراك بالتعطيرِ
ما كسا قبرك المبارك برد نسجت بالتهليل والتكبيرِ

وقد آن الشروع في المقصود والتبرك بذكر سيرة الغوث الرفاعي قطب الوجود رضي الله عنهُ وعن إخوانه أولياء الله أجمعين آمين.

قال الإمام الهمام عمدة بني الصديق الكرام مولانا العلاّمة الحجة الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الكازروني الصدِّيقي رحمهُ الله في كتابه شفاء الأسقام في سيرة غوث الأنام عند ذكر نسب السيد أحمد الكبير رضي الله عنهُ بعد أن عدد رجال نسبه الكريم كما سيأتي إلى النبي ﷺ: فقد جاء هذا السيد الكريم من هذه الأصلاب الطاهرة إلى الوجود وتنور بساط البسيطة والخضراء بنور إرشاده وأن الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها واليوم ظهور الدولة الرفاعية وطريقتها الرضوية العلوية على مشرعها نبينا ابن عبد الله أكمل الصلاة والسلام. قلت: وهذا الإمام الجليل هو عم الإمام الفاضل جامع الفضائل أبو طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الكازروني الصديقي الفيروزابادي صاحب القاموس رحمه الله، وذكر الإمام الكبير والسيد الشهير فخر الدين أبو بكر العيدروس نزيل عدن وشيخ شيوخ اليمن ابن وليّ الله الشهير شمس الشموس السيد الجليل عبد الله العيدروس رضي الله عنهما في كتابه النجم الساعي: إن القطب الرباني سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سرّه ورضي عنهُ كان عند السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ فوقع في خاطره في أثناء المصاحبة سؤال من السيد أحمد فسألهُ قائلاً: يا سيدي أنتم من ولد الرسول ﷺ ونسبكم هاشمي فلأيِّ شيءٍ وُصِفتُم بالرفاعي؟ فقال السيد الكبير رضي الله عنه: هي نسبة إلى جدي علي بن رفاعة من بني الإمام علي فالحمد لله جدي الإمام عليّ كرّم الله وجهه وتربيت في بيت أبي الفوارس. ونقل من طريق آخر أنهُ قال لهُ: نسبة إلى جدي علي بن رفاعة فالحمد لله أنا جدي علي ونشأتُ في بيت أبي الفوارس، فقال لهُ الشيخ عبد القادر رضي الله عنهما: أنت الرفاعي حقيقةً أنت ولد الرسول المعروف وقد أعطيت من بين الأولياء هذه المراتب العلية المكرمة المشرفة لكونك من هذا النسب المطهر وبسبب سلوكك طريق الفقر والغنى، وحاصله أنك صرت شيخ الشيوخ وأن سلوكك واسمك ملك الفوق والتَّحت وصرت نورًا على نور يا أبا الصفا، قد أبقيت هذا الاسم من بعدك لأولادك وفقرائك فإن كلَّ مَن سلك طريق الفقر عنك يسمى بالرفاعي إلى انقراض الزمان انتهى. وذكر الشيخ العطار قدّس سرّه في كتابهِ التذكرة حال السيد أحمد وما منَّ الله بهِ عليهِ من المواهب ثم قال: وإن مدد السيد أحمد الكبير كان مَن مدد جده سيد المرسلين عليهِ أفضل الصلاة والسلام، وما وصل إلى هذه المرتبة إلا ببركة سلطان الأنبياء فإنهُ فرع تلك الشجرة الزكية الطاهرة العلية اهـ. وذكر الشيخ الإمام العارف بالله عبد الرّؤوف المناوي رحمهُ الله في طبقاتهِ لما ترجم السيد الكبير أحمد بن علي بن يحيىٰ بن ثابت بن حازم بن أحمد بن رفاعة الشيخ الزاهد الكبير أحد الأولياء المشاهير أبو العباس الرفاعي المغربي شريف، نما روض شرفه وهمى على العالم غيث سلفه، كان سيدًا جليلاً عظيمًا صوفيًا نبيلاً وأطنب المترجم نفعنا

الله بهِ وأطال وأحسن المقال وكتب ما يسر البال، وسيأتي بعض مقولاته المندرجة في ترجمتهِ في محلها إن شاء الله، وقال صاحب الترياق: بنو رفاعة في المغرب بطن من أولاد رفاعة حسن ابن المهدي الحسيني المكي ومنهم شيخ الشيوخ إمام الطوائف أبو العلمين سيد أولياء عصره السيد أحمد الرفاعي البطايحي صاحب مدُّ اليد وأول الرجال ابن أبي الحسن علي بن يحيىٰ بن ثابت بن حازم بن أحمد بن علي بن حسن المعروف برفاعة وإليهِ ينتمي بطن بني رفاعة هؤلاء رضي الله عنهم أجمعين، وذكر الشيخ العارف بالله عبد الوهاب الشعراني قدس سره في طبقاتِه الوسطى أنَّ الشيخ الإمام العالم الرباني المجمع على جلالتِهِ الشيخ عبد العزيز الديريني رضي الله عنهُ ذكر مشايخه في أرجوزة مَطْلعها:

الله أرجو ليس غير الله	والله حسب الطالب الأوّاه
ثم الصلاة والسلام النامي	على النبي سيد الانام
وآله وصحبه وعترته	وكل مَن تابعهُ من أمته

إلى أن قال رضي الله عنهُ:

وكل من والاه ربّ العزّة	فهو الذي بعزّه أعزّه
وقد تعلّقنا بقطب العصرِ	منهم فنحن في سناه نسري
شيخ الأنام أحمد الرفاعي	حين أتانا من حماه داعي
فنحن بين أحمد وأحمد	نسير في نور هدى ونهتدي
رسولنا نبينا محمد	وشيخنا القطب الشريف أحمد

وذكر الشيخ الجليل الكامل جامع المعالي والفضائل الإمام الهمام قاسم بن محمد بن الحاج رحمهم الله في كتابهِ أمُّ البراهين في تصحيح اليقين بإشارات الصالحين ما نَصُهُ: إن قطب الزمان السيد الجليل الشيخ الكبير السيد أحمد بن أبي الحسن الرفاعي الحسيني قدّس الله سرّه العزيز، كان من أجل القوم إمكانًا وأتمهم أخلاقًا وإحسانًا، وقد روى لنا الشيخ الجليل والهمام الفضيل أبو حفص عمر الفاروثي رحمهُ الله قال: كنا في مجلس الشيخ الكبير السيد أحمد بن أبي الحسن الرفاعي وحولهُ جماعة من فحول الأبطال وأكابر الرجال وهم يتحادثون في حضرة الشيخ بعلوم غريبة وأسرار عجيبة وهو جالس بينهم يرد جوابهم، فبينما هم كذلك إذ قام الشيخ الكبير السيد أحمد على قدميهِ كاشفًا رأسهُ وقال: «الله أكبر الله أكبر. ظهر الحق وبان الصدق. نوديت من الحضرة العلية أن يا أحمد قم وزر بيت الله الحرام وزر النبي عليهِ السلام فإن هناك دعوة من الرسول

يوصلها إليك، فقال كل مَن في المجلس سمعًا وطاعةً وأنشد بعضهم يقول في حضرة الشيخ:

مرنا بأمرٍ فإنا لا نخالفه وحد حدًّا فإنا عنده نقف

فتأهب للسفر فطلع معهُ جمٌّ غفيرٌ ومحفلٌ كبيرٌ وساروا طالبين مكة المشرفة والمدينة المنورة، فلما وصلوا المدينة مدينة النبي ﷺ وقف تجاه حجرة النبي عليهِ الصلاة والسلام وأنشد:

في حالة البعد روحي كنتُ أرسلها تقبّل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه دولةُ الأشباح قد حضرت فامدد يديك لكي تحظى بها شفتي

ثم قال: السلام عليك يا جَدَّاه، فقال لهُ من داخل الحجرة: وعليك السلام يا ولدي وانشقَّ تابوت الرّسالة ومدَّ يده الشريفة ﷺ فقبّلها وبايعه بيعةً كليةً وأمره بلبسِ الشاشِ الأسود، وأن يصعد على المنبر وأن يعظَ الناس، وقال لهُ ثانيًا: لقد نفع الله بك أهل السماء وأهل الأرض وهذه البيعة متصلة بك وبذريتك إلى يوم القيامة والحاضرون يشهدون بأبصارهم ويسعمونهُ بأسماعهم رضوان الله عليهم أجمعين، وكان ممن حضر في تلك السنة من الحجاج وشاهد ذلك بعينهِ من فحول الرجال سيدي حيوة بن قيس الحراني، وسيدي علي بن خميس، وسيدي عدي بن مسافر الشامي، وسيدي عبد القادر الجيلاني، وسيدي عقيل المنبجي وسيدي أحمد الزعفراني وسيدي عتيق وغيرهم قدَّس الله أسرارهم، وكان بقية من حضر من الناس تسعين ألفًا انتهى. قلت وفي هذه القصة بعد الكرامة من شهادة الرسول ﷺ لسيدي أحمد بصحة النَّسب ما يكفي شرفًا وفخرًا، ولا يخفى ما صرّح به الإمام الصفوي في نزهتهِ في باب الزِّيارة من أن إنكار هذه الكرامة يؤدي إلى سوءِ الخاتمة والعياذ بالله لما فيهِ من إنكار معجزة النبي ﷺ وكرامة الولي قدس سرّه العزيز، وقال في الشجرة المباركة العلوية شجرة السادات آل علوي المشهورين في حضرَموتَ والحجاز ما نصه: الشيخ الإمام أحمد الرفاعي ابن علي بن يحيىٰ بن ثابت بن حازم بن أحمد بن علي بن الحسن، قلتُ: وهذا الملقب برفاعة كما تقدم ابن المهدي ابن أبي القاسم محمد بن الحسن بن الحسين أحمد بن موسى الأصغر بن إبراهيم المرتضى بن الإمام موسى الكاظم ومن هنا فالنَّسب معلوم، ثم قال في الشجرة العلوية عند ذكر اسم سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه: لهُ المناقب الجليلة والفضائل الجزيلة والأخلاق الجميلة خصوصًا التواضع فقد حاز منهُ ما أطرب السامع وشنَّف المسامع رضي الله عنهُ ونفعنا بهِ انتهى.

وذكر مولانا العارف بالله شيخ الإسلام الحجة الولي الجليل أحمد بن جلال المصري خليفة شيخ الطوائف في عصره مولانا أبي بكر زين الدين الخوافي قدّس سرُهما في كتابِهِ جلاء الصداءِ عند ذكر نسب سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنه ما نصه: اعلم أرشدك الله إلى المنهج القويم وسلكك الطريق المستقيم أن أقرب القربات وأعلى المراتب وأفضل الدرجات وأجزل المواهب قرابة النبي المجتبى الرؤوف الرحيم ووراثة المصطفى بالقرآن الكريم والخلق العظيم، كيف لا والعالم مخلوق لهُ بأسرهِ والأنوار كلها مستفاضة من نور بدرهِ، ولولاهُ لما خلق الأفلاك ولما أُكرِم آدم بسجدة الأملاك، علا فوق كل قدر قدرهُ وصفى عما سواه تعالى سرهُ، فعليهِ صلواتهُ وسلامه وبركات الله وإكرامه، فقرابتهُ إما صورية وإما معنوية: فالصورية هي المراد ها هنا لمن هو من بني فاطمة فحسب ويقال لها القرابة الطينية أيضًا، وورد في شأن هؤلاء الكبار كل حسب ونسب ينقطع إلا حسبي ونسبي كما روي في الأخبار، وأما القرابة المعنوية التي هي الوراثة المصطفوية لمن اتبع شمائلهُ وأفعاله المرضية واقتفى خصائله وأحواله العلية ويقال لها القرابة الدينية أيضًا، وفي شأنهم العالي ورد كل تقي آلي، واعلم أن الله تعالى جمع لهذا الولي العظيم والسيد الصفي الكريم ولأكثر آبائهِ الغرّ الكرام وأجداده الأئمة العظام هاتين القرابتين العظيمتين والخصيصتين الجليلتين، فأما قرابتهُ المعنوية أمرٌ علا ظهوره بين الأجانب والأقارب وبدا بدر نوره في المشارق والمغارب وأما قرابتهُ الصورية فأمر عند العلماء المحققين محقق ومشهود لدى العرفاءِ المدققين مبين ومذكور، وأما كيفية اتصال نسبه إلى حضرة المصطفى فكذلك هو سيدنا محيي الدين والشريعة والصدق والطريقة والحق والحقيقة أبو العباس السلطان السيد أحمد الكبير ابن أبي الحسن علي بن يحيىٰ بن الثابت بن الحازم بن أحمد بن علي بن الحسن الملقب برفاعة المكي ابن المهدي ابن أبي القاسم محمد بن الحسن بن الحسين بن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين علي ابن الإمام المشهور زبدة السادة الأئمة وعمدة قادة الأمة الذي امتحن بأنواع المحن والبلاء أمير المؤمنين أبي عبد الله الحسين الشهيد بكربلاء ابن إمام أئمة الأولياء وقائد أزمة الأصفياء ذي السوابق الكبرى والمفاخر والمناقب الوفرى الموصل إلى الفوز الأبدي والهادي إلى النعيم المقيم السرمدي المشرف بمزية: وإن تأمروا عليًا تجدوه هاديًا مهديًا يسلك بكم الطريق المستقيم الصادق في قوله: «إنَّ بين جنبيَّ لعلمًا جمًّا» السابق بقولهِ ﷺ: وأقدمهم سلمًا، المخصوص بأنهُ باب مدينة العلوم والحكم المنصوص لهُ من بين الورى بولاية العرب والعجم، البدر الأتم والخير الأعم ذي الهدي الأكمل والشرف الأجمل والكأس الأوفى والمشرب الأصفى، السيد الضرغام الذي كلُّ

مقامٍ شريف لهُ ممنوح المشبه بكبار الأنبياء كآدم وإبراهيم ونوح، الذي قدره كاسمه علي أميرِ المؤمنين أبي الحسن علي رضي الله تعالى عنهُ أجمعين.

وذكر الإمام الهمام شيخ المشايخ سلطان الوعّاظ والمحدثين وليّ الله الشيخ عز الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الفاروثي الواسطي قدس سرّه في كتابه النفحة المسكية ما نصهُ: «فليعلَّم أن رأس هذه العصابة الرفاعية وجد هذه الذرية الأحمدية شيخ المشايخ الجليل الجبل الراسخ صاحب المناقب العظيمة والمآثر الكريمة تاج أهل القبول المشرف بتقبيل يد الرسول أبو العلمين غوث الثقلين من ثبتت كراماته بالتواتر بالمشرقين والمغربين، الخاشع الخاضع والشريف المتواضع ملجأنا ومفزعنا وشيخنا السيد الشيخ أحمد أبو العباس الكبير الرفاعي الحسيني رضي الله عنهُ، ولد رضي الله عنهُ في أم عبيدة في دار جده لأمه شيخ شيوخ زمانهِ الشيخ أبي سعيد يحيىٰ النجاري الأنصاري في سنة اثنتي عشرة وخمسمائة من صلب شيخ القرَّاءِ والمحدثين سلطان الزاهدين إمام العارفين السيد علي أبي الحسن ابن يحيىٰ المكي ويقال له: المغربي. ويحي هذا أول قادم من هذه العصابة إلى العراق، وصل البصرة في عام خمسين وأربعمائة واشتهر فيها بالزهد والمعرفة والصلاح وعكفت عليه القلوب ثم بعد مدة تزوج بالأصيلة الحسيبة عَلما الأنصارية بنت المولى الجليل الحسن أبي سعيد النجاري والد الشيخ أبي سعيد يحيىٰ النجاري فأولدها سيدنا الشيخ علي أبا الحسن والد السيد أحمد الكبير رضي الله عنهم. فلما كبر قدم البطايح وسكن أم عُبيدة وتزوج بنت خالهِ الست فاطمة بنت الشيخ الإمام يحيىٰ النجاري رضي الله عنهُ فأولدها سيدنا السيد أحمد الكبير والسيد عثمان والسيد إسماعيل والسيدة ست النسب. فالسيد عثمان والسيد إسماعيل تزوجا وأعقبا ذرية مباركة فهم السيد أحمد بن إسماعيل الأخضر، والسيد فرج بن عثمان، والسيد مبارك وأولادهم، وأما السيدة ست النسب فقد تزوجت بابن عمها السيد سيف لدين عثمان ابن السيد حسن ابن السيد عسلة ابن السيد الحازم الحسيني الرفاعي، وإن السيد حسن والد السيد سيف الدين عثمان هذا قدم إلى العراق صغيرًا دون البلوغ مع ابن عمهِ السيد يحيىٰ نزيل البصرة ابن السيد الثابت ابن السيد الحازم الحسيني الرفاعي فرباه ابن عمهِ السيد يحيىٰ وأرشده وأقرأه علوم الدين. ثم لما استوى زوَّجهُ ببنت الشيخ الإمام أبي الفضل فأولدها السيد سيف الدين عثمان المتقدم ذكره، فلما بلغ أشدهُ تزوج كما ذكرناه ببنت ابن عمهِ الشريفة ست النسب أخت سيدنا أحمد الكبير، فأولدها السيد علي والسيد عبد الرحيم والسيدة ست الكرام وسيأتي ذكر السيد علي والسيد عبد الرحيم. وأما السيدة ست الكرام فإنها تزوجت برجل يقال لهُ محمد بن حرثا وكان من أكابر أركان البيوت الصلحاءِ عالي القدر محفوظ الحرمة جليل المكانة. فأولدها سيدي أحمد ويعرف

بابن ست الكرام، وقد غلب اسم أُمهِ على اسم أبيهِ لأنَّ أباه لم يكن من أهل البيت رضي الله عنهم، وأعقب سيدي أحمد ابن ست الكرام بنتًا سماها عائشة تزوج بها السيد نجم الدين أحمد الرفاعي، ولم يعش لسيدي أحمد ابن ست الكرام غيرها، وأعقبت ست الكرام بنتًا اسمها صفيةَ ولها ذرية صالحة.

تنبيه: ولما كانت ذرية السيد عبد الرحيم والسيد علي وَلَدي السيد سيف الدين عثمان ابن الرفاعي رضي الله عنهم من بنتي خالهما وابن عم أبيهما سيد العارفين مولانا السيد أحمد أبي العلمين رضي الله عنهُ استحسن أولاً ذكر نسبة السيد أحمد إلى جدّهِ رسول الله ﷺ، وكيفية اتصال هذا الفرع الكريم بذلك الأصل العظيم، وقد تقدم أن السيد أحمد رضي الله عنهُ ابن السيد أبي الحسن علي بن يحيىٰ. ويحيىٰ هذا ابن الثابت بن الحازم بن أحمد المعروف بابن رفاعة وإليهِ ينتمي بطن بني رفاعة هو لُؤَي كما ذكره صاحب الترياق مفتي الثقلين تقي الدين ابن عبد المنعم الواسطي، والحسن رفاعة المكي المذكور هو نزيل المغرب. هاجر من مكة إلى المغرب سنة سبع عشرة وثلثمائة وهي السنة التي قتل فيها ابن محارب أمير مكة وأصحابهُ وحصل ما حصل من القرمطي عليهِ اللعنة في بيت الله من الهدم والنهب والقتل، وفي هذه السنة هاجر كثير من الأشراف إلى البلاد السائرة، وكان ممن هاجر بأهلهِ وبني عمهِ إلى اليمن محمد بن عيسى من آل علي العريض الحسيني، ومنهم مَن هاجر إلى نيسابور والعجم والهند، والتحق رفاعة رضي الله عنهُ بقبيلة من قبائل العرب بالقرب من إشبيلية، وعظَّمهُ ملوك المغرب وانقاد إليهِ أعيانها وعلماؤها وكبر أمرهُ واشتهر ذكره وبقيت ذريتهُ في المغرب إلى عهد السيد يحيىٰ بن الثابت جد سيدنا السيد أحمد، قال في الترياق: ولهم بقية في المغرب. وإن رفاعة الحسن المكي هذا ابن المهدي ابن أبي القاسم محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن موسى الثاني ويقال لهُ الأصغر بن إبراهيم المرتضَى ابن الإمام علم الإسلام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام الهمام زين العابدين علي الأصغر المعروف بالسجاد ابن الإمام الشهيد السعيد السبط الأعظم أبي عبد الله الحسين الشهيد بكربلاء ابن الإمام الأعظم مقتدى العرب والعجم الهزير الغالب باب مدينة العلوم أسد الله علي بن أبي طالب كرّم الله وجههُ ورضي الله عنهُ وعنهم أجمعين. رُزِقهُ من زوجته الطاهرة البتول سيدة النساءِ فاطمة الزهراء رضي الله عنها وعليها السلام ابن سيد المرسلين وأفضل المخلوقين وأشرف العالمين أبي القاسم سيدنا محمد ﷺ ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن قريش بن ملك العرب بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان من بقية آل إبراهيم خليل الله عليهِ الصلاة

وقال رجل مَوْصلي لشيخنا الشيخ عبد الرحمٰن جمال الدين الحدادي: يا سيدي إني رأيت بعضًا من كتب التاريخ ذكر نسبة الشيخ عبد القادر الجيلاني وسكت عن نسبة السيد أحمد الرفاعي مع أنهُ عربيُّ الأصل وأشهر منهُ بالسيادة، وقد قال بعض علماءِ فارس: إن الشيخ عبد القادر بشتبري النسب وهكذا يقول بعض أهل بيتهِ! فقال شيخنا قدس الله سرَّه: اكفف يا ولدي عن الخوض واعلم أن مَن كتب التاريخ سكت عن نسبة الاثنين إلا أن بعض الصوفية ذكر نسبة الشيخ عبد القادر حرصًا عليهِ لكيلا يطعن في نسبهِ مَن لا علم لهُ لما اشتهر عنهُ أنهُ من العجم ولما قيل فيهِ أنهُ بشتبري النسب، والأصل الصحيح إنما هو رجل فاطمي لا ريب في نسبتهِ إلى الجد الأعظم ﷺ سكن أجداده فارس إلى زمانهِ قدس سرَّه ورضي الله عنهُ. وهذا ما يجب علينا اعتقاده فإن الأولياءَ أعلم منا بالأدب الديني والوجه الشرعي ولو لم تكن نسبتهُ ثابتة الوصول إلى الرسول لما ادعاها قط، وأما ما ذكرتهُ من شهرة السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ بالسيادة وكونه عربي الأصل والمنشأ فهو السبب الذي اعتمد عليه الصوفية وسكت عن ذكر سلسلة نسبهِ علمًا بأنها أشهر من أن تذكر وأوضح من أن تُحرَّر وكأنهم قالوا:

متى ما قيل نجم الصبح حيًّى ... تعين أن مركزه السماءُ

قلت: وأشهر من شمس الظهيرة ما ثبت لسيدنا أحمد الرفاعي من النسبة الواضحة المحمدية والوصلة المسلسلة الحسينية متواترًا في جميع الأمصار والنواحي والأقطار ولست بقائلٍ ما قلتهُ على وجه إقامة الدليل:

فليس يصحُ في الأذهان شيءُ ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وإنما هو لذاذة بذكره وشمامة من عطره كيف لا وقد شهد لهُ نبينا سيد العرب والعجم بصحة الوصلة والنسب، وذلك عام حجه رضي الله عنهُ حين وقف تجاه الحجرة العطرة النبوية قال: السلام عليك يا جدي فقال له عليهِ أفضل صلوات الله: «وعليك السلام يا ولدي» فتواجد لهذه المنحة الجليلة وقال منشدًا:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها ... تقبل الأرض عني وهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت ... فامدد يديك لكي تحظى بها شفتي

فمدّ لهُ رسول الله ﷺ يده الشريفة من قبره الكريم فقبّلها في ملاءٍ يقرب من تسعين ألف رجل والناس ينظرون يد النبي ﷺ ويسمعون كلامهُ، قال والدي نفعنا الله به: وقد كان والدي عز الدين عمر الفاروثي قدس سره من حجاج ذلك العام وشاهد ذلك بعينهِ وقال: كان مع الزوار فيمن حضر الشيخ حيوة ابن قيس الحراني والشيخ عبد القادر

الجيلي المقيم ببغداد والشيخ عدي الشامي وشاهدوا ذلك هم وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، وقد أدركت بحمد الله خمسة رجال من حجاج ذلك العام ومن الذين تشرفوا بذلك المشهد الكريم نفعنا الله بهم له. وقال صاحب المشرع الروي في مناقب بني علوي في كتابهِ المذكور عند ذكر رجال الخرقة ومشايخها: ومنهم شيخ الإسلام والمسلمين وموئل الأولياءِ الوارثين وأكمل الأئمة المجتهدين شهاب الدين أحمد بن أبي الحسن الرفاعي الحسيني اهـ. قلت وقد أبدع وأفصح سيدنا أحمد الفاروثي في النفحة المسكية فيما نقلهُ من أن المؤرخين سكتوا عن ذكر نسب سيدي أحمد الرفاعي وسيدي عبد القادر الجيلاني، وبعض الصوفية التزم ترجمة نسب سيدي عبد القادر وذلك لكونهِ نشأ وأهلَهُ أيضًا في بلاد العجم، ولما قالهُ بعضهم ناقلاً عن أهل بيتهِ أنهُ بشتبري النسب فكانت ترجمة نسبهِ حرصًا عليهِ كيلا يطعن في نسبهِ من لا علم لهُ وإلا فهو فاطمي النسب لا ريب في صحة نسبهِ إلى النبيّ ﷺ، وأن بعض الصوفية الذين سكتوا عن ذكر نسب السيد أحمد الرفاعي إنما كان ذلك لاعتمادهم على شهرتهِ بالسيادة ولكونهِ عربي الأصل والمنشأ، فما أحسن هذه الفكرة الرائقة والبصيرة الحاذقة ولينظر في القاموس فإنهُ ذكر أن الشيخ عبد القادر الجيلي بشتبري النسب وقال هكذا نسبهُ حفيد القاضي أبو صالح الجيلي، وفي هذا إيهام لمن لم يعلم صحة نسب القطب الجيلاني قدس سرّه منَ العامة وأصحاب الغفلة عن الحقائق، وقال عند ذكر أم عبيدة: فيها قبر السيد أحمد الرفاعي، وقال عند ذكر شاذل: منها السيد أبو الحسن الشاذلي من صوفية الإسكندرية، وفي هذه العبارة تصريح بسيادة السيدين قدس سرهما ومثل هذا ما ذهب إليهِ بعض مَن لم نذكر أسماءهم سترًا لغلطهم في حق علم السادات الحسنية السيد عبد القادر الجيلي الحسني قدس سرّه، وأما من سكت من الصوفية عن ترجمة نسب سيدي أحمد سواءٌ كان من المتقدمين الذين لحقوا بعهد الفاروثي أو من المتأخرين كالشعراني والمناوي فإنهم درجوا في كتبهم ما أفاد المقصود من سيادتِه المعلومة الشهيرة التي لا تحتاج توضيحًا ولا تفتقر إلى البيان لأنها في الألسن مذكورة وبالتواتر ثابتة مأثورة وقد سبق لك ما درجه الشعراني في طبقاتِه الوسطى والمناوي أيضًا وأما من نسبه منهم إلى رفاعة فقد علم برفاعة من هو ونسبه إليهِ علمًا بأنهُ عين آل الحسين وزبدتهم في عصره بلا مين[١]. وأما من نسبه إلى القبيلة فما أخطأ على أن رفاعة الحسن المكي هذا رضي الله عنهُ لحق بالغربِ كما تقدم وأقام مع قبيلة من العرب بها بالقرب من أشبيلية وأعقب هناك الذرية كما ذكرهُ الفاروثي في النفحة المسكية وصاحب الترياق وغيرهما رضي الله عنهما وأما المؤرخون كابن الأثير

---

(١) بلا كذب (لسان العرب: مادة مَيَنَ).

وابن خلكان وأبي الفدا وغيرهم فما تعرضوا إلا إلى أنسابهم ولا إلى عالي مقاماتهم جميعًا، واقتصروا على قولهم توفي فلان وكان صالحًا وتوفي فلان وكان على حال، وأطالوا عفا الله عنهم بتراجم مَن لا يعبأ بهم من الظلمة وأبناء الدنيا المحجوبين عن الله على أن بناء كتبهم التاريخية على الوقائع الزمانية لا على فضائل الرجال وأنسابهم، ألا ترى ابن الأثير كيف ذكر في حوادث سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ما نصه: وفيها توفي أبو العباس أحمد بن علي بن الرفاعي من سواد واسط وكان صالحًا ذا قبولٍ عظيم عند الناس ولهُ من التلامذة ما لا يحصى. وذكر في حوادث سنة إحدى وستين وخمسمائة ما نصهُ أيضًا: وفيها في ربيع الآخر توفي الشيخ عبد القادر بن أبي صالح أبو محمد الجيلي المقيم ببغداد ومولده سنة سبعين وأربعمائة، وكان من الصلاح على حال وهو حنبلي المذهب ومدرسته ورباطهُ مشهوران ببغداد. انتهى بحروفهِ.

وعلى ذلك نهجت بقية المؤرخين والمؤلفين الذين لم يبحثوا عن الأنساب والأحوال خاصة. فما أجهلَ مَن أراد بحمقه وقاصر عقله أن يتخذ عبارة صاحب القاموس وغيره مثلاً وشاهدًا على إنكار شرف السيد الجيلاني الذي اشتهر في المشارق والمغارب، أو توهّم أن يجعل عبارة المؤرخين المقتصرة حجة على جحود سيادة السيد الرفاعي الذي طلع شرفهُ في سماء السيادة مطلع الشموس والكواكب، وما أجراه على الله ورسولهُ والآل العظام إذ تصدى لمعارضة شرف نبوي أطبق عليه من المسلمين الخواص والعوام ولا يظن هذا إلا بفاجر خاسر أو بمن لا يؤمن بالله واليوم الآخر، وحسبك ما في الأحاديث النبوية من النهي عن الطعن بأنساب الناس فضلاً عن هؤلاءِ السادات الذين خرق الله لهم العادات وأكرمهم بأعلى مراتب الولاية وخصهم منهُ بمزيد الشرف والعناية، وما القصد من ذلك والبحث عن كل ما هنالك تقوية شرفهم فإنهم غنيون عن التقوية بالأدلة والنقول على أنهم فروع شهدت لهم أخلاقهم بصحة الوصول إلى الأصول وحري بهم وبمثلهم بأن يقال لهم هؤلاء والله أولاد الرسول وحشاشة كبد البتول رغم الشانيء المخذول:

فروع من أصول عالياتٍ ... فأكرم بالفروع وبالأصولِ

تسلسل أصلهم خَلقًا وخُلقًا ... لجدهم التهامي الرسولِ

ولينظروا أيضًا في الطبقات الشعرانية الوسطى والكبرى فإنهُ لم يدرج نسبة أبي الحسن الشاذلي ونسبه إلى قريتهِ فقط مع كونه رضي الله عنهُ من أشهر آل الحسن رضي الله عنهم، ونسب السيد أحمد البدوي إلى قبيلة بني بري من عرب الشام مع كونهِ من أشهر آل الحسين، وقال عند ذكر الدسوقي: الهاشمي ولم يدرج نسبه مع كونهِ من أجلاّء

بني الحسين المشهورين في المشرقين والمغربين، ولم يكن ذلك منهُ قدس سرُّه قصورًا بحق شرفهم أو عدم اعتناءٍ منهُ بشأنهم، بل كان ذلك اعتمادًا على شهرتهم، وطبقاته أساسها البحث عن أخلاق الصوفية وأحوالهم وبعض مناقبهم وكلماتهم لا غير، ألا ترى مَن دُون لهؤلاء السادات كتبًا في مناقبهم والتزم ذكر منشأهم وأصلهم كيف أوضح عن أنسابهم وفروعهم وأصولهم ومراتبهم وأطال في شرح مناقبهم، فمن أراد الوقوف كل الوقوف على نسب سيدنا السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنهُ وحالهِ فليطالع جلاء الصدا مؤلّف شيخ الإسلام عز الدين أحمد بن جلال المصري الذي ألفهُ في سيرتهِ رضي الله عنهُ، وكتـاب أُم البراهين مؤلّف الإمام الهمام قاسم بن الحاج الذي ألفهُ في شأنهِ قدس سره وكتاب ترياق المحبين مؤلف مفتي الثقلين الإمام تقي الدين بن عبد المنعم الواسطي الذي ألفهُ في شرفهِ وحالهِ أمدنا الله بمدده، وكتاب شفاء الأسقام مؤلّف الشيخ الإمام الشيخ إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الكازروني الصدِّيقي الذي ألّفهُ في بيان فضائلهِ ومعاليهِ نفعنا الله بهِ، وكتاب النجم الساعي مؤلف الولي الأعظم السيد الشريف أبي بكر العيدروس العدني الحسيني، الذي ألفهُ في شرح كمالهِ وعلو شرفه وحاله بلَّ الله ثراه، وكتاب البهجة الرفاعية مؤلّف الشيخ الإمام عبد العظيم المنذري الذي ألفهُ في شامخ مرتبتهِ وذكر عالي سيادتهِ نور الله مرقده، وكتاب قرة العين مؤلف المولي الحجة شيخ الإسلام سراج الدين البغدادي الذي ألّفهُ في سيرتهِ وعلى شرفهِ وحذق بصيرتِه، وكتاب النفحة المسكية مؤلف الشيخ الإمام الواعظ المحدث عز الدين أحمد الفاروثي الواسطي الذي ألّفهُ في نسبهِ وطريقهِ وحسبهِ عطف الله علينا قلبهُ، وغير ذلك من الكتب المنوّرة بذكره المعطرة بعطره المؤلفة فيهِ خاصةً غير ما ترجمهُ بهِ أماجد الرجال ضمن كتبهم مع غيره.

ومن أراد الوقوف كل الوقوف على نسب سيدنا عبد القادر الجيلي الحسني رضي الله عنهُ فليطالع بهجة الأسرار مؤلّف الشيخ الأجل نور الدين علي الهمداني الذي ألفها خاصة بذكر شرفهِ ونسبهِ وطريقهِ وعلو حسبه حشرنا الله معهُ وفي خدمتهِ وغير ذلك من الكتب المدونة بفضائلهِ ونسبه وشمائله التي لم أقف عليها وأسماؤها مشهورة لدى القادرية، عدا ما ترجمهُ بهِ أهل الكمال في كتبهم مع غيره. ومَن أراد الوقوف كل الوقوف على نسب السيد أحمد البدوي الحسيني رضي الله عنهُ فليطالع البهجة الأحمدية مؤلّف سيدنا تاج الدين الموصلي الذي ألفها في ذكر شرفهِ الطاهر وما لهُ من المناقب والمفاخر جعلنا الله من المحشورين في زمرتهِ تحت لواء جده ﷺ وغيرها من الكتب المدونة بفضلهِ الباحثة عن شرفِه وأصلهِ، عدا ما ترجمهُ بهِ أئمة الشيوخ الراسخين في كتبهم مع غيره.

ومَن أراد الوقوف كل الوقوف على نسب سيدنا السيد إبراهيم الدسوقي الحسيني رضي الله عنهُ فليطالع البهجة الدسوقية مؤلِّف الإمام الفاضل الشيخ محمد البلقيني الذي ألفها بذكر زكي نسبتهِ وعليّ همتهِ أمدنا الله بمدده ونفعنا بهِ، وللشاذلي أبي الحسن الحسني رضي الله عنهُ من الطائفة الشاذلية من خدمه وذكر حسبه ونسبه وأوضح عما لهُ من الشرف والمرتبة في كتب كثيرة، وترجم في كتب أخر مع غيره وذكر جليل أصلهِ وأوضح فضله، والحاصل أن نسبهم العالي أشهر من الصباح المتلالي لا ينكره إلا الأعمى ولا يجهلهُ إلا مَن دهمته الجهالة الدهما، بلى:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

ولكن يقال للحاسد والجاهل الجاحد والمكابر المعاند:

وهبهم يجعلون الشمس ليلاً ... أيعمى العالمون عن الضياء

أو يقال لهم:

إذا عظم الإسلام شرقًا ومغربًا ... رجالاً فهل تؤذيهمُ نبحة الكلب؟

ولنرجع إلى المقصود فنقول قد تبيّن لك أن والد سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي حسيني النسب هذا لآبائهِ ولهُ نسبة إلى عمهِ الإمام الحسن من جده الإمام محمد الباقر رضي الله عنهُ، فإن أمهُ فاطمة بنت الحسن المثنى ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهُ، ولجده السيد يحيىٰ نسبة للحسن رضي الله عنهُ من أمهِ ولهُ نسبة إلى الصديق الأكبر أبي بكر رضي الله عنهُ من جعفر الصادق رضي الله عنهُ فإن أمهُ فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنهم، ولهُ أنساب أخر جمعتها الأُمهات الطاهرات وعلم كذلك أن أمهُ أنصارية، وعلمت أن رجال نسبتهِ الطاهرين من أعظم مَن اتفق على علو منزلتهم بين المسلمين في المشرقين والمغربين أبوه رضي الله عنهُ عين زمانِه وقدوة أقرانِه. وماذا يكون المدح فيهِ وجده محمد الراقي بنعليهِ للسماء، ومع ذلك فأخلاقه كأخلاق جده وسلوكه وعهده طبق سلوكه وعهده، لم يقنع بالشرف النسبي حتى ألحقهُ بشرف الاقتداء فصار من أشهر أعلام الهدى رضي الله عنهُ وعن أسلافهِ وأولاده الأقطاب العظام وأخلافه أجمعين آمين. وأمهُ رضي الله عنها فاطمة الأنصارية النجارية كانت على قدمٍ عظيم من الزهد والعبادة والصلاح والتقوى والصبر والزهد وحسن الأخلاق وكمال الصفا، وقد كان أخوها سيدنا الشيخ منصور البطايحي الرباني رضي الله عنهُ يعظم قدرها ويجل منزلتها ويعرف حق حرمتها ويوصي أهل بيتهِ بإعلاء قدرها ويقول: إنها من أفضل نساءِ وقتها ومن أعبد نساءِ عصرها وأكملهنَّ وأعظمهنَّ حالاً وأطهرهنَّ أخلاقًا، وقد بشرها

رسول الله ﷺ على لسان أخيها بولدها السيد أحمد الكبير رضي الله عنهُ أنهُ يأتي بعد أربعين، وأنه كما أن النبي رأس الأنبياء فهو كذلك رأس الأولياء، وكانت ولادتهُ بعد أربعين يومًا كما بشر الصادق المصدوق وكانت كثيرة القيام والصيام والصدق والتهجد غزيرة الدمعة خالصةً صابرةً على حال عظيم من الصدق والصفا، وقد كلّمها ولدها رضي الله عنهُ في مهده وسمعتهُ يسبح الله كثيرًا، وروت أنها لما ولدتهُ أبى أن يرضع وما زال على ذلك حتى أتوا لهُ بمرضعة تقيةٍ طاهرةٍ فكانت تجدِّد وضوءها حالة إرضاعه فيرضع ثديها، ولما جاء رمضان أمسك عن شرب الحليب نهارًا إلى العيد. قلت: ومثل ذلك روي عن الشيخ عبد القادر الجيلي في بهجتهِ قدس سره، وروى ما ذكرناه عن سيدي أحمد صاحب البهجة وسيدنا أبي بكر العدني العيدروسي في كتابهِ النجم الساعي وغيرهما، وكانت والدتهُ رضي الله عنها ترى من حالهِ أيام طفوليته العجائب وما ذلك إلا لكونها من أهل القلوب، وكيف لا تكون وأبوها شيخ المشايخ الجبل الراسخ صاحب المدد الساري الشيخ أبو سعيد يحيىٰ النجاري الأنصاري، وأخوها القطب العارف الصمداني سيدنا الشيخ منصور البطايحي الرباني رضي الله عنه. قال صاحب البهجة القادرية الشيخ علي نور الدين الهمداني قدس سره في ترجمة الشيخ منصور: هذا الشيخ من أكابر مشايخ العراق العارفين المحققين صاحب الكرامات الظاهرة والأفعال الخارقة والأحوال الجليلة الجلية والمقامات السنية، وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الخلق وصرفهُ في الوجود ومكنهُ من الأحوال وملكهُ الأسرار وقلب لهُ الأعيان وخرق لهُ العوائد وأنطقهُ بالمغيبات وأظهر على يديهِ العجائب وأجرى على لسانهِ الحكم وأوقع لهُ القبول التام عند الخاص والعام، وهو أحد أركان هذا الطريق وهو خال الشيخ القدوة العارف ابن أبي الحسن أحمد الرفاعي وبصبحتهِ تخرج، وانتمى إليه جماعة كثيرة من ذوي الأحوال وتلمذ لهُ جمٌّ غفير من أرباب المقامات العالية.

وكانت أمهُ تدخل وهي حامل بهِ على شيخهِ الشيخ أبي محمد الشنبكي رضي الله عنهُ، وكان بينهُ وبينها نسب فينهض لها قائمًا، وتكرر منه ذلك وسئل عنهُ فقال: أنا أقوم إجلالاً للجنين الذي في بطنها فإنهُ أحد المقربين إلى الله عزّ وجلّ، وهو من أصحاب المقامات ولهُ شأن عظيم ولهُ كلام جليل في علوم الحقائق ومنه: «من عرف الدنيا زهد فيها ومن عرف الآخرة رغب فيها، ومن عرف الله تعالى آثر رضاه، ومَن لم يعرف نفسهُ فهو مغرور، وما ابتلى الله العبد بشيء أشد من الغفلة والقسوة، ومَن أحبهُ الله أفاده في اليقظة والمنام، وكلما ارتفعت منزلة العبد كانت العقوبة أسرع إليه، والصبر زاد المضطرين والرضا درجة العارفين فمن صبر على صبره فهو الصابر، ومَن فرّ بدينهِ إلى الله عزّ وجلّ وهو يتهمهُ في رزقهِ فهو يفرّ منهُ لا إليه، وكل موجود في الدنيا لا

يكون عونًا على تركها فهو عليك لا لك، وثلاث خصال من صفات الأولياء: الثقة بالله تعالى في كل شيء والعناية عن كل شيء والرجوع في كل حال» ومنهُ: «نهاية الإرادة أن يشير إلى الله فيجره مع الإشارة والتوكل ردّ الأمر إلى واحد ونقصان كل مخلص في إخلاصهِ رؤية إخلاصه، والأنس بالله تعالى استبشار القلوب بقرب الله عزّ وجل وسرورها بهِ ونظرها إلى سكونها إليهِ وإعفاؤه لها من كل ما سواه وأن يشير إليهِ حتى يكون هو المشير إليها، ومن اغتر بصفاء العبودية داخلهُ نسيان الربوبية، ومَن شهد صنع الربوبية في إقامة العبودية فقد انقطع عن نفسهِ وسكن إلى ربهِ عزّ وجلّ فحينئذٍ يسلم من الاستدراج، والاستدراج فقدان علم اليقين لأنهُ باليقين يستبين فوائد الغيب، والكشف سواطع أنوار لمعت في القلوب بتمكين معرفة حملة السرائر في الغيوب من غيب إلى غيب حتى يشهد الأشياء من حيث أشهَدَه الحق إياها فيتكلم عن ضمائر الخلق، وإذا ظهر الحق على السرائر لم يبق لها فضلة لرجاءٍ ولا خوف» ومنهُ: «إذا بسط الجليل جلّ جلالهُ غدا بساط المجد أدخل ذنوب الأولين والآخرين في حاشية من حواشي كرمهِ وإذا أبدى عينًا من عيون الجود الحق المسيء بالمحسن، وأول درجات الحضور حياة القلوب بالله تعالى ثم بقاء القلب مع الله ثم الغيبة عن كل شيء بالله تعالى، والعبادة يفهمها العلماءُ والإشارة يعرفها الحكماءُ واللطائف تقف عليها السادات من المشايخ»، وبالإسناد تقابل جيش العراق وجيش العجم وكان الشيخ منصور جالسًا بين أصحابهِ على تلٍّ مشرفٍ على الجيش فبسط يده اليمنى وقال: هذه لجيش العراق وبسط يده اليسرى وقال: هذه لجيش العجم ثم صفق بهما فتصادم الجيشان ثم قبض يده اليسرى وجمع بين أصابعها شديدًا فظهر جيش العجم على جيش العراق وهزم العراقيون، ثم بسط اليسرى وقبض على يده اليمنى وجمع بين أصابعها فظهر جيش العراق على جيش العجم وهزموا هزيمة فاضحةً ورجع العراقيون إلى ديارهم ظافرين مسرورين، وبالإسناد إلى الشيخ علي بن الهيثمي رضي الله عنهُ قال: كان الشيخ منصور البطايحي رضي الله عنهُ من أكابر المشايخ نافذ التصرف مجاب الدعوة ظاهر الكرامات، شديد الخيبة ينفعل لهُ من نظرتهِ ما يريد بإذن الله تعالى مرَّ يومًا بالبطيحة بأسد قد افترس رجلاً وقصم عضده نصفين فجاء إلى الأسد وأمسك بناصيتهِ وقال: ألم أقل لكم لا تتعرضوا لجيراننا فذل لهُ الأسد وأفلت الرجل، فقال الشيخ لهُ: مت بإذن الله تعالى فوقع الأسد ميتًا وأخذ الشيخ ما انفصل من عضد الرجل ووضعهُ مكانه وقال: يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام اجبر عظمه الكسير فصحَّ عظمه وقام كأن لم يكن بهِ شيءٌ، وسلخ جلد الأسد بيده. وبالإسناد إلى الشيخ القدوة أبي محمد عبد الرحمٰن الطفسونجي رضي الله عنهُ يقول: رأيت في زمن الشيخ منصور البطايحي رضي الله عنهُ

بلاءً نازلاً من السماءِ على العراق كقطع الغمام يعم الأديان والأبدان، فاستأذن الشيخ منصور في دفعهِ فأذن لهُ وقيل لهُ: قد رُجِمت أرض أنت فيها ووهبت مساويهم إليك فأخذ قضيبًا وأشار نحو البلاء فتفرّق فقال اللهم اجعلهُ علينا رحمة فصار سحابًا وأمطر وانتفع الناس به كثيرًا. وبالإسناد سئل الشيخ منصور عن المحبة فقال: المحب سكران في خماره حيران في شرابهِ لا يخرج من سكرة إلا إلى حيرة ولا من حيرة إلا إلى سكرة وأنشد:

الحب سكر خماره التلفُ ... يحسن فيهِ الذبول والدنفُ

وقال أيضًا:

والحب كالموت يفني كل ذي شغفٍ ... ومن تطعمُه أودى بهِ التلفُ

في الحب مات الأولى أصفوا محبتهم ... لو لم يحبوا لَمَا ماتوا وما تلفوا

ثم قامَ إلى شجرة هناك خضرة نظرها فتنفس عندها فيبست وتناثرت أوراقها فقال: مثل المحبة مثل صاعقة فيها نار أو ريح فيها رماد ولو وقعت على الأشجار لجفت أو هبت على البحار لاضطربت، ولو عصفت على الجبال لهبطت وإذا نزلت بوادي القلوب لم يبقَ للكائنات أثر فلا نسمع عن الأغيار خبرًا وأنشد:

إن الجبال وما فيها من الشجر ... لو بالهوى علقت لم تأت بالثمرِ

إن البلاد وما فيها من الشجر ... لو بالهوى عطشت لم ترو بالمطرِ

لو ذاقت الأرض حبُّ الله لاشتغلت ... أشجارها بالهوى فيها عن الثمرِ

وعاد أغصانها جردًا بلا ورق ... من حرِّ نار الهوى يرمين بالشررِ

ليس الحديد ولا صمُّ الجبال إذا ... أقوى على الجد والبلوى من البشرِ

ثم قال: انطلقوا إلى فلان وسمّى رجلاً جليل القدر من أهل البطايح واسألوه عن المحبة يخبركم، قال الرواة: فأتيناه فسألناه فسكت ثم ذاب كما يذوب الرصاص قطرة بعد قطرة ونحن ننظره حتى صار كالماء المايع، فأتاه المشايخ وضموه في القطن ودفنوه بمقبرة داوردان بواسط.

سكن رضي الله عنهُ نهر دقلا من أرض البطايح واستوطنها إلى أن مات بها قديمًا وقد علت شهرته وقبره بها ظاهر يزار، ولما حضرتهُ الوفاة قالت لهُ زوجتهُ: أوص لولدك، قال: لا بل لابن أختي أحمد فلما كررت عليه القول قال لابنه ولابن أخته: ائتياني بنجيل فأتاه ابنهُ بنجيل كثيرة ولم يأتهِ ابن أختهِ بشيء، فقال لهُ: يا أحمد فلم لا

تأتني بشيء فقال: إني وجدتهُ كلهُ يسبح فلم استطع أن أقطع منهُ شيئًا، فقال الشيخ لزوجتهِ: سألت غير مرة أن يكون ابني. فقيل لي بل ابن أُختك رضي الله عنهم أجمعين.
قلت: وقد دخل نسب سيدنا أحمد قدس سره من أُمهات آبائه أنساب كثيرة اقتصرنا عن ذكرها خوف الإطالة. على أنهُ رضي الله عنهُ بدر منير استنار من نور شمس الرسالة، ودرٌّ ثمين استخرج من أصداف الشرف والأصالة، كفته النسبة الصورية والوراثة المعنوية والوصلة الثابتة نسبًا وخلقًا بسيد البرية وأغناه شرفها العالي المقام عن ذكر وصلة غيرها في الأنام:

نسب إذا ذكر الرجال فأصله ... طه وسيدنا الرفاعي فرعه
شملتهُ روح المصطفى بعناية ... هي فرق هيكلهِ المنيع وجمعه

هذا ما استحسن ذكره في هذا الباب.

الباب الثاني

في كيفية ولادتِه ونشأتِه

وفيهما أبحاث لطيفة تذكر بعض بشارات أنبأت عن ظهوره وإشراق نوره وهي ملخصة من كتب عديدة منها أم البراهين لابن الحاج قدس سره، وجلاء الصدا لسيدي أحمد بن جلال قدس سرّه، والنجم الساعي لسيدي أبي بكر العدني قدس سرّه، وترياق المحبين للشيخ الإمام العارف بالله تقي الدين بن عبد المنعم المفتي الواسطي، وشفاء الأسقام لسيدي المولى العالم المحدث إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الكازروني قدس سره، والبهجة الأحمدية، والعهود والمنن والدرر والجواهر والطبقات للشيخ عبد الوهاب الشعراني قدس سره، وغير ذلك من الكتب المباركة، منها ما ذكره الشيخ أبو بكر العدني في كتابِهِ النجم الساعي أنَّ الشيخ منصور البطايحي الرباني قدس سرّه رأى رسول الله ﷺ في المنام وهو يقول لهُ: يا منصور أبشرك أن الله تعالى يعطي إلى أختك بعد أربعين يومًا ولدًا يكون اسمهُ أحمد الرفاعي مثل ما أنا رأس الأنبياء كذلك هو رأس الأولياء، وحين يكبر فخذه واذهب به إلى الشيخ علي القاري الواسطي وأعطهِ لهُ كي يربيه لأن ذاك الرجل عزيز عند الله ولا تغفل عنهُ، فقلت الأمر أمركم يا رسول الله عليك الصلاة والسلام. وكان الأمر كما ذكر ﷺ، وروى صاحب أمّ البراهين عن الشيخ الصالح سيدي أبو بكر خال والد سيدي الشيخ منصور الرباني قدس الله روحه أنهُ كانت لهُ أخت وقد توفي زوجها وتركها حاملاً وكانت أيضًا زوجتهُ حاملاً، قال: فجلست النساء في بعض الأيام يتحادثن وخرجن في الحديث إلى ذكر الحمل والولادة فقالت أخت الشيخ لزوجتهِ: إن رزقك الله ولدًا ورزقني بنتًا تزوجين ابنكِ بنتي، وكذلك إن رزقني الله ابنًا ذكرًا وأنت بنتًا زوّجت ابني بنتك، فقالت لها زوجة الشيخ: أنا لا أفعل أبدًا فصعب على أخت الشيخ كلام زوجتهِ فبكت بكاءً شديدًا وقالت: أليس هذا إلاّ لعدم الرجال، ثم طال بكاؤها فنم

يمض غير ساعة وأقبل الشيخ قدس الله سره فوجد أختهُ تبكي فقال لها ممَّ تبكين فأخبرتهُ بالحال على جليتهِ وما قالت هي وما جاوبتها زوجتهُ، فضحك وقال لها: تعالي أي مباركة وأمسكي عن البكاء فليس الأمر كما خطر لكما إنما زوجتي ترزق ولدًا ويموت وأنت ترزقي ولدًا ذكرًا ويعيش ويكبر ويتزوج ويرزق ولدًا يكنى في حضرة العزيز سبحانهُ وتعالى سلطان العارفين وهو السيد الشيخ منصور قدس الله روحه ويرزق بنتًا اسمها علماء، وتعيش البنت وتتزوج وترزق ولدًا اسمهُ أبو الحسن يقارن المشايخ الكبار، وإنما السرّ العجيب الذي تحيّرت فيهِ العقول والأفكار بالولد الذي في ظهر أبي الحسن والمعني بهِ سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد ابن أبي الحسن الرفاعي رضي الله عنهُ الذي يفرق الأوهام بطريقتهِ وتَكَلُّ الخواطر عن صفتهِ، لا يعلم حالهُ إلاّ الذي خلقهُ ولا يصل إلى نعتهِ إلاّ الذي صوَّره، ويرزق أيضًا طلحة وإبراهيم قومًا صالحين، وروي عن القطب الكبير صاحب المدد النفيس الشيخ أحمد بن خميس صاحب الهينة رضي الله عنهُ أنهُ كان ذات يوم جالسًا بين أصحابهِ في مجلسهِ وهو يحدثهم وهم حولهُ محدقون وإذا بالشيخ قد نهض قائمًا على قدميهِ ونادى بأعلى صوتِه لا الـه إلا الله محمد رسول الله ظهر والله المهدي، ثم جلس ساعة ثم نهض ثانيةً وقال مثل قولهِ، ثم جلس ساعة ونهض ثالثًا ونادى مثل ذلك، ثم جلس ورجع إلى الحديث فعند ذلك نهض إليه أصحابهُ وقالوا لهُ: لا تحدّثنا بحديث دون ما تخبرنا ما قد جرى في هذه الساعة وما الذي قد رأيت، فقال لهم: الآن حصحص الحق وبان الصدق، قد ولد في هذه الساعة في أم عبيدة في دار الشيخ يحيىٰ النجار قدس الله سره ولد عزيز على ربهِ وقد ضرب داغه على جبهة الرجال حتى الذي في ظهور الآباء، فقالوا لهُ: سيدي وهو صبي؟ فقال: نعم فقالوا لهُ: أي شيء هذا الأمر العظيم؟ فقال لهم: أي سادة وأزيدكم هو إذا ضرب داغه على ولدي هذا الذي بعدكم في صلبي ثم مد يده المباركة إلى ظهره ثم قال: إي سادة أزيدكم وهو صاحب الوقت والزمان والدولة والذرية إلى يوم القيامة، ثم إنهُ رغب في زيارتهِ، قال: فنهض منهم جماعة وقد أصرف عقولهم ودخل قلوبهم بوصفهِ وطلبوا منهُ الإذن في زيارتهِ وقالوا لهُ: نريد ننظر إلى هذا الولد المبارك قال: فأذن لهم الشيخ ثم قال لهم: أي سادة بحياتكم إذا حضرتم عنده وسلمتم عليهِ سلموا لي عليهِ فإنهُ يرد عليكم السلام بيده ولسانه، ثم إنهُ وصفهُ وأعطاهم صفتهُ وعلائِم فيهِ، ثم إنهم توجهوا إلى زيارتهِ ودخلوا الرباط الذي للشيخ يحيىٰ النجار قدس الله روحه، فوجدوا سيدي أبا الحسن والد الشيخ الشيخ الكبير أحمد الرفاعي فسلّموا عليه فردّ عليهم السلام ثم أجلسهم وأحضر لهم الطعام فأكلوا، فلما فرغوا ورفعوا المائدة أخبروه بحالهم وحاجتهم وما قال لهم الشيخ من حديث الولد، فقال لهم سيدي أبو الحسن قدس الله روحهُ: أي سادة الولد لي

وعندي وفي بيتي، فقالوا لهُ: يا سيدي نشتهي أننا نبشره، فقال لهم: سمعًا وطاعةً، ثم أشار إلى خادمهِ أن أحضِرْ لهم هذا الولد، قال: فمضى الخادم ثم أحضره إليهم وهو في غلق قوصرة، فلما رأواه نهضوا لهُ ثم كشفوا عنهُ الخرقة التي عليه فإذا هو كما وصفهُ الشيخ أحمد بن حميس قدس الله روحه، فسلّموا عليهِ فأخرج يده من القماط وأشار إليهم برد السلام فبكوا ثم إنهم بلغوه السلام عن الشيخ فأشار إليهم وهدر كهدير الحمام، فعجبوا من ذلك ثم أنهم ودّعوه وأستأذنوا سيدي أبا الحسن والده وانصرفوا راجعين، وتخلّف منهم رجلٌ واحد. وقال: أنا لا أفارق هذا المكان حتى أقضي نحبي ولم يزل مقيمًا في أُم عبيدة حتى مات رضي الله عنه.

وروي أن الشيخ الصالح أبا بكر الهمداني رضي الله عنهُ أنهُ كان ذات يوم جالسًا يحدث أصحابهُ ويرغبهم فيما عند الله تعالى، فقام إليه جماعة من الفقراء وسألوه عن رجال البطيحة وأحوالهم، فأجابهم إلى ذلك وجعل يحدث كل واحدٍ على قدر ما يفهمهُ حالهُ وما أراه الله تعالى، فذكروا لهُ رجال الشيخ منصور قدس الله روحه فقال لهم: رجال الشيخ منصور كثيرة، فقالوا له: تخبرنا عن السيد أحمد بن أبي الحسن الرفاعي، فقال لهم: ما أعرفهُ فأقسموا عليهِ بالعزيز سبحانهُ فقال: إذا ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فحدّثوا عنهم وفيهم، وإذا ذكر المصطفى ﷺ فخاموش أي سكوت وهي كلمة فارسية، وكذلك إذا ذكر الأولياء رضي الله عنهم فحدّثوا عنهم، فلا أحد يقدر أن يردكم إلاّ هذا الرجل فإنهُ لا يقدر أحد أن يصف ما وصل إليه، فعند ذلك خاموش لأن نعمة الله عليهِ واسعة سابغة، ثم قال لهم: أي سادة ما أقول في رجل يخرج من موش المزابل رجالاً لا يعلمهم إلاّ الله تعالى تتحير فيهم العقول والألباب، قال: فتحيّر أصحاب الشيخ أبي بكر وقالوا لهُ: أي سيدنا أخبرنا ما هو موش المزابل، فقال لهم: منهم شارب الخمر وقاطع الطريق وقاتل النفس وفاسق يتوبون على يده، فيغير صفاتهم ويصلح أمورهم ويخرج منهم رجالاً صُلَّحًا. وروي أن سيدي الشيخ نصر الهماماني قدس الله روحه لما دخل عليهِ جد المخلص من أهل قرية حسين فسلّم عليهِ وجلس عنده يحادثهُ ساعة، ثم قال لهُ: ظهر الرجل قبلة قريتكم، فقال لهُ جد المخلص: ما رأينا رجلاً ولا ظهر عندنا أحد، فقال لهم الشيخ: بلى هوذا يظهر في أم عبيدة الرَّجل وتُشَدُّ إليه الرحال وتتحير فيهِ أهل الأحوالِ وتذل لهُ رقاب الرجال يتعجب من طريقتهِ، وأشتهي أن أكون بوقتهِ ولو يومًا واحدًا، لأنهُ صاحب شأن عظيم ومحلٌ جسيم، وهو آخر القوم مشربًا وأولهم قدمًا، وأود أن أكون خادمهُ وأفتخر بذلك غدًا بين الأولين والآخرين رضوان الله عليهم أجمعين. وذكر الإمام عبد الوهاب الشعراني قدس سره في عهوده وابن الحاج قدس سره في أُم البراهين أن قطب الأقطاب وفرحة الأحباب وبشارة الأصحاب سيدي إبراهيم الأعزب قدس الله

روحه، قال: حدّثني رجلٌ صالحٌ صادق. أثق بقولهِ وكان لهُ من العمر مابة وثلاثون سنة، وكان قد أدرك سيدي أبا الوفا قدس الله روحهُ ومعهُ أصحابهُ وهم في السفر، فلما رأيتهم ملت إليهم وجئت إلى الشيخ وسلّمت عليهِ وقبلت يده وسافرت معهُ، فبقيت مدةً ما رأيت منهُ كلمة زائدة ولا قال لي يومًا: ما اسمك ولا من أين أنت ولا تعال فتب، فلما قضينا السفر وأراد الرجوع جئت يومًا لأسلّم عليهِ على مثل جاري العادة، فلما رآني قال: أهلاً وسهلاً ثم إنه أخذ بيدي فقال: يا ولدي أما تتوب؟ فقلت له: يا سيدي أنت تقرأُ الجبهة فاقرأ جبهتي، فنظر الشيخ إلى جبهتي ووقع مغشيًا عليه، فبقي ما شاء الله مُلقى على الأرض فلما أفاق نهض وركب مطيته ولم يتكلم، قال: فلازمهُ الفقراء وقالوا له: لا بد أن تخبرنا ما حال هذا الرجل فنراه، قال لك: اقرأ ما على جبهتي فصرخت ووقعت على الأرض، فلما أفقت ركبت وسرت ولم تتوّبه ولم تتكلم فنريد أن تعرفنا كيف هذا الأمر، فقال لهم: ما كان إلا خيرًا، قال: فألحّوا عليهِ وأقسموا عليهِ بالعزيز تعالى أن يخبرهم عن فقه هذا الأمر، فقال لهم: السكوت أحسن فقالوا لهُ: لا بد أن تخبرنا، فقال لهم: نعم اعلموا أنهُ لما قال لي اقرأ جبهتي فتأملتها فإذا عليها مكتوب: داغ الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ، فبهتوا وانزعجوا من ذلك وقالوا لهُ: ومَن يكون الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي؟ فقال لهم: هو رجلٌ عظيم المنزلة عند الله فإذا هو ظهر غلق أبواب جميع المشايخ والصالحين يظهر عن قريب ولهُ سر عجيب وسير غريب، ويصير الوقت لهُ ولأهلهِ وتحكمهِ وتصرفهِ، يصل إلى مرتبة عظيمة يضرب داغه إلى الذراري في ظهور الرجال يسلك طريقًا لم يسلكها أحد لا قبلهُ ولا بعده، وهي طريق الذل والانكسار والمسكنة والافتقار والخضوع والاحتقار، لم يكن في الطرق إلى الله أعظم منها ولا أصعب تتحير فيهِ الخلائق، فقال لهُ أصحابه: فهل يعيش هذا الرجل حتى يظهر هذا الشيخ الذي ذكرته؟ فقال لهم: نعم الله قادرٌ على كلِّ شيء لا يُسأل عما يفعل، قال: فعاش الرجل حتى جاء الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ وتاب على يديهِ وسافر معهُ وتوفي بعد ذلك عن قريب رحمه الله.

قال الشيخ الإمام شيخ الإسلام تاج الدين عبد الوهاب السبكي الشافعي رحمهُ الله في طبقاتهِ حين ترجم سيدنا الغوث الكبير المشار إليه: كان مولده في المحرم سنة خمسمائة وبعد ذلك أطنب وأطال في ذكره قدس سره إلا أنَّ السيد عبد الرحيم والشيخ أبا بكر العدني وغيرهما ذكروا باتفاق المحققين من الرجال الرفاعية أنهُ ولد رضي الله عنهْ في النصف الأول من شهر رجب الذي هو من شهور سنة الخمسمائة واثني عشر يوم الخميس، وكان يشرب اللبن إلى أن قدم رمضان فتقيد عن شرب اللبن نهارًا إلى أن جاء العيد فشرب اللبن، وكانت ولادته بقرية حسن من أعمال البصرة عام وفاة خليفة بغداد

أحمد المستظهر بالله العباسي، وشبَّ رضي الله عنهُ على أحسن حال حتى أنهُ كان حالة صغره لا يجلس مع الصبيان إلا قليلاً ويألف مجالس الشيوخ ومحافل القرآن والدروس، ويتلقى عن العارفين ويعمل بنصائحهم ولا يفارقهم، وقد شهد لهُ أكابر رجال البطايح وهو صغير بالولاية الكبرى وأكثروا الثناء عليه، وذكر العارف بالله أبو عبد الله بن أسعد اليافعي في كتابهِ روض الرياحين أنهُ كان سيدنا أحمد رضي الله عنهُ وقدس الله روحه وأعاد علينا من بركاته يقرأ القرآن وهو شاب على الشيخ العارف علي بن القارىء الواسطي رضي الله عنهم، فصنع شخصٌ طعامًا ودعى إليه الشيخ ابن القارىء وأصحابه وجماعة آخرين من المشايخ والقراء وغيرهم، فلما أكلوا من الطعام كان معهم قوال فشرع يغني بدف في يديهِ وسيدي أحمد جالس عند نعال القوم ونعل الشيخ ابن القارىء معهُ، فلما طاب القوم واستراحوا وتواجدوا وثب سيدي أحمد الرفاعي إلى القوال وخسف الدُفَّ الذي كان معهُ، فالتفت المشايخ إلى الشيخ علي بن القارىء ونافروه فيما صدر من سيدي أحمد وقالوا لهُ: هذا صبي ما لنا معهُ مطالبة والمطالبة عليك، فقال لهم الشيخ ابن القارىء: اسألوه فإن أتى بالجواب وإلا عليَّ المطالبة، فالتفتوا إليهِ وقالوا لهُ: لم كسرت الدف؟ فقال لهم: أي سادة نرجع إلى أمانة القوال يخبرنا بما خطر ببالهِ فأي شيءً قال اتبعناه، فسألوا القوال عما خطر ببالهِ فقال: إني كنت بارحة أمسِ عند أقوام يشربون فسكروا وتمايلوا كتمايل هؤلاءِ المشايخ فخطر لي أنَّ هؤلاء كأولئك فلم يتم خاطري حتى قام هذا الصبي وخسف الدف فعند ذلك نهض المشايخ إلى سيدي أحمد وقبَّلوا يده واعتذروا إليهِ رضي الله عنهُ ونفعنا بهم آمين.

وقد ذكر أمثال ذلك في كتب القوم مما يطول شرحه منها ما ذكره سيدنا تقي الدين الواسطي في كتابه ترياق المحبين أن مما أكرم الله بهِ هذا الغوث أنهُ كان مرَّةً واقفًا بين الصبيان في حال صغره فمرَّ بهِ جماعة من الفقراء العارفين فلما رأؤوه واقفًا وقفوا وجعلوا ينظرون إليه ساعةً ثم قال أحدهم: لا الـه إلا الله محمد رسول الله ظهرت هذه الشجرة المباركة، فقال الثاني عن قليلٍ تُفرع، فقال الثالث: عن قليلٍ يشمل ظِلُّها ويعم نفعها، فقال الرابع: عن قليلٍ يكثر ثمرها ويشرق قمرها، فقال الخامس: عن قليلٍ يرى الناس منها العجب ويكثر نحوها الطلب، فقال السادس: عن قليلٍ يعلو شأنها ويظهر برهانها، فقال السابع: كم يغلق لها باب وكم يظهر لها أصحاب، والسيد أحمد رضي الله تعالى عنهُ يسمع كلامهم ولا يدري لمن يشيرون ثم انصرفوا وهم متحيرون، وقال الإمام الهمام قاسم بن الحاج قدس سره في كتابهِ أُم البراهين: إن الشيخ منصور البطايحي الرباني رضي الله عنهُ لما أخذته الغيرة حالة اطلاعِه على مقام سيدنا السيد أحمد الكبير رضي الله عنه نودي من العُلا: أي منصور تأدب هذا السيد أحمد حبيبنا نظهره على غوامض

غيوبنا، أي منصور هذا السيد أحمد نائب الدولة المحمدية وعروس المملكة المصطفوية وهو شيخ جميع الأمة الأحمدية وشيخك فقل: نعم، قلت: نعم فقال: نحن نتصرف بملكنا كما نشاءُ فقلت: نعم نعم ثم إني حملت الغاشية بين يديه وأخذت العهد على يديهِ فأنا شيخهُ بالخرقة وهو شيخي بالخُلُق والخِلقة، وقد تقدم ذكر هذه القصة مفصلاً.

وقال صاحب أُم البراهين نفعنا الله بهِ: كان سيدي الشيخ منصور قدس الله روحه ذات يوم جالسًا والفقراءُ حولهُ وهو يحدّثهم ويرغبهم بمواهب الله وإذا بهِ قد نهض قائمًا على قدميهِ وصاح بأعلى صوتِه وأشار بيده إلى جهة الأرض ووقع مغشيًا عليه، فبقي ما شاءَ الله فلما أفاق لزمهُ الفقراءُ وأقسموا عليه بالعزيز سبحانهُ وسألوه أن يخبرهم ما سبب صُراخه وقيامه ونِداه فقال لهم: سألتموني عن أمر عظيم، اعلموا أن الله تعالى قد ألحق بالشيخ الكبير السيدَ أحمد ابن ابن خالي مشارق الأرض ومغاربها من أربع جهاتها وإن الأمر يصير إليهِ وحكم الخلق كلهم بيديهِ، ويكون هو الشيخ المعول عليهِ، قال: فلما سمعوا كلام الشيخ رفعوا قدره دونهم. وقيل عنهُ مرة أخرى قدس الله روحه: إنهُ كان في بعض الأيام جالسًا وقدامهُ شيءٌ من الطعام والفقراءُ حولهُ فلم نشعر بهِ حتى رمى الطعام من يده ونهض على قدميهِ وصاح ونادى بأعلى صوتهِ: بسم الله بسم الله هلموا هلموا ثم إنهُ جلس وهو يرتعد وقد تغيّر لونهُ فقال لهُ الفقراءُ: يا سيدي أخبرنا ما هذا الذي قد جرى في هذه الساعة وما سبب ذلك النداء؟ فقال: اعلموا أن الله تعالى قد أبرم الأمر للشيخ الكبير السيد أحمد بن أبي الحسن الرفاعي وأحكمهُ، وقد ناداني العزيز سبحانهُ وتعالى قم فنادي في الخلق من أهل المغرب والمشرق، فقمت مبادرًا وأعلنت موافقًا لأمر السماء، ثم نهض جماعة منهم وأتوا إلى دار الشيخ منصور ودخلوا على زوجتهِ ولم يعلموا تأويل حجتهِ وحقيقة إشارتهِ وأخبروها بالحديث وما قالهُ الشيخ ففرحت بذلك وقالت: أحمد ولدي هو الذي نودي لهُ قال: فبينما هي كذلك وإذا بالشيخ قد دخل عليها، فلما رأتهُ نهضت إليهِ وقبّلت يديهِ وسألتهُ عن صحة الحديث، فقال لها: يا مباركة ليس الأمر كما خطر لك ولا هو أحمد ابني إنما هو السيد أحمد ابن ابن خالي، قال: فلما سمعت كلامهُ بكت وقالت: سيدي تأخذ خيرك وتسلمهُ لغيرك تكون أنت الشيخ وابنك من بعدك تبعد ولدك وتقدم ابن خالك! فقال لها: يا مباركة أنت تريدين لمحبوبك والحق يريد لمحبوبهِ ﴿قل اللهمَّ مالك الملك تؤتي الملك من تشاءُ وتنزع الملك ممن تشاء﴾ [آل عمران: ٢٦] الإرادة إرادتهُ أي مباركة قلت: أحمد ابني، قال العزيز سبحانه: أحمد ابن أبي الحسن، فكرَّرتُ القول مرارًا فنُوديت يا منصور إن أنت رضيت وإلا خلعتُ هذا الأمر منك وجعلتهُ في شؤونهِ ولا أبالي، وأجعلك وذريتك خدمًا لهُ وكأن شؤونهُ قد جمعت فيهِ جميع البدع والعاهات، كان أعمى أخرس أطرش زمنًا أقرع لهُ حدبة ولهُ قروح لا يستطاع النظر إليه، أي مباركة

فرأيتُ أن الأمر أمر الله تعالى لا يرد وقدرتهُ العالية وأحكامهُ النافذة لا تعاند، فشددت وسطي وحملت غاشيته ومشيت قدامهُ وناديت بسم الله بسم الله، قال: فلما سمعت زوجتهُ هذا الكلام أمسكت.

وقال في أم البراهين أيضًا حكى لنا الشيخ يعقوب أن زوجة سيدي الشيخ منصور قدس الله روحه قالت: رأيت يقظة لا منامًا كأن شجرة زيتون خرجت من ركن داري الأيمن فأظلَّت عليها واستطالت أغصانها حتى بلغت المشرق والمغرب، فلما رأت ذلك أبهرها فأخبرت سيدي الشيخ منصور قدس الله روحه بما رأت فقال لها: رأيت؟ قالت: نعم رأيتهُ يقظةً، فقال: أحسن الولد النجيب أحمد قالت له: أحمد ولدي؟ قال: لا ولكنْ أحمد ابن ابن خالي قد نودي لهُ بالقدمة وأمر لهُ الناس بالخدمة، وقد جعلهُ الله ظلاً يستظل به جميع الخلق حتى أن ظلهُ على داري، وروى الشيخ مقدام الحدادي رضي الله عنهُ عن الشيخ مروان أحد أصحاب سيدي الشيخ منصور البطايحي الرباني رضي الله عنهُ أنهُ قال: كنت أنا وسيدي الشيخ منصور قدس الله روحهُ يومًا من الأيام قد خرجنا إلى الصحراء فانتهينا إلى هذا الكلام في المكان، فقال لي: أي مروان افرش وزرتك حتى أنام هاهنا على هذا الخد ساعة لعلي استريح، قال: ففرشت لهُ وزرتي وجلست فأخذت قدمهُ أكبسها فإذا بهِ يتأوّه ويتأنن أنين القتيل فراعني ذلك فقلت لهُ: أي سيدي ما الخبر أراك تتأوه وتتأنن؟ فقال لي: أي مروان رأيت في هذه الساعة سيف الولاية قد نزل من السماء فخشيت أن يسلم إلى عثمان البطايحي الربي فسلم إلى السيد أحمد، فلما سمعتُه يقول: إلى أحمد، قلت: ولده أحمد لأننا لا نعرف شيخًا غيره، فالتفت إليّ سريعًا وقال لي: أي مروان ليس هو كما خطر لك إنما هو السيد أحمد ابن ابن خالي فحردت[1] منهُ وصعب عليَّ وقلت: لم لا يكون أحمد ابنك؟ فقال: أي مروان لا تحرد سيف الولاية لا يحملهُ مَن ينام ويتلذذ بطعام ولا بشراب وأحمد ابني كذلك لا طاقة لهُ على العناء، أي أخي مروان السيد أحمد ابن ابن خالي وزنته بملكوت السمٰوات والأرض فما اتزن معي ولا اتَّزن مع أحد من بعدي ولا يعرفهُ أحد من خلق الله تعالى، وكفى شهادة الشيخ منصور لهُ شهادة مع علوّ قدره ومرتبتهِ وإجلالِه وكرامتهِ، وسئل الشيخ الولي الكبير إبراهيم الهوازي رضي الله عنهُ عن سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ وعن حالهِ ووصولهِ وعن ما بلغ فقال للذين سألوه: لا أقدر أن أصف رجلاً أقلُّ ما فيهِ أنهُ صار لشعر بدنهِ أعينا ينظر بها شرقًا وغربًا ويمنةً ويسرةً، أي سادة السيد أحمد رجل صيَّر نفسهُ كلها آدابًا فجعل لكل عضو أدبًا ولكل وقت أدبًا ولكل مقام أدبًا، ومن أقوالهِ

---

(١) الحرد هو الغيظ والغضب (لسان العرب: مادة حَرَدَ).

وأفعاله وأحكامِهِ وأوقاته وسكونهِ وحركاتهِ أدب يعرفهُ الصادقون والكاذبون والمدعيون والمحققون، لهم عليهِ دلائل واضحة وأمارات لائحة من طهارة قلبهِ ومرقاة أسراره وصفاءِ أكداره ووفاءِ عهده وصدق موعوده وحفظ وقتهِ وقِلّة التفاتهِ إلى العوارض واستواء السر والعلانية واستواء الخير والشر عنده.

ولما أراد الله إظهاره في أم عبيدة في القرية السعيدة استمر سنة يعمل فيها الجمع والمحيا ويُقري الضيف والوارد ويرد الله على يديهِ الشارد، ثم بعد ذلك مرض سيدي الشيخ منصور قدس الله سره مرضَ الوفاة فطال مرضهُ وأيقن أصحابهُ وخواصُّهُ من أهل الكشف والعيان في بعض المواضع خُلُوّهُ، فجعلوا كلامه في ذكر حالهِ ومقامهِ وما شهد لهُ بهِ الشيخ منصور قدس الله روحه، وكانوا لصلاح أحوالهم وصفاء قلوبهم لا يكتمون أحوالهم لما عندهم من سلامة الصدور، يقولون مَن يكون بعد سيدي الشيخ منصور وكلٌ منهم يقول أنا أكون الشيخ، وكان بينهم فقير أشعث أغبر لا يعبأُ بهِ وهو منكوس الرأس على ركبتهِ لا ينطق بحرف، فلما طال بينهم الجدال وكثر المقال رفع رأسهُ ذلك الفقير وقال لقد قلتم فأكثرتم وها أنا مخبركم بمن يكون بعد الشيخ، فقالوا: هات فأخبِرنا إن كان عندك خبر أو علم، فقال لهم: بعده الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي المِقري، وكان أصحاب الشيخ منصور يسمونهُ شويصه، قال لهم: نعم، قال: فضحكوا عليهِ وقالوا لهُ: نريد الدليل على صحة قولك، فقال لهم: بيني وبينكم هذا الجبهذ يعني به الشيخ منصور، فقالوا: نريد منك الدليل حتى نرجع إلى الشيخ منصور، فقال لهم: ما قلت لكم هذا القول حتى درت جميع المواضع والمقامات في الأرض والسمٰوات فلم أرَ عكوف الطير ونزول النوال إلا على أُم عبيدة فعلمت أن الأمر قد سلم إليهِ وزمام الملك بيديه، ثم قال: إنهم بعد ذلك نهضوا وأسرعوا إلى الشيخ منصور قدس الله روحه فدخلوا إليه وسلّموا عليهِ وجلسوا حولهُ وهو مغشي عليهِ، فلما أفاق حدَّثوه بما جرى بينهم فقال لهم الشيخ منصور قدس الله روحه: أيُّ شيءٍ قال لكم الفقير ابن مريم؟ فقالوا لهُ: قال لنا عن السيد أحمد المقري شويصه، فقال لهم: القول ما قالهُ ابن مريم فاعرفوه، فقالوا له: يا سيدي نريد الدليل فعند ذلك أخبرهم بالذي قالهُ ابن مريم من انعطاف الطير ونزول النوال ويكفي شاهدًا هذه الأحوال، وذكر صاحب أُم البراهين حاكيًا عن الشيخ يعقوب بن كراز رضي الله عنهُ أنهُ قال لما أراد الله تعالى أن يظهره ويبيِّن فضلهُ ناداه يومًا من الأيام سيدي الشيخ منصور قبل موته وقال لهُ: أي أحمد قد نودي لك إلى بلد النبط وأشار بيده إلى أم عبيدة فقم واخرج إلى السفر وزيارة الإخوان فقد نودي لك بذلك وأجابك الناس حتى الذر في ظهور الرجال، ثم إن الشيخ توفي إلى رحمة الله ولحق بربهِ. فخرج الناس من عنده فوجدوا سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ ملقًى على الأرض

وقد ألصق خدَّه تحت عتبة الباب وهو يمرغ خده على التراب والناس مزدحمون عليهِ وقد داسوا عليهِ لشدة ازدحامهم وقد كادت نفسهُ الشريفة تزهق مما أصابهُ من فراق الشيخ منصور قدس الله روحه، وإنما ذلك لما فاتهُ من أوقاتِه وبركاتِه، قال: فجاءَ أحمد ابن الشيخ منصور فوجده على هذه الحالة وخده ملصوقًا بالعتبة ملقًى على التراب تدوسهُ أقدام الناس، قال: فأقامهُ ونفضهُ من التراب ومسح وجههُ وقال: يا سيدي ما تريد ما بقي لك حاجة إلى أحد والبيعة قد حصلت لك فأنت المشار إليه، فقال لهُ سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد رضي الله عنهُ: أي سيدي إن أنا صلحت كنت مملوكًا.

وقال في أُم البراهين أيضًا حكى لنا السيد السعيد الشهيد علي بن عثمان قدس الله روحه أنهُ لما ظهر فضل سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ وفاح طيبهُ كان يتردد إلى أبواب الصالحين ويتبرّك بهم ويتواضع لهم ويذكر فضلهم ويظهر ذكرهم ويعظّم شأنهم، وكان يكثر التردد إلى زيارة سيدي عبد الملك الخرنوبي قدس الله روحه، وكان يزوره في كل سنة مرة فإذا قضى وطره منهُ وأراد الخروج من عنده يسألهُ الدعاء والوصية، فلما كان في بعض السنين سألهُ الوصية بعد ما قضى وطره وأراد الخروج فقال لهُ: أي أحمد احفظ ما أقول لك، أي أحمد ملتفتٌ لا يصل ومتسللٌ لا يفلح ومَن لا يعرف من نفسهِ النقصان فكل وقتهِ نقصان، قال: ثم رجع من عنده وبقي سنة يرددها على نفسهِ، وقال: ما خطر لهُ خاطر إلا ذكرها، ثم إنهُ زاره في السنة الأخرى وأقام عنده ما طاب ثم ودّعه وأراد الخروج من عنده فقال لهُ: أي سيدي أوصني، فقال لهُ: أي أحمد ما أقبح العلّة بالأطباء والجهل من الألِبَّاء[1] والجفاء من الأحباء، قال: فخرجت من عنده وودعتهُ وبقيت سنة أرددها على نفسي، فلما كان في السنة الثالثة زرتهُ وأقمت عنده الذي قسم الله تعالى وأردت الخروج من عنده فقلت لهُ: أي سيدي أوصني، فقال لي: أي أحمد لا ترجع تزورني ولا تجيء إليَّ فما بقي لك حاجة ولا إلى غيري ولا إلى أحد من خلق الله تعالى، وهذه شبكتك قد فرغ منها وهي طبقة العين لا تبقي ولا تذر، رميتها على الخلق فلم يفلت منها صغير ولا كبير حتى الذي في ظهور الرجال، وقد بقيت وحدك وكلٌ يأخذ شبكتهُ ويصعد من جميع المشايخ ويبقى الصيد لك وعليك إلى يوم القيامة، ثم إنهُ بايعني على المشيخة وشرط أن لا أرجع أزوره إلا بعد وفاتهِ، وذكر صاحب الترياق رضي الله عنهُ راويًا عن الشيخ الجليل العارف ذي الأسرار والمعارف السيد الكبير البعيد الصيت الشهير ذي المقام العلي والكشف الجلي القطب الرباني سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنهُ أنهُ أثنى على السيد أحمد

(١) الألباء: جمع لبيب وهو العاقل.

الرفاعي ثناءً حسنًا ثم قال: أي فقير هذا رجلٌ لا يعرفهُ أحد ولا يصل إلى وصفهِ واصف، لأنَّ كلَّ الرجال تعرف أحوالهم ومقاماتهم وهذا رجل لا يعرف ولا يوصف لأنهُ متمسك بأخلاق رسول الله ﷺ وأقواله وأفعاله فلذلك كان الله لهُ باطنًا وظاهرًا وهو حظهُ ونصيبهُ. وذكر سيدنا أحمد بن جلال في كتابهِ جلاء الصدأ أن بعضهم رأى النبي ﷺ في المنام مثنيًا على السيد أحمد الكبير رضي الله عنهُ قائلاً في شأنهِ: كان أحمد ابن الرفاعي عروس المملكة علمًا بهِ يقتدي الخلائق فيهتدون ويصلّون إلى الله تعالى، سيرتهُ فناءُ الفناء بالله تعالى، وكان يربى بحالهِ أكثر مما يربى بمقالهِ، وذكر صاحب شفاءِ الأسقام في سيرة غوث الأنام مولانا العالم المحدث الفاضل الولي العارف بالله إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الكازروني قدس سره أن بعض أولياءِ العصر رأى النبي ﷺ في المنام فسألهُ عن السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ فقال عليهِ الصلاة والسلام: نفاذ حكمته في أقطار الأمصار كنفاذ حكم الملوك والخلفاء وإن هو يُرسِل خليفةً إلى جانب فهو حاكم نفوس أهل ذلك الموضع وأموالهم وأولادهم، وذكر صاحب جلاء الصدا أن بعضهم رأى النبي ﷺ وهو يثني على السيد أحمد الكبير ويقول: كان السيد أحمد الرفاعي بن أبي الحسن عَلَمُ الحقيقة. وذكر الشيخ أبو بكر العدني قدس الله سره في كتابهِ النجم الساعي أن الشيخ زيد بن عبد الله الغيداقي قدس سره سأل سُلطان الأنبياء عليهِ وعليهم أفضل الصلاة والسلام في المنام: من أعلى المشايخ ومن أي قوم هو؟ فقال عليهِ السلام: يا زيد من أقربائك اسمهُ أحمد الرفاعي، وذكر العدني في كتابهِ المذكور أن القطب الرباني سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس سره العزيز قال: إن جميع الأولياء تشهد أن السيد الكبير أحمد الرفاعي غالب أوقاتهِ دائر في العالم العلوي ووجوده في العالم السفلي كنايةٌ عن النوع لأنهُ دائمِ السكر من خمر محبة الحقّ متوجه إلى عالم العلو والفناءِ المطلق.

وذكر الشيخ أحمد الزاهد الكبير ابن الشيخ الأعظم منصور الرباني البطايحي رضي الله عنهُ جماعة من الأولياء فلما انتهى إلى ذكر السيد أحمد الرفاعي قال: كان صاحب أسرار خارقةٍ ومواجد وأحوال ملازمًا قراءة القرآن غلبت عليهِ محبة الله، مُحِبُّوه ومريدوه كلهم مرادون من جانب الحق تعالى، وإذا حضر واحد منهم مجلسًا سلب قلوب أهله وجلب محبتهم إليه بإذن الله تعالى، وقد شرَّفهُ ﷺ بأن أعطاه أسماء متعددة تدل على شرفهِ الزائد بين الأولياء منها: السيد أحمد الرفاعي وسلطان العارفين وسيد المشايخ وصلاح الدين ومحيي الدين وأحمد الكبير وأبو صالح وأبو الصفا. وهو قدس سره من بني هاشم فقراؤُه ومريدوه وموازينهم في طريق الفقر أرجح موازين الفقراء وأهل الأحوال، ولا تنقطع فقراؤُه ولا مريدوه إلى يوم القيامة بإذن الله تعالى لأن عليهِ نظرًا

خاصًا من جده سيد المرسلين عليهِ أفضل الصلاة والسلام وما وصل إلى هذه الرتبة إلا ببركتهِ ﷺ فإنهُ فرع شجرتهِ الزكية الطاهرة العلية رضي الله عنهُ وعن أولياء الله أجمعين وذكر صاحب جلاء الصدا أنهُ كان في ناحية ديدار رجل يقال له: مكي النجار وكان ذا خلق حسن وزهد وتعبد، يغيث الملهوف ويقري الضيف ويطعم الفقراء والواردين، وكان معاشهُ من كسب يدهِ ولكن لم يكن لهُ شيخ، ونوى في نفسهِ أنهُ لا يتوب إلا على يد مَن يظهر لهُ بصيرةً ويطلعهُ على شيء من أمور الغيب، وكانت لهُ زوجة سيِّئةُ الخلق تؤذيهِ كثيرًا ويتحمل أذاها لله تعالى، وكان لهُ مسجد على باب داره يشتغل فيهِ بصنعتهِ، وكانت لزوجتهِ مطيةٌ قد ربَّتها وكانت بها فرحانة وكانت لا تبيعها بعشرين دينارًا، فبينما الشيخ مكي نائِم إذ رأى في منامهِ كأنَّ قائلاً يقول له: أي مكي غدًا يجيء إليك ثلاثة أنفار من أصحاب الشيخ عبد الرحمٰن الطسفونجي يريدون المطية ومعهم اثنا عشر دينارًا فخذها منهم فانتبه مرعوبًا متحيِّرًا لعدم اختياره فيها، فتحوقل[1] وسبَّحَ وبقي متفكرًا فغلبهُ النوم فأُمر بذلك ثانية فانتبه وجلس متفكرًا حتى أصبح فصلّى الصبح وجلس مكانهُ حتى صلى الشكر والضحى وإذا بالفقراء قد دخلوا عليهِ وسلّموا، فأجلسهم وأحضر لهم طعامًا فلما أكلوا قالوا لهُ: نحن أصحاب الشيخ عبد الرحمٰن الطسفونجي وقد جئنا نطلب المطية للشيخ، فقال لهم: أهلاً وسهلاً هاتوا ما معكم. فأعطوه صرة فيها اثنا عشر دينارًا فباعهم المطية ونهض وأتى بيتهُ، فوجد امرأتهُ كالأسد لها زئير من الغيظ، فلما رأتهُ قالت لهُ: أين المطية؟ قال: بعتها على أصحاب الشيخ عبد الرحمٰن، فقالت لهُ: أين ثمنها؟ فقال لها: هذا هو. فأعطاها الصرّة فحلَّتها فوجدت فيها اثني عشر دينارًا، فقالت: أين الباقي؟ قال: بهذا بعتها فرمت الدنانير كل واحد في طريق وأخذت في شتمهِ والكلام القبيح لهُ وهو ساكتٌ مشغولٌ بذكر الله ربهِ، فلما طال عليهِ ذلك قال: اللهمَّ إنك تعلم أني لا أقدر أن أحمل أكثر من هذا، فأسبغ الوضوء وأخذ لفافتهُ على كتفهِ كأنهُ يمشي إلى المسجد فأخذ الطريق حتى أوصلتهُ إلى قرية الطسفونجي فقال: هذا مكان الشيخ عبد الرحمٰن وقد خوطبت فيه بالمنام ولأجلهِ جرى عليَّ الذي جرى، فأسبغ الوضوء ودخل عليه وسلّم والشيخ جالسٌ يحدِّث أصحابهُ، فلما رآه طوى الكتاب وقال لأصحابه أي فقراء أصحاب الأحوال والمقامات الذين يريدون الوصول إلى الله تعالى ويردون من كلام امرأة فأين قوة عزمهم وأين صبرهم على المكاره وأين رضاهم بالمقسوم؟ قال مكي: فعلمت أن كلامهُ لي وقلت في نفسي هذه بصيرة واضحة وما بقي بعد هذا الكلام شيء، فكشفت رأسي وقبّلت يده وقلت: أي سيدي خذ العهد عليَّ وتوبني، فأخذ بيدي وأمسكها ساعة

(١) أي قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ولم يتكلم بشيء ثم تركها، فقال الفقراء: أخبرنا بحالهِ أعطاك يده لتتوبهُ وتأخذها ثم ترميها بغير مناها فأبى، فأقسموا بالله تعالى عليه فقال: إذا كان ولا بد فاعلموا أني لما أخذت يده وأردت أن أتوبهُ رأيت رسول الله ﷺ وهو جالس عن يميني فقال: أي عبد الرحمٰن دعهُ فليس هو من أصحابك، هذا من أصحاب السيد أحمد الرفاعي بن أبي الحسن بأُم عبيدة، أي عبد الرحمٰن يد تمتد إلى ما لا تنال تقصر فتركتها، قال الشيخ مكي: وكان أول ظهور السيد أحمد الرفاعي. وقد نشرت أعلامهُ ولاحت أنواره وفاح طيبه وقد تعطرت برائحته المشارق والمغارب فاشتقت إليه وفقدت صبري عليهِ، فاستأذنت الشيخ في التوجه إليه فقال: أي ولدي إذا وصلت إلى السيد أحمد الرفاعي قبِّل يده عني وسلّم عليه واسأله الدعاء، فأخذت الطريق حتى وصلت إلى أُم عبيدة وأتيت الرواق فوجدت السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ جالسًا يتحدّث مع أصحابه فسلّمت عليهِ، فلما رآني السيد أحمد الرفاعي طوى الكتاب وقال: أهلاً وسهلاً بهدية سيدي رسول الله ﷺ، كيف هو سيدي الشيخ المحتشم عبد الرحمٰن رضوان الله تعالى عليه؟ قال الشيخ مكي: فلما سمعت كلامهُ كادت روحي أن تذوب وغبت عن نفسي، فنكست رأسي وقلت: أي سيدي آخذ العهد عليك، فقال: أي أخي مكي عليك عهد الله لا تعاهد إلا على يد مَن يظهر لك بصيرة وسيدي الشيخ المكرم عبد الرحمٰن أظهر لك بصيرةً وحدّثك بخاطرك فلم لا تتوب على يده؟ فقلت: أي سيدي لا شك بعد يقين امدد يدك فآخذ عليك العهد، فمدَّ يده وتوبني وأعطاني العهد ثم قال لي: كيف هو سيدي عبد الرحمٰن؟ فقلت: يسلم عليك ويسألك الدعاءَ، فقال: أي فقير حدِّث إخوتك بالذي جرى لك مع الشيخ عبد الرحمٰن، فقصصت القصة عليهم، فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ: صدق سيدي عبد الرحمٰن، أي سادة ما كان الأمر على ما قال، إنما قال ﷺ لهُ: يد تمتد إلى ما لا تنال تقطع فاستحى سيدي عبد الرحمٰن أن يقول ذلك فجزاه الله عنا الخير فإن قال قائل أو اعترض معترض على سيدي عبد الرحمٰن حيث قال: يد تمتد إلى ما لا تنال تقصر وقد قال ﷺ تقطع فيكون قد كذب عليه ﷺ في ذلك، فنقول: حاشاه ثم حاشاه أن يصدر عنهُ أمثال ذلك بل نقول: نقل قولهُ ﷺ بمعناه، فإن كل يدٍ تنقطع فلا بد أن تقصر والمراد من القطع القصر، وقد جوز ذلك المحدثون أي نقل الحديث بمعناه.

وذكر السيد العارف بالله الشيخ أبو بكر العيدروس العدني في كتابهِ النجم الساعي أن سيدي أحمد بن زنكي يقول: إن سيدنا السيد أحمد الرفاعي كان أحسنَ أهل زمانهِ طفلاً ويافعًا وكهلاً وشيخًا وما كان يجلس حال طفوليته مع أحد من الناس سوى الفقيه أبي الليث الحرَّاني رضي الله عنهُ، وكان كلما كبر يلتحق بالمعروفين بين الناس بالصلاح

والتقوى وقد تولى أمر تربيته الشيخ علي القارىء الواسطي وسلكهُ الطريق وأخذ عليه العهد الوثيق وتلقى عنده علوم الشرع وانكشفت لهُ بإذن الله أيامَ صحبتهِ علوم الحقائق والدقائق والظاهر والباطن، وكان سيدي علي الواسطي القارىء هذا شيخ العلماء وأهل الخرقة في البطيحة وواسط، وكان القوم في عصره يذكرونهُ بمنزلة المساواة مع سيدي منصور الرباني خال سيدنا أحمد، وكان سيدي منصور هذا في زمانه شيخ شيوخ جميع عصره وبصحبته تخرج سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ وشرب كأسهُ وتربى بتربيتهِ ولبس خرقتهُ وخلَّفهُ في مشيخة الشيوخ، ولما أراد الشيخ منصور أن يجعل سيدنا السيد أحمد قائمًا مقامهُ في مشيخة الشيوخ والسجادة فقالت زوجتهُ وولداه وبعض محبيهِ: إن ميراث الأب لا يكون إلا للابن ولا يكون لابن الأخت، فقال لهم الشيخ: إني رأيت شيئًا وإن شئتم أُرِهِ لكم، فقالوا لهُ: أَرِهِ لنا، فجمع الشيخ منصور أولاده وأحبابهُ وأحضر سيدي أحمد معهُ وأعطى الشيخ لكلٍ واحدٍ من ولديهِ سكينًا ودجاجةً وأعطى لسيدي أحمد كذلك سكينًا ودجاجةً وقال: كلٌّ منكم يذهب بدجاجتهِ وسكينهِ إلى محلٍّ خالٍ ما فيهِ أحد ويذبح دجاجتهُ فيهِ ويأتيني بها مذبوحةً فراح كل واحدٍ منهم إلى جبلٍ وذبح دجاجتهُ وجاءَ بها مذبوحة إلا سيدي أحمد فجاء بدجاجتهِ حيةً فلما رآه الشيخ منصور ودجاجتهُ غير مذبوحة، قال: أي أحمد لأي شيءٍ جئت بها بلا ذبح؟ فقال: أي سيدي شرطتم عليَّ خلوَّ المكان وكل موضع ذهبت إليهِ رأيتهُ مشغولاً بالله تعالى وهوحاضر ناظر وما رأيت مكانًا خاليًا قط، فلذلك ما ذبحتها، فقال سيدنا منصور رضي الله تعالى عنهُ: أنتم تريدون لمحبوبيكم والله يريد لمحبوبهِ، ثم ألحُّوا عليهِ مرةً أخرى فأعطى رضي الله عنهُ مناجل من حديد وزنابيل وقال لهم: اذهبوا وهاتوا إليَّ نجيلاً من حشيش الغيط فراح كلٌّ من أولاد الشيخ وحصد حِملاً وجاء بهِ إلا سيدي أحمد فإنهُ جاء خاليًا، فقال لهُ سيدي منصور: لأي شيءٍ جئت خاليًا أي أحمد؟ فقال: أي سيدي إني كلما أمسكت الحشيش أجده يذكر الله تعالى فما حصدتهُ حرمةً لتسبيحهِ الله، فقال الشيخ منصور: أما ظهر لكم أن عناية الحق مع سيدي أحمد؟ فقالوا كلهم: بلى، فقال لهم: والله وجهوا وجهة العبودية إلى محبته وأظهروا الخدمة والملازمة في فناء عتبتهِ فإنهُ سيشيع اسمهُ ورسمهُ في آفاق الدنيا ويظهر أمرهُ في الأرض والسماء وأقامَه مكانهُ فمن ذلك اليوم شاعت أخباره في العالم وفشت أسرار معارفهِ بين بني آدم وسار الناس إليهِ من البلاد والأقطار ومدَّتهم بنظرتهِ السعيدة السعادة وحفَّتهم ببركة إمداداتهِ السيادة، رضي الله عنه وعنهم أجمعين.

وذكر سيدنا الشيخ عبد الوهاب الشعراني في مننهِ ما نصهُ: سأل جماعة الشيخ أبا المنذر المهتدارجي رضي الله تعالى عنهُ عن سيدي أحمد بن الرفاعي فقال: لا

أقدر أن أشرح لكم حالهُ فقالوا لهُ: لا بد أن تخبرنا بشيءٍ من أحوالهِ، فقال: ماذا أقول في رجلٍ ما اعترف قط لنفسهِ بمقام ولا قدر ولا خطر لهُ غير ربهِ ولا رضي لنفسهِ التنعم بشيء من الدنيا في يوم من الأيام، وكلما ازداد قدرًا ومقامًا عند الله تراه يزداد ذلاً ومسكنة لله وللخلق. وكان الأشياخ يقولون: أعظم الأولياء في عصرنا هذا قدرًا الشيخ أحمد بن الرفاعي في البطيحة وأبو محمد بن عبد الله بالبصرة، قيل لهم: فأي الرجلين أعلى؟ قالوا: أحمد بن الرفاعي كان قطب الأقطاب في الأرض، ثم انتقل إلى قطبية السمٰوات ثم صارت السمٰوات السبع في رجلهِ كالخلخَال حتى سلك بكثرة ذلّ نفسهِ طريقًا لم يسلكها غيره، ثم لا علم لنا بعد ذلك لماذا وصل. انتهى.

وذكر صاحب أُم البراهين رضي الله عنه أن سيدي السيد عبد الرحيم بن عثمان رضي الله عنهما قال: كان سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي تجري عليه الأمور الغيبية والأسرار الربانية في كل ساعة ولحظة فتارةً تراه خائفًا وتارةً تراه تعرفه وتارةً تراه لا تعرفه، وكم مرةً كن يدخل علينا الرباط لا نعرفهُ وتارةً يدخل الرباط لا يسعنا معهُ المقام فلا نقابلهُ، وكان إذا غلب عليه الأحوال يقول: أي عبد الرحيم أدركني أي عبد الرحيم حدّثني بحديث بيتكم ومواشيكم وصحراتكم وزرعكم وثيابكم وأحوالكم فأُحدثهُ بذلك وأحضر لهُ شيئًا من الدنيا وأعرفهُ أحوال البقر والغنم والغلة وأجاريهِ بأحاديث الدنيا وأهلها فإذا سمع ذلك سكن روعهُ ورجع لونهُ وانفسح وجههُ وأنشد شعرًا:

رَوَّحني عائدي فقلت لهُ ... ألا تزدني على الذي أجدُ

أما ترى النار كلما خمدت ... عند هبوب الرياح تتقدُ

وهذا تبعًا وتشريفًا لهُ واقتداءً بالنبي ﷺ حيث كان إذا ثقلت عليهِ أعباء النبوة من جانب الحضرة العزيزة وكشف لهُ عن الأسرار الجليلة الخفية يقول: «أحمضونا وأتونا بشيءٍ من الباطل أو الشعر»، قال فينشدونهُ الأشعار ويحدّثونه بشيءٍ من أمور الدنيا فَيُسَرَّى عنهُ ذلك صلوات الله وسلامهُ عليهِ.

وذكر في أُم البراهين أيضًا ما نصهُ: أخبرنا بهِ صاحب الشرفين وذكي الطرفين وإمام البيتين ووارث الخلافتين السبط المعظم والسيد المحتشم الواضح الهدى والمزيح الأذى العالي المنصب سيدي إبراهيم الأعزب قدس الله روحهُ ونوَّر ضريحهُ قال: كنت ذات يوم واقفًا على باب الرباط أنتظر الشيخ الكبير العالم النحرير السيد الجليل الكامل الجميل السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ فلم ألبث وقد قدِم وناداني من خلفي أي إبراهيم فالتفتُّ فرأيتهُ فقلت لهُ: لبيك أي سيدي ثم أتيتهُ فقبلت يده

المباركة ودخلت قدامهُ الرباط فرأى في ذيل قميصي خرقًا فقال: أي إبراهيم خَيِّط هذا الخرق الذي في قميصك ولا تجعل للشيطان عليك سبيلاً، قال: فقلت لهُ: أي سيدي ما لي خيط ولا إبرة قال: فأشار إلى بعض الفقراء المخاصين فأخذ منهُ إبرةً وخيطًا قال: فأتيتهُ ولزمتهُ منهُ وقلت لهُ أي سيدي إن كنت تخيط فخيط لي سرِّي وتمم لي أمرى وأصلح لي قلبي، قال: فلما سمع قولي شمَّر ذيلي بيده وأطرق ساعة ورفع رأسهُ وتنفس ثم قال: قضيت الحاجة أي إبراهيم أي ترجمان الحكمة ما قصرت بقولك لي أيش يعوذك، ثم إنهُ ضمني إليهِ وقبَّلني فأخذني عليهِ شبه القلق والهيمان حتى كنت لم أجد عنهُ صبر ساعة واحدةٍ فصرت ملازمهُ ليلاً ونهارًا في حضره وخلوته معهُ ومضى ذلك زمانًا فلما كان في بعض الأيام أتيتهُ على جاري العادة المعروفة أطلبهُ في مكانهُ فلم أجده فصعدت السطح فلم أجده فأخذني شبه الجنون والحرص في طلبهِ فخرجت أطوف في طلبهِ عليهِ المواضع فلم أجده، قال: فضاق صدري لذلك فأتيت الرواق فلم أجده ووجدت الرواق خاليًا من الفقراءِ فطفتهُ وإذا أنا بهِ رضي الله عنهُ قائمًا في بعض زوايا الرواق وهو يشير بيده المباركة نحو المشرق مرة ونحو المغرب مرَّةً ونحو السهل مرَّةً ونحو الجبل مرَّةً حتى أشار إلى أربع جهات الأرض وهو يقول: تعالوا إلى أم عبيدة تعالوا إلى هذه البقعة المباركة بدارًا بدارًا كل شهر قوم وكل سنة قوم وكل وقتٍ قوم، قال: وأتبع كلامهُ نعم نعم، ثم إنهُ سكت فلما رأيتهُ على تلك الحالة انزويت عنهُ حتى فرغ وسكن ما عنده أتيتهُ وقبّلت يده وقلت لهُ: أي يا سيدي أنا قد تعبت مما أدور عليك وما تركت مكانًا فلم أجدك فيهِ وقد وجدتك في الرواق ورأيتُ كذا وكذا ورأيتك تشير بيدك نحو جهات الأرض، فقال: أي إبراهيم رأيتَ؟ فقلت لهُ: نعم ورأيتُكَ تقول في آخر الكلام: نعم نعم، فقال: ما كان إلا خير فقلت لهُ: أي سيدي أقسمت عليك بالعزيز سبحانهُ وتعالى أنَّك تعرفني الذي قد جرى، فقال: أي إبراهيم قيل لي: قم فنادي أهل المشرق والمغرب والسهل والجبل إلى زيارة هذه البقعة السعيدة فقمت ممتثل الأوامر الربانية وناديت فأجابوني بقدرة الله تعالى وإرادتهِ خلقٌ كثير لا تحملهم هذه البقعة يعني أم عبيدة فلما رأيت ذلك قلت لهم: رويدًا رويدًا قوم بعد قوم كل شهرٍ قوم وكل سنة قوم وكل حين قوم، قال: قلت لهُ: أي سيدي رأيتك تقول عقيب النداء: نعم نعم فقال لي: أي إبراهيم أطلعني الله جل جلالهُ على أرض قومٍ كلهم مشركين فأعرضت عليهم الإسلام فأسلموا وتوَّبتهم وأردت الخروج من عندهم فألزموني وقالوا لي: نريد الصحبة معك غدًا في دار السلام فقلت لهم: نعم نعم، وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «خير الأصحاب عند الله تعالى خيرهم

إدريس قدس سره ممن تاب على يديهِ وقد كان بلغ من العمر مائة وثلاثين سنة، قال اجتمعنا يومًا من الأيام مع جماعةِ من الفقراء حول سيدي الشيخ علي بن إدريس قدس سره فقلنا لهُ: حدِّثنا عن أعجب ما رأيتهُ في سياحتك، فقال لنا: أعجب ما جرى لي أنني انحدرت في بعض الكرَّات إلى بلد البطيحة فوجدت فيه الشدائد والتعب العظيم لم أجد مثلهُ أبدًا حتى كرهت نفسي وأنا مع ذلك لا أسأل أحدًا ولا أركن إلى أحد ولا لي مستقر وبقيت كذلك أيامًا حتى انتهيت إلى أُم عبيدة ودخلت إليها، وقلت في نفسي: أريد الساعة خبزًا وتمرًا وشيرازًا فلم يتم خاطري حتى سمعت صوتًا من أعلى مني يقول: أي سيدي علي ارفع رأسك وخذ فرفعت رأسي فرأيت زجلاً نحيف الجسم وقد أخرج يده من كوّة البيت وفي يده كفُّ خبزٍ وتمرٍ وشيرازٍ كما خطر بسرّي وأرماها إليَّ وقال لي: كل هذه حتى أنزل إليك قال: فأخذتها منهُ وجلست مكاني على باب داره آكل فلم ينزل حتى فرغت من الأكل وشبعت، ثم إنه فتح الباب وقال لي: بسم الله ادخل، فدخلت فبدأني بالسلام فسلّمت عليهِ فردّ بأحسن ردٍّ وأظهر لي السرور والبِشر وقرَّبني وحدَّثني كأنهُ كان يعرفني من قديم الزمان، ثم إنهُ أخذ بيدي إلى موضع جلوسهِ وإذا تحتهُ قطعة بالية وجعل يأخذ بقلبي ويسألني عن حالي وسفري وجعل يحدُّثني بحديثٍ عجيبٍ عرفتهُ كلهُ من أوله إلى آخره لم أنكر منهُ حرفًا واحدًا، ثم حدَّثني بحديث آخر عرفت بعضهُ وأنكرت بعضهُ، ثم حدَّثني بحديث آخر فلم أعرفه كلهُ ولا علمت ما قال إلاَّ كنت كأنني عجمي وهو عربي، ثم ودعتهُ وخرجت من عنده وأنا مشغول بما قال لي، قال: فلما سمعنا قولهُ قلنا لهُ: أي سيدي أقسمنا عليك بالعزيز سبحانهُ وتعالى أن تخبرنا عن هذا الرجل والحديث الذي حدَّثك بهِ وعرفتهُ وعن الحديث الذي حدَّثك بهِ ولم تعرفهُ، فقال: نعم أما الشيخ الذي كلمني وأدخلني بيتهُ فهو سيدي الشيخ الكبير أحمد الرفاعي، وأما الحديث الذي حدَّثني بهِ وعرفتهُ كلهُ فإنهُ عن نفسي وحالي وطريقي وما أنا عليهِ من مبدأ أمري إلى آخره فعرفتهُ ولم أنكره، وأما الحديث الذي حدَّثني بهِ فعرفت بعضه وأنكرت بعضه فأحوال الخلق والذي هم عليهِ فمنهُ من عرفتهُ ومنهُ مَن لم أعرفهُ، وأما الحديث الذي حدَّثني بهِ فلم أعرفهُ ولم أعرف منهُ حرفًا واحدًا فمن نفسهِ وحالهِ ومقامهِ وما هو عليهِ فهذا شيء ما عرفتهُ ولا وصلت إليهِ، ثم إنهُ رضي الله عنهُ أثنى على الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ الثناء الحسن وقال لنا: أي فقراء هذا رجل لا يعرفهُ أحد ولا يصل إليهِ وصف واصفٍ لأنَّ كلّ الرجال تعرف أحوالهم ومقاماتهم وهذا رجل لا يعرف ولا يوصف لأنهُ متمسك بأخلاق رسول الله ﷺ وأقوالهِ وأفعالهِ فلذلك كان الله لهُ باطنًا وظاهرًا وهو

حظهُ ونصيبهُ كما قيل: أوحى الله تعالى إلى داود عليهِ السلام: يا داود قل لأوليائي ما ضرَّكم ما فاتكم من الدنيا بعد أن كنت لكم حظًا.

وذكر في أُم البراهين أيضًا ما حكاه لنا الشيخ أبو بكر الخطيب قدس سره قال: قدم بلدنا في بعض السنين رجلٌ يقال لهُ الأصهب من بلاد الشام، وكان كبير القدر عظيم الشأن وفي صحبتهِ خلق كثير من العرب، وكان رجلاً مبصرًا وكان الوقت معسرًا فاجتمعت بهِ وخدمتهُ وأصحابهُ وبقي عندي أيامًا فقال: أي خطيب تقدر أن تجمع بيني وبين سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ في خلوةٍ إذا انحدرت معك إليهِ؟ فقلت لهُ: نعم فلما سمع كلامي نهض قائمًا على قدميهِ وقال لي: قم بنا ننحدر إليهِ، قال: فقمت معهُ وانحدرنا إلى أم عبيدة ودخلنا على الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ فوجدنا عنده الناس فأخبرتهُ فقال: سمعًا وطاعةً ثم إنهُ أخذ بيد الرجل إلى بيت ماهان خادم الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ، ثم جمعت بينهما خلوة فلما اجتمعنا وسلَّم كلٌ واحد منهما على صاحبهِ سلام المعرفة كما قال القائل:

عَرُوفُ بسري سرُّها وبغربتي تَغَرُّبُهَا والشكلُ بالشكلِ عارفُ

ثم إنهما تحدثا زمانًا طويلاً فلما أرادا أن يفترقا قال الأصهب: أي سيدي أهل السمٰوات وأهل الأرض متوقفون أن تسأل الله في حق الخلق، قال: فالتفت الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي إليه وقال لهُ: أي مبارك لا يؤاخذك الباري لا تعلمني الغلط، الرجل يسأل مَن لا يعلم ويخبر مَن لا يدري ويفهم مَن لا يفهم، أي مبارك أليس هو مطلعًا على خلقهِ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؟ فقال لهُ الأصهب: بلى أي سيدي، فقال لهُ: أي مبارك أول ما يهلك حميد وذريتهُ أن يعارضِ الله فيما يصنع في مملكتهِ، ثم نهض من عند سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ وخرج إلينا ووقع يخور بنفسهِ ويبكي ويقول: ما سمعنا ولا نسمع ولا رأينا ولا نرى أنهُ جاءَ رجلٌ أو يجيء مثل هذا الرجل، ثم إننا خرجنا وسرنا حتى بعدنا عن أُم عبيدة بقليل فقال لي: أي خطيب خذ لي العهد من هذا الرجل حتى لا يفوتني، قال: فأخذت عليهِ العهد ثم قال لي: أي شيخ أبو بكر قلت: لبيك، قال: قل عني إن هذا آخر القوم شرابًا وأولهم قدمًا ثم سرنا حتى وصلنا إلى أصحابهِ فحدَّثهم بما جرى لهُ مع سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي، ثم أمرهم بزيارتهِ والسلام عليهِ والتوبة على يده، ثم إنهُ التفت إليَّ وقال لي: أي شيخ أبا بكر اعلم أن هذا الرجل ختم الله بهِ الولاية كما ختم بمحمدٍ ﷺ النبوّة، ثم إنهُ تنفّس نفسًا فقضى نحبهُ ولحق بربهِ في تلك الساعة رضوان الله عليهِ، ومثل هذا كثير ذكره

الصوفية الكرام في طبقاتهم والأفاضل العظام في مكتوباتهم فلا حاجة للإطناب في هذا الباب فإن ما شهد لهُ بهِ الأئمة الأخيار وبشَّر بهِ صدور الدين الأبرار شهدت لهُ بهِ أخلاقهُ الكريمة وقامت بتأييده واستقامتهِ وهمتهِ العظيمة، فرضي الله عنهُ وعن أولياء الله أجمعين ونفعنا بهم آمين.

فليُعلم أن أشرف الخصائص خصيصة الاقتداء بهِ عليهِ الصلاة والسلام وأعظم الأحوال ما طابق حالهُ السامي المقام، كيف لا وقد قال عليهِ الصلاة والسلام: «حسن الخلق خلق الله الأعظم»[١] وقال عليهِ السلام: «حسن الخلق نصف الدين»[٢] وقال عليهِ السلام: «خياركم أحاسنكم أخلاقًا»[٣] وقال أيضًا: «خير الناس أحسنهم خلقًا»[٤] وقال عليهِ صلوات الله وسلامه: «خيركم إسلامًا أحاسنكم أخلاقًا» الحديث وقال: «الخلق الحسن يذيب الخطايا كما يذيب الماء الجليد، والخلق السوء يفسد العمل كما يفسد الخل العسل» وقال أيضًا: «الخلق الحسن لا ينزع إلا من ولد حيضة أو ولد زنية» ومما يؤيد هذا الحديث قولهُ عليهِ السلام: «خصلتان لا يجتمعان في مؤمن البخل وسوءُ الخلق»[٥] والأحاديث الواردة في فضل حسن الخلق وذم سوءهِ كثيرة جدًا ومنها يدرك مراتب الرجال وعلو قدمهم، وتفاوت المراتب كتفاوت الأخلاق وتلك قاعدة أيّدها الكتاب المبين وشيدها كلام سيد المرسلين فلذلك أحببت أن أدرج في هذا الكتاب المستطاب ما اتصف بهِ سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ من الحلم والإشفاق والتواضع وكرم الأخلاق وقد لخصت ذلك من كتب عديدة منها أُم البراهين وجلاءُ الصدا والمنن الشعرانية والطبقات المناوية والنجم الساعي والطبقات السبكية وغير ذلك، قال ابن جلال رضي الله عنهُ في كتابهِ جلاء الصدا ناقلاً عن صاحب الترياق قدس سره أنهُ قال: كان السيد أحمد الرفاعى رضي الله عنهُ هين المؤونة غني النفس حسن المعاشرة دائم الإطراق كثير الحلم كاتمًا للسر حافظًا للعهد كثير الدعاءِ للمسلمين، هينًا لينًا يصل من قطعه ويعطي من منعه ويعفو عن من ظلمهُ ويحسن مجاورة مَن جاوره ويصفح عن سيئات الإخوان، ويطعم الجائع ويكسي العريان ويعود المريض برًا كان أو فاجرًا ويشيع الجنائز ويجالس الفقراء، ويرى الأكل مع المساكين ويرى الصبر على الإذاء ويبذل معروفهُ وينصح عدوه ويبدأُ مَن لاقاه بالسلام، إن منع صبر وإن فتح الله عليهِ بشيء

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٤٠٦)، باب الترغيب في الخلق الحسن وفضله، حديث رقم: ١٧، وأخرجه في كنز العمال (٣/٣) باب الأخلاق، حديث رقم: ٥١٤٠.

(٢) أخرجه في كنز العمال عن أنس (٣/٣) باب الأخلاق، حديث رقم: ٥١٤١. وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه عن أنس (١٢/١١) باب العين، حديث رقم: ٦٣٧٠.

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن ابن عمر (٢/٢٢٦) كتاب البر والاحسان، باب ذكر البيان بأن من خيار الناس مَن كان أحسن خلقًا، حديث رقم: ٤٧٧، وابن أبي شيبة في المصنف (٨/ ٥١٤)، وأحمد في المسند (٢/ ١٦١).

(٤) أخرجه في كنز العمال عن ابن عمر (٣/٨)، باب الأخلاق، حديث رقم: ٥١٦٨.

(٥) الحديث أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب عن أبي سعيد الخدري (٣/ ٣٨١) باب الترهيب من البخل والشح، حديث رقم ١٢.

آثر وإذا دعى ما يقول للداعي إلى أين ويكنس الرواق والمسجد بنفسهِ، ويظهر الفرح لفرح الناس والغم لغمهم ويحث على فعل الخيرات ويرشد إلى مكارم الأخلاق وإذا خاطب أحدًا يقول: أي سيدي كبيرًا كان المخاطب أو صغيرًا، وإذا عجب من شيء يتبسم ويكره القهقهة ويصلُ ذوي الرحم ويقبل عذر المعتذر إليه وربما عذره قبل اعتذاره، خوفُه أكثر من فرحه يفوح من نفسهِ رائحة الكبد المحترق إذا مشى في الطريق لا يلتفت يمينًا وشمالاً ولا ينظر إلا موضع قدمه، يأخذ بأيدي العميان ويقودهم ويخفض جناحه لهم ويسألهم الدعاء ويتردد إلى أبواب المساكين ويحمل لهم الطعام ويعرفهم نفسهُ، ويخرج بالقربة على كتفهِ ليلاً والناس نيام فيمليها ويحملها إلى بيوت الأرامل والمساكين ومن ليس لهُ جلد ويقصد المرضى والمجذبين ويلزمهم ويتعاهدهم ويغسل ثيابهم ويحمل الطعام إليهم ويأكل معهم ويسألهم الدعاء لهُ وللناس وكان لليتيم كالأب الشفيق وللأرامل كالزوج الأليف، إذا أراد أن يتكلم بكلمةٍ اعتبرها قبل أن يخرجها من فيّهِ فإن رأى فيها إصلاحًا تكلم بها وإلا ردّها، وكان يشق عليهِ تضييع نفس من الأنفاس في غير طاعة الله تعالى ولا يفرّط في شيءٍ من وقتهِ ويقول: مَن اشتغل بما لا يعنيهِ فاته ما يغنيهِ وكان ينشد شعرًا:

يا أيها المعدود أنفاسه ... يوشك يومًا أن يتم العدد

وكان في كثير من أوقاتهِ يتأسف ويقول: قد بقي القليل. وكان لا يرى الاشتغال بشيءٍ من الدنيا عند دخول وقت الصلاة. طلب مرة ماءً يشرب فسمع الأذان فقال: حضر حق الحق وبطل حق النفس، وكان يصفر لونهُ إذا وقف في الصلاة وإذا صلّى صلاة الصبح جلس مكانهُ حتى تطلع الشمس ويتركع موضعهُ الضحى والإشراق ودموعه غزيرة وأوجاعهُ كثيرة وبكائهُ طويل وفرحه قليل وكان ينشد شعرًا:

والله لو علمت روحي بما علقت ... قامت على رأسها فضلاً عن القدم

وكان إذا خلا أحيانًا وقف على رأسهِ ليلاً كان أو نهارًا عرف ذلك مَن كان يصحبهُ ويدخل عليه في خلوتهِ يقرأ آية الكرسي دبر كل صلاة وأكثر ما يقرأ فاتحة الكتاب في طرقاته ويحافظ على الوضوءِ ويأمر باستدامتهِ، وإذا مرّ بمسجد دخل وصلّى فيهِ حضرًا كان أو سفرًا، وإذا دخل منزلاً أودعه ركعتين لأدب شعاره وتواضع آثاره ومرَّ يومًا بصغار يتخاصمون فخلّص بينهم ثم قال لواحد منهم: أي ولد ابن مَن أنت؟ فقال لهُ الطفل: أي شيءٍ مقصودك من هذا؟ فقال: صدقت أي ولدي جزاك الله الخير وجبرك كما أدبتني. ورأى يومًا زوجتهُ الصالحة رابعة جعل الله الفردوس مأواها وبلّغها من أعلا الدرجات مناها تطحن بالرحا فجلس معها وساعدها في الطحن واشترى يومًا سمكة من السوق

فحملها بنفسهِ ولم يمكّن أحدًا من حملها، وكان إذا وجد شيئًا من الأذى في طريقهِ يزيلهُ بنفسهِ ويرفعهُ بيده، ثم يمضي ويغسل يديهِ منهُ ويقول لهُ الفقراءُ في ذلك فيدعو لهم ويقول: هذا شرف يدي بشيءٍ أعظم من هذه الجنة ولا يخفي على أحد ولا يحتقر ما أهدي إليهِ ولو كان حشفًا، ولا يقبض يده عن مَن أراد مصافحته ولا يمكن أحدًا من تقبيل يده، ولا يدعو أحدًا يحمل معه، ولا يستخدم أحدًا من الفقراءِ في حاجتهِ لنفسهِ ولا يتجاسر أن يلغو بين السنة والفرض، ولا يجري ذكر الدنيا في مجلسهِ ولا يستدبر القبلة غالبًا احترامًا للكعبة زادها الله تعالى شرفًا، ولا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله تعالى، ولا يقول في الرضاءِ والغضب إلا حقًا ولا يرى الشكوى إلى سلاطين الأرض، وإذا انقطع أحد من الفقراء عن الجمعة والجماعة يسأل عنهُ إن كان مريضًا عاده أو بعث مَن يعوده وإن كان انقطاعه لحاجتهِ أعانهُ على قضائها، يحب النفقة على الإخوان والأكل معهم ويحب تعجيل الأكل ويقول: هي حاجة أقضيها وأرجع إلى حاجة أخرى وكان يقول: ينبغي للفقير إذا أكل أن يأكل بنية أن يتقوّى به على طاعة الله تعالى، وكان يقول عند تقويم الطعام الصلاة، ويكره أكل الخبز المحترق ومسح اليد بالخبز وأن يتكلّف الشخص لضيفهِ، وينهى عن الشبع ويقول: هو سبب الآفات، يمسح الآنية ويلعق أصابعهُ ويلتقط الفتات ويكره للآكل أن يمتنع عن غسل يده بعد الطعام إذا عرض عليهِ ويقول: لا يأبى الإكرام إلا أحمق، فإذا صنع في بيتهِ ينفذ منهُ شيئًا إلى الجيران، وإذا رأى شيئًا من الخبز ملقًى على الأرض يغضب كالغضب لشيءٍ كتب فيه اسم الله تعالى، ويشرب الماء في ثلاثة أنفاس، أكمام ثوبه إلى رؤوس أصابعه وعمامته قصيرة ولا يجمع بين الثوبين بالله تعالى، ويأمرهم بالتمكن والتقلل من الدنيا، ولُبسِ المرقعة، ويحثهم على العمل بما عملوا وعلى الكسب ليستغنوا عن الناس، ويقول: تسبيحات في الليل أفضل من كسب المعاش، وكان يرغبهم في قيام الليل ويوصيهم بعيادة المرضى وإذا سمع بمريض في قرية ولو على بعد يخرج ماشيًا لعيادتهِ، وكانت الأرض تطوى لهُ بإذن الله تعالى، وكان يحذر الفقراءَ الوسواس في الوضوءِ والصلاة ويكره لهم دخول الحمام ويكره لهم المسألة إلا لمن لا يستطيع الاكتساب فحينئذٍ يسأل لدفع الضرورة ويحرض المرأة على طاعة زوجها، وكان يستبعد أنَّ أحدًا يكذب، وقال يومًا لبعض أصحابهِ: يقولون في الدنيا ممن يستحلُّ أن يكذب وجعل يتعجب من ذلك، وكان ينهى الفقراء عن النظر إلى الأغنياءِ ويقول: إن ذلك يفتن القلب ويحجبه، وينهى عن شره الطعام وعن فضول الكلام، وينهى عن المطالبة بهذه الحقوق المتعارفة بين الفقراء، وينهى عن مصاحبة الظلمة والنظر إليهم والمعونة لهم ويقول: ذلك يُقَسّي القلب ويُسخِطُ الربَّ، وينهى عن أخذ ما يسقط تحت النخل منها بغير إذن صاحبها،

ويغضب من قول شخص لآخر: ويلك فكيف مما سوى ذلك. ومنع خادمه مدة من خدمتهِ لأنهُ سمعهُ يقول لفقير: أي ابني، وإذا رأى من إنسان ما لم يعجبهُ يقول لهُ: لا واخذكَ الله، ولم يتجرّد لنفسهِ قط إنما كان تجرّده لله تعالى استوى عنده الضر والنفع والعطا والمنع، ويرى الكل من الله عزّ وجلّ، وعلم أنهُ لا مانع لما أعطي ولا معطي لما منع لا يقعد إلا قعود الخائف المسكين، أكثر قعوده إذا لم يكن في عمل حاجة أن يقيم رجليهِ ويترك يديه عندهما وإذا جاءهُ أحد من الأفاضل تنحّى لهُ وأقعده مكانهُ، وكان يجتهد في الإحسان إلى مَن يسيءُ إليه ومواصلة مَن يسبهُ وفي الإحسان إلى الإنسان ابتداءه من غير مسألة ويقول: الحاجة لي لا للفقير والمحتاج، وكان يفرّق جميع ما عنده من الغلّة العتيقة على الضعفاء والمساكين قبل دخول الغلّة الجديدة منزله، وكان إذا كتب كتابًا يبتديه بالصلاة على النبي ﷺ ويختم بما أعطى لسان الحال وكان يربى بحالهِ أكثر مما يربى بمقالهِ، وكان إذا رأى شخصًا وقد شاب في الإسلام يقبل يده ويوقره ويتواضع لهُ ويسألهُ الدعاءَ ويتبرّك بهِ ويقوم لهُ: إذا أقبل وربما مشى نحوه خطوات وربما قال لهُ: كرّم الله هذه الشيبة وإذا رأى شابًا مقبلاً على الطاعة يقبّل يده ويقربهُ ويدنيه ويقول لهُ: ادع لي فأنت شاب تائب، وإذا رأى طفلاً يقبلهُ ويدنيهُ ويسألهُ الدعاءَ، ويقول: أولاد المسلمين ما لم يبلغوا الحلم لم يكتب عليهم الملك خطيئةً، وكان إذا سألهُ أحد أن يدعو على الظلمة يقول: اللّهم أصلحهم وأرشدهم وألهمهم طاعتك وذكرك ووفقهم لما تحبُّ وترضى برحمتك يا أرحم الراحمين انتهى قول صاحب الترياق. واعلم أن في البراهين والشفا مذكور متفرقًا جميع ما ذكره مجتمعًا.

قال صاحب البراهين في كتابهِ: كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ كاتمًا للسرّ بائحًا للذكر صحيح العقد حافظًا للعهد جليس الحسرات خاليًا من الشهوات، صبره بغير جزع وورعهُ بغير هلع عيشهُ قناعة وجوعهُ طاعة، إن منع صبر وإن فتح الله عليهِ بشيء آثر لا يعرف الراحة ولا يأمل الاستراحة كثير الصيام والقيام قليل الكرى[1] والمنام، اشتغاله مطالبة النفس بالتصحيح وخرس اللسان عن الكلام القبيح، قد تسربل بسربال الرضا وصبر تحت مرّ القضا، أكلهُ أكل المرضى وشربهُ شرب الغرقى دموعهُ غزيرة وأوجاعهُ كثيرة فلما كانت هذه صفاتهُ علت عند الله تعالى منزلتهُ ودرجاتهُ، وقال: كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ كما قال رسول الله ﷺ: «خياركم الذين إذا رأيتموهم ذكرتم الله تعالى وإذا رأوكم ذكروكم الله تعالى»، وإذا رآه الغافل تذكر وإذا رآه محسن الظن ازداد

(١) الكرى: النوم، والكرى: النعاس يكتب بالياء والجمع: أكراء (لسان العرب).

وتنوّر وكان ينتفع بهِ الآتي ويصلح بهِ العائد ويتقيد بهِ الخاطر المتبدد ويتجدد بنظره عهد المتعهد، يحلم على العاتب ويستر على الغائب، كلامهُ حكمة وسكوتهُ فكر، وقال قدس سره: كان السيد أحمد الرفاعي مقتفيًا آثار النبي ﷺ وآثار أصحابهِ رضوان الله تعالى عليهم أجمعين لا يخرج عما كانوا عليهِ مما جاءَ بهِ الكتاب والسنة، وكان قصده إحياء سنتهم وإقامة طرقهم وإيضاح منهجهم، ويقتدي بقول رسول الله ﷺ: «رحم الله خلفائي ثلاث مرّات، قيل: مَن هم خلفائك؟ قال: الذين يحيون سنتي ويعلمونها بها عباد الله تعالى». وقال قدس سره: كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ ينفع الناس بيده ولسانهِ ومالهِ ومقالهِ وأفعالهِ واحتماله وكرمه، شرب بكأس الصفا فصفت أسراره عن الكدورات والجفا، وتقمَّص بقميص أهل التُّقى فاستوجب بذلك العلو والارتفاع كما قال الشاعر:

مَـن عـامـل الله بـتـقـواهُ وكـان فـي الـخـلـوة يـخـشـاهُ
سقاه كأسًا من لذيذ الصفا يـغـنـيـهِ عـن لـذة دنـيـاهُ

وقال قدس سره: كان شجرة الظل ومأوى المستظل جاء على رأس الفترة، فكشف غياهب ظلام الوقت بنور معرفتهِ وقمع سلطان البدع بسيف ولايتهِ وطرد جيوش البغي بقوة سلطان عزيمتهِ وبلغ بذلهِ ومسكنتهِ وفقرهِ وفاقتهِ وخضوعهِ وخشيته وخشوعهِ ورقتهِ ما لم ينلهُ غيره بالاجتهاد ولا وصل إليه أحد من العباد، جلى غمة العمى بتواضعهِ وأخمد نيران البغي والعنا بتخضعه، وأوضح معالم محجة الحقيقة للمريدين وبين ببيان الخير لأرباب اليقين وتردَّى برداءِ الخوف والحنين، حزنهُ أكثر من فرحهِ، كان إذا تنفس تكاد أنفاسهُ تحرق جلاسهُ، اتبع الحق ولزم الصدق وخرج عن الخلق ولم يرد إلا الله وحده في سائر أحوالهِ وأقواله وأفعالهِ قرّت عينهُ بالله وارتكن بكلهِ إلى الله وإلى رسولهِ ﷺ ولم يرغب فيما سوى الله أقرَّ الله بهِ أعين الناظرين ولم يخيب فيهِ أمل الآملين، طرح نفسهُ في العبودية وعلَّق قلبهُ بالربوبية، وقال قدس سره: كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ مخلوقًا من الرحمة مؤيدًا بالثبات والعصمة، هدى قلبهُ بالنجاح وأرشده للفلاح وجعلهُ نورًا يهدي إلى سبيل الرشاد، إذا تكلّم بخضوع وإذا صَمَت بخشوع، كان يسكت حتى يقال: إنهُ لا يتكلم ويتكلم فيشفي بكلامهِ العليل ويبل بعذوبتهِ الغليل، ترك نفسهُ غرضًا للأغراض خوفًا من الهجر والإعراض، تواضع للناس من غير حاجة إليهم وكظم غيظهُ من غير ضجر، ويقول: إذا رضي ربي فقد هانت عليَّ مصائبي، وإن أبعدني فقد عظمت عليَّ نوائبي، وقال السيد إبراهيم الأعزب قدس سره: كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ يعقل الدابة ويتصدَّى لكنس الرواق والمسجد بنفسهِ، ويتخذ النعل من الصوف

الأبيض، وما لبس قط ثوبًا إلا مرقوعًا يأكل مع المرضى والموجوعين وأصحاب العاهات، وكان لين العريكة هين المؤونة سهل الخلق كريم النفس حسن المعاشرة بسَّامًا من غير ضَحِك محزونًا من غير عبوسٍ متواضعًا من غير مذلَّةٍ جواد من غير سرفٍ قد جمعت فيهِ مكارم الأخلاق وسيرة السلف المتقدمين، وفي بعض السير كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ فقيهًا تقيًا عالمًا قارئًا مجودًا محدِّثًا ولهُ إجازات وروايات عالية إذا تكلم أجاد وإذا سكت أفاد، وقال السيد عبد السلام كان السيد أحمد الرفاعي يتخذ الفقر غنًى والذل لله عزًا والصبر على المكاره راحةً والدنيا سجنًا، قوتهُ ما وُجِد ولباسهُ ما سَتَر العورة ومعاملتهُ لله تعالى هي معاشهُ وتجارته والبلاء عنده نعمة، يعتمد على الله تعالى في جميع الأمور سرًا وعلانيةً ويقول: من اعتصم بالمال قلَّ ومن اعتصم بالمخلوقين ذلَّ ومن اعتصم بالله تعالى جلَّ، وقال الشيخ يعقوب قدس سره: كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ لا يعرفهُ أحد إلا بذل وانكسار وخضوع وخشوع وافتقار ومسكنة وتواضع واحتقار، كان فيهِ جميع آداب الفقراء والصالحين والأولياء متحليًا بحلية الأنبياء والمرسلين.

وقال الشيخ مقدام رضي الله تعالى عنهُ: كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ ملازم الحزن والاضطراب دائم الهلع والاكتئاب كثير البكاءِ والانتحاب يؤدِّب النفس بالرياضات ويؤدب القلب بالمعارف، كان بكاؤهُ بأدبٍ وجلوسهُ بأدبٍ ونومهُ بأدبٍ وقيامهُ بأدبٍ كلامهُ يمنع الصدى وهمتهُ لا تعرف الردى، يأمر بالمعروف لأهلهِ وينهى عن المنكر وفعلهِ، ويقتدي بقولِ الله تعالى: ﴿لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقةٍ أو معروف أو إصلاح بين الناس﴾ [النساء: ١١٤] وقال خادمهُ: كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ أبا الأيتام ربيع المساكين للأرامل كالزوج العطوف وللضوائع يلهف كما يلهف الحزين على الولوف ملقى المحتاجين وكعبة الصادقين ومنهل عذب الواردين، يجبر اليتيم ويربيهِ ويقرب المساكين، يعطي الأرامل من غير سؤال ويمنح الضوائع من غير إمهال ويسعف المحتاج من غير إهمال، ويتحنن على القاصد بشفقتهِ ويتلذذ الوارد بعذوبتهِ ويتقرب إلى الخلق بقضاءِ حوائجهم وإيصال الراحة إلى قلوبهم، ولم يزل إذا قال قولاً اتبعهُ بصحةِ الفعل وصدق القول ولم يخالف قولهُ فعلهُ، وقال خادمهُ ماهان رحمة الله تعالى عليهِ: خدمت السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ عدة سنين ما رأيتهُ ترك أحدًا يبدؤه بالسلام ولا ردَّ أحدًا خاليًا ولا رأيتهُ عاب شغلاً عملتهُ، ولا قال لي إذا لم أعملهُ لمَ لا تعملهُ ولا جفاني ولا حرد عليَّ يومًا قط، وكان السيد أحمد الرفاعي رحمة الله تعالى عليهِ إذا رجع من بعض الأماكن وقَرُبَ أم عبيدة يقف ويشد وسطهُ ويلف كميه ويأخذ حبلاً يكون مدخرًا لهُ مع بعض أصحابهِ الفقراءِ فيمده على الأرض ثم يجمع عليهِ

حطبًا ويشد حزمتهُ فيبادر الفقراءُ فيصنعون مثلهُ ثم يخرجون معهُ ويحملون الحطب على رؤوسهم ويأتون على باب الرواق ثم يفرّقهُ السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ على الأرامل والمساكين والمرضى والزَّمنى والمشايخ باتفاق الفقراءُ ويقول: الشفقة على الإخوان مما يقرب الله تعالى، وكان من عادة السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ إذا طابت نفسهُ شرب الماءَ وهو بين الفقراء وقام من بينهم وشرب ثم رجع مكانهُ، وكان ذلك يصعب على الفقراء فيقولون لهُ: أي سيدنا ما يصلح لك منا فقير يسقيك حتى تقوم أنت بنفسك، فيقول لهم: أي سادة وحياتكم ما أنتم إلا أعز من عيني لا جعلني الله تعالى من يستخدم الفقراء. وكان رضي الله تعالى عنهُ قد أصبح يومًا في المجلس بين القراءِ وطال المجلس إلى نصف النهار وكان يومًا شديد الحرّ فأخذه العطش فصبر ولم يشرب الماء حتى انقضى المجلس وتفرّق الناس، ثم نهض وأتى الدار فوجد قدحًا على التنور وفيهِ ماءٌ وسخ من غسل الأيدي من العجين، وعلى حائط الدار كُوَّةٌ جديدة من الماء البارد فأخذ القدح ليشرب منهُ فقالت لهُ نفسهُ قد عذبتني نصف النهار بالعطش وتسقيني هذا الماءَ الوسخ، فلما رأى منها هذا النزاع ألقى القدح من يده وأقسم أن لا يذيقها الماء سنة وفعل. وجاءَ رجل من أهل أم عبيدة إليهِ رضي الله عنهُ ليلة من الليالي في رمضان ودعاه إلى منزلهُ ليفطر عنده تلك الليلة، وكان ذلك في الصيف في شدة الحر وكان عادة السيد أحمد الرفاعي أن يصلي ركعتين نافلة بعد المغرب فلم يدعهُ الرجل أن يصلي بعد المغرب سوى ركعتي السنة، فمشى معهُ فلما وصل إلى بيتهِ تركهُ واقفًا على الباب ودخل البيت ليهيء لهُ موضعًا يجلس فيهِ، فاشتغل بأهلهِ وأولاده ونسي السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ فأكل وأفطر ثم نهض فخرج إلى صلاة العشاء فوجد السيد واقفًا مكانهُ فكشف الرجل رأسهُ وقال: والله يا سيدي نسيتك، فقال: أي ولدي ما كان إلا الخير نمشي ونصلي العشاء الآخر ونرجع ونفطر وأقام الرجل ولم ينزعج مما وقع منهُ.

ونُقِلَ أن واحدًا من أهل أم عبيدة هَيَّأ طعامًا ودعى السيد أحمد الرفاعي عليهِ الرحمة والرضوان إليهِ فأجابهُ إلى ذلك فلما وصل إلى بابهِ قال لهُ: ارجع ثم جاءه ثانيًا فأجابهُ فلما وصل إلى بابهِ قال لهُ: ارجع فرجع ثم جاءهُ ثالثًا فدعاه فأجابهُ فأدخلهُ الدار وفرش لهُ وأجلسهُ ثم كشف رأسهُ وقال لهُ: أي سيدي أنا أستغفر الله تعالى مما جرى مني فوالله ما رأيت أحدًا على هذا الطريق الذي أنت سالكهُ، فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ: أي ولدي ما كان إلا الخير، أي ولدي تستكثر عليَّ خصلة من خصال الكلب ثم خرج وهو راضٍ. ونقل أن فقيرًا دعاه إلى بيتهِ ليضيفهُ فأجابهُ إلى ذلك وليس في بيتهِ شيء يأكلون. فقال لهُ بعض الفقراء: إذا أنت لم تحضر طعامًا فأي

شيء مقصودك من إحضارنا؟ فقال الفقير: ليفتح الله علينا ببركتكم ونأكل، فصدَّقهُ السيد أحمد الرفاعي وقام معهُ هو والفقراء وخرجوا ففتح الله تعالى على الفقير بعد ذلك كثيرًا، ونقل أن السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه دخل ليلةً حضيرة البقرة بعد أن نام الناس فوجد لصًا هناك فلما رآه اللص فزع منهُ فعلم السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ أنهُ فزع منهُ فدنا منه وقال: أي سيدي أي مبارك لا بأس عليك ما عندك إلا الخير أي ولدي أظنك ضعيفًا وهذه بقر الفقراء عجاف بل تعال خلفي حتى أدلّك على ما ينفعك، ثم أتى بهِ إلى مطيةٍ هي ملكه قد رباها السيد إبراهيم الأعزب فقال له: أي ولدي حلَّ هذه المطية وخذها قبل أن يأتوك الفقراءُ فحلَّها وأخذها وهو خائف أن يستهزىء بهِ، ثم خرج بها يقودها والسيد أحمد الرفاعي يسوقها خلفهُ حتى عبر من أُم عبيدة في المعبر إلى قرناتا ولم يزل يسوقها خلفهُ حتى خرجا إلى ظاهر القرية فوقف السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ ثم أراه الطريق. وقال: أي ولدي خذ هذا الدرب إلى دقلى فثمَّ يجيءُ القوافل فبعها من بعض الناس وخذ ثمنها وأنفقهُ على عيالك واستعن بهِ على وقتك، ثم ودَّعهُ ورجع فلما أصبح دخل عليهِ السيد إبراهيم الأعزب وهو يبكي وكان يومئذٍ صغير السن فسألهُ عن سببه، فقال: إن المطية قد سرقت، فقال: أي ولدي في سبيل الله لا يغتمّ صدرك فربنا يخلف علينا وعليك خيرًا منها فالذي أخذها ما بقي يردها والذي أبصره ما يقرُّ عليهِ، ولم يزل يلاطفهُ حتى سكتهُ وأزال ما عنده، وأما آخذ المطية فإنهُ وصل إلى دقلى وباعها وأصلح حالهُ ثم تفكّر في حلم السيد أحمد الرفاعي فرجع إلى أُمّ عبيدة وتاب على يديهِ وأخلص وصار من الصلحاء.

ونقل أن السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ مشى ليلةً إلى بيتهِ فوجد الباب مفتوحًا ووجد لصًا فيهِ يريد أن يسرق الغلّة ففزع منهُ فزعًا شديدًا وكان السعر قد غلا فقال لهُ السيد أحمد الرفاعي عليهِ الرحمة والرضوان: إن الغلّة تتعبك يعني إنها تحتاج إلى تنقية وطحن وهاهنا ما هو أهون عليك من ذلك تعالَ معي حتى أعطيك دقيقًا فسكن روعهُ لما سمع كلامهُ ومشى معهُ إلى موضع الدقيق، فسألهُ السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ: هل معك شيءٌ تحمل فيهِ الدقيق؟ قال: نعم فأخذه منه وملأهُ لهُ دقيقًا فأخذه الرجل وخرج وكان غريبًا، فخرج معهُ السيد أحمد الرفاعي قدس سرّه حتى بعد عن أُم عبيدة. ثم سألهُ السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ قبل أن يفارقهُ أن يجعلهُ في حلٍّ من ترويعهِ إياه حين دخل البيت فعجب اللص من كلامهِ وحلمهِ فجعلهُ في حلٍّ، فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ: أي ولدي طيّبتَ قلبي طيب الله قلبك ثمَّ ودعهُ وانصرف، فلما وصل الرجل إلى أهلهِ تفكر في حال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ وفي

قولهِ لهُ: أي ولدي وحلمهِ وعفوه فرجع إليهِ وتاب على يديهِ وأخلص وصار من أكابر الفقراء.

ونقل أنه تخاصم ليلة فقيران من مجاوري الرواق واشتد الأمر بينهما والخصومة وهما على المشاققة حتى مضى شطر الليل فدخل السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ الرواق وهما يتخاصمان فلما أحسّا به سكتا ورجع كلٌ منهما إلى مكانهِ الذي كان يجلس فيهِ فاستقبل القبلة وصفى إلى وقت السحر، فلما كان السحر قام أحدهم ليتوضأ وكان موضع منامهِ قريبًا من السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ وكان عقيب السيد أحمد الرفاعي الفراغ من الوضوء، فلما تنحّى من مجلس وضوءه وثب إليهِ الخصم ظانّ أن الخارج ما هو السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ فاستولى عليهِ وألقاه على الأرض وبرك على صدره وجعل يضربهُ تارةً باليد وتارةً بالرجل وتارةً يرفعهُ ويدقهُ على الأرض، والسيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ ساكت فلم يزل يضربهُ حتى ضجر الفقير من ضربهِ فدخل غريم الفقير فظنّ الضارب أن الداخل هو السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ فسلّم عليهِ وقال: أنعم الله صباحك أي سيدي. فلما سمع الفقير صوت غريمهِ الداخل عرف ما جرى منهُ وأن المضروب كان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ فسقط مغشيًا عليهِ، فقام السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ ورفع رأسهُ من الأرض وقال له: أي ولدي وحياتك ما كان إلا خير، اكتسبت الثواب فجزاك الله خيرًا، ولم يزل يتلطف بهِ حتى سكن روعهُ فكشف الفقير رأسهُ وجعل عمامته في رقبته وجعل يتمرّغ على الأرض، فقال لهُ السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ: أي ولدي ما كان إلا الخير، فقال الفقير: أي سيدي أسألك العفو. فقال: عفا الله عنك وعنا، وذكر لهُ السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ أنهُ سأل الله عفوه حين الضرب فتاب الفقير وبقي بعد ذلك مدّةً يسيرةً وتوفي إلى رحمة الله فجهزه السيد أحمد الرفاعي وصلّى عليهِ ودفنهُ.

ونقل أن السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ خرج ليلةً وقت السحر ليتوضأ بين النخل خارج أُم عبيدة فمرّت بهِ سفن يصعد فيها الشحنة وجماعة من أتباع الديوان ديوان واسط ومعهم جماعة من المدادين وخلف المدادين رجل جندي من أتباع الديوان فلما نظر الرجل إلى السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ قال لهُ: أي شيخ قم مدّ معنا فقام الشيخ قدس سره ومشى قدامهُ فأدخلهُ مع المدادين وجعل البربند في صدره فمد السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ ولم يتكلم حتى وصل إلى القرية المعروفة ببدروية وقت صلاة الصبح، فرآه فقير فصاح واستغاث فاجتمع الفقراءُ حولهُ وكثر الضجيج فلما علم الشحنة ومَن معهُ أنهُ السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ

انزعجوا مما وقع وعظم عليهم وخرجوا من السفينة ووقفوا بين يديهِ معتذرين مما جرى منهم، فقال لهم: أي سادة ما كان إلا الخير قضينا لكم حاجة وكسبنا حسنة وما ضرَّنا شيءٌ، وها هو أنا لم أزل جالسًا في الرواق لا أعمل شغلاً وأنتم تسخرون حايكًا وضعيفًا أو من لهُ صنعة تبطلونهم عن صنعتهم وتأثمون فيهم فإذا عرضت لكم حاجة فأعلموني حتى أساعدكم فقالوا لهُ: نحن نستغفر الله تعالى مما جرى منا فاعف عنا، فقال لهم رضي الله تعالى: عنكم وعنا، ثم دعى لهم وودعهم، فقال لهُ الرجل الجندي الذي كان قد سخره: أي سيدي هؤلاء القوم قد رضيت عنهم فأنا الشقي أي شيء يكون حالي؟ فقال لهُ: الله يرضى عنك فقال لهُ: أي سيدي توبني فأخذ العهد وتوبهُ وقال: ربنا يشهد علينا أننا إخوة دنيا وأخرى ثم صعدوا إلى واسط وترك الجندي الخدمة ورجع مع السيد، وكان رضي الله تعالى عنهُ إذا أراد أن يمنع أحدًا عن مكروهٍ لا يشافههُ بذلك بل يقول أشياء يعلم أنهُ هو المراد بذلك، وكان أصحابهُ قدس الله أسرارهم يقولون: إنهُ لا يتزيًا[1] بخصلة جميلة إلا دعانا إليها وحرضنا على الإتيان بها.

دخل الشيخ الفاروثي قدس سره ذات يوم على السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ وبين يديهِ رخيتجات فقال لهُ: تعال أبصر أنا مع نفسي في محاربةٍ، وهي تقول كل كلِّ يوم ثلاثًا وأنا أقول اثنين وأكلت رخيجتين ونصفًا، فقال الشيخ عمر: حاشا تكون لك نفس تأبى عليك وإنما قلت لي تنبيهًا على مخالفة النفس في الأكل وغيره، وأتي قدس سره يومًا بطعام يأكل، فقال: جاءت الدنيا فقيل: أي سيدي أكل الطعام دنيا قال: كل ما يشغلك عن الله فهو دنيا. ودخل السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ الرباط مرة فرأى الفقراء في راحة ومسرةٍ وقد علت أصواتهم فقال لشخصٍ معه: مر إلى هؤلاء المباركين وقل لهم: قال لكم هذا المغتر أحمد: أنتم بمن تقتدون؟ هل رأيتموني أضحك هل رأيتموني أسهو هل رأيتموني مسرورًا قط، وكان جماعة يقطعون في عرض السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ في حال حياتهِ يقولون فيهِ القبيح ويسبونهُ وهو لا ينزعج من ذلك بل يدعو لهم بالخير، فعجز من ذلك السيد عبد الرحيم فقال لهُ: أي عبد الرحيم لا تعجز لما تسمعهُ وحق العزيز سبحانهُ لو أن أهل الأرض جميعًا يسمعوني من هذا الكلام الغليظ مثل الجبال ما حركوا مني شعرةً وسألت الله تعالى لهم التوفيق والعفو، أي عبد الرحيم حدهم يزيدنا عند الله رفعة ويزيدهم غلظة، رأوا نعمة الله علينا سابغةً ولو مدحوني وأنا أعلم من نفسي النقيصة فلا ينفعني مدحهم ولا يضرني ذمهم،

---

(١) كانت بالأصل «يزيء» ولعل الصواب ما أثبتناه.

واسأل الله لهم الإصلاح في أمورهم. وفي البراهين أنهُ رضي الله تعالى عنهُ أنشد بعده شعرًا:

إن يحسدوني فإني غير لائمهم ... قبلي من الناس أهل الفضل قد حُسِدوا

فدام لي ولهم ما بي وما بهم ... ومات أكثرهم غيظًا بما يجدُ

وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ يسافر في وقت اعتدال الهواء، وإذا وصل إلى موضع ينزل في بيت أضعف أهلِ ذلك الموضع فإذا رأى الخلقُ أنهُ نزل في بيتهِ تيقنوا أنهُ ليس في الموضع أصلح منهُ فيعظمونهُ والسيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يحرضهم على تعظيمهِ وتوقيره، وكان إذا رأى فقيرًا يسب أحدًا أبعده ويأمر الفقراء بالمهاجرة منهُ حتى يندم من عمله ويتوب، وكان يستحسن أمر الوالي وإجابة دعوى الداعي ويقول: قال الرب جلّ جلاله: «مَن دعي إلى ضيافة فليجب» ولا يلبس الثوب الرقيق ويقول: أمر الله تعالى أئمة الهدى في الدين أن لا يتكلفوا في لباسهم ليقتدي بهم الأغنياءُ ولا يكسر قلوب الفقراء، وكان يقول: مَن رقَّ ثوبه رقَّ إيمانه وكان لا يغسل ثوبهُ بالأشنان والصابون ولا يغسل يده بهما بعد أكل الطعام ولا يستخدم أحدًا في حاجةٍ لنفسهِ ويقول: أنا اخترت الخدمة فكيف يكون للخادم خادم، ولا يجمع في حالةٍ واحدةٍ نوعين من الطعام ولا يأكل أكثر من قرص أو نصفهِ ويقول: إذا أكلت أكثر من ذلك أنام في الليل شبعانًا ويكون في بعض المواضع أناس جياع فأطالب بذلك ويمكن أن تؤدي المطالبة إلى مواخذةٍ، وكان إذا أكل شيئًا يضع ركبتيه تحت أبطيهِ ملصوقتين بصدره لئلا يملأ بطنهُ، ويغسل الظرف الذي أكل منهُ ويشرب ماءه ويقول: قال رسول الله ﷺ: «إذا غسل ظرف من طعام يقول الظرف للغاسل طهرك الله كما طهرتني من الشيطان وإذا شرب ذلك الماء كان شفاء من المرض والجذام والبرص»، وكان ينهى أصحابهُ من تحمل الشهادة وكتمانها، وكان يغير ويبدل أسماء الرجال والنساء ويقول سموا أولادكم أحمد ومحمد ومنصور فإنهُ ليس في هذين الاسمين للشيطان نصيب، وإذا كلمهُ أحد يتوجه إليه وإن كان طفلاً، ويسلم على الصغير والكبير ولا يستقبل في قضائهِ للحاجة القبلة والشمس والقمر، ويداوم بعد الوضوء على كلمات الشهادة ويأمر القراء بذلك، وكان إذا أوتي بتمرٍ أو رطب يتناول منهُ ويقول: أنا أحق بهِ فإنهُ شبهي واشترى البستان المعروف بابن السوادة من ملاكها ثلاث مرات وأعطاهم كلَّ مرة ثمنها وكانوا يمشون خارج أم عبيدة ويأكلون ثمنها ويرجعون إلى أُم عبيدة ليلاً والسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ يسلم إليهم حجة المبايعة بالشفاعة ويشتري منهم مرَّةً أخرى ويعطيهم الثمن فيأكلونهُ حتى فعل ذلك ثلاث مرات فعاتبهُ أنسابهُ على ذلك فقال: أخاف أن يخطر البستان لبعضهم في الليل ويغضب

الله تعالى علينا بسببهم. وحكي أن السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ خرج مع أصحابهِ قدست أسرارهم إلى السفر وكان سفرًا طويلاً، فوصلوا بلدة الهمامية فبينما هم سائرون إذ أبصروا جماعة مصعدين إلى صوبهم وهم الشيخ عتيق المسالم أبادي وأصحابهُ فلما قربوا ترجّل السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ وقال لأصحابهِ: لا يغركم شيءٌ مما تسمعون منهُ واحملوا قولهُ ساعةً ولو رأيتموه يشتمني ويضربني، ثم كشف السيد أحمد الرفاعي رأسهُ واستقبل الشيخ وقبل رجليهِ ورجل مطيته. فأخذ الشيخ سالم أبادي في سبِّهِ وما ترك من الكلام شيئًا إلا قالهُ والسيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ لا يرفع رأسهُ من الأرض وكلما يزيد لهُ السب والكلام القبيح هو يزيد لهُ التواضع والكلام المليح، ويقول لهُ: أي سيدي يسعني حلمك ويحملني فضلك ويشملني عفوك، أي سيدي من أنا وأي شيء أنا قدري حتى تغيظ نفسك ما أنا إلا أقل خدامك وتراب أقدامك، فلما طال بينهما الكلام نزل الشيخ سالم أبادي من مطيتهِ واضطرب وقال: أي شيء أقدر أي شيء أعمل أكثر من ذلك ما بقي لي فيك حيلة اجتهدت أن تغيّر شعرة من جسدك أو ذرة منك لنفسك وآخذ بها الإيمان منك، أي شيء مطلوبك قد غلقت أبواب جميع المشايخ والصالحين بهذا التذلل والتواضع والانكسار، أي أحمد الدولة والمملكة أنت ورثتها وللأولاد تأخذها والشكاية تصير إليك والنعمة لك وعليك باقية وعلى خلفائك وذريتك إلى يوم القيامة، وكلما يقول لهُ أمثال ذلك ما يتغير السيد أحمد الرفاعي عن حالهِ وتواضعهِ ثم تعانقا وتصافحا وانفصلا على رضىً، فقالوا للسيد: أي سيدنا هلكتنا ما الذي أحوجك إلى هذا؟ فقال: أي سادة ما كان إلا خيرًا الذي رأيتموه لو يبقى هذا الذي قاله عنده ولم يقلهُ لنا لهلك، ونحن نأثم بسببهِ، ونقل أن البستي كتب إليهِ كتابًا نسب إليهِ أشياء قبيحة أصون كتابي هذا من ذكرها، فَقَصَّهُ السيد إبراهيم الأعزب وقرأه عليهِ، قال السيد إبراهيم: أنا أقرأ المكتوب وفي خاطري أن السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يغضب من هذا، وإن كان هو لم يغضب قط فلما قرأته إلى آخره قال: لا واخذه الله وقال لي: اكتب: بسم الله الرحمٰن الرحيم من العبد أحمد الرفاعي اللاش إلى الشيخ المكرم المحتشم لا تخلنا من دعائك وهمتك أما قولك الذي ذكرتهُ فإن الله تعالى خلقني لما شاءَ وأسكن فيَّ ما شاءَ، ثم قال: اكتب إليهِ شعرًا:

ألا قل لمن بات لي حاسدًا ... أتدري على مَن أسأت الأدبْ
أسأت الأدب على خالقي ... كأن لم ترض بما قد وهبْ
وكان جوابك أن زادني ... وسدَّ عليك طريق الطَّلَبْ

وأرسل إلى الشيخ البستي فلما وقف عليهِ بكى وقال: صدق السيد سدّ علي طريق الطلب. وقال للشيخ أبي شجاع من أصحاب السيد أحمد الرفاعي خذ العهد لهذا الرجل حتى لا يفوتني فهو آخر القوم شربًا وأولهم قدمًا ولا شك أن الحسد أخرجني إلى هذا، قالت ست الفقراء: إن السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يقرأ الكتاب وفي خاطري أنهُ يتغير منهُ فلما تم الكتاب عدلت وجهي عنهُ وتفكر في ذلك فناداني وقال شعرًا:

ولست أبالي من رماني بريبةٍ　　إذا كنت عند الله غير مريبِ

إذا كان سري عند ربي منزّهًا　　فما ضرّني واشٍ أتى بغريبِ

ثم ذكر لها قصة شرح صدره وحضر السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ يومًا في القرية المعروفة «ويرجون» فقصدوا زيارتهُ والتبرُّك بهِ من واسط أناس كثير. فعجب سيدي يعقوب طاب ثراه من كثرة الجمع، فقال للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ: أي شيء هذا الأمر العظيم؟ فقال: أي يعقوب هذا لعب إبليس يريد ثبور هذه النفس وذلك ما يظن، ثم أخذ قبضةً من تراب وقال: أي يعقوب من هو مخلوق من هذا من أين لهُ قدرة ولسان ينطق بهِ؟ وكان السيد أحمد الرفاعي قدس سرُّه يومًا بين الفقراء فقال لهم: إن كان فيكم مَن يعرف بي عيبًا فيدلني عليه، وكرَّر هذا القول فلم يتكلم أحد منهم، فقال الشيخ الفاروثي طاب ثراه: ما في هؤلاء الجماعة مَن يعرف عيبك غيري، فقال لهُ السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه: جزاك الله خيرًا قل، ما ذلك العيب حتى أنتهي عنهُ وأتركهُ؟ فقال: عيبك أن مثلنا تلامذة مثلك فإن قبلنا الحق معك فليس معك عيب وإن ردنا عليك فلك عيب. فبكى السيد أحمد الرفاعي والحاضرون. قال الشيخ يعقوب قدس سره: بينما أنا ذات يوم قد فرغت من أذان الظهر وأنا قائِم إذ ناداني السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ فلبيتهُ فقال لي: انزل من أجل الله وتعال، فنزلت وأتيتهُ فوجدتهُ قاعدًا قريبًا من المحراب وعلى يده حيوان أصغر من البعوضة لا يرى لهُ عضو من صغره، فقال لي: أي يعقوب انظر إلى هذه فنظرت إليها وتعجبت منها ومن خِلْقَتِها وقلت: أي شيء أراد الله تعالى من خلقة هذه؟ وأي شيء فيها من المنفعة؟ فقال: أي يعقوب استغفر الله تعالى وتب إليهِ، أي يعقوب أراد الحق سبحانه بخلقهِ قوة الصنعة وإبرام القدرة حكمةً بالغةً. ثم قال: أي يعقوب إن قال لك قائلٌ: إن في مملكة الرحمٰن مخلوقًا هو أضعف من هذا اللاش حميد فلا تصدقهُ، وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يقول كثيرًا: أنا لاش اللاش وأنا أرذل الناس ليتني كنت فسحة دم ليتني لم تلدني أُمي. ومثال ذلك قول سيد المرسلين ﷺ: «ليت رب محمد لم يخلق محمدًا» وقال رضي الله تعالى عنهُ:

حشرت مع قارون وفرعون إن خطر في سري أني متقدم على هذا الجمع إلا إن تكرَّم الله عليَّ وجعلني مثل واحدٍ منهم. وكان رضي الله تعالى عنهُ يقول: أي شيء أنا ومَن أنا وأي شيءٍ قدري؟ أنا إن صلحت كنت ملاحًا في سفينة الشيخ منصور قدس الله روحهُ. سئل الشيخ الصالح قدوة العلماء الشيخ محمد بن سكران عليهِ الرحمة والرضوان عن قول السيد أحمد: حشرت مع فرعون وهامان إن كنت رأيت نفسي أو خطر يومًا لي واحدًا أني شيخ هذا الجمع أو مقدمهُ، وقولهُ رضي الله تعالى عنهُ: أنا تمامُ كلِّ ناقصٍ وكيفية الجمع بين هذا الصعود وذلك النزول. فقال لسائلهِ والفقراء الحاضرين: اعلموا أن الحق سبحانهُ لما دعا الرجال إلى هذا الأمر أجابوا كلهم مبادرين فرحين لما دعوا إليهِ إلا هذا الرجل فإنهُ لما دعي إلى هذا الأمر وتذلل ودع نفسهُ على الأرض وقال: أنا لا أصلح لهذا وكلما دعي أبى أوحى الله تعالى إليهِ: أي أحمد الرفاعي تقوم بهذا نيابةً عنا فأنا المتكفل بهذا الأمر والقائم فيهِ أي ألهم كلما في القرآن: ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ [النحل: ٦٨] ﴿وأوحينا إلى أم موسى﴾ [القصص: ٧] وعلى تمامهِ فلما سمع ذلك قبل وأجاب إلى النيابة فالحق سبحانهُ هو المتولي لهذا الأمر والمدبر لهُ، والشيخ السيد أحمد الرفاعي ثابت على طاعة المولى جلَّ وعلا، فلما علم السيد أحمد الرفاعي ذلك القول صدق فيما قالهُ لأن الشيخ هو الشيء والبشير هو الله وهذا معنى قولهُ: حشرت مع فرعون، وأما قولهُ رضي الله تعالى عنهُ: أنا تمام كل ناقص فإنهُ قالهُ وقد ورد على بحر الكرم ورأى العطايا الجزيلة والمواهب العظيمة فغاب عن نفسهِ وقال: أنا تمام كل ناقص. نقل أن السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ كان جالسًا بين أصحابه فجاءَه طفل يتبسم كان يراعيهِ وقال: أريد كعب ألعب بهِ فقال ليس لي كعب ولكن عندي الخبز والتمر تعالى فكل، فبكى الطفل فلما رأى السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ بكاءه شق عليهِ وقال لمن حولهُ: أي سادة أي مباركين مَن يشتريني بخمس كعابٍ فخرج رجل من القحطان وجاءَهُ بخمس كعاب وقال للسيد أحمد الرفاعي: اشتريتك بها، وقال السيد أحمد الرفاعي قُدِّس سره أنا بعت نفسي بها واللَّهُ على ما نقول وكيل، ثم عمل لها كيسًا وتركها فيهِ وسلَّمها إلى الطفل فأخذها وجعل يلعب بها، فإذا فرغ من اللعب يتركها في الكيس ويرجع ويلقها في حجر السيد أحمد الرفاعي ويقول لهُ أخبها لي، وكان رضي الله تعالى عنهُ يقول: إذا رأيت يتيمًا يبكي يتقلقل كل عضو مني. وكان في أُم عبيدة كلب قد أصابهُ الجرب العظيم فانسلخ جلده وعمي وصار مستديرًا يصعب على الناس أن ينظروا إليهِ، فاخرج واطرح خارج أُم عبيدة فعرف السيد أحمد الرفاعي حال الكلب فجعل يتردد إليهِ بسراجٍ ويحمل إليهِ دهنًا ودواء يطليه بهِ وخبزًا يطعمهُ وماءً يسقيهِ وعمل

لهُ مِظَلَّة يظلهُ من الشمس ولم يزل يتردد إليهِ كذلك حتى زال عنهُ الجرب وبرء فحمى لهُ ماءً، وحملهُ إليهِ ثم غسلهُ بذلك الماءِ وكان يتعاهدهُ بعد الشفاء بالخبز والماء. نقل أن واحدًا من أصحاب السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ اصطاد عصفورًا وأشد برجلهِ خيطًا وعلَّقهُ وهو يصيح، فقام السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ وشفع للعصفور والتمس من الفقير خلاصه فأبى الفقير وقال: هذا العصفور لي لم يكن لك فيهِ نصيب، فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ: لا ليس لي فيهِ نصيب ولا حق، فقال الفقير لهُ اشتريه مني، قال: نعم بكم هو؟ قال: بأن أكون في صحبتك غدًا في دار السلام وأجوز معك بالسلام على الصِّراط، قال: نعم فقال الفقير: الله على ما نقول وكيل، فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ: نعم، فقال الفقير: اعهد معي فعهد معهُ وخلص العصفور، وكان السيد أحمد الرفاعي قدس سرّه قد نام يوم الجمعة قبل الصلاة فجاءَت هِرَّة فنامت على كُمِّهِ فتيقظ فوجدها نائمة عليهِ فلم يسهل عليهِ أن يزعجها من نومها فطلب من زوجتهِ الصالحة مقصًا فأتت بهِ فقصَّ كمه وتركهُ تحت الهرة ومضى إلى الجامع فصلَّى فلما رجع من الجامع وجدها قد استيقظت فأخذ كمه وخاطها فلامتهُ زوجتهُ على ذلك فقال لها: أي بنت الشيخ الصالح ما كان إلا الخير وهذا ما تعبنا وحصلت الحسنة، وقالت الشيخة الصالحة قُدِّس سرها يومًا للسيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ هل تطلب نفسك شيئًا؟ فأخبرها أن نفسهُ تطلب هريسةً منذ مدَّةٍ طويلة، فقالت: أي سيدي ما أهون هذه الشهوة وما أوجدها. فقال أي بنت الشيخ كيف أخونهم واختص دونهم بشهوة من شهوات الدنيا؟ فقالت: أي سيدي أنا أعمل هريسة تكفي الفقراء، فقال لها: بارك الله فيك فرغبت في عمل الهريسة فلما فرغت أمرت أن يقسم بين الفقراء وأن يعزل نصيبٌ واحد للسيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ أسوةً بالفقراء، ففعلت ذلك وأحضرت نصيبهُ وقدَّمتهُ إليهِ وأخبرتهُ أن الفقراء قد أكلوا فحمد الله تعالى، ثم قام يصلي ركعتين شكر الله تعالى فبينما هو قائِم يصلي إذ جاءَت فأرة تدور حول الهريسة وتشتهي فنهضت عليها هرة وقطعت رأسها، فلما فرغ من صلاتهِ بكى ثم نحى الهريسة عنهُ، فقالت لهُ زوجتهُ رابعة: أي سيدي لِمَ نحيته عنك؟ فقال: أي بنت الشيخ ما تقطع فيهِ الرؤُوس لا تشتهيهِ النفوس.

نقل عن الشيخ مقدام أنهُ قال: كنت أنا وساهان مع السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ في بعض الأيام في وقت صلاة الصبح وكان يومئذٍ برد شديد وهو قد أسبغ الوضوءَ وجلس مكانهُ ونحن ننتظر قيامهُ وقد طال قيامنا وهو جالس ويده ممدودة وهو لا يتحركُ ونحن لا نعلم سبب قعوده، فتقدمنا إليهِ لننظر سبب قعوده فلما قربنا إليهِ رأينا على يده بعوضة هي أقل من البقة وقد شربت من دمهِ حتى احمرت فعلمنا أن قعوده

لأجلها فتحركنا فقامت، فلما رأى ذلك منا ضجر وغضب علينا وقال لنا: لا واخذكم الله قد قسم الله لها فينا رزقًا منعتموها منهُ، وبقي رضي الله تعالى عنهُ ذلك اليوم متأسفًا علينا، ونقل عن الشيخ ابن مكارم أنهُ قال: كنت جالسًا مع السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ فسمعتهُ يقول: دعني ولا تضرني فالتفت إليهِ فرأيت ذبابًا على ساقهِ وقد شرب دمهُ حتى احمر ساقهُ فقتلتهُ فقال رضي الله عنهُ: لا واخذك الله وقال للذباب: قلت لكم فما قبلتم. ونقل عن الشيخ أحمد بن الزفري أنهُ قال: رأيت السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ في بستان وعلى ذيلهِ جرادة وهو رافع ذيلهُ ويدور في البستان ويبكي ويقول: ثورناها عن موضعها ولا أدري أين كانت ثم رميتها عن ذيلهِ، فقال: قد فعلت ذلك أنت بنفسك لا واخذك الله، قال الشيخ أحمد بن الزفري لما أن طردت الجرادة عن ذيلهِ تأسف على ذلك السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ، وقال الشيخ أحمد بن الزفري لا واخذك الله. ونقل أن السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ دخل المطبخ في ليلة من الليالي فرأى كلابًا يأكلون من القوصرة وهم يتخارشون فوقف رضي الله تعالى عنهُ على الباب يحفظهم لئلا يدخل عليهم أحدٌ يؤذيهم وهو يقول لهم: أي مباركين كلوا واسكتوا ولا تتخادشون لئلا يعلم بكم أحد فتمنعون. وكان إذا رأى رضي الله تعالى عنهُ فقيرًا يقتل قملةً أو بعوضةً يقول لهُ: لا واخذك الله أسكن غضبك منها. وذكر سيدي عبد الوهاب الشعراني في منتهِ أن السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ كان يدور وراء الكلاب المدودين ليداويهم فربما هرب منهُ الكلب فيمشي وراءه ويتعطف بخاطره ويقول: أي مبارك إنما أريد مداواتك. وكان يمشي إلى المجذومين والزمنى في أماكنهم فيغسل ثيابهم ويفلي رؤوسهم وثيابهم من القمل ويحمل إليهم الطعام ويأكل معهم ويجالسهم، ويسأل الله تعالى لهم العافية ويسألهم الدعاء ويقول: زيارة هؤلاء وخدمتهم من الواجبات، وكذلك كان يفعل مع العميان والمرضى والعرجان وكان يقضي حوائج العجائز والأرامل من النصارى ويخدمهم ويحسن إليهم حتى أسلم خلق كثير منهم على يديهِ، وكانوا يسمونهُ أبو الأيتام والمساكين وربما سمع بمرض أحد من الفقراءِ في غير بلده فيخرج إليهِ فيعوده ويخدمهُ ثم يرجع بعد يومين أو ثلاثة، وكان يقف في الشارع يقصد أنهُ يقود العميان فإذا قاد أحدهم قبّل يده وسألهُ الدعاء، وكان يتفقد الشيوخ الذين عجزوا عن الذهاب إلى بيت الخلاء وصاروا يتغوطون على ثيابهم فيخلعها ويغسلها وينشفها ثم يلبسهم إياها، ويوصي جيرانهم عليهم ويقول: الشفقة على خلق الله مما يقرب العبد إلى الله تعالى، وفي الحديث: «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليهِ أنفعهم لعياله» وكان رضي الله عنهُ عنده يتيم من الأبوين فكان يأتيهِ في الورد أو في مجلس الوعظ فيطلب منهُ شيئًا يأكلهُ أو شيئًا يلعب بهِ فيقوم الشيخ ويأخذ له ما طلب ثم يرجع

لا يكاد يخالف اليتيم فيما يطلب منه، وكان المشايخ من أهل عصره يقولون كل ما حصل لأحمد بن الرفاعي من المقامات إنما هو من كثرة شفقتهِ على الخلق وذلِّ نفسه رضي الله تعالى عنه. فاعلم يا خي ذلك وأشفق على خلق الله تعالى لا سيما من ذكرناهم والله تعالى يتولى هداك ويدبر أمورك ويساعدك.

وذكر في منته أيضًا أنهُ كان سيدي علي الخواص رحمهُ الله تعالى يقول: قد سلك سيدي أحمد في الذل مسلكًا يقصر عنه فحول الرجال، وروى الشيخ عبد الغفار القوصي رضي الله تعالى عنه بسنده إلى يعقوب خادم سيدي أحمد قال: كنت كلما لقيت الشيخ عبد الله الهندي يقول لي احمل هذه الرسالة إلى شيخك وقل لهُ: أي ملحد أي باطني، ونحو ذلك من الألفاظ القبيحة فكنت أخبر سيدي أحمد بذلك فيقول: قل لهُ صدقت ثم يعطيني دريهمات هكذا كان شأنه معي ثم يرسل للشيخ عبد الله الهدايا والتحف فلا يزداد إلا شتمًا وقبحًا على سيدي أحمد، فلما طال الأمر على الشيخ عبد الله جاءَ إلى سيدي أحمد وقبّل رجله وكشف رأسهُ وبكى بكاءً شديدًا وصار سيدي أحمد يمسح دموعهُ ويقول لهُ: ما كان إلا الخير يا أخي فقد أخرجت الذي كان يؤذيك كتمهُ واكتسبنا الخير بسببك، ثم إنهُ سأل سيدي أحمد في أن يأخذ عليهِ العهد ففعل وصار من أعز أصحابهِ. فانظر يا أخي إلى هذه الأخلاق واقتد بهذا السيد وقبل نعل مَن يكرهك ويحط عليك إن أردت أن تكون من الصالحين. اهـ.

وكان من أخلاق سيدنا السيد أحمد رضي الله تعالى عنهُ محاسبة نفسهِ في كل نفس. قال الشعراني في لطائف المنن: كان سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يقول: مَن لم يحاسب نفسهُ على كلِّ نفس ويتهمها في جميع أحوالها لا يكتب عندنا في ديوان الرجال. وذكر في لطائف المنن في محلٍّ آخر أن سيدي أحمد رضي الله تعالى عنهُ كان يقول: لا يبلغ الفقير مقام الكمال حتى يصير يرضى أن يضاف إليه سائر النقائص التي في إخوانهِ ويستر إخوانه رضاءً بعلم الله تبارك وتعالى وإيثارًا لهم على نفسهِ، وإن تأثّر من حيث نقص دين المنقصين. انتهى. قال الشعراني بعد كلام قالهُ: كان بعض الصحابة إذا رأى سهمًا نحو رسول الله ﷺ تعرض لهُ بصدره فتلقاه عن رسول الله ﷺ، ولو كان في ذلك زهوق روحه، فسماع الفقير الكلام الذي يؤذيه ويحملهُ عن أخيهِ دون أذى ذلك السهم بيقين. انتهى. وكان من أخلاق سيدي أحمد رضي الله تعالى عنهُ الفرح إذا أدبر عنهُ الناس ليخلو لعبادة ربهِ. قال الشعراني قدس سره في منتهِ كان سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله عنهُ يقول: ينبغي للعبد أن يفرح إذا انقطع الناس عن زيارتهِ ليخلو لعبادة ربهِ، وكذلك ينبغي لهُ أن يغتم ويضيق صدره

إذا أقبلوا عليهِ فكم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس، وكم أذهبت من دين انتهى. وقال العدني في كتابهِ النجم الساعي: إن السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ كان يأكل ما يسقط من بقية طعام الفقراء. قال الشعراني في المنن الكبرى: كان سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله عنهُ يقول: ما ابتلي قوم بالغلاء حتى أهانوا الحب لرخصه وكان يقول: قلة إكرام الخبز كفر بنعمة الله المنعم فاجتهدوا في إكرامهِ ما استطعتم والتقطوا ما يسقط منهُ عند سقوطه ولا تتركوهُ إلى آخر الطعام، فإن تعظيم نعمة الله من تعظيم الله وفي بعض الآثار: إن القرص لا يؤكل حتى يتداولهُ ثلثمائة وستون مخلوقًا أوّلهم ميكائيل وآخرهم الفران، قال: ثم يكفينا من تعظيمهِ أن الله تعالى جعل الطعام عديلاً لرؤيتهِ في حديث: «للصائم فرحتان: فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاءِ ربهِ»[1] قال الشعراني قلت والحكمة في ذلك أن العبد مركب من جسم وروح فالطعام غذاءُ الجسم ورؤية الرب غذاءُ الروح. انتهى.

وذكر الشيخ الإمام الحجة قاضي القضاة شيخ الإسلام تاج الدين مفتي الثقلين مؤيد سنة سيد الكونين أبو النصر عبد الوهاب ابن سيدنا الشيخ تقي الدين السبكي الأنصاري الخزرجي الشافعي رضي الله تعالى عنهُ في طبقاتهِ بعد أن ذكر اسمهُ المبارك ونبذةً من فضائلهِ ما نصه: ولو أردنا استيعاب فضائله لضاق الوقت. ولكنا نورد ما فيهِ البلاغ، قال الشيخ يعقوب كراز وهو من أخص أصحاب الشيخ أحمد: كان سيدي أحمد الرفاعي في المجلس فقال لأصحابه: أي سادة أقسمت عليكم بالعزيز سبحانهُ مَن كان يعلم فيَّ عيبًا فليقلهُ، فقام الشيخ عمر الفاروثي فقال: أنا أعلم عيبك إذا مثلنا من أصحابك، فبكى الشيخ والفقراء وقال: أي عمر إن سلم المركب حمل من فيهِ في التعدية، وقيل: إن هرةً نامت على كم الشيخ وجاءَ وقت الصلاة فقصّ كمهُ ولم يزعجها وعاد من الصلاة فوجدها قد قامت فوصل الكم بالثوب وخاطه وقال: ما تغيّر شيءٌ وعن يعقوب قال: دخلت على سيدي أحمد في يوم بارد وقد توضأ ويده ممدودة فبقي زمانًا لا يحرك يده فتقدمت إلى تقبيلها فقال: أي يعقوب شوشت على هذه الضعيفة قلت: مَن هي؟ قال: بعوضة كانت تأكل رزقها من يدي فهربت منك، قال: ورأيتهُ مرّة يتكلّم ويقول: يا مباركة ما علمت بك أبعدتك عن وطنك، فنظرت وإذا جرادة تعلقت بثوبهِ وهو يعتذر إليها رحمة لها. وقال الشيخ أحمد: سلكت كل طريق فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الذل والافتقار والانكسار وتعظيم أمر الله تعالى والشفقة على خلق الله تعالى والاقتداء بسنة سيدي رسول الله ﷺ، وكان يجمع الحطب ويحملهُ إلى بيوت الأرامل والمساكين وربما

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة (٢/ ٤٦٦) كتاب الصيام، باب فضل الصيام.

كان يملأ الماء لهم، وقال يعقوب: قال سيدي أحمد لما بويع منصور: قيل لهُ أي منصور اطلب. فقال: أصحابي فقال رجل لسيدي أحمد يا سيدي فأنت أي شيء طلبت؟ فبكى وقال: أنا فقير وما أنا في البيت إلا ضيف وأطلب ميراثًا؟ فقلت: يا سيدي أقسم عليك بالعزيز أي شيء طلبت أنت؟ فقال: يا يعقوب لما اجتمع القوم وطلب كل واحد شيئًا دارت النوبة إلى هذا اللاش أحمد وقيل: أي أحمد اطلب قلت: أي ربي علمك محيط بطلبي فكرر عليَّ القول فقلت: أي مولاي أريد أن لا أريد واختار أن لا يكون لي خيار، فأجابني وصار الأمر لهُ، وعن يعقوب مرّ سيدي أحمد على دار الطعام فرأى الكلاب يأكلون التمر من القوصرة وهم يتهارجون، فوقف على الباب لئلا يدخل عليهم أحد يردهم. ومن كلامهِ رضي الله تعالى عنهُ لو أن عن يميني خمسمائة من أحب الناس إلي يروحون بمراوح الند والطيب وعن يساري مثلهم من أبغض الناس إلي معهم مقاريض يقرضون بها لحمي ما زاد هؤلاء عندي ولا نقص هؤلاء عندي بما يفعلونهُ ثم قرأ: ﴿لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور﴾ [الحديد: ٢٣] وكان لا يجمع بين قميصين لا في شتاءٍ ولا صيف ولا يأكل إلا بعد يومين أو ثلاثة أكلة. وأحضر بعض الأكابر مريضًا ليدعو لهُ الشيخ فبقي أيامًا لم يكلمهُ، فقال يعقوب: أي سيدي ما تدعو لهذا المريض المسكين؟ فقال: أي يعقوب وعزة العزيز لأحمد كل يوم عليهِ مائة حاجة مقضية وما سألتهُ منها حاجةً واحدة، فقلت: أي سيدي فتكون واحدة لهذا المريض المسكين، فقال: لا كرامة ولا عزازة تريد أن أكون سيّءَ الأدب لي إرادة ولهُ إرادة ثم قرأ: ﴿الإله الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾ [الأعراف: ٥٤] أي يعقوب الرجل المتمكن في أحوالهِ إذا سأَل حاجةً وقضيت لهُ نقص تمكنهُ درجة، قال: فقلت: أراك تدعو عقب الصلوات وكل وقت، فقال ذاك الدعاءُ تعبد وامتثال ودعاءُ الحاجة لهُ شروط وهو غير هذا الدعاءِ، ثم بعد يومين تعافى ذاك المريض. وعن يعقوب وقد سئل عن أوراد سيدي أحمد فقال: كان يصلي أربع ركعات بألف قل هو الله أحد ويستغفر كل يوم ألف مرة واستغفاره: قول لا اله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين عملت سوءًا وظلمت نفسي وأسرفت في أمري ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت وذكر غير ذلك.

ولا شك أن هذه الأخلاق مقتبسة من مشكاة أنوار جده النبي المكرم ﷺ وقد اقتصرنا عن ذكر كلمّا قيل في أخلاقهِ المباركة واكتفينا بهذا المقدار وفيهِ ما يكفي لأهل البصائر والاعتبار.

الباب الرابع

في ذكر كراماتِهِ العلية
وبعض ما منَّ الله عليهِ بهِ من مواهبهِ الأزلية

قال المناوي قدس سره في طبقاتهِ بعد ذكر كلام قالهُ في ترجمة سيدي أحمد رضي الله عنهُ مهر واشتهر وانتهت إليهِ الرياسة في علوم القوم وكشف مشكل منازلاتهم وتخرج بهِ خلق كثير وأحسنوا فيهِ الاعتقاد. قال ابن خلكان وغيره: وهم الطائفة الرفاعية ويقال لهم: الأحمدية والبطايحية ولهم أحوال عجيبة من أكل الحيات والنزول إلى التنانير وهي تضرم نارًا والدخول إلى الأفرنة وينام أحدهم في جانب الفرن والخباز يخبز في الجانب الآخر، وتوقد لهم النار العظيمة ويقام السماع فيرقصون عليها إلى أن تنطفىء ويركبون الأسود إلى أن قال: وكانت حلقة مريديه ستة عشر ألفًا. وكان يمد لهم السماط صباحًا ومساءً، ويضرب بهِ المثل في تحمل الأذى، وكان لما يتجلّى عليهِ الحق بالعظمة يذوب حتى يبقى بقعة ماء ثم تدركهُ الرحمة فيجمد شيئًا فشيئًا حتى يردّ إلى بدنهِ ويقول إلى جماعتهِ: لولا لطف الله ما عدت إليكم. ومن كراماتهِ أنهُ كان إذا صعد الكرسي سمع حديثهُ البعيد كالقريب حتى أن أهل القرى الذين حول بلده يسمعونهُ كالذين بزاويتهِ، وكان الأصم إذا حضره سمع كلامهُ فقط. ومنها كان إذا سأَلهُ إنسان أن يكتب له عوذة يأخذ الورقة ويكتب عليها بغير مداد ففعل ذلك يومًا لرجل فغاب عنهُ مدةً ثم جاءَهُ بها ليكتب لهُ ممتحنًا فلما نظرها قال: يا ولدي هذه مكتوبة وردها إليهِ ومنها أن رجلين تحابا في الله اسم أحدهما معالي والآخر عبد المنعم فخرجا يومًا للصحراء فتمنى أحدهما كتاب عتق من النار ينزل من السماءِ فسقط منها ورقة بيضاءُ فلم يريا فيها كتابةً فأتيا إلى صاحب الترجمة بها ولم يخبراه بالقصة فنظر إليها وخرَّ ساجدًا وقال: الحمد لله الذي أراني عتق أصحابي من النار في الدنيا قبل الآخرة، فقيل لهُ: هذه بيضاءُ فقال أي أولادي يد القدرة لا تكتب بسواد، هذه مكتوبة بالنور ولما حجّ

وقف تجاه الحجرة الشريفة النبوية وأنشد:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه نوبة الأشباح قد ظهرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فخرجت إليه اليد الشريفة من القبر حتى قبّلها والناس ينظرون. وقال سيدي عبد الوهاب الشعراني في منتهُ ما نصهُ: وقد نقل الفاروقي أن حلقة مريدي سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ كانت ستة عشر ألفًا وكان يمد لهم السماط صباحًا ومساء، قال الفاروقي ولما وردت عليهِ كان لي ثمانون يومًا لم آكل طعامًا فمدّ للفقراء طعامًا لا يناسبني فقلت في نفسي: ماذا أصنع إذا قال لي الشيخ: كل من هذا؟ فما استتم خاطري إلا وقد رفع الشيخ رأسهُ فقال للخادم خذ هذا للبيت فأطعمهُ العصيدة التي هناك، قال: فمضيت معهُ فأكلتها وهي التي كانت خطرت لي في خاطري، فلما جئتهُ قال لي: فتوحك ليس هو عندي وإنما هو عند الشيخ عبد الرحيم القناوي فامض إليهِ انتهى.

وحكى لي الشيخ أحمد الضرير من جماعة سيدي عمر روشني كان عدد مريدي سيدي عمر الذين يحضرون مجلس الذكر صباحًا ومساءً عشرة آلاف، وكان الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور يقول: إن جماعة الشيخ أبي الفتح الواسطي بمدينة الإسكندرية الذين كانوا يحضرون ورده كل يوم خمسة آلاف منهم الشيخ عبد العزيز الديريني رحمهُ الله والشيخ عبد الله البلتاجي والشيخ عبد السلام القليبي والشيخ عبد الله الجيلي والشيخ ضرغام المسيري وغيرهم، وكان الشيخ أبو الفتح من أعظم تلامذة سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ، وكان يتكلم على أرباب الأحوال ويقول: اسمعوا هذا الكلام الذي لهُ خمسة آلاف سنة ما تكلم بهِ أحد غيري، وروى الفاروقي أن يعقوب خادم سيدي أحمد بن الرفاعي نفعنا الله ببركاتهِ ورضي الله عنهُ قال: سمعت سيدي أحمد بن الرفاعي يقول: صحبت ثلاثمائة ألف أمة ممن يأكل ويشرب ويروث وينكح ولا يكمل الرجل عندنا حتى يصحب هذا العدد ويعرف كلامهم وصفاتهم وأسمائهم وأرزاقهم وآجالهم، قال يعقوب الخادم: فقتل لهُ: يا سيدي إن المفسرين ذكروا أن عدد الأمم ثمانون ألف أمة فقط! فقال: ذلك مبلغهم من العلم، فقلت لهُ: هذا عجب فقال: وأزيدك أنهُ لا تستقر نطفة في فرج أنثى إلا ينظر ذلك الرجل إليها ويعلم بها، قال يعقوب الخادم: فقلت لهُ يا سيدي هذه صفات الرب جلا وعلا فقال: يا يعقوب استغفر الله تعالى فإن الله تعالى إذا أحب عبدًا صرّفهُ في جميع مملكتهِ وأطلعهُ على ما شاءَ من علوم الغيب، فقال يعقوب: تفضلوا عليّ بدليل على ذلك، فقال سيدي أحمد: الدليل على ذلك قول الله عزّ وجلّ في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى

أحبهُ فإذا أحببتهُ كنت سمعهُ الذي يسمع بهِ وبصره الذي يبصر بهِ»[١] إلى آخره وإذا كان الحق تعالى مع عبده كما يريد صار كأنهُ صفة من صفاتهِ انتهى. وهذا أمر تحار فيهِ العقول هذا مع كون سيدي أحمد كان في غاية الذل في نفسهِ، وكان الشيخ أبو الفتح الواسطي مع كثرة تلامذتهِ الزائدين على الألوف لا يصحب إلا أرباب الأحوال، قال الشيخ صفي الدين ابن أبي المنصور: ولما استأذنت سيدي الشيخ عبد السلام القليبي على باب سيدي أبي الفتح الواسطي وكان قد سكن في مصر وأذن لهُ وكلّمهُ كلامًا حسنًا وأعجب بهِ، فقال لهُ الشيخ صفي الدين: كيف عرفت حالة الشيخ بغير أحد يدلّك عليها؟ قال: اجمع لي حطبًا وحَلفاء فجمع لهُ وقال: أجّج النار فأججها ثم دخل فيها سيدي عبد السلام زمانًا حتى طُفِئت ثم قال لهُ: عانقني قال الشيخ صفي الدين: فعانقتهُ فوجدت جسمهُ كالثلج فانظر يا أخي إلى أصحاب سيدي أحمد وسيدي أبي الفتح تعرف أن المريد لا يسقى إلا من ماءِ شيخهِ فأصحابنا على شاكلتنا وأصحاب مَن مضوا على شاكلتهم وكل ذلك بحسب القسمة وكل يشكر الله عزَّ وجلَّ على ما أعطاه، وربما يكون كل واحد من جماعة فقير مقومًا بألف نفس من جماعة فقير آخر. فافهم ذلك والله تعالى يتولى هداك.

وذكر ابن جلال في كتابهِ جلاء الصدا ما نقل عن الولي الكبير والعارف الخبير السيد إبراهيم الأعزب قدس سره أنهُ قال: كنت مع السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه على طعام نأكل فإذا هو قد بهت وغاب عن نفسهِ ساعةً حتى سقطت اللقمة من يده ثم أفاق ورجع إلى الطعام فأخذت يده وقلت: أي سيدي أخبرني أين كنت الساعة؟ قال: أي إبراهيم عندك، فقلت لهُ بحياة الشيخ منصور أخبرني أين كنت الساعة؟ فقال: أي إبراهيم أقسمت عليَّ بالقسم العظيم، اعلم أنهُ قد خرج مريد من خلف سبع بحارير يريد المجيءَ إلى هذه البقعة وأخذ العهد على يد جدِّك وهو مشركٌ فأدركتهُ الوفاة في طريقه فنادى وهو يجود بنفسهِ يا سيد أحمد الرفاعي أدركني فأدركتهُ فأخذت العهد عليهِ وأسلم ثم قبض فحضرت وفاتهُ وواريتهُ تحت الثرى ورجعت إليك. وروى الشيخ الولي ابن أخت أبي الحسن السيد علي قال: كنت جالسًا على باب خلوة خالي رضي الله تعالى عنهُ وليس فيها غيره فسمعت عنده جأشًا فنظرت فإذا عنده رجل ما رأيتهُ قبل فتحدّثا طويلاً ثم خرج الرجل من كوّة في حائط البيت وسرى في الهواء كالبرق الخاطف فدخلت على خالي فقلت لهُ: مَن الرجل؟ فقال: رأيتهُ قلت: نعم قال: هو الرجل الذي يحفظ الله بهِ

---

(١) الحديث أخرجه العراقي في كتاب المغني عن حمل الأسفار، (١/ ٧١)، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١/ ٤٠٣).

عزّ وجلّ قطر البحر المحيط وهو أحد الأربعة الخواص وإنهُ هجره الله منذ ثلاث وهو لا يعلم، فقلت: يا سيدي ما سبب هجره؟ قال: إنهُ مقيم بجزيرة في البحر المحيط ومنذ ثلاث ليالٍ أمطرت جزيرته حتى سالت أوديتها فخطر في نفسهِ لو كان هذا المطر في العمران ثم استغفر الله تعالى، فهذا سبب هجره واعتراضهِ، فقلت لهُ: رضي الله تعالى عنهُ أعلمته؟ قال: لا إني استحيت منهُ فقلت: لو أذنت لي لأعلمتهُ قال: أو تفعل؟ قلت: نعم فقال: زيق فزيقت، ثم سمعت صوتًا: أي علي ارفع رأسك فرفعت رأسي من زيقي فإذا أنا بجزيرة في البحر المحيط فتحيّرت في أمري وقمت أمشي فيها فإذا بذلك الرجل فسلّمت عليهِ وأخبرتهُ بما قال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ فقال: ناشدتك الله إلا فعلت ما أقول لك، قلت: نعم، فقال: ضع خرقتي في عنقي واسحبني على وجهي ونادي عليَّ هذا جزاءُ مَن اعترض على الله تعالى، قال: فوضعتها في عنقهِ وهممت بسحبهِ وإذا هاتف يقول: يا علي دعهُ فقد ضجت ملائكة السماء باكيةً عليهِ سائلةً فيهِ، وقد رضي الله تعالى عنهُ، قال السيد علي فأغمي عليَّ ثم سُرّي عني وإذا أنا بين يدي خالي في خلوتهِ والله ما أدري كيف ذهبت وكيف جئت، قال ذلك سيدي علي الهمداني القادري في بهجتهِ وقد أوردها أيضًا الشيخ الإمام الولي الشافعي عبد الله بن أسعد بن علي اليافعي في كتابهِ رضي الله تعالى عنهما.

ونقل أنهُ كان شخص من أصحاب السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يقال لهُ: الحاج أبو الكرام كثيرًا ما يقصد زيارة السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه فقصده مرة زائرًا فحصل له تعب عظيم في الطريق حتى أنه من شدة الوجع من رجليهِ ظهر الوجع في أصول فخذيهِ واشتدَّ فلما وصل إلى السيد أحمد الرفاعي رضوان الله تعالى عليهِ ورفع نظره عليهِ وعلم ما جرى له زال عنهُ الوجع جميعًا في الحال، وقصده مرةً أخرى زائرًا فرقَّ قلبه في طريقهِ لتفكره في تقصيره وانكسر في نفسهِ فبكى وقال: أنا لست أهلاً للفقراءِ ولا أن أكون من أولاده فلما وصل إلى باب الرواق أبصره السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ فقام وتلقاه مسرعًا وقال لهُ: بلى أنت ولدي. ونقل أن الشيخ جمال الدين خطيب أونيه قدس الله تعالى سره كان من كبار أصحاب السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه، وكان في أونيه بستان أراد أن يشتريه لضرورةٍ وعفةٍ فطلب يومًا من السيد أحمد الرفاعي أفاض الله تعالى عليهِ سحائب رحمته أن يرسل إلى صاحب البستان وهو الشيخ إسماعيل بن عبد المنعم وهو شيخ أونيه ويحدّثه في معنى بيع بستانهِ ومشتراه منه فقال السيد أحمد الرفاعي قدس الله تعالى سره: سمعًا وطاعةً أي أخي أنا أمشي إليهِ ثم قام معه ومشى إلى أونيه فاجتمع السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ بصاحب البستان وتشفع إليهِ أن يبيع بستانهُ إلى الخطيب، فأتى رد الشفاعة وقال: أي سيدي إن

اشتريتهُ مني بما أريد فقد بعتك إياه فقال: أي إسماعيل قل لي كم تريد ثمنها حتى أعطيك، فقال: أي سيدي تشتريها مني بقصر في الجنة، فقال: مَن أنا حتى تطلب مني هذا أي ولدي اطلب من الدنيا، فقال: أي سيدي شيئًا من الدنيا ما أريد فإن أردت البستان فاشتر بها بما أطلب. فنكس السيد أحمد الرفاعي رأسهُ ساعة واصفرّ لونهُ وتغيّر ثم رفع وقد تبدلت الصفرةُ احمرارًا وقال: أي إسماعيل قد اشتريت منك البستان بما طلبت، فقال: أي سيدي اكتب لي خط يدك فكتب لهُ السيد أحمد الرفاعي ورقة فيها: بسم الله الرحمٰن الرحيم هذا ما اشترى إسماعيل بن عبد المنعم من العبد الفقير الحقير أحمد بن أبي الحسن الرفاعي ضامنًا على كرم الله تعالى قصرًا في الجنة تجمعهُ حدود أربعة الأولى إلى جنة عدن والثاني إلى جنة المأوى والثالث إلى جنة الخلد والرابع إلى جنة الفردوس بجميع حوره وولدانه وفرشه وستره وأنهاره وأشجاره عوض بستانه في الدنيا ولهُ الله شاهد وكفيل، ثم طوى الكتاب وسلّمهُ إليهِ فأخذه ومضى إلى أولاده وهم على داليةٍ يسقون اذرة كانوا زرعوها في البستان المذكور فقال لهم: انزلوا فقد بعت البستان على السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه فقالوا: كيف بعته ونحن محتاجون إليه؟ فعرفهم بما جرى من حديث القصر وأن خطه بيده وأنهُ باعه بذلك القصر فأبوا أن يرضوا إلا أن يجعلهم شركاءَ فيه، فقال: انزلوا وهو لي ولكم والله على ما نقول وكيل، فرضوا ونزلوا واستولى الخطيب على البستان وتصرف فيه، ثم بعد مدة توفي الشيخ إسماعيل بن عبد المنعم بائع البستان وقد أوصى أولاده أن يجعلوا ذلك الكتاب في كفنه ففعلوا ودفنوه، فلما أصبحوا وجدوا على قبره مكتوبًا وقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا.

واعلم أيها الأخ الصفي الصديق أن هذا الولي الصِّدِّيق قد اقتدى في هذا أيضًا بمقتضى الأنبياء والرسل وزبدة هداة السبل كما روى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: كان لرجل نخلة فرعها في دار رجل فقير ذي عيال وكان الرجل إذا جاء ودخل الدار صعد إلى النخلة ليأخذ من الثمر فربما سقطت ثمرة فيأخذها صبيان الفقير فينزل الرجل من نخلتهِ حتى يأخذ الثمرة من بين أيديهم، فإن وجد ثمرةً في فم أحدهم أدخل أصبعه حتى يخرج الثمرة من فيهِ، فشكى الرجل إلى النبي ﷺ وأخبره بما لقي من صاحب النخلة فقال النبي ﷺ: اذهب وائتني بصاحب النخلة فأتى بهِ إلى رسول الله ﷺ فقال لهُ: أتعطيني نخلتك التي فرعها في دار فلان ولك بها نخلة في الجنة؟ فقال الرجل إن لي نخلاً كثيرًا وما فيها نخلة أعجب ثمرةً منها ثم ذهب الرجل، قال: وكان في المجلس رجل غيره سمع كلام رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تعطني ما أعطيتَ الرجل عوضها نخلة في الجنة وأنا آخذها لك، فقال النبي ﷺ: نعم فذهب الرجل فاشتراها منهُ بأربعين نخلة، وجاءَ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن النخلة

صارت ملكي وهي لك، فأرسل الرسول ﷺ إلى الفقير وقال لهُ: إن النخلة لك ولعيالك .اهـ.

وذكر في كتاب بهجة الأسرار ما نصهُ: الشيخ أحمد بن أبي الحسن الرفاعي رضي الله عنهُ هذا الشيخ من أجلاءِ مشايخ العراق وأجلاءِ العارفين وعظماءِ المحققين وصدور العارفين المقربين، صاحب المقامات العالية العلية والحالات العظيمة والكرامات الظاهرة والحقائق الزاهرة وهو أحد مَن خرق الله لهُ العادات وقلب لهُ الأعيان وأظهر على يديه العجائب وأنطقه بالمغيبات وصرفهُ في الوجود وأقامهُ حجة على المسلمين ونصبهُ قدوة للساكنين، وأوقع لهُ القبول العظيم عند الخاص والعام وهو أحد أركان هذه الطريقة علمًا وعملاً وحالاً وتحقيقًا وأحد أفراد هذا الشأن وأئمة ساداته وسادات الدعاة إليه وهو أحد مَن يذكر عنهُ القطبية، وهو الذي يقول: الشيخ مَن يمحُ اسم مريديه من ديوان الأشقاءِ. وقيل: إن رجلاً دخل على مشايخ البطائح فلما خرج الرجل قال ذلك الشيخ لمن حضره قرأت على جبهة هذا الرجل سطر الشقاوة، فأتى ذلك الرجل إلى الشيخ أحمد ولبس منهُ خرقةً ثم أتى إلى زيارة ذلك الشيخ. فقال الشيخ لأصحابه: قد محي من جبهتِهِ سطر الشقاوة وبدل بسطر السعادة ببركة الشيخ أحمد الرفاعي، وهو الذي سُئل عن وصف الرجل المتمكن فقال: هو الذي لو نصب لهُ سنان على أعلى شاهق في الأرض وهبّت الرياح الثمانية ما حركت منه شعرةً واحدة، وذكر عنهُ أنهُ دخل عليهِ رجل فوضع الشيخ لهُ طعامًا فقال: إذا جاءَ وقتي أكلت قال: ومتى وقتك؟ قال: المغرب قال لهُ: عن كم؟ قال: عن ستة أشهر، فلما كان وقت المغرب قدم لهُ الطعام فأكل وسألهُ أن يأكل معهُ فقال: إذا جاءَ وقتي أكلت قال: ومتى وقتك؟ قال: بعد ستة أشهر، قال: وكم مضى لك؟ قال: ستة أشهر، قال: فسئل الشيخ أحمد عن سبب ذلك فقال: دخلت دارنا يومًا شديد الحرّ وأنا عطشان فوجدت ماءً مخلوطًا ببياض العجين قد فضل من ماء العجين فأردت أن أشربهُ فقالت لي نفسي: أما ترى الماءَ البارد في الكوز فامتنعت من الشرب وعاهدت الله تعالى أن لا آكل ولا أشرب إلى سنة وهو أحد من قهر أحواله وملك أسراره وغلب موارده وظهر على أمره ونصحه وزهده وكثرة حلمه وشدة تواضعه وعظم إيثاره وتحمل نفسهِ تضرب بها الأمثال وإلى مثلهِ تمتد الآمال وانتهت إليهِ الرياسة في علوم الطريق وشرح أحوال القوم وكشف مشكلاتهم في منازلاتهم وبهِ عرف الأمر بتربية المريدين بالبطايح وتخرج بصحبته جماعة كثيرة من أعلام الطريق وتلمذ لهُ خلق لا يحصون كثرة من أصحاب الأحوال الصادقة، وانتمى إليهِ عالم عظيم من كل قطر وتبعهُ جمٌّ غفير من كل جهة ورآه المشايخ والعلماءُ وغيرهم بأبصار التبجيل وشهد لهُ الخلق بالاحترام ولهُ كلام على لسان أهل الحقائق إلى أن قال: وذكر الشيخ أبو يوسف

يعقوب بن بدران بن منصور الأنصاري قال: سمعت شيخنا الشيخ الإمام العالم العارف تقي الدين علي بن المبارك بن الحسن بن أحمد بن باسويه الواسطي يقول: جلس سيدي الشيخ أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ على الشط وأصحابهُ حوله فقال: نشتهي أن نأكل اليوم سمكًا مشويًا. فلم يتم كلامه حتى امتلأ الشط سمكًا من أنواع شتى ووثب منها شيءٌ كثير إلى البر ورأوا في ذلك الوقت بشط أم عبيدة من الأسماك ما لم ير مثله، فقال الشيخ: إن هذه الأسماك كلها تسألني بحق الله تعالى أن آكل منها فصاد الفقراء منها شيئًا كثيرًا وشووه وقدموه سماطًا عظيمًا في طواجن فأكلوا حتى شبعوا وبقي في الطاجن من هذه السمكة رأسها ومن هذه ذنبها ومن هذه بعضها، فقال له رجل: ما صفة الرجل المتمكن؟ قال: هو أن يعطي التصريف العام في جميع الخلائق، قال له: وما علامة ذلك؟ فقال: أن يقول لبقايا هذه الأسماك قومي بإذن الله تعالى واسعي فتقوم وتسعى ثم أشار الشيخ إلى تلك الطواجن بيده وقال: أيتها الأسماك التي في الطواجن قوموا واسعوا بإذن الله تعالى، فلم يتم كلامهُ حتى وثبت تلك البقايا في البحر أسماكًا صحيحةً، وذهبت في الماءِ من حيث أتت، قال: وحدَّثني ابن أختهِ الشيخ الجليل أبو الفرج عبد الرحيم قال: كنت جالسًا يومًا بحيث أرى الشيخ أحمد رضي الله عنه واسمع كلامهُ وكان هو جالس وحده فنزل عليهِ رجل من الهواء وجلس بين يديه، فقال لهُ الشيخ: مرحبًا بوتد المشرق، فقال له ذلك الرجل: إن لي عشرين يومًا ما أكلت ولا شربت فيها وإني أريد أن تطعمني الآن شهوتي، قال: وما شهوتك فنظر في الجو فإذا حس وزات طائرات، فقال: أريد إحدى هذه الوزات بين يدي مشوية ورغيفين وماءً بارد فقال الشيخ: لك ذلك. ثم نظر إلى تلك الوزات وقال: عجل لي بشهوة الرجل، فما تم كلامهُ حتى نزلت إحداهن بين يديه مشوية، ثم مد الشيخ يده إلى حجرين بجانبه وضعهما بين يديهِ رغيفين يصعد فوارهما من أحسن خبز الدنيا منظرًا ثم مدّ يده إلى الهواء فإذا فيها كوز أحمر فيهِ ماءٌ فأكل الرجل الإوزة وما بقي منها سوى عظامها، وأكل الرغيفين وشرب الماء وذهب في الهواءِ من حيث جاء، فقام الشيخ وأخذ تلك العظام ووضعها على يده وأمر يمينهُ عليها وقال: أيتها العظام المتفرقة الأوصال المنقطعة اذهبي بسم الله الرحمٰن الرحيم فذهبت وزة سوية وطارت في الجو حتى غابت عن نظري. ونقل أن الشيخ عمر الفاروثي سمع السيد أحمد الرفاعي قدس سرّهما يومًا يقول: إن الشيخ إذا كان لهُ مريد ولو كان على بعد وانكشف غطاؤه عن يده ليلاً يمدّ يده ويغطيهِ، قال الشيخ عمر قدس سره: فرأيت ليلة بعد هذا الكلام أنهُ قد انكشف غطائي وهو يغطيني ولم يكن عندي أحد فعلمت أن الشيخ أراد وقوع الطمأنينة عندي، ونقل أيضًا أنهُ قدم جماعة من الفقراء إلى أُم عبيدة فاحتاجوا إلى شيء

يأكلون فقصدوا إلى موضع ونفذوا شخصًا منهم يطلب لهم طعامًا، فمضى وليس معهُ شيءٌ فلم يعط شيئًا فرجع إليهم وقال لهم: هؤلاء لا يعطون إلا مَن يأتيهم بشيء من الدنيا فقاموا وقصدوا الرواق فتلقاهم السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ قبل أن يجلسوا وقال لهم: أي فقراء إلى يومنا هذا ما فرقنا بين مَن يأتي بشيءٍ ومَن لا يأتي ومَن يساعد ومَن لا يساعد كيف يقعدون في المواضع ويتخلفون. ونقل أنهُ كان فقير من أهل قرية عبد الله يقال لهُ: الشيخ مكي قد انحدر إلى أم عبيدة وتاب على يد السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ وأقام في أم عبيدة يعبد الله مدةً، فخطر لهُ ذات ليلة أن يذهب إلى قريتهِ ويسلّم على أهلهِ وأصحابهِ الفقراءِ، فلما أصبح دخل على العادة وسلّم على السيد أحمد الرفاعي عليهِ الرحمة والرضوان فلزم يده وقال لهُ ابتداءً: أي أخي مكي ما تصعد قرية عبد الله وتسلّم على أهلك وعلى الفقراءِ فعجب من إذن السيد أحمد الرفاعي له وعلم أنهُ كاشفهُ بأحوالهِ قدس الله سره.

وذكر في كتاب أُم البراهين ما نصهُ: الشيخ الصالح ثابت بن صالح من أهل قرية جفرا رضي الله عنهُ قال: كان في قرية عبد الله شيخٌ يقال له: أبو الفتوح ولهُ رباط وفيهِ مرابطون من أصحابهِ وفيه أربعون مرابطًا من العرب من مريديه، وكان ذلك قبل ظهور سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي، قال: فلما توفي الشيخ أبو الفتح رحمهُ الله تبدد شملهم وتفرّق كل واحد في جهةٍ فلم يتخلف منهم غير فقير واحدٍ اسمهُ مكي فإنهُ لم يفارق الرباط ولم ير غير الشيخ أبي الفتح. فبقي على ذلك زمانًا طويلاً لم يخرج من الرباط إلا للوضوء، قال: فبينما الفقير ذات يوم جالسًا على عادتهِ في الرباط، قال: فلم أحس إلا وكأن رجلاً أدخل يده تحت إبطي وأقامني، قال: فنهضت ولم أدر ما يراد مني وخرجت من باب الرباط وانحدرت إلى تحت القرية إلى أن وصلت إلى بستان يعرف بالجربيات فلما وصلت إلى ذلك المكان وأنا غائب عن نفسي لا أعلم أين أنا قاصد فلم أشعر إلا وبرجل يكلّمني فالتفت إليهِ وإذا بسفينة مقدمة فيها أربع ملاحين ورجل جالس في صدرها، فلما رأيتهُ قال لي: أي فقير تجيءُ أم عبيدة فكأنني نائم وانتبهت، فقلت له: نعم فقال لي: انزل فنزلت السفينة فأجلسني إلى جانبهِ في الصدر وانحدروا كأنهم كانوا بوعدي ثم إنهم باتوا في الطريق وانحدروا بالغداة فوصلوا أُم عبيدة نصف النهار والوقت صيف وحرّ قوي والشمس عمالة قاهرة، قال: فقدموا لي درب الرواق وقالوا لي: أي فقير قم فاصعد فقمت وصعدت في السفينة ولا أدري كيف أمضي ولا أعرف بأُم عبيدة أحدًا فسبغت الوضوء وركبت نعلي وقمت أمشي إلى ناحية الرواق، فلما قربت منه رأيت رجلاً مليحًا حسن الوجه وعليهِ ثوب قصير وعلى رأسهِ إحرام وعلى أكتافهِ إحرام وكمهُ يعبر أصابعهُ وهو واقف تحت الباب يستظل من حر

الشمس وينظر إلى صوب الشمس وتارة يخرج رأسهُ وتارةً يخبيهِ من الحر، فلما رآني مقبلاً إليهِ وواصلاً لديهِ خرج من تحت دروند الباب والتقاني فقلت في نفسي: هذا يكون خادم الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي قد حَسَّ فأنفذ خادمه يتلقاني قال: فلما وصل إلى عندي ووصلت إليهِ قال لي: أهلاً وسهلاً بهذا السيد الصالح ثم إنه أخذ بيدي فأخذت يده فقبلتها فسلّمت عليهِ وسلّم عليّ ثم إنه مشى أمامي ومشيت خلفه وأنا متردد الخاطر فيهِ تارة أقول إنه خادمه وتارة أقول إنه هو الشيخ حتى وصلت إليهِ فدخل قدامي إلى داره وأنا خلفه فوجدت له غرفة معزولة لنفسهِ وفيها قطعة باريه فجلس وأجلسني وأحضر لي طعامًا فأكلت وغسلت يدي فأعطاني منديله فمسحت يدي، ثم إنه أخذ يحدِّثني بأحوالي وما كان الشيخ أبو الفتح عليهِ رحمه الله وعن الفقراء وتشتيتهم ولم يجد شيئًا في خاطري إلا حدَّثني بهِ، فقلت في نفسي: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله لا شك أن هذا هو الشيخ لا محالة، ثم أذن المؤذن أذان الظهر فلما فرغ من الأذان قال لي: أي ولدي ما نمشي نصلي الظهر؟ فقلت له: بلى والله ثم إنهُ نهض وأنا معهُ حتى خرجنا من الدار وأتينا إلى الرواق فدخل هو وجلس في المحراب ومشيت أنا تحت الكوز الجيلاني فركعت ركعتين تحية البقعة وصلّيت السنة وجلست وأسرع الناس أفواجًا للصلاة يدخلون الرباط ويجيئون إليهِ ويقبلون يده فتحققت أنهُ الشيخ وتركت رأسي على ركبتي فأغفيت فرأيت الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ كبرت جثتهُ وامتلأت منهُ ثيابه ثم امتلأ منه الرواق وامتلأ منهُ الرباط، ثم امتلأ منهُ الكون ثم إنهُ ضغطني بين الخشبة والجدار حتى كادت نفسي تزهق وأخذني الليث ثم رأيتهُ وقد امتلأ منهُ المشرق والمغرب والسهل والجبل، حتى امتلأ منه السمٰوات والأرض وما بينهما وكل ذلك رأيتهُ وكادت نفسي تزهق لما أنا فيهِ من هول منظري وقد خرق عقلي من الضيق الذي أنا فيهِ من الضغطة. ولم أزل كذلك حتى قامت الصلاة فلكزني بعض الفقراءِ الذي كان بجانبي فرفعت رأسي فرأيت نفسي مرضوض كنبد الغصب فلم أتمكن من الصلاة قائمًا فصلّيت قاعدًا، فلما فرغنا من الصلاة وصلّيت السنة أقبل الفقراء على سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه ليصافحوه وأنا قاعد مكاني لا أتمكن من الكلام ولا من القيام لما نالني، ثم إن سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي نهض من مكانهِ وأتى إلى عندي وسلّم عليّ وأخذ بيدي وقال لي: كيف أنت؟ ثم نفسك، ثم إنهُ أخذ بيدي وقام فقمت معهُ وخرجنا من الرواق وصعدنا إلى فوق القرية وهناك قبة يسمونها قبة طوبى فأدخلني هناك وجعل يحدّثني بكل ما كان من الشيخ أبي الفتوح وسيرتهِ، ثم حدَّثني بحديث الفقراء أصحاب الشيخ وكاشفني بأحوال جماعتهِ فقلت في نفسي: هذا الرجل الذي يحدِّثني بحديث الرجال فيهِ أنه ظهر وما

بقي شك أقوم آخذ العهد على يده وأتوب، ثم إني كشفت رأسي وقلت: أي سيدي خذ عليّ العهد وتوبني، فقال لي: أخي أنت ما تعرف غير سيدي أبو الفتوح ولا تتوب على يد غيره فكلنا على يد سيدي أبي الفتوح السيد المحتشم قدس سره، فقلت لهُ: أي سيدي لا بد أن تتوبني، قال: فأخذ عليّ العهد وتوبني ثم إننا قمنا وخرجنا وجئنا إلى الرواق وقد أذن العصر فأخذ الشيخ مجلسهُ ورجعت إلى مكاني وصلّيت وبت ليلتي مسرورًا بهِ وأنا مرضوض من العنا الذي نالني من الضغط، ثم إني نسيت قرية عبد الله وأهلي والفقراء والشيخ أبي الفتوح. ولم يخطر خاطري بأحد من الخلق كلهم غير سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي وبقيت سنةً كاملة على هذا الحال، فلما كان بعد سنة وأنا نائم في بعض الليالي خطر لي قرية عبد الله وأصحابي وزيارتهم فقلت: ما أحسن أن أواجه سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ إلا بالإذن ثم نمت ليلتي موسومًا بالأضعاد فلما أذن لصلاة الصبح قمت وصلّيت على جاري العادة خلف سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي صلاة الصبح ثم جلس مكانه على عادتهِ حتى صلى الشكر والضحى ثم جلس ودعا وفرغ من دعائهِ قمت إليهِ لأقبّل يده فلزم يدي وقال لي: أي أخي مكي أما تقصد قرية عبد الله تسلم على أهلك وعلى الفقراء، فقلت لهُ: إن أذن سيدي، فقال: بسم الله، ثم إنه أخذ بيدي وخرجنا من باب الرواق ومشينا إلى الشط فوقف على جانب سفينة وهي مشحونة فيها أرز وتمر وحنطة وشعير ودهن وقطن وقد أقام لها مدادين، فقال: أي سيدي أي أخي مكي بسم الله انزل في هذه السفينة فإذا وصلت إلى قرية عبد الله فرق هذا على الفقراء وعلى أهلك وسلم لي على أهلك وعلى إخوانك واسألهم لي الدعاء، وودعني ومضى وصعدنا بالسلامة حتى وصلنا قرية عبد الله ودخلت على أهلي وسلّمت عليهم وعلى الفقراء وأخرجت الذي كان في السفينة وفرقتهُ على الفقراء وعلى أهلي ثم جلست ساعة وأذن المؤذن أذان الظهر فقمت وصلّيت وقعدت سنة كاملة بقرية عبد الله ما رجع خطر لي أُم عبيدة ولا ذكرتها قط، فلما كان بعد السنة وأنا جالس في المسجد وإذا كان رجلاً أدخل يده تحت إبطي أقامني فقمت وخرجت ولم أدر إلى أين قاصد، حتى أتيت إلى الحرنيات موضعي بالسنة الخالية وإذا بورحيةٍ وملاحين الذي كانوا أول والرجل جالس بصدر الورحية فلما وصلت إليه ناداني الرجل باسمي أي مكي تجيء أم عبيدة، قال: فالتفت إليهِ فعرفتهُ فاستيقظت لنفسي فقلت لهُ: يا سيدي بلى ثم إنهُ أنزلني إليهِ فسلّم عليّ وسلّمت عليهِ وجلست بجانبهِ معهُ في صدر الورحية وانحدرنا على العادة التي كانت فبتنا في الطريق حتى أتى الصباح فانحدرنا إلى أن وصلنا إلى أُم عبيدة قبل الظهر فأصعدني إلى مكاني الذي صعدت فيهِ أولاً بالسنة الخالية ثم إني بادرت إلى إسباغ

الوضوء فتوضأت، ثم إني جئت إلى الرباط وقلت في نفسي تلك السنة تلقاني سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد من باب الرباط وهذه السنة يتلقاني من الشط، ثم إني جئت إلى الرباط فلم التق الشيخ ولا غلامهُ ولم يلقاني أحد فجئت إلى مكاني الذي كنت أصلي فيهِ فصلّيت ركعتين تحية البقعة وسلمت على الفقراءِ الذين كنت أعرفهم، ثم إني جلست ساعةً وأذن الظهر وإذا بسيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي قد أقبل فقمت إليه وسلّمت عليه وقبّلت يده فرحّب بي وردّ عليّ السلام وسألني عن حالي وعن الفقراء فعرفتهُ طيب نفوسهم وأنهم يسلموا عليهِ ويسألونهُ الدعاء، ثم إنهُ قصد المحراب ورجعت إلى مكاني وقلت في نفسي إن سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي أراني في تلك المرة شيئًا من الإشارة وهذه المرة يريني غير ذلك، ثم إني تركت رأسي على ركبتي ولم أزل كذلك حتى قامت الصلاة فلم أرَ شيئًا فقمت صلّيت الظهر وصلّيت السنة وأسرع الناس يسلّمون عليهِ ويقبّلون يده، ثم إني انتظرتهُ يجيءُ إليَّ على عادتهِ الأولى فلم يجيء فقمت أنا وجئت إليهِ وأخذت يده فلزمني وقال لي: أي أخي مكي ذلك كان شيء ومضى واليوم هذا اللاش الحقير حميد لو أن عشرةً عن يمينه يروحونهُ بمراوح الند والكافور وعشرة عن شمالهِ يقرضون لحمهُ بمقاريض من النار ما كان عنده هؤلاء أكثر من هؤلاء ولا هؤلاء أنقص من هؤلاء، قال: فلما سمعت كلامهُ قبلت يده ورجعت إلى مكاني متفكرًا في أمره وما أعطاه الله تعالى، قال الشيخ ثابت الراوي لهذا الحديث: أخبرني الثقاة أن الشيخ مكي أقام بعد ذلك الكلام مدةً وتوفي رحمهُ الله ودفن في باب الرباط بعدما جهزه سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي وكفنهُ وصلّى عليهِ رضوان الله عليهِ وهذا من بعض إشاراتهِ وكراماتهِ وعظم العطا الذي منحهُ الله سبحانهُ وتعالى بهِ لأن الله تبارك وتعالى إذا أعطى عبده عطيةً أو منحه منحةً حيّر فيهِ الأفكار، وكان رضي الله عنه كما قال أبو عبد الله محمد بن المنكدر رضي الله عنه حين سئل أي الأعمال أحب إليك فقال: إدخال السرور على المؤمن قالوا: فما بقي منك مما يستلذ بهِ قال: الفضل على الإخوان.

ونقل أن السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ رأى في المنام مرةً أن الغلاء يأتي على الخلائق مدة ثلاث سنين لا يزيد الماء ولا تمطر السماء حتى تأكل الناس الميتة وتموت الناس على الطرق جوعًا، وكان الشيخ الفقيه علي بن نصر من الأموصية بينهُ وبين السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ صحبة مؤكدة وكان كثير العيال، فبينما هو يومًا في بيتهِ إذ رأى السيد أحمد الرفاعي وليس معهُ أحد من الفقراء فقصّ عليهِ رؤياه وعرض أن يشتري من الغلّة في الرخاء ما يكفيهِ لتلك المدة فقال الفقيه: لا والله ما فعلت ذلك وكيف أشبع وجاري جائع فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله

تعالى عنهُ: أي علي أحسنت بارك الله فيك وجزاك الخير، فأين غلتكم التي لكم في البيت؟ قال: في الغرفة، فقال: خذني إليها فصعد معهُ إليها فترك السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يده فيها وقال بسم الله الرحمٰن الرحيم، ثم قال: أي علي لا تترك أحدًا يصعد إلى الغلة ويأخذ منها إلاً زوجتك وحدها تأخذ حاجتها، فقال: السمع والطاعة ثم خرج السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ من البيت وودّع الفقيه، ثم رفع قدمهُ في الهواء وغاب عن الفقيه فلم يدرِ كيف مرّ، ثم أتى الغلاءُ والقحط على الناس كما رأى السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ، فلم يزل الفقيه وعيالهُ يأكلون من تلك الغلّة مدة الغلاءِ وبقيت بحالها إلى زمن الرخص ببركات السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ. ونقل أنهُ كان في زمان السيد أحمد الرفاعي رجل من الصابئين وقد فقد لهُ دواب فخرج في طلبها ولم يعرف لها خبر، فوصل في طريقهِ إلى أُمّ عبيدة ليلاً فدخلها وكان قد مكث ثلاثة أيام لم يذق طعامًا لأن الصابئين لا يأكلون من خبز المسلمين، وكانت تلك الليلة شديدة الظلمة والبرد فدخل الرواق وقد أضرَّ بهِ الجوع والتعب والبرد، فألقى نفسه بين الفقراء ونام فأظهر الله تعالى حالهُ على السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ فجاء لأجلهِ في الحال، فلما وصل إليه قعد عند رأسهِ وأيقظهُ فانتبه منزعجًا مرعوبًا وقال: أي سيدي ماذا تريد مني أنا فقير غريب، فقال: قصدت أي ولدي فإنما أظنك جائعًا، ثم أمره أن يمضي معهُ إلى المنزل فقام ومشى معهُ، فلما دخل المنزل أحضر لهُ دقيقًا وسمكةً وتمرًا وركوة للماءِ جديدة وأمره أن يمضي بنفسهِ ويغسل السمكة ويمدّ الركوة من ماءِ الدجلة بيده، فمضى الرجل وغسل السمكة وأتى بماء وشرع في عجن الدقيق، وأما السيد أحمد الرفاعي فإنهُ أحضر حطبًا وأوقعهُ في التنور وأوقد فيه النار. فلما فرغ الرجل من العجن خبز وشوى السمكة ثم قدم الجميع بين يديهِ فأكل حتى شبع ثم أمره السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ أن يأخذ الباقي معهُ لصغاره فأخذه. ثم قام السيد أحمد الرفاعي وخرج قدامهُ رجاءَ أن يجد سفينة ينحدر فيها الرجل إلى أهلهِ فوجد سفينةً فيها جماعة ينحدرون، فقال لهم السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ: تأخذون هذا الرجل الفقير معكم إلى موضع كذا وذكر قريتهُ وتأخذون أجرتكم، قالوا: نعم فقدموا السفينة وأخذوه فوصاهم بهِ، ثم رجع بعد أن ودَّع الرجل فلما وصل أولئك الجماعة إلى القرية سألوه عما جرى لهُ فأخبرهم، وحكى لهم القصة مع السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ، ثم قال: ما هذا إلا رجل كريم على ربهِ وإني داخل في دينهِ ثم قال: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله، فاتبعهُ أهلهُ في الحال وأسلموا جميعًا فلما أصبحوا خرج إلى بني عمهِ وعشيرتهِ وكان كبيرهم ومعتقدهم فاجتمعوا وسلّموا عليهِ، فأخبرهم بما جرى لهُ

وأنهُ قد أسلم هو وجميع أهلهِ ورغبهم في الإسلام، فكشف الله تعالى الغمة عن قلوبهم فأسلموا بأجمعهم، وكان ذلك ببركات سيدي أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ وأحسن نيتهُ وأخلص طويتهُ أعاد الله علينا وعلى كافة محبيهِ من بركتهِ وحشرنا بفضلهِ في زمرتهِ.

ونقل أن السيد محيي الدين إبراهيم بن سيدي عمر الفاروثي رضي الله تعالى عنهما كان طفلاً صغيرًا في حياة سيدي أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ فحملهُ والده إلى حضرتهِ المقدسة فوقع نظره عليهِ وقال لهُ: أي إبراهيم جملت بك المحافل ولا امتدت عليك يد، قال صاحب الترياق: فعاش سيدي إبراهيم معزّزًا مكرمًا موقرًا محترمًا. كما قال قدس سرّه حملت بهِ المحافل ولم تمتد إليهِ يد جاهل إلى أن توفي إلى رحمة الله تعالى. ونقل في بعض السير غير السير الثلاثة المذكورة أن السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ قال للشيخ عمر: إذا صعدت الكرسي وتكلّمت في البلاد ووقف عليك المجلس فاذكرني، قال الشيخ عمر: فسافرت إلى بلد من البلاد وجلست على الكرسي وتكلّمت حتى أضحى النهار فلم يتحرك أحد فذكرت قول السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ لي فقلت: أي سادة كان لي شيخ يقال له: السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه وشرحت القصة فالتطم المجلس ببعضهِ وأسلم على يدي في الحال ثمانمائة رجل وتاب ما شاء الله حتى لن يعرفوا من الذين أسلموا، ومن كراماتهِ المشهورة المستفيضة لا زالت بركاتهُ علينا في الدارين مفيضة التي لا يستطيع إنكاره جاحد ممن قلبهُ عن الحق وأهلهِ حائد، ولم ينقل عن غيره من أسلاف المشايخ الكبار وهي الآن مشهودة من المتسبين إليهِ حالة الاختيار دخولهم في التنانير المضرمة في النار فيطفؤنها ولم تضرّهم بأمر الملك الجبار، وتسخير الله تعالى إياهم الحيات والأفاعي حيث قالوا عند أخذهم إياها: يا أحمد الرفاعي واسقي المنكرين إياهم السموم. ولم تضرهم بإذن الله كاشف الهموم وتسخير الله تعالى إياهم الأسود فيركبونها وهي مطيعة لهم بإذن الله تعالى الملك الودود.

قال ابن جلال في جلاءِ الصدا ما نصهُ: نقل عن السيد إبراهيم الأعزب أنهُ قال: كنت جالسًا في الغرفة مع السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهما ورأسهُ على ركبتيهِ فرفع رأسهُ وضحك بأعلى صوتهِ فضحكت أنا أيضًا مع البشاشة فصاح علي وقال: أي إبراهيم مما تضحك فقلت: أي سيدي رأيتك تضحك فضحكت أنا أيضًا ثم ألححت عليهِ ليخبرني عن سبب ضحكه فقال: أي إبراهيم ناداني العزيز سبحانه إني أريد أن أخسف الأرض وأرمي السماء على الأرض فلما سمعت هذا النداء تعجبت وقلت: إلٰهي مَن ذا

الذي يعارضك في ملكك وإرادتك، قال سيدي إبراهيم: فأخذتهُ الرعدة ووقع على الأرض، وبقي في ذلك الحال زمانًا طويلاً. ونقل عن السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ أنهُ كان مغمومًا مطرقًا رأسه سنة ليلها ونهارها حتى عرف ذلك خواص أصحابه فدخل الرباط يومًا وقد زال عنهُ ذلك وقد ظهر في وجههِ آثار الفرح فسأله الشيخ يعقوب عن ذلك فقال: أي يعقوب قد كنت مطلعًا في هذه المدة على فعال الخلق بعضهم يهرقون دماء المسلمين بغير حق وبعضهم يهتكون أعراض المسلمين، وقد كشف لي ذلك في كل مكان فكان غمي لأجل ذلك وخوف مكر الله تعالى فنوديت الآن: أي أحمد أنت خلقت الخلق أم أنا؟ قلت: أنت يا إلٰهي، ثم نودي: أنت تحكم عليهم وتقدر أم أنا؟ فقلت: أنت. فجاء النداء: أنت ترحم وتغفر لهم أم أنا؟ فقلت: أنت، فجاءَ النداء: أنت تمحو وتثبت أم أنا؟ قلت: أنت يا أرحم الراحمين، فنوديت: أي أحمد الرفاعي فطيب نفسك فإن أهلك جميع الأرض لم يخطر لي شيءٌ، قال: فبعد ذلك ظهر القحط فصار سيدي أحمد يدور على الخلق في السكك، فقال لهُ السيد عبد الرحيم أو غيره: ما ترى الخلائق في هذه الشدائد وما تسمع بحالهم؟ فقال: نعم، قال: ما تترحم عليهم لعل الله تعالى يرحمهم ببركة ترحمك عليهم ويخلّصهم من تلك الشدائد؟ قال: لا لا. ونقل عن المولى الإمام الشيخ المقدام أنهُ قال: كنا دائمًا نرى السيد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ متغير اللون فسألناه عن ذلك فقال: إن سيف القهر ينجذب في وجهي في كل يوم خمس مرات، قال تعالى: ﴿إن الله كان عليكم رقيبًا﴾ [النساء: ١] يلاحظني حالة القهر. ونقل أن السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ قال للسيد إبراهيم الأعزب: لو أن على فخذي هذا واحد بيده سكين يقطع لحمي ويمزقهُ وعلى فخذي الآخر واحد بيده مروحة يروحني ويلعقني العسل، لا هذا يزيد عني بفعلهِ ولا هذا ينقص بفعله. وقال في الشفا: إن ذلك كان في ابتداءِ حالهِ، وكان يقول في آخر الأمر، لو أن على فخذي الأيمن خمسمائة وتسعون في إيصال خير وراحة إليَّ، وعلى فخذي الأيسر خمسمائة يقطعون من لحمي بمقراض من النار، ما حصل لهؤلاء الزيادة ولا لهؤلاء النقصان. ويحتمل أن هذا ليس من الأحوال بل من المقامات، لأنهُ استوى عنده الضر والنفع والعطاء والمنع، ولا يرى ذلك منهم، بل يراه من الفاعل المطلق سبحانهُ. وعلم أن هو المعطي والمانع والضار والنافع، ورضي بقضاء الله المبرم الذي لا يرد ولا يدفع.

واختلف المشائخ في الرضا: هو من جملة المقامات أو من جملة الأحوال، فحارث المحاسبي قال: هو من جملة الأحوال وأخذ مشايخ خراسان بقوله، ومشايخ العراق خالفوه وقالوا بل هو من جملة المقامات. ونقل عن الإمام الولي الرشيد الشيخ

الكبير، المسمى سعيد وكان من كبار أصحاب السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ أنهُ قال: كنت في بيتي ليلة من الليالي إذ ناداني السيد أحمد الرفاعي، فقمت مبادرًا وجئت إليه وقبّلت يده، وسألته عن حاجتهِ فأخذ بيدي وخرجنا من الرواق حتى وصلنا إلى بستان يعرف بالقنوري، وهو مكان خالي فوق أم عبيدة ما فيهِ شيءٌ يستظل بهِ. قال أي سعيد قف هاهنا حتى أرجع، فوقفت مكاني حتى مضى من الليل شطر وهو لم يرجع، فمشيت على أثره لأعرف خبره، فإذا أنا بثيابهِ ملقاة على الأرض وعلى جانبهِ ماءٌ يبرق كالنجم، فجعلت أطوف يمينًا وشمالاً فلم أجده، فرجعت إلى موضعي وأنا مرعوب من ذلك إذ هو أقبل عليَّ وأنواره تشرق، فقلت له ما رأيت وأقسمت عليهِ بالعزيز سبحانه وبالمصطفى ﷺ، فاستخبرته عن ذلك فقال: أي ولدي أنا كنت ذلك الماءَ الذي رأيتهُ، نظرني العزيز سبحانهُ بعين القهر فذبت كما يذوب الرصاص، فصرت كما رأيت ماءً ثم نظرني بعين اللطف فصيّرني كما ترى بشرًا سويًا. أي سعيد وحق العزيز سبحانهُ لولا أن نظرني بعين اللطف، لما رجعت إليكم أبدًا. وكان السيد أحمد الرفاعي عليهِ الرحمة والرضوان إذا حضرت لهُ حضرة من جناب العزيز جلّ جلاله، يتململ تململ السقيم ويقول أيّ حيرة أيّ دهشة أيّ حرقة، ثم يقول يا هو يا مَن لا يعلم ما هو إلا هو، ثم يبكي.

وذكر في أم البراهين ما نصهُ: حدَّثني بهِ الشيخ يعقوب ابن كراز رحمهُ الله تعالى، قال كان قد مرض شخص من كبار بني الصيرفي مرضًا شديدًا، وعجز عنهُ الأطباء ولم ينفعهُ الدواءُ، وقال فحملوه أهلهُ إلى سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي وتركوه بين يديه، وسألوه أن يدعو لهُ فلم يفعل وأبى عليهم، فقال لهم بعض الفقراء: احملوه إلى باب الرواق لعل الشيخ في ممره ومجيئه عليهِ يرحمه، فإنهُ رقيق القلب رحيم، قال: فحملوه وألقوه على باب الرواق، فبقي مدة ثلاثة أيام ملقى وسيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي يمرّ عليهِ في اليوم والليلة مرارًا، وهو يتوسّل بهِ وهو لا يلتفت إليهِ ولا يدعو أكثر مما يقول: الله لطيف بعباده، قال قلت لهُ: أي سيدي أما تنظر إلى هذا الرجل المسكين وترحمهُ وتسأل الله لهُ العافية، فقال لي: أي يعقوب لا تعلمني الغلط هو أرحم وأحكم بخلقه، أي يعقوب لي على العزيز سبحانهُ وتعالى كل يوم ألف حاجة مقضية، ما سألته منها حاجة في الدنيا إنما أريدها منه في الآخرة، قال يعقوب قلت له: أي سيدي تكون ألف إلا حاجة. فقال لي: أي يعقوب لا حبًا ولا كرامة لـمَ لا تكون ألف وواحدة؟ أي يعقوب اعلم أن الرجل الجيد المتمكن من نفسهِ الكامل بحالهِ، إذا سأل ربه حاجة وقضيت لهُ، نقصت درجتهُ عند الله تعالى، قال: فقلتُ له: أي سيدي أنت تدعو في عقيب كل صلاة وفي كل مجلس، وتسأل الله تعالى. فقال لي: أي يعقوب ذلك الدعاء

تعبّد مندوب إليهِ لأنهُ مما يلي أمر الدين ويصلح العبادة، وأما أمور الدنيا وأهلها والالتفات إليهم، فإنني أستحي من الله تعالى أن أسألهُ شيئًا من ذلك، وأخاف الرد كما روى الشبلي رحمهُ الله: قال كنت بعرفة فرأيت شابًا ساكتًا والناس يبكون ويصرخون ويكبرون ويدعون، فقلت لهُ: يا شاب هاهنا موضع السكوت، فقال: يا شبلي قد وقعت وحشة، وأخشى قبح الرد وأخشى أن أقول لبيك اللهم لبيك، فيقول لا لبيك ولا سعديك، ثم بكى وجعل يقول شعرًا:

أروح وقد ختمت على فؤادي ... بحبك أن يحل بهِ سواكا
ولو أني استطعت غضضت طرفي ... فلم أنظر بهِ حتى أراكا
وفي الأحباب مخصوص بوجد ... وآخر يدعي معهُ اشتراكا
إذا انسكبت دموعي في خدودي ... تبيّن مَن بكى ممن تباكا

قال سيدي أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ: أي يعقوب، أما الدعاءُ فلهُ شروط واقتداء بحديث رسول الله ﷺ، حاكيًا عن ربهِ عزّ وجلّ حيث قال لنبيهِ موسى عليهِ السلام لما أراد أن يدعو الله تعالى، فقال يا موسى: هب لي من عينيك الدموع، ومن قلبك الخشوع، ومن جوارحك الخضوع، ثم ادعني فإني قريب مجيب. وهذا أيضًا من عظم تواضعهِ لربهِ وتعظيمهِ لهُ، ما سألهُ يومًا ولا طلب منهُ حاجة من حوايج الدنيا، وإنما كان يطلب لأصحابهِ من ربهِ الوصول إليهِ والقرب منهُ والعلم بهِ، ولا يطلب لنفسهِ شيئًا ويقول: أنا وأي شيءٍ عند ربي جلّ جلالهُ، إن أنا إلا ابن امرأة تخدم الفقراء بنفسها. وأنشد شعرًا:

ومستخبرٍ عن سرِّ ليلى تركتهُ ... بعمياءَ من ليلى بغير يقين
يقولون خبّرنا فأنت أمينها ... وما أنا إن أخبرتهم بأمين

فبعد يومين عوفي المريض بإذن الله لنفسه، وذكر مثل هذه القصة عنهُ قدس سرهُ الإمام السبكي في طبقاتهِ كما تقدم.

وقال أيضًا في أم البراهينِ ما نصهُ: أن السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ كان يخفض جناحه ويغض صوته، ولا يتكلم إلا بآية من كتاب الله تعالى أو بخبر عن رسول الله ﷺ، ويقول: واخجلتاه غدًا بين يدي الله تعالى إذا جئت مقصرًا، وقد سبقوني أصحاب الأعمال المرضية وقرّبوا من إلٰه السمٰوات، فما يكون عذري عند من لا يخفى عليهِ خافية، عالم السر والعلانية. ثم إنهُ أنشد شعرًا:

قالوا غدًا تأتي ملوك الحمى ... وينزل الركب بمغناهم

فكل مَن كان مطيعًا لهم أصبح مسرورًا برؤياهم
فقلت لي ذنب فما حيلتي بأيّ وجه أنا ألقاهم
قالوا فإن العفو من شأنهم لا سيما عن مَن ترجّاهم

وذكر أيضًا ما نصهُ، ورواه لنا عنهُ صاحب السر الجلالي والمقامات والمعالي الإمام الولهان، سيدي علي بن عثمان رضي الله تعالى عنهُ قال: خلوت مع سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ ذات يوم من الأيام، ولم يكن معنا آلف غير الله تعالى، فأخذت أسأله عن شيءٍ أصلح بهِ ديني وأقوي بهِ يقيني وأنفع بهِ قريني، وسألته عن أشياء من علوم الغوامض، ثم إني رأيته قد بلغ من العلوم إلى ما لم يبلغ غيره، فقلت له: أي سيدي من أي القوم أنت؟ فقال لي: أي علي أنا من قوم أمروا بالعمل فعملوا، وبالعلم فتعلموا فعملوا بما علموا، فقُبِلُوا فوَصَلوا وسُقُوا فشرِبوا حتى سكروا، أي علي أنا ممن حكم عليها ولم تحكم هي عليهِ وملكها لما وصلت إليه. ثم أنشد يقول شعرًا:

ولما شربناها ودب دبيبها إلى معدن الأسرار قلت لها قفي
مخافة أن يسطو عليَّ مدامها فتظهر جلاسي على سري الخفي

أي علي: كل القوم شربوها فحكمت عليهم، فعربدوا وباحوا وخالك شربها فحكم عليها فكتم حبه وأخفى وجده، فظهر بكتمانهِ على أقرانهِ وارتفع بكتمان حبه عند حبه على صحبهِ، أي علي عليك بكتمان الأسرار تنال الفخار وترضي الملك الجبار. ثم أنشد يقول شعرًا:

الحب أظهر أهليه على الناس فلا يرى فيهم ساه ولا ناسي
إلا أخو ثقة مستبصر يقن موله راسخ في علمهِ راسي
في ألحان مولده طفلاً ومنشأوه بين الرفاق مطيع الكأس والطاس
يغنيك منظره عن كنه مخبره سهل الخلائق من خمر الهوى حاسي
يسقي ويشرب لا تلهيه سكرته عن النديم ولا يلهو عن الكاس
أطاعه سكره حتى تمكن من حال الصحات وهذا أعظم الناس

انتهى.

وذكر في أُم البراهين أيضًا ما نصه، وحكاه لنا سيدي علي رضي الله عنه قال: إننا قصدنا زيارة سيدي الشيخ منصور قدس سره، فلما وصلنا ودخلنا الرباط وسلّمنا

عليهِ وبقينا ساعة، خرجت وحدي ومشيت إلى سيدي الزعفراني قدس سره وكان من كبار أصحاب الشيخ منصور، وكان له كشف عظيم قال: فلما وصلت إليهِ ودخلت عليهِ وسلّمت وقبّلت يده وسألته الدعاء وجلست بين يديهِ، قال لي: كيف خالك المكدي؟ فلم أكلّمه ولا رددت عليهِ جوابًا ولا علمت ما أقول له، ثم إني قضيت منه وطري واستأذنته وخرجت وأنا مضطرب لأجل قولهِ، وجئت إلى سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي وأخبرته بما قال لي الزعفراني، فقال لي: وأي شيء قلت له؟ فقلت: سيدي ما استجريت منك أكلّمه فقال لي: أي علي ارجع إليه وسلّم عليهِ، وقل له: يقول لك خالي اللاش حميد إن كذبت سوف ترى العجب أي رجل سيدي منصور، قال سيدي علي فرجعت إلى الزعفراني، وعرفته قول سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي فنكس رأسه ولم ينطق بحرف، ثم خرجت من عنده وأقمنا عند الشيخ منصور الذي قسم الله تعالى، ثم رجعنا إلى أم عبيدة وبقيت كل مدة أقول لسيدي أي سيدي وصل المقام إلى الكدية[1]، فيقول: لا ومضى على ذلك سنين وأنا أقول له وصل المقام إلى الكدية، فيقول: لا، فلما كان في بعض الأوقات قلت له: أي سيدي بحق العزيز سبحانه وتعالى، إذا وصل المقام الكدية ما تفعل مع أصحابك؟ فقال: أي علي تصير ملوكًا. قال: فبقيت سنينًا أكثر سوأله عنها وأقول: هل وصل المقام الكدية؟ فلا زلت أسأله حتى قال لي: نعم أي علي إن قال لك قائل بقي على باب العزيز سبحانه غير خالك مكدي فلا تصدقه، وهذا كما روي عن أبي أيوب السجستاني رحمه الله أنه كان يقول: ما ذاق العبد شيئًا أطيب ولا ألذّ من كديتهِ على باب مولاه، وأنا أحب أن أكون مكديًا على باب العزيز سبحانه وتعالى، فلينظر العاقل إلى أنه لم يزل مع الذلّ والانكسار حتى وصل إلى مقام المقربين الأبرار وبلغ المجد الأدنى، فكان لا ينطق إلا بذكر الرحمٰن ولا يلفظ إلا بالقرآن عليهِ الرحمة والرضوان. شعر:

أنا إن نطقت فلا أنطق بغيركُم ... وإن ضمرت فأنتم عقد إضماري
يحول بيني وبين النوم ذكركم ... ولا أنام إذا ما نام سُمّاري
تزول عني ثيابي من ضنى جسدي ... ولو عقدت على الألباب أزراري
النار عندكم والنار في كبدي ... فإن هربت فمن نار إلى نار

---

(١) الكدية: الأرض الغليظة التي لا تعمل فيها الفأس: يقال بلغ الناس كدية فلان إذا أعطى ثم منع وأمسك.

ولما أراه الله تعالى هذه المنزلة الرفيعة وأعطاه العطايا البديعة، كان يتحمل الأذى ويحسن لمن أسا ويزور الإخوان ويتعهدهم بالإحسان رضي الله عنهُ، وكان يقول: «مَن جدّ وجد ومن لجَّ وَلَج[١] ومَن دخل في التواضع المزيد حصل لهُ ما يريد»، ويتمثل بالحديث الشريف قولهُ ﷺ: «جاهدوا واجتهدوا ورفعوا وسددوا فلكل مجتهد نصيب»، ثم يتلو قوله تعالى: ﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾ [الحج: ٧٨] وينشد قول الإمام الغالب علي بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجههُ، شعر:

بقدر الجد تكتسب المعالي ... ومن طلب العلا سهر الليالي
تروم العزّ ثم تنام ليلاً ... يغوص البحر من طلب اللآلي
أتزعم أن تنال بغير سعي ... منالاً لا سبيل إلى المنال
فمن هجر الكرى وصل الأماني ... فذاك الهجر داعية الوصالِ

قال في أم البراهين: ومن خصائصهِ رضوان الله عليهِ، ما رواه لنا ثمرة الولاية وسلالة الهداية العظيم الحنيفي المذهب الرابح في المكسب، سيدي إبراهيم الأعزب رضي الله تعالى عنهُ، أنهُ قال: حضرت يومًا من الأيام بين يدي سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي، وجرى بيني وبينهُ الكلام فقلت لهُ: أي سيدي إنّ الفقراء تذاكروا في الطريق إلى الله فزادوا وأكثروا. فقال أي ولدي: الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، أي إبراهيم ما ترك جدك للقوم مسلكًا إلا سلكهُ إلا ما شاء الله، أي إبراهيم درت جميع الطرق فلم أرَ أقرب وأمنح وأرجى وأحب من طريق الذل والانكسار والحيرة والافتقار، ثم تلا قوله تعالى: ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا﴾ [الدهر: ٣] وقول رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله بعبد خير أحبب إليه الخير». وقول أبي بكر رضي الله تعالى عنهُ: «الحمد لله الذي لم يجعل الوصول إليه إلا بالعجز والعجز عن الإدراك إدراك». وقول الجنيد رحمهُ الله، وقد سألهُ جماعة من الفقراء عن طلب الرزق فقال لهم: إن علمتم أين هو فاطلبوه فقالوا: نسأل الله تعالى، فقال لهم: إن علمتم أنهُ ينساكم فذكّروه. فقالوا لهُ: كيف الحيلة؟ فقال: ترك الحيلة. وقول الله تعالى لنبيهِ موسى على نبينا وعليهِ أفضل الصلاة والسلام، أي موسى ائتني بما ليس في خزائني، فقال موسى: يا رب وهل خزائنك خالية من شيء؟ فقال: نعم يا موسى، خزائني مملوءة عزّ وكبر وعظمة وجلال وقدرة وجبروت، ولكن ائتني بما ليس عندي، ائتني بالذل والانكسار والمسكنة والاحتقار، فأنا عند المنكسرة قلوبهم

(١) لجَّ: تمادى في الأمر وأبى أن ينصرف عنه، ووَلَجَ: الولوج: الدخول.

من أجلي، يا موسى ما تقرب المتقرب إليّ بأعظم من ذلك، ثم وعظه بما هو عليهِ رحمة لهُ.

وذكر في أم البراهين ما نصهُ: وحكى لنا عنهُ قدّس سره الشيخ يعقوب بن كراز رحمهُ الله تعالى قال: دعاه أقوام من أهل برجونه ليعمل جمعية فأجابهم إلى ذلك، فأتى معهُ الجمع وانضاف إليهُ خلق كثير، وأقبل الناس يهرعون من كل جانب ومكان، قال: فرأيت خلقًا كثيرًا وازدحموا فقلت لسيدي الشيخ الكبير: أي سيدي ما هذا الأمر العظيم في هذا الجمع؟ وكيف جاءوا على وجوههم من بيوتهم، فقال: أي يعقوب أما تعلم كيف الحال. قلت: لا، فقال: هذا لعب اللعين إبليس قد صاح فيهم وجمعهم يريد ثبور هذه النفس على هذا المسكين اللاش حميد، لكن وحياتك ما يقدر على ذلك، أي يعقوب حشرت مع فرعون وهامان وقارون إن كان خطر في سري أو يخطر، أني رئيس هذا الجمع أو شيخه أو متقدم عليهِ أو أحكم عليهِ، إلا إني أردى وأدون فقير في هذا الجمع، أي يعقوب لولا أن يتكفل العزيز سبحانه وتعالى بهذا الأمر ويجعل أزمة القدرة في رقابهم ويسوقهم سوق الغنم، وإلا فمن أنت أيّ لاش، ثم التفت إليَّ وقال لي: أي يعقوب لو أن أحمد يتقطع قطعًا لما بان ذلك في جنب كرم الله تعالى عليهِ ونعمته السابغة إليه، وذلك اقتداء بالإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، حين قال معاوية لضرار: يا ضرار صف عليًا؟ فقال: يعفيني أمير المؤمنين، فقال: لا بد، فذكره وقال قريب الوفاء شديد القوى يقول فصلاً ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبهِ وينطق بالحكمة من يقينهِ يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته، وكان والله غزير الدمعة طويل الفكرة ولقد رأيتهُ في بعض مواقفه وقد أرخى عليه الليل سدله وأزهرت نجومه، وتمثل في محرابهِ قابضًا على لحيتهِ يتملل كالسقيم ويبكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا غري غيري لا حاجة لي بك، ولو تعرضت وإليَّ تشوفت ولي تزخرفت هيهات هيهات، عمرك قصير وخيرك حقير وزادك يسير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق. انتهى.

وقال في أم البراهين ما نصهُ: ومن خصائص سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي، ما حكاه لنا الشيخ مقدام شيخ القراء بالحدادية رحمهُ الله تعالى قال: بينما سيدي الشيخ الكبير ذات يوم جالسًا يحدث الفقراء، إذ قام إليهِ فقير فقال لهُ أي سيدي بلغنا أن سيدي الشيخ منصور رحمهُ الله تعالى كان عاشقًا، فقال لهُ: أي ولدي صدق الذي قال، فقال الرجل: أي سيدي فغيره ـ يعني بهِ أنت ـ فقال: غيره عاشق ومعشوق، وإن كان سيدي منصور قد ذاب باطنه فغيره ذاب باطنه وظاهره، ثم التفت إلى الشيخ

يعقوب وقال لهُ: أي يعقوب الرجل من تظهر آثاره بعده، ثم قال أي يعقوب: وحق العزيز سبحانهُ وتعالى ما كان لي اختيار في مجيء هؤلاء الخلق، وإنما العزيز سبحانهُ مَن جاء بهم وأظهرهم من العدم إلى الوجود وجذبهم إلى هذه البقعة بعنايته، أي يعقوب وعدني العزيز سبحانهُ أنهُ يجيب إلى هذه البقعة للزيارة زبدة الخلق لاغتنام بركتها، وأن يجعل خواص خلقه من مشارق الأرض ومغاربها بينهم في هذه البقعة، لا لأجلي ولكن لأجله سبحانه ووعده الحق وقوله الصدق. قال: وكان يعقوب من أصحاب الشيخ منصور رحمهُ الله وممن تاب على يديهِ، وصحب الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي وما كان يقول لهُ إلا أي شيخنا فيقول له لبيك أي يعقوب: قال سيدي عبد الرحيم حدَّثني يعقوب بينما أنا نائِم ليلة مع أولادي، وقد قضيت وردي إذ غلبني النوم فرأيت كأني وسيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي نمشي في أرض وهو قدامي، فوصلنا دربندا وعليهِ رجال فلما وصلنا عبر سيدي الشيخ الكبير ومَن كان معهُ من أصحابهِ، ولم يمكنوني من العبور خلفهُ، فقلت لهم: أنا من أصحاب الشيخ منصور فقالوا: ما معنا إذن أن نترك أحدًا يجوز غير أصحاب هذا الرجل، قال: فالتفت إليهم سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي وقال: دعوه يجوز فتركوني ثم جئنا دربندا آخر، ففعلوا بنا مثل الأول ثم جئنا دربندا ثالثًا ففعلوا مثل الأول، كل دربند يقولون ما معنا إذن أن ندخل إلا أصحاب الشيخ الكبير السيد أحمد وهو يدخلني، قال: فانتبهت فزعًا مرعوبًا ثم قمت آخر الليل وأتيت الرواق وأنا ضيق الصدر، ولم أعلم أين هو فقال لي أنعم الله صباحك أي يعقوب، قال: فقلت: صبحك الله بالسعادة والرضا أي سيدي، فقال لي: أي يعقوب بحياة الشيخ منصور على عادتك فهذا لا يزيدني شيءً، ثم قال لي: أي يعقوب خليت الصغار وحدهم بهذا الليل وجئت، فقلت لهُ: أي سيدي جاءَ بي رؤيا رأيتها وأنا أستغفر الله العظيم من سوءِ أدبي بين يديكم، ثم قلت: أي سيدي توبني فقال لي أي يعقوب: ما الذي أحوجك إلى هذا ما كان إلا خيرًا، فقلت لهُ: لا بد تأخذ العهد عليَّ قال فتوبني ثم قال: أي يعقوب بحياتك على ما أنت عليهِ لا تقول لشيخنا، ثم قال: ثم إلى الصغار ولا تخليهم وحدهم قال: فقمت من عنده أمشي إلى بيتي متحيرًا من أمري، وأنشد شعرًا:

سأسعى إليكم إن أذنت على رأسي ... وذكركم في ظلمة الليل إيناسي
ذكرتكم والكأس صرفًا براحتي ... فأمزجت دمعي عند ذكركم كأسي
وخُيِّلَ لي بألحانٍ أن جليسكم ... كفى بمحياكم عن الورد والطاسِ

وذكر في أُم البراهين أيضًا ما نصهُ: قال سيدي عبد الرحيم قدّس الله سرّه: كان يقول سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي: لو عرفتموني ما ظلكم معي جدار ولا

وجدتم معي لذة عيش، ولا كان يقرّ لكم قرار، إنما نظرتموني بعين بصركم ولم تنظروني بعين بصيرتكم، ولو نظرتموني بعين القلب والبصيرة لضاقت عليكم الأرض. وأنشد شعرًا:

تعرضت لي حتى رأيتك جهرة ... وغيّبتني بالكل عن باطن الحجب
أراك بقلبي أينما كنت حاضرًا ... كأنك اسم الله في أول الكتب

وعنهُ أيضًا رضوان الله عليهِ، ما حكاه لنا الإمام المهذب والسيد المنتخب المعصوم من ريب المنون إلى أشرف الرتب، سيدي السيد إبراهيم الأعزب رحمهُ الله قال لي والدي: أي ولدي أشتهي أن تجمع بيني وبين جدك خلوة، فلي إليهِ حاجة واسألهُ عن حالهِ قال: فقلت سمعًا وطاعة، ثم خلوت بسيدي وعرفتهُ قول أبي فسكت ولم يتكلم، فلما كان وقت المغرب وقد فرغ من ركوعه وسجوده واشتغل برمي الطعام النقيب، خرج سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي من بين الجمع وقال لي: أي إبراهيم هات الإبريق، فأخذت الإبريق وخرجت خلفهُ فقام خادمهُ علي بن الطراز رحمهُ الله ليخرج معنا فمنعهُ الشيخ عن الخروج معنا، وقال لي أي إبراهيم نادي لأبيك، قال: فناديتهُ وخرجنا حتى بعدنا عن الجمع فأخذ أبي الإبريق مني وقال لي: قف ولا تخلي أحدًا يجيءُ خلفنا فوقفت مكاني، فتقدما وجلسا وجلست قريبًا منهما لأسمع كلامهما، فقال سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي: أي علي قل لي ما حاجتك فقال أبي نحن كم شيخ في هذا الجمع؟ فقال سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي شيخ واحد، فقال أبي أي سيدي أحمد شيخ واحد قال: نعم، قال: بل نحن ست مشايخ، فقال سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد: لا بل شيخ واحد، فقال أبي الأول أنا وأنت وسيدي صالح وابني وأخي وابنهُ، فهذه ستة مشايخ، فقال سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد أي علي نزهني عن المشيخة، فقال لهُ أبي أي سيدي فمن الشيخ فقال: أي علي أنت الشيخ لبني صالح وبني عثمان شيخهم أخوك وشيخ الرفاعية الشيخ منصور، إلى أن ينفخ في الصور. فقال أي سيدي تعيش وأنت القطب فقال: نزهني عن القطبية، فقال أبي أي سيدي تعيش أنت الغوث فقال: نزهني عن الغوثية، فقال أبي: ماذا أقول فقال: قل شعرًا:

هي البدر لكن بالليالي كمالها ... هي الشمس لكن ليس من دونها ظل

فقال: أي سيدي أيُّ حيرة أنت، فقال: أي علي أنا ما يعجز عنهُ السالك ويكل عن ذكره السامع وينقطع عنهُ الجوارح وينفذ فيهِ العمر، فعند ذلك قال لهُ علي: خذ عليَّ العهد وتوبني توبة عبد ما عرف الله ولا عرفك إلا هذه الساعة، فقال: هذه الغاية، قال:

فظننت أنهُ يتوبني على جاري العادة، فأخذ يدي وتوبني توبة مَن لا عرف الله طول عمره، ثم قال: أي علي أنت شيخ بني عثمان وذريتك والمشيخة فيكم إلى يوم القيامة، وأنت للولاية على طريق النبوة، قال: فشددت وسطي وحملت الغاشية ومشيت بين يديه وناديت: بسم الله بسم الله بسم الله، ولا يمكنني أن أكون إلا بإرادة، وأنشد شعرًا:

أهابك أن أبدي إليك الذي أُخفي ... وأنت عليهم ما يلاحظه طرفي
نهاني حيائي منك أن أكشف الغطا ... فأغنيتني بالفهم عنك وبالكشف
أراك وبي من هيبة لك وحشة ... فتونسني باللطف منك وبالعطف

ثم قال لي: اعلم أن الأمر صعب وسلوكك الطريق غير سهل، ويحتاج صاحب هذا المقام إلى أدب وتسليك واحتمال، ومداراة وحسن خلق، أي علي اعلم أن مثل الفقير عند دخول هذا الطريق، مثل الكتان أول ما يزرع، ينظر لهُ أرض جيدة يدقهُ ويرميهِ فيها، ثم يسقيه الماء ويحفظهُ من الطير ويراعيهِ حتى يستوي، فإذا استوى على سوقِه مشت تلك المشقة عليهِ وشد الأكار عليه وقلعه ويبسه، وحواه باقات ودقهُ وحوى بذره وأخذ منهُ، ثم يجلسهُ تحت الماء أيامًا ثم يرفعه وييبسهُ ويدقهُ ثانية، ثم يسلمهُ إلى النفاض لينفضه ولا يزال يضربهُ بالمنفاض حتى يخرج منهُ شيءٌ، وإن هو لم يصبر هلك ولم يعد يصلح إلا للنار، فإذا صبر وصلح وخرج منهُ شيء سلموه إلى النساء بمجرد يسرحوه على شوك النخل ثم ينزهوه ويكبوه على محايد القصب، ثم يغزلوه طاقة واحدة ينحر بين أسنانهم فإذا فرغوا من غزلهِ عملوه بنودًا وسلّموه إلى القصار، فيرميه في الماء ثم يرفعهُ على الحجر ثم يرميه في الماء المالح في النورة والقلى المخيس فيبقى أيامًا، ثم يرفعهُ ويوقد لهُ النار ويدخلهُ فيها ويسد عليهِ رأس التنور ويتركه ليلة ويرفعهُ ويبرده ويحملهُ الماء ويغسلهُ من الدواء، ويدقهُ على الحجر ثانية ثم يغسلهُ ثم ييبسه ثم يدقهُ على الحجر ثالثة، فإذا صلح وصح ولم ينقطع سلموه إلى الحايك فيكبهُ ويسديهِ، ثم يدقهُ ويمشطهُ بالمشط فإذا صح على سقيه أوصله بالإيزار وأدخلهُ أضيق مكان، ثم يدق فوقهُ باليمين وبالشمال فإذا صح تحت هذه الأهوال واحتمل هذه الأثقال طواه ودقهُ، وقال: الآن صلحت أن ترقى رؤوس الملوك والسلاطين والمشايخ والصالحين والأئمة المعتبرين، ويتغالى بثمنه وكلما رق غلا، وأنشد شعرًا:

من اتقى الله فذاك الذي ... يفوز بالخيرات يوم الحساب
ويأمن الهول إذا بعثرت ... قبور من أودع تحت التراب
ويحشر العبد إلى ربهِ ... مكرمًا لا يحسبن العقاب

ثم قال أي علي، وكذلك الفقير إن هو صبر على ما يلقى من الشدائد في طاعة جميل العوائد، كانت منزلتهُ عنا. الله أعظم من منزلة ذلك الثواب الجميل عند السلطان. انتهى.

وذكر أيضًا في أم البراهين ما نصهُ: حدَّثنا بهِ النقيب أبو محمد جمال الدين خطيب أونيه، قال: حضرت في بعض الأيام في أم عبيدة، واجتمعت بسيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي وبقيت عنده أيامًا أرشف كاسات وصالهِ وأجتني ثمر إقبالهِ، وأمتع نظري بجميل جمالهِ وأغتنم منهُ ما يغتنم وأشفي بمهالتهِ أليم السقام، فلما كان في بعض الأيام قال لي أي جمال الدين هات الإبريق وتعالى وراءي، قال: فأخذت الإبريق ومشيت خلفهُ، فلما خرجنا ولم يكن معنا ثالث غير الله ووصلنا لبعض البساتين، ونحن نتحدث بحديث الصفا وأهله فتجارينا بالحديث، فقلت له: أي سيدي أرى الطير يأوي للوحوش والحيوانات ويفر من بني آدم ويستوحش منهم، فقال لي: أي جمال الدين أما علمت لماذا؟ فقلت: لا وحياتك أي سيدي، فقال: لأجل خبث صدر بني آدم، قال: فقلتُ له: أي سيدي فمتى يأنس الطير؟ فقال: فإذا صفا الصدر أنس الطير، قال: ففتشت قلبي فلم أر فيهِ غلاً ولا حقدًا، فقلت لهُ: أي سيدي قد صفا الصدر ولم يأنس الطير، فقال: أي جمال الدين لو صفا الصدر لأنس الطير، فكررت القول عليهِ وهو يقول مثل ذلك، قلت: أي سيدي فما علامة صفاءِ الصدر؟ قال: أي جمال الدين علامة الصفاء أن لا يبقى فيك بقية من الخبث ولا من الغل، ولا يبقى لنفسك شيءٌ ويصفو سرك لعدوك وصديقك ولسائر الخلق، وتسلم أمورك إلى الله وتصير الخلق كلهم عندك بمنزلة واحدة، حتى لو أنك كنت مارًا في طريق فجاءك سهم من خلفك فمزَّق صدرك، لا تلفت وتبصر من خلفك ولا من وراءك ولا يتغير ما عندك ولا يتكدر خاطرك ولا يخطر لك شيءٌ سوى الله، فإذا فعلت ذلك صفا صدرك وآنسك الطير وسعد فيك الغير وثبت فيك الخير، قال: وكان هناك شجرة وعليها حمامة قاعدة ففتح سيدي كمهُ وأشار نحو الحمامة فطارت الحمامة وأتت إليهِ ودخلت كمه، فضم عليها الكم ساعة وهو يحدثني ثم قال لي: أي جمال الدين افتح كمك ففتحت كمي فناولني الحمامة، وقال: ضم عليها كمك فضممت كمي عليها وكانت قد باضت في كم سيدي، فأعطاني البيضة فتركتها تحتها فرفضتها وجعلت تجول في كمي وتطلب الخروج، فقال سيدي: أي جمال الدين افتح كمك، ففتحت كمي فطارت الحمامة كأنها كانت في السجن ونفرت نفورًا عظيمًا، وقعدت على الشجرة، فقال سيدي: أي جمال الدين اصعد إلى هذه الشجرة واعمل لها عشًا واترك هذه البيضة فيهِ حتى لا يطالبني الحق بها، قال: فصعدت الشجرة وعملت لها كما أمرني سيدي، فجاءت الحمامة وقعدت على البيضة، ثم قال لي: أي جمال الدين إذا صفا

الصدر من الهجر وحصل الأجر آنست الوحوش والهوام والطير، وتزايدت الخيرات وتضاعفت البركات لأنهُ من علامات الرضا من إلٰه السماء، وإذا تكدر الصدر وقسى القلب وعجزت من برءِ دائهِ الأطباء، وخرب وأظلم واسود واقتم ولم تنفعهُ الموعظة صار مأوى للشيطان، وأنشد في المعنى شعرًا:

إذا قسى القلب لم تنفعهُ موعظة والأرض إن سبخت لم ينفع المطر
بالملح تصلح ما تخشى تغيره فكيف بالملح إن حلّت بهِ الغير

انتهى.

اوقال في أُم البراهين ما نصهُ: وعن الشيخ شمس الدين محمد بن عثمان، أنهُ خرج مع الشيخ الكبير السيد أحمد ذات يوم إلى الصحراء، فبينما هما سائران في الصحراء إذ رأوا أسدًا كاسرًا، مفترسًا لشاب وقد خلع كتفهُ من جسده ومكث يأكله، فزجره الشيخ الكبير السيد أحمد زجرًا شديدًا، وقال لهُ: أي خلق الله ما نهيتكم عن أذية الخلق الذين يمرون ببلادنا، فنطق السبع وأتى إلى حضرة الشيخ مسلّمًا عليهِ بلسان عربي فصيح، فقال لهُ: أي سيد السادات وصاحب الجود والكرامات، لي سبعة أيام ما أكلت شيئًا وأنا دائر على ولدي فما وجدتهُ، وهذا الشاب قد أرسلهُ الله إليَّ رزقًا مقسومًا بسبب غضب والدتهِ عليهِ، فأنتم تريدون قطع نصيبي من ذلك الأمر إلى الله ثم إليكم، فلما سمع كلامهُ لم يعبأ بهِ بل التفت إليه بنظر الغضب والجلال فوقع السبع ميتًا لوقتهِ في الحال، فأخذ ذراع الرجل ووضعهُ في مكانهِ وقال: بسم الله الرحمٰن الرحيم، ومسح عليهِ بيده المباركة فعاد كما كان أولاً بل أشد وأقوى، وقال الشيخ للشاب: ما أسمك؟ قال: اسمي داوود بن إبراهيم، فقال لهُ الشيخ: أي داود اسلخ غريمك فسلخهُ وأخذ الجلد ومضى إلى والدتهِ وأخبرها بالقصة وتاب على يديها مما يغضبها ويغضب الله تعالى، وعلق الجلد على باب تكيتهِ في عانا، إلى الآن الناس يزورونهُ إلى يوم القيامة وصار من الأولياء العظام رضي الله تعالى عنهُ وأرضاه. ومما رواه لنا السيد المفضال الصادق في المقال، الشيخ حسن النقيب رضي الله تعالى عنهُ قال: حضرنا في مجلس الشيخ الكبير السيد أحمد مع جماعة من المشائخ الكبار، ذوي القدر والافتخار أصحاب الكرامات والأسرار، منهم سيدي بقائن بطوّ ومنهم سيدي حماد الدباس ومنهم سيدي أبو سعيد الخراز علي المخزومي ومنهم سيدي أحمد بن تاج الدين أبو الوفا، ومنهم سيدي عبد الرزاق الواسطي ومنهم منصور بن الحسين الواسطي ومنهم عقيل المنبجي، ومنهم سيدي حباب بن قيس الحراني ومنهم سيدي عبد القادر الكيلاني ومنهم سيدي أحمد الأزرق ومنهم سيدي محمد بن عبدو

ومنهم سيدي عدي بن مسافر الشامي، وغيرهم من بقية الأولياء العظام وهم ببلاد النبط على شاطىء الفرات يتحادثون في علوم وأسرار عجيبة وأحوال غريبة، أطلعهم الله تعالى عليها، فبينما هم كذلك إذ قام من القوم رجل والتفت بالكلام إلى الشيخ الكبير السيد أحمد وللحاضرين وقال: أي سادة أيدكم الله بصدق الكلام والسعادة، ما منا إلا ومَن هو تحدثهُ نفسهُ بأنهُ شيخ الشيوخ وسلطان العارفين وهذه دعوة لا دليل لها إلا ببرهان قوي مبين، فأطرق الحاضرون رؤوسهم ولم يرد أحد جوابه، فعاد القول ثانيًا وثالثًا فالتفت إليهِ الشيخ الكبير السيد أحمد بن أبي الحسن الرفاعي وقال: حشرت مع فرعون وهامان وقارون إن خطر ببالي أنني شيخ على أحد من خلق الله تعالى مطلقًا، إلا أن يتغمدني الله برحمتهِ فأكون كأحد المؤمنين، لكن أي سادة انظروا إلى أمامكم من ذلك الشاطىء ماذا ترون؟ فقالوا: أي سيدنا نرى شجرة كبيرة ممتدة الأغصان طويلة الأفنان، فقال لهم: أي سادة من كان منكم يريد مشيخة الشيوخ إليه فيدعوها بأن تأتي إليهِ إلى هذا الجانب، فنقوم كلنا نبايعهُ ونكون في خدمتهِ وترعى حقَّ حرمتهِ، فلما سمعوا كلامهُ قاموا كلهم ودعوها واحد بعد واحد فلم تتحرك بحركة، فلما قام قطب الوجود سيدي تاج العارفين أبو الوفا ودعاها، تمايلت واضطربت اضطرابًا شديدًا حتى كادت أن تنكسر ولم تقم من مقامها، فقام قطب السادات السيد عبد القادر الكيلاني ودعاها فقامت من مكانها وسعت إلى عند كنار البحر ووقفت هناك، فلما جاءت نوبة الشيخ الكبير السيد أحمد جاءوا إليهِ وقالوا لهُ: نريد نوبتك أي سيدي، فقال لهم: ومَن هو حميد اللاش حتى يكون لهُ نوبة، فقالوا لهُ: نقسم عليك بالعزيز سبحانهُ أن تقوم في نوبتك وتدعوها حتى نرى مقام عزتك، فقال لهم: أي سادة اقسمتم عليَّ بعزيز لا يمكنني المخالفة، وقام قائمًا على قدميهِ وقال: أي خلق الله أقسم عليكِ بالعزيز سبحانه إلا ما أجبت دعوتي وأتيتيني طائعة مقرة بما ألهمك الله تعالى بهِ، فشقت الأرض والبحر وأتت طائعة مقرة شاهدة بلسان عربي فصيح قائلة: أشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله وأنك شيخ الشيوخ على الإطلاق وشيخ أهل الأرض والسماء بالوفاق، فلما شاهدوا من كراماتهِ ما شاهدوه عيانًا قاموا على أقدامهم وكشفوا رؤوسهم وبايعوه أن يكون شيخًا عليهم وعلى كل مَن يلوذ بهم هو وذريتهُ إلى يوم القيامة. ومما رواه لنا أيضًا الشيخ حسن النقيب رحمهُ الله تعالى قال: كنا ذات يوم في الرواق عند الشيخ الكبير السيد أحمد بن أبي الحسن الرفاعي، وكان جالسًا في مجلسهِ جماعة كثيرة من المشائخ المتصرفين في الجزئيات والكليات، وهو يحدّثهم بكلام غريب وسر عجيب، إذ جاءه رجل مغتم ومرعوب ووقع مغشيًا عليهِ بين يديه، فقال لهُ الشيخ الكبير السيد أحمد أي ولدي ما بالك؟ فقال: أي سيدي أنا السواق على الساقية التي يتوضأ منها الفقراء،

فبينما أنا كذلك إذ جاء أسد كبير ضرغام وافترس الثور الذي يدور بالساقية وأكلهُ. فقال لهُ الشيخ الكبير رحمهُ الله: ادعوا السبع أن يأتي إليَّ، فقال: لا أقدر على ذلك وأخاف أن يأكلني، فقال: لا تخف فإنهُ لا يقدر على ذلك ولا يؤذيك بشيء من ذرات الوجود، فقام الرجل وقمت معهُ فدعونا الأسد فجاء سريعًا مطيعًا، فلما قرب من الشيخ وقف أمامهُ وقال: السلام عليك يا ولي الله، فقال لهُ: أي خلق الله لأي شيء أسأت الأدب مع الفقراء وأكلت ثورهم الذي يخرج الماء الذي يتوضؤون به، أما خفت من الله تعالى وخشيت منهُ، فقال لهُ الأسد: أي سيدي حملني على ذلك حلمك وجودك وكرمك، لأنني لي خمسة أيام لم أذق شيئًا من الزاد وأنت أكرم الأولياء على الإطلاق فحملني على ذلك الحلم، فقال الشيخ: قبلت عذرك وعفوت عنك لكن بشرط أن تكون قائمًا بهذه الخدمة أنت ونسلك وذريتك إلى يوم القيامة، فقبل منهُ الأسد هذا الشرط بشرط آخر، أن لا يؤذي من الصيادين أحدًا لا أنت ولا نسلك إلى يوم القيامة، وبويع على ذلك وهو الآن قائم بالخدمة هو ونسلهُ إلى يوم القيامة، وكل مَن توجه إلى أم عبيدة فإنهُ يراه عيانًا. انتهى.

وقال في أُم البراهين ما نصهُ: حدث بهِ الشيخ الصالح الفاروثي رحمهُ الله تعالى، قال: كنا في بعض الأيام جلوسًا عند سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد، وهو في الرباط بين الفقراء فاستولت عليهِ الأمور الربانية، فخرج عنها وتكلم مع غيرها وأخذ يقول في بعض كلامه قاف حتى عد مائة وما وراء ذلك، ثم بحر بعد بحر وما وراء ذلك ثم قال أرض بعد أرض وما وراء ذلك، ثم إنهُ ارتعد وهاج وحنّ وانزعج وتململ واغرورقت عيناه بالدموع، ثم قال: آتيه ولا أبرح من مكاني أيش فوق الفوق وأيش تحت التحت، آتيه ولا أبرح من مكاني ثم عنا زمانًا، فلما أفاق قال أيّ حيرة أيّ دهشة أيّ حرقة، وقال شعرًا:

أنت الحبيب فلا سمعًا لمن عذلا ... عذبت قلبي إذا قال العزول سلا
عن كل شيء خلا قلبي فواعجب ... ذا قد سلا الكل أما عن هواك فلا

انتهى.

وقال في أُم البراهين أيضًا ما حكاه لنا الشيخ يعقوب رحمهُ الله قال: كنت ذات يوم مع سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ في بعض البساتين يعمل الوضوء، فنظر إلى نخلة والأعناق معلقة برأسها، فقال: أي يعقوب انظر إلى هذه النخلة حيث رفعت رأسها جعل الله تعالى ثقلها عليها ولو حملت مهما حملت، وإلى أصل اليقطين حيث وضع نفسهُ وألقى خده على الأرض حمل ثقلهُ غيره ولو حمل مهما حمل،

وعلى أي شيء جاز شب عليهِ وارتفع وهو من سائر الأشجار مرحوم، لا يؤذيه أحد ولا يحرد منهُ أحد ويحبهُ كل أحد، وأنشد غائبًا عن نفسهِ:

رفعت رايتي على العشاق ... واقتدى بي جميع تلك الرفاق
وتنحّى أهل الهوى عن طريقي ... وانثنى عزم مَن يروم لحاقي
سرت في الحب سيرةً لم يسرها ... في الورى عاشق من العشاق
فحديثي يجول في كل أرض ... وطبولي تدق في الآفاق
مثل العاشقون فوق بساطي ... في مقام الهوى وتحت رواقي
بسيمتي شيمتي وخلقي وخلقي ... ولو أنني أموت مما ألاقي
لم أخن بالوداد قط حبيبًا ... وينادى عليَّ في الأسواق
وإذا ما ادّعيت بالحب دعوى ... شهد العالمون باستحقاقي

انتهى.

وقال في أُم البراهين أيضًا ما نصهُ: وحدَّثنا الشيخ مقدام رضي الله تعالى عنهُ قال: سمعت سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يقول: كل شيخ لم يحضر تلميذه عند الموت فليس هو عندنا برجل، وكل شيخ ينكشف تلميذه خلف القاف في ظلمة الليل ولا يمد يده يغطيه فما هو عندنا برجل، وكل شيخ لا يغير صفات تلميذه ويكتب الشقي سعيدًا فما هو عندنا برجل، وكل شيخ لا يراعي تلميذه في القرب والبعد في حال حياته وبعد مماته فليس هو عندنا برجل. فانظر يا أخي إلى هذه الكلمات العظيمة عند أرباب الطريق، حيث لم يعلموا ما معناها ولا فهموا فقهها وذلك من بعض مواهب الله سبحانهُ وتعالى وفضله وكرمه، الذي لا يحصى ولا يزال واصلاً إليه، فإنهُ يحدث بعطاءِ الكريم الذي أعطاه إياه، لقول رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أنعم على عبد بنعمة يحب يظهرها ويبين أثرها عليه»[1]، وهذه أكبر نعمة وأسنى منحة وأعلى درجة وأوفى عطية، ومع هذا ما يتكلم إلا إذا غلب عليهِ الأمر وظهر بغير اختياره، فيقول القول فإذا صحى إلى نفسهِ استغفر الله سبحانهُ وتعالى. وفيهِ يقول الشيخ مقدام الخطيب الحدادي رضي الله تعالى عنهُ:

يا أعظم الناس عفوًا عند مقدرة ... وأبذل الناس عند الجود بالمال

---

(١) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢/ ٢٣٤)، كتاب اللباس وآدابه، حديث رقم ٥٤١٧. وأحمد في المسند، حديث رقم ١٥٨٩٣.

لو أصبح النيل يجري ماءه ذهبًا فما أشرت إلى جور بمثقال
تغني بما فيهِ رق الحمد تملكهُ وليس شيءٌ عياض الحمد بالغال
تفك بالبشر أسر العسر من زمن إذا استطال على قوم بإقلال
لم يحك كفك من جودٍ متخبطٍ ومرهف قاتل في رأس قتال
إن كنت منك على ما قد مننت بهِ فإن شكرك من قلبي على بالي

انتهى.

وذكر أيضًا في أُم البراهين عن الشيخ مقدام رضي الله تعالى عنه قال: كنا ذات يوم جالسين عند سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ، وهو يحدّثنا ويرغبنا. فلما ختم المجلس بالدعاء غلب عليه الأمر وورد بحر الكرم، فقال: أي سادة تعالوا إلى الطلب كل يطلب ما يريد، تعالوا إلى الاقتراح كل يقترح ما يريد، تعالوا إلى التمني كل يتمنى ما يريد. قال: وبقي كذلك زمانًا طويلاً والفقراء حولهُ وقد مدوا الأكف ورفعوا الأبصار، وهم يسألون ويطلبون وعلى دعائهِ يؤمنون، وكل حصل لهُ مطلوبهُ بإذن الله تعالى كما رواه صاحب الترياق وغيره انتهى. قال في أم البراهين ما نصهُ: وحدَّثني سيدي إبراهيم الأعزب قدس سره أنهُ كان سيدي الشيخ الكبير جالسًا في المجلس يتحدث، فبلغ في حديثهِ إلى ذكر التصوف فقام إليهِ ابن تركي فقال لهُ: أي سيدي ما التصوف؟ فقال لهُ: سيدي الشيخ الكبير أي ولدي تصوفكم أو تصوفنا، فقال ابن تركي: أي سيدي كنا في مسألة واحدة صارت ثنتين، فأريد أن تعرفني الحالين، فقال لهُ: أي ولدي تصوفكم فهو أن تصفي أسرارك، وتنقي أكدارك، وتطيب أخبارك وتطيع جارك وتقوم ليلك وتصوم نهارك، وأما تصوف القوم فترك الكل والخروج عن الكل والتمسك بالكل، وأن لا يقنع بغير الكل، وقال في المعنى شعر:

ليس التصوف بالخرق من قال هذا ما صدق
إن التصوف يا فتى حرق يمازجها قلق

قال فلما سمع ابن تركي كلام سيدي الشيخ الكبير صرخ صرخة ووقع مغشيًا عليه، فلما أفاق من غشوته كشف رأسهُ وقال لهُ: أي سيدي خذ العهد عليَّ وتوبني، فأخذ عليهِ العهد وتوبهُ وسألهُ التوفيق والدعاء، فقال لهُ سهَّل الله عليك العلوم وكفاك شر الهموم وأغناك في الدنيا والآخرة، قال: فبلغ فيه جميع ما أراد من العلوم ووصل إلى مراده انتهى.

وذكر في أُم البراهين أيضًا ما حكاه لنا الشيخ إبراهيم بن عبد الرحمٰن شيخ القراء بالخراطين، قال: طلب الفقراءُ مني زيارة الشيخ خطيب الحصن رحمهُ الله فأجبتهم، ثم إننا اجتمعنا وانحدرنا للزيارة، فلما وصلنا القرية وقصدنا دار الشيخ، والوقت قد هجر وحمي النهار والحرّ موجود، فوقفت على الباب وطرقتها فقالوا من داخلهِ: مَن أنت؟ فقلت: فقراء يريدون السلام على الشيخ، فلما سمعوا كلامي لم يلبثوا دون أن خرج الشيخ إلينا حافيًا مكشوف الرأس، رداءه ينجر خلفهُ على الأرض وبعضهُ ملتف بحلقهِ فلما رأيتهُ على تلك الحالة سلّمت عليهِ وقبّلت يده، وفعل الفقراءُ مثل ما فعلت ثم قلت لهُ: أي سيدي أزعجناك وشق علينا خروجك على هذه الحالة وأردنا الراحة فصادفت إذًا حيث خرجت في هذا الوقت الحر، وكريمتك مكشوفة وأنت حاف، فقال له: أي أخي لا تضيق صدرك على ما كان فما تم إلاّ الخير، معي وصية من سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد رضي الله عنهُ، قال لي أي محمد ما ورد وارد على مورود إلا بيده سيف مجذوب، فإن التقاه بالبشر والرحب وإلا أخذ السيف رأسه، ثم قال أي محمد أنت تعيش بعدي كثير ولا تموت حتى يظهر فيك عيب، قلت لهُ أي سيدي يكون في جسدي ولا يكون في ديني فقال في جسدك، ثم قال أي محمد إذا ورد الفقراءُ عليك وأنت عريان فلا تقف حتى تلبس، وإن كان رأسك مكشوفًا فلا تغطيه وإن كنت حافيًا فلا تركب مداسك حتى تخرج إليهم، ثم قال: أنعموا نمشي إلى البيت، فقلت له: أي سيدي البيت الساعة فيهِ النساءُ فلا ندخلهُ ونزعج النساءَ، ولكن تجيء معنا أنت من أجل الله تعالى إلى الجامع، حتى نبصرك ساعة ونصعد. قال: فجاء الشيخ معنا وهو يرتعد، فلما وصلنا الجامع وكان قريبًا منا وجدنا الحائط قد كسر فيا قليلاً فدخلنا وجلسنا قليلاً، وأخذ الشيخ يحدّثنا فقلت لهُ: أي سيدي نشتهي أن تحدّثنا بما رأيتهُ وسمعتهُ من الشيخ الكبير السيد أحمد، فبكى الشيخ وقال: جاء سيدي الشيخ الكبير بعض الكرات إلى هذه القرية وغنى الحادي، فلما فرغ الفقراءُ من مجلسهم ودعا سيدي وقال لي أي محمد نريد موضعًا نعمل الوضوء، فقلت لهُ: بسم الله ثم خرج. فأخذت الإبريق وخرجت خلفهُ أنا وخادمهُ علي بن الطرى، فلما خرجنا إلى الصحراء قلت لهُ: أي سيدي أشتهي من أجل الله تعالى أن يطأ قدمك هذه الجبانة فقال لي: أي محمد لا تكلّفني هذا الأمر، مَن أنا حتى أفعل هذا، فقلت لهُ: نطأها من أجل الله تعالى وألحيت عليهِ بالقول، فأتى إلى الجبانة ونزع نعلهُ فأخذتهُ وتركتهُ على رأسي وبكى بكاءً كثيرًا، ثم رمى نفسه إلى الأرض وهي سخنة وقد أثارها الحر وصارت ترابًا، وجعل يتمرغ على التراب ويمرغ شيبتهُ وخدوده حتى علا التراب عليهِ واسودت ثيابهُ، وما بقي يعرف وجههُ من قفاه وانكشف رأسهُ، قال: فبقيت أنا آكل لحمي ندامة

مني كيف كلفتهُ ذلك وما علمت ما يجري لهُ، وبقي على ذلك زمانًا طويلاً، ثم إنهُ جلس ومسح التراب عن وجههِ وكريمتهِ وثوبهِ وغطى رأسهُ ونهض قائمًا، وجعل يتخطى على أطراف أصابعهِ حتى وصل إلينا، فقدمت لهُ المداس فركبهُ ثم تمشى إلى البر. فلزمتهُ وكشفت رأسي بين يديه، وقلت لهُ: أي سيدي أنا أستغفر الله تعالى من غفلتي ومما جرى على يدي وبسببي، فقال لي: لا واخذك الله. أي محمد مَن أنا وما قدري حتى تكون قد كلفتني أن أدخل على أقوام، هذا يستغيث وهذا يحلف وهذا يسحب وهذا مقيد وهذا مغلل، ومن أين لي قوة على هذا الأمر فلم يزل هذا المسكين الضعيف يتمرغ بين يدي العزيز سبحانهُ وتعالى، حتى وهبه جميعهم ووهبهُ كل مَن يدفن في تلك الجبانة إلى يوم القيامة، وأنشد:

وقوفي على باب الحبيب وذلتي ... وتعفير وجهي بالثرى وبكائي
وقهري وإتلافي وعظم تخضعي ... وإسكاب دمعي واضطراب حشائي
ألذُّ لقلبي والشفاءُ لعلّتي ... إذا نلت منهُ بغيتي ومنائي
إذا جاد مولاي بعتقي وجاد لي ... بسؤلي وأعطاني الهدى ورضائي
تمتعت في حبي لهُ وأطعتهُ ... وأرضيتهُ جهدي بكل رضاء
وعاملتهُ بالشكر والحمد والثنا ... على أنهُ أهلٌ لكل ثناء
وأحييت في ذكراه نفسًا رضيةً ... ترى ذكرهُ طبًا لأعظم داء
ومَن يشكر المولى على نيل فضلهِ ... سيجزيهِ في العقبى بخير جزاء

انتهى.

وذكر في أُم البراهين أيضًا ما نصهُ: وحدَّثنا عنهُ رضوان الله عليهِ عبد الأحد بن كروباد رحمهُ الله تعالى قال: سألت سيدي نجم الدين قدس سره عن حال بدر بن شمراخ، فقال لي: أي عبد الواحد، بدر بن شمراخ كان رجلاً ملاحًا لبعض الولاة فجذبتهُ العناية فأتى سيدي الشيخ الكبير فنظرهُ نظرة أراه بها ألف عالم حرّها وعبدها ذكرها وأُنثاها شقيّها وسعيدها، فأعجب بنفسهِ وعبرت عينهُ على نبيهِ وشيخهِ، فقال: ما بقي لي حاجة إلى نبي ولا إلى شيخ فسلبهُ الله ذلك النظر وأعمى قلبهُ وبصيرتهُ فلما وقع بالنقص والعجز ندم وبكى ولام نفسهُ على تفريطهِ، ثم أتى أُم عبيدة وفرش خده على باب الرباط وبقي سنة كاملة مطروحًا يبكي والشيخ الكبير يمرُّ كل وقت ولا يكلمهُ وإذا سألهُ لا يردُّ لهُ جوابًا، فبعد السنة مرَّ سيدي الشيخ الكبير على عادتهِ وبدر ملقى على عادتهِ ودموعه تجري، فقال بدر:

أرى ماء وبي ظمأ شديدٌ. «فأجابهُ الشيخ الكبير»: ولكن لا سبيل إلى الورودِ. قال: فلما سمع بدر الجواب آيس أن يرجع إليه ما سلب منه، فعند ذلك خرج بدر من أم عبيدة ليلاً وهام على وجهه في البراري، تأسفًا على ما فاتهُ وطلب مكة حرسها الله تعالى فحجّ واعتمر ورجع إلى العراق، وأتى إلى مرادر وأقام عند سيدي أحمد المدلل رحمهُ الله تعالى وتوفي هناك وكان بينهُ وبين صالح بن بكران أخوّة وعهد، فرآه صالح في منامهُ وهو في شاخورة في جهنم وهو يستغيث فلا يغاث فلما أفاق قلق لهُ، وأتى إلى سيدي الشيخ الكبير فعرفهُ ما رأى من حال بدر بن شمراخ وكونه مأخوذًا في شاخورة في جهنم، فقال لهُ الشيخ الكبير: صدقت فإنهُ تعرض هذا الرجل على النبوة والولاية وعبرت عينهُ على نبيهِ وشيخهِ. فقال لهُ صالح: أي سيدي وأين الصفح والعفو والتجاوز، فقال لهُ: أي صالح الولاية يقع فيها السماحة، وأما النبوة فلا يقع فيها السماح، قال: فلما سمع صالح كلام سيدي الشيخ الكبير نهض من عنده وأتى كبار الجمع والمشايخ وأصحاب سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد، وحدَّثهم بما رأى وبما قال لهُ الشيخ الكبير ثم سألهم المجيء معهُ، إلى سيدي الشيخ والشفاعة إليهِ، قال: فنهض معهُ جماعة من أصحاب الدالة منهم: مريد بن علان ونفيس ومحمد خطيب الحصن وعبد المولى وأخوه عبد الرحمٰن وحسين بن ربيع والشنبكي ونصر الهمامية وسعد الله التبراني والشيخ زفرى والشيخ يعقوب بن كراز رحمهم الله تعالى، فأتوا معهُ إلى سيدي الشيخ الكبير وكشفوا رؤوسهم وشفعوا لبدر، فلم يقبل منهم فرجعوا وهم يرتعدون فزعًا، قال: فلما رأى صالح ذلك عظم عليهِ وتركهم وأتى إلى الجمال أبي محمد بن يونس خطيب أونيه، وحدَّثهُ بذلك الأمر وطلب منهُ الشفاعة لبدر من سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد، فأتى إليه وشفع وسأل فيهِ فقال لهُ: أي جمال الدين أحب إليك أن تسكت وإلا يحل فيك ما حلّ بهِ، قال: فرجع جمال ولم تقضَ حاجتهُ، فلما رأى صالح ذلك قال: ما بقي لي إلا أني ألتزم زوجتهُ الست رابعة أم صالح رحمهم الله، ثم إنهُ دخل صالح إلى الدار وهو مكشوف الرأس مشبوك بمئزره وأتى إليها وقبّل الأرض بين يديها وكان صالح من أصحاب الدالة، ثم عضّ ذيلهُ وبكى حتى أبكاها فقالت: أي صالح قل لي حاجتك وإن أردت ولدي صالح فخذهُ، فقال لها: أي بنت الشيخ تعرفين حديث بدر بن شمراخ مع سيدي الشيخ الكبير، وما جرى لهُ وما وقع منهُ من الغلط وإعراض الشيخ عنهُ، وحدَّثها حديثهُ كلهُ وسألها الشفاعة لهُ إلى سيدي الشيخ الكبير فقالت لهُ: أي صالح كنت تتشفع له بمشايخ الجمع والرؤساء منهم، فقال لها: قد سألوه فلم يقبل منهم، فقالت: كنت تجيءُ لهُ بجمال خطيب أونيه، فقال لها: فقد جئتهُ وأتيت بهِ إليهِ فلم يقبل منهُ وما بقي لهذه النوبة إلا أنتِ لأنهُ يرعى لكِ حقوق

آبائك وأجدادك، فقالت لهُ أي صالح إذا كان الرجال أرباب المقامات والأحوال، ما قبل منهم قولهم يقبل قول امرأةٍ لا قدر لها، فقال لها: ما أعرف إلا الله تعالى ثم أنت، فقالت لهُ: أي صالح عليَّ الشفاعة وعلى ربنا التمام، قال: وكان لها عادة إذا دخل سيدي الشيخ الكبير إليها إلى الدار تنهض لهُ قائمة وتتلقاه بالرحب وإذا جلس تغمزه ساعة، ثم تأخذ المروحة ساعة ثم تقدم لهُ طعامًا وتقف قائمة وبيدها الماءُ، فلما كان ذلك اليوم خبت صالح بن بكران في خزانة وتغطت بإيزارها وقبلت وجهها إلى الحائط وجلست كالمغضبة، فلم يكن إلا ساعة وإذا سيدي الشيخ الكبير قد دخل الدار وسلّم عليها فلم تجبه ولا نهضت إليهِ، فقال لها: أي بنت الشيخ أليس الخبر، ﴿لا يغير الله بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١] أي بنت الشيخ أراك معرضة، فإن كان أخبرك عني شيئًا فأستغفر الله منهُ، فقالت لهُ: أي سيدي ما بلغني عنك إلا الخير، فقال لها: ما هذا الذي لم أبلغهُ عنك في الإعراض فقالت لهُ: أي سيدي لي معك حق صحبة وأريد أن أشفع إليك شفاعة فإن قبلتني وقضيت حاجتي فبفضل الله تعالى وبفضلك، وإن رددتني خائبة فأنا لا أبرح من مكان أبكي على سوءِ حظي وكسر قلبي، لأجل ردك لي خائبة، فقال لها: أي سيدتي بنت الشيخ اشفعي ولو ببدر بن شمراخ، فقالت له: أي سيدي ولا شفاعتي إلا فيهِ، قال: فلما سمع كلامها وعلم قصدها نكس رأسهُ ساعة ورفعهُ وقال: أي بنت الشيخ قضيت الحاجة ببركتك قد نظر العزيز سبحانهُ وتعالى إلى قلبك وصدق نيتك وأخرجه من النار، فقالت لهُ: أي سيدي تجيز صالح حتى يحضر، فقال: أجزناه قال: فعند ذلك نادتهُ فخرج من الخزانة وهو مكشوف الرأس ثم قبّل الأرض وبكى، فقال لهُ سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد: أي صالح كيف رأيت أخاك بدر الآن فقال يا سيدي رأيتهُ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ببركتك، فقال لهُ: أي صالح جزاك الله خيرًا عن ربك وعن نبيك وعن شيخك وعن أخيك فمثلك مَن ترجى صحبتهُ وتصفو مودتهُ وتصلح أخوتهُ في الدنيا والآخرة، أي صالح أنت عملت بقول الله سبحانهُ وتعالى: ﴿الأخلاءُ يومئذٍ بعضهم لبعد عدو إلا المتقين﴾ [الزخرف: ٦٧] وقوله تعالى: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾ [الشعراء: ١٠١] وأما قول النبي ﷺ: «لا يرجع الأخ عن أخيهِ ولو رأى منهُ سبعين ذنبًا يوجب الهجر» وأما قول الولاية: «لا يترك المرءُ أخاه عن سبعين خلة أهونها وأدناها المنكر» وأنت أي صالح الأخ الحميم والصديق الصادق، ومثلك مَن يرجى للدنيا والآخرة ويشفع لإخوانه في الدنيا والآخرة، واقتدى بقول النبي ﷺ: «أكثروا من الصحبة في الله تعالى، فإن الرجل إذا رزقهُ الله تعالى درجة عالية في الجنة رفع أخاه إليهِ» وقوله: «ما اصطحب اثنان في الله سبحانهُ وتعالى إلا وكان أحبهما إلى الله سبحانه

وتعالى أرفقهما بصاحبهِ»[1] وقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجهه، أخوك مَن ترك رضاه لرضاك ومراده لمرادك، وكان معك في سائر أحواله وآثرك على نفسه وأنشد في المعنى قول علي كرّم الله تعالى وجهه:

إن أخاك الحق مَن كان معك ومَن يضر نفسهُ لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك شتت فيهِ شمله ليجمعك

انتهى.

قال في أُم البراهين ما نصّهُ: وحدث بهِ الشيخ إبراهيم بن أحمد المعروف بابن الندا النقار، قال: حدّثني سيدي علي بن سيدي نجم الدين، قال: سمعت إبراهيم الأعزب رحمهُ الله تعالى يقول: حضرت يومًا من الأيام أنا وسيدي الشيخ الكبير على طعام، فبينما نحن نأكل وإذا بهِ قد بهت وغاب عنا ساعة حتى سقطت اللقمة من يده، ثم أفاق ورجع إلى الطعام قال: فلزمت يده وقلت لهُ: أي سيدي أخبرني أين كنت الساعة، فقال: أي إبراهيم عندك، فقلت لهُ: بحياة الشيخ منصور أخبرني أين كنت، فقال: أي إبراهيم أقسمت عليَّ بقسم عظيم، اعلم أنهُ قد خرج من خلف سبع بحار رجل يريد المجيء إلى هذه البقعة ويأخذ العهد على يد جدك وهو مشرك، فأدركتهُ الوفاة في طريقهِ فنادى وهو يجود بنفسهِ: أي سيدي أحمد فأدركته فأسلم على يدي وأخذت العهد عليه، ثم قبض فحضرت وفاتهُ وواريتهُ تحت الثرى ورجعت إلى عندك. انتهى. وذكر أيضًا في أُم البراهين: ما حكاه الشيخ الخطيب أحمد بن أبي طالب، المعروف بابن المقري قال: كان عندنا في الصحاونة رجل صالح من أصحاب سيدي عبد الرحمٰن الطفسونجي رحمهُ الله، وكان زاهدًا عابدًا متورعًا لهُ قدم بالخير والصلاح، قال: فقال لنا يومًا من الأيام وقد اجتمعت بالرباط الصحاونة: أي سادة رأيت البارحة رؤيا عجيبة، فقلنا لهُ: خبرنا عن رؤياك فقال: رأيت فيما يراه النائم كأن مراكب كثيرة منحدرة على القرى وفي كل مركب علم، فقدم المراكب على القرى وصعد منهُ أقوام وأخذوا من القرية الرجل والاثنين والخمسة والعشرة والعشرين والأقل والأكثر ومضوا، وصار يجيءُ المركب الآخر فيفعل مثل ذلك، حتى قدموا كلهم في القرى وأخذوا منها أناسًا قلائل ثم أقبل آخر المراكب مركب عظيم المنظر لأجل كبره ومنظره وسعته، وفيهِ علمان وعلى صدره رجل أشعث أغبر عليهِ قميص قصير الأكمام والذيل، وعلى رأسهِ حرام وهو منكس رأسه على ركبتهِ لا

(١) الحديث أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين، (٦/٢٠٧)، والعراقي في المغني عن حمل الأسفار (٢/١٧٢).

يكاد يرفعه، وجعل كلما خرج مركب من المراكب المقدمة أمامهُ من قرية وأخذوا بغيتهم، قدم هو مركبه وصعد منهُ أقوام كرحوا كل من في القرية كبارها وصغارها ورجالها ونسائها، حتى كلاب القرية فينزلوهم المركب ويتوجهون نحو القرية الأخرى فيفعل بها كذلك، فلا المركب يمتلىء ولا الرجال تسأم من كثرة الناس وأخذهم معهُ في المركب، فلما رأيتهُ أبهرني وخرق عقلي، فتقدمت إلى بعض الناس فقلت لهُ: يرحمك الله أخبرني مَن أصحاب هذه المراكب ومَن صاحب هذا المركب الكبير وما شأنهم؟ فقال لي: أما تعرف مَن هؤلاء، فقلت: لا والله، فقال: أصحاب المراكب الصغار هم المشايخ يأخذون مريديهم من القرى، قلت: فلمن هذا المركب الكبير الذي فيه العلمان، فقال: هذا مركب الشيخ الكبير السيد أحمد، فإن المشايخ أخذوا مرادهم والذي يصلح لهم من المريدين، وقدم الشيخ الكبير السيد أحمد وأخذ جميع ما بقي في القرى من الآدميين حتى أخذ كلابهم، أما سمعت عنهُ أنهُ قال أنا تمام كل ناقص، قال: فاسكت عنهُ إلى أن قدمت المراكب وصعد الناس منها فرأيت الرجل يصعد وخلفهُ العشرة والعشرين والخمسين والمائة والمائتين، حتى قدم مركبهُ فصعد وصعد خلفهُ عالم لا يحصي عددهم إلا الله تعالى حتى ظننت أن القيامة قد قامت وقد نفخ في الصور لكثرة الخلق والعالم، فانتبهت وأنا مرعوب لما رأيت ذلك، ثم قال: أي فقراء وحق العزيز سبحانهُ وتعالى لولا أن لا يجوز الخروج من مذهب إلى مذهب والانتقال من شيخ إلى شيخ لكنت قد انتقلت من سيدي عبد الرحمٰن إلى سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد، وأنا آخذ عليهِ العهد لهذا الشيخ حتى لا يفوتني، قال: فأخذنا عليهِ العهد ولم يزل يروي هذه الرؤيا على الفقراء، حتى مات ودفن بالرباط بناحية الصحابة رحمهُ الله. انتهى.

وقال أيضًا في أم البراهين ما نصهُ: سمعت الشيخ الصالح أحمد بن مصدق رحمهُ الله يقول: حدَّثني الشيخ أحمد بن عبد الرحمٰن بن الشيخ يعقوب بن كراز رحمهم الله، قال: كان في أُم عبيدة رجل يهودي صباغ ولهُ فيها بيت وأولاد وهو ساكنها سنين كثيرة، فذكروه يومًا عند سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد فأنفذ يطلبهُ فلما حضر عنده وسلم عليهِ، قال لهُ: أي فلان أنت رجل كبير وقد أفنيت عمرك بالمعاصي والضلالة وأنت اليوم جاري، ونبينا محمد ﷺ أوصانا في حق الجار وأن نريد لهُ ما نريد لأنفسنا، والله سبحانهُ وتعالى يقول: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران: ١٩] وأشتهي أن يكون لجوارنا لك أثر، فقال اليهودي: أي سيدي قل لي أي شيء تريد حتى أقوم بهِ، فقال الشيخ الكبير السيد أحمد أي مبارك أشتهي أن تقول معنا: لا إله إلا الله محمد رسولِ الله، فقال اليهودي: أي سيدي لي أهل وأنساب ومال وأولاد فأخاف إذا قلتها، يجفوني أهلي

ويأخذون أولادي ومالي وأبقى فقيرًا بلا مال ولا أولاد، فقال لهُ الشيخ الكبير: أي مبارك قل معنا أشهد لك عند الله سبحانهُ وتكون مسلمًا سرًا وعلى دينك ظاهرًا، فقال اليهودي: أي سيدي إذا كان الأمر على هذا امدد يدك، فأنا أشهد أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وأن خير الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وأن كل دين غير الإسلام باطل ثم أنهُ أعادها عليهِ ثلاث مرات وكساه ونهض من عنده، وجاء إلى دكانهِ وبقي على حالهِ مدة حياة الشيخ الكبير السيد أحمد، فلما توفي الشيخ الكبير وتولى بعده سيدي علي قدس سره وتمهد بهِ الوقت أحضر اليهودي وقال لهُ: أي فلان تعلم أن سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد كان وسيع الصدر عظيم الخلق يحتمل مزاجهُ كل شيء، وإني لست كذلك وأشتهي إما أنك تقولها معي أو ترحل من جوارنا فلا يمكن أن تكون جارنا وأنت يهودي، فلما سمع كلام الشيخ علي رضي الله تعالى عنهُ بكى بكاء شديدًا، ودق على رأسهِ وقال: أي سيدي والله مالي حاجة إليك، مضت لي بيعة مع الشيخ موسى الوقت يعني بهِ السيد أحمد الكبير رضي الله عنهُ، وأخذها عليَّ وشهد لي بها وعليها أحيى وعليها أموت، ثم حدث السيد علي بالقصة فبكى وخلاه، وهذا كان من بعض مكارم أخلاقهِ وتلطفاتهِ بالخلق واستجلاب قلوبهم إلى الخيرات والطاعات، وأما الرجل فرجع إلى أهلهِ وعرفهم حالهُ وأنهُ مسلمًا فأسلم أهلهُ وأولاده، وأجهروا إسلامهم ببركة سيدي الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي، وفيهِ يقول الرجل الأسلمي رحمهُ الله:

تلطفت فضلاً بي تملكت مهجتي ... وأخرجتني من ظلمة الكفر باللطف

وأوضحت لي سبل النجاة إلى الهدى ... فلاحت لي الأنوار تخبر بالعطف

حويت من الإحسان خلقًا وعفة ... وفضلاً وتأييدًا يجلّ عن الوصف

انتهى.

ومن كراماتهِ أيضًا: أنهُ كلما خرج متنزهًا للصحراء تخرج الأسماك من بطن بحر البصرة لالتماس بركاتهِ، وتزدحم على أقدامهِ الشريفة كازدحام الإبل على موارد الماءِ، ومنها أنهُ لمس بيده المباركة فاطمة العرجاء فعادت سليمة بإذن الله، وتقوم اعوجاجها ونبت شعرها وتنور بصرها، ومنها أنهُ ذهب لزيارتهِ الشيخ محمود الزنجي قدس سره، وكان قد بلغ من العمر أكثر من ثمانين سنة وضعف جسمهُ، وقد حمل بزنبيل على أكتاف المريدين وكان لهُ تسعون ألف مريد، فلما دخلوا به على حضرة الغوث قال من داخل الزنبيل بعد السلام: إني قد أتيت لتحصيل فيوضات الحقيقة ونيل عنايات الطريقة، فقال السيد الغوث قدس سرّه: يا محمود جئتنا مستويًا كالخاروف المشوي، ثم أخذه من يده

وقال: وما ذاك على الله بعزيز وصاح الله، فارتعدت مفاصل الزنجي من هيبة السيد، وحسن الله حالهُ ووجههُ، ومنها أنهُ كان يقرأ الدرس في البصرة فيسمعون كلامهُ أهل القرى من الجهات الأربع، مسافة تسعة أيام ويجتمعون في كل يوم وقت درسه الشريف في بيوتهم لسماع نصائحه الجوهرية وحكمه المحمدية، حتى أن أهل أرجونه والحدادية يسمعونهُ كما في الترياق، ومنها أنهُ صلى الصبح في مكة المكرمة والظهر في المدينة المنورة والعصر في بيت المقدس، والمغرب في بعلبك في مقام نبيّ الله نوح عليهِ السلام والعشاء وراء جبل قاف، ومنها أنه أنكر عليهِ علماء بغداد وأكثروا مذمتهُ بمجلس الخليفة وأجمع رأيهم أن يرسلوا لهُ رجلاً من العلماء ويرسلون معهُ ظرفين مملوئين نبيذًا، وأمروا ذلك الرجل أن يقدمهما هدية للسيد لكي يظهر لهم جهل سيدنا على ما زعموا، فذهب الرجل إلى البصرة ودخل مجلس سيدنا ومولانا القطب، وكان الرجل المذكور عينهُ اليمنى عميا فبعد أن جلس، قال لهُ سيدنا الغوث جئت من بغداد، قال: نعم قال: وكيف علماءُ بغداد في غيبتنا وما الذي أرسلوه إلينا وأين الهدية التي معك؟ فأحضر الظرفين ففتحهما بيده المباركة وأخذ بيده كأسًا وملأه، وأمره أن يشرب فتمنع لعلمهِ بما في الظرف فأقسم السيد أن لا بد من أن تشرب، فشرب فانقلب الخمر ماء عسلٍ، فأمر السيد بعد ذلك لجميع الأخوان أن يشربوا منهُ وقال لهم: لو علمت أنه خمرًا لما أقسمت على الرجل بشربهِ ولكن الله يأبى أن يدخل رواقنا ما يكرههُ فاشربوا، فشربوا منهُ حينئذٍ كلهم، ثم قام الرجل وقبل قدمي السيد وطلب منهُ الطريقة والعهد العالي فمنحهُ بذلك، ثم لمس السيد بسر الله على عينهِ العمياء فتنورت وصارت بإذن الله تعالى أحسن من الصحيحة، فازداد اعتقادًا ومكث برهة يخدم بزاوية سيدنا الغوث قدس سرّه، فبعد تلك الأيام قال لهُ قدس سره اذهب إلى بغداد بجواب رسالتك التي جئت بها، فأمر سيدنا حينئذٍ بإحضار قرطل مشبك من قصب ووضع في أسفلهِ ماء وفوق الماء قطنًا وفوق القطن نارًا وفوق النار ثلجًا، وقال بسم الله الرحمٰن الرحيم، اذهب إلى مجلس خليفة بغداد بحضور العلماء وقل لهم إن الذي يجمع الله لهُ بين الأضداد يقلب لهُ الأعيان ويجعل لهُ خمركم عسلاً بكرمهِ، فأخذ القرطل وحضر إلى مجلس الخليفة والعلماء ففتحوه فلما نظروا إلى ما فيهِ تعجبوا من ذلك غاية العجب لأن كراماتهِ رضي الله عنهُ كالمعجزات فسلّموا لهُ، وسافروا لزيارتهِ والتمسوا الطريقة منهُ ولازموا بخدمة عتبات حضرتهِ السنية، ومنها أنهُ دخل عليهِ رجل وهو يبكي فسألهُ عن سبب بكائهِ، فقال لهُ: يا سيدي ذهبت لآخذ الطريقة من الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس سره، فولى وجههُ الشريف عني وقال لي: اخرج أنت من أهل الشقاوة. والآن قد تقطعت من الخوف، فقال لهُ سيدنا الغوث: لا بأس عليك، قم حتى أبايعك في طريقي وأكون لك حجة بين يدي الله تعالى، فقام وتمثل بين يدي

حضرة السيد فبايعهُ ومسح بيده المباركة على جبهتهِ، وقال: اذهب الآن لحضور الشيخ عبد القادر فذهب، فلما رآه حضرة الشيخ عبد القادر قام واستقبلهُ وقرّبهُ منهُ فتعجب الأخوان من ذلك، فقال لهم: لا تعجبوا إن الله محا من جبهته سطر الشقاوة ببركة السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ، وفيه يقول الشاعر:

كراماتهُ يسمو عن العد قدرها ... ومن أين رمل البحر نحصيه بالعدد

انتهى.

ومن أجلّ كراماتهِ ما تكرَّر ذكرها واشتهر أمرها وعطر الأكوان عطرها وأذعن لها الأعيان وسارت بها الركبان، قضيّة مدّ يد النبي ﷺ لهُ كما تقدم، قال العلاّمة الشيخ عبد الرحمٰن الصفوي رحمهُ الله تعالى في كتابه نزهة المجالس بعد أن ذكر هذه القصة ما نصه: ولا إنكار في ذلك فإن إنكار ذلك يؤدي ـ والعياذ بالله ـ إلى سوء الخاتمة. قال العلاّمة الأبيدري رحمهُ الله تعالى: وإنكار هذه الكرامة كفر لأنهُ يتضمن إنكار المعجزة المحمدية والكرامة الأحمدية، وقد وقع قريب من ذلك مرة أخرى للسيد المشار إليهِ قدس الله أسراره وشيد آثاره، وذلك أنهُ في العام الذي توفي فيهِ رضي الله تعالى عنهُ حجّ وزار قبره ﷺ، الذي هو أفضل من الجنة بل من العرش والكرسي، ولما وقف تجاه القبر الشريف يريد الوداع، أنشد قائلاً:

إن قيل زرتم بما رجعتم ... يا أشرف الرسل ما نقول

فخرج صوت من القبر الشريف، سمعهُ كل مَن حضر في ذلك الروض المعطر وهو يقول:

قولوا رجعنا بكل خير ... واجتمع الفرع والأصول

ولا شك أن كرامات الأولياء حق وصدق ولذلك قال اللاقاني في جوهرة التوحيد:

وأثبتن للأوليا الكرامة ... ومَن نفاها فانبذن كلامه

وقد نصّ الحافظ السيوطي كغيره، على أنهُ ﷺ متصرف بعد موتهِ في العالم العلوي والسفلي، حتى إنهُ وقع الخلاف في خروجهِ من قبره الشريف وفي كون ما لهُ باقيًا على ملكهِ بعد موتهِ، لكن لا يسمى ذلك بعد موتهِ معجزة لفقد التحدي بل كرامة وآية، وصحّ أنهُ ﷺ مرّ ليلة الإسراء بموسى قائمًا يصلّي في قبره، وسماع ابن المسيب الآذان من القبر الشريف في وقعة الحرة. ونص المواهب: وقد ثبت أن الأنبياء يحجّون ويلبون. انتهى.

ونقل الإمام عبد الله أبو المواهب الصديقي في كتابه الجواهر البهية في مناقب السادة الأحمدية، عن سيدي عبد الوهاب الشعراني أن مجيء سيدي أحمد البدوي بالأسرى قد تعدد، حتى إن سيدي عبد الوهاب رضي الله تعالى عنهُ كان في المقام في بعض السنين، فشاهد مجيء سيدي البدوي بالأسير والوقائع كلها منقولة، نقل الحديث بالأسانيد المعتبرة فلا ينبغي لمن يخشى سوء العواقب وغضب الله تعالى أن ينكر كرامات الأولياء بعد الموت، وكون الميت صار في حكم الجماد لا ينافي وقوع الكرامة منهُ، فإن الروح لها اتصال بالميت لأجل النعيم وغيره، وغايته أن الاتصال يختلف قوة وضعفًا على أن الجمادات ثبت نطقها، فمن ذلك الحجر الأسود كان يسلّم على رسول الله ﷺ كلما مرّ، وحنين الجذع وتسبيح الحصى، فكلام الأولياء بعد الموت كرامة أقرب من كلام الجمادات وهذا جليٌ لمن وفقهُ الله تعالى للخير واحترام أولياءِ الله تعالى وأحبابهِ، على أن الكرامات للأولياء بعد الموت لا تقاس على المعجزات من الأنبياء بعدهم، إذ لا يلزم من نفي المعجزة بعدهم نفي الكرامة بعدهم، لأن المعجزة إنما ثبتت للأنبياء لأجل المعارضة ولا معارضة بعد الموت. وأما كرامات الأولياءِ فمنة وفضيلة ليظهر الله تعالى بها عظمة عبده وعلوّ رفعتهِ عنده تعالى، وحاشا الله تعالى أن يقطع منته عن أحبابهِ بل يزيدهم بدليل قولهُ تعالى: ﴿نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ [فصلت: ٣١] والأولياء رؤوس المخاطبين بهذه الفضيلة؛ بل المعارضة في ثبوتها بعد الموت ترجع لمعارضة القرآن في هذه الآية الشريفة، لأن الآية دلّت منطوقًا على أن الله تعالى إذا منح شخصًا إيمانًا وصلاحًا كان وليهُ وناظرًا إليهِ في الدنيا وبعدها برزخًا وقيمة في الجنة، وبالجملة فثبوت الكرامة للأولياء بعد الموت يكاد أن يكون معلومًا علمًا شبيهًا بالضروري، يخشى على منكر ذلك من سطوة الله تعالى وبطشهِ به وما تخيله بعض الأغبياء من أن ذلك فيهِ نسبة تأثير للمخلوق، فخيال باطل لما علمت أن ذلك الخارق يخلقه الله تعالى على يد مَن اصطفاه من عباده والله تعالى أعلم. انتهى. وأجاب الإمام العالم العلاّمة حافظ العصر بقية السلف وشرف الخلف، شيخ مشايخ الإسلام أحمد المقدسي الحنبلي بقولهِ: نعم كرامات الأولياء ثابتة فلا تنقطع بموتهم كما هو منصوص عليهِ، ولا ينكر ذلك إلا مَن ابتلي بالحرمان والله تعالى أعلم. انتهى. هذا في شأن الأولياء، والنبي ﷺ حي في قبره سميع بصير مطعم يأكل ويشرب ويتنعّم وقد شاهد ذلك أهل الكشف من خواص هذه الأمة المحمدية يعني عند المراقبة انكشف لهم ذلك في العالم الروحاني لا الجسماني الخ، وإلى ذلك أشار القطب العارف بالله تعالى سيدنا الشيخ أبو الحسن الشاذلي قدس سره، بقولهِ لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين، ما عددت نفسي من المسلمين. وذكر الشيخ القدوة الحجة مولانا عبد الوهاب الشعراني قدس الله

سره، في مننهِ وكثير من كتبهِ أن سيدنا الشيخ إبراهيم المتبولي قدس سره كان يرى النبي ﷺ ويتلقى أوامره المحمدية، كذلك ذكر سيدنا الشيخ عبد الوهاب الشعراني قدس سره أن الشيخ أبا العباس المرسي خليفة الشيخ أبي الحسن الشاذلي قدس سرهما، كان يرى النبي ﷺ يقظة، ويرى أن الانحجاب عن رؤيتهِ ﷺ نقص في مقام ولايته، وقد ذكر الإمام العارف بالله سيدنا الشيخ أحمد بن جلال المصري خليفة شيخ الشيوخ، مولانا الشيخ أبي بكر زين الدين الخوافي الرفاعي خليفة سيدنا الغوث الأكرم، نور الدين عبد الرحمٰن القرشي المصري الرفاعي قدست أسرارهم، في كتابهِ جلاء الصدا: أن السيد الجليل والعلم الطويل شيخ مشايخ العرب والعجم صاحب النوبة والعلم محيي الدين أبا العباس السيد الشيخ أحمد الكبير الرفاعي الحسين قدس سره ونفعنا الله ببركة علومه، يقول: مَن صلّى على النبي ﷺ وأشار بإصبعه ولم يتحقق أنه يمس بها صدره الشريف كلما صلّى عليه، لا حصل عليهِ ﷺ ولا حصل له شيءٌ من اليقين الذي أمره الله تعالى به، ولا علم كيف يصلي، ولا يخفى أن كثيرًا من الأولياء يرونهُ ﷺ ويسمعون خطابهُ الكريم، الذي ورد فيهِ الحديث وعليهِ جماهير الأمة سلفًا وخلفًا أنهُ يردّ على مَن يسلّم عليهِ السلام، والفرق بين الولي وغيره سماع خطابه المبارك وعدمه، ومن هنا يستدل أيضًا على ما أيّد الله تعالى بهِ مولانا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ وميّزه بهِ عن أوليائهِ من القرب المحمدي، فإن الأولياء الكرام يرونهُ ﷺ ولمثلهم أن يراه، لأن الحجب الثقيلة كالتراب ونحوه لا تمنع حذق أبصارهم التي طهرها الله تعالى من الأغيار، إلا أن السيد الكبير السيد أحمد قدس سره عند خروج اليد المحمدية لهُ، رآها حينئذ كل مَن كان في الحرم الشريف النبوي من مقرب ومحجوب وتواترت بها الأخبار وسارت بها الركبان في الأمصار وتعطرت بذكرها محافل السادات والأكابر وامتلت بنقلها بطون الدفاتر، فما أعظم هذه المزية والرتبة العلية وما أحسن ما قلت في هذا الباب من موشح، مدحت بهِ السيد أحمد الكبير قدس سره:

قطب أقطاب الورى زاكي الأصول بضعة الأعيان من آل البتول

حائز لثم يد الهادي الرسول

علنا في عام حج أطيب بعد وقت العصر قبل المغرب

رتبة فاق بعلياها السلف

وعلا فيها على كل الخلف شرف تم به مجد الشرف

ويد بيضا أتت بالأرب جمعت ما بين ابن وأب

وقد سئل سيدنا الإمام الهمام الجلال السيوطي رضي الله تعالى عنه، عن هذه الكرامة الباهرة فأجاب عنها بكتاب حقّق فيه غاية التحقيق ودقق أكمل التدقيق، فلهذا أحببنا أن نورد ما كتبهُ هناك وهو:

وقع السؤال عن مدّ يد النبي ﷺ من قبره الشريف إلى الولي الكبير، الإمام الشهير مولانا السيد أحمد بن الرفاعي رضي الله عنه، هل هو ممكن أم لا؟ وهل أسانيد هذه الرواية المشهورة عالية صحيحة؟ والجواب عن السؤال المذكور حرّرتهُ بهذا الكتاب وسمّيته الشرف المحتم في ما منّ الله به على وليّه السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه، من تقبيل يد النبي صلّى الله تعالى عليه وسلّم، وأول ما أقول إن حياة النبي ﷺ هو وسائر الأنبياء معلومة عندنا قطعًا، لما قام عندنا من الأدلّة في ذلك وقام بذلك البرهان وصحت الروايات وتواترت الأخبار، وقد كتبت في حياة الأنبياء كتابًا مخصوصًا وبسطت فيه الأدلة والأخبار، وها أنا أذكر لك بعضها، منهُ: ما أخرجه إبراهيم في الحلية عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ، مرّ بقبر موسى عليهِ الصلاة والسلام وهو قائِم يصلي فيهِ[1]، وأخرج أبو يعلى في مسنده عن أنس أن النبي ﷺ: «قال الأنبياء أحياء في قبورهم يصلّون»[2] ولا يخفى أن الله جمع لنبينا وسيدنا محمد ﷺ مرتبة النبوة والشهادة، بدليل ما أخرجه البخاري والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يقول في مرضه الذي توفي فيهِ لم أزل أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السم»[3] فثبت كونه عليهِ الصلاة والسلام حيًا بنص قوله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾ [آل عمران: ١٦٩] والأنبياء أولى بذلك من الشهداء، ونبينا أولى من جميع الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين، لما منّ الله عليهِ بهِ من المعالي الفائقة والخصائص الزكية، وقد أفرد الرجال لإثبات حياة الأنبياء جميعًا، وقد رأى نبينا ﷺ جماعة منهم وأنهم في الصلاة، وأخبر وخبره صدق أن صلاتنا معروضة عليهِ وأن سلامنا يبلغهُ وأنهُ يرد على مَن يسلّم عليهِ السلام، وسئل البارزي عن النبي ﷺ هل هو حي بعد وفاتهِ؟ فأجاب أنهُ ﷺ حي وكان سعيد بن المسيب رضي الله عنهُ أيام الحرة، لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمة يسمعها من قبر رسول الله ﷺ، وأخرج الزبير بن بكار في أخبار المدينة، عن سعيد بن المسيب

---

(١) الحديث أخرجه ابن حبان في كتاب الإسراء (١/ ٢٤٢)، حديث رقم: ٥٠ وإسناده صحيح على شرط مسلم وأخرجه ابن أبي شيبة (١٤/ ٣٠٧)، وأحمد في المسند (٣/ ١٤٨).

(٢) الحديث أخرجه في مجمع الزوائد عن أنس (٨/ ٢١١).

(٣) الحديث أخرجه العسقلاني في تغليق التعليق، حديث رقم: ١١٩١.

قال: لم أزل أسمع الأذان والإقامة في قبر رسول الله ﷺ، أيام الحرة حتى عاد الناس، وقال اليافعي عفيف الدين: الأولياء يرد عليهم أحوال يشاهدون فيها ملكوت السمٰوات والأرض، وينظرون الأنبياء أحياء غير أموات كما نظر النبي ﷺ إلى موسى عليهِ الصلاة والسلام في قبره، قال: وقد تقرر أن ما جاز للأنبياء معجزة جاز للأولياء كرامة بشرط عدم التحدي، قال: ولا ينكر ذلك إلا جاهل، ونصوص العلماء في حياة الأنبياء كثيرة لا تحصى فلنكتف بهذا المقدار، وحيث أن الحياة ثبتت وسماع كلامهم ورؤيتهم عليهم الصلاة والسلام صحّ وقوعها عند الأولياء، فخروج يد النبي ﷺ لسيدي السيد أحمد بن الرفاعي رضي الله عنهُ ممكن، ولا يشك فيه إلا ذو زيغ وضلالة أو منافق طبع الله على قلبهِ، وأن إنكار هذه المزية ومثلها يؤدي إلى سوءِ الخاتمة. حمانا الله لما فيهِ من إنكار المعجزة الدائمة والكرامة الباهرة. حدَّثنا شيخنا شيخ الإسلام الشيخ كمال الدين إمام الكاملية، عن شيخ مشايخنا الإمام العلاّمة الهمام الشيخ شمس الدين الجزري، عن شيخه الإمام الشيخ زين الدين المراغي، عن شيخ الشيوخ البطل المحدث الواعظ الفقيه المقرىء المفسر الإمام القدوة الحجة الشيخ عز الدين أحمد الفاروثي الواسطي، عن أبيهِ الأستاذ الأصيل العلاّمة الجليل الشيخ أبي إسحٰق إبراهيم الفاروثي، عن أبيهِ إمام الفقهاء والمحدثين وشيخ أكابر الفقراء والعلماء العاملين الشيخ عز الدين أبي الفرج الفاروثي الواسطي قدست أسرارهم أجمعين، قال: كنت مع شيخنا ومفزعنا وسيدنا أبي العباس القطب الغوث الجامع الشيخ السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنه، عام خمس وخمسين وخمسمائة، العام الذي قدر الله لهُ فيهِ الحجَ فلما وصل مدينة الرسول ﷺ وقف تجاه حجرة النبي عليهِ الصلاة والسلام وقال على رؤوس الأشهاد: السلام عليك يا جدي، فقال لهُ عليهِ الصلاة والسلام: وعليك السلام يا ولدي، سمع ذلك كل مَن في المسجد النبوي فتواجد سيدنا السيد أحمد وأرعد واصفر لونهُ وجثا على ركبتيه، ثم قام وبكى وأنَّ طويلاً وقال يا جداه:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها ... تقبل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت ... فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فمدَّ لهُ رسول الله ﷺ يده الشريفة العطرة من قبره الأزهر المكرم، فقبلها في ملاء يقرب من تسعين ألف رجل، والناس ينظرون اليد الشريفة، وكان في المسجد مع الحجاج الشيخ حياة بن قيس الحراني والشيخ عبد القادر الجيلي، المقيم ببغداد والشيخ خميس والشيخ عدي بن مسافر الشامي وغيرهم، نفعنا الله بعلومهم وتشرفنا معهم برؤيا اليد المحمدية الزكية، وفي يومها لبس الشيخ حياة بن قيس الحراني خرقة السيد أحمد

الكبير واندرج في سلك أصحابه، ومن طريق آخر حدَّثنا الشيخ محمد العلمي، عن الشيخ أبي الرجال اليونيين البعلبكي، عن الشيخ عبد الله البطائحي القادري، عن الشيخ علي بن إدريس اليعقوبي عن شيخه القطب الفرد الشيخ عبد القادر الجيلي ثم البغدادي، قال: كنت في محفل الكرامة التي أكرم الله بها الشيخ أحمد الكبير الرفاعي بتقبيل يد النبي ﷺ، قال اليعقوبي: فقلت أي سيدي أما حسده على هذه الكرامة من حضر من الرجال، فبكى رضي الله عنهُ ثم قال يا ابن إدريس على هذا يغبطه الملأ الأعلى، ومن طريق آخر حدَّثنا الإمام القوصي، عن الشيخ قطب الدين ناظر الخزانة، عن الشيخ ركن الدين السخاوي، عن شيخه عدي بن مسافر، وعن خادمهِ الشيخ علي بن موهوب، قالا: كنا في مسجد النبيّ ﷺ عام حجنا، وكان الشيخ أحمد بن الرفاعي رضي الله عنهُ واقفًا تجاه الحجرة الطاهرة، وقد تكلّم بكلمات ضبطها عنهُ جماعة، فما أتم كلامهُ إلا وقد مدت لهُ يد رسول الله ﷺ، فقبلها ونحن ننظر مع الحاضرين، قال ابن موهوب والله كأني بها وقد خرجت من القبر المبارك، يدًا بيضاء سوية طويلة الأصابع كأنها البرق المضيء وكأني بالحرم وأهلهِ وقد كاد يميد، وقد كادت تقوم قيامة الناس لما ألمّ بهم من الدهش والحيرة والهيبة والسلطان المحمدي، وقد قام الرحب وقعد بتكبير الناس وصلاتهم عليهِ ﷺ، ومن المعلوم أن هذه المنقبة المباركة بلغت بين المسلمين مبلغ التواتر وعلت أسانيدها وصحة رواياتها، واتفق رواتها وإنكارها من شوائب النفاق معاذ الله. **فائدة**: قيل يدخل السيد أحمد رضي الله عنه في الصحابة، لكونِ هذه المنقبة أثبتت لهُ وللزوار بسببهِ رؤية النبيّ ﷺ، الجواب الذي عليهِ مشايخنا أنهُ محل نظر، والأصح عدم الدخول وبهذا قال السخاوي والفرا وغيرهما، لأن الحجة استمرار حياتهِ عليهِ الصلاة والسلام، وهذه الحياة أخروية ليست بدنيوية، لا تتعلق بها أحكام الدنيا. وقد ثبت أن السيد أحمد رضي الله عنهُ لما حج ثانيًا في العام الذي توفي فيهِ وزار القبر الطيب الطاهر على ساكنهِ أفضل صلوات الله وسلامه، قال وهو تجاه القبر بانكسار ومسكنة:

إن قيل زرتم بما رجعتم ... يا أكرم الرسل ما تقول

فظهر صوت من القبر الشريف، سمعهُ كل مَن في المسجد المبارك يقول:

قولوا رجعنا بكل خير ... واجتمع الفروع والأصول

ولا غرابة في هذا، فإن الحبيب عليه الصلاة والسلام كان يخاطب كل قوم بلسانهم، وجوابهُ للحميري عن قوله: أم من البر صيام في السفر حين قالها على لغة حمير، واضعًا محل اللامين من البر والسفر ميمين، معلوم مشهور، وجوابه إلى السيد

أحمد رضي الله عنهُ من هذا القبيل فافهم، والذي أدين الله بهِ أن السيد أحمد بن الرفاعي الشريف الفاطمي الحسيني رضي الله عنهُ كان جبلاً راسخًا وبطلاً جحجاحًا ووليّا عظيمًا وبحرًا من بحار السنة عجاجًا وسيدًا سندًا، انتهت إليهِ رياسة طريق القوم وانعقد عليه إجماع العلماء والأولياء، وقال بتقديمه وتقدمهِ رجال عصره كافة ومشى أكابر قادات عصره تحت لواء إرشاده تمكن من الاتباع للنبي عليهِ السلام وصح فيهِ قدمه، وانتهى إليه التواضع ومكارم الأخلاق:

هيهات أن يأت الزمان بمثلهِ إن الزمان بمثلهِ لبخيل

نفعنا الله بعلومهِ وإمداده وحالهِ وإرشاده، إلى آخر ما قال نفعنا الله بهِ.

ولا شك في أن السيد يشرف عبده والوالد يؤيد ولده، سيما هذا الرسول الجليل الأعظم والبحر الخضم المطلسم ﷺ فهو مورد الأنبياء ومصدر الأولياء، وهاطل الفيض الإلٰهي، الذي جلّ قدر ساكبه عن التناهي وفي هذا الباب ما يكفي من علو منزلة هذا الإمام الجليل والعلم الطويل، رضي الله عنهُ ونفعنا والمسلمين ببركاتهِ آمين.

هيهات أن يأتي الزمان بمثلهِ إن الزمان بمثلهِ لبخيل

الباب الخامس

في ذكر وقوفهِ عند حدّ العبودية والتزامه في صحوه وغيبتهِ الأداب المحمدية، وتحملهِ وصفحه وحلمه وتمكنه وعلو قدمه، وما أسبغ الله عليهِ من مزيد نعمه وكرمه

وفيهِ مباحث شريفة وأساليب رقيقة لطيفة، وليعلم أنهُ لما كان مقام الوقوف عند حد العبودية أعظم المقامات وأفضلها وأجلها وأكملها، أردت أن أذكر ما يناسب هذا الباب من سيرة النبي ﷺ الأواب، وأن أبين أن الخروج عن هذا المقام نقص عند كُمَّل الرجال الأعلام، وقد بسطت لهُ مقالة لطيفة في كتابنا: ضوء الشمس، وها هي بحروفها وفيها ما يكفي في هذا الشأن إن شاءَ الله تعالى، قلت: وإن مقام العبودية هذا أعلى المقامات ورتبته أعظم الرتب وهو المنصب الرفيع والنسب الأعلى، لأن فيهِ سر الوقوف عند حد المخلوقية والثبوت تحت نفوذ الأوامر الإلٰهية والانقياد الكامل لمراسم الشريعة الربانية، وهذا طريق الأنبياء والمرسلين وعليهِ كُمَّل أفراد الأولياء والصالحين، وقد عد العارفون من أهل الله مقام الانبساط والإدلال الذي يحصل من القوم ويرتاح لهُ بعضهم، حالة كونهم غائبين عن شهود أنفسهم مطموسين في بحر الفناء عن الأغيار، مقام نقص عند أهل الكمال منهم، وقالوا إن هذا الانبساط إنما ينشأ من الانسلاخ عن رؤية حد العبودية، فينطق لسان الفناء بلسان البقاء وينطق لسان العجز بلسان القدرة، وعند الخروج من ساحة الانبساط المذكور يقع العبد من مرتبة انبساطه إلى مرتبة عبوديتهِ الصحيحة، ويتوب من هفوتهِ ويعدها زلة توجب الذلة، حتى إن أهل الكمال الذين وصلوا إلى مرتبة المتابعة الجامعة إذا دخلوا ساحة الانبساط وازدادوا طيب قلب وارتياح لب، وتمكنوا في مقام انبساطهم ألجموا الألسن عن التكلم بما ينافي رتبة العبدية في تلك الحضرة العلية، ولينظر إلى ما قالهُ شيخنا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ إلى سبطهِ القطب الأنجب السيد إبراهيم الأعزب قدس سره: كل القوم شربوها فتحكمت عليهم فعربدوا إلا جدك شربها وتحكم عليها، وقال رضي الله عنهُ دخلت على الله من كل باب فرأيت على الكل

ازدحامًا عظيمًا، فدخلت من باب الذل والانكسار، فوصلت ونلت مقصودي والطلاب على الأبواب، وذكر الشيخ الحجة مولانا عبد الوهاب الشعراني الشافعي قدس سرّه في كتابه: الجواهر والدرر، الذي ألفهُ فيما استفاده من شيخهِ المحقق العارف بالله سيدي علي الخواص رضي الله تعالى عنهُ، فقلت لهُ أي لشيخهِ، فأذن مقام الإدلال في هذه الدار نقص، فقال رضي الله تعالى عنهُ: نعم لأنها دار تكليف ومتى يتفرغ العبد للإدلال وجميع الحقوق الإلـٰهية تطلبهُ في كل نفس ولمحة، وقلّ عبد يخلع الحق تعالى عليهِ خلعة السيادة إلا ويدخلهُ شهود الزهو والعجب، ومن هنا قال بعضهم: «اقعد على البساط وإياك والانبساط» أي اقعد على بساط العبودية وإياك ومقام الإدلال ما دام التكليف، ولكن إذا حفظ الله العبد لا يضره لبس خلعة السيادة، فيبرز فيها عبدًا في نفسهِ سيدًا عند الناظرين، ولما خلعت هذه الخلعة على أبي يزيد البسطامي صار الناس يتبركون بمرقعتهِ فلامه بعض الناس، فقال إنما يتبركون بخلعة الحق تعالى لأبي، ورأى بعض الفقراء الشيخ عبد الله بن أبي جمرة، المدفون بقرافة مصر رضي الله تعالى عنهُ وهو جالس على كرسي وعليهِ حلة خضراء والأنبياء كلهم واقفون بين يديهِ فأشكل ذلك عليهِ، فعرضهُ على بعض العارفين، فقال لهُ وقوف الأنبياء إنما هو أدب مع من ألبس الخلعة، لا مع مَن لبس الخلعة، فقلت لهُ قد بلغنا أن الإمام عليًا رضي الله تعالى عنهُ كان يقول في خطبتهِ على رؤوس الأشهاد: أنا نقطة بسم الله أنا جنب الله الذي فرطتم فيهِ، أنا اللوح وأنا القلم وأنا اللوح المحفوظ وأنا العرش وأنا الكرسي وأنا السمـٰوات السبع والأرضون، فإذا صحى وارتفع عن تجلي الوحدة في أثناء الخطبة، يعتذر ويقرّ بعبوديتهِ وضعفهِ وانقهاره تحت الأحكام الإلـٰهية، فقال رضي الله عنهُ: نعم، وقد حُكي أن سيدي أبا الحسن النووي رضي الله تعالى عنهُ قال لبعض الفقراءِ: مَن أنت؟ قال: من أصحاب الشبلي، فنظر إليهِ نظر الغضب، وقال: قل خادمه فإن مقام الصحبة عزيز، وقال: سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه يومًا لأصحابهِ: من وجد فيّ عيبًا فليطلعني عليهِ، فقام إليهِ يعقوب وكان من أجل أصحابهِ، فقال: يا سيدي فيك عيب واحد، قال: ما هو؟ فقال: كون مثلنا من أصحابك فغشى على الشيخ رضي الله تعالى عنهُ وعنهم أجمعين، وقال: يا يعقوب إن سلم المركب حمل من فيّهِ في التعدية، وذكر سيدنا العارف الجليل والعالم العلاّمة النبيل الشيخ عبد الوهاب الشعراني قدس سره في كتابهِ: اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، في البحث السادس والأربعين، من الباب المذكور ما نصهُ: فإن قلت إن بعضهم يقول إذا اعترضوا عليهِ في فعلهِ أمرًا من الأمور، ما فعلت ذلك إلا بأمر من الله تعالى، كما نقل عن سيدي عبد القادر الجيلي رضي الله تعالى عنهُ، أنه ما قال قدمي هذه على عنق كل وليّ لله تعالى إلا بعد أمر الحق لهُ بذلك فهل صحيح؟ فالجواب الأمر

بذلك غير صحيح، ولعلّ الناقل لذلك اشتبه عليهِ الإذن بالأمر، إذ الإذن يطلق على المباح شرعًا، بخلاف الأمر فإنهُ تشريع جديد، فإنهُ يقتضي عصيان مَن خالفهُ، وقد قال الشيخ محيي الدين في الباب الثاني والعشرين من الفتوحات: مَن قال من الأولياء أن الله تعالى أمرهُ بشيء، فهو تلبيس لأن الأمر من قسم الكلام وصفتهِ، وهذا الباب مسدود دون الأولياء من جهة التشريع، وإيضاح ذلك أنهُ ليس في الحضرة الإلـٰهية أمر تكليفي إلاّ وهو مشروع، فما بقي للأولياء إلا سماع أمرها إذا أمرهم الأنبياء بشيء، كما أن لهم المناجات واللذة السارية في جميع وجودهم لا غير، ومعلوم أن المناجاة لا أمر فيها ولا نهي إنما هي حديث وسمر، وكل مَن قال من أهل الكشف أنهُ مأمور بأمر إلٰهي مخالف لأمر شرعي محمدي تكليفي، فقد التبس عليهِ الأمر، وإن كان صادقًا فيما قال إنهُ سمعهُ، قال: ويمكن أن بعض الأولياءِ يكشف الله عن قلبهِ الحجاب، ويقيم الله تعالى لهُ مظهرًا محمديًا فيسمع فيهِ أمر الحق ونهيه لمحمد ﷺ، فيظن أنهُ الحق تعالى كلمهُ هو، وإنما كلّم روح سيدنا محمد ﷺ، فيكون ذلك من باب التعريف للأحكام الشرعية لا شرعًا جديدًا، فإن ذلك باب قد أغلق بموت رسول الله ﷺ، انتهى بحروفهِ. والذي فهمتهُ من ارتياح الحضرة القادرية أن الأمر كان منهُ رضي الله عنهُ في البداية، وإلاّ فقد كانت نهايتهُ رضي الله عنهُ على أعظم قدم وأتم حال وأكمل خلق وكمال تواضع وانكسار، وأما الواردات الثقيلة التي كانت ترد عليهِ قدس سره، وتأخذه من حال إلى حال فينطق بكلمات تتجاوز حد الصحو، فإنها حالة بداية لا تضرّ بمقامهِ العالي، ولا تحجب نور إرشاده المتلالي، وهي كقولهِ حالة غيبتهِ: (قدمي هذه على رقبة كل ولي لله)، وكقولهِ: انزلوا يا ملائكة ربي احضروا فربما كان جمعنا أكمل من جمعكم. كما ذكر ذلك صاحب البهجة القادرية وغيره، فإنها حالة إدلال لا يتحملها حال مبتدئيهم رضي الله عنهم، وإلا فشأن الملائكة الكرام عليهم السلام معلوم، وقدر أخوانهِ أولياءِ الله جليل يعلو عن ظاهر هذه الكلمة، وإن كان المقصود من القدم عندي الأتباع لأمشط الرجل المركب من لحم وعظم وهو الصحيح، وإن مرتبتهُ النهائية رتبة تقصر عنها المطامع، وتلتذ بذكر أخبارها المسامع، وقد تعرضت لذكر هذه الكلمة لمناسبتها في هذا الباب لا غير، وبينت ما ذكره بعض أعيان الرجال فيها حفظًا لمقام حضرة الشيخ رضي الله عنهُ، وإرشاد البعض خدام طريقتهِ المباركة من الذين لا علم لهم ولا فهم، فإنهم يزعمون أنها مزية ترفع رتبة الشيخ قدس سره، على بقية أخوانهِ وأقرانهِ الأولياء العظام رضي الله عنهم، رفعة يتوهمون منها حطة قدر أولياء الله وتحقيرهم والعياذ بالله، فلذلك جعلت كلامي هذا إنذار وتنبيهًا لهم على ما هو الحق، والحق أحق أن يتبع، وإلا فرتبتهُ رضي الله عنهُ من أعلى مراتب الأولياء رتبة وهيبتهُ من

أعظم هيباتهم هيبة، قال بتعظيمهِ وعلوّ قدره عامّة المسلمين وأذعن بفضلهِ شيوخ الأمة أجمعين، ولا أجوّز لفاضل أو جاهل أن يتخطر من بحثي هذا غير ما ذكرتهُ أو سوى ما شرحتهُ، لأني من أخص المنسوبين إلى أبوابهِ والمحسوبين على أعتابهِ، وقد عقدت لهُ في آخر هذا الكتاب ترجمة مخصوصة، وإني أشكر الله على أن جعلني من المعتقدين بغوثيتهِ، وتمكين إرشاده ومن أخلص المحبين لعشيرتهِ وأولاده، وقد علقت بوصلة حب تلحقني بجنابه الكريم، وتعلقت بحبل التمسك بولايتهِ عن قلب سليم، إلا أن الرسول المكرم المعظم ﷺ، حد لنا حدودًا وأخذ علينا عهودًا أن نقول الحق وأن لا تأخذنا في الله لومة لائم، وما هذه الإيضاحات إلا عين الخدمة لعتبة الباز وتحشية مذهبه على ذيل ذلك الطراز. واعلم يا أخي أن سيدنا المشار إليهِ رضوان الله عليهِ حجة في طريق الله، وقدوة مكينة يتوصل بهِ إلى الله وقد كان يجلس مع الفقراء ويأكل معهم، ويخدمهم ويقوم بقضاء حوائجهم، ويتعالى على الملوك وأبناء الدنيا، ويعظم المساكين وينقاد إليهم، وقد انطبع رضي الله عنهُ في كل أوصافهِ على الذل والتواضع، وأما مظهريتهُ الوجهية فلا تنافي حالتهُ القلبية، كيف لا وهو الغوث الأعظم والشيخ الأكرم والمرشد المحترم! الذي سارت بذكره الركبان واعتقده الإنس والجان، وأقرّ بفضلهِ الأكوان وكرامتهُ ثبتت بالتواتر، وهممهُ العلية ونجداتهُ مشهورة لدى المسلمين في جميع الأقطار والبلاد والأمصار، وليعلم أن هذه الكلمة وقعت بوجه آخر من الشيخ أبي الحسن الشاذلي قدس سره، كما هي مروية عنهُ من أهل خرقتهِ، فإنهم يقولون: إنهُ قال قدمي هذه على جبهة كل ولي لله، وتبع هذا الحذو الشيخ أحمد التيجاني المغربي صاحب الطريقة التيجانية المشهورة الآن في المغرب، فإنهُ زاد على القدم القدم الآخر، وقال: قدماي هاتان على هامة كل ولي لله، كما هو منقول عنهُ من أهل طريقتهِ وخرقته، فليس لنا إلا التأويل لهذه الألفاظ أدبًا مع القوم، وباب التأويل واسع فإنا نأول للسيد الجيلاني القدم باتباع النبي ﷺ، وبهذا ينتظم شأن الكلمة ويتساوى بها قائلها وغيره، لأنهُ يقول اتباع أمر رسول الله ﷺ نافذ على رقبة كل ولي، وقوله قدمي مفتخرًا بحسن اتباعه للنبي عليهِ السلام ومعلمًا بأنهُ من خلص أتباعه ويؤيدها قوله في لاميتهِ المروية عنهُ:

وكــل ولــي لــهُ قــدم وإنــي ... على قدم النبي بحر الكمال

هذا ما يصح قوله في هذه الكلمة لا غير، وإلا فعلى ظاهرها لا تنقل ولا تقبل ومع ردها فمقام قائليها محفوظ وشأنهم معتقد قدست أسرارهم، ولا يخفى أن كلمة الحضرة القادرية أول مَن رواها ودوّن لها كتابًا، صاحب البهجة الشيخ علي الهمداني والمؤلف

المذكور من أهلِ القرن السابع ووفاتهُ في حدود السبعمائة كما يدرك من بهجتهِ، وبينهُ وبين الحضرة القادرية ما يزيد عن مائة سنة وطرق رواياته محصورة، لا تخفى على ذي علم وكل ما نقل في الكتب السائرة بشأن هذه الكلمة فأمه البهجة المذكورة، ولا بد أن يكون المنقول أحد روايات البهجة المذكورة، فإن صح الخبر عن الشيخ رضي الله عنهُ، فحالة شطح لا تفيد أمرًا ولا غيره، كما عليهِ كبار الطائفتين الصوفية وعلماء الشريعة، والدليل واضح وإلا فكلمة قيلت، وفضله رضي الله عنهُ فوق ما أراده لهُ صاحب البهجة فإن هذه الكلمة ومثلها لا تكون دليلاً لقائلها على أفضليتهِ على غيره من أقرانهِ أبدًا، على أن الشريعة البيضاء والمحجة الغراء أثبتت لنا من أحوال النبي ﷺ وأطواره وظواهر أقواله وبواطن أسراره، ما كفانا لقياس الأقوال والأفعال في كل زمن ووقت، والحجة القاطعة كتاب الله ولا تبديل لكلمات الله، والذي أعتقده جزمًا أن الشيخ رضي الله عنه بنظر العناية ملحوظ، ومن كل ما يسلط المؤاخذة الشرعية عليهِ مصون محفوظ، وهذا الظن به وبأمثالهِ نفعنا الله بهِ وبأحوالهِ، وكلمة الشيخ الشاذلي قدس سره والتيجاني أيضًا إن صحت عنهما فهي حالة شطح جاوزت المقام المحدود ووارد غيبة ردّه أدب الشرع، وهو مردود وكلاهما من الصلاح والكمال على حال وفضلهما اشتهر أيضًا في أكثر البلاد الإسلامية بين فحول الرجال، ولا يخفى أن هذا الرد لا ينافي صدق الود لهؤلاء السادات الكرام والأولياء العظام الذين اشتهر أمر ولايتهم بين الإسلام عند الخواص والعوام، فإن السيدة عائشة الصديقة رضي الله عنها وعن أبيها، ذكر لها أحد الصحابة رضي الله عنهم أجمعين رؤية النبي ﷺ ربهُ بعين البصر فأنكرت ذلك، وقالت: قف شعري إلى آخر ما قالت، والحديث معلوم ذكره صاحب الشفا وغيره، فما كان ذلك منها رضي الله عنها إلا القول بما علمت وثبت لديها، لأنها ثبت عندها الرؤيا بعين البصيرة القلبية، ومعلوم بالبداهة أنها أحرص الناس على إعلاء شأن رسول الله ﷺ، وهو عليهِ السلام أحب الناس إليها، هذا وقد أنبأنا القرآن برؤية البصر بقولهِ تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى أفتمارونه على ما يرى﴾ [النجم: ١٧ ـ ١٢] ومع ذلك فأمر الخلاف مشهور وخبره مذكور، والاختلاف في شأن الرؤيا قيل في الشارع الكريم والحبيب العظيم، إلا أن البعض من الأصحاب ومنهم السيدة عائشة الصديقية لم يثبت عندها رؤية البصر، أي بعيني الرأس فأنكرت ذلك حرصًا على الشارع والشرع، وابن عباس رضي الله عنهما وَجَمٌ من الصحابة رضي الله عنهم، ثبت عندهم الرؤية بعيني الرأس فقالوا بها، فانظر كيف اختلف الآل والأصحاب في شأن نبوي نزل بهِ القرآن وتكلّموا بهِ رضي الله عنهم، ونقلنا ذلك عنهم بالأسانيد وعلمنا أن الكل على هدى وصدق محبة الحبيب المقتدى ﷺ، فكيف بكلمات أشكل علينا فهم ظاهرها وما ثبتت لدينا صحة أسانيدها إلى قائلها، والمؤاخذة الشرعية فيها واضحة وقد أسندت

إلى إمام عظيم المقام يقتدى بهِ في الدين ويتبع في طريقة الشرع المبين، فهل يصح إلا تأويلها أو القول بعدم صحة إسنادها إليهِ، سواءٌ كان الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنهُ أو غيره من أولياءِ الله نفعنا الله بهم أجمعين، وليعلم أن بعد اعتقاد ولاية الرجل ووصلته بربهِ والقول بكونهِ من-حزب الله وأولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وحسن الظن بصحة جميع ما ينقل عنهُ من الكرامات والإيمان بها، ما بقي مجال لزوائد الأقوال وليس لرجل يؤمن بما أنزل الله ويقف عند حدود الله، أن يظن السوء أو يسيء الأدب في شأن مَن يبحث عن القول، مع تعظيم القائل أخذًا بالتفريق بين الحق والباطل، مبرأ إعراض الأولياء العظام من هفوات الكلام، والحاصل هذا الحق الأحق الذي لا تمسهُ الشبهات وإنما الأعمال بالنيات وإني والحمد لله أؤمن بكرامات الأولياء رضي الله عنهم أجمعين، ومذهبي حفظًا لشرفهم تأويل كلماتهم وهذا الحق المبين، ولا يخفى ما كان عليهِ سيدنا القطب الجيلاني رضي الله عنهُ من علو المنزلة في الولاية، ومع كل هذا عد القوم العارفون حالة الإدلال والانبساط الذي كان يقع منهْ في البداية نقصًا بالنسبة إلى ما منَّ الله بهِ عليهِ في النهاية، من مقام العبودية. فافهم والزم يا أخي باب الذل والانكسار ولا تتعالى عن حد عبوديتك تغنم، وتفكر أيها المحجوب في أن الانبساط والإدلال ودعوى القول والفعل والفتق والرتق، لما كانت لا تصلح لأحد في هذه الدار الفانية، عد أهل القدم الكامل وقوعها من إخوانهم أهل الله في البدايات من جملة النقص بالنسبة إليهم، والحال أنها وقعت منهم رضي الله عنهم بعد انطماس رعونات[١] النفوس ومحو الآثار بالكلية، ونطقوا حقًا وقالوا صدقًا لأن مقالهم حصل بالاتحاف والوهاب والإلهام الصادق القلبي والإذن المعنوي، وبعد كل ذلك عدّ من أحوال البداية وفوقه وفوق حده رتبة ومقامًا وشأنًا وحالاً، حالة الذل والخضوع والانكسار وكتم الأسرار والانقهار تحت الأحكام الإلٰهية، على أن صاحب مقام الانبساط والإدلال إذا وقع منهُ كلام فوق مرتبة عبديته وحد مخلوقيته، حال انبساطه وسري عنهُ ذلك الحال وسئل حالة صحوه عما صدر منهُ في الحالة الأولى من المقال، أنكر واعتذر وندم واستغفر، فكيف بنا وقد لعبت فينا رعونات النفس وانبسطت همتنا للشهوة وصارت الأغيار مطمح نظرنا وغاية أملنا، فهل بليت الدعوى التي تصدر منا حاصلة إلا من عدم العلم بالكتاب المبين وحكم الشرع المتين، وناشئة عن الجهل الصرف بسنة سيد المخلوقين وطريق أولاده الطاهرين وخلفائه الراشدين وعلماء هذا الدين وأوليائه العارفين رضي الله عنهم أجمعين، وهل هي إلا الغفلة الكلية عن درك حالة البشرية، وأنى

---

(١) رعونات جمع رعونة وهي عند الصوفية الوقوف مع حظوظ النفس ومقتضى طباعها.

للمسكين المخلوق العاجز من قوة يفعل بها ويقول ويكر بها ويصول، كيف تجتمع الحياة والممات أو العجز والقدرة أو الفقر والغنى، كلا الضدان لا يجتمعان، ولكن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، لأن الدنيا حجاب ورؤيا النفس حجاب، وكم تحت هذا الحجاب من حجاب، ولا تنكشف تلك الحجب عن القلب إلا بتوفيق الله، وإن من علامات التوفيق الانسلاخ من حب الدنيا ورؤيا النفس، على أن العاقل لو صرف فكره إلى ذاتِهِ وكلياتِهِ وجزئياتِهِ انسلخ بطوعه عن رؤيا نفسه والدنيا أيضًا، وما أحسن ما قلت بفضل الله من قصيدة، تخلصت فيها بمدح النبي ﷺ، تذكر الصواب في هذا الباب وهذا مطلعها:

الله أكـــبـــر هـــذه الآثـــار ... مـنـهـا بـسـابـق خـلـقـهـا أسـرار
فـلـكـل شـيء حـكـمـة وحـقـيـقـة ... حـارت بـفـهـم ضـمـيـرهـا الأفـكـار
والـكـون لـو حـقـقـتـهُ وفـهـمـتـه ... كـنـزٌ وفـيـهِ شـؤنـنـا الإضـمـار
بـسـتـان رمـز مـغـلـق بـطـرازه ... أرواحـنـا بـريـاضـهِ الأطـيـار
هـو مـسـتـعـار كـالـوديـعـة عـنـدنـا ... وكـأنـنـا الـمـلاك والأُمَّـار
فـاعـجـب بـحـقـك مـن عـبـيـد عـجـز ... يـتـصـرفـون كـأنـهـم أحـرار
فـالـمـرء مـنـا لـو تـفـكـر ثـوبـه ... حـال اغـتـسـال ذاق كـيـف يـعـار
وإذا انـتـحـى بـيـت الـخـلـى مـتـبـصـرًا ... خـضـعـت بـهِ فـي ذاتـهـا الأطـوار
وإذا مـشـى فـي الـبـر أدرك أنـهُ ... فـرد وظـل الـدار والـديـنـار
ووجـوده إن نـام أرشـده إلـى ... تـرك الـوجـود ونـومـه الإجـبـار
وبـنـفـس هـيـكـلـه بـكـل دقـيـقـة ... يـتـبـارز الأخـطـار والإخـطـار
والـسـمـع والـصـمـم الـثـقـيـل وعـلـة ... وشـفـاؤهـا والـبـسـط والأكـدار
والأمـن والـخـوف الـمـريـع وغـيـره ... يـنـبـيـه كـيـف تـمـزق الأغـيـار
نـشـر وطـي فـيـهـمـا لـمـفـكـر ... حـال بـهِ تـتـسـلـسـل الأدوار
لـيـل تـدور عـلـيـهِ أحـكـام الـدجـى ... ويـلـيـه فـي دور الـشـؤون نـهـار
والـكـل لـلـرجـل الـرشـيـد حـقـائـق ... تـجـري بـهـا فـي سـفـنـهـا الأقـدار
فـإذا عـرفـت بـقـاء نـفـسـك فـانـيًـا ... أدركـت كـيـف إلـى الإلـه يـسـار
وعـلـمـت أن الـفـعـل ظـاهـر فـعـلـه ... وهـو الـقـديـر الـفـاعـل الـمـخـتـار
فاخلع لعمرك ثوب وهمك بالسوى ... فـالـجـهـل عـنـد ذوي الـبـصـائـر عـار

واصرف وجود الروح للباب الذي	من فضلهِ تتنزل الأسرار
والحق بأرواح الأعزاء الأولى	فهم الكرام السادة الأخيار
رأوا الوجود بنور عين بصيرة	فرأوه ظلامًا لديهِ قرار
وتفكروا الصنع القديم وحادث الـ	ـطرز الكريم فضاءت الأبصار
وتجردوا عنهم فهم بين الورى	أهل العقول السادة الأحرار
علقوا بذيل محمد شمس الهدى	وعلى طريقتهِ الكريمة ساروا

ولا يخفى على كل حاذق متشرع أن نبينا ﷺ كان يركب الحمار، ويخصف النعل ويرقع القميص ويلبس الصوف ويردف خلفهُ ويضع طعامهُ على الأرض، ويجيب دعوة المملوك ويكنس بيتهُ ويخيط ثوبهُ، ويخرج إلى العيد ماشيًا ويرجع ماشيًا ويسلم على الصبيان ويمسح رؤوس اليتامى ويجلس على الأرض ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة العبد على خبز الشعير ويبيت الليالي المتتابعة طاويًا، وأهله لا يجدون عشاء ويأتي ضعفاء المسلمين ويزورهم ويعود مرضاهم ويشهد جنائزهم ولا يمنع شيئًا يسألهُ، وإذا جلس جلس إليه أصحابه حلقًا حلقًا وإذا دخل عليهم جلس حيث انتهى بهِ المجلس، ولا يأنف ولا يستكبر إن يمشي مع الأرملة والمسكين والعبد حتى يقضي لهُ حاجته، وكان يقول عليهِ الصلاة والسلام لست من الدنيا وليست مني، إني بعثت والساعة نستبق وكان يقول ﷺ لو تعلمون ما أنتم لاقون بعد الموت ما أكلتم طعامًا على شهوة أبدًا ولا دخلتم بيتًا تستظلون بهِ، ولمررتم إلى الصعدات تلدمون صدوركم وتبكون على أنفسكم، وكان يقول أيضًا عليهِ الصلاة والسلام ما من صباح يصبحه العباد إلا وصارخ يصرخ «يا أيها الناس لدوا للتراب واجمعوا للفناء وابنوا للخراب»، فتفكر أيها العاقل كيف وقف السيد الكامل عند حد عبديته وأوضح لنا هذا الحد بحكمتهِ، وتقلب ﷺ على بساط القربية في حضرة العبودية ولم يلتفت إلى الأغيار بالكلية منذ برز إلى الوجود ﷺ إلى أن انتقل من هذه الدار ﷺ.

ولينظر أنه عليهِ الصلاة والسلام حالة كونهِ الشارع العظيم والحبيب الكريم، هو الرحمة الشاملة العامة والنعمة الكبرى التامة والعلة الغائية لخلق الخلق ومعرفة الحق، كان يقوم الليل ﷺ ويدعو ويبكي ويذكر الله أكثر ليلهِ عليه الصلاة والسلام وقد لازم القيام حتى تورمت قدماه، وأنزل الله عليهِ لطفًا بهِ وكرمًا ﴿طه وما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾ [طه: ١ ـ ٢] تثبيتًا لقلبهِ الكريم وإجلالاً لشرف مقامهِ العظيم، وهو أيد الله مناره العالي ما دامت الأيام والليالي، لا زال منعكفًا على باب ربهِ باسطًا أكفّ الخشية والخضوع، متواصل الأحزان كثير الدموع، فأعظم بهذا المقام السامي من مقام هو غاية كل مقام

ومنتهى كل مرام، فإذا أردت أيها البصير أن تصل إلى مقام المجد الكبير، فعليك بمعرفة نفسك، وقف عند حدّها وإنه نفسك عن هواها ولا ترفعها عمن سواها، فإنك من مضغة ابتدائك وجيفة انتهائك، وأنت وغيرك من تراب فحذر نفسك من الكبر والإعجاب، ويحسن في هذا المقام قول سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني في كتابهِ الفتح الرباني بما نصهُ: يا قوم دعوا التكبر على الله عزّ وجلّ وعلى خلقهِ، اعرفوا قدركم وتواضعوا في نفوسكم، أوّلكم نطفة قدرة من ماء مهين وآخركم جيفة ملقاة، وقال في الكتاب المذكور في محل آخر: كل البلايا والأمراض شركك بالخلق ورؤيتهم في الضر والنفع والعطاء والمنع، وكل الدواء وزوال البلاء في خروج الخلق من قلبك، وعزمك عند نزول الأقضية والأقدار، وأن لا تطلب الرياسة على الخلق والعلو عليهم، وأن يتجرد قلبك لربك عزّ وجلّ، وقال رضي الله عنهُ: اترك الخير والشر على ظاهرك واشتغل بباطنك مع خالق الخير والشر، من عرفهُ ذل لهُ وكلّ لسانه بين يديه وتواضع لهُ ولعباده الصالحين، وتضاعف همهُ وغمهُ وبكاؤه وكثر خوفهُ ووجله وكثر حياؤه وكثر ندمه على ما تقدم من تفريطه، وتشدد حذره وخوفهُ من زوال ما عنده من المعرفة والعلم والقرب، لأن الحق عزّ وجلّ فعال لما يريد، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، يتردد بين نظرين إلى ما تقدم من تفريطهِ ووقاحتهِ وجهالتهِ وطربه، فيذوب من الحياء ويخاف من المؤاخذة، وينظر إلى مستقبل الحال هل يقبل أو يرد هل يسلب ما أعطي أو يخلّى له على حالهِ؟ هل يكون يوم القيامة في صحبة المؤمنين أو الكافرين؟ ولهذا قال النبي ﷺ: «أنا أعرفكم بالله وأشدكم لهُ خوفًا» من جملة العارفين في الشذوذ والندور، من يأتيهِ الأمن إلا يتلى عليهِ ما سبق لهُ، يعلم يموئلهِ وما يكون مصيره إليهِ يقرأ سره مالهُ في اللوح المحفوظ، ثم يطلع القلب على ذلك ويأمره بكتمهِ وأن لا تطلع النفس على ذلك ابتداء هذا الأمر الإسلام، وامتثال الأمر والانتهاء عن النهي والصبر على الآفات، وانتهاؤهُ الزهد فيما سوى الحق عزّ وجلّ، وأن يستوي عنده الذهب والتراب والحمد والذم والعطاء والمنع والجنة والنار والنعمة والنقمة والغنى والفقر ووجود الخلق وعدمهم، فإذا تم هذا كان الله عزّ وجلّ من وراء ذلك كلهُ، ثم يأتي التوقيع منهُ بالإمارة والولاية على الخلق كل مَن رآه ينتفع بهِ لهيبة الله عزّ وجلّ ونوره الملتبس به، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار. انتهى.

وانظر ما قاله في هذا الباب سلطان العارفين محيي الدين ابن العربي قدس سره في فتوحاته، وقد أحسن وأوضح وأعرب وأفصح، فإنهُ يقول: لا يتكبر على الأمثال إلا مَن جهل أنهم أمثال، فكما لا يتكبر الشيء على نفسهِ لا يتكبر على مثله، ومَن لم يتكبر على خلق الله فقد أعطاهم حقهم الذي وجب لهم عليهِ، كما أعطاه الله خلقه الذي لم يكن هو

إلا بهِ، وإلا فما هو هو فإن الإنسان إذا لم يكن هو الحيوان الناطق، وإلا فليس بإنسان، فعلم حينئذ من كلام الشيخ قدس سره: أن التواضع للأمثال أي للآدميين وعدم التكبر عليهم وصف الإنسانية وعكسها وصف البهيمية، ولما كانت معرفة النفس باب معرفة الرب، ألزم القوم رضي الله تعالى عنهم كلاً من أخوانهم العمل بهذا الأدب، وعرفوا المريد أن الوصول إلى الله لا يصح إلا بمعرفة النفس والتخلص من عوائقها وعلائقها، وذلك إنما هو لترتفع حجب الغفلة والغرور والذهاب الكاذب وحب الرياسة والتقدم والتهالك على الدنيا عن قلب المريد، وليحصل لهم التخلق الكامل بأخلاقه ﷺ، ولكيلا ينحرف المريد عن قدم الاستقامة والوفاء بالعهد لا غير، هذا وأن الله تعالى رفع مقام نبيه ﷺ على كل مقام، وجعلهُ إمام كل إمام، وأثنى عليهِ باتصافهِ بالعبودية المحضة في عدة آيات: منها قولهُ تعالى: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ [النجم: ١٠] وقولهُ تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام﴾ [الإسراء: ١] قال العلاّمة الرازي في تفسير هذه الآية الكريمة ما نصهُ: وسمعت الشيخ الإمام الوالد عمر بن الحسين رحمهُ الله تعالى قال: سمعت الشيخ الإمام أبا القاسم سليمان الأنصاري قال: لما وصل سيدنا محمد صلوات الله عليهِ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المعارج، أوحى الله تعالى إليه يا محمد بمَ أشرفك؟ قال: يَا رب بأن تنسبني إلى نفسك بالعبودية، فأنزل الله فيهِ سبحان الذي أسرى بعبده الآية .اهـ.

ولما كان عليهِ الصلاة والسلام سيد من تحقق بمقام العبودية، وأعظم مَن عرف بهذه الرتبة العلية، كان يعود المساكين ـ كما تقدم ـ ويجالس الفقراء ويجيب دعوة العبد، ولما فتحت عليهِ مكة ودخلها بجيوش المسلمين وعساكر الموحدين، طأطأ رأسهُ الشريف على رحلهِ حتى كاد يمس قادمته تواضعًا لله تعالى، وهذا السنن المحمدي المبارك وهو الطريق الأعظم إلى الله سبحانهُ وتعالى، وبهِ يصل الواصلون ويَهتدي المهتدون، لا بالتصوف الكاذب والشقشقة اللسانية ودعوى وحدة الوجود، وجعل العبد ربًا ـ العياذ بالله ـ والاشتغال عن الله وعبادته وسنة رسوله ﷺ، وما كان عليهِ الخلفاء الراشدون والصحابة رضي الله عنهم والتابعون والصالحون، نفعنا الله بهم، بل وعامة المسلمين: الفرقة الناجية التي طهرها الله من الزيغ والضلال بالمذهب الباطل والقول الكاذب والطريق القبيح، الذي ينتهي بسالكه إلى النار وغضب الجبار، بدعوى أن طريقهُ طريق العارفين ومذهب الصالحين، وكأنهم على دعواه كتموا ذلك وما بينوه، وباسم التصوف والعرفان سموه فلا والله ما من عارف من عهدنا هذا إلى زمن رسول الله يقول بذلك، ويتعدى حدود الله، وقد عمت البلوى في هذا الزمان حمانا الله منهُ ومن أهلهِ، فإنك ترى مَن يدعي التشيخ والإرشاد حال كونهِ آلة كفر وفساد طمس الله

على قلبهِ، قبل أن يعرف أحكام الوضوء فضلاً عن غيرها من الأمر التعبدي والفقه الديني، الذي أوجبهُ الله على كل مسلم ومسلمة، يقول بوحدة الوجود ويجعل العبد عين المعبود، ويقلب جهلة الناس عن الشريعة والحقيقة، ويجعل لهم هذه العقيدة الزائغة طريقة، فترى الرجل الحراث الذي لا يفرق بين الشحم والورم ولا بين القلم والألم، يترك الاشتغال بأصول الشريعة الرصينة ويهدم بهذه الأقوال المردودة دينهُ، ويظن بافترائهِ على ربهِ أنهُ صار من أهل الله وحزبهِ، ولم يقنع بذلك، بل يصرف العينية الذاتية إلى كل من الذرات المخلوقة الكونية، وإذا طولب هو وأمثالهُ من الخذلة اللئام بأقوالهم أنكروها، وإذا خلوا إلى شياطينهم ترنموا بها وذكروها، وكأنهم يرون مَن حماه الله من هذه المصيبة الدينية، وقف عند حالة غير مرضية وإني أرى أن الواجب على كل مؤمن ومؤمنة الغيرة الدينية والهمة الإسلامية، لدفع هذا الفساد المبين من بلاد المسلمين، وأرى أيضًا أن من الواجب على الحكام في سائر بلاد الإسلام الاعتناء بكسر علم هذا الفساد المنصوب، وسوق الناس متصوفة وغيرها إلى العمل بشريعة النبي المحبوب، عملاً بقول الله في كلامهِ القديم ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [النور: ٦٣] وانظر كيف وقف النبي الكريم عند حد عبديتهِ وتخلق بما يلزم لها، وكان ﷺ يحلب شاتهُ ويخصف نعلهُ ويخدم نفسهُ، ويأكل مع الخادم ويحمل بضاعتهُ من السوق، وإن الأمة من إماءِ أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ، فتنطلق بهِ حيث شاءت حتى يقضيها حاجتها، ودخل عليهِ رجل فأصابتهُ من هيبتهِ رعدة فقال: هوّن عليك فإني لست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد، وما ذلك إلا رحمة منهُ ﷺ بالخلق، كيف لا وهو أرحم خلق الله بخلق الله، وهو القائل عليه الصلاة والسلام «الراحمون يرحم الرحمـٰن ارحموا مَن في الأرض يرحمكم مَن في السماء»[1] ولله درّ الحافظ ابن حجر القائل:

إنّ مَن يرحم أهل الأرض قد ... جاءنا يرحمهُ مَن في السما
فارحم الخلق جميعًا إنما ... يرحم الرحمـٰن منا الرحما

وما ألطف قول الزين العراقي في هذا الباب:

إن كنت لا ترحم المسكين إن عدما ... ولا الفقير إذا يشكو لك العدما
فكيف ترجو من الرحمـٰن رحمتهُ ... وإنما يرحم الرحمـٰن من رحما

---

(١) الحديث أخرجه في مجمع الزوائد عن جابر (٨/ ١٨٧)، باب رحمة الناس، وأخرجه في كنز العمال (٣/ ١٦٤)، حديث رقم: ٥٩٧٥.

وقد أشار إلى ذلك سيدنا القطب العارف بالله، أستاذنا الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس سره في كتابهِ الفتح الرباني بما نصهُ: يا قوم تشبعون وجيرانكم جياع، وتدعون أنكم مؤمنون ما صح إيمانكم، يكون بين يدي أحدكم طعام كثير يفضل عنهُ وعن أهلهِ ويقف السائل على بابهِ ويرد خائبًا، عن قريب تبصر خبرك عن قريب تصير مثلهُ، وترد كما رددتهُ مع القدرة على عطائهِ ويحك! هلاّ قمت وأخذت ما بين يديك وأعطيتهُ، تجمع بين الحالين التواضع في قيامك والعطاء من مالك، نبيُّنا محمد ﷺ كان يعطي السائل بيده ويعلف ناقتهُ ويحلب شاتهُ ويخيط قميصهُ، كيف تدعون متابعته وأنتم مخالفون لهُ في أقوالهِ وأفعالهِ، وأنتم في دعوى عريضة بلا بينة، يقال في المثل: «إما أن تكون يهوديًا خالصًا وإلا فلا تتولع بالتوراة» وهكذا أقول لك إما أنك تأتي بشرائط الإسلام، وإلا فلا تقل أنا مسلم، عليكم بشرائط الإسلام عليكم بحقيقة الإسلام وهي الاستسلام بين يدي الحق عزّ وجلّ، وَاسِ الخلق اليوم حتى يواسيك الحق عزّ وجلّ غدًا، برحمتهِ ارْحَمْ مَن في الأرض حتى يرحمك مَن في السماء، وقال قدس سره في الكتاب المذكور: يا قوم اعرفوا الله ولا تجهلوه وأطيعوا الله ولا تعصوه، ووافقوه ولا تخالفوه، وارضوا بقضائهِ ولا تنازعوه واعرفوا الحق عزّ وجلّ بصنعتهِ هو الخالق الرازق الأول الآخر والظاهر والباطن، هو القديم الأول الدائم الأبدي الفعال لما يريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، هو الغني هو المفقر هو النافع المحيي المميت المعاقب المخوف المرجو، خافوه ولا تخافوا غيره وارجوه ولا ترجو غيره، دوروا مع قدرتهِ وحكمتهِ إلى أن تغلب القدرة الحكمة، تأدبوا مع السواد على البياض، إلى أن يأتي ما يحول بينكم وبينهُ تكونوا محفوظين من خرق حدود الشرع، الذي أشير إليه معنى لا صورة، لا يصل إلى هذا الأمر إلا آحاد الصالحين، ما لنا حاجة خارجة عن دائرة الشرع، ما يعرف هذا الأمر إلا مَن دخل فيهِ، فأما بمجرد الصفة فلا تعرفه، كونوا في جميع أموركم بين يدي الرسول ﷺ مشددين الأوساط، تحت أمره ونهيه واتباعه إلى أن يدعوكم الملك إليه، فحينئذٍ استأذنوا الرسول ﷺ وادخلوا عليه، إنما سمي الأبدال أبدالاً لأنهم لا يريدون مع إرادة الله عزّ وجلّ إرادة ولا يختارون مع اختياره اختيارًا، يحكمون الحكم الظاهر ويعملون الأعمال الظاهرة ثم يتفردون إلى أعمال تخصهم كلما ترقت درجاتهم ومنازلهم، يزيدون أمرًا ونهيًا إلى أن يبلغوا إلى منزل لا أمر فيهِ ولا نهي، بل أوامر الشرع تنفعل فيهم وتضاف إليهم، وهم في معزل لا يزالون في غيبة مع الحق عزّ وجلّ، وإنما يحضرون في وقت مجيء الأمر والنهي، يحفظون فيهما حتى لا يخربون حدًا من حدود الشرع، لأن ترك العبادات المفروضات زندقة، وارتكاب المحظورات معصية، لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال، يا غلام: اعمل بحكمهِ وعلمهِ ولا تخرج عن

الخطة، لا تنس العهد جاهد نفسك وهواك وشيطانك وطبعك ودنياك، ولا تيأس من نصرة الله عزّ وجلّ فإنها تأتيك مع ثباتك، قال الله عزّ وجلّ: ﴿إن الله مع الصابرين﴾ [البقرة: ١٥٣] وقال: ﴿فأن حزب الله هم الغالبون﴾ [المائدة: ٥٦] وقال: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾ [العنكبوت: ٦٩] أمسك لسان نفسك عند شكواها إلى الخلق، كن خصمًا لله عزّ وجلّ عليها وعلى جميع الخلق، تأمرهم بطاعتهِ وتنهاهم عن معصيته، تنهاهم عن الضلال والابتداع واتباع الهوى وموافقة النفس، وتأمرهم باتباع كتاب الله عزّ وجلّ وسنّة رسوله ﷺ، يا قوم: احترموا كتاب الله عزّ وجلّ وتأدبوا معهُ، هو الوصلة بينكم وبين الله عزّ وجلّ لا تجعلوه مخلوقًا، يقول الله عزّ وجلّ هذا كلامي، تقولون أنتم لا، مَن ردّ على الله عزّ وجلّ وجعل القرآن مخلوقًا فقد كفر بالله عزّ وجلّ ويرىء منهُ هذا القرآن، هذا القرآن المتلو هذا المقروء هذا المسموع هذا المنظور هذا المكتوب في المصاحف كلامه عزّ وجلّ، كان الإمام الشافعي والإمام أحمد رضي الله عنهما يقولان: القلم مخلوق والمكتوب بهِ غير مخلوق، والقلب مخلوق والمحفوظ فيهِ غير مخلوق. (يا قوم): انصحوا القرآن بالعمل بهِ، لا بالمجادلة فيهِ، الاعتقاد كلمات يسيرة والأعمال كثيرة، عليكم بالإيمان بهِ، صدقوا بقلوبكم واعملوا بجوارحكم، اشتغلوا بما ينفعكم لا تلتفتوا إلى عقول ناقصة دنية. (يا قوم): المنقول لا يستنتج بالعقل، والنص لا يترك بالقياس. لا تترك البينة وتقف مع مجرد الدعوى، أموال الناس لا تؤخذ بالدعوى من غير بيّنة، قال النبي ﷺ: «لو أخذ الناس بدعاويهم لادّعى قوم دماء قوم وأموالهم لكن البيّنة على المدعي واليمين على مَن أنكر»[1]. لا ينفع لسان عليم وقلب جاهل، عن النبي ﷺ أنهُ قال: «أخوف ما أخاف على أمتي من منافق عليم اللسان»[2] يا علماء يا جهال يا حاضرون ويا غائبون: استحيوا من الله عزّ وجلّ وانظروا بقلوبكم إليه، ذلوا لهُ صيروا أنفسكم تحت مطارق قدره وألزموها بالشكر على نعمهِ، واصلوا الضياء بالظلام في طاعتهِ، فإذا تحقق ذلك منكم جاءتكم كرامة الله عزّ وجلّ وجنته في الدنيا والآخرة، وقال بالكتاب المذكور في محل آخر، عن النبي ﷺ أنهُ قال: «أضنوا شياطينكم بقول لا إلـه إلا الله محمد رسول الله، فإن الشيطان يضنى بها كما يُضني أحدكم بعيره بكثرة ركوبهِ وشيل أحمالهِ عليهِ» (يا قوم) أضنوا شياطينكم بالإخلاص في قول لا إلـه إلا الله،

---

(١) الحديث أخرجه ابن حبان (١١/٤٧٧) كتاب الدعوى، حديث رقم: ٥٠٨٢، وابن ماجة في الأحكام، باب البينة على المدعي واليمين على المدّعى عليه.

(٢) الحديث أخرجه ابن حبان (١/٢٨١) كتاب العلم، حديث رقم: ٨٠، وإسناده صحيح على شرط البخاري.

لا بمجرد اللفظ، التوحيد يحرق شياطين الأنس والجن، لأنهُ نار للشياطين ونور للموحدين، كيف تقول لا إله إلا الله وفي قلبك كم إله، كل شيء تعتمد عليهِ وتثق بهِ دون الله، فهو صنمك لا ينفعك توحيد اللسان مع شرك القلب، لا ينفعك طهارة القالب مع نجاسة القلب، الموحد يضني شيطانهُ والمشرك يضنيهُ شيطانهُ، الإخلاص لب الأقوال والأفعال لأنها إذا خلت منهُ كانت قشرًا بلا لب، القشر لا يصلح إلا للنار اسمع كلامي واعمل بهِ، فإنهُ يخمد نار طمعك ويكسر شوكة نفسك. لا تحضر موضعًا تثور فيهِ نار طبعك، فيخرب بيت دينك وإيمانك، يثور الطبع والهوى والشيطان فيذهب بدينك وإيمانك وإيقانك، لا تسمع كلام هؤلاء المنافقين المتصنعين المزخرفين، فإن الطبع يسكن إلى كلام مزخرف مصنع هوس[1] كعجين فطير بلا ملح، يؤذي بطن آكلهُ ويهدم بيتهُ، العلمُ يؤخذ من أفواه الرجال لا من الصحف، من هؤلاء الرجال رجال الحق عزّ وجلّ، المتقون التاركون الوارثون العارفون العاملون المخلصون، ما هو غير التقوى هوس وباطل، الولاية للمتلقين دنيا وآخرة، الأساس والبناءُ لهم دنيا وآخرة، الله عزّ وجلّ إنما يحب من عباده المتقين المحسنين الصابرين، لو كان لك خاطر صحيح عرفتهم وأجبتهم وصحبتهم، إنما يصح الخاطر إذا تنور القلب بمعرفة الله عزّ وجلّ، لا تسكن إلى خاطرك حتى تصح المعرفة ويتبين لك منهُ الخير والصحة، غض بصرك عن المحارم وأمسك نفسك عن الشهوات وعود نفسك أكل الحلال، واحفظ باطنك بالمراقبة لله عزّ وجلّ وظاهرك باتباع السنة، وقد صار لك خاطر صحيح مصيب وتصح لك المعرفة بالله عزّ وجلّ، إنما أربى العقول والقلوب أما النفوس والطباع والعادات فلا ولا كرامة. (يا غلام): تعلم العلم واخلص حتى تخلص من شبكة النفاق وقيده، اطلب العلم لله عزّ وجلّ لا لخلقهِ ولا لدنياه، علامة طلبك العلم لله عزّ وجلّ خوفك ووجلك منهُ عند مجيء الأمر والنهي، تراقبهُ وتذل لهُ في نفسك وتتواضع للخلق من غير حاجة إليهم لا طمعًا فيما في أيديهم، وتصادق في الله عزّ وجلّ وتعادى فيهِ، لأن الصداقة في غير الله عزّ وجلّ عداوة، الثبات في غيره زوال العطاء في غيره حرمان، قال النبي ﷺ: «الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر إذا لم تصبر على النقم ولم تشكر على النعم فلست بمؤمن»[2] حقيقة الإسلام الاستسلام، اللهمّ أحيي قلوبنا بالتوكل عليك وبالطاعة لك بالذكر لك بالموافقة لك بالتوحيد لك، فالحمد لله الذي هدانا بنبيهِ إلى صراطه المستقيم وطهرنا بهِ من الزيغ والخلق الذميم، وأكرمنا باتباعه

---

(١) الهوس: من هاس فلان إذا سار أي سيرٍ كان.

(٢) الحديث أخرجه في كنز العمال (١/ ٣٦) حديث رقم: ٦١.

واجعلنا من أتباعه. هذا وقد خير ﷺ بين أن يكون نبيًا ملكًا أو نبيًا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًا عبدًا، فقال لهُ إسرافيل عليه السلام عند ذلك: إن الله قد أعطاك بما تواضعت لهُ أنك سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول مَن تنشق عنهُ الأرض وأول شافع. وليعلم أن الله قد عصم السيد أحمد الكبير رضي الله عنهُ من الشطح والدعوى حالة غيبته، ولم يكن لهُ إذا ورد عليهِ وارد الكرم وغاب عن نفسهِ، إلا التكلم بما وهبه الله إياه والإفصاح عن ما منّ الله بهِ عليهِ، وما هو إلا التحدث بنعمة الله وهو الأمر المسنون وقد كان يقع ذلك للنبي ﷺ والأحاديث النبوية طافحة في هذا الباب، منها: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر وأنا أتقاكم»(١) إلى غير ذلك مما يطول شرحه، وقد وقع لهُ بعض الكلمات القليلة تحدثًا بالنعمة في بداية أمره وسكت عنها بالكلية بعد البداية، ومضى على حال التمكين إلى نهاية أمره رضي الله عنهُ، ألا تنظر كيف قال رضي الله عنهُ: الدعوى رعونة لا يحتمل القلب إمساكها فيلقيها إلى اللسان، فينطق بها لسان الأحمق. وقال: الفقير كلامه موزون ولسانه مخزون وقلبه محزون، فانظر كيف عرفك أن كلام الفقير السالك إلى الله موزون بميزان الشريعة، مخزون لسانهُ عن أن ينطق بما ينافي أدب الشرع بحرف واحد، محزون قلبه لعلمهِ بانقهاره تحت رق عبوديتهِ وفنائهِ ومحو كليتهِ وانطماسهِ تحت الأوامر الإلـهية، وكونه مطالبًا في كل نفس، فمن أين للمحزون فلتة الدعوى والشطح، ونصب عينه ما يلفظ من قول إلا لديهِ رقيب عتيد. وقال رضي الله عنهُ: مَن لم يزن أقوالهُ وأفعالهُ وأحوالهُ في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره، لم يثبت في ديوان الرجال. وانظر ما قالهُ الشيخ محيي الدين قدس سره في فتوحاتهِ، حين بحث عن الشطح وها هو نصهُ بحروفهِ:

الشطح دعوى في النفوس بطبعها ... لبقية فيها من آثار الهوى
هـذا إذا شطحت بقول صادق ... من غير أمر عند أرباب النهي

اعلم أيدك الله أن الشطح كلمة دعوى بحق، تفصح عن مرتبتهِ التي أعطاه الله من المكانة عنده، أفصح بها من غير أمر إلـٰهي، لكن على طريق الفخر بالراء فإذا أمر بها فإنهُ يفصح بها تعريفًا عن أمر إلـٰهي لا يقصد بذلك الفخر، قال عليهِ السلام: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر». يقول ﷺ، ما قصدت الافتخار عليكم بهذا التعريف، لكن أنبأتكم به لمصالح لكم في ذلك، ولتعرفوا منة الله عليكم برتبة نبيكم عند الله، والشطح زلة

(١) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك كتاب تواريخ الأنبياء (٢/ ٦٦)، حديث رقم: ٤١٨٩. وأخرجه في كنز العمال (١١/ ٤٣٤)، حديث رقم: ٣٢٠٣٩.

المحققين إذا لم يؤمروا بهِ فيقولها كما قالها عليهِ السلام، فلهذا بيَّن فقال ولا فخر فإني أعلم أني عبد الله كما أنتم عبيد الله، والعبد لا يفتخر على العبد إذا كان السيد واحدًا. وكذا نطق عيسى عليهِ السلام، فبدأ بالعبودية وهو بمنزلة قولهِ عليهِ السلام ولا فخر، فقال لقومهِ في براءة أمهِ. ولما علم من نور النبوة التي في استعداده أنهُ لا بد أن يقال فيهِ إنهُ ابن الله، فقال: إني عبد الله. فبدأ في أول تعريفه وشهادته في الحال الذي لا ينطق مثلهُ في العادة، فما أنا ابن لأحد فأمي طاهرة بتول ولست بابن الله، كما أنهُ لا يقبل الصاحبة لا يقبل الولد، ولكني عبد الله مثلكم أتاني الكتاب وجعلني نبيًا، فنطق بنبوتهِ في وقتها عنده وفي غير وقتها عند الحاضرين، لأنهُ لا بد لهُ في وقت رسالتهِ أن يعلم بنبوتهِ كما جرت عادة الله في الأنبياء قبلهُ، فهم مأمورون بكل ما يظهر عليهم ومنهم من الدعاوي الصادقة التي تدل على المكانة والزلفى، والتميز على الأمثال والأشكال بالمرتبة المثلى عند الله، وجعلني مباركًا، أي محلاً وعلامة على زيادات الخير عندكم، أينما كنت، يعني في كل حال من الأحوال ما تختص البركة فيكم بسببي في حال دون حال، وذكرها كلها بلفظ الماضي وهو يريد الحال والاستقبال، فما كان منهُ في الحال فنطقهُ شهادة ببراءة أُمه وتنبيهًا وتعليمًا لمن يريد أن يقول فيه إنهُ ابن الله، فنزه الله وهو نظير براءة أمه مما نسبوه إليها. فهو في جناب الحق تنزيه وفي جناب الأم تبرئة، ويدل لفظ الماضي فيهِ وفي أينما كنت أن يكون التعريف لهُ بذلك من الله، كما كان لمحمد ﷺ لما قال: «كنت نبيًا وآدم بين الماء والطين»[1] فعلم مرتبتهُ عند الله وآدم ما وجدت صورتهُ البدنية، وأعلم عيسى بلفظ الماضي أن الله آتاه الكتاب وأوصاه بالصلاة والزكاة ما دام في عالم التكليف والتشريع، وهو قولهُ ما دمت حيًا يريد حياة التكليف في ظاهر الأمر عند السامعين، ويريد عندنا هذا وأمرًا آخرًا وهو قولهُ تعالى في عيسى إنهُ كلمة الله، والكلمة جمع حروف وسيأتي علم ذلك في باب النفس بفتح الفاء، فأخبر أنه آتاه الكتاب يريد الإنجيل، ويريد مقام وجوده من حيث ما هو كلمة والكتاب ضم حروف رقمية لإظهار كلمة أو ضم معنى إلى صورة حرف يدل عليه، فلا بد من تركيب، فلهذا ذكر أن الله أعطاه الكتاب مثل قوله: ﴿أعطى كل شيء خلقهُ﴾ [طه: ٥٠] ويريد بالوصية بالصلاة والزكاة العبادة، كما تدل على العمل هي على العبادة أدل، لأنها لا تفتقر في كونها عبادة إلى بيان، وأذا أريد بها العمل احتيج إلى تعيين ذلك العمل وبيان صورتهِ، حتى يقيم نشأتهُ هذا المكلف بهِ، فإذا كانت العبادة: دل على أنهُ لا يزال حيًا أينما كان وإن فارق هذا الهيكل بفراق يسمى الموت

---

(١) الحديث أخرجه في كشف الأسرار (٢/١٢٩)، حرف الكاف، حديث رقم: ٢٠٠٧.

فالحياة تصحبهُ، لأنها صفة نفيسة لهُ ولا سيما وقد جعلهُ روح الله، ثم ذكر أنهُ برّ بوالدتهِ أي محسن إليها، فأول إحسانهِ أنهُ برأها مما نسب إليها في حالة لا يشكون في أنهُ صادق في ذلك التعريف، ثم تمم فقال: ولم يجعلني جبارًا، فإن الجبروت وهو العظمة يناقض العبودية وهو قولهُ: إني عبد الله، أو يريد بقولهِ جبارًا: أي لا أجبر الأمة التي أرسلت إليها بالكتاب والصلاة والزكاة، إنما أنا مبلغ عن الله لا غير، لست عليهم بمصيطر فأكون جبارًا فأجبر، وأبلغ عن الله كما قال تعالى: ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك﴾ [المائدة: ٦٧] ﴿وما على الرسول إلا البلاغ﴾ [المائدة: ٩٩] ﴿إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٢] فقولهُ مذكر، والمذكر لا يكون إلا لمن يكون على حالة منسية ولو لم يكن كذلك لكان معلمًا لا مذكرًا، فدل أنه لا يذكرهم إلا بحال إقرارهم بربوبيتهِ تعالى عليهم، حين قبض الذرية من ظهر آدم في الميثاق الأول، ثم قال: والسلام عليّ يوم ولدت، بما نطقت فيكم بهِ من أني عبد الله، فسلمت من انتساب وجودي إلى سفاح أو نكاح، ويوم أموت، فأسلم من وقوع القتل الذي ينسب إليّ أنهُ فعل بي، وهو قول بني إسرائيل إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم فكذبهم الله، فقال: ﴿وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبّه لهم﴾ [النساء: ١٥٧] فقال لهم: إن السلام عليهِ يوم يموت سالمًا من القتل، إذ لوقتل لقتل شهادة، والشهيد حي غير ميت، ولا يقال فيهِ أنهُ ميت كما ورد النهي في ذلك عندنا، وكذلك لم يزل الأمر فأخبر أنهُ يموت ولا يقتل، فذكر السلام عليهِ يوم يموت ثم ذكر أن السلام عليهِ يوم يبعث حيًا، يعني في القيامة وهو موطن سلامة الأبرياء من كل سوء مثل الأنبياء وغيرهم من أهل العناية، فهو صاحب سلامة في هذه المواطن كلها، وماثم موطن ثالث ما هي إلا حياة دنيا وحياة أخرى بينهما موت، فهذه كلها لو لم تكن عن أمر إلـٰهي لكانت من قائلها شطحات، فإنها كلمات تدل على الرتبة عند الله على طريق الفخر بذلك على الأمثال والأشكال، وحاشا أهل الله أن يتميزوا عن الأمثال أو يفتخروا، ولهذا كان الشطح رعونة نفس فإنهُ لا يصدر من محقق أصلاً، فإن المحقق ما لهُ مشهود سوى ربه وعلى ربه ما يفتخر وما يدعي؛ بل هو ملازم عبوديتهُ مهيأ لما يرد عليهِ من أوامره، فيسارع إليها وينظر جميع ما في الكون بهذه المثابة، فإذا شطح انحجب عما خلق لهُ وجهل نفسه وربه ولو انفعل عنهُ جميع ما يدعيه من القوة فيحيي ويميت ويولي ويعزل، وليس عند الله بمكان بل حكمهُ في ذلك حكم الدواءِ المسهل أو القابض، يفعل بخاصية الحال لا بالمكانة عند الله، كما يفعل الساحر بخاصية الصنعة في عيون الناظرين فيخطف أبصارهم عن رؤية الحق فيما أتوا بهِ، فكل مَن شطح فعن غفلة شطح، وما رأينا ولا سمعنا عن ولي ظهر منهُ شطح لرعونة نفس وهو ولي عند

الله، إلا ولا بد أن يفتقر ويذل ويعود إلى أصلهِ ويزول عنهُ ذلك الزهو الذي كان يصول بهِ، فذلك لسان حال الشطح، هذا إذا كان بحق هو مذموم فكيف لو صدر من كاذب، فإن قيل وكيف صورة الكاذب في الشطح مع وجود الفعل والأثر منهُ، قلنا: نِعمَ ما سألت عنهُ فأما صورة الكاذب في ذلك، فإن أهل الله ما يؤثرون إلا بالحال الصادق إذا كانوا أهل الله، وذلك المسمى شطحًا عندهم حيث لم يقترن بهِ أمر إلٰهي أمر بهِ، كما تحقق ذلك من الأنبياء عليهم السلام، فمن الناس مَن يكون عالمًا بخواص الأسماء فيظهر بها الآثار العجيبة والانفعالات الصحيحة، ولا يقول إن ذلك عن أسماء عندهُ، وإنما يظهر ذلك عند الحاضرين أنهُ من قوة الحال والمكانة عند الله والولاية الصادقة، وهو كاذب في هذا كلهِ وهذا لا يسمى شطحًا ولا صاحبهُ شاطحًا بل هو كذب محض ممقوت، فالشطح كلمة صادقة صادرة من رعونة نفس عليها بقية طبع، تشهد لصاحبها ببعده من الله في تلك الحال، وهذا القدر كاف في معرفة حال الشطح. انتهى.

وهنا لذَّ البحث عن بعض كلمات سيدي السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ الذي تحدث بها بنعمة الله تعالى، وضبطها بمقياس العرفان على الأساس المبحوث عنه، فإن كل مَن يتأمل بعين البصيرة والإنصاف يجدها واضحة لا شك فيها، ولا ريب يعتريها على أن وجود القطب الغوث ثابت ومعلوم عند القوم وأئمة الرجال كافة، ولهُ أوصاف منها أنهُ يصير صفة من صفات الله، كما ورد في الحديث القدسي: «لا يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتى أحبهُ فإذا أحببتهُ كنت سمعهُ وبصره»[1] إلى آخر الحديث، والقطب الغوث هو سيد المقربين من الله في عصره بلا نزاع، لأنهُ وارث السر المحمدي والعلم الأحمدي والفيوضات النبوية والمعارج المصطفوية، ولهُ مرتبة تذكر ومنزلة لا تنكر، وقد ثبتت غوثية سيدنا السيد أحمد رضي الله عنهُ، وتمكن في مقام غوثيتهِ حتى علت رتبتهُ عن رتبة الغوثية المجردة، لأن منن الله ومواهبهُ لا تتناهى، وما عند الله من منة وفضيلة إلا وفي خزانة كرمهِ وعلمهِ أعظم وأجلى منها، وقد تكرّم الله عليهِ قدس سره فتمكن في مقام غوثيتهِ ومرتبة سلطنتهِ وقطبيتهِ، حتى بلغ مقامهُ حدًا رتبةُ الغوثية الأولى قصرت عنهُ، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء، ومع كل ذلك ملك لسانهُ وقهر أحوالهُ وغلب أسراره، وعلى هذا اتفق أكابر الرجال عامة، ولم يجرِ على لسانه الشطح الذي يجتاز حده ومرتبته، ولا الإدلال الذي عدوه نقصًا في مقام الولي ومنزلته لغيبتهِ في ما أشهد عن حده، فنطق بما ليس لهُ وشطح على من هو أعلى منهُ

(١) الحديث سبق تخريجه في صفحة ٧٣.

منزلة وأعظم مرتبة وأقرب زلفى، حتى أن بعضهم رضي الله عنهم حالة غيبتهِ وإدلالهِ شطح على الصديقين والأنبياء، كما كان يقع لسيدي أبي العباس البستي المراكشي قدس سره وغيرهُ، وسيأتي تفصيلهُ بما نصهُ عنهم سيدي محيي الدين العربي في فتوحاته؛ بل كان إذا فاض عليهِ بحر الكرم وانبسط وارتاح تكلم متحدثًا بنعمة الله بما لا يجاوز حده ورتبته، وهذه عصمة من الله لهُ وعناية من الكريم بهِ رضي الله عنهُ، وهذا ملخص كلماتهِ من هذا المقام على الغالب، قال قدس الله أسراره وضاعف أنواره: أنا شيخ مَن لا شيخ لهُ أنا شيخ المنقطعين، أنا مأوى كل شاة عرجاء انقطعت في الطريق. وقال رضي الله عنهُ لرجل قال لهُ: أي سيدي هل يكون بعد هذا مثل هذا الجمع ومثل هذا القدم؟ فقال: نعم يكون، ولكن قصير ما تشد إليهِ الرحال وآخر الأمر يؤخذ منهُ سيف الولاية ويعلق في هذا الباب أبدًا، وقال رضي الله عنهُ للشيخ يعقوب وحق العزيز سبحانهُ وتعالى، ما وجد أحد من الفقراء باطنًا ولا ظاهرًا أذى إلا وجدت ألمهُ في قلبي، ولا هبت ريح حارة على قسطنطين العليا، إلا وجدت لهبها بين جنبي، وغدا يطالبني العزيز سبحانهُ وتعالى بكل مَن تمسك بي ودعاني، وأخذت عليهِ عهدًا مني ومن ذريتي، وقال رضي الله عنهُ: بلغت إلى مقام إن عصيت قلبي عصيت الله. وقال رضي الله عنهُ: إذا كان لكم حاجة ولم تقدروا إلى الوصول إلى أُم عبيدة، فتوجهوا نحوها لله تعالى ثلاث خطوات واسألوا حاجتكم، وقال رضي الله عنهُ لما بويع مع الشيخ منصور في حضرة الربوبية، قيل لهُ: أي منصور اطلب شيئًا فقال: أي رب ما تعطيني إياه أعطه لأصحابي، فنودي مرة أخرى، فأجاب مثل ما أجاب في الأولى، فقيل لهُ في الثالثة: أي منصور أنت ما تريد، فقال: أنا أريدك، فلما قال السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ هذا، قال لهُ الشيخ يعقوب: أي شيخنا بحق العزيز سبحانهُ أخبرني بما طلبت إذ قيل لك، فقال رضي الله تعالى عنه: أي يعقوب مَن أنا حتى أذكر، فبالغ معهُ وألَحّ عليهِ فقال: أي يعقوب لما اجتمعت القوم في الحضرة الشريفة وحصل لهم رخصة التكلم، طلب كلٌ فأخذوا منهُ مقصودهم ووصلوا إلى مطلوبهم، ودارت النوبة إلى هذا اللاش أحمد، نوديت: أي أحمد اطلب شيئًا كما طلب أخوانك، فقلت: علمك محيط بكل شيء لا حاجة إلى غرضي، فقال سبحانهُ كذلك ولكني أريد أن أسمع أخوانك مطلوبك، فقلت أي رب أريد أن لا أريد واختار أن لا أختار، فأجابني إلى ذلك، وصار أمري مفوضًا إليهِ كما لم يزل مفوضًا إليهِ، فمن يختاره يجيءُ إلى هذه البقعة ويسلم إليَّ، فأعجز عنهُ في الحال فأسلمهُ إليهِ، وأقول لا أقدر على حفظهِ ولا أعرفهُ، فيقبلهُ مني ثم قال: وفقني فأنا أعرف كلكم، وأعلم أن الله أعطى هذه البقعة خاصية تقرب الخلائق إلى الله تعالى وتبعدهم منهُ، وأنا أعرف صغيركم وكبيركم ذكركم وأُنثاكم

خفيفكم وثقيلكم، مَن قربتهُ من العزيز فهو قريب ومَن أبعدتهُ فهو بعيد، قلت: لا يخفى أن ما ذكره سيدي السيد أحمد رضي الله عنهُ هنا من خاصية البقعة ومن كونهُ يقرب إلى الله ويبعد عنهُ، فهو من التحدث بالنعمة ولا شك أن محبة الولي تقرب من الله وبغضه يبعد عن الله، ومواهب الله لعباده لا تنكر وهذا أمر لا خلاف فيه، وأما ما ذكره من خطاب الله لهُ وللشيخ منصور، وما ذكره غيره من الأولياء من المكالمة، فقد أوضحهُ سيدي أحمد زروق المغربي قدس سره في كتابهِ شرح حزب البحر للشاذلي قدس سره، فإنهُ قال بعد كلام ألزم بهِ الأخذ بالأحزاب المأثورة عن السادة الصوفية قدست أسرارهم ما نصهُ: ثم ما يذكر في هذه الأحزاب من الأذكار ونحوها لا يخلو من ثلاثة أوجه: أحدها أن يكون مستعملاً بالتكلف والصناعة، وهذا منهي عنهُ شرعًا، إذ قد نهى عليهِ الصلاة والسلام عن تكلف السجع في الدعاءِ، فكيف لغيره وقد نهى عليهِ الصلاة والسلام عن الاعتداء في الدعاء إلى غير ذلك. الثاني أن يكون بغير ذلك ولكنه محتويًا على موهمات ومهمات لا وجه لها في إطلاق الشرع، فإن كان لها وجه في المعنى وهذه تمتنع في العموم وقد تباح في الخصوص بقيد الحال أو ما يقوم مقامهُ، تأدبًا مع الله تعالى وحفظًا لعقائد الضعفاء. الثالث أن تكون سالمة من ذلك وفيها رموز واقعة في القرآن، أو في السنة أو مواطئة لما فيهما، فيجري فيهما الخلاف على ذلك ما لم تكن منقولة بلفظها، فيقع البحث في وضعها وهذا الوجه هو المعترض على الشاذلية، وجوابهُ أن ذلك جار بحكم الإلهام الصحيح أو الإقراء الصريح في المنام والإلهام، معمول بهِ فيما لا ينافي الحكمة ولا يغير الحكم ولا يثبت الأحكام، وهذا منهُ لقولهِ عليه الصلاة والسلام: «كان في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي فعمر منهم»[١] وقوله عليه الصلاة والسلام: «الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح جزءٌ من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»[٢] وفي رواية «وما كان من النبوة لا يكاد يكذب» نعم، وأحزاب سيدنا رضي الله عنهُ قد صح كونها من أحد الوجهين؛ بل صرح رضي الله عنهُ بأنهُ ما وضع منها حرفًا إلا بإذن من الله ورسولهِ، وقال رضي الله تعالى عنهُ: مَن دعى إلى الله تعالى بغير ما دعى بهِ رسول الله ﷺ فهو مبتدع، نعم الإذن الذي أشار إليه إما أن يكون بالرؤيا في النوم، وإما أن يكون بالوجه الحكمي على معنى أنهُ لم يضع منهُ إلا ما أذن

(١) الحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٩٢)، كتاب معرفة الصحابة، باب مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، حديث رقم: ٤٤٩٩.

(٢) الحديث أخرجه في مجمع الزوائد عن ابن عباس (٧/ ١٧٢) كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة. والبخاري (٨/ ٨٩)، كتاب التعبير، باب الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة، حديث رقم: ٦٩٨٨.

الشرع في وضعهِ، وإما أن يكون بالإذن الحالي الذي عهدتهُ الإلهام، والأول أولى إذ لا خصوصية للثاني والثالث أبين، لأنهُ مقتضى الطريقة لكن شرطهُ موافقة الذي قبلهُ ولو بوجه ما جمعًا بين الحقيقة والشريعة، ثم إن تأيد ذلك برؤيا المنام فهو أتم وظاهر، وحال الشيخ جمع الثلاثةِ والله تعالى أعلم. فإن قلت فقول الشيخ في غير موقف قيل لي كذا، على أي وجه هو؟ قلنا: هو بمعنى الإلهام بأن يقع في نفسهِ وقوعًا لا يمكن تكذيبهُ ولا يصح رده، ولا يصحبهُ هوى يبلج[١] بهِ الصدر وينشرح بهِ القلب، ويسري في عوالمهِ سريانًا يفهم بهِ حقيقة، ولا يستند إلى دليل خارج عنهُ مع موافقتهِ لأصل الشرع في الإباحة والطلب، وهو معنى المكالمة في اصطلاح القوم. قال الشيخ أبو أحمد المرجاني رضي الله تعالى عنهُ: مَن ظن أن الله تعالى يكلّم أحدًا بعد الأنبياءِ كما كلّم موسى عليهِ الصلاة والسلام، فقد ضلّ وحاد عن الحق، أو كما قال، وإنما المكالمة التي عند القوم مخاطبة عوالمهم اللطيفة التي لا يتطرق إليها الغلط ولا يدخلها الشك، والتردد لشاهد الحال ودوام التجربة، مع موافقة أصل الشرع والله تعالى أعلم. انتهى.

ثم قال سيدي السيد أحمد رضي الله عنهُ لسيدي علي بن عثمان قدست أسرارهم: وأما هذا الجمع من الفقراء فإن العزيز سبحانهُ تكفل بهم وأمرهم إليهِ، أي علي: اعلم أنهُ لما قبض العزيز سبحانه القبضة ودعاني إلى تسلّمها، فضعفت عن حملها وعجزت عن نقلها، ولم يقر بها جناني ولم يقدر عليها جثماني، فقلت: يا رب لست من أهلها، وطرحت نفسي عجزًا عن نقلها، فعلم الحق سبحانهُ حقيقة حالي وصدق مقالي وتسلمها مني وقال جلّت عظمتهُ: أنا لها فكن أنت أي أحمد نائبًا لجنابنا، فلا أعرفها منهُ إلى يوم القيامة إلا هي صافية نقية كما سلمتها إليهِ صافية نقية بيضاء جلية، وهذه بيعتي معهُ عزّ وجلّ، ثم قال لي: أي علي وليس لقبضتي كل الخلق ولكن كل مَن تمسك بي أو كان عليهِ شرط التوبة مني أو من خلفائي في سائر الأرض من مشارقها ومغاربها، وأنا ملتزم بهِ وثقلهُ عليَّ وأنا لهُ، ثم قال: أي أولاد عثمان قد عقدت لكم مع العزيز سبحانهُ عقدة وبايعت لكم بيعة لا تنحل أبدًا منها، أنتم خدم لهذا القدم أشار بذلك إلى خدمة الفقراء، ثم قال: أي أولاد عثمان من خرج منكم إلى سفر أو إلى جمعة أو إلى مكان كان هو الصورة وأنا المعنى .اهـ.

---

(١) الأبلج الأبيض الحسن الواسع الوجه، وشيء بليج مشرق مضي والبلوج الإشراق (لسان العرب).

وقال السيد عبد الرحيم رضي الله عنهُ: قلت للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ ما نقول بعدك؟ فقال: قل في شأن هذا اللاش خالك لم يأمر بأمر دون ما فعلهُ، ثم قرأ قولهُ تعالى: ﴿لِمَ تقولون ما لا تفعلون﴾ [الصف: ٢] وقال الشيخ ابن النصر للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهما: أيش نقول بَعدَك؟ فقال: قل إن لي شيخًا بقي إحدى وعشرين سنة وفيه يدفع البلاء وفيهِ يمطر، وفيهِ يرحم الخلق وفيهِ تخضر الأرض وفيهِ يدرّ الضرع وفيهِ تنزل البركات وفيهِ ترفع الدرجات، ثم قال: أيش تقدر أن تقول غير هذا، وقال الشيخ علي بن النصر أي سيدي أغير ذلك شيء، فقال: قد قلنا ما تعرفهُ الناس، وكم وراء ذلك أمور لا يعلمها إلا الله تعالى، وقال رضي الله عنهُ لسيدي السيد إبراهيم الأعزب، تحت دالية ماء حين سألهُ عن سبب القعود: أي إبراهيم اختبأت في هذا المكان لأن كل ما في مملكة الله تعالى تشبث بذيلي ويستعينون في جميع الأحوال بجدك، فمن هو بين الخلق حتى كانت لهُ هذه القدرة المملكة مملكة الله تعالى، يتصرف فيها كما يشاء، أيش يقدر جدك، وقال سيدي السيد علي بن عثمان للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه: أي سيدي أنت الشيخ، فقال: أي علي نزهني عن المشيخة، فقال: أي سيدي تعيش أنت القطب، فقال: أي علي نزهني عن القطبية، فقال: أي سيدي تعيش أنت الغوث فقال: أي علي نزهني عن الغوثية فقال: أي سيدي أنت السلطان، فقال: أي علي نزهني عن السلطنة، فقال: أي سيدي فأيش أقول في شأنك، فقال رضي الله عنهُ قل:

هي البدر لكن في الدياجي كمالها ... هي الشمس لكن ليس من دونها ظل

فقال السيد علي: فأي حيرة أنت، فقال: أنا ما يعجز عنهُ لسانك ويكلّ عن ذكره سمعك وتنقطع عنهُ جوارحك وينفذ فيهِ عمرك، ولا تصل إلى مرتبتي من ربي عزّ وجلّ، أي علي هذا اللاش خالك لا يحد ولا يوصف ولا يعرفهُ أحد، قلت: يريد بذلك أن من رجال عصره لا يعرف نهاية مرتبتهِ أحد، كما شهد لهُ بذلك غير واحد من أفراد العصر رضي الله عنهم أجمعين.

ومن المعلوم ما جاءَ في الحديث القدسي: «أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري» أي لا يعرفهم حق المعرفة باطنًا وظاهرًا غيره تعالى. نفعنا الله بهم.

وقال رضي الله عنهُ للسيد عبد الرحيم قدس سرهُ: لو عرفتموني ما أظلكم معي جدار ولا وجدتم معي لذة عيش ولا يقرّ بكم قرار، إنما رأيتموني بعين رؤوسكم ولو تروني بعين قلوبكم ضاقت عليكم الأرض بما رحبت وفنيتم من العيان، وقال الشيخ ابن كراز قدس سره للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ: أي سيدي مثلك مثل العروس على

المنصة، فهي قائمة لا يزال ينادى عليها والطبل يضرب والمدعيات يأتين، فإذا نزلت العروس سكت المنادي وانقطعت المدعيات، فقال: لا أي يعقوب ما يزال المنادي والعروس على المنصة والطبل يضرب والمدعيات يأتين، فلا العروس تنزل ولا المنادي يسكت ولا المدعيات ينقطعنَ إلى يوم القيامة، وبها جرت البيعة ولن يخلف الله وعده وهو أعلم وأحكم، وقال رضي الله عنهُ لسيدي إبراهيم الأعزب: القبل ثلاث: العرش قبلة الهمم، ومكة قبلة الجباه، وجدك قبلة المريدين. قال فقير للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ: بلغنا عن الشيخ منصور أنهُ كان عاشقًا، فقال أي ولدي صدق، فقال الرجل وغيره ـ يعني بهِ السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ ـ فقال رضي الله عنهُ: «غيره عاشقٌ ومعشوق، وإن كان السيد منصور قد ذاب باطنه فغيره قد ذاب ظاهره وباطنه» ثم التفت إلى الشيخ يعقوب وقال: أي يعقوب الرجل من تتبين آثاره بعده، وقال رضي الله عنهُ: أعطيت خصلتين لم يعطهما الشيخ منصور، أعطيت الحكمة ولم يعطها، وأنا معشوق وهو كان عاشقًا والعاشق متعوب والمعشوق مذلل، فإذا تفكرت أسرار هذه الكلمات ودققت النظر في مضمونها فهمت أنهُ لم يعد مرتبة غوثيتهِ ومنزلة تمكنهِ ولم يتجاوز ذكر النعمة والتحدث بها، لأن الغوث الفرد الجامع مرجع كمل الواصلين وموئل أهل عصره أجمعين، وأما ما أشار بهِ رضي الله عنهُ إلى أن سيف ولاية كل ولي بعد موتهِ يعلق في بابهِ العالي، فتلك موهبة خاصة وعناية من ربهِ لهُ يؤيدها رؤيا الشيخ منصور الرباني رسول الله ﷺ قبل ولادة سيدنا السيد أحمد الكبير، وقولهُ له مثلما أنا رأس الأنبياء فكذلك هو رأس الأولياء، وفي هذه البشرى إشارة صريحة وعناية صحيحة، تفيد استفاضة الأولياء بعده منهُ بحكم الوراثة من المنزلة المحمدية والمرتبة العظيمة النبوية، والشاهد على ذلك أخلاقهُ وسيرتهُ وحالتهُ وبصيرتهُ، فإنهُ رضي الله عنهُ تخلق بالأخلاق المحمدية وسار السيرة الأحمدية، وكان حالهُ طبق حال رسول الله وأوصافهُ موافقة في كل الشؤونات لأوصاف حبيب الله، وقد جرت عليهِ أحكام المطابقة الاضطرارية كموت أبيهِ قبل أُمهِ وهو حمل، وبعضهم قال وهو في المهد، وكتسميتهِ بلا سعي منهُ أحمد، وكنشأتهِ في البطاح العربية، وكولادتهِ في قرية حسن، وإقامتهِ بأم عبيدة بلدة جده وموتهِ فيها، وبينهما كما بين مكة والمدينة، وكظهوره بين عرب جفاة وكبروزه في حالة مظهريتهِ فقيرًا، وكموت أولاده الذكور قبلهُ وكحصول الذرية لهُ من بنتيهِ الكريمتين ومن صلبي ولدي ابن عمهِ سيف الدين وعثمان كما سيأتي ذكره مفصلاً، وغير ذلك، وكإقبال العامة والفقراء عليهِ وكتحملهِ وحلمهِ وسعة صدره، وسخاوته وكقوة عزمهِ في الله وكعلوية همتهِ على الملوك والخلفاء وعدم التردد إليهم، وكتواضعه للفقراء واشتغالهِ بخدمة الأرامل والأيتام وضعاف الناس وفقراء النصارى

واليهود ومحتاجيهم، وبهذا أسلم على يديهِ منهم خلق لا يحصى عددهم وككثرة وقوع الإرشاد على يديه، وكتمكنهِ في مرتبة عبادتهِ وعبوديتهِ من غير ملل ولا كسل ولا استفزه حال ظهوره قط، وكعدم جلوسهِ على سجادة وجلوسه مع أخوانه كأحدهم وكثرة صبره على أذية قومهِ وعشيرتهِ حتى أرشدهم الله على يديه، وكحسن معاشرته ولطف طبعه وصفاء سريرته وعذوبة لفظه، وغير ذلك من المقابلة الاختيارية التي هيأها الله لهُ وهيأه لها، مما تقف عنها الآمال وتنقطع دونها عزائم الرجال.

قال في جلاءِ الصدا: كما سبق وتكرر أن الشيخ البستي كان يحطّ على سيدي أحمدِ رضوان الله تعالى عنهُ وينسب لهُ المعايب ويكتب لهُ الكلمات القبيحة، فكلما أخذ كتبهُ يقرأُها ويقول لا واخذه الله، ويكتب لهُ بعد البسملة من العبد اللاش أحمد الرفاعي إلى الشيخ المكرم المحتشم البستي، أما بعد فإن الله خلقني كما شاء واسكن في ما شاء ولا تخلني من دعائك وهمتك وحلمك يسعني، وبقي على هذا الحال حتى هام البستي على وجههِ ولم يدر به أحد أين ذهب، وكان رضي الله عنهُ إذا عظم عليهِ اجتماع الناس في رواقهِ الشريف يقبض قبضة من تراب ويقول: أي سادة من هو مخلوق من هذا من أين لهُ قدرة ولسان ينطق بهِ، ويقول لأخوانهِ: إن كان فيكم مَن يعرف بي عيبًا فليدلني عليهِ، ويقول لهم إن قال لكم قائل إن في مملكة الرحمٰن مخلوقًا هو أضعف من هذا اللاش حميد فلا تصدقوه، وكثيرًا ما يقول حشرت مع قارون وفرعون، إن كان خطر في سري أني المتقدم على هذا الجمع، إلا أن تكرم عليَّ ربي وجعلني مثل واحد منهم، ويقول كثيرًا أنا لاش اللاش وأنا أرذل الناس، ليتني كنت فسحة دم ليتني لم تلدني أمي، وقد عدا عليه يهودي قبيل الفجر وهو ذاهب إلى رواقهِ للصلاة وظنهُ أنهُ من آحاد الفقراء وأراد تعويقهُ عن الصلاة، وأمسكه وصار يضربهُ وهو لا يقابلهُ وكلما أراد السير إلى الرواق منعه، فلما علا ضوء الفجر رآه فعرفهُ فأُغشي على اليهودي خوفًا وهيبة، فأخذه بيده وصار يقول لهُ: يا أخا اليهود لا تخف واجعلني في حل فقد روعتك وقم إلى بيتك، ولا تذكر ما وقع، فإني أخاف عليك من أخواني المسلمين، فذهب اليهودي إلى بيتهِ متعجبًا وذهب سيدي أحمد إلى رواقهِ، فأتى الأخوان وهم بانتظاره فصلى فيهم الصبح، وبعد ورده وعبادتهِ دعا خازن طعامه وأمره بأخذ مونة سنة إلى اليهودي وعيالهِ، وقال لهُ: سلم عليهِ مني. فلما وصلت الأطعمة وذخيرة البيت إلى دار اليهودي وعرف القصة، ذكر الحكاية لزوجتهِ وأولاده فتعجب كلهم، وقالوا ما هذا إلا صاحب شأن سماوي، فأسلم الرجل وزوجته وأولاده وكان جميعهم ثمانية أشخاص، وحسن الله حالهم وصاروا على قدم عظيم من الصلاح، فكان كلما رآهم يبكي ويحمد الله، ويقول هذه نتيجة غلبة النفس، وأما زهده في الدنيا

فإنهُ اقتفى بهِ أثر النبي ﷺ وتمسك بسنتهِ، لأنهُ كان مقتديًا برسول الله في جميع أحوالهِ وأفعالهِ، وقد سرت عليهِ أحوال النبي كما ألزم نفسهُ أفعالهُ عليهِ السلام، فإنهُ كانت الدنيا عليهِ متعذرة ممسوكة أكثر أوقاتهِ لا يجد في بيتهِ شيئًا يأكل، فكان يطوي اليوم واليومين والثلاثة والأكثر، فإذا فتح الله عليهِ بشيء آثر بهِ، انتهى.

وكان رضي الله عنهُ مع ذلك يسألهُ الشيخ عمر الفاروثي قدس سهر، أن يدعو لهُ. فيقول رضوان الله تعالى عنهُ، قد أقبلت على جيفة الدنيا وأصبحت وما لي بمحمد وآلهِ في الفقراءِ أسوة حسنة، فأي شيء أدعو إذا جئت إليَّ ولم تجد عندي ما تأكل، قل لي أدعُ فحينئذ ادعو يستجاب. شكى قوم يقال لهم بنو الصيرفي على السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ عند قاضي الهمامية، فدعاه إلى المحكمة فلما حضر قال لهم القاضي: بماذا تدعون على السيد أحمد الرفاعي؟ قالوا: إن البرج الفلاني لنا. فقال لهُ القاضي: ما تقول؟ قال: صدقوا هو لهم، قالوا: الموضع الفلاني لنا، قال: صدقوا، كلما يقولون إنهُ لهم فهو لهم، قال القاضي: إذا كان الأمر كذلك لمَ جئتم بهِ، فقال السيد أحمد الرفاعي أنا لا أنازعهم على الدنيا الجايفة الفانية، والله لو طلبوا البيت الذي أنا فيهِ لأعطيتهم إياه، فلما سمعوا كلامهُ كشفوا رؤوسهم وتابوا على يده، ووقع مرة أخرى بين يدي السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ وبين أنسابه منازعة في شيء فطلبوا منهُ أن يحضر معهم الشرع الطاهر، فمشى معهم فلما وصلوا إلى القرية المعروفة بالضنية بقرب أم عبيدة، وكان القاضي حينئذ فيها فدخل السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ جامع القرية، ليصلي بهِ فسبقوه إلى القاضي وتكلّموا في حقهِ كلامًا قبيحًا، فلما حضر عند القاضي ادعوا عليهِ فطالبهُ القاضي بالجواب عن دعوتهم، فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ: أي سادة اشهدوا عليَّ إن كل ما يدعيه هؤلاء أنسابي هو لهم دوني، وليس لي معهم قليل ولا كثير ثم سلم عليهم وانصرف، فلما رجع إلى أم عبيدة قالوا لهُ بقية أنسابه: أعطيتهم مالك وبقيت أنت بلا شيء، قال لهم: لا واخذكم الله أعطيتهم ما علموا وأعطاني مولاي ما علموا وما لم يعلموا فالخير كان، ثم كان بعد ذلك رجع أنسابه المنازعون لهُ عن منازعتهم إياه وصاروا لهُ خدمًا. نقل أنهُ جاء مرة إلى بيتهِ ورأى على رأس زوجتهِ الست رابعة مقنعة من عمل كوهستان، فقال لها: أي بنت الشيخ تريدين أن تجلسين معي يوم القيامة في مخدعة محمد المصطفى ﷺ وتلبسين هذه، وحياة الشيخ منصور لا نجمع بينهما. ونقل أن ليلة من الليالي جاء الشيخ يعقوب إلى السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ فقال لهُ ما جاء بك هذه الليلة، قال: رأيت الشيطان واقفًا على باب داري فهممت بضربهِ، فقال: أي يعقوب أنتم أهل الإنصاف إنَّ في بيتكم الأحمر والأصفر وهما لي، كيف لم أجيء إلى

بيتكم، فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ أنفقهما في سبيل الله، فإن طريقتنا أن لا تسأل ولا ترد ولا تدخر، ولا يخفى أن مظهرية مولانا السيد أحمد قدس سره، قامت على نسق مظهرية جده ﷺ من الظهور العظيم والشهرة الكبيرة والفقر بأمر الدنيا. ولقد ذكر العيني في تاريخهِ: أن بعض مشائخهِ ذكر أنهُ وجد في أم عبيدة ليلة في رواق السيد أحمد وعنده أكثر من مائة ألف إنسان، وقد قام بكفاية الجميع. وقال صاحب الترياق حين وصف السيد المشار إليهِ: كان يتواضع للفقراء والمساكين، ويتذلل لله ولخلقهِ تذلل العجزة والمضطرين، وينفق على الناس لمرضاة الله إنفاق الملوك والسلاطين، وأحسن ما يقال فيهِ:

إذا نظرت إلى الدنيا وهيئتها فانظر إلى ملك في زي مسكين

إن كان من يصلح الدنيا بواحدها فذاك يصلح للدنيا وللدين

وأما طريقهُ: فإنهُ الفاقة وكل الافتقار إلى الله تعالى والتجرد من رؤيا وجوده حالة غيبتهِ وحضوره بالكلية، وكان يقول ما رأيت أقرب ولا أسهل طريقًا إلى الله من الذل والافتقار والانكسار بتعظيم أمر الله والشفقة على خلق الله والاقتداء بسنة سيدنا رسول الله ﷺ .اهـ. وهذا الكلام وغيره يشهد لهُ رضي الله عنهُ بالتجرد من حالة الإدلال، التي ترد على بعض ساداتنا الأولياء قدست أسرارهم، ويؤيده قولهُ رضي الله عنهُ من لم يحاسب نفسهُ على كل نفس ويتهمها، لم يثبت عندنا في ديوان الرجال، وهذا أجل المقامات وأعظمها. وانظر كيف قال سيدي محيي الدين العربي قدس سره العزيز في فتوحاتهِ، في الباب التاسع والثلاثين: التزم ما تعطيه حقيقة العبودية من حيث أنها مكلفة بأمور، حدها لهُ سيدها فإنهُ لولا تلك الأمور لاقتضى مقامها الإدلال والفخر والزهو، من أجل مقام من هو عبد لهُ ومنزلتهُ كما زها يومًا عتبة الغلام وافتخر، فقيل لهُ ما هذا الزهو الذي نراه في شمائلك مما لم يكن يعرف قبل ذلك معك، فقال: وكيف لا أزهو وقد أصبح لي مولاً وأصبحت لهُ عبدًا، وما قبض العبد عن الإدلال وإن يكونوا في الدنيا مثل ما هم في الآخرة إلا التكليف، فهم في شغل بأوامر سيدهم إلى أن يفرغوا منها، فإذا لم يكن لهم شغل قاموا في مقام الإدلال الذي تقتضيه العبودية وذلك لا يكون، إلا في الدار الآخرة فإن التكليف لهم مع الأنفاس في دار الدنيا، فكل صاحب إدلال في هذه الدار فقد نقص من المعرفة بالله على قدر إدلالهِ، ولا يبلغ درجة غيره ممن ليس لهُ إدلال أبدًا، فإنهُ فاتتهُ أنفاس كثيرة في حال إدلالهِ غاب عما يجب عليهِ منها من التكليف الذي يناقض. الاشتغال بهِ الإدلال، فليست الدنيا دار إدلال، إلى آخر ما قال: نفعنا الله بهِ. وذكر في فردوس العارفين أن أبا يزيد قال: ما رأيت شيئًا إلا رأيت الله قبلهُ. وقيل لأبي يزيد: ترى

الخلق قال بهِ أراهم، وسئل محمد بن واسع هل عرفت ربك؟ فسكت ساعة، ثم قال مَن عرف الله تعالى قلَّ كلامهُ ودام تحيره، صم عن الاستماع من غير الله وبكم عن النطق مع غير الله، وقال أبو يزيد العارف: إن تكلم بحالهِ هلك وإن سكت احترق، هذا شأن كمل الرجال. وذكر الإمام الشعراني في كتابهُ الجواهر والدرر: أن شيخهُ سيدي علي الخواص قال لهُ بعد كلام: وكذلك بلغنا أن الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنهُ لما حضرتهُ الوفاة وضع خده على الأرض، وقال هذا هو الحق الذي كنا عنهُ في حجاب الإدلال، فشهد على نفسهِ بأن مقام الإدلال الذي كان منهُ نقص بالنسبة إلى حالهِ، الذي ظهر لهُ عند الموت، فقلت لهُ في هذا دليل على عدم صحة أمره بالتصريف والإدلال، كما هو مشهور بين أهل خرقتهِ، فقال رضي الله عنهُ: نعم، لو كان أذن لهُ في ذلك ما وقع منهُ ندم، ولكن من شدة صدقهِ تمم الله عليهِ حاله فمات على كمال حال. انتهى. قلت هذا ما ظهر للشيخ علي الخواص قدس سره وأما الذي اشتهر أن الشيخ عبد القادر رضي الله عنهُ ثبت لهُ التصريف في وقتهِ بلا شبهة، ولعل مراد الشيخ علي التصريف المطلق والله أعلم، ولا يخفى أن البحث هنا إنما هو على حالة الإدلال التي تقع لبعض الفوم رضي الله عنهم، ولما كان الشيخ عبد القادر رضي الله عنهُ ممن ذكر عنهُ الإدلال، ذكره الشعراني قدس سره لشيخهِ نفعنا الله بهِ. ومن المعلوم أن أهل هذا الشأن جماعة كثيرون، منهم الشيخ أبو يزيد البسطامي والشيخ الحلاج والشيخ أبو الغيث اليماني والشيخ أبو العباس البستي المراكشي والشيخ أبو الحسن الشاذلي قدست أسرارهم وغيرهم، ولهؤلاء السادات وأمثالهم اصطلاحات وشطحات وكلمات غامضات، فما كان من اصطلاحاتهم وشطحاتهم وكلماتهم لا يتجاوز حد الشرع ظاهرًا سلمنا لهم فيهِ وأذعنا، وما كان مجهولاً تركناه على حالهِ لله تعالى، وما كان مردودًا بظاهر الشرع لا يقبل التأويل أنكرنا نسبتهُ إليهم، وقلنا بعدم صحة الخبر صيانة لمقاماتهم العلية، واعتقادًا بأنهم يدورون مع الحق حيث دار، ويعجبني ما قالهُ العلاّمة الإحساني في كتابهِ نصيحة الأصدقاء وهو: وإياك يا أخي والتعصب لأحد منهم فإن ذلك مذموم، بل هو من مداخل اللعين المرجرم، فإن كل أحد من الأنام يؤخذ من قولهِ ويرد عليهِ ما عدى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكن مع الحق حيث دار كما هو دأب الصحابة الأبرار ومن تبعهم من السلف الأخيار، واحذر يا أخي كل الحذر من رد الحق إذا تبين فإنهُ من الكبر المهلك الذي وجب اجتنابهُ وتعين، انتهى. وإنا نعتقد أن هؤلاء الأشياخ العظام أكثر الناس أدبًا مع ظاهر شريعة سيد الأنام، فلذلك نتأدب معهم بتأويل كلماتهم وننكر صحة نسبة ما لم يؤول من الكلام المعزو إليهم، ولا شبهة أنهم كلهم على هدى وبهم يقتدى، وما أحسن ما قاله العلاّمة أبو بكر الحنفي في نصيحته: واحذر يا أخي

كل الحذر من الابتداع في العقائد وإن سرك أن تكون على الهدى فاعرض جميع نياتك وأعمالك وأخلاقك على الكتاب والسنة، فخذ ما وافق ودع ما خالف، ولا تبتدع في الدين ولا تتبع غير سبيل المؤمنين. انتهى.

وأما أحوال القوم فقد سلمت بالتأويل من اللوم، وكلهم واحد ألا تراني كيف راعيت مقادير الأولياء، ملاحظًا سر قوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بني آدم﴾ [الإسراء: ٧٠] بتأويل ما نقل عن القطب الجيلي أنهُ قال: قدمي هذه على رقبة كل ولي لله وإن الأولياء خضعت رقابهم لقدمِهِ، حين قالها وكيف راعيت شأنهُ قدس سره، وقلت ولاح لي في معنى خضوع الأولياء، عند قول سيدنا الشيخ عبد القادر قدس سره هذه الكلمة إن صحت، على ما رواه صاحب البهجة القادرية ومن نقل عنهُ أنهُ لا يفيد علو مرتبة الشيخ على رجال عصره أبدًا، لأن الخضوع كما نقل الشعراني فيما تقدم في حكاية ابن أبي جمرة، خضوع لمن ألبس الخلعة لا لمن لبسها، لأن الجبل الذي تجلّى الله لهُ، لا يكون عند الله أكرم من موسى عليهِ السلام، بل موسى عليهِ السلام أكرم عند الله بلا شك، ومع ذلك لما نظر إلى الجبل بعد تجلي الله لهُ، خرَّ موسى صعقًا لهيئة المتجلي لا لهيبة الجبل، ومثل ذلك نقلهُ العارف الشعراني في اليواقيت والجواهر، فحينئذ خضوع الأولياء على ما قيل من هذا القبيل، ألا ترى أن الشيخ الأكبر قدس سره، والشعراني وغيرهما قالوا: بأن الشيخ أبا السعود ابن أبي الشبل تلميذ الإمام العارف الجيلاني، أكمل منهُ وأتم حالاً، وهذا أعظم دليل على ما قلناه، وإنا نرى الأدب مع كل الأولياء في هذا الباب، أفضل من الأدب مع الشيخ الجيلي أو الشاذلي وحده قدس سرهما، وهذا الذي يرضاه القوم في الطريق رضي الله عنهم، فإن قيل ومن الأدب قولك بخضوعهم للواحد لأنهم خضعوا لهُ كلهم، فالجواب لم يثبت ذلك عنهم ولم تصل إلينا روايته بطريقة موفرة الشروط، بل لم نر هذه القصة في كتب السهروردية والأحمدية والهوازنية وغيرهم من طوائف الصوفية، مع أنهم قوم طهرهم الله من الحسد والإنكار، فمن ثم ألزمنا الأدب التأويلَ وألزمنا الشرعُ الأدب مع نوع الأولياء رضي الله عنهم، وهذا اللازم فافهم فإن مَن لم يتأدب مع النوع لا يتأدب مع الواحد وقد سبق لك، والحمد لله ما أبرزتهُ من الأدب في تأويل هذه الكلمة المنسوبة للحضرة القادرية بأن قصده قدم الاتباع وهو الصحيح الذي ينظم شمل هذه الكلمة، ويؤيد ذلك ما ذكره الهمداني رحمهُ الله في البهجة القادرية بما نصهُ وبإسناده إلى الشيخ القدوة شهاب الدين أبي حفص عمر بن محمد بن عبد الله السهرودي، قال: سمعت الشيخ عبد القادر يقول على الكرسي ببغداد كل ولي على قدم نبي، وأنا على قدم جدي رسول الله ﷺ وما رفع المصطفى ﷺ قدمًا، إلا وضعت قدمي في الموضع الذي رفع قدمهُ، إلا أن يكون قدم من أقدام النبوة فإنهُ لا سبيل إلى أن ينالهُ

غير نبي. انتهى بحروفهِ. ومن هذا ظهر لك أن القدم الاتباع بالأقوال والأفعال لا قدم الرجل، فإنهُ لو صرفناه لهذا المعنى للزم أن يطأ الشيخ قدس سره كل موطىء أرضي أو سماوي مسهُ قدم رسول الله ﷺ وهذا مستحيل، وحينئذ يقع التناقض في العبارة فتبين بالبداهة لكل ذي عقل أن القدم قدم اتباعه والتمسك الكامل بسنتهِ عليهِ الصلاة والسلام، وهذا أعظم المراتب وأجل المناصب وعليهِ كان الشيخ قدس الله سره، وإني أرى أن كلما ذكر في الفتوحات المكية وغيرها في شأن شطح الشيخ رضي الله عنهُ على الغالب كان في البداية، وأما الصولة التي عدها الشيخ محيي الدين وإضرابه شطحًا للشيخ قدس سره، فهي حالة تجليهِ وقوة مظهريتهِ ونتيجة صدقهِ مع ربهِ، وانظر ما قالهُ صاحب البهجة القادرية: من أن الشيخ حماد الدباس رضي الله عنهُ كان عنده الشيخ عبد القادر فتكلم الشيخ عبد القادر بكلام عظيم، فقال له الشيخ حماد: يا عبد القادر لقد تتكلم بعجب، أما تخاف أن يمكر الله بك فوضع الشيخ عبد القادر كفهُ على صدر الشيخ حماد وقال لهُ: انظر بعين قلبك ما في كفي مكتوبًا، فسهى الشيخ حماد سهوة ثم رفع الشيخ عبد القادر كفهُ عن صدر الشيخ حماد، فقال الشيخ حماد قرأت ما في كفهِ أنهُ أخذ من الله سبعين موثقًا أن لا يمكر بهِ، فقال الشيخ حماد لا بأس عليك بعدها لا بأس عليك، ذلك فضل الله يؤتيهِ مَن يشاء والله ذو الفضل العظيم. انتهى. ولقائل أن يقول كيف ذلك والصديق الأكبر رضي الله عنهُ يقول له أن رجلي اليمنى داخل باب الجنة واليسرى خارج الباب ما أمنت مكر الله، فالجواب أن الأمن الذي حصل للشيخ قدس سره، أمن طمأنينة شغلهِ بربهِ وأوقفهُ عند حدود الله، فطاب لحلاوة الطمأنينة، فظهرت عليهِ بهجتها مع التزام أحكام العبودية وملاحظة الأوامر الشرعية في كل قول وفعل يصدر منهُ رضي الله عنهُ.

قال في الفتوحات المكية من الباب السابع والتسعين والثلاثمائة ما نصهُ:

وقال ﷺ: «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه[1]»، هذا في تدبير هذا البيت، فما زال يحكم فيهِ بحكم الله إلى أن انقدح لهُ في سره أنهُ وإن حكم فيهِ بحكم الله، أنهُ إنما يحكم فيهِ الله بحكم الله مع ثبوت عينه عنده، فلما عاين ذلك أنف من الحصر في ظلمة هذا الهيكل، وطلب التنزيه عنهُ فوجد الله قد هيأ لهُ من عملهِ مركبًا ذلولاً غير جموح، برزخيًا دون البغل وفوق الحمار سماه براقًا، لأنهُ تولد من عالم الطبيعة كما يتولد البرق في عالم الجو، فأعطاه الله السرعة في السير فيضع حافره عند منتهى طرفهِ براكبه، فخرج

(١) الحديث أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (١٣٦/٣)، باب الترهيب من الإمعان في الشبع، ورواه الترمذي وحسنه، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه.

مهاجرًا من مدينة جسمه وأخذ في ملكوت الملاء الأعلى وآياته، لما تعطيهِ الآيات من العلم بالله فتلقاه الحق عند وروده عليهِ من أكوانهِ والأكوان الموجودات، فأنزله عنده خير منزل وعرفه بما لم يكن قبل ذلك يعرفه معرفة خطاب إلٰهي، وشهود مشيئة من أجل المناسبة حتى لا يفجئه الأمر بغتة فيهلك عند ذلك، كما صعق موسى عليه السلام. فإنه تعالى ما يتجلى إلا في صورة محمدية فيراه رؤية محمدية وهي أكمل رؤية يرى فيها الحق، وبها يرفعه منزلاً لا ينالهُ إلا المحمديون وهو منزل الهوية فلا يزال في الغيب هذا مشهده، فلا يرى لهُ أثر في الحس وهذا كان مشهد أبي السعود ابن الشبلي ببغداد من أخص أصحاب عبد القادر الجيلي، فإذا كان صاحب هذا الشهود غير صاحب هوية؛ بل يشهده في الملكوت مليكًا، وكل مشاهد لا بد أن يلبس صورة مشهوده فيظهر صاحب هذا الشهود بصورة الملك، فيظهر بالاسم الظاهر في عالم الكون بالتأثير والتصريف والحكم والدعوى العريضة والقوة الإلٰهية، كعبد القادر الجيلي وكأبي العباس البستي بمراكش، لقيتهُ وفاوضتهُ وكان شياعي[1] الميزان أعطي ميزان الجود، وعبد القادر أعطي الصولة والهمة فكان أتم من البستي في شغله، وأصحاب هذا المقام على قسمين: منهم مَن يحفظ عليهِ أدب اللسان كأبي يزيد البسطامي وسليمان الدبيلي، ومنهم مَن تغلب عليهِ الشطحات لتحققهِ بالحق، كعبد القادر فيظهر العلو على أمثالهِ وأشكالهِ وعلى مَن هو أعلى منهُ في مقامهِ، وهذا عندهم في الطريق سوء أدب بالنظر إلى المحفوظ فيهِ، وأما الذي يشطح بالله على الله فذلك أكثر أدب مع الله من الذي يشطح على أمثاله، فإن الله يقبل الشطح عليهِ لقبولهِ جميع الصور، والمخلوق لا يقبل الشطح عليهِ لأنهُ مربوط بمقام إلٰهي عند الله، مجهول من الوجه الخاص، فالشاطح عليهِ قد يكذب من غير قصد ولا تعمد، وعلى الله فما يكذب كالهيولى الكل التي تقبل كل صورة في العالم، فأي صورة نسبتها إليها أو أظهرتها صدقت في النسبة إليها وصدق الظهور، فإن الصور تظهرها والهيولي الصناعية لا تقبل ذلك، وإنما تقبل الصور المخصوصة فقد يمكن أن يجهل إنسان في النسبة إليها فينسب إليها صورًا مخصوصة لا تقبلها الهيولي الصناعية، هكذا هو الأمر فيما ذكرناه من الشطح على الله والشطح على أهل الله أصحاب المنازل إلى آخر ما قال، نفعنا الله بهِ. ولا يخفى عليك أن ما ذكرناه في هذا الباب من كلمات القطب الجليل سيدنا الشيخ عبد القادر قدس سره، يؤيد ما قلتهُ من أن بعض الكلمات المنقولة عنهُ إن صحت فهي في بدايتهِ، وأما صولتهُ فهذه حالة تجليهِ وشأنهُ الذي وهبهُ الله لهُ ومنَّ بهِ عليهِ واختاره لهُ ولكل من القوم، مشرب وشأن فمنهم مَن غاب ومنهم مَن هاب ومنهم

---

(١) الشياع النداء والبوق يدعى به.

مَن طاب ومنهم مَن رفع لهُ الحجاب ومنهم مَن لذ لهُ السكر فشرب وطاب، ومنهم مَن لزم الباب بكل الآداب وتمكن من حال الصحاة بعد شرب الشراب، وهكذا هم لكل وجهة هو موليها، ألا ترى أن من الجماعة الشيخ الحلاج، قال: أنا الحق والآخر قال سبحاني ما أعظم شأني، والآخر قال ما في الجبة إلا الله، فهل لهذا الكلام من تأويل إلا برده اعتقادًا وتأويلهُ بما يوافق ظاهر الشرع تبرئة لعرض مَن نسب إليهم إن صح عنهم، وإذا لم يوافق التأويل الشرع فالحدود الشرعية تقام عليهم، ولا تأخذ مَن أقامها عليهم في دين الله لومة لائم، كيف لا وقد قال الحبيب الأعظم ﷺ: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[1] فما ثمَّ لنا إلا التمسك بظاهر الشرع والوقوف عند حدوده، وأن ندرأ الحدود بالشبهات، وهذا هو القصد من تأويل كلمات القوم رضي الله عنهم، وإذا بلغنا عن أحدهم كلمة لا تقبل التأويل ننكر صحة نسبتها إليهِ لعدم الأدلة الموفرة الشروط بنقلها عنهُ وهذا الصحيح.

فإذا تفكر العارف في سيرة القوم ومناقبهم وصحوهم وغيبتهم وأدبهم وتحملهم وحلمهم وتمكنهم وعلو قدمهم، وتفكر سيرة سيدنا السيد أحمد رضي الله عنه، وطابق كل حالة ومنزلة ومنقبة وكلمة وخلق لهُ بسيرة القوم رضي الله عنهم أجمعين، رأى أن الله مَنَّ عليه بأرفع منزلة وأجل قدم وأكرم خلق وأوسع صدر وأوضح حجة وأبلج مكانة وأتم تمكين، على أنهُ تخلق بأخلاق رسول الله ﷺ، واقتدى بهِ عليهِ السلام كل الاقتداء، فرفع الله ببركتهِ على يده أعلام الهدى رضي الله عنهُ وعن أخوانهِ أولياءِ الله أجمعين ونفعنا ببركتهم آمين.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم (٣/ ١٣١٥)، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف وغيره، حديث رقم: ٨. وأخرجه البخاري (٨/ ٢١)، كتاب الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع، حديث رقم: ٦٧٨٧.

الباب السادس

في بعض كلماتهِ الشريفة الجوهرية ومجالسهِ العطرة السنية وأجوبتهِ عن أسئلة وردت إليهِ رضوان الله تعالى عليه

قال رضي الله عنهُ للشيخ الإمام الكبير والسيد العارف الخبير، سيدي إبراهيم الأعزب قدس سره، حين ضربهُ عمهُ السيد عبد الرحيم قدس سره وجاءَ إليهِ وهو يبكي من ضربة عمهِ قدس سره: أي ولدي لا تبك ثم أدناه منه ومسح دموعهُ بيده، وقال لهُ: أي إبراهيم لا عليَّ ضرار ولا عليك ضرار، وحق العزيز سبحانهُ وتعالى قبض العزيز جل جلالهُ من نور وجههِ قبضة فخلق منها سيدنا المصطفى محمدًا ﷺ، فرشحت فخلقني منها وخلقك، لا عليَّ ضرار ولا عليك ضرار، أي لا عليَّ بأس ولا عليك بأس، وقال أيضًا رضي الله عنهُ للسيد إبراهيم الأعزب قدس سره: اعلم أني لما دعيت إلى هذا الأمر حملت إلى قبلة هذا البلد وشق صدري ملك من الملائكة المقربين، فأخرج منهُ شيئًا مظلمًا وغسلهُ بماءِ الحيوان من الرياء وسوء الخلق، وكل ما كان للشيطان فيهِ نصيب، كل ذلك وأنا أنظر بعيني كما فعل برسول الله ﷺ، وإلا فمن أين يكون لحميد طاقة على هذا الأمر. وقال رضي الله عنهُ لرجل قال لهُ أي سيدي هل يكون بعد هذا مثل هذا الجمع ومثل هذا القدم؟ فقال: نعم يكون ولكن قصير ما تشد إليهِ الرحال، وآخر الأمر يؤخذ منهُ سيف الولاية ويعلق في هذا الباب أبدًا، وقال رضي الله عنهُ قال الرب جلّ جلالهُ من دعي إلى ضيافة فليجب، ولا يلبس الثوب الرقيق. وقال رضي الله عنهُ: اتفق أئمة الهدى في الدين أن لا يتكلّفوا في لباسهم ليقتدي بهم الأغنياءُ ولا تنكسر قلوب الفقراء.

وقال رضي الله عنهُ من رق ثوبهُ رق إيمانهُ. وقال رضي الله عنهُ سمُّوا أولادكم أحمدًا ومحمدًا ومنصورًا، فإنهُ ليس في هذه الأسماء للشيطان نصيب. وقال رضي الله عنهُ: أنا اخترت الخدمة فكيف يكون للخادم خادم. وقال رضي الله عنهُ للشيخ يعقوب

حين قصد زياتهُ والتبرك بهِ من واسط أناس كثير، وهو يعجب من كثرة الجمع: أي يعقوب هذا لعب إبليس، يريد ثبور هذه النفس وكذلك ما يظن، ثم أخذ قبضة من تراب وقال: أي يعقوب من هو مخلوق من هذا من أين لهُ قدرة ولسان ينطق به، أي يعقوب إن قال لك قائل إن في مملكة الرحمٰن مخلوقًا هو أضعف من هذا اللاش حميد، فلا تصدقهُ. وقال رضي الله عنهُ أيش أنا ومن أنا وأيش قدري، أنا إن صلحت كنت ملاحًا في سفينة الشيخ منصور الرباني قدس سره. وقال رضي الله عنهُ في الكف عرق متصل بالقلب، إذا أخذ بهِ شيءٌ من الدنيا تسرى آفتها إلى القلب، وهذه آفة عظيمة مخفية لا يطلع عليها الخلائق.

قال رسول الله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[١]. وقال رضي الله عنهُ لأهل بيتهِ: بعدي يفتح الله عليكم، وقال رضي الله عنهُ وقد اجتمع الفقراءُ والمشايخ من كبار الجمع حولهُ وهو على الكرسي، بعد أن حمد الله وأثنى عليهِ وذكر النبي ﷺ وذكر أصحابهُ رضي الله عنهم وأثنى عليهم: أي فقراءُ إذا كان يوم القيامة وحشر العالم في صعيد، وحكم الله بين خلقهِ بما علم وقسم الجنة وقسم النار، فتهب على أهل الجنة نفحة من روايح الأمر قبل دخولهم الجنة فيسكرون ما شاءَ الله، ثم يصحون فيقول لهم الحق سبحانهُ وتعالى وهو أعلم بهم: يا عبادي هل بقي عندكم من حزن الدنيا وخوفها ووصبها؟ فيقولون: لا يا ربنا، فيقول لهم ادخلوها بسلام آمنين، ثم إنهُ يرسل على أهل النار نفحة الغضب قبل دخول النار، فيسكرون من شدة نتنها ولهبها وجيفتها، فيسألون هل بقي عندكم شيء من نعيم الدنيا ولذاتها التي شغلتكم عني؟ فيقولون: لا يا ربنا فيقول لهم ادخلوا النار لا يخفف عنهم العذاب، وقال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة وحكم الله بين خلقهِ فتفرق أهل الجنة فرقة وأهل النار فرقة، فأما أهل الجنة فتهب عليهم ريح من تحت العرش فتمر على كثبان المسك فتنثرها عليهم فتسكرهم، ثم ينادي لهم منادي من قبل الرحمٰن هذه الجنة فادخلوها بسلام آمنين، فيدخلون وينعمون، وأما فرقة أهل النار فإن جهنم تزفر عليهم زفرة وتنفس عليهم نفسًا فيصيبهم ذلك الريح الخبيث النتن فيسكرهم بجيفته ونتنهِ، وينادي لهم منادي الغضب من قبل الحق عزّ وجلّ هذه جهنم التي كنتم بها تكذبون، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فيدخلون النار وهم صاغرون» ثم أنشد رضي الله عنهُ:

يا نوْم الليل في لذتهِ ... إن هذا النوم رهن بسهر

(١) الحديث أخرجه في كشف الخفاء (١/ ٣٤٢)، حرف الحاء، حديث رقم: ١٠٩٩، وأخرجه في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٥٧) باب الترهيب من شرب الخمر وبيعها، حديث رقم: ٢٦.

لـيـس يـنـسـاك وإن نـسـيـتـهُ طـالـع الـدهـر وتـصـريـف الـغـيـر
إن ذا الـدهـر سـريـع مـكـره إن عـلا حـط وإن أوفـى غـدر
أوثـق الـنـاس بـهِ فـي أمـنـه خـائـف يـقـرع أبـواب الـحـذر

وقال رضي الله عنهُ للشيخ يعقوب: وحق العزيز سبحانهُ وتعالى ما وجد أحد من الفقراء باطنًا ولا ظاهرًا أذى، إلا وجدت ألمهُ في قلبي، ولا هبّت ريح حارة على قسطنطين العليا إلا وجدت لهبها بين جنبي، وغدًا يطالبني العزيز سبحانهُ وتعالى بكل مَن تمسك بي ودعاني وأخذت عليهِ عهدًا مني ومن ذريتي، وقالِ رضي الله عنهُ لترجمان الحكمة سيدي إبراهيم الأعزب حين سألهُ: أي سيدي هل لمخلوقات الله تعالى حد؟ أي إبراهيم استغفر الله مما خطر لك وتب إليه، أي إبراهيم كما ليس لذات العزيز سبحانهُ وتعالى حد ولا لصفاته حد ولا لكيفيتهِ حد، ليس لمخلوقاتهِ ولا لمملكتهِ حد ولا لعطاياه حد ولا لقدرتهِ حد ولا لأمره حد، أي إبراهيم ما هلك من هلك إلا بكاف الكيف. وقال رضي الله عنهُ من ليس لهُ شيخ فشيخهُ الشيطان، وإن المريد ينال من الله سبحانهُ وتعالى ببركة شيخهِ بقدر ما تأدب لهُ وحفظ الحرمة وراقب السر، وينبغي للمريد أن يعرف لشيخهِ الحق بعد وفاتهِ، كما كان يعرف لهُ الحق بحال حياتهِ، ويعلم أن السماع لهُ باطن غير هذا الظاهر، وأنهُ لا يصح إلا لأربابهِ وأدناه ذكر الصمت للحق فيهِ وأعلاه سيران الهمة إلى العزيز جلّ وعلا، وإن أرباب الطريق فيهِ متفاوتون، منهم أقوام لا يدركون حقيقتهُ، وإذا لم يعلموا ذلك يغرقون في جهلهم ويحملون على مركب الشرع الظاهر، إذا لم يكونوا من أهلهِ، وما هو إلا لأصحاب القلوب والنهضة والرغبة إلى جناب علام الغيوب، وإن الداخل فيهِ لا يخلو من ذكر الله ولا يلهو ولا يلغو، ولا يشتغل بغير معاملة سره ومعاينتهِ ومشاهدتهِ لتخويفهِ ورده عن الأدنى إلى الأعلى وجذبهِ إلى الآخرة وتأسفهِ على ما فات منهُ، إلا من استعمال الأشياء المقربة إلى الله سبحانهُ وتعالى ومن الأولياء والأتقياء، وقال رضي الله عنهُ إن للحق سبحانهُ وتعالى كلامًا لا يسمع من شيطان وإن صاحب الخطاب يستلذ بذلك، بسمعهِ كما يجد لذاذة معناه بقلبهِ وإن في الناس مَن يطلبهُ فيجده بقلبهِ وسره بعيدًا من الأوهام والتخيلات، حتى أنهُ يجد ذلك في النوم ومنهم مَن يشاهد آثاره في مجالس الذكر وفي المساجد الخالية وفي وقت قراءة القرآن ووقت التواجد في السماع ومشاهدة الآثار. وقال رضي الله عنهُ من أتم الرجال حالاً وقبولاً من إذا رفع القصة جاءه الجواب وقد اختلفوا أيضًا في ذلك فمنهم مَن يأتيهِ جواب إلهام ومنهم مَن يأتيهِ جواب اختصاص، ومن القوم من لهُ شهود يفهم منهُ المقصود، فيا طوبى لمن يكون لهُ هذا السر في الحقيقة مشهودًا. وقال رضي الله عنهُ: إن الولي الكامل في غالب أموره لا يعمل

عملاً إلا عن أذن سماوي، وإنهُ يبلغ إلى حال من ربهِ، أنهُ يعطي لله ويمنع لله ويغني لله ويفقر بالله ويمسك بالله ويطلق بالله، فإن مواهب الله تعالى لهم مختلفة على قدر قربهم منه، فمنهم مَن يكون لهُ حماية خمسين فرسخًا ومائة فرسخ وألف فرسخ، وكذلك تفاوتهم بالنظر ومنهم مَن يكون لهُ حماية كذا وكذا سنة، وكل ذلك بقدر معلوم وحد محدود، ولاية مقسومة وأرزاق مفهومة مكتوبة في اللوح المحفوظ، وقال رضي الله عنهُ، إن الحق سبحانهُ وتعالى يغار للولي فيقبل عليهِ وينظر إليهِ فيرحمهُ، وينظر إلى المسيء إليهِ فيعاقبهُ، وقد جاء في الخبر عن سيد البشر محمد ﷺ حاكيًا عن ربهِ: «من آذى لي وليًا فقد نازعني في ملكي وباء بغضبي وحق عليهِ سخطي، وحق غضبي على مَن أغضب مَن لم يجد لنفسهِ ناصرًا غيري».

وقال رضي الله عنهُ: إن ذرية الأولياء منظور إليهم بعين الرحمة في الغالب، وإن ذرية الظالم منظورة بعين الغضب والسخط في الغالب، إذا أراد بالله بعبده خيرًا أبغض إليهِ الدنيا وأهلها وحبب إليهِ الآخرة وأهلها، وقال رضي الله عنهُ للفقراء غلبكم طول الأمل فإنهُ يوجب تقليل العمل وتأخير التوبة. وقد روي أن أسامة بن زيد اشترى وليدة بمائة دينار إلى شهر، فقال رسول الله ﷺ: «ألا ترون إلى أسامة ،اشترى إلى شهر، إنهُ لطويل الأمل والذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلا وظننت أن جفنيَّ لا يلتقيان، حتى يقبض الله روحي ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعهُ حتى أقبض ولا لقمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أغتص بها» وقال رضي الله عنهُ عليكم بالإصلاح بين الناس، فقد روي عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال لي رسول الله ﷺ: «ألا أدلك على حسنة يحب الله موقعها قلت بلى بأبي أنت وأُمي يا رسول الله فقال: تصلح بين الناس، فإنها فضيلة يحب الله موقعها». وقال ﷺ: «ألا أخبركم بخير لكم من الصدقة والصيام قالوا: بلى قال: إصلاح ذات البين وإياكم والبغضة فإنها الحالقة»[1] وقال رضي الله عنهُ: إياكم والتحريش بين الناس والإفساد. وقال رضي الله عنهُ للفقراءِ: تفرغوا لشهر رمضان وقيام ليلهِ، عسى أنكم تظفرون في ليلة القدر فإنها جليلة القدر، وشدوا مئزر الحزم خصوصًا في العشر الأخير. عن عائشة رضي الله عنها وعن أبويها قالت: قلت يا رسول الله إذا أنا رأيت ليلة القدر فما أسأل الله سبحانهُ وتعالى فقال لها: «قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عنا»[2]. وقال رضي الله عنهُ قال سيدي الشيخ منصور الرباني قدس الله سره: ليلة القدر ليلة عظيمة ما يراها إلا

(١) الحديث أخرجه في كنز العمال (٣/٥٩) باب إصلاح ذات البين، حديث رقم: ٥٤٨٥.

(٢) الحديث أخرجه في كنز العمال عن عائشة (٢/ ١٩٥) فصل جوامع الأدعية الحديث رقم: ٣٧١٦.

أصحاب القبول والعناية، وأنشد رضي الله عنهُ:

وليلة وصل بات منجز وعده حبيبي فما بعدت طول مطالي
سقيت بها قلبًا أبلّ غليلهُ زمانًا فكانت ليلتي بليالي

وقال رضي الله تعالى عنهُ للفقراء: عليكم عند الإفطار من الصوم بالدعاء، الذي دعا بِهِ رسول الله ﷺ: اللهم لك صمت وبك آمنت وعليك توكلت وعلى رزقك أفطرت وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله. وقال رضي الله عنهُ للفقراء: وعليك بالإفطار على التمر فإن لم يوجد فعلى الماء، قال أنس رضي الله عنهُ: قال النبي ﷺ «مَن وجد تمرًا فليفطر ومَن لم يجد فعلى الماء فإنهُ طهور»[1] وقال رضي الله عنهُ أجد قلبي في ليالي رمضان بخلاف غيره من الشهور، وأنشد:

أراني إذا ما أظلم الليل أشرقت بقلبي من نار الغرام مصابيح
أصلي بذكراكم إذا كنت خاليًا إلا أن تذكار الأحبة تسبيح
يشح فؤادي أن يخامر سركم كذلك بعض الشح في المرء ممدوح

وقال رضي الله عنهُ للشيخ شمس الدين محمد قدس سره: أي محمد لا يصل المريد إلى مراده حتى يخرج عن نفسهِ ومألوفات حسهِ، ويترك جميع الشهوات المباحات وغيرها، ويصرفهُ الله في كون وجوده وعوالمهِ، وإذا صرفهُ في كون وجوده وعوالمهِ صرفهُ تعالى في الكون المطلق وإذا صرفهُ في الكون المطلق صار أمره بأمر الله تعالى، إذا قال للشيء كن فيكون، وإذا التفت إلى هذا النهر الجاري وقال لأسماكه: أجيبوا طائعين مطبوخين مشويين فيطلعون بإذن الله تعالى ويطيعونهُ ولا يخالفون أمره، قال عمر الفاروثي: أي سيدي هذا الرجل الذي ذكرتهُ لم يكن مخلوقًا بل يكون ربًا ثانيًا، فغضب رضي الله عنهُ غضبًا شديدًا وقال: تأدب يا عمر لا أفلح من كفر، وحاشا وكلاّ ثم حاشا وكلاّ أن يصل المخلوقات إلى مرتبة الربوبية؛ بل لله أسماء وصفات فإذا تخلق العبد بأسماء ربهِ وصفاتهِ، فينظر إليهِ الحق بعين قربهِ فيصير فعله فعل ربه عزّ وجلّ، وكان رضي الله عنهُ يقول: الكشف قوة جاذبة بخاصيتها نور عين البصيرة إلى فضاءِ الغيب، فيتصل نورها بهِ اتصال الشعاع بالزجاجة الصافية حال مقابلتها إلى فيضهِ، ثم يتصادف نوره منعكسًا بضوئهِ على صفاءِ القلب ثم يترقى ساطعًا إلى عالم العقل فيتصل بهِ اتصالاً

(١) أخرجه الترمذي عن أنس (٤/ ٤٠٢)، كتاب الصيام، باب ما يفطر عليه، حديث رقم: ٨١٣٠، وأخرجه ابن حبان عن سلمان بن عامر (٨/ ٢٨١) كتاب الصيام، باب ذكر الاستحباب للمرء أن يكون إفطاره على التمر. حديث رقم: ٣٥١٥.

بهِ، وكان يقول الصدقة أفضل العبادات البدنية والنوافل. وكان يقول أخوك الذي يحل لك أكل مالهِ بغير إذنهِ هو الذي تسكن نفسك إليهِ ويستريح قلبك به، وكان إذا رأى على فقير جبة صوف يقول لهُ: يا ولدي انظر بزي مَن تزييت وإلى مَن انتسبت قد لبست لبسة الأنبياء وتحليت بحلية الأتقياء، هذا زي العارفين فاسلك فيهِ مسالك المقربين وإلا فانزعه وكان يقول إذا صلح القلب صار مهبط الوحي والأسرار والأنوار والملائكة، وإذا فسد صار مهبط الظلم والشياطين. وكان يقول: إذا صلح القلب أخبرك بما وراءك وأمامك ونبهك عن أمور لم تكن لتعلمها بشيء دونهُ، وإذا فسد حدثك بباطلات يغيب عنها الرشد وينفي معها السعد. وكان يقول: مِن شرط الفقير أن يرى كل نَفَس مِن أنفاسهِ أعز من الكبريت الأحمر، فيودع كل نفس أعز ما يصلح لهُ، فلا يضيع لهُ نفسًا. وكان يقول: السفر للفقير يمزق دينهُ ويشتت شملهُ. وكان يقول لمن شاوره في التزوج، قال رسول الله ﷺ: «مَن تزوج لله كفي ووقي». وكان يقول مَن لم ينتفع بأفعالي لم ينتفع بأقوالي. وكان يقول الأمر أعظم مما تظنون وأصعب مما تتوهمون، وإنَّ كل أخ لا ينفع في الدنيا لا ينفع في الآخرة. وكان يقول: إذا تعلم أحدكم شيئًا من الخير فليعلمهُ الناس يثمر لهُ الخير. وكان يقول`طريقنا مبنية على ثلاثة أشياء: لا نسأل ولا نرد ولا ندخر، وكان يقول: من علامات المريد أن لا يتعب شيخهُ في تربيتهِ، بل يكون سميعًا مطيعًا للإشارة، وأن يفتخر شيخهُ بهِ بين الفقراء لا أنهُ يفتخر هو بشيخهِ. وكان يقول: الفقير إن غضب لنفسهِ تعب وإن سَلَّم الأمر لمولاه نصره من غير عشيرة ولا أهل. وكان يقول: ما من ليلة إلا وينزل فيها نثار[1] من السماءِ إلى الأرض يفرق على المستيقظين ويحرم النائمون. وكان يقول: ما لي خيرة إلا الوحدة فيا ليتني لم أعرف أحدًا ولم يعرفني أحد. وكان يقول: ما نظر أحد إلى الخلائق ووقف مع نظرهم في العبادات إلا سقط من عين الله تعالى. وكان يقول: من شرط الفقير أن لا يكون لهُ نظر في عيوب الناس. وكان يقول: إياكم وتعاطي أسباب الشهرة والفرح بالمحبين والمعتقدين، فكم طيرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس، وكم أذهبت من دين. وكان يقول: من تمشيخ عليكم فتلمذوا لهُ، فإن مدَّ يده لكم لتقبلوها فقبلوا رجلهُ، ومَن تقدم عليكم فقدموه وكونوا آخر شعرة في الذنب، فإن الضربة أول ما تقع في الرأس. وكان يقول: وعدني ربي أن لا أعبر عليهِ وعلى شيء من لحم الدنيا، قال يعقوب الخادم رضي الله عنهُ: ففني لحمه بأجمعهِ قبل خروجه من الدنيا، وكان يقول إن العبد إذا تمكن من الأحوال بلغ محل القرب من الله، وصارت

---

(١) ما ينثر في حفلات السرور من حلوى أو نقود، والنّثار والنّثارة ما تناثر من الشيء.

همتهُ خادمة السبع السمٰوات وصارت الأرضون كالخلخال برجلهِ، وصار صفة من صفات الحق جل وعلا، لا يعجزه شيءٌ وصار الحق يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، قال: ويدل لما قلناه ما ورد في بعض الكتب الإلٰهية يقول الله عزّ وجلّ: يا بني آدم أطيعوني أطعكم واختاروني أختركم وارضوا عني أرضى عنكم وأحبوني أحبكم وراقبوني أراقبكم وأجعلكم تقولون للشيء كن فيكون، يا بني آدم من حصلت لهُ حصل لهُ كل شيء ومَن فته فاتهُ كل شيء.

وكان يقول: إذا أراد الله عزّ وجلّ أن يرقي العبد إلى مقامات الرجل يكلّفه بأمر نفسهِ أولاً فإذا أدب نفسهُ واستقامت، كلّفهُ جيرانهُ وأهل محلتهِ فإن هو أحسن إليهم وداراهم، كلفهُ جهة من البلاد فإن هو داراهم وأحسن عشرتهم وأصلح سريرتهُ مع الله تعالى، كلّفهُ ما بين السماء والأرض، فإن بينهما خلقًا لا يعلمهم إلا الله تعالى، ثم لا يزال يرتقي من سماء إلى سماء حتى يصل إلى محل الغوث، ثم ترتفع صفتهُ إلى أن يصير صفة من صفات الحق تعالى، فيطلعهُ على غيبهِ حتى لا تنبت شجرة ولا تخضرّ ورقة إلا بنظره، ويتكلم هناك عن الله بكلام لا تسعهُ عقول الخلائق، لأنهُ بحر عميق غرق في ساحلهِ خلق كثير وذهب بهِ إيمان جماعة من العلماءِ، فضلاً عن غيرهم. وكان يقول لولده صالح: إن لم تعمل بعملي فلست لك أبًا ولا أنت لي ولدًا. وكان يبتدىءُ من لقيه بالسلام حتى الأنعام والكلاب، وكان إذا رأى خنزيرًا يقول لهُ أنعم صباحًا فقيل لهُ في ذلك، فقال: أعود نفسي الجميل، وكان يقول لا يحصل لعبد صفاءُ الصدر حتى لا يبقى في قلبهِ شيء من الخبث والبغض لأحد من المؤمنين، وهناك تأنس بهِ الطيور والوحوش ولا تنفر منهُ، وكان يقول إن القلب إذا انجلى من محبة الدنيا وشهواتها صار كالبلور وأخبر صاحبهُ بما مضى وبما هو آت من أحوال الناس، وإذا صدىء قلب الفقير حدثهُ بأباطيل يغيب معها رشد الرجل وعقلهُ، وكان يقول الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق وأقربها الذل والانكسار. وكان يقول الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق وأقربها وأوضحها وأيسرها وأصحّها وأرجاها وأحبها إلى الله تعالى الذل والانكسار والحيرة والافتقار، وكان يقول من طلب الطريق بنفسهِ تاه في أول قدم، فمن أريد بهِ الخير دل على الطريق، فطوبى لمن كان قصده ربهُ دون غرض من أغراض الكون. وكان يقول: المعرفة أن تعرف الله بكمال الربوبية وتعرف نفسك بنعوت العبودية، وتعلم أنهُ تعالى أول كلّ شيء وبهِ يقوم كلُّ شيء وبهِ يصير كلُّ شيء وعليهِ رزق كلّ شيء. وكان يقول إذا بدت الحقائق سقطت آثار العلوم والفهوم وبقي لها الرسم الجاري بمحل الأمر وسقط عنهُ حقائقها. وكان يقول عارف الحق لا يخلو ظاهره من بوائق الشرع وباطنه من نيران المحبة. وكان يقول: الشفقة على الأخوان مما يقرب إلى الرحمٰن. وكان يقول صحبة

الفقراء تزيد في اليقين وكان يقول ما سعد من سعد إلا بالاجتهاد ولا شقي من شقي إلا بالعناد. وكان يقول الصدق سلم العناية والتقوى بيت الهداية والتسليم عين الرعاية والإخلاص حسن الوقاية والانكسار لله هو الولاية. وكان يقول: الحكمة خوف الله والرباط التوكل على الله والتدبير التفويض إلى الله والتسليم العمل بسر: قل كل مَن عند الله. وكان يقول: القلب جوهرة مظلمة مغمورة بتراب الغفلة وجلاؤها الفكر ونورها الذكر، وصندوقها الصبر. وكان يقول: الذكر حفظ القلب من الوسواس وترك الميل إلى الناس والتخلي عن كل قياس وإدراك الوحدة بالكثرة وحسن ملاحظة المعنى. وكان يقول: حلقة الأخوان تحتاج لحركة روحية وحركة قلبية وحركة لسانية وحركة جثمانية، فالحركة الروحية ناشئة من الفكر، والحركة القلبية ناشئة من الذكر، والحركة اللسانية ناشئة من إظهار العبودية، فحركة الروح تحتاج لترك الوسواس، وحركة القلب تحتاج لحسن الإخلاص، وحركة اللسان تحتاج للتجرد عن الناس، وحركة الجسم تحتاج للأدب على أحسن قياس. فترك الوسواس يكون من ترك أكل الحرام. وحسن الإخلاص يكون من خوف الله، والتجرد عن الناس يكون من ذكر الموت، والأدب على أحسن قياس يكون من الندم على الماضي من الذنوب. وكان يقول: الفكر نور العقل والذكر نور القلب والإخلاص نور السر والتقوى نور الوجه. وكان رضي الله عنهُ يقول لولده صالح الأكبر قدس سره الأزهر: يا ولدي جمال القلب بالخوف وجمال العقل بالفكر، وجمال الروح بالشكر وجمال اللسان بالصمت، وجمال الوجه بالعبادة وجمال النية بترك الخواطر، وجمال الفواد بترك الحسد وجمال النفس بالمخالفة، وجمال السر بالصبر وجمال الحال بالاستقامة، وجمال السير بالتسليم وجمال الخدمة بالأدب، وجمال الكلام بالصدق وجمال الطريق بموافقة الشرع، وجمال الكل بتوفيق الله. وكان يقول لولده المذكور: يا صالح، الوصول باب والعناية مفتاح والسخاوة سلم والإخلاص قوة، فإذا أخلصت صعدت إلى السلم، وإذا صرت سخيًا وصلت إلى المفتاح وفتحت الباب بإذن الفتاح، يا ولدي بني الطريق على الصدق والإخلاص وحسن الخلق والكرم، يا ولدي الغنى بالعلم والزينة بالحلم، والكرامة والتقوى والعزة بمخالفة النفس، يا ولدي أكثر من الدعاء المأثور وملْ عن الطريق المشهور وتذلل للفقير المستور، وعد نفسك من أهل القبور، يا ولدي قل اللهم أغنني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملني بالعافية، يا ولدي التاج بالإبرة والحرير والتصدر بالقليل والكثير، والزاوية بالدراهم والدنانير والله بالإخلاص وترك التصدير، يا ولدي أكثر الناس في بيت الغفلة فلا تكن من الغافلين، يا ولدي إذا نظرت بعين البصيرة رأيت حقيقة فناءِ الكل، فإذا تحققت فناء الكل تركت الكل، يا ولدي إياك والظهور فالظهور يقصم الظهور، يا ولدي عملك خير لك من

نسبك، وأدبك خير لك من أبيك، وحسن خلقك خير لك من قبيلتك، وتوكلك على الله خير لك من مالك، وتفويضك إلى القدر خير لك من تدبيرك. وكان يقول لخليفتهِ عماد الدين الزنجي قدس سرهما: يا عماد الدين قف في باب الاستقامة واسكن في بيت المداومة والزم الصبر على العمل، فقد قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»[1]، يا عماد الدين من طرق الباب بالخضوع فتح لهُ بالقبول، ومَن دخل الرحاب بالانكسار جلس في بيت العزة. وكان يقول لبعض تلاميذه: يا ولدي عليك بملازمة الشرع بأمر الظاهر والباطن، ويحفظ القلب من نسيان ذكر الله وبخدمة الفقراء والغرباء، وبادر دائمًا بالسرعة للعمل الصالح من غير كسل ولا ملل، وقم في مرضاة الله تعالى، وقف في باب الله وعود نفسك القيام في الليل، وسلمها من الرياء في العمل وابكِ في خلواتك وجلواتك على ذنوبك الماضية، يا ولدي إن الدنيا خيال ما فيها زوال، يا ولدي همة أبناء الدنيا دنياهم وهمة أبناء الآخرة آخرتهم، وإياك والدعوى الكاذبة واترك الخوض في بحور التوحيد واجعل اعتقادك اعتقادًا ثبوتيًا لا يتغير، واشغل ذهنك عن الوساوس الشيطانية، وحذر نفسك من مصاحبة صديق السوء فإن عاقبة مصاحبتهِ الندامة والتأسف يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿ليتني لم أتخذ فلانًا خليلاً﴾ [الفرقان: ٢٨] وقال الله تعالى: ﴿يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين﴾ [الزخرف: ٣٨] فاحفظ نفسك من القرين السوء، لكيلا تخاطبهُ متأسفًا على مقارنتهِ بين يدي الله بهاتين الآيتين، وهناك ندامتك لا تنفع وكلامك لا يسمع، يا ولدي ما أكلتهُ تفنيه وما لبستهُ تبليه وما عملتهُ تلاقيه، والتوجه إلى الله حتمًا مقضيًا وفراق الأحبة وعدًا مأتيًا، والدنيا أولها ضعف وفتور وآخرها موت وقبور، لو بقي ساكنها ما خربت مساكنها، فاربط قلبك بالله وأعرض عن غير الله وسلم في جميع أحوالك لله، واجعل سلوكك في طريق الفقراء بالتواضع واستقم بالخدمة على قدم الشريعة، واحفظ نيتك من دنس الوسواس وأمسك القلب عن الميل إلى الناس وكل خبزًا يابسًا وماء مالحًا من باب الله، ولا تأكل لحمًا طريًا وعسلاً من باب غير الله، وتمسك بسبب لمعيشتك بطريق الشرع من كسب حلال، واترك الحيلة بالسبب وإياك من كسر خواطر الفقراء، وَصِلْ الرحم وأكرم الأقارب، واعف عمن ظلمك وتواضع لمن تكبّر عليك، ولا تتردد لأبواب الوزراء والحكام، وأكثر من زيارة الفقراء، وأكثر من زيارة القبور، ولين كلامك للخلق وكلمهم على قدر عقولهم، وحسن خلقك وامتزج الناس بحسن

---

(١) الحديث أخرجه في كشف الخفاء (١/ ٥٢)، حرف الألف، حديث رقم ١٤٢. وأخرجه الشيخان عن عائشة.

المزاج، وأعرض عن الجاهلين وقم بقضاء حوائج اليتامى وأكرمهم وأكثر التردد لزيارة المتروكين من الفقراء، وبادر بخدمة الأرامل وارحم ترحم وكن مع الله ترى الله معك، واجعل الإخلاص رفيقك في سائر الأقوال والأفعال، واجتهد بهداية الخلق لطريق الحق، ولا ترغب للكرامات وخوارق العادات، فإن الأولياء يستترون من الكرامات كما تستتر المرأة من الحيض، ولازم باب الله ووجه قلبك لرسول الله واجعل الاستمداد من بابِهِ العالي بواسطة شيخك المرشد، وقم بخدمة شيخك بالإخلاص من غير طلب ولا أرب، واذهب معهُ بمسلك الأدب واحفظ غيبتهُ وتقيد بخدمتِهِ وأكثر الخدمة في منزله، وأقلل الكلام في حضرتِهِ وانظر لهُ بنظر التعظيم والوقار، لا نظر التصغير والاحتقار، وقم بنصيحة الأخوان وألف بين قلوبهم، وأصلح بين الناس واجمع الناس مهما استطعت على الله بطريقتك، ورغب الناس بالصدق للدخول في باب الفقر والسلوك بطريق القوم، وعمِّر قلبك بالذكر وجمل قالبك بالفكر، ونور نيتك بالإخلاص واستعن بالله، واصبر على مصائب الله وكن راضيًا من الله، وقل على كل حال: الحمد لله وأكثر الصلاة على رسول الله ﷺ، وإن تحركت نفسك بالشهوة أو بالكبر فصم تطوعًا لله، واعتصم بحبل الله واجلس في بيتك، ولا تكثر الخروج للأسواق ومواضع الفرج فمن ترك الفرج نال الفرج، وأكرم ضيفك وارحم أهلك وولدك وزوجتك وخادمك، واذكر الله في كل أمر واخلص لله بالسر والجهر، واعمل للآخرة عملاً حسنًا واجعل عملك في الدنيا عمل الآخرة، وقل الله، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون. هذه نصيحتي لك ولكل مَن سلك بطريقتي، ولأخواني ولجميع المسلمين والمحبين كثرهم الله وأستغفر الله العظيم من جميع الذنوب خفيها وجليها كبيرها وصغيرها، وتب إليه إنهُ هو التواب الرحيم يا ولدي.

قال سيد الأنام ﷺ: «ما أسر عبد سريرة إلا ألبسهُ الله رداءها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر»[١] يا ولدي، قال سيد الأنام عليهِ الصلاة والسلام: «إن الله يحب العبد التقي الغني الخفي»[٢] يا ولدي إن ملكت عقلاً حقيقيًا ما ملت إلى الدنيا وإن مالت لك، لأنها خائنة كذابة تضحك على أهلها، مَن مال عنها سلم منها ومَن مال إليها بُلي فيها، وفي الحديث: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»، فكما أن حبها رأس كل خطيئة فكذلك بغضها

(١) الحديث أخرجه في مجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٥)، كتاب الزهد، باب في مَن أسر سريرة حسنة أو غيرها.

(٢) الحديث أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب عن عامر بن سعيد (٣/ ٤٣٩)، باب الترغيب في العزلة لمن لا يأمن على نفسه عند الاختلاط، حديث رقم: ١. وأخرجه في كنز العمال عن سعد بن أبي وقاص (٣/ ٨٩) باب البذاذة والتقشف، حديث رقم: ٥٦٣٠.

والإعراض عنها رأس كل حسنة، هي كالحية لين لمسها قاتل سمها، لذاتها سريعة الزوال وأيامها تمضي كالخيال، فاشغل نفسك فيها بتقوى الله ولا تغفل عن ذكره تعالى ذرة واحدة، وإن طرقك طارق الغفلة فاستغفر الله وارجع لباب الملاحظة، واذكر الله واستح منهُ وراقبهُ في الخلوات والجلوات واحمده واشكره على الفقر والغنى، واترك الأغيار فما في الدار غيره دَيّار، وكن صوفيًا صافيًا ولا تكن صوفيًا منافقًا فتهلك، يا ولدي التصوف الإعراض عن غير الله وعدم شغل الفكر بذات الله، والتوكل على الله وإلقاء زمام الحال في باب التفويض، وانتظار فتح باب الكرم والاعتماد على فضل الله والخوف من الله في كل الأوقات، وحسن الظن بهِ في جميع الحالات، يا ولدي إذا تعلمت علمًا وسمعت نقلاً حسنًا فاعمل بهِ ولا تكن من الذين يعلمون ولا يعملون، يا ولدي نجاة العالم عملهُ بعلمهِ وهلاكهُ ترك العمل، ففي الحديث: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعهُ الله بعلمهِ»[1] فلا تضيع أوقاتك باللهو والطرب وسماع الآلات وكلمات المضحكين، واترك الفرح فإن الفرح في الدنيا جنون، والحزن فيها عقل وكمال الخلود فيها محال والانكباب عليها جهل وضلال، اجعل فكرك يا ولدي مشغولاً بمن سلف قبلك من الأنبياء والمرسلين والجبابرة والسلاطين، ماتوا وكأنهم ما كانوا، هم السابقون ونحن اللاحقون، فسر على منهج الصالحين لتحشر في زمرتهم ولتكون من فرقتهم ﴿أولئك حزب الله إن حزب الله هم المفلحون﴾ [المجادلة: ٢٢] وقد طلب حضرة مولانا السيد محمد صالح قدس سره من جانب سيدنا والده المذكور، أن يريهُ ليلة القدر فقال له: يا ولدي لو جليت مرآة بصيرتك بجلاءِ الفكر الحقيقي، لكان كل وقت من أوقاتك كليلة القدر. وقال كذلك قدس سره لأخوانهِ في محفل: سر الحقيقة ظاهر وعلم المعرفة منصوب وباب الوصول مفتوح، حجبكم عن رؤية هذه المعاني الشريفة حب الدنيا ونسيان الموت، فالعجب ممن يعلم أنه يموت كيف ينسى الموت والعجب ممن يعلم أنه مفارق الدنيا كيف ينكب عليها ويقطع أيامه، بمحبتها والعجب ممن يعلم أنهُ راجع إلى الله كيف ينحرف عنهُ ويلتفت لغيره، والله غفلتكم هذه خطب جسيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، بالكذب تنشرحون وفي بساتين الجهل تسرحون، وبأمر الرزق تحتالون ومن العذاب تأمنون، وكأنكم ما قرأتم ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون: ١١٥] أو كأنكم ما سمعتم ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون

---

(١) أخرجه الزبيدي في إتحاف السادة المتقين (١/ ٣٣٤)، وابن حجر في لسان الميزان، حديث رقم: ٤٠٦٤. وأخرجه في كنز العمال عن أبي هريرة (١٠/٢٠٨) حديث رقم: ٢٩٠٩٩، باب آفات العلم ومَن لم يعمل به.

ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون﴾ [الذاريات: ٥٦ ـ ٥٧] تكفل برزقكم فبحيلته اشتغلتم، ولم يتكفل لأحد بالجنة، ويعمل المبشرين بها عملتم، ضيعتم الأوقات باللهو والنسيان، وقطعتم الأيام بالغفلة والعصيان، مزاحكم مزاح من أمن الندامة ولهوكم لهو من لم يسمع يوم القيامة، كأنكم للقبور لا تنظرون وبمن سكنها لا تعتبرون أين آباءكم أين أجدادكم الذين مضوا من قبلكم أين من جمعوا مالاً أكثر منكم وحملوا جهلاً أزيد من جهلكم؟ أبالله كفرتم أم على الله استكبرتم، أخواني من عرف نفسهُ بالفناءِ وعرف الله بالبقاء أمال نفسه عن الدنيا، قال تعالى: ﴿وأما مَن خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١] خاطبَ حبيبهُ معدن جوهر سره المكنون: «بأنك ميت وإنهم ميتون» فاجمعوا همتكم على الوصول لمراتب السلف، لكيلا تدخلوا تحت قولهِ تعالى: ﴿فخلف من بعدهم خلف﴾ [مريم: ٥٩] واقرعوا باب الكريم بيد الفقر والاضطرار وادخلوا عليهِ تعالى من باب الذل والانكسار، فلا بد والله من نقلتي وإياكم لدار الآخرة ولا بد من وضعي وإياكم في القبور الداثرة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ومَن يعمل مثقال ذرة شرًا يره﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨] فالناجي من عامل الله بتقواه وكان في الحياة يخشاه، أخواني أصعب الأشياء مفارقة الأحباء ومقارنة الأعداء، وأحلاها مفارقة الأعداء ومقارنة الأحباء، ففارقوا أعمال السوء لتقارنوا أعمالكم الصالحة في قبوركم، فوالله لم يقارن المرءُ من أصحابهِ تحت طي لحده إلا عملهُ الصالح، أخواني إن غركم لباس الحكام والأعيان وزينتهم وسلاحهم وضاقت صدوركم بهذا، فاذهبوا إلى المقابر وانظروا آباءكم وآباءهم تجدون الكل في التراب، والله أعلم بمن هو في النعيم وبمن هو في العذاب، فأنتم كذلك مع هؤلاء تتساوون ﴿وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ [الشعراء: ٢٢٧] يا ولدي إياك من الاشتغال بما لا يعنيك من الكلام والأعمال وغيرها وارجع بنفسك عن طريق الغفلة، وادخل من باب اليقظة وقف بميدان الذل والانكسار، واخرج من مقام العظمة والاستكبار، فإنك من مضغة ابتدائك وجيفة انتهائك، فقف بين الابتداء والانتهاء بما يليق لمقامها، وإياك يا ولدي من الحسد فإن الحسد أم الخطايا لأن الشيطان لما حسد آدم تكبر عليهِ وأبى أن يسجد لهُ، وكذب عليهِ حين حلف لهُ ولحواء ﴿إني لكما لمن الناصحين﴾ [الأعراف: ٢١] فطرد من رحمة الله تعالى، فالكذب والكبر والحسد سبب لطرد العبد من باب الرب، فلا تعود نفسك على هذه الخصال قطعًا واقطع نفسك إلى الله واعلم بأن الرزق مقسوم فإذا تحققت ذلك ما تكبرت، واعلم بأنك محاسب فإذا تحققت ذلك ما كذبت، واغضض طرفك عن النظر إلى أعراض الناس، فضلاً عن العمل الرديء فإنك كما تدين تدان، وكما أن لك عينًا فلغيرك عيون، وكما أنت يولى عليك، وأمسك لسانك عن مذمة الخلق فإن للخلق ألسنًا، نظرك

فيك يكفيك، وكما تقول بالناس يقولون فيك، وحاسب نفسك في كل يوم، واستغفر الله كثيرًا وكن طبيب نفسك ومرشدها، ولا تغفل عن حساب نفسك وإياك من الاشتغال بحظ النفس، وكان رضي الله عنهُ يقول للفقراء اطلبوا من الله الإعانة على نفوسكم حتى تغلبوها ويظفركم عليها. وكان رضي الله عنهُ يقول: يا فقراء تقيدوا بأشغالكم حتى تشتغلوا عن الخلق وأحوالهم، ولكن اشتغلوا بما يكون لكم فيهِ الفائدة الدنيوية والأخروية. وكان رضي الله عنهُ يأمر الفقراء بقيام الليل ومداومة خدمة الوالدين وتعظيمهم وإجلالهم، وكان رضي الله عنهُ يقول إن قدرتم أعطوا الصدقة فإنها تبرد النار وتزيل غضب الله والإحسان للوالدين وبرّهم يهوّن سكرات الموت. وكان يقول: معاملة عباد الله بالإحسان توصل إلى الله. وكان رضي الله عنهُ يأمر بالمداومة على الصلاة على رسول الله ﷺ ويقول: إن الصلاة عليه تسهل المرور على الصراط وتجعل الدعاء مستجابًا. وقال رضي الله عنهُ إن الفقير كالمرآة فكل شيءٍ ينظره يراه في وجوده من أمور الدنيا مرتسمًا، وإذا اختلط بالخلق ورأى ما في أيديهم وملابسهم صدأت مرآتهُ، فلا ينبغي لهُ أن يخطر ببالهِ شيءٌ من أمور الدنيا، وكلما حفظ الفقير نفسه من ذلك، انكشفت مرآته وانجلت وظهرَ فيها المغيبات وارتسمت. وقال رضي الله عنهُ نَفَس الفقير مثل الكبريت فحقهُ إذا اهتم بأمر فيهِ نفع أن يتعلق بهِ بسرعة ليكون، ولا يؤخره فإن التأخير لهُ آفات. وقال رضي الله عنهُ يجب على الفقير أن يقطع لسانهُ عن غير الحق، وإذا أراد أن يتكلم بكلام فلازم عليهِ أن يعرف ما يترتب عليهِ وما ينتجه، وإذا أراد أن يسكت فلا يسكت إلا عن حسن سكوت وحلم، وإذا سئل الفقير سؤالاً فينبغي أن لا يعجل بالجواب، وإذا أجاب فيكون جوابهُ عن تأمل وتفكر، وعلى الفقير أنهُ إذا رأى مَن هو أعرف منهُ يستفيد منهُ ويحذر من الكلام معهُ في الخطاء والزلل والغلط والشيء الذي لا يعرفهُ، لا يذكره ولا يتفوّه به. وقال رضي الله عنهُ الشيخ هو الذي يحضر مع مريده ويلاحظهُ في أربعة مواضع: الأول: حين النزع وخروج الروح من الجسد، الثاني: عند سؤال الملكين منكر ونكير لهُ في القبر، الثالث: عند العبور على الصراط والمرور بهِ، الرابع: عند وزن أعمالهِ بالميزان. وقال رضي الله عنهُ الصلاة على ثلاثة أقسام: صلاة تقبل بصلاة واحدة، وصلاة تقبل بصلاتين، وصلاة مردودة على فاعلها فلا تقبل بواحدة ولا باثنتين، فأما التي تقبل بواحدة فهي صلاة الذي يرفع رأسهُ مع رفع إمامه رأسه ويسجد مع سجوده، وأما الصلاة التي بصلاتين فهي صلاة مَن يرفع بعد رفع الإمام ويسجد بعد سجوده، وأما القسم الثالث فهي صلاة مَن لا يفعل الصلاة الأولى ولا الثانية، وقال رضي الله عنهُ إذا كان لأحد داعية إلى شغل يفعلهُ فلا يفعل إلا ما فيهِ الخير، وما يوصلهُ إلى طريق الحق ويعود نفسهُ على الأعمال الحسنة والائتلاف بها، ولا يرى فعل خير ويقصر في إتيانهِ وفعلهِ، ولا يقول لنفسهِ غدًا بعد

موتك يفعل لأجلك الخيرات والحسنات فتنفعك، فهيهات! فإنهُ لا ينفع المرء إلا ما قدّمت يداه، ولو كان ما وَرَّثَ المرء لأهلهِ مثل الجبال، ومما ينبغي أن يجعل المرء نفسهُ قائلاً بقول النصائح والمواعظ ويكون ملتبسًا بأفعال المعروف ممتثلاً للأوامر مجتنبًا للنواهي واقفًا مع الحق وطريق الشرع، حتى إذا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر قبل منهُ وامتثل لهُ، وكان لأمره تأثير في نفس المأمور ولنهيهِ. وإلا فلا يقبل منهُ ذلك ولا يسمع ما يقول وكان من العظيم عليهِ قولهُ تعالى: ﴿لِمَ تقولون ما لا تفعلون كبر مقتًا عند الله﴾ [الصف: ٢، ٣] ولهذا كانت قلوب الصالحين مهبط الوحي وأنوار الإلـٰهية وكانت تطلع على المغيبات، وإن لم يكن القلب منورًا بنور العبادة والطاعة وأفعال الخيرات، كان مهبط الشيطان ويلقي صاحبهُ في ظلم الباطل ويجره إلى الشقاق، فنعوذ بالله من ذلك. وقال رضي الله عنهُ الفقر والتصوف مبنيان على خصال متعددة: أن يتجرد، ويعلم الله علمًا يقينًا، ويقر لهُ بالوحدانية في أفعالهِ وصفاتهِ وذاتهِ، وأنهُ ليس كمثلهِ شيء، فإن من علم الحق بهذا العلم، خرج من باب العلم الظني ومن باب الوهوم والشكوك وخلع من عنقهِ ربقة التقليد، وأن يسلك طريق الإيثار، ومعنى الإيثار عندهم أن العبد إذا فعل حسنًا لا يشهد أن لهُ فيه اختيارًا ولا إرادة، حتى يشهد بذلك أنهُ يستوجب على الله ويستحق لهُ ثوابًا عليهِ، لأن العبد وفعلهُ كل ملك لمالك الممالك ومبدع الوجود، والعبد لا يستحق لهُ على سيده ومالكهِ مال، تعالى الله عن ذلك. وأن يكون في وقت السماع والوجد مجتهدًا فيهِ سابقًا غيره إليه، ليس بقلبهِ وخاطره غيره، ويكون قلبهُ حاضرًا في مقام الحضور والمراقبة والشهود، حتى ينكشف لهُ باب الكشف ويرتفع لهُ حجاب الحجب، وأن يكون في أكثر أوقاتهِ ساكنًا وأن يترك الاكتساب وادخار الذخيرة، وأن لا يسلك غير طريق الصدق فلا يجعل حركاته وسكناته إلا مبنية عليهِ، وأن لا يكثر الكلام خشية أن يقع في الخطأ والكذب، وأن يجتنب أكل الحرام، وأن لا يطلب ما ليس لهُ قدرة على أن يكون في يده ولا يلتفت إليهِ ويلتفت لما هو الأهم من أمور آخرتهِ ومعاده، وأن لا يحرص على ما هو في يده ويمسكه؛ بل يصرفهُ في استحقاقهِ ويبذلهُ، فإن المدبر الحق عزّ وجلّ، وأن لا يلتجيء في أموره ويعول على غير الله تعالى، وقال شرط الفقير أنهُ لا يعلق نظره بملبوسات الخلق وغيرها، فإنهُ إن علقهُ بذلك التبس عليهِ الأمر، وكلما اختلط الفقير بالخلق ظهرت عيوبهُ. وقال رضي الله عنهُ للشيخ يعقوب يوصيه: يا شيخ يعقوب لا تنظر إلى عيوب الخلق، فإن نظرت إلى عيوبهم أظهر الله فيك جميع العيوب وإن كان ما فيك عيب، يا شيخ يعقوب لا تنحرف عن الطريق المستقيم ولا تراع هوى النفس وشهواتها؛ بل راع التقوى وأنواع الطاعة وملازمة السنة والجماعة، يا شيخ يعقوب إذا جلست بالخلوة فاحذر الوسواس وصف

خواطرك من الكدورات والرعونات البشرية، وإذا صدر من أخيك ذنب أو عيب فاصفح الصفح الجميل واستر الستر الجليل، وعامل عباد الله بالصلاح والنصح والتقوى، وعظِّم أهل الخشوع والمراقبة ومَن كان لك عليهِ حق أو لهُ عليك حق فداره كي يعطيك حقك، أو إلى أن تعطيه حقهُ، بل إذا كان لك عند أحد حق فسامحهُ، يعطيك الله ويعوض عليك، وكن مع الخلق بالأدب فإن الأدب مع الخلق أدب مع المولى وقليل الأدب خير من عمل أو علم كثير، يا شيخ يعقوب من اللازم عليك ترك الدنيا ومخالفة النفس والحذر من الهوى والهوس، فإنهما أكبر أعدائك، وإنما ذكرت هذه الوصية لك لأنها موصلة إلى الحق وباعثة على معرفة طريقهِ، يا شيخ يعقوب: اعلم أن التوفيق في جميع الأحوال إنما هو من الله سبحانهُ وتعالى. وقال السيد الكبير رضي الله تعالى عنهُ لسيدي إبراهيم: يا إبراهيم كل مَن أراد أن يكون لك شيخًا فكن أنت مريدًا لهُ، وكل مَن تقدم عليك فقدمهُ وعظمهُ. وقال رضي الله تعالى عنه: يا إبراهيم إياك والتقرّب من أهل الدنيا فإن التقرب منهم يقسي القلب والتواضع لهم موجب لغضب الرب وتعظيمهم يزيد في الذنوب، وقد ورد في الحديث: «من تواضع لغني لغناه أذهب الله ثلثي دينهِ»[1] والتواضع لأهل الدنيا مذموم عند الله والناس. وقال رضي الله عنهُ يا إبراهيم اتخذ الفقراء أصحابًا وأحبابًا وعظمهم وكن مشغولاً بخدمتهم، وإذا جاء لك واحد منهم فانتصب لهُ على أقدامك وتذلل له، وإذا وقعت خدمتك معهم في حيز القبول فاسألهم الدعاء الصالح، لعلل تعمر لك عندهم منهم مقامًا في قلوبهم، لأن الفقراء في القيامة يعطون دولة الأنبياء. وقال رضي الله عنهُ: يا إبراهيم لا تنظر إلى الفقراء بعين الحقارة ولا تعبهم لأجل أفعالهم فإنهم إذا صدر منهم فعل يظنهُ الناس قبيحًا، فإنهُ عند الله مقبول. يا إبراهيم جاهد نفسك لكي تكون من الفقراء وكن شبيهًا بهم وفي صورتهم، فقد ورد في الحديث الشريف، قال رسول الله ﷺ: «مَن تشبه بقوم فهو منهم، ومَن أحب قومًا حشر معهم»[2] يا إبراهيم اجعل إرادتك الفقراء من صميم قلبك، واصرف مقدورك في خدمتهم وطلب رضاهم. وقال رضي الله عنهُ: لو عرف العالم كلهُ رب العالمين حق المعرفة مثل ما عرفهُ الفقراء، لانقطعوا عن معاش الدنيا وأحوالها بالكلية. وقال رضي الله عنه: إذ صرف أحدكم عمره كلهُ في العبادة والطاعة من غير غفلة عنها ساعة واحدة وترك وقتًا من أوقاتها من غير عبادة، كان كأن لم يكن يتعبد أبدًا ولم

(١) الحديث أخرجه في كشف الخفاء عن ابن مسعود (٢/٢٤١)، حرف الميم، حديث رقم: ٢٤٤٤.

(٢) الحديث أخرجه في مجمع الزوائد عن حذيفة بن اليمان (١٠/٢٧١) باب من تشبه بقوم فهو منهم، وأخرجه في كنز العمال عن ابن عمر (٩/١٠)، حديث رقم: ٢٤٩٧٩. وأخرجه الحاكم في المستدرك (٤/١٦٨) وقال صحيح ووافقه الذهبي.

تساو طاعات عمره عظيم جرم ذلك الترك. وقال رضي الله عنهُ العاقل الكامل هو الذي إذا طلب شيئًا طلبهُ بإذن الله ومشيئتهِ، ومن علامة الفقير أنهُ إذا أعطى شيئًا أعطاه لوجه الله ومرضاتهِ، لا لشيءٍ آخر غير ذلك. وقال رضي الله عنهُ: مقصودي أني لا أعرف أحدًا ولا أحد يعرفني، ومرادي أني أربط في عنقي حبل ليف وأدور بهِ من المدينة إلى المدينة، حتى ألحق نفسي بأهل السلامة. وقال رضي الله عنهُ: الفقير الذي هو من أهل الله علامتهُ أنهُ إذا سألهُ في شيء تقبل الله منهُ وأعطاه ما تمناه وسألهُ في سرعة، وقال رضي الله عنهُ إذا قال لك أحد أنا صعدت إلى السماء أو أنا أصعد إلى السماء فصدّقهُ ولا تنكر عليه ولا تكذبهُ، فإنهُ إن كان كاذبًا فكذبهُ عليهِ ولا يضرك منهُ شيءٌ، وإن كان صادقًا وكذبتهُ أو أنكرت عليهِ فالضرر حاصل لك أنت.

وقال رضي الله عنهُ من اللازم على الفقير أنهُ يتقيد بملابسة الكمالات وبتحصيلها في أي موضع حل بهِ وسار إليه، حتى أنهُ يصير في كل وقت في ازدياد من الكمالات، فقد ورد في الحديث الشريف قول رسول الله ﷺ: «مَن تساوى يوماه فهو مغبون» وقال السيد الكبير رضي الله عنهُ: لا تخالط أحدًا لأجل الدنيا ولا تعاملهُ، ولا تصاحب أحدًا من أهلها، كي لا يحصل لك من مجلسهِ وملازمتهِ نقصان، وقال رضي الله عنهُ إذا كنت تعرف علمًا منتفعًا بهِ فعلمهُ للناس حتى ينتفعوا بهِ ويظهر أثرك في الدنيا والآخرة، وقال رضي الله تعالى عنهُ العشق مصيدة الحق يصيد بهِ أهل الوفاء والوداد، وقال رضي الله عنهُ لا يكون أحقر وأرذل من عبد ليس بينهُ وبين عباد الله ألفة ومحبة، بل مثل هذا لا يكون بهِ نفع. وقال رضي الله عنهُ الإنسان الكامل هو الذي يكون مشتملاً على خصال حميدة، منها: أنهُ إذا عاشره إنسان صاحب خلق غير حسن يعود بعشرتهِ لهُ خلقه حسنًا، ومنها: أنهُ لا يمنعهُ مانع من الحق والتكلم بهِ وفعله مع أهلهِ، فإذا كان لمائة ألف من الآدميين حقوق عنده يقوم لكل واحد منهم بحقهِ ويوفيه لهُ، ويقضي حوائج الجميع ولا يتغافل عن أحد منهم ويسوف بهِ طرفة عين، ومنها: أن أحدًا لا يطلع على أحوالهِ ولا على أسراره، بل يخفي أمره ويتكتمهُ ويعرف الإنسان الكامل بقبول دعائهِ، وإذا اجتمع عنده الخلق الكثير الذي لا يحصى عددهم، ولكل حاجة وضمير يعرف حاجة كل وضميره من قبل أن يذكره لهُ، وإذا لم يعرف ضميره كلهُ فنصفه أو ثلثه أو ربعه ويعرف مقامه أيضًا عند الله. وقال رضي الله عنهُ: الإنسان الكامل هو الذي لا يتفكر في زمانهِ الماضي ولا المستقبل من حيث الرزق والمعاش بل يكون متوكلاً على الله معتمدًا في جميع أموره عليهِ تاركًا التنعمات الدنيوية والتلذذات النفسانية، معودًا نفسه على التعب والمشاق، ويعرف إنعام الله عليهِ على إقراره لهُ على الطاعات والعبادات، وإذا أعطى الله لهُ رزقًا فلا يبخل بهِ على خلقهِ وعباده الفقراء. وقال رضي الله تعالى عنهُ: لا يعجب أحد منكم بنفسه ويقول في

نفسهِ إن الذي أعطاه الله لي ما هو عند أحد ولا بلغهُ أحد غيره ولا يصل أحد إلى مكاشفتهِ ولا خصائله، فإن هذه دعوى منهُ ينكرها الشرع ومخالفة لهُ وهي كاذبة ولا يجوز الاعتماد على ذلك فإن ذلك غرور. وقال رضي الله عنهُ: إذا رأيتم شخصًا يضر الناس ويريد أن يتحملوا ضرره وأن يعتمدوا أقواله وأفعاله ويكون قدوة لهم ويحب ترددهم، فكونوا من مثل هذا الشخص على حذر، ولا تخالطوه كي لا يحصل لكم منهُ الضرر. وكان رضي الله عنهُ يقول: أنا تجارتي خدمة النساء الأرامل واليتامى، وأحب أن أشهد نفسي في خدمتهم دائمًا، وإذا رأيت يتيمًا يبكي تهتز مفاصلي وترتعد أعضائي، حنانة لهُ وشفقة عليهِ، وأخاف من بكائهِ. وقال رضي الله عنهُ: حق الفقير أن يكون قِبلة وإمامًا للناس يقتدون به، فلازم على الفقير أن تكون أقواله مطابقة للشرع الشريف المحمدي، حتى لا ينخرط في سلك من اتخذهم الناس رؤوساء جهالاً، فضلوا وأضلوا وكان رضي الله عنهُ يقول: من اللازم على الفقير إذا نزل بمحل ينفع وينتفع، وكان رضي الله تعالى عنهُ يقول: يحتاج الفقير إلى أشياء لا يسعهُ جهلها، أن يتعلم ربع العبادات فيعرف الوضوء وفرائضهُ وواجباته ومندوباته، وصلاة الجنازة وغسلها وأحوالها وشؤونها، ومن اللازم عليه أن يراقب الشيخ الذي يعمره في حالي الحياة الدنيا والممات، ويعتبره ويعرف حق الشيخ عليهِ، وأن يشفق على الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وأن يقول الكلام الحق، سواء كان مغضبًا أو غير مغضب فينهر بالغضب مَن يستحق النهر من أرباب الكبائر والصغائر، وإذا أحب أحدًا فلتكن محبة خالصة لوجه الله تعالى، ففي الحديث: «شوق الإيمان وعلامتهُ المحبة لعباد الله والألفة في الله» ويعطي الله لأوليائهِ ومحبيهم الفردوس الأعلى ولا يخافون يوم القيامة، فلا يحب الفقير أحدًا كما هو اللازم عليه لحاجة ولا مصلحة من عز أوجاه. وقال رضي الله عنهُ كل مَن ينظر للفقير والمسكين بعين الحقارة ويكسر خاطره، كان محاربًا لله تعالى، لأن الفقراء جيوش الله تعالى وعياله، وكل مَن حارب الله لا شك أن يكون من المغضوب عليهم من جانب الرب، ويكون مظهر الآية الكريمة وهي قوله تعالى: ﴿وباؤوا بغضب من الله﴾ [آل عمران: ١١٢] فنعوذ بالله من ذلك، وكان رضي الله عنهُ يقول اعشقوا واختاروا العزلة وانظروا ما يظهر لكم ويحصل من الفوائد الكثيرة، وكان رضي الله عنهُ يقول: تعلّموا العشق من الشمع فإن لونهُ أصفر وعينهُ ملآنة بالدموع وبدنه دائمًا في احتراق وانمحاق، واعلم أن العشق لهُ ثلاثة أحوال محمودة: الأكل القليل والنوم القليل والكلام القليل، فنتيجة الأول النوم القليل، ونتيجة الثاني العقل والفراسة، ونتيجة الثالث الحكمة.

وكان رضي الله عنهُ يقول إذا فعل الفقير عبادة جاء لهُ في مقابلتها من جانب الحق خلعة، فلو رآها وعلمها علم أنها خير من الدنيا وما فيها، وقال رضي الله عنهُ إذا أعطى الله عبدًا سعادة استمرت باقية إلى يوم القيامة بإذن الله تعالى. وقال رضي الله عنهُ: من الأدب اللازم على الفقير إذا ذهب لمكان أو دعي إليهِ ودخلهُ ووجد مكانًا خاليًا أنهُ يجلس فيه كائنًا ما كان ولا يتعداه، ولو كان بأطراف المجلس، لأن رسول الله ﷺ كان يجلس حيث انتهى بهِ المجلس، وليحذر الفقير من تخطي الرقاب لأنه أفحش شيء وعليهِ أن يمشي مع خلق الله تعالى بالأدب والحياء، فيعطيه الله بذلك المراتب الجليلة ويدخلهُ في رحمتهِ. وقال رضي الله عنهُ من اللازم على الفقير أنهُ إذا تكلم فلا يكون كلامهُ إلا مشربًا كلهُ بالحكمة والفوائد. وقال رضي الله عنهُ من علامة الفقير أن يكون مثل الماء الجاري، إذا صاحب شخصًا بهِ درن ونجس نظفه وطهره، قال تعالى عزّ وجلّ: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ [الأنبياء: ٣٠] والفقير الواصل يطهر جليسهُ من الرعونات النفسانية ومن الكدورات الشهوانية، وقد اصطفى الله تعالى الفقراء من بين خلقهِ فألبسهم خلعة القرب وحلاهم بحلية الحب، وأجلسهم في بابهِ فهم دائمًا معهُ وعنده لا يتوجهون إلى غير بابهِ، لأنهُ لا سيد ولا مولى ولا ملجأ إلا هو تعالى الله علوًا كبيرًا. وقال رضي الله عنهُ: إذا أراد الله سبحانهُ وتعالى أن يدخل عبدًا من عبيده في سلك أوليائهِ ينعم عليه بأمور أن يلهمهُ رعاية خلقهِ وأن لا يريهُ طريقًا إلا طريق الاستقامة، وأن يقدره على مصافحة الملائكة ويمكنهُ من ذلك، وأن يلهمهُ أن يقرأ سر كل مكتوب وإن كان أُميًا فإذا أنعم الرب بهذه الخصال الأربع على عبد من عبيده، كان ذلك العبد وليًا عارفًا وحينئذٍ فلا يبقى يتكلم إلا مع أهل التصرف، وإذا أحب اطلع على أهل العقاب والعقوبة وعلى أهل الإحسان والمثوبة إلى غير ذلك مما امتاز بهِ أهل الله وأوليائهِ عفا الله عنهم. وقال رضي الله عنهُ لسان الورَع يدعو إلى ترك الآفات ولسان التعبد يدعو إلى دوام الاجتهاد، ولسان المحبة يدعو إلى الذوبان والهيمان والمحو ولسان التوحيد يدعو إلى الاثبات والصحو، ومَن أعرض عن الإعراض أدبًا فهو الحكيم المتأدب. وقال رضي الله عنهُ: لو تكلم الرجل في الذات والصفات كان سكوتهُ أفضل ولو خطا من قاف إلى قاف كان جلوسهُ أفضل، ولو أكل ملء بيت طعامًا ثم تنفس عليهِ نفسًا فأحرقهُ كان جوعهُ أفضل، وقال رضي الله عنهُ: يا يعقوب كن ذنبًا ولا تكن رأسًا فإن الضربة أول ما تقع في الرأس، وإياك ورؤية نفسك على الفقراء والأخوان فمن رأى نفسهُ على الأخوان لا تقال لهُ عثرة ولا يساعده أحد، وانظر إلى النخلة لما رفعت رأسها وأشرفت على الجيران جعل الله ثقل حملها عليها ولو حملت مهما حملت لا يساعدها أحد، وانظر إلى شجرة اليقطين لما اتضعت وألقت خدها على الأرض، كيف جعل ثقل حملها على غيرها ولو حملت مهما

حملت لا تحس بهِ، وقال رضي الله عنهُ أفضل العبادات البدنية الصدقة. وقال رضي الله عنهُ: مَن كان سروره بغير الحق فسروره يورث الهموم، ومَن لم يكن في خدمة ربهِ فهو من السنة في راحة. وقال رضي الله عنهُ: علامة الأنس بالله الوحشة من جميع الخلق إلا الأولياء، فإن الأنس بهم أنس بهِ. وقال رضي الله عنهُ مَن توهم أن عملهُ يوصلهُ إلى مأمولهِ الأعلى فقد ضلّ طريقه. وقال رضي الله عنهُ: قرّب قلبك من مجالسة الذاكرين لعله ينتبه من غفلتهِ.

وقال رضي الله عنهُ أقرب الأشياء من المقت رؤية النفس وأحوالها وأعمالها، وأشد منهُ طلب العوض على العمل. وقال رضي اللهعنه: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات. وقال رضي الله عنه العبودية الوفاءُ بالوعد والحفظ للعهود والرضاءُ بالموجود والصبر على المفقود. وقال رضي الله عنهُ: علامة الأنس رفع الحجب بين القلوب وبين علام الغيوب. وقال رضي الله عنه المحبة أغصان تزرع في القلب فتثمر على قدر العقول. وقال رضي الله عنهُ للشيخ الأكبر الدوراقي قدس سره: يا أكبر اعلم أن المداح الذي يمدح بمجلس الفقراء بغير طمع وتوقع دنيا وقصده مجرد وجه الله تعالى، يكون له من الفقر سبعة قراريط[1]، لكن بشرط أن يكون مداحًا بالحقيقة لا مداحًا مجازًا، وحينئذٍ يتصرف في تلك الحصص المذكورة كيف شاء، واعلم أن لهذا الشرط في المعنى شروطًا: الأول أن يكون فقيرًا، الثاني أن يكون مؤدبًا ـ أي لمجمعهم ـ، الثالث أن يكون قوالاً ـ أي منشدهم الداخل ـ، الرابع أن يكون نديم مجلس الشيخ، الخامس أن يكون صاحب حال ووجد، السادس أن يكون أمين الخزائن السرية، أي أمينًا على الأسرار فلا يكون مبيحًا بالسر، السابع أن يكون شجاعًا أي فداويًا، كي يظفر على عدو الدين إذا وقع بهِ فيمحوه والمدَّاح في عسكر الفقراء كالطبل في عسكر الحرب، فكما أن طبل الحرب يحرك الفرسان على اقتحام نار الهيجاء، كذلك المداح يحرك عسكر الفقراء على الاهتمام بالذكر والولوج في حلقهِ ومجالسهِ، وكما أن الطبل يحصل به للعسكر رونق كذلك صوت المداح يحصل لمجلس ذكر الفقراء بهِ رونق، واعلم يا أخي أنهُ بقي من أقسام المداح اثنان، لكل واحد منهما نصيب واحد من الفقراء، الأول: مداح ملوث بطمعهِ في الدنيا، وهو الذي يكون مدحه لأجلها، الثاني: مداح أعطي وظيفة خدمة السفرة أعني السماط، يكون ميلهُ مع بعض الفقراء دون بعض فيعطي مَن يميل إليهِ نصيبًا من الآخر من الطعام، واعلم أن لكل فقير كان ملازمًا على ذكر كلمة التوحيد إذا سمع اسم الله تعالى يأتي بها دائمًا، مع تلبسهِ بالسماع والخشوع ومداومتهِ على الصلوات الخمس في أوقاتها من الأجر

---

(١) قراريط: جمع قيراط وهو معيار في الوزن وفي القياس.

المترتب على الفقر ثمانية عشر قيراطًا كاملة من غير زيادة ولا نقص، بل زائدة راجحة ويكون جميع أعمالهُ مقبولة عند سيده غير مردودة مثل ما يقبل الصراف الذهب الخالص الموزون الراجح، فإن الوجد والسماع شمع الطريقة والتوحيد والمعرفة شمع الحقيقة، وإن كل درويش كان مداومًا على تلاومة القرآن والصلاة في أوقاتها وممضيًا أفعالهُ على قواعد الشريعة المطهرة وكان متصفًا بالسماع والوجد في طريقة الفقراء، وسائرًا في جادة الطريق المحمدية ومستكملاً حقيقة التوحيد للذات العلية، يجوز لهُ أن يقرأ القرآن بغير العربية للعجز عنها، كما هو مذهب الإمام الأعظم، فيجوز لهُ أن يقرأ الفاتحة بالفارسية أو غيرها والشريعة من باب الظاهر ولذلك يكون في المسألة الواحدة أقوال عديدة كل منها يحمل الدليل على حسب ما ظهر لهُ، ونحن معشر الفقراء بابنا باب الباطن فلا نحكم بالظاهر إلا إذا وافق الباطن الظاهر لأن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم ونياتكم.

ونقل عن السيد الكبير رضي الله تعالى عنهُ أنهُ قال لمريديه وفقرائهِ يا إخواني اتبعوني واسمعوا نصائحي ترشدوا وهي: كونوا مواظبين على الصلاة المفروضة، وابعدوا عن الحرام، وراعوا الآداب على مقتضى آداب الخالق الرب، وامشوا على منهج الحق والطريق المستقيم، وتقيدوا بخدمة الفقراء إخوانكم والضيوف والغرباء والمساكين وعليكم بالآذان حسبةً فإن للمؤذنين درجةً عاليةً عند الله والمؤذنون أطول أعناقًا يوم القيامة، وقال رضي الله عنهُ: الزهد أول قدم القاصدين إلى الله تعالى فمن لم يحكم أساسه فيهِ لم يصح لهُ شيء مما بعده من المقامات، وقال رضي الله عنهُ: بلغت إلى مقام إن عصيت قلبي عصيت الله، وقال رضي الله عنهُ: من كان سروره بغير الحق فسروره يورث الهموم ومَن لم يكن في خدمة ربهِ فهو مِن أنسهِ في وحشةٍ، وقال رضي الله عنهُ: قرب قلبك من مجالسة الذاكرين لعلهُ ينتبه من غفلتهِ، وقال رضي الله عنهُ أقرب الأشياء من المقت رؤية النفس وأحوالها وأعمالها وأشد منه طلب العوض على العمل، وقال رضي الله عنهُ: أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات، وقال رضي الله عنهُ: المحبة أغصان تزرع في القلب فتثمر على قدر العقول، وقال رضي الله عنهُ: إذا كانت نفسك غير ناظرة لقلبها فأدبها بمجالسة الحكماء من أهل خاصتهِ، وقال رضي الله عنهُ: مَن لم يحسن رعاية نفسه أسرع إلى الهلاك، والخاسر الشقي المطرود المحروم، مَن أبدى للناس أحسن أعمالهِ وبارز بالقبيح مَن هو أقرب إليهِ من حبل الوريد، وقال رضي الله عنهُ: كل مَن ادعى ولم يقم الفقير من عنده غنيًا والغني فقيرًا فليس على شيء، وقال رضي الله عنهُ: لا تزن الخلق بميزانك وزن نفسك بميزان المؤمنين لتعلم فضلهم وإفلاسك، وقال رضي الله عنهُ: مَن ظن بأحد فتنةً فهو المفتون، وقال رضي الله عنهُ: استحسان الكون على

العموم دليلٌ على صحة المحبة واستحسانه على الخصوص يورث الظلمة، وقال رضي الله عنهُ: إذا تمكنت الأنوار في السر نطقت الجوارح بالبر، وقال رضي الله عنهُ أف لأشغال الدنيا إذا أقبلت وأف لحرارتها إذا أدبرت، والعاقل لا يركن إلى شيءٍ إذا أقبل كان شغلاً وإذا أدبر كان حسرة، وقال رضي الله عنهُ: الدعوى رعونة لا يحتمل القلب إمساكها فيلقيها إلى اللسان فينطق بها لسان الأحمق وقال رضي الله عنهُ: عجبت لمن لهُ طريق إلى ربه كيف يعيش مع غيره، وهو يقول: أنيبوا إلى ربكم، وقال رضي الله عنهُ: جليت الأرواح فهي تعلو أبدًا إلى محل الفرح وخلقت الأجساد من الأكماد فلا تزال ترجع إلى كمدها من طلب هذه الغاية والاهتمام بها ولها، وقال رضي الله عنهُ: مَن قال: الله أكبر وفي قلبهِ شيءٌ أكبر منهُ فقد كذب نفسه على لسانهِ، وقال رضي الله عنهُ: كن شريف الكلمة فإن الهمم تبلغ بالرجل مقام القرب والنجوى، وقال رضي الله عنهُ: لا يحصل لعبد مقام الصفاء حتى لا يبقى في قلبه خبث ولا بغض لمؤمن، وهناك يأنس بهِ الطير والوحش ولا يفر منهُ، وقال رضي الله عنهُ: ظلمة الطبع تمنع أنوار المشاهدة.

وقال رضي الله عنهُ: كم من مسرور سروره أبلاه، وكم من مغموم غمهُ نجاه وقال رضي الله عنهُ: مَن أراد أن يعرف قدر معرفته بالله فلينظر قدر هيبتهِ عنده وفي خدمتهِ، وقال رضي الله عنهُ: مَن قدر على إسقاط جاهه عند الخلق سهل عليهِ الإعراض عن الدنيا وأهلها، وقال رضي الله عنهُ: مَن أظهرِ محاسنه لمن لا يملك ضره ولا نفعهُ فقد أظهر جهلهُ، وقال رضي الله عنهُ: من ذل في نفسهِ رفع الله قدره ومَن عز فيها أذلهُ الله في أعين عباده، وقال رضي الله عنهُ: لا شيء أضر بالمريد من مسامحتهِ لنفسهِ في ركوب الرخص وقبول التأويلات، وقال رضي الله عنهُ: قربك منهُ بلزوم الموافقات وقربه منك بدوام التوفيق، وقال رضي الله عنهُ: الرجاء ارتياح القلب لرؤية كرم المرجو، والزهد سلو القلب عن الأسباب ونفض الأيدي من الآمال، وحقيقة التبري من الدنيا وجود الراحة في الخروج منها، والقناعة الاكتفاء بالبلغة وحقيقتها ترك التشوق إلى المفقود والاستغناء بالموجود، وقال رضي الله عنهُ: القلب هو محل الأنوار ومورد الفوائد من الجنان وبهِ يصح الاعتبار جعلهُ الله أميرًا فقال: إن في ذلك لذكرى لمن كان لهُ قلب ثم جعلهُ أسيرًا فقال: إن الله يحول بين المرء وقلبهِ، وقال رضي الله عنهُ: الدنيا ما دنا من القلب وشغلهُ عن الحق، وقال: ما حياة القلب إلا في إماتة النفس، وقال رضي الله عنهُ: الاستهانة بالأولياء من قلة المعرفة بالله، وقال رضي الله عنهُ إذا أوصلك إلى مقام ومنعك حرمة أهله والالتذاذ بما أوصلك إليهِ فأنت مغرور، وقال رضي الله عنهُ: ما استصغرت أحدًا إلا وجدت نقصًا في ديني ومعرفتي، وقال رضي الله عنهُ: رأس مالك قلبك ووقتك وقد

شغلت قلبك بهواجس الظنون وضيعت وقتك بما لا يعنيك فمتى يربح من ضيع رأس ماله، وقال رضي الله عنهُ: الطريق إلى الله صعب إلا على مَن دخله بوجد صادق غالب وبشوق مزعج فيهون عليهِ حمل الأثقال وركوب الأهوال، وقال رضي الله عنهُ: الشهوة أغلب سلطان على النفس فلا مزيل لها إلا خوف مزعج أو شوق مقلق، وقال رضي الله عنهُ: ثمرة التوحيد اليقين فمن صفا توحيده صفا يقينهُ، وقال رضي الله عنهُ: من أسكن نفسه شيئًا من محبة الدنيا فقد قتلها بسيف الطمع، وقال رضي الله عنهُ: مَن جدَّ وجد وبالاعتقاد يحصل علم الحقيقة وبالاجتهاد يتفق سلوك الطريقة. وكان رضي الله عنهُ إذا تحدث بحديث غريب لم يسمع من غيره يقول: أي فقراء اسمعوا مني وحدثوا ما على المستمع من درك إنما الدرك على مَن يقول ثم يقول: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديهِ رقيب عتيد﴾ [قَ: ١٨] وقال رضي الله عنهُ: أي فقراء قدرتهُ باهرة وأموره عجيبة لهُ سبحانهُ من مصنوعاتهِ ومخلوقاتهِ في السماء الرابعة بحر رمل يجري مثل جريان الريح العاصف بقدرة مَن خلق السمٰوات والأرض، لا يعلم طولهُ وعرضهُ إلا الله تعالى ولا يدري من أين يجيءُ وإلى أين يمشي إلا الله تعالى بكل ذرة منها دنيًا مثل دنياكم هذه، وما من ساعة تمضي في الليل والنهار إلا ولله تعالى فيها قيامة تقوم على قوم وميزان ينصب وصراط يمد وقوم يدخلون الجنة وقوم يدخلون النار، غير هذه التي ذكرت لنا وغير هذه الجنان الموعودة لنا إن شاء الله تعالى.

وقال رضي الله عنهُ: السفر يمزق الأديان، وقال رضي الله عنهُ: عوّدوا ألسنتكم الخير، وقال رضي الله عنهُ: مَن صبر قدر، وقال رضي الله عنهُ: خيانة الشريك تذهب البركة، وقال رضي الله عنهُ: المؤمن كلهُ رحمة أين كان، وقال رضي الله عنهُ: إمساك الموجود سر مشكل بالمعبود، وقال رضي الله عنهُ: الأدب سنة الفقراء وزين الأغنياء، وقال رضي الله عنهُ: الأنس بالخلق انقطاع عن الحق، وقال رضي الله عنهُ: خير الناس مَن ينفع الناس، وقال رضي الله عنهُ: كلوا الحلال كلوا متحزنين وابكوا، وقال رضي الله عنهُ: مَن لج وجدّ ولج ووجد، وقال رضي الله عنهُ: خدمة الفقير تزيد في صحة اليقين، وقال رضي الله عنهُ: طريق الحق لا يدرك إلا بالصبر، وقال رضي الله عنه: قدوة الباري تتجاوز مفهوم العقول، وقال رضي الله عنه: ليست النائحة الثكلى مثل النائحة المستأجرة، وقال رضي الله عنهُ: ما أحب أن يعرف إلا شقي، وقال رضي الله عنهُ: مَن اعتز بغير الله ذل، وقال رضي الله عنهُ: مَن تزوج لله كفى ووقى، وقال رضي الله عنهُ: مَن حرم اليقين حرم درجة المتقين، وقال رضي الله عنهُ: أكل الجماعة بركة وتنزل فيهِ الرحمة، وقال رضي الله عنهُ: الجار إلى أربعين بيتًا من كل جانب، وقال رضي الله عنهُ: الأمر أعظم مما يظنون وأصعب مما يتوهمون، وقال رضي الله عنهُ: سموا أولادكم

بأحمد ومحمد وعبد الله وعبد الرحمٰن، وقال رضي الله عنهُ: مَن أهان نفسهِ لله أعزه الله بالتقوى، وقال رضي الله عنهُ: من حقر فقيرًا لفقره وفاقتهِ حقره الله، وقال رضي الله عنهُ: مَن عرف الله حق معرفتهِ قطعهُ إليهِ بكليتهِ، وقال رضي الله عنهُ: من لم ينتفع بأفعالي كيف ينتفع بأقوالي، وقال رضي الله عنهُ: إذا رأيت يتيمًا يبكي تقلقل كل عضو مني، وقال رضي الله عنهُ: تدبروا القرآن المجيد فقد دلّكم على الأمر السديد، وقال رضي الله عنهُ: العاقل لا يشكو لا إلى قاض ولا إلى سلطان، وقال رضي الله عنهُ: إن نازعني أحد تركت منازعتهُ ومزاحمتهُ، وقال رضي الله عنهُ: ليس من التصوف أحبوني ولا أكرموني ولا زودوني، وقال رضي الله عنهُ: ما وقف على باب أحد من أهل الدنيا كامل المعرفة، وقال رضي الله عنهُ: ما ثبت عن فقير أخذ مال الفقراء، وقال رضي الله عنهُ: مَن عصى الله أطمع الله فيهِ الخلق، وقال رضي الله عنهُ: الوقت سيف إن قطعتهُ وإلا قطعك والسعيد لا يهمل وقتهُ، وقال رضي الله عنهُ: الإيمان والإسلام أن تنصف من نفسك وتؤدي الحق الذي عليك، وقال رضي الله عنهُ: كل أخ لا ينفع في الدنيا لا ينفع في الآخرة، وقال رضي الله عنهُ: ما أمرت بأمر دون ما فعلتهُ فلا حجة لكم عليَّ، وقال رضي الله عنهُ: مَن آذى فقيرًا أو مسكينًا لفقره ومسكنتهِ فقد حارب الله تعالى، وقال رضي الله عنهُ: وددت أن يكون في أم عبيدة حلقة للقرآن وحلقة للفقه، وقال رضي الله عنهُ: لا يجوز على الصراط مَن في ذمتهِ من الصداق قيراط، وقال رضي الله عنهُ: لا يعرف قدر نعمة الله إلا عبد أيد بالتوفيق، وقال رضي الله عنهُ: لا يكون الرجل رجلاً حتى يظهر أثر بركتهِ من بعده، وقال رضي الله عنهُ: إذا تعلم أحدكم شيئًا من الخير فليعلمهُ الناس يثمر لكم الخير، وقال رضي الله عنهُ: اقرأ القرآن بخوف ووجل ومهابة وذلة فرب قارىء القرآن والقرآن يلعنهُ، وقال رضي الله عنهُ: أقرب الطرق إلى الله تعالى التعظيم لأمر الله والشفقة على خلق الله، وقال رضي الله عنهُ: السماع عبادة عن قلب ورب فمن وجد ذلك وجد السماع، وقال رضي الله عنهُ: الصوم صون الجوارح وصون القلب عن كل مناف للحق، وقال رضي الله عنهُ: طريقتنا هذه مبنية على ثلاث: لا نسأل ولا ندّخر ولا نرد، وقال رضي الله عنهُ علامة الفقير الصادق جمع الهم والطرف وحضور القلب وسكون الجوارح، وقال رضي الله عنهُ: قلة الطعام وقلة الكلام وقلة المنام تورث الدخول إلى دار السلام، وقال رضي الله عنهُ: ولدي صالح إذا لم يعمل بعملي فليس مني ولا أنا منهُ.

وقال رضي الله عنهُ: المقبل مَن لا يتعب شيخهُ فيهِ ولا يكون شيخهُ يفتخر به بين القوم، وقال رضي الله عنهُ: مَن أتم الرجال قبولاً وحالاً من إذا رفع القصة جاء الجواب، وقال رضي الله عنهُ: من لم يرفع قضيتهُ إلى الله عزّ وجلّ عجز وضلّ عن

الطريق، وقال رضي الله عنهُ: هلاك الرجل نفسهُ وخلاصةُ خروجهُ عنها، فمن ملكتهُ ذل ومَن ملكها ساد، وقال رضي الله عنهُ: إذا أراد الله بعبدٍ خيرًا بغض عليهِ الدنيا وأهلها وحبب إليهِ الآخرة وأهلها، وقال رضي الله عنهُ: إذا رضي ربي فقد هانت عليَّ مصائبي، وإن أبعدني فقد عظمت عليَّ نوائبي، وقال رضي الله عنهُ: مَن فقد الميزان وأمن يخشى عليهِ أن يترك جمالهُ، وقال رضي الله عنهُ: أقدر أن أرضي كل عدو لي إلا حاسد نعمة الله فإنهُ لا يرضى إلا بزوالها، وقال رضي الله عنهُ: التوبة أن لا يرجع إلى الذنب كما لا يرجع اللبن إلى الضرع، وقال رضي الله عنهُ: الخوف سوط الله يقوِّم بهِ نفسًا تعوّدت سوءَ الأدب، وأفضل العمل ما قارنهُ العلم، وقال رضي الله عنهُ الشيخ في قومهِ كالنبي في أمته والشيخ سلم الفقير يصل بهِ إلى معالي الأمور، وقال رضي الله عنهُ: الفقراءُ في حبل الله من تمسك بهم نجا وسلم وفاز وغنم، ومن تركهم هلك وندم، وقال رضي الله عنهُ: القرآن مأدبة الله فمن لم يتأدب بهِ فليس لهُ أدب ولا لمرض قلبه دواء، وقال رضي الله عنهُ: إن الحق سبحانهُ وتعالى يغار للولي فيقبل على المحسن إليهِ وينظر إليهِ فيرحمهُ، وينظر إلى المسيء إليهِ فيعاقبهُ، وقال رضي الله عنهُ: إن السماع عبارة عن وجدان القلب مع الله تعالى وذلك بغية الأنبياء ومنية الأولياء، وقال رضي الله عنهُ: تعلموا خلال التصوف تعليمًا وأكرهوا النفس عليها فإن هداة الحق في هذا الزمان قَلَّت، وقال رضي الله عنهُ: غالب ما سلط الله بهِ على العراق الأذى منع الزكاة وقلة نظر بعضهم بالإحسان إلى بعض، وقال رضي الله عنهُ: لا ينصح إلا مَن يتوسم فيهِ مخايل القبول فالنصيحة إذا لم تقبل صارت فضيحة، وقال رضي الله عنهُ: إذا ديست الحبة ولم تحترم شكت إلى الله تعالى فيكون من ذلك ما يغلو بهِ السعر، وقال رضي الله عنهُ: دارت رحى الإرادات على ثلاث الثقة بوعد الله والفراغ لأمر الله ودوام قرب باب الله، وقال رضي الله عنهُ: من الخشية تكون المحاسبة ومن المحاسبة تكون المراقبة ومن المراقبة يكون الشغل ومن الشغل يكون دوام الشغل بالله، وقال رضي الله عنهُ: مَن حصل لهُ ذرة من الولاية فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وقال رضي الله عنهُ: لا تعتبروا الإسلام إلا بالإنصاف في المعاملة والبيع والشراء والأخذ والعطاء، فمتى أنصف المرءُ فهو مسلم، وقال رضي الله عنهُ: الناس بخير ما حجوا البيت وما شدت الرحال إلى النبي ﷺ، وقال رضي الله عنهُ: مَن جدّ وجد ومَن اجتهد ولجّ ولج ومَن ولج دخل المنزل وحصل لهُ ما يريد، وقال رضي الله عنهُ: مَن نظر إلى امرأة أجنبية ليست لهُ محرمًا ليس لهُ عند الله عذر وقد تجرّأ على الله تعالى، وقال رضي الله عنهُ: إذا كان لكم حاجة ولم تقدروا إلى الوصول إلى أم عبيدة فتوجهوا نحوها لله تعالى ثلاث خطوات واسألوا حاجتكم.

وقال رضي الله عنهُ الفقير متى غضب لنفسهِ تعب ومتى سلم أمره إلى مولاه وغضب لهُ نصره من غير عشيرة وأهل، أمور الدنيا تنقضي بقليل وكثير وأمور الآخرة ليس منها بد ولا عنها غنى، والاشتغال بغير أمور الآخرة عناء، وقال رضي الله عنهُ: إن ذرية الأولياء منظور إليها بعين الرحمة في الغالب وذرية الظالمين منظور إليها بعين السخط في الغالب، وقال رضي الله عنهُ: ما سعد من سعد باجتهادٍ ولا شقي من شقي باقتصادٍ جف القلم بما كان والأعمال بخواتيمها والله المعطي، وقال رضي الله عنهُ: ما من ليلة إلا وينزل من السماء إلى الأرض نثار لا يحصل لهُ منهُ إلا مَن كان مستيقظًا، وقال رضي الله عنهُ: مَن اشتغل بالعلم كان لهُ معنا سهمان: سهم العلم وسهم الفقر ولو انقطع عن المجيء إلينا بالاشتغال فيهِ، وقال رضي الله عنهُ: العاقل يقدم بين يدي كل عملٍ يعملهُ لمَ ولمن فإن كان لله أمضاه وإن كان لغيره تركه وأبقاه، وقال رضي الله عنهُ: انقبض عن أهل النقائص وأهل الفضول وكل مَن ترى الزيادة بفضلهِ فاصحبهُ ومَن ترى النقيصة بصحبتهِ فلا تصحبهُ، وقال رضي الله عنهُ: مَن زار مكة والصالحين ولم يكن عليهِ آثار الزيارة في دينهِ دل على عدم قبولها، وقال رضي الله عنهُ: لا تصحب مع الله إلابالموافقة ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ولا مع النفس إلا بالمحاربة وقال رضي الله عنهُ: حشرت مع قارون وفرعون إن خطر في سري أني متقدم على هذا الجمع إلا أن تكرم الله عليَّ وجعلني واحدًا منهم، وقال رضي الله عنهُ: إذا قرأ القارىءُ آية الغيبة واغتاب وآية الزور وشهد بالزور وآية الكذب وكذب وقد عرف التهديد والأمر والنهي لعنتهُ الآيات وجميع الملائكة المتقربين، وقال رضي الله عنهُ: ما لي مسرة إلا بالخلوة والوحدة فيا ليتني لم أعرف أحدًا ولم يعرفني أحد حتى أود أن أشد في عنقي حبلاً واختنق لعلي أسلم، وقال رضي الله عنهُ: مَن نسي آية من القرآن جاءَ يوم القيامة مجذومًا مقطوع الحيلة وليس لهُ وسيلة إلى الله تعالى ولا شافع إلا أن يتوب ويرجع إلى حفظها، وقال رضي الله عنهُ: ما نظر إلى الخلق ووقف معهم في العادات إلا مَن سقط من عين الله ومَن خرج عنهم متوجهًا إلى الله تعالى، يلقاه الله بعفوه وغفرانهِ وإحسانهِ، وقال رضي الله عنهُ: واخجلتاه بين يدي الله تعالى إذا جئت مقصرًا وقد سبقني أصحاب الأعمال المرضيات وقربوا من إلٰه السمٰوات، فماذا يكون عذري عند مَن لا يخفى عليهِ خافية عالم السرّ والعلانية، وقال رضي الله عنهُ: إذا أراد الله أن يتخذ وليًا أنعم الله عليهِ بأربعة بالكفاية والحماية والرعاية والهداية فإذا تحققت لهُ هذه الأربعة أكرم بأربعة: يقرأ ما على الجباه ويصافح الملائكة ويصافحونهُ ويكلم الموتى ويكلمونهُ ويدخل القبور فيعرف المنعم من المعذب، وقال رضي الله عنهُ: إذا طبعت مرآة بصيرة القلب بتراكم صدأ الغفلة عن الرب توارت وجوه الحقائق عن بواطن الأفهام، وامتنع عنها نفاذ نور الإلهام فأظلم وجه البيان بتصاعد

أبخرة الخيالات وغمامات الأوهام ما يغني الشمس عن المكفوف مع كمال إشراقها وما لهُ عيون تقبل منها نورها وبرهانها، وما يجدي فرط الإشراق مع ضعف الأحداق نحن في موقف إشراق شمس القدرة وعيون أفهامنا ضعيفة وبغمامات الغفلة محتجبة فما لنا عيون تصلح لرؤية ذلك الجمال ولا قلوب تحمل مهابة تلك العظمة وعزة ذلك الجلال، كلنا تجري بنا سبل الفناء وتقذفنا في أغوار غايتنا المغيبة عنا المحجوبة دوننا كلنا تجري بنا سفن المنايا برياح حرصنا وشراع أطماعنا في بحار آمالنا وتقذفنا في لجج آجالنا وهمومنا موكلة بقضاء مهماتنا عن جاعل أمورنا وأيدي الحوادث تتلاعب بنا وهواتف الفناء تزعجنا، شعر:

الناس في غفلاتهم ورحى المنية تطحنُ
ما دون دائرة الرحى حصن لمن يتحصنُ

وكل يوم ينادي ملك الموت من بين أيدينا ومن خلفنا: أينما تكونوا يدرككم الموت وظلمات أجداثنا تنتظر ولوج أجسادنا، ونحن غرقى في غمرة غفلتنا وسكرة شهواتنا، فيا أيها العاقل إلى متى تصرف نفسك عن طريق النجاة إلى سبيل المعاطب والمهلكات وتصرفها عن فسحة الطاعات إلى مضايق المخالفات وتعرضها لما بين يديها، وتسقيها من كؤوس الخطيئات وأدناس السيئات وتوردها موارد الفتن والآفات.

وقال رضي الله عنهُ: لما أراد الله سبحانهُ وتعالى ولهُ الإرادة والتدبير أن يخلق عرشهُ العظيم خلق ألف ألف صف من الملائكة المقربين ما بين كل صف كما بين المشرق والمغرب، وما لرؤوسهم منتهى ولا لأرجلهم مستقر، ثم قال لهم كالمعاتب لا كالمستشير: يا ملائكتي أريد أن أخلق عرشًا عظيمًا وأكونهُ تكوينًا كما أشاء لا على الأرض ولا على السماء، أبتدعهُ ابتداعًا وأجعل إشارة خلقي كلهم نحوه إليَّ ومنتهى حوائجهم لديَّ، فإذا خلقتهُ وسويتهُ ودحيتهُ كونوا إليَّ طائعين ولما آمركم به خاضعين ممتثلين، فخروا لهُ ساجدين ولهيبتهِ خائفين، وقالوا: يا إلٰهنا ومولانا مَن ذا الذي يعارضك في ملكك وأنت على كل شيء قدير، فهناك حمل عرش ربنا حملة عظمة العرش بغير يد ولا بطش، لهُ قوائم بعدد نجوم السماء والنجم الواحد تكل عن وصفهِ ألسن الوصاف فكيف تحصى وتوصف نجوم السمٰوات ومقدار كل قائمة من القوائم بقدر استدارة الدنيا طولاً وعرضًا ثمانين ألف مرة، ولهُ أربعة أركان كل ركن منها بقدر السماء واستدارة الدنيا طولاً وعرضًا أربعة وثمانين ألف مرة، ثم خلق جلّ جلالهُ طائفتين من الملائكة طائفة من نور على نجب من نور، وطائفة من ريح على نجب من ريح وأمر إحدى الطائفتين أن تصعد الأعلى وأمر الطائفة الأخرى أن تقطع

الركن عرضًا فمنذ خلق الله السمٰوات والأرض والعرض إلى أن ينفخ في الصور لا هؤلاء إلى ذروتهِ وصلوا ولا هؤلاء الركن قطعوا، خطفة أحدهم أعظم من البرق المار من المغرب إلى المشرق فلا من فوقه يعلم ما تحتهُ ولا من تحتهِ يعلم ما فوقهُ، وإنما نصف من ذلك ما ذكره أهل العلم التام من الرواة الأعلام، قالوا: ليس خلق العرش متصلاً بالكرسي ولا خلق الكرسي متصلاً بالعرش، ولكن الأنوار متواصلة بالأنوار تليها مشيئة الجبار، ثم قالوا: إن خلق العرش بالنسبة لخلق الكرسي كمثل حلقة ملقاة في أرض فلاة إلا أن أكثر القلوب منكرة لعجائب قدرتهِ تعالى لحجابها عنهُ سبحانهُ وتعالى.

وقال رضي الله عنهُ: اعلموا وافهموا أن العاقل متيقظ محزون وأن الجاهل غافل مفتون، فتنبه أيها الغفول وتيقظ أيها الجهول وانتبه من سنة الغفلة الغائلة والمصيبة الهائلة، ولا يغرنك سلامتك القصيرة بإتلاف نفسك ومهجتك الحقيرة، وقم في ظلام الليل مبتهلاً إلى مولاك وابسط أناملك بصدق عملك ودعائك واسأل الملك الجبار ليغفر لك الذنوب والأوزار، وامسح من جفونك مدامع الندم وتضرع تضرع الخدم فعسى أنك من سكرك تفيق وترجع بعد حجرك إلى الطريق، وانظر بعين اليقظة وتأمل شأنك في كل لحظة، وأبصر بعين قلبك يا مسكين وأصلح رشدك بصحة اليقين، هل كان لهذه الدنيا الغدارة صديق إلا صرعتهُ؟ وصاحب إلا فجعتهُ؟ أو أعطت أحدًا إلا أخذت منهُ أضعاف ما أعطتهُ؟ أو أفرحت أحدًا بفرحة إلا أعقبتهُ نوحةً؟ فهذه طريق الجنة لائحة لطالبها ومحجة الحق واضحة لراكبها ولكنها عن أعين هذا الخلق محجوبة مستورة، فإذا ماتوا كشف لهم الحجاب وشاهدوا ما قدموا مسطورًا في كتاب، وقال رضي الله عنهُ: إن العاقل يتفكر في فناء العمر ووقوع الأجل وما بين يديه من الأموال، ويتحفظ من الزلل ويبادر لتجويد العمل أجل، وينبغي لهُ التأهب إلى الموت واللقاء وإن الواجب عليهِ الاستعداد لهذا الأمر المهم والخطب الملم، فيا لها من صرعة ما أعظمها وفجعة ما أصعبها، تتجدد عندها الحسرات على التفريط في أيام الغفلات والبطالات يستنبط فيها عن الأعمال وتقع فيها الرجال، وتصير السنين شهورًا والشهور أيامًا والأيام ساعات والساعات أنفاسًا والأنفاس معدودة كل نفس بما عمل فيهِ إن كان خيرًا فخير وإن كان شرًا فشر.

وقال رضي الله عنهُ: إن رياح الحوادث تجري على صحراء الوجود وتلفح نسائِم مكارهها وجه كل موجود، ألا وإن البطل الأبي من قمع رأس الحرص ونكس عنق الأمل بقوة اليقين والتوكل وهشم وجه الطمع بيد العفة والورع، فنجا من الشح المطاع

والهوى المتبع، وكان رضي الله عنهُ يدعو بهذا الدعاء: اللهم سلم سفارة الهمم وسيارة الفطن في طلب مكاسب الحكم، وأعن مطايا العزائم على سلوك سبيل المكارم، واحمها من قواطع الأوصاف الذمائم واصرف عنها ما يفتر سيرها ويمنع خيرها وميرها من لؤم نفسٍ ولومة لائم برحمتك يا أرحم الراحمين. وكان رضي الله عنهُ يقول: من بركة السحور أن المتسحر يذكر الله تعالى ويسبحهُ وربما أسبغ الوضوء وصلى ركعتين واستغفر الله تعالى وصلى على نبيهِ محمد ﷺ، ويرغب أصحابهُ في قيام الليل والتهجد فيهِ وفي شهر رمضان خصوصًا، ويقول لهم: تفرغوا لشهر رمضان وقيام ليلهِ عسى أنكم تظفروا بليلة القدر، وكان رضي الله عنهُ يشد مئزر الحزم خصوصًا في العشر الآخر منهُ ويذكر حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله إذا أنا رأيت ليلة القدر ما أسأل؟ فقال لها: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني»[1]، ويقول رضي الله عنهُ: قال سيدي الشيخ منصور قدس الله سره: ليلة القدر ليلة عظيمة ما يراها إلا أصحاب القبول والعناية، وكان رضي الله عنهُ يقول: الأشهر الحرم اليوم العاشر من كل شهر منها عظيم، فاليوم العاشر من ذي الحجة يوم النحر واليوم العاشر من محرم يوم عاشوراء واليوم العاشر من رجب يمحو الله ما يشاء ويثبت فيهِ ما يشاء، واليوم العاشر من ذي القعدة أفضل ما عبد الله تعالى فيهِ وفيهِ يستجاب الدعاء فتبتلوا لهذه الأيام المعدودة والأشهر المعلومة، وواظبوا على كثرة الاجتهاد وصلوا فيها أرحامكم وإخوانكم وإياكم من الغفلة عن الطاعة فإن الله تعالى لا يقبل عملاً من قلب غافل.

وقال رضي الله عنهُ لسبطهِ سيدي إبراهيم الأعزب قدس سره: أي إبراهيم أوصيك بوصية إن أنت حفظتها وعملت بها حفظك الله تعالى في الدنيا والآخرة وأبرأك من الرياء والنفاق وعشت حميدًا رشيدًا مهيبًا وحشرت مع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، فقال لهُ: أي سيدي أوصني بما تشاء تجدني مستمعًا مطيعًا، فقال لهُ: أي إبراهيم أحب الفقراء وأكرمهم واخدمهم وانهض لهم واخفض لهم جناحك وأظهر لهم سماحك واغتنمهم واغتنم أدعيتهم واتخذ عندهم اليد فإن لهم غدًا عند الله تعالى دولة وشفاعة كشفاعة الأنبياء، قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: «يا أبار ذر لكل شيء مفتاح ومفتاح الجنة حب الفقراء والمساكين والدنو منهم وهم جلساء الله يوم القيامة، يا أبا ذر الفقراءُ ضحكهم عبادة ومزاحهم تسبيح ونومهم صدقة وينظر الله إليهم في كل يوم ثلاث مرات»، ثم قال لهُ: أي إبراهيم عش فقيرًا ومت فقيرًا فقد قال رسول الله ﷺ لبلال: «يا

(١) سبق تخريجه.

بلال عش فقيرًا ولا تعش غنيًا»[1] فقال بلال: ومن لي بذلك ولا النار، ثم قال: أي إبراهيم لا تحقر الفقراء ولا تزدر بهم فإن الفقر شين عند الناس وزين عند الله أي إبراهيم تزيَّ بزي الفقراء وكن منهم وتشبه بهم فقد قال رسول الله ﷺ: «من تشبه بقوم فهو منهم ومن أحب قومًا حشر معهم»[2] أي إبراهيم اخدم الفقراء وقف على رؤوسهم بانشراح صدر وفرح وسرور، وتلذذ بخدمتهم وابذل جهدك برضاهم، فقد قال رسول الله ﷺ: «الخادم في أمان الله ما دام في خدمة أخيهِ المؤمن وللخادم في الخدمة أجر الصيام بالنهار والقيام بالليل، وكخادم المجاهدين في سبيل الله وكخادم الحاج وكخادم المرابطين في سبيل الله، وكأجر كل برّ في الأرض، وطوبى للخادم يوم القيامة ليس على الخادم حساب ولا عذاب وللخادم شفاعة في مثل ربيعة ومضر»، فقالوا يا رسول الله: وإن كان فاجرًا؟ فقال: «خادم السوء أفضل عند الله من سبعين عابدًا مجتهدًا، ومن معلم محتسب، وللخادم مثل أجل من يخدمهم»، ثم قال: أي إبراهيم لا تتواضع للأغنياء ولأبناء الدنيا ولا تنهض لهم ولا تقرب أبوابهم وإن دعوك، أي إبراهيم أبناء الدنيا إن أكرمتهم أهانوك وإن أحببتهم أبغضوك وإن مازحتهم لا يهابونك وإن غبت عنهم اغتابوك، وفي كل أحوالهم يعيبونك لأنهم لم يروا حبك لهم والسلام عليهم والتردد إلى أبوابهم والترحب بهم إلا لأجل دنياهم وأنك محتاج إلى عزهم، فأعِزَّ نفسك عن صحبتهم وخدمتهم، فقد نهى رسول الله ﷺ عن القرب منهم والتواضع لهم فقال ﷺ: «لعن الله من أكرم الغني لغناه وأهان الفقير لفقره ومَن فعل ذلك فقد سمي في السمٰوات عدو الله وعدو الأنبياء لا يستجاب لهُ دعوة ولا تقضى لهُ حاجة ومن تواضع لغني لأجل غناه أكبه الله في النار على وجههِ»، ثم قال: أي إبراهيم إذا خدمت الغني زدتهُ تكبرًا وتجبرًا ونقصت من عين الله، وإذا خدمت الفقير جبرت قلبهُ وزدت في رغبتهِ وعظمت عند الله تعالى وخدمتك الملائكة واستغفرت لك، ثم قال: أي إبراهيم احفظ وصيتي لك ووصِّ بها إخوانك الفقراء والمحبين والمريدين الراغبين، ثم قال رضي الله عنهُ للسيد إبراهيم وأبيهِ السيد علي رضي الله عنهما: اشكرا الله تعالى على نعمتهِ واصبرا على البلاء ونوازلهِ ولا تأمنا عقوبة الله تعالى ومكره ولا تقنطا من رحمة الله، واعلما أن ما أصابكما لم يكن ليخطئكما وما أخطأكما لم يكن ليصيبكما، ولا تلتمسا رضاء مخلوق بسخط الخالق ولا تؤثرا الدنيا على الآخرة ولا تبخلا على

---

(١) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب عن بلال (٢/٥٢) باب الترغيب في الإنفاق في وجوه الخير، حديث رقم: ٢.

(٢) سبق تخريجه قريبًا.

الإخوان بما في أيديكما وانظرا في أمر دينكما إلى من فوقكما وفي أمر دنياكما إلى مَن هو دونكما، ولا تخالطا أهل الكبر ولا تقربا السلطان ودعاة الباطل وأهلهُ، ولا تغضبا لأنفسكما إذا شتمتا وأدبا الأهل والولد وعلّماهما الرشد والعلم والخير، ولا تلعنا أحدًا من خلق الله تعالى ولا تحلفا بالله كذبًا ولا تشهدا بالزور لأجل قريب أو بعيد ولا تعملا بالهوى ولا تلعبا مع اللاعبين ولا تلهيا مع اللاهين، ولا تقولا للقصير أي قصير ولا للطويل أي طويل تريدان بهِ عيبهُ، ولا تمشيا بالنميمة بين الإخوان وأكثرا التهليل والتكبير وقراءة القرآن على كل حال، ولا تدعا الجمعة والعيدين، وانظرا فيما لا يرضيكما أن يقال بهِ أو يصنع بهِ ثم تسنداه إلى غيركما، ثم قال: هذه وصية رسول الله ﷺ إلى سلمان وهي الآن وصيتي إليكما أطالبكما بها بين يدي الله تعالى.

وخرج السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ في بعض البساتين ليتوضأ فنظر إلى نخلة والتمر معلق برأسها وكان معهُ الشيخ يعقوب بن كراز أكرمهُ الله بالإكرام والإعزاز فقال لهُ: يا يعقوب انظر إلى هذه النخلة حيث رفعت رأسها جعل الله ثقلها عليها ولو حملت مهما حملت، وأصل اليقطين حيث وضع نفسهُ وألقى خده على الأرض حمل ثقلهُ غيره ولو حمل مهما حمل، وقال رضي الله عنهُ للسيد إبراهيم الأعزب قدس الله سره: أي إبراهيم من تمشيخ لك فتتلمذ لهُ، ومَن مدّ لك يده فقبلها، ومَن تقدم عليك فقدمهُ وكن آخر شعرةٍ بالذنب، فإن الضرب لا يقع إلا على الرأس، وكان رضي الله عنهُ إذا رأى أحدًا من الفقراء لبس ثوب صوف يقول لهُ: أي ولدي أبصر بزيِ مَن تزييت وإلى مَن انتميت، قد لبست لبسة الأنبياء وتحلّيت بحلية الأتقياء هذا زي العارفين فاسلك بهِ سلوك المقربين، وقال رضي الله عنهُ يومًا للفقراء: أي سادة أعينوني على أنفسكم بخمس خصال: أولها: سنة رسول الله ﷺ وصفتهُ كما قال لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة إن سرك اللحوق بي فإياك ومجاورة الموتى ومجالستهم ولا تصنعي ثوبًا حتى ترقعيه» الثانية: موافقة السلف على كل حالهم، الثالثة: لباس ثوب التعرية من الدنيا والنفس، الرابعة تحمل البلاء والاستسلام لهُ، الخامسة: لبس الوفاء واجتناب الجفاء كما قال بعض الحكماء: انزع لباس الجفاء والبس لباس الوفاء، وعليك بلبس المرقعة فإنها لباس الذل والانكسار والتواضع، وعليك بقهر النفس والهوى وترك الدنيا وبغض الرياسة، وقال رضي الله عنهُ لزوجته رابعة: أي بنت الشيخ إن سرك اللحوق بالقوم فأقلي الطعام واهجري المنام وصلي بالليل والناس نيام، وكان رضي الله عنهُ يوقظها بالليل ويقول لها: أي بنت الشيخ قومي إلى وردك فإن العبد إذا سلك طريق القوم كان قريبًا منهم، وكان رضي الله عنهُ يقول: يحتاج الفقير منكم إن كان سالكًا في طريقهِ مقتدرًا على نفسهِ أن يكون فيهِ ست خصال: أولها: فقد المعلوم المسوس المدلي إلى البوس الثانية: الصبر

والإياس من جميع الأشياء إلا من الله تعالى الثالثة: كتمان السر حتى لا يشكو إلى مخلوق مثله الرابعة: ترك المسألة لكيلا يهرب إلى الخلق من باب الله تعالى، الخامسة: أن يظهر الغنى في الفقر السادسة: أن يعمل لله تعالى ولا يرى أنهُ يعمل شيئًا.

وقال رضي الله عنهُ: يكون الفقير جوال الفكر جوهري الذكر كثير حلمهُ عظيم حكمه جميل المنازع قريب المراجع، أوسع الناس صدرًا وأذلهم نفسًا، كثير العطاء قليل الأذى، ضحكه تبسيمًا واستفهامهُ تعليمًا، مذكرًا للغافل معلمًا للجاهل لا يؤذي من يؤذيهِ ولا يخوض فيما لا يعنيهِ، لا يشمت بمصيبة ولا يذكر أحدًا بغيبة، نازحًا عن المحرمات واقفًا على الشبهات، عونًا للغريب أبًا لليتيم بشره في وجههِ وذكر الله تعالى في قلبهِ، مسرورًا بفقره مشغولاً بنفسهِ، أحلى من الشهد وألين من الزبد وأصلب من الحديد، لا يكشف سرًا ولا يهتك سترًا لطيف الحركات حلو المشاهدات حسن المذاق لين الجناب طويل الصمت، حليمًا إذا جُهِل عليهِ صبورًا على مَن أساءَ إليهِ، يبجل الكبير ويوقره ويرحم الصغير ويؤدبهُ أمينًا على الأمانات بعيدًا من الخيانات، إلفه التقى وخُلُقه الحياء، كثير الحذر قليل الزلل، حركاتهُ أدب وكلامهُ عجب راضيًا وقورًا شكورًا لا نمامًا ولا مغتابًا ولا حلافًا ولا خباثًا ولا كذابًا ولا عجولاً ولا طياشًا ولا فحاشًا ولا حقودًا ولا خؤونًا، الفقير كلامهُ موزون ولسانهُ مخزون وقلبهُ محزون وفكره يجول فيما هو كائن ويكون، والله الموفق لمن يشاء من عباده. وقال رضي الله عنهُ: علامة الفقير الصادق إظهار الشبع وهو جائع والفرح عند الحزن والنشاط عند الكسل والذل بعد العز والفقر بعد الغنى، وأن يصير مردودًا بعد أن يكون مقبولاً. وكان رضي الله عنهُ يسر بأربعة أشياء إذا نزلت بأصحابهِ ويفرح لهم بها ويسأل الله تعالى لهم الصبر عليها ويقول: هي شعار الصالحين الجوع والعرى والفقر والذل. وقال رضي الله عنهُ: لما كنت على جبل عرفات بايعت الله تعالى على ترك النفس والغرض والمال، وقال رضي الله تعالى عنهُ: أول ما ينبغي للإنسان أن يأمر نفسهُ بالمعروف فإن ائتمرت يأمر الناس بالمعروف وينهى نفسهُ عن المنكر، فإن انتهت فينهى الناس وإلا فقد قال الله تعالى: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ [الصف: ٢] ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾ [البقرة: ٤٤] وقال رضي الله عنهُ: للفقر والتصوّف خصال معدودة محمودة أولها تجريد التوحيد ثم الإيثار وإيثار والإيثار، ثم حسن العشرة ثم فهم السماع ثم ترك الاختيار ثم سرعة الوجد ثم الكشف عن الخواطر ثم كثرة الصمت ثم ترك الاكتساب ثم تحريم الادخار.

وقال رضي الله عنه: علامة الفقير الصادق في جميع الحركات التقلل من المباحات والصمم عن كثير من المسموعات، وأن لا يطلب المعدوم حتى يبذل الموجود، وانقطاع

الحيلة حتى لا يرى في كل أحواله وشدائده ورخائه وتقلبه غير خالقهِ ومكونهِ، وقال رضي الله عنهُ: الفقير متى نظر إلى ما يلبس التبس عليهِ أمره ومتى رأى الخلق دونهُ ظهرت عيوبهُ، الفقير ابن ساعتهِ لا يومهِ، الفقير يرى كل نفس من أنفاسهِ أعز من الكبريت الأحمر يودع كل ساعة ما يصلح لها ولا يضيع من وقتهِ لحظة، الفقير مثلهُ مثل المرآة ينظر فيها كل شيء، وقال رضي الله عنه: إن القلب إذا صلح صار مهبط الأسرار والأنوار والملائكة، وإذا فسد صار مهبط الظلم والشياطين، وإذا صلح أخبرك عما وراءك وأمامك ونبهك عن أمور لم تكن تعلمها بشيء من دونهِ، وإذا فسد حدثك ببطلان يغيب معهُ الرشد وينفي معهُ السعد فيا طوبى لمن أصلح الله قلبهُ، وقال رضي الله عنهُ: مَن لم تكن لهُ داعية من نفسهِ لم تنفعهُ داعية غيره، وقال رضي الله عنهُ: النفس ثلاثة أضرب أمارة وهي نفس الجاهلين والعصاة، ولوامة وهي نفس المؤمن تسره حسنتهُ وتسوءه سيئتهُ، ومطمئنة وهي نفس المؤمن الموفق العارف، وقال رضي الله عنهُ: مجالسنا هذه مجالس المأتم لأن الفقير لا يزال متأسفًا على ما فاتهُ متحسرًا على إدراك الفضائل يرجو الحق سبحانهُ ويخافهُ، وإن سمع شيئًا من المواصلة رجا ومن المفاصلة خاف وإن دعا أجيب وإن سمع ردًا بكى، وقال رضي الله عنه: صلاة بصلاة وصلاة بسبعين صلاة وصلاة بلا صلاة، فأما الأول فهو الذي يرفع مع الإمام ويضع معه وأما الثاني فهو الذي يرفع ويضع بعده، وأما الثالث فهو الذي يرفع ويضع قبله، وقال رضي الله عنهُ للفقراء: لا تضيعوا أوقاتكم بما ليس لكم فيه راحة فما يمضي منكم نفس إلا وهو عليكم معدود وإياكم وما تعتذرون منهُ واحفظوا وقتكم وقلوبكم فإن أعز الأشياء الوقت والقلب، فإذا أهملتم الوقت وضيعتم القلب فقد ذهبت منكم الفوائد، واعلموا أن الذنوب تعمي القلوب وتسودها وتمرضها، وقال رضي الله عنهُ لهم: استعينوا بالله عما في أيدي الناس فما استغنى أحد بالله إلا افتقر الناس إليهِ، واجتنبوا المزاح والمماراة وإخلاف الوعد، وقال رضي الله عنهُ لهم: أي سادة إذا حصل لكم الله حصل لكم كل شيء، وقال رضي الله عنهُ: مَن اشتد خوفهُ من الله تعالى اليوم كثر أمنهُ غدًا ومَن عرف عدل الله تبارك وتعالى خاف عذاب الله ومَن عرف كفالة الله توكل على الله، ومَن تحقق بالحب لله لم يختر غير الله، ومَن عرف لطف الله قطع رجاءهُ عن غير الله تعالى ثم تلى قولهُ تعالى: ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً﴾ [الكهف: ٣٠] وقال رضي الله عنهُ للشيخ يعقوب بن كراز: أي يعقوب لا تعب الناس بعيوبهم فيظهر الله لك عيوبًا وإن لم يكن لك عيوب، وعليك بتقوى الله تعالى وطاعتهِ ولزوم السنة والجماعة ورعاية النفس وتصفية الخلق والتجاوز عن هفوات الإخوان وستر عيوبهم وإظهار محاسنهم، وأجلّ أصحابك الصالحين والورعين وأهل الخشية والمراقبة بالمداراة والمرافقة وأداء حقوقهم منك وترك حقك عليهم، وعليك بالأدب فإن

قليلاً من الأدب خير من كثير من العلم وعليك بترك الدنيا ومخالفة النفس ومعاداة الهوى فهذه بها الوصول إلى الله تعالى، وقال رضي الله عنهُ: أي يعقوب اعلم أن التوفيق منهُ وبهِ وإليه وهو المعطي وهو المانع، وقال رضي الله عنهُ للسيد إبراهيم الأعزب قدس سره: أي إبراهيم مَن علم ما يحصل لهُ هان عليهِ ما يبذل، وقال رضي الله عنهُ: لم يزل أقوالهُ وأفعالهُ وأحوالهُ في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره لم يثبت في ديوان الرجال.

وقال رضي الله عنهُ إذا نشأ الرجل في غير الطريق فكيف يكون حالهُ؟ فقيل لهُ: أي سيدي يتمزق ويتعب ولا يصل إلى مراده سريعًا، وربما رجع من بعض الطرق، وقال رضي الله عنهُ: وكذلك الفقير إذا لم يستقم حالهُ ظاهرًا وباطنًا يتمزق ولا ينفعهُ شيخهُ وتدخل عليهِ الدواخل من كل مكان ويبقى لا يصلح لشيخه ولا لربهِ ويهلك مع الهالكين، وقال رضي الله عنهُ للسيد عبد الرحيم: خذ قصبة صحيحة غير مرضوضة وشدها، ثم قال: لا تقدر على ذلك ولكن إذا رضضتها ودستها برجلك صارت لكسرها تصلح أن تشد بها شيئًا، وكذلك الفقير إذا كسر نفسهُ وداسها ولم يرفعها رفعهُ الله تعالى وجعلهُ ظلاً نافعًا وشد بهِ الأزر، وقال رضي الله تعالى عنهُ: أي سادة قالت المشايخ بلسان حالهم من استقام بنفسهِ استقام بهِ غيره، أي سادة كيف يستقيم الظل والعود أعوج، وقال رضي الله عنهُ: لما انداست الطرق بالأقدام صلحت للسلامة والنجاة وصارت مقصدًا لكل أحد، وكذلك الفقير إذا كسر نفسهُ وذل وانداس واحترق بين يدي الله تعالى كان معدن الخيرات ومقصد الراحات وصار كالغيث إذا وقع نفع وانتفع بهِ، فيكون رحمة وسكينة على خلق الله تعالى، وقال رضي الله عنهُ: إذا أراد الفقير العز وطلب الشرف فالكل فيهِ إذا عرف العزّ بالذل والقناعة والشرف بالتواضع والعلم، فإذا كان الفقير متمسكًا بهذه الأشياء وكان هينًا لينًا صح فقره وحصل لهُ مراده، وقال رضي الله عنهُ للسيد عبد الرحيم قدس سره: مَن لم يكسر نفسه لم يبلغ مراده ولم يبلغ مبالغ الرجال ولم تشد نحوه الرحال، وقال رضي الله عنهُ لولده صالح: إذا لم تسلك طريقي وتتبع مناهجي بالذل والانكسار والتواضع لله ولسائر الفقراء لا أنت لي ولد ولا أنا لك أب، وقال رضي الله عنهُ للفقراء يومًا: أي سادة الفقير لا يكون لهُ قولان وكان رضي الله عنهُ يقول لهم: عليكم بإكرام الفقراء تنالوا بهِ الشرف وتحصل لكم شفاعتهم يوم القيامة فإنهم أكبر شافع، وقال رضي الله عنهُ للشيخ يعقوب بن كراز يومًا: كم طيرت طقطقة النعال من رأس وأذهبت من دين، وقال رضي الله عنهُ: مثل الفقير في أول دخولهِ هذا الطريق مثل الكتان إذا أراد الأكار أن يزرعهُ يشق أولاً أرضًا جيدة ويدقها ويقسمها أقسامًا ثم يرميهِ فيها، ويشتغل بسقيهِ ومحافظتهِ ومراعاتهِ حتى ينبت فإذا استوى على سوقهِ ويبست تلك الشقفة عليهِ شد

الأكار عليهِ وقلعهُ ويبسهُ وحواه بأزقات ودقهُ وأخذ رأسهُ ثم حبسهُ تحت الماء والطين أيامًا ثم أخرجهُ ونشره ويبسهُ ودقهُ ثانية، ويقول بعد: ما جاء منهُ شيء ثم قطعهُ قطعًا وسلمهُ إلى النفاض فلا يزال يضربهُ حتى يخرج جوهره ولا يبقى إلا لبهُ، فإذا هو صبر على الضرب خرج منهُ شيءٌ جيد وإنْ هو لم يصبر هلك ولم يصلح إلا للنار، فإذا صبر وخرج منهُ شيء سلموه إلى النساء فينزهنهُ ويضربن عليهِ بالأيدي ويفرقنهُ طاقة طاقة ويجرينهُ بين أسنانهن ويبللنهُ بريقهن، ثم يغزلنهُ ويفتلنهُ ثم يقولون: ما يجيءُ منهُ شيءٌ إلا بالصبر، فيسلمونهُ إلى القصار فيغسلهُ بالماء المالح ويقول: لا بد لهُ من دخول النار فإن هو صبر أخرجهُ وغسلهُ مرة أخرى ودقهُ بالحجر طاقة طاقة وأوصلهُ وأدخلهُ أضيق مكان ودقهُ من فوقهِ وتحتهِ ويمينهِ وشماله، فإذا صبر تحت هذه الأهوال واحتمل هذه الأثقال طواه ودقهُ، ثم بعد ذلك غلا ثمنهُ وصلح لمماسة أعضاءِ السلاطين، وكذلك الفقير إن هو صبر على ما يلقى من الشدايد في طاعة جميل الفوائد كانت منزلتهُ عند الله تعالى أعظم من منزلة تلك الثياب الجميلة عند السلطان، وكذلك الفقير إذا صبر وتحمل وخدم من دونه وبذل مجهوده وسمع قولهُ وتجاوز عن هفوات الإخوان وتذلل لهم وجعل أوقاتهُ مغنمة وتأثر بمن هو دونهُ وأخلص في عملهِ وهجر إخوان الغفلة وفارق مواطن الهفوات وندم على ما فرط وشد مئزر الكد وأخذ في إدراك ما فات وتذكر ما مضى من زللهِ وتحسر عليهِ وحرث لما بين يديهِ، فإذا وفقهُ الله تعالى لهذه السعادات صار وقتهُ كلهُ يقظة ونفى عنهُ الغفلة وأثمر لهُ الذل والندم والخوف والكره وتواترت عليهِ من الله تعالى النعم فحيث أيقظهُ الله تعالى وسبقت لهُ العناية وظهرت لهُ آثار الولاية وعزت نفسهُ عن ملاذ الدنيا وجيفتها وحطامها وقنع منها بالقليل وكان قوتهُ ما وجد ولباسهُ ستر العورة، ولا يضيع أوقاتهُ الشريفة في طلب القوت واللباس، ورغبتهُ فيما عند الله تعالى، وصارت الدنيا سجنهُ وكثر في طلب نجاة الآخرة همه وسال دمعهُ وزاد شوقهُ ويكون دائمًا في خوف الفوت وتوقع الموت ولم يفرح بشيء من الدنيا وزينتها، ويكون فرحهُ يوم إقباله على مولاه فحصل لهُ عند ذلك رضاه وهذه الفائدة في الدنيا والآخرة، ودخل رضي الله عنهُ الرواق في بعض الأوقات فوجد الفقراء يتحدثون في قدرة الله تعالى وعظمتهِ وقضائهِ وقدره فيما مضى من الأمم السابقين والموت والحياة، وفي تفرد الله تعالى بالوحدانية والبقاء وأمور الآخرة فقال لهم أي سادة: بمَ أنتم تتحدثون؟ فأخبروه بما هم فيهِ فقال لهم: أي سادة هذا البحر الذي أنتم تغوصون فيهِ غرق فيهِ وفي ساحلهِ مائة ألف وأربعة وعشرون ألف نبي ومائة ألف وأربعة وعشرون ألف وليّ ومثلهم صديقون ومثلهم أولياء وما وجدوا لهُ قرارًا، وحارت فيهِ أفكارهم وضاعت فيه أوهامهم وذهبت فيهِ عقولهم فكيف أنتم؟ أي سادة هذا بحر عميق لا يعرف إلى وصولهِ طريق ولا يعلم أحد كيف

حاله فكفوا عن هذا الجدال واقصروا هذا المقال فما لكم فيهِ مجال، فقال الشيخ يعقوب: أقسمت عليك بالعزيز سبحانهُ الذي لا عزيز غيره ايش قراره فقال رضي الله عنهُ: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾ [الواقعة: ٧٦] أي يعقوب قراره آية الدبوس ﴿لا يسئل عما يفعل﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وقال رضي الله عنهُ للفقراء: أي سادة وجدت فيما أنزل الله تعالى على إبراهيم الخليل ﷺ من الصحف: يا ابن آدم خلقتك وخلقت لك رزقك معك، فإن صبرت وقنعت أكلتهُ وأنت محمود مشكور مأجور وإن لم تقنع وتصبر سلطت عليك الدنيا تركض فيها كركض الأسد ولا يصيبك إلا ما قسمت لك وأنت غير محمود، وقال رضي الله عنهُ في بعض الأيام: أي فقراء إذا كان يوم القيامة وحشر العالم في صعيد وحكم الله تعالى بين خلقهِ بما علم وقسم قسم الجنة وقسم النار يهب على أهل الجنة نفحة من روائح الأمن من قبل دخولهم الجنة فيسكرون ما شاء الله ثم يفيقون فيقول لهم الحق سبحانهُ وتعالى وهو أعلم بهم: يا عبادي هل بقي عندكم شيءٌ من حزن الدنيا وخوفها ووصبها؟ فيقولون: لا يا ربنا فيقول: ادخلوها بسلام آمنين، ثم إنهُ يرسل على أهل النار نفحة الغضب قبل دخول النار فيسكرون من شدة نتنها ولهبها وجيفتها ثم يفيقون فيقول لهم الحق سبحانهُ: هل بقي عندكم من نعم الدنيا ولذاتها التي شغلتكم عني؟ فيقولون: لا، فيقول لهم ادخلوا النار خالدين فيها لا يخفف عنهم العذاب. وكان رضي الله عنهُ يرى الفرار مما لا يطاق من ضرر في الدين مشهود، وكان رضي الله عنهُ يشير إلى أرباب الولاية أنهم ينتقلون من دار إلى دار ويتنعمون بأنواع التنعمات وأرباب الغواية يعاقبون بأنواع العقوبات لكثرة المخالفات، وكان رضي الله عنهُ يقول: العارف الحق الذي لا يخلو ظاهره من قوانين الشرع ولا باطنهُ من نيران المحبة، وقال رضي الله عنهُ: أي بني عثمان أنا قادر من كرم العزيز سبحانهُ على أن أجعل لكم على كل ميل غير أم عبيدة دولة وسيفًا وملجاء وشيوخًا ونوبة وسفراء، ولولا ذلك ما سقاكم أحد شربة ماء، فأحسنوا العشرة مع الفقراء ولا تعيبوهم ولا تغتابوهم، وقال رضي الله عنهُ لما مرض السيد صالح قدس سره: بعثت أُمهُ إليهِ أن يشفع لها فيهِ ويسأل الله تعالى شفاءه من النبي محمد المصطفى ﷺ أو قالت من شيخه سيدي الشيخ منصور، فقال ما اشتغلت عنهُ تعالى طرفة عين لا مع نبي ولا مع شيخ فكيف بولدي، ثم قال للشيخ يعقوب: أيا يعقوب أنا طالب ما طلب سيدي الشيخ منصور أي وحقه سبحانهُ، ثم قال على سبيل الاستفهام: يا يعقوب من أعطى محمدًا ﷺ؟ فقال الشيخ يعقوب: الحق سبحانهُ فقال: أنا طالب ممن أعطى محمدًا ﷺ وبجّلهُ وشرّفهُ واصطفاه، وقال رضي الله عنهُ: ما ورد على ولي وارد إلا وبيده سيف مجذوب، فإن التقاه بالبشر والرحب وإلا أخذ السيف رأسهُ، وقال رضي الله

عنهُ: من لم يكن لهُ شيخ فشيخهُ الشيطان، وإن المريد ينال من الله تبارك وتعالى ببركة شيخهِ بقدر ما تأدب وحفظ الحرمة وراقب السر، وينبغي للمريد أن يعرف لشيخهِ الحق بعد وفاتهِ كما كان يعرف لهُ الحق في حالة حياتهِ، وقال رضي الله عنهُ: الشيخ يغار على تلميذه ومريده أن يأخذ غيره من المشايخ، وقال رضي الله عنهُ: ممن يذكر الله تعالى بلا شيخ لا الله لهُ حصل ولا نبيه ولا شيخه، وقال رضي الله عنهُ: المشايخ عند المريدين كالقبلة والنظر إلى وجه الشيخ عبادة يزيد في الدين والعقل والإيمان ومن البلاء أمان، وقال رضي الله عنهُ: العشق شبكة الحق يصيد بها قلوب أهل الصفاء ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وقال رضي الله عنهُ: تعلموا العشق من الشمع فهو شيخ العاشقين لصفرة لونه وجريان الدمع واحتراق البدن، والعشق يجلب ثلاثة أشياء قلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام، فقلة الطعام تورث الفطنة وقلة المنام تورث اليقظة وقلة الكلام تورث الحكمة، وقال رضي الله عنهُ للفقراء: يحتاج الفقير منكم إلى أشياء لا بد لهُ منها، مثل علم فروض الوضوء وفروض الصلاة وسننهما ولا يصلحهما وما يفسدهما والغسل وسننهُ وفرائضهُ والصوم والحج وسننهما وفرائضهما وغسل الميت والصلاة عليهِ وكل ما ندب الشرع إليه وحب النبي ﷺ ومعرفة الصحبة وحقوقها وشروطها ومراقبة شيخهِ في حياتهِ وبعد وفاتهِ ولزوم الأدب معهُ، ولو علت مرتبتهُ وإجابة أمره بلا توقف ومعرفة حقه عليهِ وقبول كلمة الحق في الرضا والسخط والتودد إلى الإخوان على سبيل المعونة لهم والقيام بحوائجهم في أمور الدنيا والآخرة فإن النبي ﷺ قال: «رأس العقل بعد الإيمان التودد إلى الناس»[1]، وأهل التودد لهم درجات في الجنة من كانت لهُ درجة في الجنة فهو من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وإذا كانت قضية التودد لله وبالله تثمر لكم الخير في الدنيا والآخرة، وقال رضي الله عنهُ: إن قال لكم قائل: أنا صعدت إلى السماء فصدقوه فإن كان كاذبًا فعليهِ كذبهُ وإن كان صادقًا يصيبكم بتكذيبكم إياه المضرَّة، وقال رضي الله عنهُ: الرجل من كان كما لا يتفكر في الأمس لا يتفكر في الغد ويتوكل على الله تعالى ويترك اللذات ويعتاد على التعب والمشقة.

وقال رضي الله عنه: الجود الإلـٰهي يقتضي أن يبذل السعادة للخلائق فإنهُ ليس فيهِ بخل، وقال رضي الله عنهُ: تجارتي مع الأرامل والأيتام وفرحتي في خدمتي إياهم، وقال رضي الله عنهُ: كلما يجدد الفقير التوبة فذلك لطف وإنعام يجود الكريم بهِ، وقال رضي الله عنهُ: العبد إذا دخل مجلسًا وجلس حيث أدرك وكان يستحق أن يتخطى الرقاب فلم يفعل استحيا الله منهُ وغفر لهُ، وقال رضي الله عنهُ: من علامة الفقير أنهُ إذا تكلم تكلم

(١) أخرجه في كنزل العمال حديث رقم: ٧٠٥٤ بزيادة واصطناع الخير إلى كل بر وفاجر.

بالحكمة وإذا تحرك تحرك للخدمة، وقال رضي الله عنهُ: من علامة الفقير أنهُ مثل الماء الجاري الذي يطهر كل شيء وصل إليه يحيي ميت قلب كل من وصلهُ من الكدورات النفسانية ويطهره، والفقير الذي هذه صفاتهُ فهو من الفقراء الذين اصطفاهم الله تعالى واجتباهم بنعمة التقرب إليهِ وحباهم وجعلهم من خواص حضرتهِ، بحيث لم يلجؤوا إلى غيره وعلموا بعلم اليقين أن لا إله غيره وأنهُ هو سيدهم ومولاهم، وقال رضي الله عنهُ: الفقير قبلة وإمام يقتدى بهِ ينبغي أن تكون أفعالهُ وأقوالهُ وحركاتهُ مطابقة للشريعة المحمدية لئلا ينخرط في سلك اتخذ الناس رؤساء جهالاً فضلوا وأضلوا، وقال رضي الله عنهُ: أنا بريء ممن يسبني، وكانت جماعة من الفقراء حولهُ فقالوا: كيف نسبك وأنت قبلتنا؟ قال: تقولون عني ما لا أقول وتفعلون ما لا يجوز، فمن يراكم يقول: لو لم يسمعوا شيخهم ويرونهُ لما فعلوه، ونقل أن الشيخ مختار قال: كنا جلوسًا عند السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ يوم الخميس في نهر وليدة العلياء، فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ قد حان أوان زوال هذه المجالس، فليعلم الحاضر الغائب من خلا بامرأة أجنبية غير ذات محرم لهُ بشهوة فأنا بريء منهُ، وسيدي الشيخ منصور بريء منهُ والمصطفى بريء منهُ، وقال رضي الله عنهُ: دعوا كل شيء ولا تدخروا شيئًا وإن كان قليلاً، واتقوا جميع المعاصي وإن كانت هي عندكم قليلة، وقال رضي الله عنهُ: ذرية الأولياء تنسب إليهم إلى سبعين بطن، وقال رضي الله عنهُ: من أراد صديقًا بلا حيف بقي زمانهُ بلا صديق، وقال رضي الله عنهُ: دولتي قائمة إلى يوم القيامة، وقال رضي الله عنهُ: أعطاني مولاي في الآخرة مثل ما أعطاني في الأولى، وقال رضي الله عنه: ينبغي للفقراء أنه إذا ظهر بين الخلق بدعة أن ينكروها ولا يدعون أن تغرُّهم الدنيا ويشتغلون بقهرها، وقال رضي الله عنهُ: إذا اقتدى المتأخرون بالمتقدمين ساعدهم المتقدمون وإن لم يقتدوا بهم سلط المتقدمون عليهم الظلمة وكلما يتشبثون بذيلهم لم ينفعهم، وقال لرجل فقير: لعن إبليس وهو يسمع أي مبارك عوض اللعنة، قل: سبحان الله، فقال الفقير: أيرحم الله تعالى هذا؟ فقال رضي الله عنهُ: أي ولدي غدًا في القيامة يظهر من كرم الحق سبحانهُ وتعالى على الخلق ما يتطاول إليهِ أهل هذا المذكور، وللحق في الكل تدبير والله الموفق للصواب، وقال رضي الله عنهُ: من قرأ القرآن ولم يعظم أستاذه فقد استهان بالقرآن فيهينهُ الله ومَن يهن الله فما لهُ من مكرم، قال رسول الله ﷺ: «أهل القرآن أهل الله وخاصتهُ وأفضل عبادة أمتي قراءة القرآن»، وقال رضي الله عنهُ: لولا لطف الله تعالى بخلقهِ ما استطاعوا أن يقرأوا القرآن ولا أن يستمعوه، من أين للناس قلوب يعرفون القرآن، لو حمل القرآن على الجبال الرواسي لهدمها، وقال رضي الله عنهُ: يجب على مَن قرأ القرآن أن ينظر بعين قلبهِ لمن يخاطب، ويجب عليهِ أن يتفكر ويعرف أين يكون قلبهُ، فإن قلبهُ

يخاطب ربه وينظره ولسانه ينطق بكلامهِ وبذكره، فإذا تفكر واعتبر وذل وخشع وتواضع وخضع فعند ذلك ينظره الله تعالى بعين الرحمة والمحبة فيحبهُ ويحبب إليهِ خلقهُ ويجعل لهُ الهيبة في قلوب العالمين، وكل مَن رآه هابهُ وأحبهُ وقرّبهُ فيضاعف لهُ بذلك الحسنات ويرفع لهُ الدرجات ويجعلهُ عينًا لصفاتهِ تعالى، وقال رضي الله عنهُ: مَن أحب الله أحب القرآن، ومَن واظب على تلاوة القرآن فقد وجبت لهُ الجنة ووجبت لهُ محبة الله ونجا من سوء الحساب، وقال رضي الله عنهُ للفقراء: عليكم بإكرام القرآن وأهله لتنالوا بهِ الشرف ويحصل لكم شفاعته يوم القيامة فإنهُ أكبر شافع، وكان رضي الله عنه إذا سمع القارىء يقرأ: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ [المائدة: ١٠٥] يبكي بكاء شديدًا حتى يغمى عليهِ ويقول: عليك يا أحمد كيف لا يضرك؟ قال: بلى والله يضرني بل يضرني، وقد قال: مثل هذا الصديق الأواب والناطق بالصواب إمام الأئمة وقائد الأمة أمير المؤمنين حضرة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وأرضاه، وقال رضي الله عنهُ: إذا قرأ القارىءُ آية الغيبة واغتاب وآية الزور وشهد بالزور وآية الكذب وكذب وقد عرف التهديد والنهي لعنته الآيات وجميع الملائكة المقربين.

وقال رضي الله عنهُ: القرآن حبل الله تعالى من تمسك بهِ نجا وسلم وفاز وغنم، ومَن تركهُ هلك وندم، وقال رضي الله عنهُ: القرآن مأدبة الله فمن لم يتأدب بهِ فليس لهُ أدب ولا لمرض قلبهِ دواء، وقال رضي الله عنهُ للفقراء: عليكم بقراءة الحمد وآية الكرسي كل يوم اثنتي عشرة مرة قبل طلوع الشمس واثنتي عشرة مرة قبل الغروب، وقال: هن الحافظات من جميع الآفات وإن جماعة من الفقراء حافظوا عليها فانتفعوا بها كثيرًا في البر والبحر والحضر والسفر، وأمر الفقراء بالمواظبة عليها، وقال: إنهُ لم يطلع أحد على فضل الحمد وآية الكرسي لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا يحصي ثوابها إلا الله تعالى، وقال رضي الله عنهُ: في سورة الحشر من قرأها ليلة الجمعة ومات في ليالي ذلك الأسبوع مات شهيدًا، وقال رضي الله عنهُ: في سورة النبأ، والطارق مَن قرأهما أمن من عذاب يوم القيامة وظفر بمراده ونصر على أعدائهِ وحاز أجرًا جزيلاً وثوابًا عظيمًا، وسورة التكاثر من قرأها في هم فرّج الله عنهُ همهُ وكفاه شره وآمن من مصائب الدنيا وعصم من الشيطان. وقال رضي الله عنهُ: أي فقراء عليكم بقراءة القرآن ومَن لم يعرف القرآن فعليهِ بقراءة قل هو الله أحد فإن قراءتها ثلاث مرات ختمة، وقال رضي الله عنهُ في شأن نبينا ﷺ: هو الدليل هو الباب وهو الواسطة وهو صاحب الحظ الأوفى والسر الأعظم، وقال: أي فقراء ما روى أحد من جناب الحق سبحانهُ مثل ما روى هذا السيد المكرم من الله تعالى، وقال رضي الله عنهُ: النبي شجرة والولي بقلة وكم تحت هذه الشجرة من هذه

البقلة، وقال رضي الله عنهُ للسيد إبراهيم الأعزب قدس سره: أي ولدي شعرة من ساق نبي ولو كان غير مرسل لا يوازنها أحد من الأولين والآخرين، فقال: كيف هذا الأمر؟ فقال: أي ولدي سر الحق سبحانهُ وتعالى مع تلك الشعرة، والرب سبحانهُ وتعالى لا يوازنهُ شيءٌ، وقال رضي الله عنهُ للفقراء: أي فقراء من جملة صحة الاعتقاد تصديق إشارات الصالحين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، وإن أبا العباس الخضر عليهِ السلام حي مرزوق في الدنيا يسمع منهُ مشاهدة ويرى وهو من أهل التكليف بالشرع المحمدي شرع نبينا صلوات الله وسلامهُ عليهِ، وكذلك إلياس عليهِ السلام وإن إدريس وعيسى عليهما السلام في السماء وإن سيد البشر بمملكة الرحمٰن محمد ﷺ رأى الأنبياء قاطبة عليهم الصلاة والسلام في ليلة الإسراء وشاهدهم وشاهدوه وصافحهم وصافحوه وصلوا ورائهُ روحًا وجسدًا، وإنهُ ﷺ أسلم على يده طوائف من الجان والهوام وإنهم مختلفون اختلاف الأمم، وإن الشياطين قاطبة من أهل النار وإن الجان الموحدين العاملين يدخلون الجنة ولكنهم لا يبلغون منازل المؤمنين الموحدين من الآدميين إذ التكرمة لهم والرسول منهم وإن منهم من يتبع الصالحين منا ويقرأ عليهم ويسالمهم ويتعلم منهم الدعاء والأدب، ومنهم الأشرار كما قسم الله تعالى فريقًا في الجنة وفريقًا في السعير، وإن الأولياء لهم شفاعة دون شفاعة الأنبياء وإن لهم اجتماعًا في البرزخ ولكن تكميلهُ يكون في الآخرة ويكون دونهُ، وإن الشيخ إذا كان كاملاً يحضر عند مريده ويغطيه إذا انكشف ويرفع عنهُ الأذى ما استطاع ويقرب منهُ المنافع.

وقال رضي الله عنهُ: أي أولادي عظموا شأن أهل البيت وأكرموهم ويجلوهم وإذا سمعتم أحدًا يقول في شأنهم أشياء قبيحة فأنكروها إن استطعتم وإلا فاجعلوا أصابعكم في آذانكم لأن لهم في ديوان الربوبية مَن يبدل سيئاتهم حسنات والدنيا والآخرة وما حوتاه موهوبة لهم، قال الله في حقهم: ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] وقال الله: ﴿قل لا أسألكم عليهِ أجرًا إلا المودة في القربى﴾ [الشورى: ٢٣] وقال رضي الله عنهُ: اجتمعت أرباب الولاية على أن كلام الموتى لهم واقع وحديثهم معه وسوآلهم على قدر حال المتكلم والمكلم، وكذلك السلام على الملائكة والمصافحة لهم ومعرفة الشقي من السعيد ومشاهدة الطرف من العيان كل على قدر ما أنعم الله عليهِ وقسم لهُ، وعلى قدر الهمم وعلوها إلى صاحب القدم وكل منهم لهُ مقام لا يتجاوزه وحد لا يتعداه، وعلى أن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم أجمعين، وقال رضي الله عنهُ لمن قال: كل الصحابة سواء: هذا كفر أي مبارك قال الله تعالى: ﴿لا يستوي منكم مَن أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجةً﴾ [الحديد: ١٠] فمن ردّ آية من القرآن أو حرفًا منهُ

فقد رد القرآن ومن رد القرآن كفر، وكان رضي الله عنهُ يذب عن أعراض الصحابة قاطبةً ويأمر بمحبتهم ومدحهم، وقال: إن هؤلاء القوم قد عفا الحق سبحانهُ عنهم ولا يؤآخذهم بما جرى بينهم وإنهم يتواهبون ويدخلون الجنة، وقال رضي الله عنهُ: أحب ريح الجنوب لأنها تأتي برائحة بيت الشيخ منصور يعني خالهُ الشيخ منصور البطائحي الرباني قدس سره، وقال رضي الله عنهُ: لا أدخل بلدة سيدي الشيخ منصور إلا وأنا على طهارة من الالتفات إلى غيره، وقال: لا أرى كبارها وصغارها وأرضها إلا معظمة لأجل سيدي الشيخ منصور، وقال رضي الله عنهُ: كل خطوة إلى نهر دقلى لأجل سيدي الشيخ منصور خطوة إلى الله تعالى، وقال رضي الله عنهُ: إذا قبلتم عتبة الشيخ منصور فاعتقدوا أنكم تقبلون يده، وقال رضي الله عنهُ: بيت الشيخ منصور بيت العز، وقال رضي الله عنهُ: سيدي منصور صاحب طريق عجيب وسرّ غريب لأنهُ كان يقول في أكثر أوقاته، قال لي العزيز سبحانهُ: كذا وقلت للعزيز سبحانهُ كذا وناداني العزيز وقال لي ربي وقلت لربي، وقال رضي الله عنهُ: كان الشيخ منصور يتوب الطفل في المهد والأجنة في البطون، وقال رضي الله عنهُ: إذا ذكرتم الشيخ منصور فأمِرُّوا أيديكم على وجوهكم ينورها الله تعالى ببركتهِ، وقال رضي الله عنهُ: سيدي الشيخ منصور يتصرف في هذا الجمع ويرتبه وأهل أم عبيدة يرتبون سائر الجموع، وقال: سيدي الشيخ منصور نائب النبوة قال الله تعالى: ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾ [الأحزاب: ٦]، وقال رضي الله عنه: لما بويع مع الشيخ منصور في حضرة الربوبية قيل له: أي منصور أطلب شيئًا، فقال: أي رب ما تعطيني إياه أعطهِ لأصحابي فنودي مرةً أخرى، فأجاب مثل ما أجاب في الأولى. فقيل له في الثالثة: أي منصور أنت ما تريد؟ فقال: أنا أريدك، فلما قال السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنه هذا: قال لهُ الشيخ يعقوب: أي شيخنا بحق العزيز سبحانهُ أخبرني بما طلبت إذ قيل، فقال رضي الله تعالى عنهُ: أي يعقوب من أنا حتى أذكر؟ فبالغ معهُ وألحّ عليهِ، فقال: أي يعقوب لما اجتمعت القوم في الحضرة الشريفة وحصل لهم رخصة التكلم، طلب كل فأخذوا منهُ مقصودهم ووصلوا إلى مطلوبهم ودارت النوبة إلى هذا اللاش أحمد نوديت أي أحمد أطلب شيئًا كما طلب إخوانك، فقلت: علمك محيط بكل شيء لا حاجة إلى عرضي فقال سبحانهُ كذلك: ولكني أريد أن أسمع إخوانك مطلوبك فقلت: أي رب أريد أن لا أريد وأختار أن لا أختار، فأجابني إلى ذلك وصار أمري مفوضًا إليهِ كما لم يزل مفوضًا إليهِ فمن يختاره يجيء إلى هذه البقعة ويسلم إلي فأعجز عنهُ في الحال فأسلمهُ إليهِ وأقول: لا أقدر على حفظهِ ولا أعرفهُ فيقبلهُ مني، ثم قال: وفقني فأنا أعرف كلكم، واعلم أن الله أعطى هذه البقعة خاصية تقرب الخلائق إلى الله تعالى

وتبعدهم منهُ، وأنا أعرف صغيركم وكبيركم ذكركم وأنثاكم خفيفكم وثقيلكم، من قربتهُ من العزيز فهو قريب ومن أبعدتهُ فهو بعيد، وقال رضي الله عنهُ: لم يجلس في البساط مع النبي ﷺ في حضرة الربوبية إلا ثلاث سهل بن عبد الله التستري رضي الله عنهُ والشيخ منصور قدس سره والرجل الآخر يشير بها إلى نفسهِ الطاهرة ولم يصرح بها أدبًا، فقال رجل: أنت الرجل الآخر فأدبه ونهاه، وذلك لأنهُ يريد إخفاء هذه المرتبة الكريمة والمنقبة العظيمة، وقال رضي الله عنهُ في شأن المشايخ والأولياء العارفين الواصلين رضي الله عنهم أجمعين: إن هؤلاء القوم هم الذين سبقت لهم من ربهم الحسنى أعطاهم ابتداء من غير سؤال وتوجهم بتاج الكرامة والإجلال، هؤلاء ورثة الأنبياء وصفوة إلـه السماء، وقال رضي الله عنهُ: حين سئل عن المشايخ والأولياء: حدث عن البحر ولا حرج حدثوا إن تحدثوا عنهم ولا عجب، وقال: أي سادة هؤلاء القوم بايعوا الله بصدق النيات وحسن المعاملات وخالص الطويات، على كثرة المجاهدات وملازمة المراقبات والطاعات والصبر على جميع المكروهات وسبق لهم سر قول عالم الخفيات: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ [التوبة: ١١١] وعلم سبحانهُ وتعالى في مكنون علمهِ السابق أنهُ سيكون منهم الصدق والوفاء والصحة والصفاء وتجانب الخلل والجفاء، فأعطاهم الزيادة وبلغهم السيادة من قبل خلقهم وزكاهم إذ قال سبحانه وتعالى في حقهم: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] ولما خرجوا إلى الدنيا وظهرت لهم تلك العناية القديمة الأزلية بادروا إلى ركوبهم العزم وقوة الحزم، فهجروا المنام وتركوا الشراب والطعام وقاموا لله بالخدمة في حنادس الليل والظلام، وخدموا بالخشوع والسهر والقيام والركوع والسجود والصيام وتمللوا في محاريبهم بين يدي محبوبهم لنيل مطلوبهم حتى وصلوا إلى مقام القرب ومحل الأنس وبان لهم سر قولهِ تعالى: ﴿أنا لا نضيع أجر مَن أحسن عملاً﴾ [الكهف: ٣٠] فسلكوا طريق الأنبياء ودعوة الخلق إلى الهدى فأعطاهم الدرجة العليا والمحل الأدنى.

وقال رضي الله عنه حين سئل عن السماع فقال: أي سادة السماع سر ما وصل إليهِ إلا القليل من العارفين وخص الله بهِ أقوامًا استذلهم الخلق فاستقبلهم الحق وأظهرهم على ما يصل إليهِ كثير من أهل الاجتهاد إلا بالعناية بالقديمة وذلك لأجل نظره سبحانه إلى استحقار الخلق لهم وكسر قلوبهم وذل أنفسهم فأسمعهم القول بأسماع القلوب عن بساط القرب من غير حضور النفس، فمنهم مَن سمع بأذنهِ ومنهم مَن سمع بقلبهِ ومنهم مَن سمع بسره ومنهم مَن سمع بروحه، لهم في كل صورة مليحة وحركة لطيفة حظ من أوراد الغيب وكذلك في كل هبوب ريح لذة، فهم والهون حيارى مفتقرون أسارى خاشعون

سكارى، لهم في وقت السماع حنين وأنين لأنهم يسمعون بقلوب رقيقة خالية عن الأكدار قد أضرمت في قلوبهم نيران الاشتياق ولهبات الأحزان فأحرقت كليتهم من غير أن يعلم المستمعون أي شيء أصابهم لا يعرف حالهم غير مولاهم الذي أبلادهم فباطنهم محترق بالله وظاهرهم محفوظ مع الله فساعةً تراهم وقد نزلت عليهم السكينة وساعة معذبين مجزونين وساعة متلذذين مسرورين فواحد يصرخ وآخر يرقص وآخر يبكي وآخر يطرب، فحالهم لا يعرفهُ إلا أهل المعرفة والصفاء والذين ماتوا قبل ألف موتة وباتوا ليلةً جياعًا وليلةً عطاشًا وليلةً دهاشًا، احترقوا بنار الجحيم ألف مرة وحيوا ألف حياة فلا يعرفهم إلا أمثالهم، ثم قال: اعلموا أن السماع للألحان مباح لقول رسول الله ﷺ: «حسنوا القرآن بالصوت الحسن»[1] وذكر حديث عائشة رضي الله عنها يوم العيد وقال: ولهذا صار السماع مباحًا ولا سيما بالألحان الطيبة والأشعار المستلذة ما لم يعتقد الشيخ المستمع محظورًا ولم يكن مذمومًا في الشريعة ولم ينخرط في سلك الهوى ولم ينجر بزمام اللهو فقد سمع رسول الله ﷺ الأشعار حين أنشدت بين يديهِ أحسن استماع فإذا جاز استماع الأشعار بغير الألحان الطيبة فلم يمنع جوازها بالألحان الطيبة، ولا سيما سماع الألحان يوفر الرغبة في الطاعات ويرفع إلى ما أعد الله لعباده من الدرجات ويحمل المستمع على التحرز من الزلات ويؤدي قلبهُ إلى صفاء الواردات ثم قال رضي الله عنهُ: أي سادة السماع على ثلاثة أوجه: الأول منها سماع المريدين والمبتدئين يستديمون بذلك الأحوال الشريفة ويخشى عليهم بذلك الرياء، الثاني: سماع الصديقين الصادقين يطلبون الزيادة في أحوالهم ويسمعوْن بذلك ما يوافق لقبولهم، الثالث: سماع أهل الاستقامة من العارفين فهؤلاء لا يختارون على الله فيما ينزلهُ على قلوبهم من الحركة والسكون، ثم قال رضي الله عنهُ: أي سادة أخبر العزيز سبحانهُ عن السماع في الكتاب المجيد نبيه محمدًا ﷺ بقولهِ تعالى: ﴿فهم في روضة يحبرون﴾ [الروم: ١٥] قيل: يسمعون السماع. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: إذا كان يوم القيامة ودخل أصحاب الجنة الجنة وأصحاب النار النار أمر الله تعالى مناديًا ينادي يا داود ارقَ على كرسيك وأسمع الناس ساعة ليستريحوا من شدة تعبهم فيصعد داود على كرسيهِ فيقرأ لهم ويسمع الناس أصواتهُ الطيبة وأطرابه المستلذة، فيصعد المحبون إلى سطوح قصورهم فهذا يصرخ وهذا يبكي وهذا يقول: الله الله وهذا هو هو وهذا يقول: أنت أنت فيقول الله تعالى للملائكة: يا ملائكتي أما ترون المحبين في سماعهم فيبلغ أهل النار أصواتهم وصياحهم وضجاتهم

(١) أخرجه في كنز العمال حديث رقم: ٢٧٦٥، بلفظ حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنًا.

فيقولون: ماذا وقع فيقال لهم: المحبون في سماع المحبوب في روضة عدن، فيصيح أهل النار واحسرتا أولئك في السماع ونحن في الانقطاع، أولئك يحبرون في الرياض ونحن نقتل بصولة الأعراض، وقال مجاهد: في روضة يحبرون أن السماع من الحور العين بأصوات مطربة وألحان طيبة يقلن نحن الخالدات فلا نموت أبدًا نحن الناعمات فلا نلقى بؤسًا نحن زوجات المؤمنين نحن خادمات المحبين.

وقال رضي الله عنهُ: إن الله تعالى قد أباح السماع لبعض عبيده وخواصه من خلقهِ بدليل قوله تعالى: ﴿يستمعون القول فيتبعون أحسنه﴾ [الزمر: ١٨] معناه أنهم سمعوا القول ولكن قصدوا المراد، وقال الله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى﴾ [الأعراف: ١٧٢] فسمع مَن سمع بلا حد ولا رسم ولا صفة فبقيت حلاوة السماع فيهم تتردد، فلما خلق الله آدم وكونهُ وأظهر ذريتهُ إلى الدنيا ظهر ذلك السر المكنون فيهم فإذا سمعوا حنوًا إلى ذلك النداء فهم العارفون بالله تعالى في الأزل المتحابون فيهِ من أجلهِ وقولهُ تعالى: ﴿فهم في روضة يحبرون﴾ [الروم: ١٥] قيل هو السماع في الجنة، والسماع موجود في طبع كل موجود وكل ذي روح وتسمع روح كل جنس بطبعها وتعمل فيها النغمة حتى أن الطفل إذا سمع طرب ونام، وكذلك الجمال إذا حُدِي لها سارت، وبلغنا عن أبي عبد الله المغربي رضي الله عنهُ أنهُ قال: أهل السماع خلقهم الله من نور بهائهِ وخلق مثلهم سبعين ألف ملك من الملائكة المقربين قد أقامهم الله تعالى بين العرش والكرسي في حضرة القدس، لباسهم الصوف الأخضر ووجههم كالقمر ليلة تمامهِ لهم شعور كشعور النساء وهم قيام متواجدون والهون منذ خلقهم الله تعالى إلى أن ينفخ في الصور، يسمع بكائهم وأنينهم وفجعهم وحنينهم أهل السمٰوات السبع والأرضين فهم أهل السماء، ويتهدلون من العرش إلى الكرسي ومن الكرسي إلى العرش شبيه السكارى لما بهم من شدة التوله إسرافيل قائدهم ومرشدهم وجبريل عليهِ السلام رئيسهم والله تعالى مليكهم وجليسهم وأنيسهم وهم إخواننا في النسب وأصحابنا في أهل السماء، ونقل عن رسول الله ﷺ أنهُ قال: «لما هبط آدم عليه السلام إلى الأرض بكى ثلاث مائة سنة فأوحى الله تعالى إليهِ يا آدم ممَّ بكاؤك وممَّ جزعَك؟ فقال: يا رب لست أبكي شوقًا إلى جنتك ولا خوفًا من نارك وإنما بكائي شوقًا إلى الملائكة الصوفية المتواجدين حول العرش سبعين ألف صفٍّ جرد مرد يرقصون ويتواجدون حول العرش يدورون يد كل واحد منهم بيد صاحبه وهم يقولون: جلَّ الملك ملكنا لولا الملك هلكنا من مثلنا وأنت إلٰهنا ومن مثلنا وأنت حبيبنا ومستغاثنا ومستفزنا وذلك دأبهم إلى يوم القيامة، قال: فأوحى الله تعالى إليهِ يا آدم ارفع رأسك وانظر إليهم،

قال: فرفع رأسهُ إلى السماء فنظر إلى الملائكة وهم يرقصون حول العرش وجبرائيل رئيسهم وميكائيل قوّالهم فلما رآهم سكن روعه وأنينهُ وبكاؤه وحنينه»، وما خلق الله تعالى في خلق السمٰوات والأرض ألذَّ من صوت إسرافيل عليهِ السلام فإذا قرأ في السماء قطع على أهلِ السمٰوات السبع ذكرهم وتسبيحهم ثم أنشد رضي الله عنهُ:

أتوب إلى الذي أمسى وأضحى وقلبي يتقيهِ ويرتجيهِ
تشاغل كل مخلوق بشغل وشغلي في محبتهِ وفيهِ

ثم قال: أي ابن الشيخ خالد ارقص وخالط الرقاصة باعتقادٍ صحيح وقلبٍ صافٍ ويقينٍ خالص. وقال رضي الله عنهُ: السماع ينفع أرباب القلوب لأنهُ يحرك أزمة قلوبهم وأسرارهم إلى المحبوب، وهو يضر بأرباب النفوس لأن النفس تمنع من جناب الحق ولا تخلو الجماعة ممن يحضر معهم فيتعطرون بعطرهم وينالون من فتوح الله الذي أنعم عليهم، وهذه شيمة الكرام، وإنما يحتاج إلى السماع من ليس لهُ جاذبة من باطنهِ، وأما من لهُ جاذبة من باطنهِ فشوقهُ إلى ربهِ فلا يفتقر إلى هذا، والفقير إذا غلب عليهِ الشوق أنشد وتواجد، وكان رضي الله عنهُ في مرض موتهِ سلط الإسهال عليهِ ودوامهُ أكثر من شهر وما قال قطٍ في مرضهِ آه وكان يعاوده الإسهال في كل يوم وليلة نحو ثلاثين مرة، وكان عقيب كل مرة يسبغ الوضوء ويصلي ركعتين، وأخبر أن الله تعالى وعده أن لا يعبر وعليهِ شيءٌ من لحم الدنيا، وقال: الآن ما بقي إلا المخ والعظام ففني لحمهُ بأجمعهِ قبل خروجه من الدنيا، ودخل الشيخ ابن التركي عليهِ في ذلك المرض فوضع يده عليهِ فقال: ما بقي شيءٌ، فقال: أي عمر ما بقي هو قال: بلى فقال هو المقصود، فقال سيدي علي بن عثمان قدس سره: أوصنا، فقال: أي ابن عثمان من عمل خيرًا قدم عليهِ ومَن عمل شرًا ندم عليهِ وأشرف الناس من شرفتهُ طاعة الله وأوضعهم من أهانتهُ معصية الله، أي علي أبعد البعيد من معرفة الله من آثر سخط الله على رضاه ثم غشي عليه، فلما أفاق قال: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ما أقرب رحمة الله ممن أحسن وأطاع ثم قرأ: ﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾ [الأعراف: ٥٦] أي بني عثمان أوصيكم بطاعة الله ومراقبتهِ في السر والعلانية وبذل المعروف واحتمال الأذى وإيجاد الراحة لسائر الخلق ما استطعتم فإن أزكى الأموال ما أُخذ بأمر الله ووجه في مراضي الله وأعان على طاعة الله، وأخبث الأموال ما اكتسب من الحرام فهو كسهام الرامي وقبح ذكره بين الأنام وكونوا كما قال أبو يزيد البسطامي موصيًا لبعض تلامذتهِ: إذا صحبك إنسان سيء الخلق فأدخل سوء خلقه في حسن خلقك يطيب لك العيش معهُ، وإذا أنعم إنسان عليك بنعمتهِ فأمسك الخالق تعالى ابتداء فإنهُ هو الذي يسخر لك

القلوب، وإذا ابتليت ببلية فعجل الاستغاثة إليه فإن البلاء لا ينفك إلا بالصبر عليهِ والالتجاء إلى الله، ثم قال بعد ساعة أخرى: لا إله إلا الله محمد رسول الله لكل أجل كتاب ولكل عمل حساب وثواب عمل الطاعة مشكور وعاملها مأجور والمعصية مذمومة وعذابها مجزوم، وقال رضي الله عنهُ: أي علي من لم ينتفع بأفعالي لم ينتفع بأقوالي، أي علي أنت شيخ بني عثمان وشيخ إخوتك وشيخ ابني صالح وشيخ الرفاعية من الشيخ منصور إلى قيام الساعة، ثم قال: أي علي غدًا تجتمع الملائكة في هذا المقام كثيرًا غدًا تهطل نعمة الله تعالى في هذا المقام مثل ما هطلت من اليوم الأول إلى هذا اليوم، ثم قال: وأما هذا الجمع من الفقراء فإن العزيز سبحانهُ تكفل بهم وأمرهم إليه، أي علي اعلم أنهُ لما قبض العزيز سبحانهُ القبضة ودعاني إلى تسلمها فضعفت عن حملها وعجزت عن نقلها ولم يقربها جناني ولم يقدر عليها جثماني، فقلت: يا رب لست من أهلها وطرحت نفسي عجزًا عن نقلها، فعلم الحق سبحانهُ حقيقة حالي وصدق مقالي وتسلمها مني وقال جلت عظمتهُ أنا لها فكن أنت أي أحمد نائبًا لجنابنا فلا أعرفها منهُ إلى يوم القيامة، وهي صافية نقية كما سلمتها إليهِ صافية نقية بيضاء جلية، وهذه بيعتي معهُ عزّ وجلّ، ثم قال: أي علي وليس لقبضتي كل الخلق ولكن كل مَن تمسك بي أو كان عليهِ شرط التوبة مني أو من خلفائي في سائر الأرض من مشارقها ومغاربها وأنا ملتزم بهِ وثقلهُ علي وأنا لهُ، ثم قال: أي أولاد عثمان قد عقدت لكم مع العزيز سبحانهُ عقدة وبايعت لكم بيعة لا تنحل أبدًا، منها أنتم خدم لهذا القوم، أشار بذلك إلى خدمة الفقراء، ثم قال: أي أولاد عثمان من خرج منكم إلى سفر أو إلى جمعة أو إلى مكان كان هو الصورة وأنا المعنى، أي أولاد عثمان اسمعوا مني واحفظوا عني واعلموا أن الله تعالى قد جعلكم قناطر تحت أقدام الفقراء يعبرون عليكم وأنتم طريقهم، فانظروا كيف تكونون معهم، احملوا أثقالهم وحسنوا أحوالهم وتجاوزوا عن أقوالهم وسدوا خلاتهم واجبروا قلوبهم واستروا عيوبهم ولا تروهم بعين النقيصة ووقروا كبيرهم وارحموا صغيرهم وأعطوا سائلهم وتجاوزوا عن ميتهم وأحسنوا على محسنهم ومسيئهم أجمعين يحسن الله إليكم: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ [النحل: ١٢٨] ثم قال: أي أولاد عثمان أنتم ينظركم الناس بعين الله سبحانهُ ويعتقدون فيكم الخير ويحسنون فيكم الظن، إن كنا كما يظنون فينا فقد سعدنا وما شقينا، ثم تنفس نفسًا كاد يحرق الجلاس من شدة الكمد، ثم قال: أي بني عثمان إني مفارقكم وموصيكم بالتمسك بكتاب الله تعالى والمحافظة على ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ واجتنبوا شؤم العصيان ولا تحصل بينكم الفرقة ولا يحمل بعضكم على بعض: ﴿وكان الله على كل شيء رقيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٢].

وذكر وصية لقمان لولده إذ قال لهُ ابسط حلمك للقريب والبعيد وأمسك جهلك عن اللئيم والكريم، واحفظ إخوانك وصِل أقرباءك أولئك مَن إذا فارقتهم ما فارقوك ولم تغتبهم ولم يغتابوك، واعلم أنه لم يطأ بساطك إلا راغب إليك فمن رغب إليك فأظهر لهُ البشر وأبدأه بالنوال قبل السؤال فإنك من تلجئهُ إلى المسألة تأخذ من ماء وجهه أكثر مما تعطيه، وقد أوصى رضي الله عنهُ أهلهُ وبعض إخوانهِ بقراءة هذا الدعاء وهو له: اللهم أطلق ألسنتنا بذكرك وطهر قلوبنا عما سواك وروّح أرواحنا بنسيم قربك واملأ أسرارنا بمحبتك واطو ضمائرنا بنية الخير للعباد وألف أنفسنا بعلمك واملأ صدورنا بتعظيمك وصير كليتنا إلى جنابك وحسن أسرارنا معك، واجعلنا ممن يأخذ ما صفا ويدع الكدر ويعرف قدر العافية ويشكر عليها ويرضى بك كفيلاً لتكون لهُ وكيلاً ووفقنا لتعظيم عظمتك وارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم، تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام يا من لا إله إلا أنت. وقد قال السيد عبد الرحيم قدس سره للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ: ما نقول بعدك وأيش تورثنا؟ فقال: أي عبد الرحيم تعلم أن ليس لي ما أورثك بل قل عني أنهُ ما نام حتى قرأ إنا أنزلناه ست مرات، قال: قلت: كل الفقراء كذلك. فقال: قل ما نام إلا ورأى الخلق أفضل منهُ، وأما الميراث فأورثك قلوب الخلائق، قال: فأخبرت الشيخ يعقوب بذلك فقال: لك حسب لا لذريتك فرجعت إلى النسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ وأخبرتهُ بقولهِ، فقال: أي ولدي لك ولذريتك فرجعت إلى الشيخ يعقوب، وقلت لهُ ذلك فقال صدق يودّك الناس الذين في زمانك حسب، فرجعت إلى السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ وأخبرتهُ بقولهِ فقال: لكم ولذرياتكم الذرية التي في أصلاب الآباء. وقال السيد عبد الرحيم أيضًا قلت للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ ما نقول بعدك؟ فقال: قل في شأن هذا اللاش خالك ما يأمر بأمر دون ما فعلهُ، ثم قرأ قولهُ تعالى: ﴿لم تقولون ما لا تفعلون﴾ [الصف: ٢] وقال الشيخ ابن النصر للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهما: أيش نقول بعدك؟ فقال: قل: إن لي شيخًا بقي إحدى وعشرين سنة فيهِ يدفع البلاء وفيهِ يمطر وفيهِ يرحم الخلق وفيهِ تخضر الأرض وفيهِ يدرُّ الضرع وفيهِ تنزل البركات وفيهِ ترفع الدرجات، ثم قال: أيش نقدر أن نقول غير هذا؟ وقال الشيخ على ابن النصر: أي سيدي غير ذلك شيء، فقال: قد قلنا ما تعرفهُ الناس وكم وراء ذلك أمور لا يعلمها إلا الله تعالى.

وقال رضي الله عنهُ لسيدي السيد إبراهيم الأعزب قدس سره: إن كنت ترى رجلاً يزني خلف هذا الغمود وفرغ وقام ثم كيف أنت تراه؟ فقال: أراه رجلاً زانيًا، فقال رضي الله عنهُ: ليس هذا طريق الفتوة ولا طريق جدك، قال: فكيف أراه؟ قال: رجلاً عارفًا أي ولدي يمكن أنهُ حين اشتغالهِ بهذا الأمر نزل بقلبهِ خوف الله وتاب وقبل الله توبتهُ فينبغي

أن ترى الخلق بعين الرضا، ثم قال رضي الله عنهُ: عميت لي عين أنظر بها عيب إخواني، وقال رضي الله عنهُ للسيد عبد الرحيم قدس سره إذا أراد أخوك أن يضرب عنقك ينبغي أن تكون إرادتك تبعًا لإرادته، فإن الله تعالى يعلم نيتك ونيتهُ، وقال رضي الله عنهُ لسيدي السيد إبراهيم الأعزب تحت دالية ماء حين سألهُ عن سبب القعود: أي إبراهيم اختبأت في هذا المكان لأن كل ما في مملكة الله تعالى تشبث بذيلي ويستعينون في جميع الأحوال بجدك فمن هو بين الخلق حتى كانت لهُ هذه القدرة المملكة، مملكة الله تعالى يتصرف فيها كما يشاءُ أيش يقدر جدك، وقال سيدي السيد علي بن عثمان للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ أي سيدي أنت الشيخ، فقال: أي علي نزهني عن المشيخة، فقال أي سيدي تعيش أنت القطب، فقال: أي علي نزهني عن القطبية، فقال: أي سيدي تعيش أنت الغوث، فقال: أي علي نزهني عن الغوثية، فقال: أي سيدي أنت السلطان، فقال: أي علي نزهني عن السلطنة، فقال: أي سيدي فأيش أقول في شأنك، فقال رضي الله عنهُ قل:

هي البدر لكن في الدياجي كمالها هي الشمس لكن ليس من دونها ظلُّ

فقال السيد علي: فأي حيرة أنت فقال: أنا ما يعجز عنهُ لسانك ويكل عن ذكره سمعك وتنقطع عنهُ جوارحك وينفذ فيهِ عمرك ولا تصل إلى مرتبتي من ربي عزّ وجلّ، أي علي هذا اللاش خالك لا يحد ولا يوصف ولا يعرفهُ أحد، وقال رضي الله عنهُ للسيد عبد الرحيم قدس سره: لو عرفتموني ما أظلكم معي جدار ولا وجدتم معي لذة عيش ولا يقر بكم قرار إنما رأيتموني بعين رؤوسكم ولو تروني بعين قلوبكم ضاقت عليكم الأرض بما رحبت وفنيتم من العيان. وقال الشيخ ابن كراز قدس سره للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ: أي سيدي مثلك مثل العروس على المنصة فهي قائمة لا يزال ينادي عليها والطبل يضرب والمدعيات يأتين، فإذا نزل العروس سكت المنادي وانقطعت المدعيات، فقال: لا أي يعقوب ما يزال المنادي والعروس على المنصة والطبل يضرب والمدعيات يأتين فلا العروس تنزل ولا المنادي يسكت ولا المدعيات ينقطعن إلى يوم القيامة، وبها جرت البيعة ولن يخلف الله وعده وهو أعلم وأحكم. وقال السيد علي بن عثمان للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ: أي سيدي من أي قوم أنت؟ قال: أنا من القوم الذين أمروا بالعمل فعملوا وبالعلم فتعلموا فعملوا بما علموا فتقبلوا فوصلوا وسبقوا وشربوا حتى سكروا، أي علي أنا ممن حكم عليها ولم تحكم هي عليه وملكها لما وصلت إليه، أي علي كل القوم شربوها فحكمت عليهم فعربدوا وباحوا فخالك شربها فحكم عليها فكتم جده وأخفى وجده فظهر بكلماته على أقرانهِ، أي علي عليك

بكمال الأسرار تنال الفخار وترضي الملك الجبار، قال علي بن عثمان: بحق العزيز قل لي من أي القوم أنت؟ فقال رضي الله عنهُ: من القوم الذين شربوا من زلال المحبة ومن شراب العناية الأزلية وطاب عيشهم وسقوا حتى تدمعوا والتدمع عند القوم من السكون عن التعرض لمراد الله والصبر تحت اختيار الله والطلب لمراضي الله تعالى، وقال رضي الله عنهُ لسيدي السيد إبراهيم الأعزب: القبل ثلاث العرش قبلة الهمم ومكة قبلة الجباه وجدك قبلة المريدين، وقال رضي الله عنهُ يقدر الرجل أن يتصرف في باء بسم الله الرحمٰن الرحيم من الهلال إلى الهلال.

وقال رضي الله عنهُ للفقراء: أكثروا قراءة بسم الله الرحمٰن الرحيم في كل حال ويقول: هو اسم الله الأعظم، وقال رضي الله عنهُ للفقراء: قولوا بسم الله الرحمٰن الرحيم عند كل شيء تفعلوه خاصة عند الطعام والشراب وعند قربكم من نسائكم وفي القيام والقعود وفي المشي في الطريق وفي علف الدواب وجمع الحطب وكنس البيت، ويقول لهم: أي فقراء علموا نساءكم وأولادكم بسم الله الرحمٰن الرحيم يقولونهُ على كل حال، وقال سيدي السيد إبراهيم الأعزب للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ: أي سيدي أراك تكثر من هذا الاسم؟ فقال: أي ولدي أحبهُ ومَن أحب شيئًا أكثر ذكره ولو عرف الناس ما يجعل لهم بقراءة هذا الاسم من الأجر والفضل والإنعام والبركة والزيادة والرحمة لاشتغلوا بهِ، قال الشيخ عمر الفاروثي قدس سره: كنت ذات يوم عند السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ فأجرينا حديث الأمم الماضية والقرون السالفة، فقلت أي سيدي عند المفسرين الأمم كلها ثمانون ألف أمة أي فرقة، فقال رضي الله عنهُ: أي عمر صدقوا ذلك مبلغهم من العلم، أي عمر إنما هي علوم وصلوا إليها وعلوم لم يصلوا إليها لقولهِ تعالى: ﴿وما يعلم جنود ربك إلا هو﴾ [المدثر: ٣١] أي عمر إنما هي ثمانمائة ألف يأكلون ويشربون وينكحون، ولا يكون الرجل رجلاً حتى يعرفهم ويعرف صورهم وكلامهم وصفاتهم ومقاماتهم وأرزاقهم وآجالهم وذراريهم وشقيهم وسعيدهم ذكرهم وأنثاهم حرهم وعبدهم، قال: فلما سمعنا كلامهُ أبهر عقولنا وتعجب الشيخ يعقوب وقال لهُ: أي شيخنا أيش هذا الأمر العظيم الذي لا تحملهُ السرائر ولا تجوّزه الخواطر، فقال لهُ: أي يعقوب أزيدك شيئًا آخر لا تستقر نطفة ذكر في محل الأرحام منهم إلا ينظرها ذلك الرجل فزاد تعجبهُ وقال: أي شيخنا أهذا رب آخر فقال: تأدب أي يعقوب واستغفر ربك إنما يصير صفة من صفات الرب جلّ جلالهُ والحق لا يعجزه شيءٌ وكم من وراء ذلك أمور لا يعلمها إلا الله تعالى.

وقال رضي الله عنهُ: كل مَن لا يحضر تلامذتهُ عند الموت فليس هو عندنا برجل وكل شيخ ينكشف مريده خلف جبل قاف في ظلمة الليل ولا يمد يده ليغطيهِ فما هو عندنا برجل وكل شيخ لا يغير صفات تلميذه ولا يكتب الشقي سعيدًا فليس هو عندنا برجل، وقال رضي الله عنهُ: الكامل من فيهِ أربع صفات أن يبدل الله ببركة صحبتهِ الخلق السيء بالحسن، وأنهُ كلما رفع رأسهُ إلى الله سبحانهُ وتعالى يسمع الجواب فإنهُ لا يشغلهُ شيء عن الخالق جل جلالهُ بحيث لو اجتمع عليه مائة ألف رجل وعرض كل منهم حاجة لقضى حاجتهم من أولهم إلى آخرهم ولم يشتغل بواحد منهم بل يكون متوجهًا بقلبهِ إلى ربهِ سبحانهُ وتعالى حتى يقضي ببركتهِ حاجتهم وأنه لم يعرف رتبتهُ حق المعرفة كل أحد بل يعرفهُ من تمكن في مقام المشاهدة فإن الذين نالوا درجة الكمال لهم التمكن في ذلك المقام، وفيه تظهر مرتبة الشخص رجلاً كاملاً أو متنزلاً من درجة الكمال، وقال رضي الله عنهُ للفقراء: شيخ الوقت من كتب محبتهُ على القلوب وكتب محبتهُ على الماء والهواء فمن شرب الماء وشم الهواء أحبهُ، وقال رضي الله عنهُ: الولي الكامل في غالب أموره لا يعمل عملاً إلا عن إذن سماوي وأنهُ يبلغ إلى حال من ربهِ أنهُ يعطي بالله ويمنع بالله ويغني بالله ويفقر بالله، ويجلس بالله ويحبس بالله ويطلق بالله، قال فقير للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ: بلغنا عن الشيخ منصور أنهُ كان عاشقًا، فقال: أي ولدي صدق فقال الرجل وغيره يعني بهِ السيد أحمد رضي الله عنهُ، فقال رضي الله عنهُ: غيره عاشق ومعشوق وإن كان السيد منصور قد ذاب باطنهُ فغيره قد ذاب ظاهره وباطنهُ، ثم التفت إلى الشيخ يعقوب وقال: أي يعقوب الرجل من تتبين آثاره بعده، وقال رضي الله عنهُ: أعطيت خصلتين لم يعطهما الشيخ منصور أعطيت الحكمة ولم يعطها وأنا معشوق وهو كان عاشقًا والعاشق متعوب والمعشوق مدلل، وقيل لهُ رضي الله عنهُ: إن سيدي أبا محمد بن عبد ذكر في بعض مجالسهِ أن لله تعالى خمسمائة اسم، فقال رضي الله تعالى عنهُ: صدق الشيخ ذلك مبلغهم من العلم إن للحق سبحانهُ وتعالى بعدد كل شيء خلقهُ أسماء أي ولدي قد علمت الأمم كلها كم هي وكذلك نبات الأرض مما لهُ جناح أو ساق على اختلاف الألوان والأجناس للشجر مع الورق اسم وللعود اسم وللزهر اسم وللقشور اسم وللثوب اسم فإذا تمزق صار لكل خيط منها لسانًا يسبح الله تعالى بهِ لا يشبه اسم أسماء وكذلك الطير لهُ لسان واحد فإذا مات أو ذبح وفارق ريشهُ جسده صار لكل ريشة لسانًا يسبح الله تعالى، ثم قال: الدليل على ذلك قولهُ تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ [الإسراء: ٤٤] وزاد في أم البراهين وكذلك الملائكة لكل ملك منهم لسان وعشرة وعشرون لسانًا ومائة لسان وألف لسان يسبحون الله تعالى بتلك الألسن على اختلاف اللغات، وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ مرة يتحدث في المجلس فذكر

القاف، فقال الشيخ يعقوب لهُ أيش بعد القاف قال قاف فأعاد السؤال فقال: قاف وهو يسأل وهو يقول قاف، حتى عد عشر قافات، فقال للشيخ يعقوب وهو يقول تلك القافات: أي يعقوب أرض بيضاء ما عصي ربنا فيها طرفة عين فيها خلق عظيم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ما سمعوا خلق آدم ولا لعن إبليس، فقال الشيخ يعقوب: يقدر أحد يقول ما لم يتحققهُ؟ قال: لا أي يعقوب ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾ [قٓ: ١٨] ثم قال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ: إلا إذا كنا ثم دعى وقام من المجلس وكان بعض الفقراء يحسن الظن في الشيخ يعقوب ويعتقده فلما رأى كلامه السيد أحمد الرفاعي رضوان الله تعالى عليهم أجمعين هكذا ظن وتصور أن السيد أحمد الرفاعي لم يتحقق هذه الأخبار واعترض عليه ويقول في شأنه على الاستهزاء أحيانًا، فأذن الشيخ يعقوب في يوم من الأيام وجلس في الأول وجاء السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ وجلس في المحراب وأدخل رأسهُ في قميصهِ وفعل الشيخ يعقوب مثل ذلك حتى مضى من وقت الصلاة كثير، وكان الشيخ يعقوب إذا أذن لا يقدر أحد أن يقول لهُ شيئًا حتى يفرغ من الصلاة، فقام ذلك الفقير المعتقد في شأنهِ المعترض على السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ ومد يده إلى الشيخ يعقوب وحركهُ فلم يجد غير قميصهِ وعمامته فتعجب من ذلك وأعلم الفقراء به، فلما كان بعد ساعة طولة رفع الشيخ يعقوب رأسهُ وقام فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ للشيخ يعقوب: أي يعقوب تعبت وتعبك عليَّ شديد، ثم قال الرجل المعترض للشيخ يعقوب: ما شاهدت؟ فقال لهُ: ما خليتمونا من فضولكم حتى أخذنا السيد أحمد الرفاعي بهذه اللحى البيض ودار بنا المواضع التي ذكرها بأجمعها حتى لا يبقى منها قليل ولا كثير.

قال الشيخ صالح أبو بكر الخطيب وكان من أصحاب السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ: كنت يومًا من الأيام عند السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ وقد نزل الغيث فقال: كل قطرة يقع معها ملك موكل بها، لا يصعد إلى يوم القيامة، ثم قال: انظروا هل ترون قطرة تختلط بقطرة أخرى؟ ثم انصرفت عنهُ فحضرت يومًا عند الشيخ إبراهيم التربيتي وقلت لهُ قول السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ فقال: هذا ليس بصحيح فصعب عليَّ ذلك فقدر الله الجمع بينهما وأنا حاضر وقولهُ يجول في قلبي وكلما أردت أن أتكلم نظر السيد أحمد الرفاعي إليَّ فأسكت، فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه: قال النبي ﷺ: «كل قطرة ينزل منها ملك موكل بها لا يصعد إلى يوم القيامة وهم سكان المساجد المهجورة يصلّون ويسبحون فيها وثوابهم لمن يصلي فيها»، ثم قال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ: أنا أقول ولم يسمع منى قبل ذلك كلمة أنا هو ذا تحت قوائم العرش ملك عظيم الخلقة خلق الله لهُ جندًا من الملائكة تحت أمره

ونهيهِ بعدد كل قطرة وقعت على الأرض إلى يوم القيامة وكل ذرة ومذر وورق، يسيرون لسيرهِ ويقفون لوقفتهِ لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، ثم تأوّه وقال: وكم لله مثل ذلك، فلما سمع الشيخ التربيتي ذلك القول أطرق رأسهُ إلى الأرض ولم يقبل شيئًا. قال السيد إبراهيم الأعزب قدس سرهُ كنت نائمًا في بعض الليالي في موضع هناك للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ فأيقظني وقال: أي إبراهيم ألا أخبرك أظهرني الله سبحانه في هذه الساعة على سبعة مداين، كل مدينة منها بقدر هذه الدنيا سبع مرات، وهي مملوءة من الخلق ليسوا من الجن ولا من الإنس وما فيهم من يذكر الله تعالى، وكل ليلة عند غروب الشمس يأمر الله تعالى الملائكة فيأخذون ذنوب أمة محمد ﷺ وينفضونها على تلك المدائن السبعة، وكل مَن أصاب منهم ذنبًا فهو من أهل الجنة.

وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه إذا تحدث بحديث غريب لم يسمع من غيره يقول: أي فقراء اسمعوا مني وحدثوا عني ما على المستمع من درك إنما الدرك على من يقول، ثم يقول: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديهِ رقيب عتيد﴾ [قٓ: ١٨] قال السيد إبراهيم الأعزب قدس سره حضرت في بعض الأيام عند السيد أحمد الرفاعي وقد نشر برّ المشايخ وعطر ذكرهم وطيب وصفهم ومدحهم وحسن الثناء عليهم ثم قال: أي فقراء الشيخ عثمان السالم أبادي قدس سره يصعد كل يوم عند غروب الشمس إلى ديوان الربوبية وينظر ديوان ذريتهِ فما يجد من سيئة يمحها ويكتب عوضها بلا معارضة، قال السيد إبراهيم الأعزب فأخذتني الغيرة من ذلك فالتفت إلى السيد أحمد الرفاعي وقال: أي إبراهيم لا يكون الرجل ممكنًا في سائر أحوالهِ حتى يعرض عليهِ عند غروب الشمس جميع أعمال أصحابهِ وأتباعه وتلامذتهِ بالقرب والبعد فيمحو منها ما يشاء ويثبت فيها ما يشاء بكرم الله ولطفهِ، أي إبراهيم قل عن هذا العبد الفقير الحقير البائس المسكين معدن الذل والانكسار. لا يكون الشيخ شيخًا كاملاً في سائر أموره وأحوالهِ وأقوالهِ وأفعالهِ ولا يصلح له الجلوس في المخدة حتى يحضر عند تلميذه في أربع مواضع عند خروج روحه من جسده وعند مسألة منكر ونكير لهُ وعند جوازه على الصراط وعند الميزان. اهـ.

وقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ: الرجل الكامل من فيهِ أربع صفات أن يبدل الله تعالى ببركة صحبتهِ الخلق السيء بالحسن وأنهُ كلما رفع رأسهُ إلى الله سبحانهُ وتعالى يسمع الجواب فإنهُ لا يشغله شيءٌ عن الخالق جل جلالهُ بحيث لو اجتمعت عليهِ مائة ألف رجل وعرض كل منهم حاجتهُ لقضى حاجتهم إلى آخرهم ولم يشتغل بواحد منهم بل يكون متوجهًا بقلبهِ إلى ربهِ سبحانهُ وتعالى حتى يقضي ببركته حاجتهم، وإنهُ لم

يعرف رتبتهُ حق المعرفة كل أحد بل يعرفهُ كل مَن تمكن في مقام المشاهدة، فإن الذين نالوا درجة الكمال لهم التمكن في ذاك المقام وفيهِ تظهر مرتبة الشخص رجلاً كاملاً أو متنزلاً من درجة الكمال، وقال جماعة من الفقراء للسيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ أي سيدي التلميذ لمن؟ قال: لشيخ الوقت، قالوا: من شيخ الوقت؟ قال: من كتبت محبته على القلوب، فسألوه مرة ثانية فقال: من كتب محبتهُ على الماء والهوى فمن شرب الماء وشم الهواء أحبهُ اهـ. وسأله الشيخ يعقوب بن كراز يومًا وقال: أي سيدي بأي الطريق وصل المقربون إلى مقام الكشف والمشاهدة؟ فقال: بترك الاختيار وطاعة الملك الجبار وكثرة التواضع والانكسار، وسئل عن الفتوة فقال رضي الله تعالى عنهُ: هو الصفح عن عثرات الإخوان وأن لا ترى لنفسك فضلاً على غيرك، وقال في أم البراهين الفتى من لا خصم لهُ الفتى خصم لربهِ على نفسهِ، الفتوة أن لا يفاخر الفتى مَن آمن بالله وهدي بالإيمان وتوكل على الرحمٰن، وسئل عن الصديق الذي يحل أكل مالهِ بغير إذنهِ فقال: هو الذي تسكن النفس إليهِ ويستريح القلب فيهِ ثم إنهُ أنشد شعرًا:

أصحب من الإخوان من قلبه ... أصفى من الياقوت والجوهر
ومن إذا سرّك أودعته ... لم يظهر السر إلى المحشرِ
ومن إذا أذنبت ذنبًا أتى ... معتذرًا عنك ومستغفرِ
ومن إذا غيبت عن عينه ... أزعجهُ الشوق ولم يصبرِ

قال خادمهُ علي بن الطري ثم التفت إليَّ بعد إنشاده وقال أي علي من كان لهُ أخ في الله فقد وجب عليهِ حقهُ والمواساة لهُ وحفظهُ في مشهده وغيبتهِ وأنتم إخواني وأصحابي ولزمي، فعليكم بمراقبة الله تعالى وطاعتهِ حتى لا تخجلوني غدًا بين يدي الله العزيز سبحانهُ. أي علي صديقك من حذرك الذنوب ورفيقك من بصرك بعيوبك وأخوك مَن أرشدك إلى الله تعالى، أي علي من صحت لهُ صحبة مع الله تعالى لازم قراءة كتاب الله تعالى بالتدبر، واتبع آدابهُ وأوامره وما خطب به، ومَن صحت صحبته مع الرسول ﷺ اتبع آدابهُ وأخلاقهُ وشريعتهُ وسننهُ، ومَن صحت صحبته مع الأولياء اتبع سيرتهم وطريقتهم وتأدب بآداب طريقتهم، ومَن سقط من هذه الوجوه فقد سلك سبيل الهالكين. وسئل لما لا تحب إجابة الدعوة؟ فقال: لقلة الحلال، وسئل عن سهم الفقير من الله تعالى فقال رضي الله عنهُ: سهم العبد من ربنا على قدر رغبتهِ والرغبة على قدر المعرفة والمعرفة على قدر حسن اليقين وحسن اليقين على قدر العناية من الله تعالى، وسئل عن الذين يموتون في طريق الحج كيف حالهم فقال رضي الله تعالى عنهُ: يحضرون الحساب على

سبيل النظارة ولا يفزعون ولا يعطشون ولا يجوعون بل ينظرونهم أهل الحساب مسرورين بقبول الحق عليهم وهم آمنون، وسئل أن الله تعالى من قبل الولي أو الولي من قبل الله تعالى فقال رضي الله تعالى عنهُ: الولي من قبل الحق سبحانهُ بإقامة الفرائض وأداء الحقوق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورد الشارد واتباع الشريعة المحمدية، والحق سبحانهُ من قبل الولي بإجابة الدعاء والانتصار لهُ وأنهُ يغار لهُ وعليهِ فيأخذ حقهُ ممن يتعدُّ عليهِ وينتقم لهُ ممن يظلمهُ من حيث لا يعلم، ويجيب دعائهُ ويقضي لهُ الحوائج، ثم قال: أي فقراء لو لم يكن الحق سبحانهُ وتعالى من قبل الولي على هذا الوجه في سائر أحوالهِ وبإظهار إشاراتهِ وبيان كراماتهِ لما قامت هيبة الولاية فهيبة الولاية وهيبة النبوة من هيبة الله تعالى، ولما كان الولي من قبل الله تعالى مطيعًا لهُ كان الله تعالى من قبلهِ مجيبًا لهُ.

قال السيد إبراهيم الأعزب قدس سره سألني بعض الفقراء عن حال القطبية فسألت السيد أحمد الرفاعي عن ذلك فقال: إذا أراد الله تعالى لعبد أن يؤهلهُ لهذه المنزلة وهذه الأحوال أول ما يكلفهُ نفسهُ فإذا داراها وأدبها وساسها واستقامت معهُ كلفهُ أهلهُ فإذا داراهم وأحسن عشرتهم كلفهُ جيرانهُ ومحلتهُ، فإذا داراهم وأحسن إليهم وأقام بحقوقهم كلفهُ أمر بلده فإذا أحسن إليهم وداراهم كلفهُ جهةً من الأرض، فإذا أقام بحقوقهم وأحسن إليهم كلفهُ جميع الأرض وإن سبقت لهُ العناية الأزلية وأحسن إليهم وداراهم وأحسن سريرتهُ مع الله تعالى فيهم كلفهُ أمور الدنيا كلها، فإذا أقام بها كلفهُ ما بين السماء والأرض فإن بينهما خلقًا كثيرًا لا يعلمهم إلا الله تعالى، فإن هو داراهم وأحسن إليهم كلفهُ ما عدا بني آدم من المخلوقات، فإن هو داراهم وأحسن إليهم كلفهُ سماء بعد سماء إلى جميع السمٰوات حتى ينتهي إلى مقام الغوثية، ثم يرفع منزلتهُ حتى تصير صفتهُ من صفات الحق سبحانهُ وتعالى، شعرًا:

ما زال من وطن يهدي إلى وطن حتى استقرّ لهُ في الصدق أوطان

فإذا صح لهذه الأمور صار عين سر الله في أرضهُ فيهِ ينزل الغيث وبهِ يرفع البلاءُ وبهِ تنزل البركات، حتى لا تنبت شجرة ولا تخضر ورقة ولا يطلع الله على خلقهِ إلا بنظره ولا تقطر قطرة إلا بإذنهِ، وسئل عن مدفن أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنهُ فقال: قد اجتمعت جميع السادات العارفين على أنهُ مدفون بمشهد الكرخي، فقيل لهُ: أرباب الحديث يقولون إنهُ مدفون بالنجف، فقال: صدقوا فقال آخر: بعض أهل العلم يقولون إنهُ في أول ديار بكر، فقال: صدقوا، فقالوا: كيف الجمع بين هذه الأقوال المختلفة؟ فقال: أنتم تقولون إن النبي ﷺ قال: إن سعة قبر المؤمن مسيرة سنة فكيف

يكون مثل هذا السيد المحتشم علي بن أبي طالب كرّم الله تعالى وجههُ، وقال في أُم البراهين وهل عندكم أحد بعد النبيين والصديقين أفضل من علي عليهِ السلام وأكثر من إيمانهِ فلا تستكثروا لهُ أن يكون قبره روضة مسيرة يومين أو ثلاثة أو شهرين أو ثلاثة. وسئل آدم من محمد أو محمد من آدم عليهم الصلاة والسلام؟ فأطرق رأسهُ ثم رفع وقال للسائل: أيش قلت؟ فأعاد السؤال ثم أطرق رأسهُ ثم رفع وسأل عن سؤالهِ حتى فعل ذلك ثلاث مرات ثم جثى على ركبتيهِ وقال: محمد ﷺ من آدم ذرية وانتقالاً وآدم عليه السلام من محمد ﷺ نبوة وسبقًا وعطاءً.

وسئل رضي الله عنه وقيل لهُ: أي سيدي سمعنا أن رسول الله ﷺ كان يسبق جبرائيل عليهِ السلام وقت نزولهِ بالوحي، فهل كان يعرف للقرآن قبل ذلك أم لا؟ فقال رضي الله تعالى عنهُ: تكلم الحق سبحانهُ وتعالى بالقرآن المجيد قبل خلق السمٰوات والأرض وكتبه في اللوح المحفوظ فلما خلق الله تعالى روح محمد ﷺ عرض القرآن المجيد على روحهِ فتمثل على قلبهِ، فلما ظهر إلى الدنيا وبعث بالرسالة ونزل عليهِ الوحي على لسان جبرائيل عليهِ السلام وتذكرت روحهُ الكريمة ﷺ ذلك العرض السابق فجرى القرآن على لسانهِ فنطق بهِ، فأنزل عليه ﴿ألم ذلك الكتاب لا ريب فيهِ﴾ [البقرة: ١، ٢] أي ذلك الكتاب الذي عرضناه على روحك الشريفة وعلمناه سابقًا أنك ستذكره ولا تنساه، ثم أدبهُ جل وعلا بقولهِ تعالى: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه وقل رب زدني علمًا﴾ [طٰه: ١١٤] وسئل عن قول الله تعالى: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٧] فقال رضي الله تعالى عنهُ: نزلت هذه الآية مخبرة عن رسول الله ﷺ أنهُ ليلة الإسراء أوقفهُ الله تعالى بين يديهِ وعرض عليهِ جميع الكرامات فلم يشتغل بها عن مطلوبهِ من ربهِ عزّ وجلّ ولم يلتفت يمينًا ولا شمالاً لشدة شوقهِ إلى الله تعالى ولذيذ مناجاتهِ والتمتع بمحبوبهِ ونيل مطلوبهِ، ولهذا قال الله تعالى مخبرًا عنهُ ﷺ: ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾ [النجم: ١٧] أي ما زاغ عنا وما طلب غيرنا ولا التفت إلى ما أريناه من عجائب أمورنا ومخلوقاتنا ونعمتنا التي خولناه بها، ولهذا كان عليهِ الصلاة والسلام يقول: «اللهم متعني بالنظر إلى وجهك الكريم وأشغلني بالشوق إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة» لأنهُ ﷺ كان الشوق مركبهُ وإلى الله مطلبهُ، وسئل عن قول الله تعالى: ﴿وما يعلم تأويلهُ إلا الله والراسخون في العلم﴾ [آل عمران: ٧] أهم الوعاظ والذين يكتبون الفتاوي؟ فقال: لا بل مثل سيدي الشيخ منصور وسيدي أبي محمد الشنبكي وسيدي محمد بن عبد وسيدي أبو الوفاء وأشباههم. وقال رضي الله عنه في شفاء الأسقام: ما هم يعرفونهُ نحن نعرفه حرفًا حرفًا والذي نعرفهُ لا يعرفونهُ وما هو

عليهم مكتوم عندنا مشهور بيننا وبينهم حجب ومسافاة كثيرة من جملتها حجاب مسيرة خمسمائة عام.

وسئل عن قول الله تعالى: ﴿يحبهم ويحبونه أذلة﴾ [المائدة: ٥٤] وقيل: كيف محبة الخلق للحق ومحبة الحق للخلق؟ فقال رضي الله تعالى عنه: يحبهم بلا ملل ويحبونهُ بلا علل يحبهم بلا ملل أبد الآباد زمانًا لا ينقضي وما لهُ نفاد، يحبونهُ لا رغبة في الجنة ولا خوفًا من النار، يحبهم وفا ويحبونهُ صفا يحبهم بالعصمة يحبونهُ بالخدمة، يحبهم بالتوفيق يحبونهُ بلا تعويق يحبهم هداية يحبونهُ دراية، يحبهم بالأمان يحبونه بالإيمان، وسألهُ فقير عن قول الله تعالى: ﴿وزرع ونخيل﴾ [الرعد: ٤] فسكت ساعة ثم قال له: اشتغلت فردد عليهِ القول مرارًا ثم فاق من حاله وقال: أي ولدي أقول لك شيئًا قليلاً على كل نخلة منها ثلاثين ألف عتق في كل عتق ثلاثين ألف شمراخ واحد من ذهب والآخر من فضة، وكل شمراخ ثلاثين ألف رطبة كل رطبة ألف رطل لا يشبه بعضها بعضًا لا في طعمها ولا في لونها ولا في ريحها. وسئل عن حال الميت في القبر فقال رضي الله تعالى عنه: أجمع العارفون على أن السعيد في قبره يأكل ويشرب ويتنعم بسائر النعماء كما أن الشقي يعذب بأنواع العقوبة، فقال: أي سيدي هذه العظام البالية كيف تتنعم وتتعذب؟ فقال لهُ: أي مقبل ليس لك عين تشاهد بها الآخرة خلقت عيناك للفناء فلا ترى إلا فانيًا، فلما كان بعد أيام خرج السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ للسفر ومعهُ ابن مرزبان فبينما هم في الطريق إذ وجدوا جمجمة رأس باليةٍ ناخرة، فقال ابن مرزبان: أي سيدي هذه كيف تأكل وتشرب؟ فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ: الآن هي تسلم عليّ وتتبسم من كلامك، قال ابن مرزبان: فلما قدم السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ عليها نظرت إليهِ وسلّمت وتكلّمت وتبسّمت، وفي بعض السير أنهُ سئل عن الصور فقال رضي الله تعالى عنهُ: أي فقراء فم الصور مثل الدنيا سبع مرات أي فقراء ويزيد فم مَن يدور عليهِ يعني فم إسرافيل عليه السلام، وهو منذ خلقهُ الله تعالى لا قم فم الصور ينتظر الأمر بالنفخة. وسئل عن لون الهوى فقال: هو أخضر، فقال السائل: ما الدليل على ذلك؟ فقال: أي ولدي الدليل على أنهُ أخضر حيث أن النفس تتنزه فيهِ من الكروب وأنهُ يذهب بهِ الناقز وترتاح إليهِ القلوب كما ترتاح إلى الخضرة، وسأله بعض الفقراء لأي شيء إذا دخلنا بلدًا أول ما تتلقانا الأطفال وكان عنده حينئذٍ رجل من المشايخ الصيادين يقال لهُ ابن زمران، فقال رضي الله تعالى عنهُ: أي فقراء إذا نزل الماءُ إلى البطيحة أيش يصعد عليه أولاً فقالوا صغار السمك، فقال: لما فيهم من السلامة والصفا وإن كان يصيبهم قصة أو مدر أو يسمعوا صوتًا ما يرجعون والسمك الكبير وإن كان الماءُ قليلاً وأصابهُ شيءٌ أو سمع صوتًا رجع لما فيهِ من الحسن والخبث، فكذلك

الأطفال ليس فيهم خبث ولا رياء، وكان قصده التمثل بشيء يقرب إلى أفهام الحاضرين، ولما كان شيخ الصيادين عنده تمثل بالسمك والماء، فقال: قال الله تعالى: ﴿وتلك الأمثال تضربها للناس لعلهم يتفكرون﴾ [الحشر: ٢١] وسأله بعض الفقراء لأي شيء كان السمك في بعض المياه أكثر من بعض؟ فقال رضي الله عنهُ: لله سبحانهُ وتعالى بحر كلهُ سمك لا يغادره شيءٌ سواه وعليهِ ملك موكل بهِ فكل ما أذن لهُ يصل منهُ إلى كل موضع ما هو مقداره ولهم أجنحة يطيرون إلى حيث ما أمر الله تعالى، وهو بحر عظيم لا يعلمهُ إلا الله تعالى وسأله أبو البدر وقال لهُ: ماذا قال ربك؟ فقال رضي الله تعالى عنه: قال ربي جلّ جلالهُ دارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم، وحضر عنده الشيخ عتيق فسألهُ وقال لهُ: أي سيدي أنت تعطي الناس يدك يقبلونها، فقال رضي الله عنهُ: ما يقبلون يدي، قال الشيخ عتيق: فكيف هذا وأنت الذي تعطي يدك الخلق يقبلونها؟ فقال لهُ السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ: هؤلاء يقبلون اسم الله العظيم أي سيدي إذا أنت رأيت رقعة ما تقبل منها شيئًا، فقال الشيخ عتيق: أقبل منها اسم الله تعالى، فقال السيد أحمد رضي الله تعالى عنهُ: انظر إلى أصابعي فإنها اسم الله تعالى، ففرق أصابعهُ وأقام الخنصر في مقام الألف والبنصر والوسطى في مقام اللامين وضم الإبهام بالسبابة حتى صار بشكل الهاء من اسم الله تعالى فتعجب الشيخ عتيق. وقال: أي سيدي هذا شيء ما سمعناه من غيرك اهـ.

وذكر رضي الله عنهُ المشايخ والأولياء وذكر منهم جماعة بأسمائهم وأثنى عليهم بما هم أهلهُ فقال في سيدي أبي محمد الشنبكي قدس سره: إنهُ قلب واصل، كل السيوف تغمد إلا سيفهُ فإنهُ سيف القدرة فقدره رفيع وجنابهُ منيع ولهُ على ربهِ سبحانهُ الدولة العظيمة، وهي مشيخة هذا الجمع من البداية بالأخذ والعطاء وأمره وحكمهُ عليهِ ولا يخرج هذا الجمع إلى مكان إلا وهو معه في السفر أمامهُ إذا خرج وخلفهُ إذا رجع، وأما محمد بن عبد فإنهُ ينظر إلى إحدى وسبعين قاف كما ينظر أحدكم إلى كفهِ وبسط كفهُ المباركة. وأما السيد أبو الوفاء قدس سره فإنهُ كان لهُ جاه عظيم ولا يحيى مثلهُ وغدًا يأخذ النبي ﷺ بيده ويباهي بهِ الأنبياء صلوات الله وسلامهُ عليهم ويقول لهم: هل في أممكم مثل هذا أبو الوفاء وبين عينيه شمس يكشف ضوءها الشمس سبعين ضعفًا، ثم قال: ثلاث رجال برزت تواقيعهم من حضرة العزيز سبحانهُ وتعالى بانفراد كل واحد منهم بدولة وولاية، وهم سيدي أبو الوفاء والشيخ عثمان السالم آبادي والشيخ عثمان بن مسرور، وأما سيدي الشيخ عثمان بن مسرور فإنهُ سلطان كبير عظيم القدرة إلا أنهُ فاتهُ ثلاثة أشياء: ما ألقى على رأسه تاج السلطنة ولا جلس على المخدة ولا سير الجيش، لا لنقيصة به ولا عجز عنهُ ولكن لاشتغالهِ بربهِ واجتهاده بهِ، وإنهُ لم يفتخر بغير الله تعالى

وترك ما دونهُ ولم يشتغل بغيره لأن المحب قصده محبوبهُ فإذا حصل له فهو المراد بهِ والكفاية عما سواه، وأما سيدي الشيخ منصور قدس الله تعالى سره فإنه لم يزل في السماء مثل الدلو في حوض البئر لهُ صعود ونزول يقضي حوائج الناس وحوائج ذريته وأصحابه إلى يوم القيامة، وأما سيدي الشيخ حمزة قدس سره فرجل عظيم المنقبة عليُّ المرتبة عليهِ خيمة إلى أفق السماء ظل كل ظفر منها لهُ لون من كان لهُ حاجة فليقصده يوم الأربعاء فإنهُ يحضر ديوان الربوبية ويقضي الحوائج لا يرى مثلهُ الأولون والآخرون ولا يرون، وأما الشيخ سعد أبادي قدس سره فإنهُ في خيرة أربعين أميرًا مثل الشيخ عمر المرابطين.

وأما قولهُ رضي الله عنه في السيد أبي محمد الشنبكي قدس سره فإنهُ لم يكن في الشفا تلك القدمة وزاد ونقص في بعضها أشياء فبينهُ بعلاماتها بالحمرة في رأسها وأما سيدي عثمان السالم أبادي قدس الله روحه فإنهُ متواضع معترف يتلاشى ويتذلل لربهِ لأجل معرفتهِ وقربهِ متى أراد حاجةً تقضى حاجتهُ من غير مسألة ولا خطاب، وأما السيد أبو الحسن الشنبكي قدس الله تعالى روحه فإنهُ سلطان كبير القدر كثير الزهد والترك، حتى أنهُ ما جعل على نفسه أن يجلس على مخدة وما ترك أحدًا يحمل لهُ إبريقًا ولا مَن يخدمهُ من كثرة زهده وورعه، وأما السيد أحمد بن مسقول قدس سره فإنهُ سلطان محتشم عظيم السطوة كثير الهيبة قوي البأس وكانت لهُ آيات وإشارات من جملتها كلام الثور لهُ وشكواه إليهِ، وأيضًا أحب الطعام من اليقطين وما تقف لهُ حاجة، وأما سيدي الشيخ عزاز قدس سره فإنهُ عظيم كبير صاحب المرتبة والدولة والصولة، يقدم غدًا إلى حضرة العزيز سبحانهُ ولا يوقع طرفهُ ينظر يمينًا ولا شمالاً وما لهُ قصد غير الله تعالى، وبين عينيهِ شمس يزيد نورها على نور الشمس سبعين مرة، قال الشيخ إبراهيم الأعزب قدس الله روحه: كنت يومًا من الأيام عند السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ فقال: أي إبراهيم قد بقي في الوقت أربعة أنفس رجال فيهم تقضى الحوائج وفيهم ينزل الغيث وهم قضيب البان في الموصل وأبو المكارم في الصلخ والزقري في أم عبيدة وأبو محمد بن عبد في البصرة، وأكثرهم بالله طريقًا الزقري وأكثرهم بصيرة قضيب البان وأكثرهم حكمة أبو محمد، وأما سيدي أبو المكارم قدس سره فإنهُ كان لا يمر عليهِ سحاب إلا وسلم عليهِ ليلاً كان أو نهارًا في حياتهِ وبعد وفاتهِ إلى يوم القيامة، وكان الزقري من جملة مريديهِ، وقيل لهُ رضي الله تعالى عنهُ: إن أهل بغداد يقولون مشايخ العراق في زمان الحلاج لما احترق وذري في الماء فشربوه فصاروا مشايخ وأخذوا بقولهِ شعرًا:

وما شرب العشاق إلا بقيتي — وما وردوا في الحب إلا على وردي

فقال رضي الله تعالى عنهُ: ثكلتهم أمهم أيش كان قدرتهم على هذا القول ولمّ لم يأخذ السيف جنوبهم من حيث لا يعلمون، ذا ظنّ أنهُ ورد وذا ظن أنهُ شرب وذا يظن أنهُ حضر وذا يظن أنهُ سمع وما سمع إذ لو سمع لشرب إنهُ هو جاز حول الحمى بحضرة القدس فوصلتهُ رنة فسمع حنيًنا وطنيًنا وأنيًنا من اتصالها، فطرب وعربد من غير حضور ولا شراب، أين كان الحلاج يوم وادي أرزن؟ قيل لهُ: وما وادي أرزن؟ فقال: أرض في وادي دمشق وكان الحلاج يومًا مارًا فيهِ فرأى عظامًا نخرة فتكلم عليها بالاسم الأعظم الذي كان يحفظهُ وكان سبعًا، فرد الله عليهِ الروح فحمل عليهِ فهرب وصاح فزعق الشيخ عزاز بهِ وهو في ظهر أبيهِ فخلصهُ من السبع، فمتى حرق الحلاج وصار مشايخ العراق برماده مشايخ؟ ثم قال رضي الله عنهُ: ليس العجب من ذلك ولكن إنما العجب أن الشيخ عزاز لما ظهر إلى دار الدنيا أول ما تكلم بهذه القصة. وقال: يقدم عزاز بن مستودع غدًا إلى حضرة العزيز سبحانهُ وعن يمينهِ اثني عشر ألف فارس وعن شمالهِ اثني عشر ألف فارس ما منهم أحد يرضى بمرتبة الحلاج وخادم إبريقه لا يرضى بمقام الحلاج، ولا يقدر الحلاج غدًا أن يقول مثل ما أقول الآن عزاز بن مستودع، ثم قال رضي الله عنهُ: ولو قال لأخذه السيف من كل جانب من حيث يدري ومن حيث لا يدري. وفي الجلاء ذكر أن هذه الحكاية كذا في البراهين والشفاء كلامها، واْختلفا فيها بزيادة ونقصان وأوردنا هنا جميع ما ذكر في كتابيهما وأدخلنا بعضها في بعض.

حكي أن الفقراء اختلفوا في رجال البطيحة أيهم السلاطين وأيهم الأمراء فسألوا السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ فذكرهم لهم وذكر فضلهم ومقاماتهم وقوة أحوالهم وعلو همتهم وعزيز قدرهم وسمو مرتبتهم، فعدَّ سيدي أبا بكر بن هوازن وسيدي الشيخ مكي البطستاني وسيدي أبا محمد الشنبكي وسيدي أبا الوفاء وسيدي أحمد بن مسرور وسيدي عزاز وسيدي مهبوب وسيدي حمزة وسيدي عثمان السالم آبادي وسيدي أبا الحسن السكناني وسيدي إسحٰق السعدي آبادي وسيدي الشيخ منصور وسيدي سهل بن عبد الله وسيدي أبا بكر الهمداني وسيدي عثمان بن مسرور من السلاطين فذلك خمسة عشر رجلاً، وقال رضي الله تعالى عنهُ: تمام السبعة عشر يكون من بني الرفاعي. وذكر أن الأمراء لهم فضل كثير فقال: منهم الشيخ خالد وسيدي إبراهيم السرمعالي وسيدي عيسى وسيدي عمر الباقر وسيدي مبارك بن داود وسيدي أحمد بن خميس في الهنية وسيدي أحمد بن خميس في القنطرة وسيدي حبونه سلم إليهِ السيف ما ظهر رجل في المشرق والمغرب إلا وجاذبهُ ولهُ فيهِ ضربة أو ضربتين، وأراد أن يكون رجل الوقت فزاحمت عليهِ دولة الشيخ منصور بن الرفاعي وما انفرد به سيدي يحيىٰ ابن سيدي مكي وسيدي عبد الرحمٰن السالم أبادي وسيدي أحمد ابن سيدي

جعفر وسيدي مبارك بن شعيب، وما انفرد بهِ الشفا سيدي يحيىٰ النجار وسيدي صالح من قرية الصيادين انتهى.

وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يحدث كل أحد من مشربهِ ويحادث أرباب القلوب بما يشاءُ من علم الغيوب وسر المحبوب، ويحدث المريدين بقوانين الشرع وحسن الأدب ولزوم الطاعات، ويحدث أرباب الخوف والقدرة والعظمة بالموعظة، ويرغب أرباب البدايات إلى الأعمال الصالحة وحسن الظن واليقين ومحبة الصالحين والتمسك بشعار الدين، ويحدث العوام حكايات الأولين وقهر المتجبرين وما جرى على المتكبرين، وما اجتمع معهُ أحد قط إلا ويقتدي خاطره فيهِ باطنًا وظاهرًا حتى أن الإنسان يبقى بعد نظره معطرًا بتلك النظرة المعطرة، قال صاحب أم البراهين: كان أصحاب السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ قد صفت أسرارهم فتنوّرت بصائرهم حكموا على أنفسهم بحسن السيادة فأيدوا بالنظر والفراسة وشرفوا بخلع القبول وبلغوا بترك الرياسة غاية المأمول، وكانوا كما قال عبد الله بن محمد العابد: من ترك فضول الكلام رزق الخشوع، ومن ترك فضول الكلام وفق للحكمة، ومن ترك فضول الكلام وفق للحلاوة والعبادة، ومن ترك المزاح وفق للبهاء، ومن ترك الضحك وفق للهيبة، ومن ترك التجسس وفق للإصلاح وستر عيوبه ومَن ترك التوهم في صفات الله تعالى وفق للتقى ووقي من الشرك والنفاق، وهذه الأشياء المذكورة من بعض صفاتهم المشهورة لأنهم عملوا أعمالاً مستورة فهي لهم عند الله مذخورة وكذلك، يثبت أقدامهم ويزيل أوهامهم، فهم فهموا ما عند الله وأشاروا إلى الله وأعرضوا عما سوى الله فخرقت الحجب أنوارهم وجالت حول العرش أسرارهم وجلت عند الرحمٰن أخطارهم وعميت دون الله أبصارهم، وهم كما قال رسول الله ﷺ: «مَن أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[1] اهـ وقد أثنى أكابر الأولياء وأجلاء العلماء وأكارم العرفاء الذين تنزهت أخلاقهم من الأغراض وقلوبهم من الأمراض على أصحاب السيد أحمد الرفاعي ووصفوهم بالصلاح والتقوى والتمسك بحبل الشرع الأقوى، وقال فيهم معظم مشايخ العرب وعلماء فارس إنهم الطائفة الناصرة لدين الله والذابة عن شريعة رسول الله، ولهم المناقب العظيمة والأيادي الكريمة في خدمة دين الله ونصرة شريعة رسول الله وحماية الملة الإسلامية وعلمائها وشيوخها من الكفرة والزنادقة، بقو الكرامات الصادقة والعنايات الخارقة كما سيأتي ذكر بعضها عند حصول المناسبة، ولم ير في مكتوبات العارفين

---

(١) أخرجه في كنز العمال عن معاذ (١/ ٤٠)، كتاب الإيمان والإسلام حديث رقم: ٩٠، وأخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه عن ابن عمر (٩/ ٤٤٤)، حرف العين، حديث رقم: ٥٠٧٠.

والعلماء المتقدمين وأصحاب السير والمؤرخين إلا ألفاظ التعظيم والتنويه بالكرامة وعظيم الخوارق للطائفة الجليلة الرفاعية بطنًا بعد بطن وجيلاً بعد جيل، نعم شنع عليهم بعض الحسدة وأصحاب التعصب الواهي وقالوا بأن دخول النار وركوب السباع واللعب بالحيات وأمثال ذلك مما أكرمهم الله بها حيلة وبهتانًا، وأول مَن شنع عليهم ابن تيمية الحنبلي وتبعهُ على تلفيقاتهِ الكاذبة وأفكاره السقيمة ابن كثير والحافظ الذهبي المشهور والعيني، ولا يخفى أن ابن تيمية ما سلم من لسانهِ رجل من أهل الله وقد ابتلاه الله بقلة الأدب مع أهل الحق، ومن العجب أنهُ حار في أمره فتارة يثبت من الكرامات ويقول كما يظهر لك أن دخول النار وإحياء الفرس وغير ذلك مما عدده في كتابهِ الفرقان من كرامات الأولياء التي هي من معجزاتهِ ﷺ، وتارة ينفي ويقول: إن دخول النار وشرب السم وغير ذلك من الأحوال المنكرة المبتدعة، فعلى أي كلمة من كلمات الشيخ نعتمد وإلى أي رأي من آرائهِ نستند، وما أحسن ما قالهُ فيهِ الإمام تقي الدين السبكي كما ذكر ذلك الشيخ أحمد زروق المغربي قدس سره في كتابهِ شرح حزب البحر أنهُ رجل علمهُ أكبر من عقلهِ، ثم قال: ومقتضى ذلك أن يعتبر بنقلهِ لا بتصرفهِ في العلم والله تعالى أعلم. قلت وقد كان يزعم هو أنهُ ممن يؤيد السنة ويقمع البدعة والحال أن الرجل كان بليةً على السنة وداءً للشريعة، ولو نظر صاحب علم وفضل إلى أقوالهِ وتكفير مَن خالفهُ فيها لرأى أن كل مَن على وجه الأرض إلا من ندر ما بين مبتدع وكافر وقليل بل أقل من القليل من يبقي لهُ الشيخ ابن تيمية المذكور صفة الإيمان والإسلام، وناهيك بهذا الأثر السقيم من أثر عم البلاد النجدية وبث فيهم الاعتقادات الغريبة الموجبة لكسر قناة الملة الإسلامية، وأنك ترى بين أظهرنا بقيتهم الطائفة الوهابية قاتلهم الله فإنهم استأصلهم الله حرفوا أحكام الشريعة وتعصبوا لأمانة السنة وإحياء بدعهم الشنيعة حتى كأنك ترى بقوة بذر ابن تيمية كل واحد نجدي شيخًا نجديًا وسهمًا شيطانيًا، وقد حذى حذوه ابن كثير فإنهُ من بقية أتباعه والذهبي فإنهُ مع جلالة قدره جعل نفسهُ من أنصاره وأشياعه، فلا تراهم يعظمون في تواريخهم إلا حنبليًا أو أميرًا أو ملكًا أو وزيرًا، ومما يعجبك وتعجب لهُ أن ابن كثير عفي عنهُ ذكر في تاريخهِ شأن جماعة من المشايخ الرفاعية وأطنب بمدحهم لكونهم من المذهب الحنبلي أو ممن ذبّ عن الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهُ على رأي الانتصار بهم لما قام عندهم من الأدلة المعزوة لمذهب الإمام أحمد رضي الله عنهُ كالقول والعياذ بالله بالجهة والاستواء بالكيفية وغير ذلك من الاعتقادات الباطلة التي أوضحها الإمام أحمد بن حجر رضي الله عنهُ من عقيدة ابن تيمية وغيره من الحنابلة الذين انحرفوا عن حقيقة مذهب الإمام أحمد وأخذوا اسمهُ لا غير وابتلوا بالخوض في ذات الله وبالطعن في أولياء الله، وإن هي إلا خدعة الشيطان أعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهنا أردت أن أذكر

لك ملخص ما قالهُ المسكين ابن كثير في تاريخهِ عن ما جرى بين شيخهِ أحمد بن تيمية وبين الشيخ صالح العارف بالله القدوة الشيخ صالح الأحمدي الرفاعي المعروف بشيخ المنيع بنصهِ وحروفهِ لتفهم قوة عقل ابن تيمية وما هو عليهِ من الحسد والبلية على أنهُ نسي مَن آذى لي وليًا فقد حاربني وذلك قول الله في الحديث القدسي فحارب الله بأذية أوليائهِ فانتصر الله لهم وكانت نهايتهُ أن مات محبوسًا في قلعة دمشق مقهورًا وثبتت غارة الله لأوليائهِ وانتصاره لأحبائهِ، ولقائل أن يقول: قد ابتلي أحباب الله بالقتل والسجن وغير ذلك، فالجواب ابتلاءُ الأولياء والصدّيقين محبة من الله وظهور سر القهر في مَن آذى أولياء الله وأحبابهُ انتقام من الله سبحانهُ وتعالى، وبين الانتقام والمحبة بون عظيم وهذا ما قاله ابن كثير بحروفهِ:

وذكر ما جرى للشيخ تقي الدين بن تيمية مع الأحمدية وكيف عقدت لهُ المجالس الثلاثة في يوم السبت تاسع جمادى الأول حضر جماعة كثيرة من الفقراء الأحمدية الرفاعية إلى نائب السلطنة بالقصر وحضر الشيخ تقي الدين بن تيمية فسألوا من نائب السلطنة أن يحضر الأمر أو أن يكف الشيخ تقي الدين إنكاره عليهم منهُ وأن يسلم لهم حالهم، فقال الشيخ: هذا ما يمكن ولا يتم لكل أحد أن يدخل تحت الشريعة قولاً واحدًا وفعلاً، ومن خرج عنها وجب الإنكار عليهِ وعلى كل أحد، فأرادوا أن يفعلوا شيئًا من الأحوال التي يتعاطونها في سماعهم، فذكر الشيخ أن هذا أكثر من باب الحيل والبهتان ومَن أراد منكم أن يدخل النار فليدخل الحمام وليغسل جسده غسلاً جيدًا وينظفهُ ويدلكه بالخل ثم بعد ذلك كلهِ يدخل النار إن كان صادقًا، ولو فرض أن أحدًا من أهل البدعة دخل النار فإنهُ لا يدخل على صلاحهِ بل هو من الأحوال الداخلية المخالفة للشريعة المحمدية إذا كان صاحبها على غير الطريقة السنية، فابتدر شيخ المنيع فضبط عليهِ هذه الكلمة: الأمراءُ والحاضرون وكثر الإنكار عليهم من كل أحد، ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد وأن من خرج منهم عن السنة ضربت عنقهُ وصنف الشيخ جزءًا في طريق الأحمدية وأصل مسلكهم وما في ذلك من مقبول ومردود بالشرع، وأظهر الله السنة ولله الحمد والمنة، وذكر ابن كثير بعد وريقات في تاريخهِ المسمى بالبداية والنهاية أن الشيخ صالح الأحمدي الرفاعي شيخ المنيع وكان التتار يكرمونهُ ولما جاء قطلواشاه نائب التتار نزل عنده، وهو القائل للشيخ تقي الدين بن تيمية حين تناظروا بالقصر: نحن ما تنفق حالاتنا إلا عند التتار وأما عند الشرع فلا والله أعلم انتهى ما قالهُ ابن كثير بحروفهِ. وأما ما قالهُ الذهبي في تاريخهِ المعبر عند ذكر حوادث ثمان وسبعين وخمسمائة فها هو بحروفهِ، قال: وفيها توفي أحمد بن الرفاعي الزاهد القدوة أبو العباس بن علي بن أحمد كان أبوه قد نزل البطائح بالعراق بقرية أم

عبيدة، فتزوج بأخت الشيخ منصور الزاهد فولد لهُ الشيخ أحمد في سنة خمسمائة وتفقه قليلاً على مذهب الشافعي، وكانَ إليهِ المنتهى في التواضع والقناعة ولين الكلام والذل والانكسار والإزراء على نفسهِ وسلامة الباطن، ولكن أصحابهُ فيهم الجيد والردي وقد كثر الزغل فيهم وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات، وهذا لا عرفهُ الشيخ ولا صلحاء أصحابه. وعبارة الحافظ الذهبي رحمهُ الله عين مدرك ابن تيمية وهو من أعجب العجائب وأغرب الغرائب، وسيأتي تفصيل هذه الكرامات التي أنكروها، ويظهر لك أيها المنصف أن الأمر كان من الحسد لمعاصرهم الشيخ صالح الأحمدي المنيعي الرفاعي لا غير، وانظر ما ذكره في هذا الباب الفاضل السيد نعمان أفندي ابن العلاّمة مفتي العراق السيد محمود أفندي الألوسي البغدادي في كتابهِ جلاء العينين الذي بناه على تبرئة ابن تيمية من الزيغ والكفر وغير ذلك وها هو بنصهِ.

فإن قلت: قد تبين من العلماء من هو قادح في الشيخ ابن تيمية وإن كانوا أقل من الفرقة الراضية المرضية إلا أنهُ عرف من القاعدة التي عليها التعويل أن الجرح مقدم على التعديل فما الجواب المميز للخطأ عن الصواب، قلت: قال العلاّمة شيخ مشايخنا وأفضل المتأخرين في عصرنا السيد محمد أمين بن عابدين الدمشقي محشي الدر المختار في كتابهِ سل الحسام الهندي لنصرة الشيخ خالد النقشبندي: إن هذه القاعدة المعروفة بين أهل التفريع والتأصيل من أن الجرح مقدم على التعديل إنما هي في غير من اشتهرت عدالتهُ وظهرت ديانتهُ، وفي غير من علم أن التكلم فيهِ ناشيءٌ عن عداوة أو جهلة أو غباوة، فقد قال الحافظ الباجي: الصواب عندنا أن من ثبتت إمامتهُ وعدالتهُ وكثر مادحوه ومزكوه وندر جارحهُ وكانت هناك قرينة دالة على سبب جرحه من تعصب مذهبي أو غيره فإنا لا نلتفت إلى الجرح فيه ونعمل فيهِ بالعدالة وإلا فلو فتحنا هذا الباب وأخذنا تقديم الجرح على إطلاقهِ لما سلم لنا أحد من الأئمة إذ ما من إمام إلا وقد طعن فيهِ طاعنون وهلك فيهِ هالكون، وقد عقد الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب العلم بابًا في حكم قول العلماء بعضهم في بعض بدأ فيهِ بحديث الزبير رضي الله تعالى عنهُ: دب إليكم داءُ الأمم قبلكم الحسد والبغضاء الحديث. وروي بسنده عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهُ قال: «استمعوا على العلماءِ ولا تصدقوا بعضهم على بعض فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايرًا من التيوس في زروبها»، وعن مالك بن دينار: «يؤخذ بقول العلماءِ والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض»، ومما ينبغي أن يتفقد عند الجرح حال العقائد واختلافها بالنسبة إلى الجارح والمجروح فربما خالف الجارح المجروح في العقيدة فجرحهُ لذلك، وإليهِ أشار الرافعي بقولهِ: وينبغي أن يكون

المزكون براء من الشحناء والعصبية في المذهب خوفًا من أن يحملهم ذلك على جرح عدلٍ أو تزكية فاسق، وقد وقع هذا لكثير من الأئمة جرحوا بناء على معتقدهم وهم المخطئون والمجروح مصيب انتهى. وقد أطال في هذا المقام وهو لعمري على رأس المخالف أمضى من حسام، وقال أيضًا في حاشيتهِ على الدار المختار في بحث الإمام أبي حنيفة وذكر مناقبه ورد الطاعنين فيهِ ما نصهُ: إن الإمام رضي الله تعالى عنهُ لما شاعت فضائلهُ جرت عليهِ العادة القديمة من إطلاق السنة الحاسدين فيهِ حتى طعنوا في اجتهاده وعقيدتهِ مما هو مبرأ منهُ قطعًا لقصد أن يطفؤوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره كما تكلم بعضهم في مالك وبعضهم في الشافعي وبعضهم في أحمد بل قد تكلمت فرقة في أبي بكر وعمر المخزومي وفرقة في عثمان وعلي وفرقة كفرت جميع الصحابة:

ومن ذا الذي ينجو من الناس سالمًا ... وللناس قالٌ بالظنون وقيلُ

وقال الذهبي والعسقلاني: إن قول الأقران بعضهم في بعض غير مقبول لا سيما إذا لاح أنهُ لعداوة أو لمذهب إذ الحسد لا ينجو منه إلا من عصمهُ الله تعالى، قال الذهبي: وما علمت أن عصرًا سلم أهلهُ من ذلك إلا عصر النبيين عليهم الصلاة والسلام اِنتهى. ونحو ذلك ما نقلهُ الإمام الشعراني في ميزانهِ عن طبقات التاج السبكي ما نصهُ: ينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع جميع الأئمة الماضيين وأن لا تنظر إلى كلام بعض الناس فيهم إلا ببرهان واضح، ثم إن قدرت على التأويل وتحسين الظن بحسب قدرتك فافعل وإلا فاضرب صفحًا عما ترى بينهم فإنك يا أخي لم تخلق لمثل هذا وإنما خلقت للاشتغال بما يعنيك من أمر دينك، قال: ولا يزال الطالب عندي نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين الأئمة فتلحقهُ الكآبة وظلمة الوجه فإياك ثم إياك أن تصغي لما وقع بين أبي حنيفة وسفيان الثوري أو بين مالك وابن أبي ذئب أو بين أحمد بن صالح والشعبي أو بين أحمد بن حنبل والحرث المحاسبي، وهلم جرًا إلى زمان الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقي الدين بن الصلاح فإنك إن فعلت ذلك خفت عليك الهلاك فإن القوم أئمة أعلام ولأقوالهم محامل ربما لم يفهمها غيرهم، فليس لنا إلا الترضي عنهم والسكوت عما جرى بينهم كما نسكت عما جرى بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين، قال: وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول: إذا بلغك أن أحد الأئمة شدد النكير على أحد من أقرانهِ فإنما ذلك خوفًا على أحد أن يفهم من كلامهِ خلاف مراده لا سيما علم العقائد فإن الكلام في ذلك أشد .انتهى. وقال أيضًا الشعراني في كتابهِ الأجوبة المرضية عن الفقهاء والصوفية: كما وقع أيضًا للشيخ عز الدين بن عبد السلام من رمي أهل زمانهِ لهُ بالكفر من أجل كلمةٍ قالها في عقيدتهِ وحرشوا السلطان

عليه، ثم تداركهُ الله تعالى بلطفهِ، وكذا أنكروا على الشيخ تاج الدين السبكي ورمود بالكفر واستحلال شرب الخمر وغيرهما وأتوا بهِ مغلولاً مقيدًا من الشام إلى مصر ومعهُ خلائق يشهدون عليهِ، وأنكروا على إمام الحرمين شيخ الغزالي وحسدوه وآذوه فبرع لهُ ولد واشتغل بالعلم وصار يدرس نيابة عن والده فأطعموه السم فقتلوه وأفتوا بكفر الإمام الغزالي بألفاظ وجدوها في كتابهِ الإحياء وحرَّقوا ما وجدوه في أرض المغرب من نسخ الإحياء، وكان من جملة مَن قام عليهِ القاضي عياض وضرب رسول الله ﷺ ابن أبي الخوارزم في المنام مقارع، فلم يزل أثر الضرب على جنبيهِ حتى مات والواقعة مشهورة، ومن جملة ما شنعوا على الغزالي قولهُ ليس في الإمكان أبدع مما كان وأمر الإمام أبي حنيفة وأحمد بن حنبل من الحبس والضرب مشهور، وما قاساه الإمام الشافعي من أهل مصر لما ادعى الاجتهاد المطلق، وكذا الإمام مالك من أهل عصره، وما قاساه الإمام البخاري حتى أخرجوه من بخارى إلى مدينة خرتنك فمات بها، وما قاساه سعد بن أبي وقاص وتشكي أهل الكوفة عليهِ عند عمر رضي الله تعالى عنهما أنهُ لا يحسن أن يصلي وغير ذلك مما يضيق عن تعدادهم هذا الكتاب، فإن أردتهُ فارجع إلى المصنفات المفصلة والكتب المطولة وفي كتاب هداية السائل إلى أدلة المسائل لشيخنا أبي الطيب القنوجي حماه الله تعالى قد فتح باب التقليد والتمذهب عداوات وتعصبات قلّ من سلم منها إلا من عصمهُ الله تعالى، قال: وذكر الحافظ الذهبي في ترجمة أحمد بن عبد الله البناني أن نعيمًا الأصفهاني قال: كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به لا سيما إذا لاح لك أنهُ لعداوة أو لمذهب أو لحسد ولا ينجو منهُ إلا من عصمهُ الله تعالى وما علمت عصرًا من الأعصار سلم أهلهُ من ذلك سوى النبيين والصديقين فلو شئت لسردت من ذلك كراريس انتهى.

وذكر الفاضل السيد نعمان أفندي الألوسي في كتابهِ جلاءِ العينين أيضًا أن ابن تيمية قال في كتابه الفرقان ما نصهُ: فأولياءُ الله تعالى المتقون هم المهتدون بمحمد ﷺ، فيفعلون ما أمر بهِ وينتهون عما نهى عنهُ ويقتدون بهِ فيما يبين لهم أن يتبعوه فيهِ فيؤيدهم الله تعالى بملائكتهِ وروح منهُ، ويقذف الله تعالى في قلوبهم من أنواره، ولهم الكرامات التي يكرم الله عزّ وجلّ بها أولياءه المتقين وخيار أولياء الله تعالى كراماتهم حجة في الدين أو لحاجة في المسلمين، مثل ما كانت معجزات نبينا ﷺ كذلك، وكرامات أولياء الله تعالى إنما حصلت ببركة أتباع رسوله ﷺ فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول عليهِ الصلاة والسلام التي جمعت نحو ألف معجزة وكرامات أصحابهِ والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جدًا مثل ما كان أسيد بن حضير يقرأُ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلمة فيها أمثال السرج وهي الملائكة،

فنزلت تسمع لقراءته وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين، وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة وسبح ما فيها، وعباد بن بشر وأسيد بن حضير، خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما طرف السوط فلما افترقا افترق الضوءُ معهما رواه البخاري وغيره، وخرجت أم أيمن مهاجرةً وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش فلما كان وقت الفطر وكانت صائمةً سمعت حسًا على رأسها فرفعتهُ فإذا دلو برشاء أبيض معلق فشربت منهُ حتى رويت وما عطشت بقية عمرها، وسفينة مولى رسول الله ﷺ أخبر الأسد أنهُ رسول الله ﷺ فمشى معهُ الأسد حتى أوصلهُ إلى مقصده، وخالد بن الوليد حاصر حصنًا فقالوا: لا نسلم حتى تشرب السم فشربهُ فلم يضره، وعمر رضي الله تعالى عنهُ نادى سارية من المنبر والقصة مشهورة، ومثلهُ كثير، ومثل ذلك ما جرى لأبي مسلم الخولاني الذي ألقي في النار فإنهُ مشى هو ومَن معهُ من العسكر على دجلة وهي ترمي بالخشب من مدها، ثم التفت إلى أصحابهِ فقال: هل تفقدون من متاعكم شيئًا حتى أدعو الله تعالى فيهِ؟ فقال بعضهم: فقدت مخلاة فقال: اتبعني فاتبعهُ فوجدوها قد تعلقت بشيء فأخذوها، وطلبهُ الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال لهُ: اشهد أني رسول الله قال: ما أسمع، قال: اشهد أن محمدًا رسول الله قال: نعم، فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائمًا يصلي وقد صارت بردًا وسلامًا، فقال عمر: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني من أمة محمد ﷺ من فعل بهِ كما فعل بإبراهيم خليل الله، وصلة ابن أشيم مات فرسهُ وهو في الغزو فقال: اللهم لا تجعل لمخلوق عليَّ منة ودعا الله سبحانهُ فأحياه لهُ فلما وصل إلى بيتهِ قال: يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية، فأخذ سرجهُ فمات وقد وقع لهُ كثير من ذلك، وكان سعيد بن المسيب في أيام الحرة يسمع الأذان من قبر النبي ﷺ أوقات الصلاة، وكان المسجد قد خلا فلم يبق فيهِ غيره، وكان إبراهيم التيمي يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئًا، وكان عبد الواحد بن زيد أصابهُ الفالج فسأل ربهُ سبحانهُ أن يطلق لهُ أعضاءه وقت الوضوء فكان تطلق لهُ أعضاؤه وقت الوضوء ثم يعود بعده، وهذا بابٌ واسعٌ قد بسط الكلام على كرامات الأولياء في غير هذا الموضع انتهى بحروفه. وهذا في الحقيقة من أعجب الأمور فكأنَّ الشيخ ابن تيمية عفي عنهُ أذعن واعتقد ببعض الكرامات وأنكر البعض، وفي هذا كفاية فلا حول ولا قوة إلا بالله. ولا يخفى أن وجود الأولياء في المسلمين ثابت بالنص القرآني وكرامات أولياء المسلمين معجزة للنبي ﷺ وإنكار كرامات الأولياء كإنكارهم وإنكارهم كفر لما فيهِ من تكذيب النص ولنبحث هنا على وجوب اعتقاد كرامات الأولياء كما قالهُ العلماءُ كافة واتفق عليهِ في المسلمين عامة، قال محب الدين محمد بن الشحنة في

منظومتهِ التي شرحها السيد الشريف أحمد الحموي وسماها تعليق القلائد على شرح العقائد:

ونعتقد الكرامة من ولي ‏ ‏ ‏ ‏ كقصة خالد يوم الذراب

قال الشارح: وخالد هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب أبو سليمان المخزومي سيف الله وصاحب رسول الله ﷺ في الهدنة طوعًا، واستعملهُ أبو بكر رضي الله تعالى عنهُ على قتال مسيلمة ومَن ارتد من الأعراب بنجد، ثم وجههُ إلى العراق ثم وجههُ إلى الشام، وأمَّره على أمراء الشام، وهو أحد الأمراء الذين ولُوا فتح دمشق وقصتهُ على ما في تاريخ الحافظ بن عساكر عن أبي السفر قال: نزل خالد بن الوليد الحيرة فنزل على بني أم المرازبة فقالوا لهُ: احذر السم لا تسقيك الأعاجم فقال: أتوني بهِ فأُتي بهِ. وفي حديث ابن المقري ائتوني منهُ بشيء فأخذه بيده ثم اقتحم وقال: بسم الله فلم يضره شيءٌ انتهى. وقال الإمام اللقاني في شرح جوهرة التوحيد:

وأثبتن للأوليا الكرامه ‏ ‏ ‏ ‏ ومن نفاها فانبذن كلامه

يعني أنهُ يجب عليك أيها المكلف أن تعتقد حقيقة كرامات الأولياء بمعنى جوازها ووقوعها كما هو الحق عند جمهور أهل السنة جمع كرامة، وهي أمر خارق للعادة غير مقرون بدعوى النبوة ولا هو مقدمة لها يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم لمتابعة نبي كلف بشريعتهِ مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم، فامتازت بعدم الاقتران المذكور عن المعجزة وينبغي مقدمتها عن الأرهاص، وبظهور الصلاح عما يسمى معونة كما يظهر على يد بعض عوام المسلمين تخليصًا لهم من المحن والمكاره، وبالتزام متابعة نبي إلى آخره عن الخوارق المؤكدة لكذب الكذابين وتسمى إهانة كبصق مسيلمة في بئر عذبة الماء ليزداد ماؤها حلاوة فصار ملحًا أجاجًا، وبالمصحوبية بصحيح الاعتقاد إلى آخره عن الإسرار كما خرج السحر من جهات عدة ومنهُ علم أن الخوارق سبعة أقسام محتجين على الجواز بأن ظهور الخارق المذكور أمر ممكن في نفسهِ وكل ما هو كذلك فهو صالح لشمول القدرة لإيجاده، ودليل جواز ذلك الأمر وإمكانه أنه لا يلزم من فرض وقوعهِ محال، وعلم الوقوع بأمرين أحدهما ما جاء في الكتاب من قصة مريم وولادتها عيسى دون زوج مع كفالة زكريا لها عليهِ الصلاة والسلام، وكان لا يدخل عليها غيره وإذا خرج من عندها أغلق عليها سبعة أبواب، وكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، ومن قصة أصحاب الكهف ولبثهم في كهفهم سنين بلا طعام ولا شراب، ومن قصة آصف ابن برخيا وإتيانه بعرش بلقيس قبل ارتداد طرف

سليمان إليه ﷺ، والثاني ما تواتر معناه والقدر المشترك منهُ وإن كانت تفاصيلهُ آحادًا من كرامات الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقتنا هذا مما ملأ الآفاق وضاقت عنهُ الدفاتر والأوراق، وقوله ومن نفاها فانبذن كلامهُ إشارة إلى رد مذهب جمهور المعتزلة وللأستاذ وأبي عبد الله الحليمي مباحث قالوا بعدم جوازها متمسكين بما عمدتهُ أنهُ لو ظهرت الخوارق من الأولياء لالتبس النبي بغيره إذ الفارق إنما هو المعجزة وبأنها لو ظهرت بكثرةٍ كثرت الأولياء وخرجت عن كونها خارقة للعادة، والفرض كونها كذلك هذا خلف وبأنها لو ظهرت لا لغرض التصديق لانسد باب إثبات النبوة بالمعجزة لجواز أن يكون ما يظهر من النبي لغرض آخر غير التصديق، وبأن مشاركة الأولياء للأنبياء في ظهور الخوارق يخل تعظيم قدر الأنبياء ووقعهم في النفوس. وإنما نبذنا كلامهم هذا لضعف هذه المتمسكات، فقد أجيب عن أولها بالفرق بين المعجزة والكرامة باعتبار دعوى النبوة والتحدي في المعجزة دونها، وعن ثانيها بالمنع إذ غايتهُ استمرار نقض العادات وذلك لا يوجب كونهُ عادةً، وعن ثالثها بأن ظهورها عند مفارقة الدعوى يفيد تصديق النبي قطعًا ويحصل معها بهِ العلم الضروري الذي لا يقدح فيه ذلك الاحتمال، وعن رابعها بالمنع بل ذلك مما يزيد في جلالة أقدارهم والرغبة في اتباعهم حيث نالت أممهم مثل هذه الدرجة ببركة الاقتداء بهم والتدين بعقائد شريعتهم والاستقامة على طريقتهم أماتنا الله على سنتهم وصحبتهم.

مهمات الأولى الولي عرفًا هو العارف بالله تعالى وبصفاتهِ حسب الإمكان المواظب على الطاعات المجتنب للمعاصي المعرض عن الانهماك في اللذات والشهوات المباحة، فعيل بمعنى مفعول لأن الله سبحانهُ تولى أمره فلم يكلهُ إلى نفسهِ ولا إلى غيره لحظةً بل تولى رعايتهُ قال تعالى: ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ [الأعراف: ١٩٦] أو بمعنى فاعل لأنهُ يتولى عبادة الله وطاعته على الدوام والتوالي من غير أن يتخللها عصيان وكلا المعنيين واجب تحققهُ حتى يكون الولي عندنا وليًا في نفس الأمر بحيث يتحقق قيامهُ بحقوق الله تعالى عن الاستقصاء والاستيفاء بجميع ما أمر بهِ ويتحقق دوام حفظ الله تعالى إياه في السراء والضراء، قالهُ القشيري ونحوه قول ابن دهاق في شرح الإرشاد للولي أربعة شروط:

أحدها أن يكون عارفًا بأصول الدين حتى يفرق بين الخلق والخالق وبين النبي والمتنبي. الثاني أن يكون عالمًا بأحكام الشريعة نقلاً وفهمًا ليكتفي بنظره عن التقليد في الأحكام الشرعية كما اكتفى عن ذلك في أصول التوحيد، فلو أذهب الله تعالى علماء أهل الأرض لوجد عنده ما كان عندهم ولأقام قواعد الإسلام من أولها إلى آخرها، فإنهُ

لا يفهم من قولنا وليّ الله إلا الناصر لدين الله تعالى، وذلك ممتنع في حق من لا يحيط علمًا بدين الله تعالى وقواعده وأصولهِ وفروعهِ. الثالث أن يتخلق بالخلق المحمود الذي يدل عليهِ الشرع والعقل، وأما ما يدل عليهِ الشرع فالورع عن المحرّمات وامتثال جميع المأمورات، وأما ما يدل عليهِ العقل فهو ما يثمره العلم بأصول الدين وهو أنهُ إذا علم حدوث العالم بأسره لم يتعلق قلبهِ بشيء منهُ ولا طمع فيهِ لعلمهِ بأنهُ في قبضة الله تعالى، وإذا علم الوحدانية أخلص لله تعالى في سائر أعمالهِ إذ الربوبية لا تحتمل الشركة في شيء، وإذا علم أن القدر سابق بما هو كائن لم يخف فوت شيء مما قدر ولم يرج نيل شيء مما لم يقدر، وهذا هو المعبر عنهُ بالرضا بالقدر. وسبب تحقق ذلك يلتزم الرفق بالخلق والصفح عنهم عند أذيتهم لهُ لعلمهِ أنهم لا يستطيعون لأنفسهم فضلاً عن غيرهم دفع ضرر ولا جلب نفع، الرابع أن يلازمهُ الخوف أبدًا سرمدًا ولا يجد لطمأنينة النفس سبيلاً فإنهُ لا يحيط علمًا بأنهُ من فريق السعادة في الأزل أو من فريق الشقاوة، ثم لينظر إلى أسباب الشقاوة وأماراتها فيجدها منحصرة في المخالفات فهو يخاف الوقوع فيها زوالها بأضدادها حتى يخاف أن يبدل علمهُ وفهمهُ إلى الشك والجهل، وكذا يخاف أن يطالبهُ ربهُ بالقيام بشكره فيما أنعم بهِ عليهِ فلا يطيق ذلك، وكذا يخاف أن تخدعهُ نفسهُ فيحصل في علمهِ ما يفسده ويحيطهُ من الرياء والسَمعة، وكذا يخاف من توجه الحقوق عليهِ للآدميين فتنقل أعمالهُ إلى صحائفهم وهذه أحوالهم مع الله والله يرزق مَن يشاءُ بغير حساب انتهى. وتأمل قولهُ تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤] تجد ما قالوه مطابقًا لهُ والله أعلم. الثانية يجوز في الكرامات أن تقع بسائر وجوه خوارق العادات على اختلاف أنواعها ولو انقلبت العصا حيةً وكوجود ولد من غير أب إلا بمثل القرآن مما خرج عن المعجزات إلى باب الاختصاص؛ قالهُ السعد والنووي خلافًا لمن ادعى أنها تختص بمثل إجابة دعاءٍ ونحوه، قال النووي: وهو غلط من قائلهِ وإنكار للحس بل الصواب جريانها بقلب الأعيان انتهى. الثالثة الولاية غير مكتسبة كما قالهُ بعض المتأخرين ونبهنا عليهِ فيما مرَّ. الرابعة لا يصل الولي ما دام عاقلاً بالغًا قادرًا إلى مرتبة سقوط التكليف عنهُ بالأوامر والنواهي لعموم الخطابات الواردة بالتكليف وإجماع المجتهدين على ذلك خلافًا لبعض الإباحيين كما بسطناه فيما مر. الخامسة الأولياء محفوظون بمعنى أنهم كلما أذنبوا وفقهم الله للتوبة لا معصومون فلا يمتنع وقوع الذنب منهم ولذا لا يأمنون مكر الله سبحانهُ فهم يرجون رحمتهُ ويخافون عذابهُ جعلنا الله منهم بفضلهِ ورحمتهِ انتهى بحروفهِ.

فإذا أمعنت النظر علمت أن من الواجب اعتقاد وجود الأولياء في الأمة واعتقاد كراماتهم رغمًا للمعتزلة وأهل الجحود على أن كرامات الأولياء معجزة من معجزات رسول الله ﷺ، ومَن أنكرها فقد حذا حذو أهل الجحود والعناد الذين أنكروا معجزة رسول الله ﷺ وقال فيهم تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر﴾ [القمر: ١، ٢] فانظر كيف أخبر سبحانهُ وتعالى بوقوع انشقاق القمر وإعراض أهل الجحود عن آيات سيد البشر ولا يخفى أن الكرامات التي عدها ابن تيمية وابن كثير والذهبي والعيني سامحهم الله من البدعة والأحوال المنكرة في الشرع فإنها ذات أصول ثابتة في السنة والكتاب ولها الأدلة الواضحة والأسانيد الصحيحة الراجحة التي لا يجهلها عالم ولا جاهل ولا ينكرها إلا الحسود المتجاهل، لأن التئام الجروح بعد الضرب بالسيوف وآلات الحديد سبقتهُ معجزة النبي الكريم يوم بدر حين قطع أبو جهل لعنهُ الله يد معوز ابن عفراء رضي الله عنهُ فجاءَ يحمل يده فبصق عليها رسول الله ﷺ وألصقها فلصقت. رواه ابن وهب، ومن روايتهِ أيضًا أن خبيبًا ابن بساق أصيب يوم بدر مع رسول الله ﷺ بضربة على عاتقهِ حتى مال شقهُ فرده رسول الله ﷺ ونفث عليهِ حتى صح، ونفث على ضربة بساق سلمة بن الأكوع يوم خيبر فبرئت، ونفث في رجل زيد بن معاذ حين أصابها سيف إلى الكعب يوم قتل ابن الأشرف فبرئت وغير ذلك مما يطول شرحهُ وهو في كتب السير الثابتة المحمدية مسطور وبين علماء الدين معروف مشهور، وأما أخذ الحيات فإنها مسبوقة بمعجزة موسى عليهِ السلام قال تعالى: ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين حقيق علي أن لا أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل قال إن كنت جئت بآية فأتِ بها إن كنت من الصادقين، فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾ [الأعراف: ١٠٥ ـ ١٠٩] الآية.

قال الإمام جار الله الزمخشري في تفسيره الكشاف عند تفسير هذه الآية ثعبان مبين ظاهر أمره لا يشك في أنهُ ثعبان، وروي أنهُ كان ثعبانًا ذكرًا أشعر فاغرًا فاه بين لحييهِ ثمانون ذراعًا وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب فرعون من سريره وهرب وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك، وهرب الناس وصاحوا وحمل على الناس فانهزموا فمات منهم خمسة وعشرون ألفًا قتل بعضهم بعضًا ودخل فرعون البيت وصاح: يا موسى خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذه موسى فعاد عصى إلى أن قال جار الله في تفسيره: ﴿قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم﴾ [الأعراف: ١٠٩] أي عالم بالسحر ماهر فيهِ قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه حتى خيل لهم العصى حية انتهى بحروفهِ. فانظر كيف أيّد الله

موسى عليهِ الصلاة والسلام بهذه المعجزة وكيف أنكرها عليهِ من طمس الله على قلبهِ، وانظر كيف كان أخذ الحية أمرًا عظيمًا حتى قرنهُ الله بقلب العصى حية في العظم وكيف أخاف الله بالحية الكفار وثبت قلب موسى عليهِ السلام لأخذها بقولهِ تعالى: ﴿خذها ولا تخف﴾ [طه: ٢١] قال في الكشاف لما قال لهُ ربهُ: لا تخف بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده في فمها وأخذ بلحيها وهذه المعجزة الموسوية أجراها الله على يد السادة الأحمدية في الأمة المحمدية، وحذا حذو ملأ فرعون من أنكر هذه الكرامة حسدًا وعنادًا وعلوًا في الأرض وفسادًا، وأما الدخول في النار المضرمة فمعجزة إبراهيمية ذكرها الله تعالى بقولهِ: ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم وأرادوا بهِ كيدًا فجعلناهم الأخسرين﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠] قال في الكشاف روي أنهم حين هموا بإحراقهِ حبسوه ثم بنو بيتًا كالحظيرة بكُوثَى وجمعوا شهرًا أصناف الخشب الصلاب حتى أن كانت المرأة لتمرض فتقول: إن عافاني الله لأجمعن حطبًا لإبراهيم عليهِ السلام، ثم أشعلوا نارًا عظيمة كاد الطير يحترق في الجو من وهجها، ثم وضعوه في المنجنيق مقيدًا مغلولاً فرموا بهِ فيها فناداها جبريل عليهِ السلام: يا نار كوني بردًا وسلامًا، ويحكى ما أحرقت منهُ إلا وثاقهُ وقال لهُ جبريل عليهِ السلام حين رُمي به: هل لك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، قال: فسل ربك، قال: حسبي من سؤالي علمهُ بحالي، وعن ابن عباس رضي الله عنهُ إنما نجا بقولهِ: حسبي الله ونعم الوكيل وأطل عليهِ نمروذ من الصرح فإذا هو في روضة ومعهُ جليس لهُ من الملائكة فقال: إني مقرب إلى إلٰهك فذبح أربعة آلاف بقرة وكفَّ عن إبراهيم، وكان إبراهيم صلوات الله عليهِ إذ ذاك ابن ست عشرة سنة، واختاروا المعاقبة بالنار لأنها أهول ما يعاقب بهِ وأفظعهُ، ولذلك جاء: لا يعذب بالنار إلا خالقها، ومن ثم قالوا: إن كنتم فاعلين أي إن كنتم ناصرين آلهتكم نصرًا مؤزرًا، فاختاروا لهُ أهول المعاقبات وهي الإحراق بالنار وإلا فرطتم في نصرتها، ولهذا عظموا النار وتكلفوا في تشهير أمرها وتفخيم شأنها، ولم يألوا جهدًا في ذلك جعلت النار لمطاوعتها فعل الله وإرادته كمأمور أمر بشيء فامتثلهُ، والمعنى ذات برد وسلام فبولغ في ذلك كأنَّ ذاتها برد وسلام، والمراد ابردي فيسلم منك إبراهيم أو ابردي بردًا غير ضار. وعن ابن عباس رضي الله عنهُ: «لو لم يقل ذلك لأهلكتهُ ببردها» فإن قلت كيف بردت النار وهي نار، قلت نزع الله عنها طبعها الذي طبعها عليهِ من الحر والإحراق وأبقاها على الإضاءة والإشراق والاشتعال كما كانت والله على كل شيء قدير. وأما شرب السموم فهي معجزة محمدية وقعت للحبيب العظيم عليهِ صلوات الله وسلامه حيث روى أبو هريرة رضي الله عنهُ أن يهودية أهدت للنبي ﷺ بخيبر شاةً

سمتها فأكل رسول الله ﷺ منها والقوم أكلوا منها، فقال عليهِ الصلاة والسلام: «ارفعوا أيديكم فإنها أخبرتني أنها مسمومة»[1]، وروي عن أبي سعيد رضي الله عنهُ أيضًا مثلهُ إلا أنهُ قال: فبسط رسول الله ﷺ يده وقال: كلوا بسم الله الرحمٰن الرحيم، فأكلنا وذكرنا اسم الله ولم يضر منا أحد، وسبق لك ما وقع لسيدنا خالد بن الوليد رضي الله عنهُ من شرب السم وقد أسلم أهل الحصن على يديهِ ببركة هذه الكرامة المقتبسة من أشعة معجزة النبي ﷺ، وخبرها منشور منصور، وأما تسخير الله تعالى الأسود للطائفة الرفاعية فعجيب أن الحيوان يتغلب عليهِ سلطان الحق فيذعن لهُ ورهط من الإنسان يغلبهم الشيطان فيصرفهم عن الإقرار بالحق الأبلج الواضح، وفي هذه الكرامة شهد لهم سيد الأنام عليهِ الصلاة والسلام أنهم القوم الذين لا يخافون غير الله، وقد غلبهم صدق الخوف من الله فلم يسلط عليهم غيره أبدًا بشاهد ما صح أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما رجع من سفرٍ كان فيهِ مرةً فوجد جماعة على الطريق فقال: ما هذه الجماعة؟ فقالوا: الأسد قد قطع الطريق عليهم. فنزل عن دابتهِ ومشى إليهِ فأخذ بأذنهِ ونحاه عن الطريق ثم قال: صدق رسول الله ﷺ قال: «إنما سلط على بني آدم من خاف غير الله ولو أن ابن آدم لم يخف غير الله لم يسلط عليهِ غيره، وإنما وكل ابن آدم إلى رجائهِ ولو أن ابن آدم لا يرجو غير الله لم يكلهُ إلى غيره» انتهى وانظر قول رسول الله ﷺ: «مَن أطاع الله أطاعه كل شيء ومَن كان مع الله كان الله معهُ حيث كان وحيث توجه»، ولا يخفى ما وقع للإمام الأعظم والغوث الأجل المكرم نور عين الرسالة ونور رياض الجلالة سيد الأولياء الأعاظم الإمام علي الرضا ابن الإمام موسى الكاظم حيث روي أن المتوكل أمر خدام السباع أن يجوعوا منها ثلاثة ويحضروهم إلى قصره ففعلوا وقعد هو في المنظرة مع أصحابهِ وأغلق باب الدرج، وبعث إلى الإمام علي الرضا حتى يحضر وأمر أنهُ إذا دخل من باب القصر يغلق الباب، فلما دخل أغلق الباب ودخل بين السباع وقد أصمت بزئيرها الأسماع، فلما مشى في الصحن يريد الدرجة مشت إليهِ السباع وقد سكتت وما سُمِعَ لها حسٌ حتى تمسحت بهِ ودارت حولهُ وهو يمسح رؤوسها بكمهِ ثم ضربت السباع بصدرها الأرض وربضت، فما هاشت ولا زئرت حتى صعد الدرجة وتحدث عند المتوكل مليًا ثم انحدر ففعلت السباع كفعلها الأول وربضت، وما سمع لها حس ولا زئير حتى خرج الإمام رضي الله عنهُ من الباب الذي دخل منهُ فركب وانصرف إلى منزله فقال المتوكل لجلسائه: والله لئن بلغتم هذا الخبر لأحد من الناس

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن (٢/ ١٥٤) باب ذكر ما سمّ به رسول الله ﷺ.

لأضربن أعناق هذه العصابة كلهم، فما تجرأ أحدهم ممن شاهد ذلك الأمر أن يتكلم بِهِ حتى مات المتوكل انتهى. فهذه هي الكرامات التي أنكرها ابن تيمية وصاحبهُ المسكين ابن كثير وتبعهما الذهبي والعيني وإن هفوة الذهبي تحمل لغزارة علمه وجلالة قدره ولكونهِ حافظ الشام، فهذه الإساءة بالنسبة إلى فضائلهِ مرجوة العفو إلا أن تحطط بعض القاصرين والمجهولين على زمرة أهل الله لا يتحمل أبدًا ورحم الله الحجة الإمام المحدث أبا سليمان داود بن علي بن خلف الظاهري فإنهُ نقل عنهُ الإمام الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد أنهُ كتب لبعض طلبتهِ وقد عقد مجلسًا وتخلّف عن مجلس أستاذه فأنشد فيهِ:

ولو أني بليت بهاشمي خزلتهُ بنو عبد المدان

صبرت على أذاه لي ولكن تعالي فانظري بمن ابتلاني

ومع ذلك فالله على أوليائهِ أغير وهو أعظم ناصر وأقدر كيف لا وقد جعلوا هؤلاء الجماعة وسيلة الذم لأوليائهِ تعالى إكرامهُ لهم بأن أتحفهم قوة خرق العادات وذلل لهم الحيوانات والجمادات، وقابلهم هؤلاء الرجاء بالإنكار فهل هذا الإنكار إلا الحسد الحالق للدين كما نبه عليهِ سيد المرسلين، وانظر سقم مدرك ابن تيمية وخفة عقلهِ حيث قال يوم المناظرة مع الشيخ صالح الأحمدي الرفاعي يوم ناظره بقصر السلطنة في الشام: مَن أراد منكم أن يدخل النار فليدخل الحمام وليغسل جلده غسلاً جيدًا وينظفهُ ويدلكهُ بالخل ثم بعد ذلك كلهِ يدخل النار إن كان صادقًا، فكأنهُ على زعم الشيخ ابن تيمية من كان وسخًا لا تحرقهُ النار بل مَن كان نظيفًا بعد الغسل ولم يدلك بالخل كذلك لم تحرقهُ النار، وانظر بعد ذلك كلهِ لما أرادوا أن يفعلوا لهُ ما طلب تورب حسدًا ونفورًا فقال: ولو فرض أن أحدًا من أهل البدعة دخل النار فإنهُ لا يدخل على صلاحه إلى آخر ما قال كما تقدم، فيا عجبًا هل نقول بابتداع الشيخ ابن تيمية ويكفينا حجة لإثبات بدعته ما نقلهُ عنهُ بالروايات الثابتة الإمام علامة الأنام مولانا أحمد بن حجر قدس سره في كتبهِ وغيره أيضًا أنهُ أحدث في مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهُ ما لم يكن في المذهب، وخاض في ذات الله وجعلهُ محوزًا عن العالم وصرّح بالجهة وقال بالاستواء على ما يوهم الكيفية والعياذ بالله، أم نحسن بهِ الظن ونقول بعدم ابتداعه وهو الأولى ونسأل الله أن يرحمهُ ويعفو عنهُ وأن لا يسألهُ عن أوزار مَن اتبعوه في البلاد النجدية من الطائفة الوهابية المتمسكين بما نقل لهم عنهُ من الأقوال العجيبة التي أولها لهُ مَن أحبهُ أو حسن فيهِ الظن، ومع كل ذلك ما قدروا أن يبرؤوه من القول بالجهة فإنهُ صرّح بها في كتبهِ ونقلها مبرؤه عنهُ، والحال أن الجهة

توجب تعيين مكان وربنا منزه عن المكان والبحث عن هذا يستلزم كيفية والله منزه عن الكيفية محيط بكل شيء جلّ شأنهُ.

وانظر ما قال صاحب الكشاف عند تفسير قولهِ تعالى: ﴿وكلمهُ ربهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أن موسى عليهِ السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة، قلت: وهكذا شأن الألوهية وذلك لنفي المشابهة بالمخلوقين في كل حال، فلو كان الكلام الإلٰهي جاءَ إلى سمع موسى عليهِ السلام من جهة واحدة لتعين المحل للمتكلم ولثبتت الجهة كما زعم ابن تيمية وأصحابهُ، ولو صح ذلك لأمكنت الرؤية والله تعالى قال لموسى عليهِ السلام: ﴿لن تراني﴾ [الأعراف: ١٤٣] وهو محيط سبحانهُ بكل شيءٍ تنزه عن المشابهة والمماثلة ليس كمثلهِ شيءٌ وهو السميع العليم، فحينئذ علم لديك أن الرجل ابن تيمية تجرأ على الله فبالأولى أن يتجرأ على أهل الله وما هو إلا كما قال الإمام الشعراني قدس سره: كناموسة وقفت على جبل وقالت لهُ: أريد أن أطير، فقال لها لسان حال الجبل: اصنعي ما شئت طرت أو بقيت لست على شيء، وكذلك حساد أهل الله في كل أحوالهم ليسوا على شيء، ألا تنظر كيف حرف ابن كثير قول الشيخ العارف بالله القدوة الشيخ صالح الأحمدي الرفاعي يوم المناظرة مع ابن تيمية حين قال لهُ: كل العجب من أن حالاتنا هذه سلم لها التتار وأسلموا بها بعد أن كانوا من الكفار ولم تسلم بها أنت مع دعواك أنك من أهل الشرع، فقال ابن كثير: إن الشيخ صالح قدس سره قال: نحن ما تنفق حالاتنا إلا عند التتار وأما عند الشرع فلا انتهى. فإن هذا إلا بهتان عظيم.

وانظر قول الذهبي في تاريخه عند ذكر سيدي أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ وكان إليهِ المنتهى في التواضع والقناعة ولين الكلام والذل والانكسار والإزراء على نفسهِ وسلامة الباطن ولكن أصحابهُ فيهم الجيد والردي وقد كثر الزغل فيهم وتجددت لهم أحوال شيطانية منذ أخذت التتار العراق من دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات وهذا لا عرفهُ الشيخ ولا صلحاء أصحابه، فإن الذهبي رحمهُ الله وصف سيدنا السيد أحمد الكبير رضي الله عنهُ بالطباع النبوية والأخلاق المحمدية والسريرة الرضية والسيرة المرضية، وألجمهُ طبعهُ عن ذكر مناقبه الكثيرة وكراماتهِ الشهيرة التي منها دخول النيران وركوب السباع واللعب بالحيات والتسلق إلا الأماكن الشاهقة وإلقاءُ الرجل نفسهُ إلى الأرض ولم تحصل لهُ أذية بإذن الله كما ذكر في المرآة وغيرها من الكتب رغمًا على أنف منكرها. وانظر ما قالهُ العلاّمة سعد الدين التفتازاني في شرح المقاصد وها هو بحروفهِ: وظهور كرامات الأولياء يكاد يلحق بظهور معجزات الأنبياء وإنكارها ليس

بعجيب من أهل البدع والأهواء إن لم يشاهدوا ذلك من أنفسهم قط ولم يسمعوا بهِ من رؤسائهم الذين يزعمون أنهم على شيء مع اجتهادهم في أمور العبادات واجتناب السيئات، فوقعوا في أولياء الله تعالى أصحاب الكرامات يمزقون أديمهم ويمضغون لحومهم لا يسمونهم إلا باسم الجهلةِ المتصوفة ولا يعدونهم إلا في عداد آحاد المبتدعة قاعدين المثل السائر أوسعتهم سبًا وأودوا بالإبل ولم يعرفوا أن مبني هذا الأمر يعني أمر الصوفية على صفاء العقيدة ونقاء السريرة واقتفاء الطريقة واصطفاء الحقيقة اهـ.
قلت: فهل الذين ذكرهم العلاّمة سعد الدين التفتازاني وقعوا في أولياء الله إلا مثل ابن تيمية وابن كثير والذهبي والعيني سامحهم الله، الذين تصدروا لقلب الكرامة إلى البدعة وجعلوها من الأمور المنكرة فيا عجبًا لهذا الحسد العظيم. وانظر كيف ذكروا بعض أصحاب الحضرة الرفاعية بالسوء ونزهوا مقام الشيخ سترًا لمقاصدهم في أصحابه وأتباعهِ بمدحهِ رضي الله عنهُ، وقالوا عند ذكر كراماتهم: ما عرفها الشيخ ولا صلحاءُ أصحابهِ فكيف لا يعرفها وهي كراماتهُ الباهرة وقوة سريرتهِ الطاهرة ودولتهُ الحاضرة وهمتهُ السارية الظاهرة.

وقد كانت تحصل هذه الكرامات الجليلة والمناقب الجميلة على يد أصحابهِ رضي الله عنهُ وعنهم ببركتهِ في عصره، وأخذت عنهُ وعنهم وهي في كل عصر ووقت كرامتهُ الساريةُ وهمتهُ العالية، وأما كثرة وقوع هذه الكرامات من أصحابهِ رضي الله عنهم في أيام التتار فإنها لحكمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال في البهجة الرفاعية: توفي وليُّ الله الشيخ أحمد عز الدين الفاروثي بواسط سنة أربع وتسعين وستمائة ولهُ ثمانون سنة، وقد أجمع رجال وقتهِ على فضلهِ وكمالهِ وعلمهِ وزهده وتقدمه وتخرج بصحبتهِ كثير من الشيوخ، وانتمى إليه معظم شيوخ خراسان وفارس ومصر والشام، وممن أخذ عنهُ العهد ولبس منه الخرقة الشريفة الرفاعية الشيخ محمد المعروف بخاجه الدربندي والشيخ يعقوب ويقال لهُ محزوم جهانيان، وغيرهما من مشايخ تركستان، وهذان الشيخان قدس الله سرهما هما اللذان حضرا عند هلاكو ومعهما تلاميذهما ودخلوا الجميع النار وشربوا السم والنحاس المذاب وبسبب ذلك رجع هلاكو عن الكفر والزندقة وخاف من الأولياء وعظم الملة الإسلامية وأهلها كما ذكر ذلك الشيخ العلاّمة أحمد القرماني في تاريخهِ والبيضاوي أيضًا وغيرهما، وممن أخذ عن الشيخ أحمد الفاروثي أيضًا الشيخ زين الدين المراغي قدس سره ومراغة بلد الشيخ زين الدين هذا هي البلدة التي مات فيها هلاكو ثم نقلوه منها إلى قلعة ثلث من أعمال سلماس انتهى بحروفهِ. قلت: وإلى الشيخ زين الدين المراغي قدس سره تنتهي إجازة الإمام البحر الطام العارف الرباني مولانا الشيخ عبد الوهاب الشعراني قدس سره من طريق شيخهِ خاتمة الحفاظ إمام العلماء سيدنا الشيخ

جلال الدين السيوطي،عن الشيخ كمال الدين إمام الكاملية عن الإمام الهمام الشيخ شمس الدين الجزري، عن الشيخ زين المراغي المتقدم ذكره عن صاحب الترجمة الشيخ عز الدين أحمد الفاروثي إلى سيدنا وشيخنا ومفزعنا السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنهُ كما ذكر ذلك بسنده الشيخ عبد الوهاب الشعراني قدس سره في طبقاتهِ الوسطى، فحينئذٍ يدرك من نص البهجة وتاريخ القرماني والبيضاوي وغيرهم أن دخول النار وشرب السم والنحاس المذاب وغير ذلك من الخوارق التي أعابها الذهبي وابن كثير والعيني تبعًا لابن تيمية، وشنع كل منهم على الطائفة الرفاعية لأجلها كانت سببًا عظيمًا لستر أعراض المسلمين وحقن دمائهم وإرجاع جيوش الظلم والعدوان عنهم وإسلام ملك من ظلمة الملوك الكافرة كهلاكو الذي أظهر الفساد وخرب البلاد وأخاف العباد وختم الله بسبب هذه الطائفة لهُ بالإسلام، ومنَّ الله بسببهم على المسلمين بأن سلموا منهُ ومن أعوانهِ اللئام، فهل لو لم يكن ظهور هذه الخوارق على يد هذه الطائفة كانت تحصل القناعة لملك التتار هلاكو بمجرد تعصب ابن تيمية الفارغ وطعن ابن كثير البارد، وهل كانت تتدرع البيضاء والطائفة الإسلامية العلياء برحلة العيني والذهبي، كلاً بل ليس لشريعة رسول الله ووقاية أمة حبيب الله وتأييد معجزتهِ إلا باهر كرمات أولياء أمتهِ رضي الله عنهم.

والآن نذكر حكايةً ذكرها الإمام العالم الرباني الشيخ عبد الوهاب الشعراني قدس سره عن بعض أصحاب سيدنا السيد أحمد الذي أحيا الله بهم السنة وأمات بهم البدعة، وذلك ليتبين لك بعض أولئك الأصحاب ولتعلم أن مَن أعابهم أي قوم أعاب، قال الشعراني قدس سره في مننهِ الكبرى: كان الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور يقول: إن جماعة الشيخ أبي الفتح الواسطي بمدينة الإسكندرية الذين كانوا يحضرون ورده كل يوم خمسة آلاف منهم الشيخ عبد العزيز الديريني والشيخ عبد الله البلتاجي والشيخ عبد السلام القليبي والشيخ عبد الله الجيلي والشيخ ضرغام المسيري وغيرهم، وكان الشيخ أبو الفتح من أعظم تلامذة سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ إلى أن قال الشعراني قدس سره: وكان الشيخ أبو الفتح الواسطي مع كثرة تلامذتهِ الزائدين على الألوف لا يصحب إلا أرباب الأحوال إلى أن قال: قال الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور: ولما استأذنت لسيدي الشيخ عبد السلام القليبي على باب سيدي أبي الفتح الواسطي وكان قد سكن في مصر وأذن لهُ وكلّمهُ كلامًا حسنًا وأعجب بهِ، فقال لهُ الشيخ صفي الدين كيف عرفت حال الشيخ بغير أحد يدلك عليها فقال: اجمع لي حطبًا وحلفاء فجمع لهُ وقال: جج النار فأجّجها ثم دخل فيها سيدي عبد السلام زمانًا حتى طفيت ثم قال لهُ: عانقني، قال الشيخ صفي الدين: فعانقتهُ فوجدت جسمهُ كالثلج فانظر يا أخي إلى أصحاب سيدي أحمد وسيدي أبي الفتح تعرف أن المريد لا يسقى إلا من ماء شيخهِ انتهى بحروفهِ. فإذا

تبين لك أن مثل الإمام شيخ الإسلام وعلامة الأنام الشيخ عبدِ السلام القليبي رضي الله عنهُ تصدَّر لإجراء هذه الكرامة وقاد المحبين ودفع المنكرين بهذه العلامة، وظهر لك أيضًا أن هذه الطائفة المباركة خدمة الدين علمًا وعملاً وقولاً وفعلاً، فما بقي لابن تيمية وابن كثير وأضرابهما إلا أن ينكر أحدهم الشمس أو يضع عوض اليوم أمس، ومع ذلك فالحق ظاهر على كل حال وما بعد الحق إلا الضلال، والذي أراه أن ابن كثير وجماعتهُ ممن ابتلوا بالإنكار على أهل الله، ألا تراه في تاريخهِ عند ذكر سيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ ما وسعهُ إنكار فضلهِ ولا أعانهُ حسده على ذكر مناقبهِ وجليل طولهِ واقتصر على قولهِ حفظ التنبيه ولأتباعهِ أحوال عجيبة كنزول التنانير وهي تضطرم ويركبون في بلادهم الأسود إلى آخر ما قال، والحال أن الشيخ أبا الفرج عمر الفاروثي المحدث الشهير الشافعي الكبير تلقَّى الفقه والطريقة عن سيدنا السيد أحمد رضي الله عنهُ وكذلك الشيخ أبو شجاع الشافعي والشيخ جمال الدين الخطيب وغيرهم ممن سيأتي ذكرهم في تراجم أصحابهِ رضي الله عنهم. وأما كراماتهُ فقد بلغت درجة التواتر في المشرقين والمغربين كالصبح لا يجهلهُ صاحب عين، وانظر كيف ذكر الشيخ عبد القادر الجيلي رضي الله عنهُ مع كونهِ حنبليًا ويعبر عنهُ بين العلماء الأعلام بشيخ الإسلام حسدًا لكونهِ من أهل الله، اقتصر على قوله عبد القادر بن صالح أبي محمد الجيلي دخل بغداد وسمع الحديث وتفقه على أبي سعد المحزمي الحنبلي إلى أن قال: وكان يتكلم على الناس ويعظهم ولهُ أحوال ومكاشفات وقد صنف كتاب الغنية وفتوح الغيب وفيها أشياء حسنة، ولكن ذكر فيهما أحاديث كثيرة موضوعة وكانت وفاتهُ ليلة السبت إلى أن قال: دفن بالمدرسة التي كانت لهُ رحمه الله والحال أن أقل مَن تفقه على الشيخ عبد القادر وأخذ منهُ علم الباطن والظاهر أعلم من ابن كثير وشيخه ابن تيمية بكثير، وكرامات أبي محمد الباز الأشهب أشهر من أن تذكر تشكر ولا تنكر، وانظر كيف ذكر الشيخ عبد المغيث بن زهير الحربي الحنبلي أنهُ كان من صلحاء الحنابلة وكان يزار وذكر من جملة مزاياه التي أعجبتهُ أنهُ صنف كتابًا في فضل يزيد بن معاوية، وأحرج الخليفة الناصر بذلك وقال: لا أسوغ لعنهُ إلى آخر ما قال، فانظر من مدح ومن ذم تعلم كيف ابتلاه الله بسوء الفهم، ولنرجع للمقصود فنقول إن قلت إن بعض مَن يضرب نفسهُ بآلات السلاح ويفعل الخارقات يرتكب المنكرات قلنا لك إنما الخارقة التي تصدر منهُ كرامة الله التي أكرم به وليهُ السيد أحمد سر تضمنتهُ البُشرى الإلـٰهية التي سبقت للأولياء في عالم الأزل والله يرزق مَن يشاءُ بغير حساب. وليعلم لديك أن الرخصة بإجراء هذه الخارقات تكون حالة إنكار الكافرين على الدين إظهارًا للمعجزة المحمدية المتسلسلة منهُ عليهِ الصلاة والسلام في أمتهِ الأحمدية وتكون

لتخليص منكر من ورطه إنكاره المؤدي لدماره وإلا فهذه الطريقة الشريفة بنيت أصولها وفروعها على الكتاب والسنة ألا ترى قول سيدنا السيد أحمد قدس سره من رغب لإظهار الكرامات والخوارق وإفشاء براهين الأولياء قاصدًا بذلك التفاخر أو سلمًا لصيد الدنيا فأنا بريءٌ منه في الدنيا والآخرة، وقال: بنيت طريقتنا على الكتاب والسنة ومتابعة رسول الله ﷺ، فإن مَن مال عن طريق متابعته سقط من أول قدم وتمزق، وكل الصدق مع الله اتباع رسولهِ عليهِ السلام فطوبى للموفقين. ولنرجع لكلامهِ قدس سره كان يقول لأصحابهِ أكثروا من قول بسم الله الرحمٰن الرحيم عند كل شيء تفعلوه، قال في جلاء الصدا: كان السيد أحمد يقول لأصحابهِ: أكثروا من قول بسم الله الرحمٰن الرحيم عند كل شيء تفعلوه خاصّةً عند الطعام والشراب وعند قربكم من نسائكم وفي القيام والقعود وفي المشي في الطريق وفي علف الدواب وجمع الحطب وكنس البيت ويقول لهم: أي فقراء علموا نسائكم وأولادكم بسم الله الرحمٰن الرحيم يقولونها على كل حال. نقل أن جماعة من الفقراء رأوا الجن يشكون بعضهم إلى بعض أن هذا الرجل يعني السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ قد ضيّق علينا المسالك وكدر علينا عيشتنا لتعليمهِ أصحابهُ وتعليمهم أزواجهم وأولادهم قول بسم الله الرحمٰن الرحيم، وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يكثر قراءة بسم الله الرحمٰن الرحيم في كل حال ويقول هي اسم الله الأعظم ويديم قراءتها في مجالسهم ذي الذكر معظمًا لها رافعًا لقدرها ويكثر كتابتها في كتبهِ ودعوتهِ.

قال السيد إبراهيم الأعزب قدس سره: رأيت السيد أحمد الرفاعي وهو يصعد درج داره ويقول في كل قدم مرةً: بسم الله الرحمٰن الرحيم، فقلت: أي سيدي أراك تكثر من هذا الاسم فقال: أي ولدي أحبهُ ومن أحب شيئًا أكثر ذكره ولو عرف الناس ما يجعل لهم بقراءة هذا الاسم من الأجر والفضل والإنعام والبركة والزيادة والرحمة لاشتغلوا بها دائمًا، قال الشيخ ابن هاشم رحمة الله تعالى عليهِ: أحضرني السيد أحمد الرفاعي بين يديهِ وقال لي: توضأ فاشتغلت بالوضوء فلما وصلت غسل الذراعين قلت: حاسبني حسابًا يسيرًا فزعق وقال: أي ولدي اليسير من حسابه لا يطاق وإن حاسب الله كما ورد لا ينجو عيسى وموسى عليهم الصلاة والسلام، فلما وصلت القدمين قلت: اللهم ثبت قدميَّ على الصراط يوم تزل بهِ الأقدام، فصرخ وسقطَ على الأرض مغشيًا عليهِ فلما أفاق قال: أي ولدي إن مد الصراط كما ذكر ما ينجو إبراهيم الخليل عليهِ الصلاة والسلام، لا تقل ذلك من بعد ولكن قل على كل عضو بسم الله الرحمٰن الرحيم بركة وطهورًا وأجرًا عظيمًا ومنحةً وفضيلةً يضاعف لك أجرها. رأى السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ فقيرًا يتعمم وهو ساكن فقال لهُ: أي ولدي قل عند كل دورة: بسم الله الرحمٰن الرحيم فإذا فرغت فقل عند الفراغ الحمد لله رب العالمين فإنك إذا فعلت هذا

يصير لكل طاقة منها لسان يسبح الله تعالى، وثواب ذلك التسبيح لك حتى تخربها، وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يقول: يقدر الرجل أن يتصرف في باء بسم الله الرحمٰن الرحيم من الهلال إلى الهلال. وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يحب قراءة القرآن ويحب قراءة الفاتحة حتى أنهُ كان يقرأها في طرقاتهِ، وإذا قرأ القرآن يقرأها بين كل سورتين ويقول: ليسهل الله تعالى ببركتها قراءة الباقي، وكان رضي الله عنهُ يوصي الفقراء بقراءة الحمد وآية الكرسي كل يوم اثني عشر مرة قبل طلوع الشمس واثني عشر مرة قبل الغروب ويقول: هن الحافظات من جميع الآفات فحفظوها جماعة من الفقراء وحافظوا عليها فانتفعوا بها كثيرًا في البر والبحر والحضر والسفر، ويأمر الفقراء بالمواظبة عليها. ويقول: إنهُ لم يطلع أحد على فضل الحمد وآية الكرسي لا ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا يحصي ثوابها إلا الله تعالى ويأمرهم بقراءة المسبعات العشرة بكرةً وعشية ويقول لهم: أنتم بلا شغل وهذه بضاعة سنية، والمسبعات العشر هي التي أوردها الشيخ الخبير الجليل والعالم الفاضل النبيل الممدوح على ألسنة جميع الطوائف الممنوح لهُ المقام العالي والعوارف الإمام الولي الزكي الشيخ أبو طالب محمد بن عطية المكي في كتابهِ المرغوب المحبوب المسمى بقوت القلوب في الفصل الرابع منهُ. قال رحمة الله عليه: هي أهداها الخضر عليهِ السلام إلى إبراهيم التيمي وأوصاه بقولها غدوةً وعشيةً وقال لهُ الخضر عليهِ السلام: أعطانيها محمد ﷺ، وذكر من فضائلها وعظم شأنها ما يجل عن الوصف، ولهُ أنهُ قال: لا يداوم على ذلك إلا عبد سعيد سبقت لهُ من ربهِ الحسنى وحدثنا ذكر فضائلها اختصارًا فإن قال ذلك فقد استكمل عليهِ الفضل، والمداومة عليهنَّ تجمع لهُ جميع ما فرقناه من الأدعية، روي ذلك سعد بن سعيد عن أبي طيبة عن كوزين وكان من الأبدال، قال: أتاني أخ من أهل الشام فأهدى لي هدية وقال: ياكوزين اقبل مني هذه الهدية فإنها نعم الهدية، فقلت: يا أخي مَن أهدى لك هذه الهدية فقال: أعطانيها إبراهيم التيمي رحمهُ الله. وقال: في حين كنت جالسًا في فناء الكعبة وأنا في التهليل والتسبيح والتحميد فجاء رجل وسلّم عليَّ وجلس عن يميني ولم أرَ في زماني أحسن وجهًا منهُ ولا أحسن ثيابًا ولا أشد بياضًا وأطيب ريحة فقلت: يا عبد الله مَن أنت؟ ومن أين جئت؟ فقال: أنا الخضر، فقلت: في أي شيء جئتني؟ فقال: جئتك بسلام الله عليك وحبي لك في الله، وعندي هدية أريد أن أهديها لك، فقلت: ما هي؟ قال: هي أن تقرأ قبل طلوع الشمس وبسطها على الأرض، وقبل أن تغرب الحمد لله سبع مرات وقل أعوذ برب الناس وقل أعوذ برب الفلق وقل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون وآية الكرسي وتقول: سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر كلاً منهم سبع مرات وتستغفر

لنفسك ولوالديك وما توالدا ولأهلك والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات أيضًا سبع مرات، ثم تقول: اللهمَّ افعل بي وبهم عاجلاً وآجلاً في الدين والدنيا والآخرة ما أنت لهُ أهل ولا تفعل بنا يا مولانا ما نحن لهُ أهل، إنك غفور رحيم جواد كريم رؤوف رحيم أيضًا سبع مرات، فانظر أن لا تدع ذلك من غدوة وعشية، فقلت: أحب أن تخبرني مَن أعطاك هذه الهدية؟ فقال: أعطانيها محمد ﷺ فقلت: أخبرني بثواب ذلك، فقال: إذا لقيت محمدًا ﷺ فاسألهُ عن ثوابهِ فإنهُ سيخبرك.

وذكر إبراهيم التيمي رضي الله تعالى عنهُ أنهُ رأى ذات يوم في منامهِ كأن الملائكة جاءتهُ واحتملتهُ حتى إذا دخلوا بهِ الجنة فرأت بها ما يدهش العقول، ووصف لنا وصفًا عظيمًا مما رأى في صفة الجنة، قال: فسألت الملائكة وقلت: لمن هذا كله؟ فقالوا: للذي يعمل مثل عملك وذكر أنهُ أكل من ثمارها وسقوه من شرابها، قال: فأتاني النبي ﷺ ومعهُ سبعون نبيًا وسبعون صفًا من الملائكة كل صف كما بين المشرق والمغرب، فسلّم عليّ وأخذ بيدي، فقلت: يا رسول الله إن الخضر عليهِ السلام أخبرني أنهُ يسمع مثل هذا الحديث، فقال ﷺ: صدق الخضر فكلما يحكيهِ حق، وهو عالم أهل الأرض وهو رئيس الأبدال وهو مَن نوَّر الله تعالى بهِ الأرض، فقلت: يا رسول الله من فعل هذا وعملهُ ولم يرَ مثل الذي رأيت في منامي هل يعطى الذي أعطيتهُ؟ فقال ﷺ: والذي بعثني بالحق نبيًا إنهُ ليعطي العالم بهذا وإن لم يرني ولم أره في الجنة وإنهُ ليغفر لهُ جميع الكبائر التي عملها ويرفع الله عنهُ غضبهُ ومقتهُ ويؤمر صاحب الشمال أن لا يكتب عليهِ بشيءٍ من السيئات والذي بعثني بالحق نبيًا ما يعمل بهذا إلا من خلقهُ الله تعالى سعيدًا ولا يتركه إلا مَن خلقهُ الله شقيًا، وقد كان إبراهيم التيمي رضي الله عنهُ يمكث أربعة أشهر لم يطعم طعامًا ولم يشرب شرابًا فلعلهُ بعد هذه الرواية والله أعلم ذكر ذلك الأعمش وقال لهُ فضائل جمة وردت بها الأخبار ليس لها حد ولا قرار، فذكرت بعضها للاختصار اهـ.
وقد ذكر الإمام العالي المقام والعالم العامل القمقام سيد الأئمة والشيوخ وقائد أزِمَّة الرسوخ نور الهداة وعلم الأعلام محمد بن محمد بن محمد الغزالي حجة الإسلام هذه بالترتيب الذي ذكره أبو طالب، ولكن الإمام الولي والعارف الرضي في كتاب الإرشاد أوردها بغير هذا الترتيب الأولى الحمد والثانية آية الكرسي والثالثة قل يا أيها الكافرون والرابعة قل هو الله أحد والخامسة والسادسة المعوذتين والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة كما سبق، وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يأمر الفقراء بقراءة يَـس يوم الجمعة على القبور ويقول: تنزل على القبور الرحمة تعم صغارها وكبارها وعاصيها وطائعها، يعني وقت قراءتها على القبور ويقول لهم: قال رسول الله ﷺ: «مَن قرأ سورة يَـس على قبر والديهِ غفر لهُ وإن كانا مسرفين»، وكان رضي الله تعالى عنهُ يأمرهم بقراءة

سورة الكهف في ليلة الجمعة ويومها ويقول: يغفر لقارئها ذنوب الأسبوع ويومين من الأسبوع الآخر ويأمرهم بقراءة آية الكرسي دبر كل صلاة وقراءة سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون إلى آخر العشر بكرةً وعشية، ويقول لقارئها: أجر غير ممنون وفضل لا يعد ولا يحصى، وقال: إن هذه كانت ورد إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامهُ عليهِ وبها وصل إلى ما وصل.

وذكر ابن السني في كتاب عمل اليوم والليلة عن سهل بن معاذ أنهُ سأل النبي ﷺ عن النية في قولهِ تعالى: ﴿وإبراهيم الذي وفّى﴾ [النجم: ٣٧] قال: كان عليهِ الصلاة والسلام يقول إذا أصبح وإذا أمسى: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ولهُ الحمد في السمٰوات والأرض وعشيًا وحين تظهرون يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون﴾ [الأنعام: ١٧ ـ ١٩] وذكر في كتابهِ أيضًا في ثواب مَن قال ذلك عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ أنهُ قال: «مَن قال حين يصبح: ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون ولهُ الحمد في السمٰوات والأرض وعشيًا وحين تظهرون﴾ الآية كلها أدرك ما فاتهُ في يومهِ، ومَن قالها حين يمسي أدرك ما فاتهُ في ليلتهِ»[1] وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يأمر الفقراء بقراءة: آمن الرسول وشهد الله وقل اللهم إلى قولهِ تعالى: بغير حساب دبر كل صلاة، ويوصيهم بقراءة سورة الحشر كل ليلة ويومها ويقول: من قرأها صلّت عليهِ الملائكة والجن والإنس وسائر الهوام والوحوش والطيور ويوصيهم بقراءة سورة النساء والطارق ويعظم شأنهم ويوصيهم بقراءة ألهٰكم التكاثر، ويصف لهم أن لها ثوابًا عظيمًا. وفي الشفا ذكر عنهُ عليهِ الرحمة والرضوان في سورة الحشر أن مَن قرأها ليلة الجمعة ومات في ليالي تلك الأسبوع مات شهيدًا، وذكر في أُم البراهين في سورة النبأ والطارق أن مَن قرأهما أمن من عذاب يوم القيامة وظفر بمراده ونصر على أعدائه وحاز أجرًا جزيلاً وثوابًا عظيمًا، وفي سورة التكاثر مَن قرأها في همّ فرّج الله عنهُ همهُ وكفاه شره وأمن من مصائب الدنيا وعصم من الشيطان.

وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يأمر الفقراء بقراءة سورة الملك وسورة يَـس وسورة الدخان ويعظم شأنهم ويأمرهم بسورة إنا أنزلناه بعد كل وضوء سبع

---

(١) الحديث أخرجه في الترغيب والترهيب عن ابن عباس (٤٤٨/١)، باب الترغيب في آيات وأذكار يقولها إذا أصبح وإذا أمسى، حديث رقم: ٣.

مرات، وبعد عشاء المغرب ويقول لهم: لا يثقل عليكم إن قرأ أحدكم بعد عشاء المغرب سبع مرات إنا أنزلناه في ليلة القدر كل ليلة فإن الله عزّ وجل يوكل لقائلها اثني عشر صفًا من الملائكة يسبحون الله ويمجدونه وثواب ذلك التسبيح لذلك الرجل ويأمرهم في أكثر مجالسهِ بصلاة التسابيح في كل جمعةٍ أو ليلةِ جمعةٍ ويقول: هي أربع ركعات بتسليمةٍ واحدةٍ يقرأ في كل ركعةٍ خمسين مرة: قل هو الله أحد ويقول: هي تحفظ صاحبها من جميع الآفات والبليات من الجمعة إلى الأخرى، وأقل ما لهُ أي لفاعلها أنهُ لا يسلط عليهِ الظالمون في الدنيا ولهُ في الآخرة من الثواب ما لا يحصى ويرى النبي ﷺ في المنام بعد اختياره جوار الملك العلام، وكان رضي الله عنهُ يقول: أي فقراء عليكم بقراءة القرآن فقام إليهِ إنسان وقال: أي سيدي ومَن لم يعرف القرآن، فقال: عليهِ بقراءة قل هو الله أحد فإن قراءتها ثلاث مرات ختمة، هذا ما سمح الوقت بهِ من جمع بعض كلماتهِ المنثورة فسنذكر هنا البعض مما ورد على لسانهِ رضي الله عنهُ من الكلمات المنظومة التي كانت ترد على لسانهِ حالة ورود بحر الكرم عليه وتوجه التجليات الربانية إليهِ، قال رضي الله عنهُ في المشهد الكريم تجاه قبر النبي العظيم:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها ... تقبل الأرض عني وهي نائبتي
فهذه دولة الأشباح قد حضرت ... فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

وقال رضي الله عنهُ:

ويحمي الحمى من كان عادتهُ الحمى ... إذا التقت الفرسان بين الجوانبِ

قال قطب المشرقين والمغربين وغوث الثقلين ومرشد الخافقين ابن الحسن والحسين أبو العلمين القطب الكبير العلم الشهير مرعب الأفاعي محيي الملة والدين السيد الشيخ أحمد الرفاعي قدس الله سره العزيز: خليفتنا معدودٌ منا ونحن منهُ ومن تبعنا كذلك وقال: أمدنا الله بمدده هذه القصيدة واسمها الجلوية:

ببيت الصفا لما جليت صفا خمري ... ودهري وفا بعد الجفا وحلا سكري
وعين كمالي فار في الكون ماؤُها ... ولاح جمالي في الورى وطفى بحري
وألبسني المحبوب ثوبًا من البها ... ففاق على الأقران بين الملا قدري
وتوّجني تاجًا من العز أخضرًا ... وقد كان إتحافي بهِ على يد الخَضرِ
وقرّبني عطفًا لأبواب فخره ... ولي فتح الأبواب داعيه بالفخرِ
وأدخلني حتى وصلت إلى الحمى ... وجاوزت معنى السر في ميمن السرِ
وأطلعني فضلاً على عين سره ... ونوَّر لي سري فتم بهِ سري

جلاني بدار القرب بالجلوة التي بها جلي المختار من عالم الأمرِ
ولما تجلّى لي بجلوية الرضا تجليت مسرورًا بسكر على سكرِ
وقضيت في تلك الرقابة ليلتي أفضلها جهرًا على ليلة القدرِ
هيام وإنعام ولطف وعزة سلام وإكرام إلى مطلع الفجرِ
شدا طربًا لي بلبل الدوح بالهوى وغنى بأفراحي على غصنهِ القمري
ونادى لسان الحال إذ ذاك قائلاً أنا القطب خدامي وعصر الورى عصري
وكل بني الدنيا وحقي رعيتي وجحفل أهل الله منتظرًا أمري
فمن كان خدامي وخدام خادمي بظلي مدروج أمين من المكرِ
أنا الكعبة الغرا أنا البيت والحمى أنا المسجد الأقصى لمن جاءَ بالذكرِ
أنا هيكل الأسرار في مظهر العلا أنا معدن الأخبار بالسر والجهرِ
أنا الدولة العظمى أنا السطوة التي تذل لها الأشياخ في البرّ والبحرِ
فلا مرشد إلا ومن خمرتي سقي ولا عارف إلا وأغرق في بحري
وكل رجال الله طافوا بحضرتي ونالوا المدادات العظيمة من ذكري
طريقتي الغرا بها كل مورد ومسلكها السامي يقرّب للخيرِ
فإن عدت الأقطاب أدعى كبيرهم وإن عدت الأشياخ في بدئهم ذكري
سلاطين أهل الحال أطفال مجلسي ويرعب مني السبع في شطحة البرِ
وطاعت لي الحيات والأسد في الفلا وباسمي يلقى زمهرير على الجمرِ
أنا ابن علي المرتضي قاتل العدى أنا ابن الحسين المنتقى من بني الطهر
أنا بضعة الزهرا ومن نور أحمد تجمعت من در يفوق على الدرِ
أنا أحمد الغوث الرفاعي وبصرتي محط رحال القوم في مدة العمرِ
أخا الحال بشر مَن ينادي بسوقنا عليهِ عزيز في العراق وفي مصرِ
وقل بعد عقد الشد في باب عزنا أدر يا سويق الخمر كأسًا من الخمرِ
لنختم هذا بالصلاة على النبي وأصحابهِ والآل ما جيء للذكر

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ وقد يكون أنشد بعض ما سيأتي متمثلاً:

روحني عايدي فقلت لهُ لا لا تزدني على الذي أجدُ
أما ترى النار كلما خمدت عند هبوب الرياح تتقدُ

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

يا أيها المعدود أنفاسه يوشك يومًا أن يتم العدد
لا بد من يوم بلا ليلة وليلة تأتي بلا يوم غد

وقال رضي الله تعالى عنهُ:

إن يحسدوني فإني غير لائمهم قبلي من الناس أهل الفضل قد حسدوا
فدام لي ولهم ما بي وما بهم ومات أكثرهم غيظًا بما يجدُ

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

ألا قل لمن بات لي حاسدًا أتدري على مَن أسأت الأدب
فأنت أسأت على خالقي كأنك لم ترض ما قد وهب
وكان جوابك أن زادني وسد عليك طريق الطلب

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

ولست أبالي مَن رماني بريبة إذا كنت عند الله غير مريبِ
إذا كان سري عند ربي منزهًا فما ضرّني واشٍ أتى بغريبِ

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

ومستخبرٍ عن سر ليلي تركتهُ بعمياء من ليلي بغير يقينِ
يقولون خبرنا فأنت أمينها وما أنا إن أخبرتهم بأمينِ

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

قالوا غدًا تأتي ملوك الحمى وينزل للركب بمغناهمُ
فكل مَن كان مطيعًا لهم أصبح مسرورًا برؤياهمُ
فقلت لي ذنب فما حيلتي بأيّ وجه أنا ألقاهمُ
قالوا فإن العفو من شأنهم لا سيما عن من ترجاهمُ

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

ولما شربناها ودب دبيبها إلى معدن الأسرار قلت لهُ قفي
مخافة أن يسطو عليَّ مدامها فتظهر جلاسي على سري الخفي

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

الحب أظهر أهليهِ على الناس ... فلا يرى فيهم ساهٍ ولا ناسي
إلا أخو ثقة مستبصر يقن ... مولهُ راسخٌ في علمهِ راسي
في ألحان مولده طفلاً ومنشأه ... بين الرفاق مطيع الكاسِ والطاسِ
يغنيك منظره عن كنه مخبره ... سهل الخلايق من خمر الهوى حاسي
يسقي ويشرب لا تلهيه سكرتهُ ... عن النديم ولا يلهو عن الكاسِ
أطاعه سكره حتى تمكن من ... حال الصحاة وهذا أعظم الناسِ

وقال رضي الله عنهُ:

إذا نطقت فلم أنطق بغيركم ... وإن ضمرت فأنتم عقد إضماري
يحول بيني وبين النوم ذكركم ... ولا أنام إذا ما نام سماري
تزول عني ثيابي من ضنى جسدي ... ولو عقدت على الألباب أذراري
النار عندكم والنار في كبدي ... فإن هربت فمن نار إلى نار

وقال أيضًا رضي الله عنهُ:

سأسعى إليكم إن أذنت على راسي ... وذكركم في ظلمة الليل إيناسي
ذكرتكم والكأس صرفًا براحتي ... فأمزجت دمعي عند ذكركم كاسي
وخيل لي بألحان أن جليسكم ... كفي بمحياكم عن الورد والطاسِ

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

تعرضت لي حتى رأيتك جهرة ... وغيبتني بالكل عن باطن الحجبِ
أراك بقلبي أينما كنت حاضرًا ... كأنك اسم الله في أول الكتبِ

ولهُ أيضًا رضي الله تعالى عنهُ:

هي البدر لكن بالليالي كمالها ... هي الشمس لكن ليس من دونها ظلُّ

وقال أيضًا رضي الله عنهُ:

أهابك أن أبدي إليك الذي أخفي ... وأنت عليهم ما يلاحظهُ طرفي
نهاني حيائي منك أن أكشف الغطا ... فأغنيتني بالفهم عنك وبالكشف
أراك وبي من هيبة لك وحشة ... فتؤنسني باللطف منك وبالعطفِ

وقال أيضًا رضي الله تعالى عنهُ:

مـن اتـقـى الله فـذاك الـذي ... يـفـوز بـالـخـيـرات يـوم الـحـسـابِ
ويـأمـن الـهـول إذا بـعـثـرت ... قـبـور مَـن أودع تـحـت الـتـرابِ
ويـحـشـر الـعـبـد إلـى ربـهِ ... مـكـرمًـا لا يـحـسـبـن الـعـقـابِ

وقال أيضًا رضي الله عنه:

إذا قسا القلب لم تنفعهُ موعظة ... والأرض إن سجنت لم ينفع المطرُ
بالماء تصلح ما تخشى تغيره ... فكيف بالملح إن حلت بهِ الغيرُ

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

أنت الحبيب فلا سمعًا لمن عذلا ... عذبت قلبي إذا قال العذول سلا
عن كل شيء خلا قلبي فواعجبِ ... ذا قد سلا الكل أما عن هواك فلا

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

رفعت رايتي على العشاق ... واقتدى بي جميع تلك الرفاقِ
وتنحّى أهل الهوى عن طريقي ... وانثنى عزم مَن يروم لحاقي
سرت في الحب سيرة لم يسرها ... في الورى عاشق من العشاقِ
فحديثي يجول في كل أرض ... وطبولي تدق في الآفاقِ
مَثُلَ العاشقون فوق بساطي ... في مقام الهوى وتحت الرواقي
سيمتي شيمتي وخلقي وخلقي ... ولو أني أموت مما ألاقي
لم أخن بالوداد قط حبيبًا ... وينادي عليَّ في الأسواقِ
وإذا ما ادعيت بالحب دعوى ... شهد العالمون باستحقاقي

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

ليس التصوف بالخرق ... من قال هذا ما صدق
إن التصوّف يا فتى ... حرق يمازجها قلق

ولهُ رضي الله تعالى عنهُ:

وقوفي على باب الحبيب وذلتي ... وتعفير وجهي بالثرى وبكائي
وقهري وإتلافي وعظم تخضعي ... وإسكاب دمعي واضطراب حشائي

ألذُّ لقلبي والشفاء لعلتي ... إذا نلت منهُ بغيتي ومنائي

إذا جاد مولايَ بعتقي وجاد لي ... بسؤلي وأعطاني الهدى ورضائي

تمتعت في حبي لهُ وأطعتهُ ... وأرضيتهُ جهدي بكل رضاءِ

وعاملتهُ بالشكر والحمد والثنا ... على أنهُ أهل لكل ثناءِ

وأحييت في ذكراه نفسًا رضيةً ... ترى ذكره طبًّا لأعظم داءِ

ومَن يشكر المولى على نيل فضلهِ ... سيجزيه في العقبى بخير جزاءِ

وقال أيضًا رضي الله عنهُ:

أرى ماءً وبي ظمأ شديد ... ولكن لا سبيل إلى الورودِ

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

إن قيل زرتم بما رجعتم ... يا أشرف الرسل ما نقولُ

ولهُ رضي الله عنهُ أيضًا:

يا نؤوم الليل في لذتهِ ... إن هذا النوم رهن بسهر

ليس ينساك وإن نسيتهُ ... طالع الدهر وتصريف الغير

إن ذا الدهر سريع مكره ... إن غلا حط وإن أوفى غدر

أوثق الناس بهِ في أمنهِ ... خائف يقرع أبواب الحذر

وقال رضي الله عنهُ:

وليلة وصل بات منجز وعده ... حبيبي فما بعدت طول مطالي

سقيت بها قلبًا أبل غليلهُ ... زمانًا فكانت ليلتي بليالي

ولهُ رضي الله تعالى عنهُ:

أراني إذا ما أظلم الليل أشرقت ... بقلبيَ من نار الغرام مصابيحُ

أصلي بذكراكم إذا كنت خاليًا ... ألاَ إن تذكار الأحبة تسبيحُ

يشح فؤادي أن يخامر سركم ... كذلك بعض الشحّ في المرء ممدوحُ

ولهُ أيضًا رضي الله تعالى عنهُ:

الناس في غفلاتهم ... ورحى المنية تطحنُ

ما دون دائرة الرحى ... حصن لمن يتحصنُ

ولهُ رضي الله عنهُ أيضًا:

أتوب إلى الذي أمسى وأضحى وقلبي يتقيه ويرتجيهِ
تشاغل كل مخلوق بشغلٍ وشغلي في محبتهِ وفيهِ

وقال رضي الله تعالى عنهُ:

أصحب من الإخوان من قلبه أصفى من الياقوت والجوهرِ
ومن إذا سرك أودعتهُ لم يظهر السر إلى المحشرِ
ومن إذا أذنبت ذنبًا أتى معتذرًا في زي مستغفرِ
ومن إذا ما غبت عن عينهِ أزعجه الشوق ولم يصبرِ

ولهُ رضي الله تعالى عنه:

ما زال من وطن يهدي إلى وطنٍ حتى استقرّ لهُ في الصدق أوطانِ

وقال رضي الله تعالى عنهُ أيضًا:

الحرّ يصبر ما أطلق تصبرًا في كل وقت ثم كل زمانِ
وترى مساعدة الكرام مروءة ما سالمتهُ نوائب الحدثانِ
ويذوب بالكتمان إلا أنهُ أحوالهُ تبنى على الكتمانِ
فإذا تكشف واضحًا من حالهِ ألقيتهُ بشكو بكل لسانِ
ما كلف الإنسان إلا وسعهُ الله يصرفهُ على الإنسانِ
وإذا تناءى منزل فارقتهُ والله يلطف بي بخير مكانِ
وإذا تغيّر صاحب أرفق بهِ واصرف لنحو سلوه بعنانِ

وقال رضي الله عنهُ أيضًا:

حملتم لعمري كلكم شوق واحدٍ وحملتموني شوق كلكم وحدي
وبتم خليين من الهم والأسى وبت بكم والنار تضرم في كبدي
فإن كان ما قد نالني ما يضركم فقد ساءني ما قد لقيتم من الوجدِ

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

خذ عن الناس جانبًا ليظنوك راهبًا
قلب الناس كيف شئـ ـت تجدهم عقاربًا

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

خذ عن الناس ما تيسر ثم دع عنك ما تعسر

إنما الناس كالزجا ج إذا لم تقِه تَكَسَّر

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

علامة من حل الهوى بفؤاده إذا ما رأى المحبوب أن يتغيرا

ويصفر منهُ اللون بعد احمراره وإن سألوه بالجواب تحيرا

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

حسدوه حين رأوه أحسن منهمُ كالبدر تحسده النجوم إذا بدا

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

حيرت فيك العقلا أي من لعقلي عقلا

غنمت فيك حالتي فضحتني بين الملا

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

قوموا بنا بحياتكم نمضي إلى أحبابنا

قوم إذا ظفروا بنا جادوا بعتق رقابنا

أهل الغرام تجمعوا اليوم باب عتابنا

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

إذا أحببت لم أسل وإن واصلت لم أقطع

وإن عاتبني الواشي تصممت ولم أسمع

فيا سؤلي ويا أملي ويا ذخري الذي يشفع

لو أن العين ناظرة إليك الدهر لم تشبع

وقال رضي الله عنهُ:

أرى رجالاً بدون الدين قد قنعوا وما أراهم عن الدنياءِ بالدونِ

إذا رأيت ملوك الأرض أجمعها فانظر إلى ملك في ذي مسكينِ

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

يعد رفيع القوم من كان عاقلاً وإن لم يكن من أهلهِ بحسيبِ

إذا حل أرضًا كان فيها مكرمًا وما عاقل في بلدة بغريبِ

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

اشتقت يا سفن الفلاة فبلغي وطربت يا حادي المطي فغنني
هاتيك دارهمُ وهذا ماؤها اشرب ورد للماءِ واملي واسقني

ولهُ رضي الله عنهُ:

تغرَّب تكتسب أدبًا ومالاً ولا تذكر إذا سافرت آلا
فإن العود كان وقود قوم فأورثهُ بغربتهِ جلالا
وصار بعد طيبًا أي طيب وكان بأرضهِ حطبًا رزالا

ولهُ رضي الله عنهُ أيضًا:

تلبس الناس يوم العيد للعبد وقد لبست ثياب الزرق والسودِ
والناس قد رجعوا فرحًا بعيدهم وقد رجعت إلى نوح وتعديدِ
إن كان هجرًا فعيد لا سررت بهِ أو كان وصلاً فلي عيدان في عيدِ

ولهُ رضي الله تعالى عنهُ:

إني جمعت من الذنوب فنونها ورجوت من عفو الكريم فنونهُ
مَن كان يرجو عفو مَن هو فوقهُ عن ذنبهِ فليعف عن مَن دونهُ

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

إذا هبّت رياحك فاغتنمها فإن لكل خافقةٍ سكونُ
ولا تغفُل عن الإحسان يومًا فما تدري السكون متى يكونُ

وقال رضي الله عنهُ أيضًا:

قالوا اشتغل مخلصًا بالله قلت لهم الله يعلم أني لست أنساهُ
فكيف أنسى الذي في القلب مسكنهُ وكل جارحة في الجسم تهواهُ

ولهُ أيضًا رضي الله عنهُ:

إذا جنّ ليلي هام قلبي بذكركم أنوح كما ناح الحمام المطوقُ
وفوقي سحاب يمطر الهم والأسى وتحتي بحار بالجوى تتدفقُ
سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها تفك الأسارى دونه وهو موثقُ
فلا هو مقتول ففي القتل راحةٌ ولا هو ممنون عليهِ فيطلقُ

ولهُ رضي الله عنهُ أيضًا:

طلبت في الكون باقي كي أهيم بهِ غير الحبيب فسر الحب وأفاني
وقال لي خلّ عنك الغير منخلعًا عن السوى فسوى مَن تدره فاني
فصرت منهُ لديهِ فيهِ عنهُ بهِ والغير راح بلا تركي ونسياني

وذكر العلامة العارف بالله أحمد بن حمد بن محمد بن عيسى زوق البرنسي المغربي قدس سره في كتابهِ شرح حزب البحر ما نصهُ: وما أحسن ما قيل في الانقطاع إلى الله تعالى والفرار عن مَن سواه وتركك ما دونهُ، ما قالهُ الشيخ أبو العباس أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ ونفعنا بهِ:

فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامر وبيني وبين العالمين خرابُ
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب ترابُ

وقال أيضًا رضي الله عنهُ:

ملوك الأرض أرباب الرعايا ونحن عبيد خلاق البرايا
فإن جلسوا على تخت كبير سجدنا بالجباه على الثرايا
وإن سكنوا قصورًا عاليات سكنا في المساجد والزوايا
وإن ركبوا خيولاً صافنات أخذنا الحق والتقوى مطايا
وإن فخروا بديباج وخز قنعنا بالمسوح وبالعبايا
ألسنا بالتراب وهم سواء إذا نزلت بنا رسل المنايا
ويندم في القيامة كل عاصٍ وننظر من تحق له العطايا

وقال قدس سره العزيز:

طلعت شموسي في علو مقامي وعلت على أقدامكم أقدامي
وسلكت أوعار الطريق وجزتها من عزم عزمي قد شددت حزامي
جدي رسول الله تكفي نسبتي مني عليهِ تحيتي وسلامي
أورد إذا وقع الظماءُ لحوضهِ مردائنا مع جملة الخدامي
عندي مريدي شعرة من حاجبي عنهُ إذا صار القصاص أحامي
بشراكمو يا سالكين طريقتي بشراكمو قد نلتم إكرامي

أحميكموا عند الممات وبعده عند الصراط بأصعب الأيامِ
ثم الصلاة على النبي وآلهِ بحر العلوم يد الجلال السامي

ولهُ قدس سره:

لي همة بعضها تعلو على الهمم ولي هوى قبل خلق اللوح والقلم
أنا الرفاعي طبولي في السما ضربت والأرض في قبضتي والأوليا خدمي
كل المشايخ يأتوا باب زاويتي وفوق هاماتهم حاز العلا علمي
ولي لواءٌ على الكونين منتشر وكل أهل العلا ما أنكروا همي
فالجأ بأعتاب عزي والتمس مددي وطف ببابي وقف مستمطرًا نعمي
ولازم الذل في شطحاءِ منزلنا ننجو بهمتنا من حالة العدمِ
دارت رحى الكون فينا فهي ناطقة يذكرنا في لسان العرب والعجمِ
ورن جلجال ملك الله في يدنا وقابل الملك معنى الملك بالنغمِ
وأصبح الكون مسرورًا ببهجتنا والأرض جادت بزهر الأنس والنعمِ
وقام فيها منادي حالنا طربًا يشدو بدوحتها من أبرع الحكمِ
من لاذ فينا اكتفى عن غيرنا أبدًا وجاء في ركبنا بالأمن من ندمِ
فالسر منا عروس في الورى جليت معنى محاسنها من ساكن الحرمِ
صلّى عليهِ إلٰه العرش بارئنا والآل ما أنشد المشتاق بالظلمِ

وقال قدس سره العزيز:

فؤادي في ظهري وظهري في لبي وبطني في سري وسريَ في قلبي
إنائي أنيني من أنانية الجوى فإني من أيني وأنتي من حبي
جمعت علوم الحال في كل حالة وتممت معنى العلم في حالة القربِ
وطاولت أعلام الرجال ولم أزل أطول إلى أن جزت من حضرة الربّ
وفقت كبار القوم في كل مذهب وسرت بلا ثان إلى مذهب الحبّ
وصرت فريدًا في بني الحبّ كلهم وجاؤوا لحاني يطلبوا السكر من شربي
وصببت كأسًا من حميا حقيقتي لأهل الهوى فاستحصلوا السكر من صبي
وهاموا بكأسي قبل شرب الذي بهِ ونالوا الشفا من صرعة النجر في طبي
أنا القطب والغوث الكبير الذي على قباب زوياتي بدا النور من ربي

أشاهد معنى الكل في كل مشهد وأنظر من معنى حقيقتها سلبي
فمن عينها عيني ومن سر رمزها عرفت بأن الكلَّ من سرها وهبي
وحققت أن الكسب من عين وهبها لهذا تركت السير في برزخ الكسبِ
ولازمت باب المصطفى في طريقهِ على المنهج المعلوم في أوضح الكتبِ
فسر سيرتي يا صاح والزم حقيقتي لتنجو إذا صار المصار من الكربِ
وصل وسلم في المعاني وفي الهوى على ترجمان القلب في حضرة الربِّ
محمد المختار والآل من لهم علو شريف القدر بالعجم والعربِ

وقال رضي الله عنهُ:

رفعت رايتي على الأعلام وصفا الوقت بل وراق مدامي
وخيولي تدور في كل أرض ثم في كل بلدة ومقامِ
وطبولي دقت وموكب عزي في سرور على مدى الأيامِ
أنا قطب في مركز الفضل قدري وعلى هامة الهلال خيامي
كل نار ذكرت عند سناها خمدت لي بإذن رب الأنام
فجميع الرجال في باب عزي يطلبون العطاء من إكرامي
شهرتي في السماءِ والأرض دارت وافتخاري يزيد في كل عامِ
وإذا دار وقت ذكري فغني وتعطر بطيب مسك ختامي
فأنا أحمد المكنى الرفاعي وبسلك الحسين صح انتظامي
وأنا من أجل أولاد طه تاج رأسي وموصلي لمرامي
فعليهِ الصلاة في كل آن وعلى الآل والرجال العظام

وقال عطر الله مرقده:

أنا أحمد أنا ابنُ الرفاعي وذكري شاع في كل البقاعِ
أنا في حضرة المختار سكري وفي بيتي الحطيم وكل ساعي
وربي قال لي ها أنت آمن لك الحكم العظيم على السباعِ
مريدي إن تكن معنا تمنّى ونادي بالشدائد يا رفاعي
فربي زادني وأعز شأني وأعلا فوق أقراني ارتفاعي
وأكرمني بأحوال وبطش وأيدني بأنوار السماعِ

وقال بلّ الله ثراه:

على القبة الخضرا نشرت علامي ... وفي البقعة البيضا نصبت خيامي
وحكمي بوادي الصين في كل لحظة ... وأظهرت في صحرا العراق مقامي
أنا الدّنّ والخمار والساقي للحما ... وما شرب السادات مثل مدامي
واحمي مريديني على كل حالةٍ ... وأدخلهم دار النعيم أمامي
فمن كان منا أو يلوذ ببابنا ... غدا يوم أمر الكرب تحت خيامي
واحميه ما يختشي يوم خوفه ... وفي معظم الحالات عنهُ أحامي

وقال نفعنا الله بمدده العالي:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ... فنترك الذكر أحيانًا فننتكسُ

ومن كلامهِ رضي الله عنهُ هذان البيتان، قال الشيخ مجرد الأكبر ثالث خلفاء سيدي أحمد: من كانت لهُ حاجة وعسرت عليهِ فليصلّ الله تعالى ركعتين ويقرأ الفاتحة لرسول الله ﷺ ثم يستغفر الله تعالى سبعين مرة ثم يصلي على النبي ﷺ مائة مرة ثم يقرأ الفاتحة أيضًا لحضرة الرسول ويقرأ بعدها البيتين ثلاثة مرات بنية حاجتهِ فإنها تقضى بعونهِ تعالى وهما شعر:

إن أبطأت غارة الأرحام وابتعدت ... فأقرب الشيء منا غارة الله
يا غارة الله جدي السير مسرعة ... في حل عقدتنا يا غارة الله

ومن كلامهِ رضي الله عنهُ لجلب الرزق ثلاثة أبيات جربهم كثير من العارفين وقالوا: إن فيهم السر العجيب:

أصبحت لله ضيفًا ... والله للضيف يغني
أحسنت بالله ظني ... أن يكشف السوء عني
يا عالم السر مني ... لا تكشف الستر عني

يا الله ويكرر اسم الذات ثلاثين مرة ومن كلامهِ مستغيثًا بجده رسول الله ﷺ:

أغثني يا أبا الزهرا أغثني ... وأدركني بمطلوبي أغثني
أغثني يا إمام الرسل وادرك ... فقد ضاقت بي الدنيا أغثني

قال السيد أحمد الصياد الكبير قدس سره من قرأهما لكرب أهمهُ بعد أن يصلي على النبي ﷺ مائة مرة حالاً يفرج الله كربهُ بمدد رسول الله ﷺ ويهمة حضرة السيد

أحمد قدس سره انتهى. ولهُ رضي الله تعالى عنهُ هذه القصيدة الميمية والقلادة الدرية التي ابتهج بها أهل هذا الشان وسارت بها الركبان وجربها أهل القلوب لكشف الكروب بإذن علام الغيوب إذا تلاها المحتاج متوسلاً بولاية سيدنا السيد أحمد إلى الله تعالى وهي هذه:

مظاهر الأنس دقت لي على نغمي ... ودولة الفضل غنت لي على علمي
وأقبل السعد يسعى طالبًا مددي ... حتى الزمان أتاني راجيًا هممي
ونوبتي ضربت في الأرض واشتهرت ... ودولتي حكمت في العرب والعجم
وسطوتي ظهرت في الخافقين وقد ... تحقق الأمر أن الأوليا خدمي
وكوكب المجد عندي لاح فهو إذًا ... معلق لختام الأمر في خيمي
ولمعة الشمس في بابي قد انعقدت ... فمظهر الشمس مربوط على علمي
وبارق الغيب في بيداء زاويتي ... تلألأت ذاتهُ الحسناء في حرمي
هلال سلطان عزي للوجود بدا ... وحالتي انفردت في جملة الأمم
والسبع يعلم أحوالي ويعرفها ... وترعب الأسد في الغابات من خدمي
شاويش عزي على هام الرجال شذا ... فاقبلوا نحو بابي الكل كالغنم
سقيتهم من حميا خمرتي سكروا ... ترنموا فشذوا بالحال من كلمي
أطفال زاويتي كل الرجال وقد ... أطعمتهم قبل قبل القبل من لقمي
بدفتري كتبوا من أصل حالتهم ... وخطهم مرداني في العلا قلمي
وصحت في شطحة الأكوان منفردًا ... أجابني سرها باللوح والقلم
فلو ذكرت بأرض لا نبات بها ... لأقبلت بصنوف الخير والنعم
ولو ذكرت بنار قط ما لهبت ... ولو ذكرت بحر غار من عظمي
ولو دعوت لميت قام لي ومشى ... بإذن ربي يسعى لي على القدم
لك الهنا يا مريدي لا تخف أبدًا ... واشطح بذكري بين البان والعلم
إذا دعاني مريدي وهو في لجج ... من البحار نجا من حالة العدم
أنا ابن مَن كان في البطحاءِ مجلسهُ ... وداره في بقاع الأرض كالعلم
أنا ابن مَن قام يهدي للوجود وقد ... أجاد واستخرج الإسلام من ظلم
أنا ابن فاطمة الزهرا التي حجبت ... ببرقع من طراز الغيب منتظم
أنا ابن حيدرة الكرار أشجع من ... مشى على الأرض في سيف وفي حزم

أنا الإمام الذي أُدعى أبو الفقرا شيخ العواجز من يقصد حماي حمي
أنا الرفاعي فسل عني وعن مددي ينبيك عني ما قد قلتهُ بفمي
أنا الرفاعي ملاذ الخافقين فلذ في باب جودي لتسقى الخير من ديمِ
الآن تم نظامي بالصلاة على خير البرية في بدئي ومختتمي
والآل والصحب والأتباع سادتنا والتابعين لهم في منهج الكرمِ

هذا ما وصل إلينا من منظوماتهِ الكريمة وقد طاب أن نختم هذا الباب في ذكر التوسلات بهِ رضي الله عنهُ المأخوذات عن خواص السادة الرفاعية رضي الله تعالى عنهم ونفعنا بهم آمين. قال الشيخ محمد المرتدي: سمعت من حضرة الشيخ أبي بكر الهواري خليفة حضرة القطب الأعظم رضي الله عنهُ أن مَن ضاق حالهُ لمهمة أو لحاجة أو عسر عليهِ مقصد أو كان عليهِ دين أو كان في سجن أو بغى عليهِ ظالم فليتوضأ ويصلي لله ركعتين ويصلي على النبي ﷺ مائة مرة ويكون ذلك العمل في بيت خال ويقرأ الفاتحة للنبي وآلهِ وأصحابهِ أجمعين ويتوجه قائمًا للشرق لبر البصرة لفلاة أم عبيدة محل مرقد حضرة الغوث الحسيني سيدي السيد أحمد وينادي بالاعتقاد والانكسار:

أيظلمني الزمان وأنت فيهِ وتأكلني الذئاب وأنت ليثُ
ويروى من بنانك كل ظامي وأظمأ في حماك وأنت غيثُ

يا أبا العلمين يا علم الشرق يا علم الدنيا يا باب الرسول يا كنز القبول يا وسيلة الطالبين يا كعبة الطائفتين يا عين الأولياء يا قلب الصلحاء يا تاج العارفين يا سيد الصالحين يا مرشد الواصلين يا غوث الخلق يا باب الحق يا بيت الصدق يا معدن الخير يا كنز البر يا شيخ العواجز يا أشجع الفوارس يا أبا الصفاء يا أبا الوفاء يا أبا الهمم يا أبا المدد يا أبا صالح يا أبا العباس يا أبا عبد المحسن يا ملاذ الأقطاب يا حجة الأحباب يا مصدر الطلاب يا معجزة الرسول يا سر الله يا درة الغيب يا سيف القدرة يا صاحب الشجرة يا نائب النبي الجليل يا خليفة إبراهيم الخليل يا صاحب النيابتين يا ثابت القدمين يا صحيح النسبين يا مظهر الحضرتين يا شيخ الخافقين يا غوث الثقلين يا مفتي الطائفتين يا محيي الدين يا قطب المشرقين والمغربين يا زبدة آل الحسين يا خلاصة أولاد زين العابدين يا بيت الأسرار يا سرَّ الأسرار يا ذيل المختار يا حرم الأمان يا أمان الإخوان يا شيخ العرب والعجم يا بلبل البيت والحرم يا شيخ العرفا يا مقبل يمين المصطفى يا جليس الخضر يا معدن السر يا صفوة الحق يا نتيجة الصدق

يا صاحب الهيبة يا ساكن الكعبة يا نائب الحضرتين يا طويل الجناحين يا ثابت القدمين يا قرة العينين يا شريف الطرفين يا أبا العلمين يا شيخ الكل في مسند الكلية يا إمام الكل في مرتبة القطبية يا صاحب النوبة الأولى يا صاحب الصوت الأعلى يا صاحب الكأس الأحلى يا صاحب الضجة العظمى يا صاحب الهمة العليا يا صاحب القلب والمنصب يا صاحب الموكب المرعب يا مبرد النار يا ممدد الجبار يا مبدل السموم يا معنى عناية الحي القيوم يا مبرىء الجروح يا باب الله المفتوح يا بدل الأبدال يا سيد الرجال يا نجيب الأنجاب يا قطب الأقطاب يا ساقي القوم يا بحر العلوم، يا موصل كل أعرج يا مقوم كل أعوج يا مرعب السباع يا ولي الله بلا نزاع يا سلطان الأولياء والصالحين يا قطب الأقطاب المتصرفين يا مظهر سر حضرة القدس في كل مكان وزمان، يا صاحب الآيات الباهرة والمناقب الظاهرة يا كنز العنايات يا صاحب التصرف في الحياة والممات، يا إشارة الكاف يا علم الإسعاف يا عين العيون يا رمز النون يا قائمًا بأمر الله يا ضاربًا بسيف الله يا متكلمًا بلسان الله يا نائبًا عن رسول الله، يا ناصر الإسلام يا خليفة خير الأنام يا قطب الفرد يا قطب الأعظم، يا قطب الغوث يا غوث الأكبر يا بحر الله الكبير يا صاحب السرير يا شيخ الكبير، يا سيد الأولياء يا شيخ الكبراء يا ترجمان الحضرة المحمدية يا بضعة الذات الأحمدية يا كوكب السر الجلي يا سيف أمير المؤمنين علي، يا وليَّ الله يا أسد الله يا ابن بنت رسول الله يا وارث علي المرتضى يا أمين سر أهل العبا، يا جليل الحضرة يا قمر البصرة يا وجه الرشد الأنيس همتك حاضرة وعنايتك باهرة وأسرارك ظاهرة بحق جدك المصطفى وبحرمة أبيك علي المرتضى وبكرامة والدتك فاطمة الزهرا أغثني وتوجه لجدك خير الأنام وقوموا بقضاء حاجتي فقد حارت فكرتي وقطعت وسيلتي وقلّت حيلتي، أدركني يا أحمد الأولياء يا بهجة الأتقياء يا مجيب الداعي يا نعم المراعي يا أحمد الرفاعي رضي الله عنك أغثني أغثني أغثني، ويذكر حاجتهُ ويخطى ثلاث خطوات لجهة الشرق وفي كل خطوة يقول: يا أحمد الأولياء رضي الله عنك أغثني ويقرأ الفاتحة لروحهِ الشريفة ولأولاده وخلفائهِ ومريديهِ ومحبيهِ ولجميع المسلمين فإنها تقضى بعون الله تعالى بلا شك. قال المرتدي رحمهُ الله جرّبتها وقد كنت في السجن مرة فخرجت بعد إتمامها بحمد الله، والكثير من كمل السادة الرفاعية جربوها لحاجات مهمات فقضى الله لهم حاجاتهم ببركة همة سيدي السيد أحمد رضي الله عنهُ، وفي طريقي بسفري لبغداد اجتمعت بالشيخ علي البصري الرفاعي فذكرت لهُ همة الغوث ونجداته، فقال: يا سيدي كنت مرة بمصر فخرجت من الوكالة وهي الخان إلى صلاة العشاء فضيعت الطريق وصرت أدور في الأزقة فبينما أنا دائر وإذا بجملة من الضابطية مسرعين ورائي وهم يقولون: هذا هو الذي جرح الرجل

فالتفت فلم أرَ غيري فأسرعت بالمشي وتوجهت للشرق وقلت البيتين المنسوبين لحضرة السيد سراج الدين الصيادي قدس سره وهما:

أترضى بذلي بعد أن جئت للحمى ... وأصبحت مكتوبًا بدفترك العالي
أغث يا رفاعي واجبر الكسر واحمني ... وحرك يد الأسرار وارحم ضنا حالي

وبعد قراءتهما وقفت في محلي فمروا علي بأجمعهم ينظرون إليّ بلا كلام فبعد ذهابهم بقي فكري عند الرجوع إلى الوكالة وأنا بأشد الخوف وإذا برجل اختيار مرَّ عليَّ فسألتهُ عن الطريق فقال: امش معي فأوصلني إلى باب الوكالة وقال: ولدي بعد هذه المرة إذا ضيعت الطريق فنادي للشعراني فهو يدلك فالتفت فما وجدتهُ، وكان السيد سراج الدين يقول: مَن أراد أن يستمد من حضرة السيد الكبير فليقرأ هذين البيتين بعد صلاة ركعتين ويربط قلبهُ بالحضرة الأحمدية وعدد القراءة إحدى عشر مرة وبعد القراءة يقول: يا أسد الله الجسور يا باب حضرة الرسول يا ابن فاطمة البتول يا أبا العلمين يا محيي الدين يا أبا العباس يا سيدي يا أحمد الأولياء جعلتك واسطتي لباب ربي بقضاء حاجتي فكن واسطتي وأدركني بغوثة وعونة على قضائها ويذكر حاجتهُ تقضى ببركة ولايتهُ قدس سره العزيز. وكان السيد محمد الرواس نفعنا الله بهِ إذا أراد الاستمداد من الحضرة الأحمدية يقول بعد الفاتحة للرسول الأعظم ﷺ ولحضرة السيد أحمد قدس سره:

يا سيد الأولياء ... يا ابن الرفاعي البطل
ما صحت في عامل ... بالكرب إلا بطل
فانهض وكن مسعفي ... واسقي فؤادي بِطل

وعدد القراءة تسع عشرة مرة قال الشيخ: جربت ذلك لأمور كثيرة فيسرها الله تعالى ببركة السيد أحمد الرفاعي قدس سره العزيز. وقال لي الشيخ الصالح ملاّ حسن الموصلي البزاز: كانت لي حاجة فاستمديت لقضائها من جانب كثير من الأولياء فلم تقض فخطر لي أن أستمد مرة من جانب الشيخ الكبير السيد أحمد قدس سره فأقبلت على أبوابهِ بالقصيدة الآتية فبأقرب وقت قضى الله حاجتي وكنت أستعملها في كل وقت لكل حاجة وأرى بوارق لمعان أنوار التيسير ببركتهِ، وكنا إذا قرأناها في حلقة الذكر القادري بالجامع الكبير بحضور السيد محمد النوري القادري يحصل لحضرة الشيخ المذكور حال عجيب ولذة عظيمة وفي كل وقت من أوقات الذكر يأمرنا حفظهُ الله بقراءتها وهي هذه القصيدة المباركة:

قلبي إليكم بأيدي الشوق مجذوبُ ... والصبر عن قربكم للوجد مغلوبُ

لا أستفيق غرامًا في محبتكم ... وهل يفيق من الأشواق مسلوبُ
يا قلب صبرًا على هجر الأحبة لا ... تجزع لذاك فبعض الهجر تأديبُ
همُ الأحبة إن صدوا وإن وصلوا ... بل كلما صنع الأحباب محبوبُ
إني رضيت بما يرضونهُ وبهم ... والله يعذب للمشتاق تعذيبُ
فالروح والقلب بل كلي لهم هبة ... وكيف يرجع شيءٌ وهو موهوبُ
لي فيهم سيد طاب الوجود بهِ ... فمنهُ في كل ناد يعبق الطيبُ
هو الرفاعي سامي الجد أحمد من ... قد لاذت العجم فيهِ والأعاريبُ
أكرِم بهِ سيدًا طابت عناصره ... وكيف لا وهو للمختار منسوبُ
أنعم بهِ منهلاً راقت موارده ... فكم صفى منهُ للأحباب مشروبُ
هذا الذي يفخر الفخر السنيُّ بهِ ... هذا الذي هو للمطلوب مطلوبُ
هذا الذي شرف الأشراف تم بهِ ... هذا الذي هو للعلياء مخطوبُ
هذا الذي يسعد العبد الشقي به ... فكم وكم نال فيهِ الأمن مرعوبُ
غوثٌ مغيثٌ لمن فيهِ استغاث فكم ... نجا بهمتهِ العلياء مكروبُ
وكم ذليل بهِ قد عز جانبهُ ... وكم بعيد بهِ أدناه تقريبُ
سر من الله في كل الوجود سرى ... منهُ إلى الخلق ترغيب وترهيبُ
شمس المعارف من إشراق حكمتهِ ... للعارفين بدت منها أعاجيبُ
بني رفاعة سدتم رفعةً وعلا ... وذكركم في جباه الفخر مكتوبُ
تمت محامدكم في عز أحمدكم ... فمجدكم مثل في الكون مضروبُ
هو الإمام الذي ديوانهُ أبدًا ... في الكائنات مدى الأيام منصوبُ
فرد بهِ مفردات الفضل قد جمعت ... ندب بكل شديد الهول مندوبُ
راحي وروحي وريحاني مدايحهُ ... وحبهُ لفؤادي فيهِ تهذيبُ
يا أحمد الأوليا انظر إليَّ وقل ... لا تخش أنت عليَّ اليوم محسوبُ
يا صاحب الهمة العلياءِ خذ بيدي ... إني وحقك للأعداءِ مغلوبُ
يشفي لديغ الأفاعي في عزائمكم ... وعبدكم بأفاعي البعد ملسوبُ
حاشا لمجدك أن ترضى ببعد فتى ... لهُ إلى بابكم بالذل تأويبُ
يا عترة المصطفى أنتم أكارم لا ... يخيب منكم لذي الآمال مطلوبُ

أن تقبلوني على عيبي فيا شرفي ... فليس لي غيركم قصد ومرغوبُ
فأنعموا بقبولي واملؤوا قدحي ... من راحكم فهو للأرواح مصحوبُ
صلى الإلـه على المختار جدكُم ... ما فاح في الكون من ذكراكم الطيبُ
والآل والصحب ما نادى محبكم ... قلبي إليكم بأيدي الشوق مجذوبُ

ومن المشهور الذي ذاع وشاع وملأ الأسماع أن حضرة السيد أحمد شديد الغيرة سريع النجدة لمن انتسب إليهِ أو انحسب عليهِ فإن الله يغار لهُ وينتصر لهُ ولمن لاذ بهِ وأحبهُ مزية اختصهُ الله بها، وهو تعالى يختص برحمتهِ مَن يشاءُ، وانظر ما قالهُ الشيخ ناصر البغدادي في كتابهِ معراج السالكين الذي استفاد أجوبتهُ من جدنا الخامس السيد حسين برهان الدين الخزامي البصري قدس سره بعد سؤال طويل سألهُ منهُ قلت حينئذ: ثبت ما قالهُ بعض الحنابلة بعدم مدد الولي بعد موتهِ، قال: لا بل لم يثبت لأن المادة الممدة في الولي ليست القطعة اللحمية المعطلة وإنما هي كلمة المدد الرباني المدلاة إليهِ وهذه كلمة ليست بمعطلة لا ينقطع مددها ولا ينقضي أمدها ولا تبديل لكلمات الله. قلت ولعل المدد وهب بقيد كون الولي حيًا، قال: هذا ظن على وجه باطل إذ لعل المدد وهب بلا قيد وهذا اللائق بالإلـهية ولا ينقص من خزانة الكرم شيءٌ، وإذا كانت المادة الممدة الفعالة مادة المدد المدلاة إلى قالب الولي وقلبه المجتمع من ماء وطين الذي لا يضر ولا ينفع ولا يملك لنفسهِ ضرًا ولا نفعًا، وهي المتصرفة الضارة النافعة الممدة وجعل الله عبده الولي موضع مدده ووجهة البعيد عن مدده المحجوب عنهُ إليهِ فمتى توجه العبد إلى الوجهة التي جعلها الله موضع مدده وقبل الحق اتجاههُ انصرفت إليه مادة المدد من موضعها، سواء كان موجودًا أو مفقودًا حيًا أو ميتًا قريبًا أو بعيدًا ولا فرق في هذا وهو الأصل عند العارفين قلت حينئذ فما مزية الولي حالة كونه مجردًا عن الفعل والفتق والرتق والحول والقوة والوهب والسلب، فقال: مزيتهُ الاختصاص يختص برحمتهِ مَن يشاءُ والله ذو الفضل العظيم، قلت: ولا يلتفت إلى تعصب من حرم الاستغاثة بالأنبياء والأولياء كابن تيمية الحنبلي وجماعتهُ لأن أكابر الأمة افتوا بجوازها وأدلتهم من كتاب الله وسنة رسولهِ ﷺ، وقد كتب العلامة الأحسائي رحمهُ الله تعالى رسالةً مخصوصة في جواز الاستغاثة، قال فيها: اعلموا أيها الإخوان أن الاستغاثة هي سؤال الشفاعة من الأنبياء والأولياء كقول القائل يا رسول الله أو يا شيخ أحمد الرفاعي، وذلك لأن قولهُ يا حرف نداء والنداء إذا كان من مخلوق لمخلوق فلا يسمى دعاءَ عبادة لأن المعبود في الشرع واحد لا تعدد فيهِ وهو الله عزّ وجلّ. وقد علم المسلمون وتحققوا أنهُ لا يعبد إلا الله ولا يدعى للعبادة إلا الله وإنما ينادون مَن ينادون على جهة الشفاعة عنده والنداء لا بأس بهِ،

فيجوز نداءُ المخلوق للمخلوق سواءً كان حاضرًا أو غائبًا ولو ميتًا، أما نداء الحاضر فلا يشك في جوازه ذو عقل، وأما نداء الغائب فيكفي في جوازه نداء عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ وهو يخطب على منبر المدينة لسارية رضي الله عنهُ وهو غائب في أرض العجم. وأمر النبي ﷺ لمن انفلتت دابته بأرض فلاة أن يقول: «يا عباد الله احبسوا»[1] ثلاث مرات، وفي روايةٍ أخرى: وإذا أراد عونًا فليقل: «يا عباد الله أعينوني»، ذكر الروايتين الإمامان المحدثان الجليلان السيوطي وابن الجزري. فلو كان النداء شرك أكبر كما زعم الضالون المضلون لما أمر بهِ النبي ﷺ وأما جواز نداء الميت فيكفينا دليلاً أن النبي ﷺ نادى أصحاب القليب يوم بدر بأسمائهم واحدًا واحدًا وهو يقول: إني وجدت ما وعدني ربي حقًا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًا، ولما قيل لهُ: كيف تناديهم وهم أموات قال: والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لكلامي منهم، ومرادنا إقامة الدليل على جواز نداء الميت، وقد صح أن الشهداء أحياء في قبورهم والأنبياء من باب أولى، والأرواح لا تفنى إجماعًا فيجوز نداء الأنبياء والشهداء بعد موتهم وكذا غيرهم، ولا بأس بهِ ولا يقال: إن ذلك عبادة لهم وإنما هو نداء على جهة التوسل والاستغاثة بهم فإن المعبود شرعًا وحقيقةً هو الله تعالى، وهو واحد في ذاتهِ وصفاتهِ وأفعالهِ ليس كمثلهِ شيءٌ ونداء المخلوق للمخلوق ليس بعبادة لهُ أصلاً، والدعاء أخص من النداء وهو خاص بالله تعالى كقول العبد يا رب يا الله ونحو ذلك، والطلب إذا كان من الأدنى للأعلى الحقيقي عى الإطلاق وهو الله عزّ وجلّ سمي دعاء عبادة، وإن كان من الأدنى لمن هو مثلهُ أو أعلى منهُ رتبة من المخلوقين سمي نداء، فافهموا أيها الإخوان الفرق بين الدعاء والنداء، فإذا أغاث الله تعالى عبدًا على يد نبي فهي معجزة لذلك النبي أو على يد ولي فهي كرامة لذلك الولي والمعجزات والكرامات لا تنقطع بموتهم لأنها من قدرة الله وكان الله على كل شيء مقتدرًا، فإذا أقدر الله نبيًا على حصول معجزة أو وليًا على حصول كرامةٍ فلا مانع من سؤالها منهُ ولا يسمى مَن سألها منهُ مشركًا، فقد طلب الحواريون من عيسى عليهِ السلام إنزال المائدة فأنزلها الله عليهم بواسطتهِ، وقد سأل نبي الله سليمان عليهِ السلام من آصف ابن برخيا أن يحضر لهُ عرش بلقيس كما نطق بهِ القرآن فأحضره في أقل من طرفة عين، ولم يقل أحد بأن ذلك شرك، وأيضًا أنبياء الله أولاد يعقوب عليهِ وعليهم السلام قد نادوا أباهم وجعلوه واسطة لهم في الاستغفار من ربهم فقال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين﴾ [يوسف: ٩٧] ووعدهم أبوهم بذلك فقال تعالى مخبرًا عنهُ: ﴿سوف أستغفر لكم ربي إنهُ هو الغفور الرحيم﴾ [يوسف: ٩٨] فانظر كيف جعلوه

(١) أخرجه النووي في الأذكار صفحة ٢٠١.

لهم واسطةً في الاستغفار من ربهم وقد أمر النبي ﷺ عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما أن يسألا أويس القرني الدعاء والاستغفار من ربهما إذا اجتمعا بهِ ففعلا كما في مسلم وجعلاه واسطةً لهما في الدعاء والاستغفار، مع أنهما أفضل منهُ وقد صرَّحت الأحاديث والأخبار بأن الأنبياء والأولياء لهم الشفاعة عند الله على قدر مراتبهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فباجابة الدعاء ودفع البلاء ونزول الغيث وغير ذلك من المصالح، قال النبي ﷺ: «إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانهِ البلاء»[1]، فإذا كان الله عزّ وجلّ يدفع البلاء بسبب الرجل الصالح عن جيرانهِ فكيف لا يسألونهُ الشفاعة عند الله في مهماتهم ومصالحهم، فإن في عباد الله مَن لو أقسم على الله لأبرّه كما في الصحيحين، وقال ﷺ: «لن تخلو الأرض من أربعين رجلاً مثل خليل الرحمٰن فبهم تسقون وبهم تنصرون ما مات منهم أحد إلا بدل الله مكانهُ آخر» رواه الطبراني في الأوسط فإذا كانت السماء تمطر ببركاتهم والأعداء تنخذل بتوجهاتهم، فكيف لا نستغيث بهم إلى الله وهم أولياؤه وأهل حضرته، ولم يرد في الكتاب ولا في السنة أن الله تعالى أو نبيه ﷺ قال: لا تنادوا أحدًا على جهة الشفاعة وأما قوله تعالى: ﴿فلا تدعوا مع الله أحدًا﴾ [الجن: ١٨] وقوله تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم﴾ [الأعراف: ١٩٤] ونحو ذلك من الآيات القرآنية فالخطاب للكفار والمشركين الذين يدعون مع الله غيره أي يعبدونهُ كقوله تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله مَن لا يستجيب لهُ إلى يوم القيامة﴾ ولهذا قال تعالى في آخر الآية ﴿وكانوا بعبادتهم كافرين﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] فدل على أنهم يعبدون غير الله وقد تقدم الفرق بين الدعاء والنداء، وأما التوسل إلى الله عزّ وجلّ بأنبيائه وأوليائه فهو سيرة السلف، وهو من جملة الأسباب المأمور بتعاطيها شرعًا وعقلاً، ومع ذلك فجميع الأسباب لا تأثير لها عند جميع المسلمين وإنما المؤثر هو الله عزّ وجلّ وحده، فهم وإن دخلوا في الأسباب وتعاطوها بينهم لا يعتقدون لها تأثيرًا البتة، فمن تناول دواء وهو مريض لا يعتقد أن الدواء يؤثر فيهِ الشفاء والعافية بل يعرف أن الدواء سبب والله تعالى هو الشافي المعافي حقيقة، ولا يقال لهُ أشركت بالله حيث استعملت سبب العافية الذي هو الدواء، ولا بأس بتعاطي الأسباب ولا محذور فيهِ إلا إذا اعتقد التأثير للسبب خاصةً دون الله أو مع الله، فمن توسل بنبي أو ولي إلى الله في حاجة وقضيت لا يعتقد أن ذلك النبي أو الولي هو الذي قضاها بنفسهِ دون الله، ولا يلام ولا يقال لهُ

---

(١) الحديث أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣٦٣)، باب الترهيب فى أذى الجار وما جاء في تأكيد حقه، حديث رقم: ٣٩.

أشركت بالله، كما لا يلام من تناول الدواء لأجل الشفاء فإن الله تعالى قد جعل لكل شيء سببًا من الخير والشر والنفع والضر ومع ذلك لا تؤثر الأسباب إلا بقدرة الله تعالى الكامنة عند الأسباب لا بها، ثم من العجب العجيب والأمر الغريب أنك إذا قلت: أحرقت النار ثوبي أو أغرق الماء ولدي أو قطعت السكين يدي أو نحو ذلك مثلاً لم يقولوا لك أشركت بالله وإذا قلت إني وقعت في شدة يا رسول الله اشفع لي أو يا ولي الله كذلك مناديًا لهُ قامت عليك القيامة الكبرى ونسبوك إلى الشرك الأكبر وأخرجوك من الملة الإسلامية وما ذاك إلا لأنهم ينكرون معجزات الرسول وكرامات الأولياء فيكرهون ذكرها ولا يحبون سماعها ويريدون أن لا تنسب إلى رسول معجزة ولا إلى ولي كرامة ويوهمون ضعفاء العقول القول إن مرادهم حماية جانب التوحيد وليس كذلك بل هم كما قال تعالى: ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾ [الصف: ٨] فمعجزات الرسل وكرامات الأولياء أنوارها لم تزل مشرقة إنشاء الله تعالى إلى يوم القيامة على رغم أنوف المعاندين الضالين ولا عار على الشمس إذا لم تبصر أنوارها الخفافيش؛ إذا تقرر هذا فنقول: يجوز الاستمداد من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين ولا محذور في ذلك.

قال شيخ الإسلام أحمد بن حجر في باب الجنائز من تحفتهِ على المنهاج وزوارهم يعني الموتى يعود عليهم منهم مدد أخروي لا ينكره إلا المحرومون اهـ. وقد حصلت الأمداد الإلٰهية والمنح الربانية لخلائق لا يحصون بواسطة من ذكر إما معجزة وإما كرامة، وقد سئل شيخ الإسلام والمسلمين شهاب الدين أحمد الرملي عما يقع من العامة من قولهم عند الشدائد يا شيخ فلان ونحو ذلك من الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين هل هو جائز؟ وهل للمشايخ إغاثته بعد موتهم أم لا؟ فأجاب بقولهِ: تجوز الاستغاثة بالأنبياء والمرسلين والأولياء والعلماء والصالحين، ولهم إغاثة بعد موتهم لأن معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء لا تنقطع بموتهم إذ مرجعها إلى قدرة الله عزّ وجلّ وقدرتهُ باقية لا تنقطع بموت أحد انتهى. وقد ذكر الإمام العارف الشهير سيدي الشيخ أحمد زروق في شرحه على الحكم أن الشيخ العارف بالله أحمد بن عقبة الحضرمي سألهُ هل إمداد الحي أقوى أم إمداد الميت؟ قال: فقلت لهُ: إنهم يقولون إمداد الحي وأنا أقول إمداد الميت، فقال: نعم لأنهُ في بساط الحق انتهى. هذا هو القول المشهور المنصور لأن أهل الله هم الوسائل إلى الله والوسائط إلى رسول الله ﷺ، لهم عند ربهم المكانة الجليلة ولا تخيب فيهم عند الله الوسيلة، وما أحسن قول السيد حسين برهان الدين قدس سره فيهم:

لـهـم قـدم بـبـاب الله قـدمًـا ... تـورثـه عـن الأهـل الـفـروعُ

متى دهمتهم الدنيا بخطب جرت منهم بساحتهِ الدموعُ
وقالوا ما لنا يا رب ذخر سواك وأنت مقتدر سميعُ
فتأتيهم يد المولى بنصر وما تغني عن الخصم الدروعُ

قلت: وقد انقضى هذا الباب وإلى الله المرجع والمآب وهو مفتح الأبواب.

الباب السابع

في أدعيته المباركة وأحزابهِ وصلواتهِ على النبي ﷺ، وهي معروفة بين السادة الرفاعية وغيرهم لحصول الفرج وحل العقد ودفع الضرر والكرب، وقد عدها أهل الله بابًا عظيمًا لتوجه قلب رسول الله ﷺ، ولكل حزب منها سند متصل بصاحبهِ رضي الله عنهُ، وقد وصلت إليّ من ثلاثة طرق. وسأذكر إن شاء الله في نهاية هذا الباب أسماء الرجال الذين أخذت عنهم الإجازة بقراءة أحزابهِ ودعواتهِ وصلواتهِ بالأسانيد الصحيحة إليهِ رضي الله عنهُ، قال سيدي العارف بالله إمام الفرقة الرفاعية السيد الشيخ سراج الدين الصيادي الرفاعي: من أوراد جدنا وشيخنا حضرة الغوث الكبير قدس سره في كل يوم سورة سبح اسم ربك الأعلى لآخرها مائة مرة ولا إله إلا الله بعد كل صلاة مائتين وإحدى وعشرين مرة ولا إله إلا الله الملك الحق المبين محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين في كل يوم مائتين وثلاثة وعشرين مرة، ومن أوراده قدس الله سره اللهم صل على سيدنا محمد طب القلوب ودوائها وعافية الأبدان وشفائها ونور الأبصار وضيائها وعلى آلهِ وصحبه وسلم في كل يوم مائة مرة، ومنها اللهم صل على سيدنا محمد صلاة تكتب بها السطور وتشرح بها الصدور وتهون بها جميع الأمور برحمة منك يا عزيز يا غفور وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم في كل يوم مائة مرة، ومنها اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي الطاهر الزكي صلاة تحل بها العقد وتفك بها الكرب وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم في كل يوم مائة مرة، ومنها أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه من كل ذنب أذنبتهُ عمدًا أو خطأ سرًا أو علانية من الذنب الذي أعلم ومن الذنب الذي لا أعلم إنهُ هو يعلم وأنا لا أعلم وهو علام الغيوب وغفار الذنوب وستار العيوب وكشاف الكروب ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم في كل يوم مائة مرة انتهى. ومن أوراده قدس سره العزيز في كل ليلة جمعة سورة يس مرة واحدة وسورة سبح اسم ربك لآخرها

سبع مرات والأسماء الحسنى مائة مرة ولا إلٰه إلا الله ألف مرة وسبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم مائتين وخمسة وعشرين مرة، ومن أوراده قبل طلوع الشمس في يوم الجمعة اللهم صل على سيدنا محمد النبي المليح صاحب المقام الأعلى واللسان الفصيح وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم، اللهم يا الله صل على سيدنا محمد ومن والاه عدد ما تعلمهُ من بدءِ الأمر ومنتهاه وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم، الصلاة والسلام عليك يا سيد المرسلين أنت لها ولكل كرب عظيم. يا رب فرج عنا بفضل بسم الله الرحمٰن الرحيم ألف مرة. ومن أوراده الشريفة، اللهم أنت ربي فنعم الرب وأنت حسبي فنعم الحسب ترزق من تشاءُ وأنت على كل شيء قدير، اللهم ما كان منك فمنك وما كان من غيرك فمنك أنت أنت وكل شيء منك أنت قامت بقدرتك الأشياء وبسطت الأرض ورفعت السماء فلا قبلك شيءٌ ولا بعدك شيء فأسألك بقدرتك على كل شيء أن تسخر لي كل شيء وأن تغفر لي كل شيء ولا تسألني عن شيء إنك قادر على كل شيء وأنت على كل شيء قدير وبالإجابة جدير وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. ومن أوراده الشريفة: اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبت إليك منهُ ثم عدت فيهِ وأستغفرك من كل ما وعدتك بهِ من نفسي ثم لم أوفِ لك بهِ، وأستغفرك من كل عمل عملتهُ أردت بهِ وجهك وخالطهُ غيرك، وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنبٍ أتيتهُ في ضياءِ النهار وسواد الليل في ملاء وخلاء وسر علانية، يا حليم يا كريم اللهم أصلح أمة محمد اللهم ارحم أمة محمد اللهم سلم أمة محمد اللهم اغفر لأمة محمد اللهم اغفر لي ولمن آمن بك ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم، ومن أوراده المباركة: سورة الواقعة وبعدها منها اللهم صل على محمد وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك وبمنتهى الرحمة من كتابك وباسمك العظيم وباسمك الأعلى وبكلماتك التامات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر وبإشراق وجهك أن تصلي على سيدنا محمد وآلهِ وصحبهِ وسلم وأن تعطيني رزقًا حلالاً طيبًا يا طالبًا غير مطلوب ويا غالبًا غير مغلوب يا واسع المغفرة ويا رازق الثقلين ويا خير الناصرين، اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزلهُ وإن كان في الأرض فأخرجه وإن كان بعيدًا فقرّبهُ وإن كان عسيرًا فيسره وإن كان قليلاً فكثره وإن كان كثيرًا فبارك لي فيهِ، اللهم اجعل يدي اليد العليا بالإعطاء ولا تجعل يدي اليد السفلى بالاستعطاء يا فتاح يا رزاق يا كريم يا عليم، اللهم سخر لي رزقي واعصمني من الحرص والتعب في طلبهِ ومن التدبير والحيلة في تحصيلهِ ومن الشح والبخل بعد حصولهِ، اللهم تولّ أمري بذاتك ولا تكلني إلى نفسي طرفة عينٍ ولا أقل من ذلك واهدني إلى صراطك

المستقيم صراط الله الذي لهُ ما في السمٰوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آلهِ وصحبه أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ومن أوراده الشريفة بعد البسملة: اللهمَّ يا ميسر كل عسير يسر مرادي بفضلك الواسع في كل يوم مائة مرة، ومنها بعد كل صلاة مفروضة خمس مرات بسم الله الرحمٰن الرحيم اللهمَّ لا تؤتني مكرك ولا تنسني ذكرك ولا تكشف عني سترك ولا تجعلني مع القوم الظالمين، سبحانك اللهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إلٰه إلا أنت وحدك لا شريك لك وأستغفرك وأتوب إليك وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبهِ وسلّم. ومنها هذه الصلاة الشريفة بعد كل صلاة أربع مرات وهي منقولة ومأخوذة عن غير شيخنا الكبير من كثير من كبار الصوفية الكرام كشيخنا الجنيد البغدادي وأبي يزيد البسطامي والشيخ شهاب الدين السهروردي وغيرهم قدس الله أسرارهم، وقال حضرة القطب الكبير قدس الله سره: إن مَن يداوم على هذه الصلاة الشريفة في كل يوم بعد صلاة الصبح على أي مراد ونية تحصل حاجتهُ بإذن الله تعالى ومَن قرأها اثنتي عشرة ألف مرة يرى النبي ﷺ في الرؤيا، وإذا داوم عليها أربعين صباحًا لكلِّ حاجةٍ ولدفع كل مهمةٍ وعلى أي مقصد كان يحصل بعناية الله تعالى وهي هذه الصلاة المباركة: اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي القرشي بحر أنوارك ومعدن أسرارك وعين عنايتك ولسان حجتك وخير خلقك وأحب الخلق إليك عبدك ونبيك الذي حققت بهِ الأنبياء والمرسلين وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم. سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. ومن أوراده الشريفة أعقاب الصلوات بالأوقات الخمس دائمًا: اللهم إني أسألك من النعمة تمامها ومن العصمة دوامها ومن الرحمة شمولها ومن العافية حصولها ومن العيش أرغده ومن العمر أسعده ومن الإحسان أتمهُ ومن الإنعام أعمهُ ومن الفضل أعذبهُ ومن اللطف أنفعهُ اللهم كن لنا ولا تكن علينا اللهم اختم بالسعادة آجالنا وحقق بالزيادة آمالنا واقرن بالعافية غدونا وآصالنا واجعل إلى رحمتك مصيرنا ومآلنا واصبب سجال عفوك على ذنوبنا، ومُنَّ علينا بإصلاح عيوبنا واجعل التقوى زادنا وفي دينك اجتهادنا وعليك توكلنا واعتمادنا وإلى رضوانك معادنا، اللهم ثبتنا على نهج الاستقامة وأعذنا في الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة، اللهم خفف عنا ثقل الأوزار وارزقنا عيشة الأبرار واكفنا واصرف عنا شر الأشرار وأعتق رقابنا ورقاب أبنائنا وأمهاتنا وإخواننا من النار يا عزيز يا غفار يا كريم يا ستار يا حليم يا جبار يا الله يا الله يا الله يا الله، اللهم أرني الحق حقًا وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلاً وارزقني اجتنابهُ ولا تجعل عليَّ متشابهًا فأتبع الهوى، اللهم إني أعوذ بك أن أموت في طلب الدنيا برحمتك يا أرحم الراحمين

وصلّى الله على سيدنا محمد وآلِهِ وصحبهِ أجمعين والحمد لله رب العالمين. وهذا الدعاء الذي ذكرناه مروي عن الإمام الغزالي رحمهُ الله بكتابهِ. ومن أوراده الشريفة هذا الدعاء وكان يقرأه كل ليلة بعد العشاء: بسم الله الرحمٰن الرحيم اللهم سر بنا في سرب النجابة ووفقنا للتوبة والإنابة وافتح لأدعيتنا أبواب الإجابة يا من إذا دعاه المضطر أجابهُ يا من يقول للشيء كن فيكون، اللهم إنا نسألك بالخليل في منزلتهِ والحبيب في مرتبتهِ وبكل مخلص في طاعتهِ أن تغفر لكل منا زلتهُ يا رحيم يا كريم، اللهم يا لطيف يا رزاق يا قوي يا خلاق نسألك تَوَلُّهًا إليك واستغراقًا في محبتك ولطفًا شاملاً جليًا وخفيًا ورزقًا طيبًا هنيًا مريًا وقوة في الإيمان واليقين وصلابة في الحق والدين وعزًا بك يدوم ويتخلد وشرفًا يبقى ويتأبد لا يخالط تكبرًا ولا عتوًا ولا إرادة فساد في الأرض ولا علوًا إنك سميع قريب مجيب برحمتك يا أرحم الراحمين، واغفر لنا ولوالدينا ولجميع المسلمين وصلِّ وسلم بجلالك وجمالك على جميع النبيين والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين. سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. ومن أوراده الشريفة: اللهم صلِّ على النور اللامع والقمر الساطع والبدر الطالع والفيض الهامع والمدد الواسع والحبيب الشافع والنبي الشارع والرسول الصادع والمأمور الطائع والمخاطب السامع والسيف القاطع والقلب الجامع والطرف الدامع صلى الله عليه وسلم وعلى آلِهِ وأولاده الكرام وأصحابه العظام وأولادهم الفخام وأتباعهم من أهل السنة والإسلام على ممر الليالي والأيام ما ناح الحمام وجن الظلام وحج مسلم وصام وقعد فتى وقام ونطق بحرف من كلام على مدى الدهور والأيام إلى يوم الزحام وعلى إخوانهِ الأنبياء العظام عليهم وعلى آلهم وأصحابهم أفضل الصلاة والسلام.

ومن أوراده الشريفة هذه الصلاة واسمها جوهرة الأسرار وهي مجربة ومعروفة بين أهل الكمال من السادات الرفاعية والمداومة عليها من أحسن الوسائل لنيل المعالي ومعاني الأسرار الخفية من جانب الحضرة النبوية وهي: اللهم صل وسلم وبارك على نورك الأسبق وصراطك المحقق الذي أبرزتهُ رحمةً شاملةً لوجودك وأكرمتهُ بشهودك واصطفيتهُ لنبوتك ورسالتك وأرسلتهُ بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنك وسراجًا منيرًا، نقصة مركز الباء الدائرة الأولية وسر أسرار الألف القطبانية الذي فتقت بهِ رتق الوجود وخصصتهُ بأشرف المقامات بمواهب الامتنان والمقام المحمود، وأقسمت بحياتهِ في كتابك المشهود لأهل الكشف والشهود، فهو سرك القديم الساري وماء جوهر الجوهرية الجاري الذي أحييت بهِ الموجودات من معدن وحيوان ونبات، قلب القلوب وروح الأرواح وأعلام الكلمات الطيبات القلم الأعلى والعرش المحيط روح جسد الكونين وبرزخ البحرين وثاني اثنين وفخر الكونين أبي القاسم أبي الطيب سيدنا محمد بن

عبد الله بن عبد المطلب عبدك ونبيك وحبيبك ورسولك النبي الأمي وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم تسليمًا كثيرًا بقدر عظمة ذاتك في كل وقت وحين سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. ومن أوراده الشريفة هذه الصلاة المباركة واسمها مدد المسترشد من جانب المرشد، قال أهل الكمال من السادات الرفاعية من داوم على قرأتها في كل يوم صباحًا ومساءً ثلاث مرات مع الإخلاص بلا شبهة يحصل لهُ مدد عظيم من جانب الرسول الكريم ويموت على الإيمان بفضل الله ويحشر تحت لواء النبي ﷺ ببركتهِ عليهِ الصلاة والسلام، ولها أسرار غريبة وبركات عجيبة ومن آدابها قبل القراءة وبعد القراءة الفاتحة للنبي عليهِ الصلاة والسلام ولجميع النبيين والمرسلين وأصحابهِ والتابعين، وفاتحة مخصوصة لروح صاحب الصيغة سيدي السلطان أحمد الرفاعي قدس سره، وكان حضرة السيد سراج الدين الصيادي الرفاعي يقرأ هذه الصلاة الشريفة في كل يوم اثنين بعد صلاة العصر مع جميع إخوانهِ بحلقة كبيرة وكان يقول قدس سره لإخوانهِ داوموا عليها فإن لها أسرارًا ظاهرةً وأنوارًا باهرةً ومددًا عظيمًا لمن قرأها بالحياء والإخلاص والأدب وهي هذه: اللهم أنت المطلع على الأسرار الخفية والعليم بالأشياء الكلية والجزئية دار بسر قدرتك مدار الأكوان وظهر بمعنى حكمتك مظهر الإيمان والعرفان. الكلام عندك كخفي النية والسر عندك كالعلانية، اسمك عليٌ عظيم وعلمك بغيبك قديم تنزهت ذاتك عن مشابهة الذوات وجلّت صفاتك عن مماثلة الصفات، حجبت نفسك بنفسك عن أبصار خلقك، فالخلق كلهم في بحر العجز عن إدراك حقيقة هذا السر، وأظهرت نور قدرتك لكل شيء فكل شيء حائر في فهم أصل ذاتك، النور نور قدرتك منك وأنت من نفسك فلا شك ولا حيرة في هذا المعنى جلّ ثناؤك وتقدست أسماؤك سبحانك لا تحصي ثناء عليك كيف وكل ثناء يعود إليك جل عن ثنائنا جناب قدسك أنت كما أثنيت على نفسك، جلي لامع نور معرفتك لامع في سماء أفئدة العارفين وخفي مبهم سر حقيقتك مكتوم في أرض قلوب الواصلين، لا يطلع عليك إلا أنت ولا يعرفك غيرك معرفة الواصلين عين عجزهم عن معرفتك وجهل العارفين غاية معرفتهم بك العجز العجز عن معرفة ذاتك وعن حصر صفاتك، أحل لنفسي من طي مشكلات وهمها عقد بسر قولك لنبيك: قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لهُ كفوًا أحد، عقدت أسرار حكمتك في قلبي فنفث عن خاطري أوهام طي المشكلات، فلا يحتاج أمر معرفتي لك عند الدليل والإثبات، عرفتك وعقدت هناك رمزي وجعلت غاية معرفتي عجزي سبحانك ما أعظم شأنك وما أعز سلطانك وما أجل برهانك، خطفت لوامع بوارق بواهر أسرارك العقول، وكشفت مظاهر آثار حقائق عظمتك عجز أهل

الأدلة والنقول، الدليل عليك حاجة الكل إليك ووقوف الكل بين يديك، معاني سلطنتك منزهة عن التحويل وحقائق عظمتك لا تحتاج للدليل، فالدليل أنت لمن أدرك بالجملة والتفصيل والنقل الأقوى قدرتك لمن فهم زبدة التقصير والتطويل، غاية معاريج الأولياء العارفين الوقوف عند ساحل بحر هذا الميدان، ومنتهى مراتب معرفة الصلحاء الواصلين إلقاء الذمام في هذا المقام وقبض العنان فأسألك إلٰهي بسر مددك الحقيقي الذي وضعتهُ في صناديق عقول الكاملين وبنور عنايتك الصمدانية الذي نورت بها بيوت قلوب الصالحين، وبباهر معنى سر اسمك الأجل الأعظم الذي زلت لهُ الجبال وخضعت لسطوة سلطنة قهره هامات فحول الرجال، وبتجلي نور ذاتك المحرق بنار جلال عظمتهِ الطود الشامخ والجبلِ الراسخ، وخر لذلك موسى صعقًا من هيبة سر ذلك التجلي الجليل والمعنى الباهر النبيل، فلا شيء في الكونين إلا وعبادة عليهِ ولا لسان في الدارين إلا وعين نداه يا من الكل منهُ والكل إليهِ فبحقيقة ذلك صلّ على المرشد لذلك نبيك الأقرب وحبيبك المنتخب، جوهرة خزانة قدرتك وعروس ممالك حضرتك وسلطان مدينة أهل معرفتك وتاج هامات المشرفين بنبوتك ورسالتك، إمام الأنبياء وخاتم المرسلين ومقدام الأمراء وملجأ العاجزين مدار فلك الإحسان والكنز الخفي الذي بهِ عرفناك فكفى بهِ برهان عين علمك المكنون ببحر سرِّ معنى ن ودقيقة أمرك المصون بتجلي باهر إشارة كن فيكون، واسطة الكل في مقام الجمع ووسيلة الجميع في تجلي الفرق رحمة للعالمين قبل العالمين، وإمام الأنبياء والمرسلين قبل أن يخلق آدم من الطين، أقرب خلقك وأجل عبادك وأحسن عبيدك وأجمل عبادك، سرك الباهر الذي جعلتهُ كعبة لأهل الأرض والسماء ونورك الظاهر الذي لأجلهِ علمت آدم الأسماء، وعلى آلهِ وأصحابهِ وأزواجهِ وذريتهِ والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين واغفر لنا ولوالدينا ولوالد والدينا ولمشايخنا ولمشايخ مشايخنا ولإخواننا المسلمين وأحينا بحقهِ على ملتهِ وأمتنا على حقيقة شريعتهِ واحشرنا في زمرتهِ أجمعين واجعلنا بجواره في الجنة مقيمين وبظلالهِ العالي هنا وهناك آمنين، وصلّ وسلم على جميع إخوانهِ من النبيين والمرسلين وآلهم وصحبهم أجمعين والحمد لله رب العالمين.

ومن أوراده الشريفة هذه الصلاة المباركة وهي معروفة بين أئمة السادات الرفاعية بروح الطالب وهي مجربة مع المداومة لنجاح الأمور ولحصول المطلوبات ولقضاء الحاجات، ووسيلة لقرب الطالب من الله تعالى ولتفتيق الأسرار في قلب الطالب وسببًا لتوجه قلب رسول الله ﷺ بالعطف لذلك القارىء ولها أسرار عجيبة وأنوار عظيمة وهي هذه: بسم الله الرحمٰن الرحيم صلّ على روح السر الكائن بسر الروح روح الطالب ومحل طلب أرباب المطالب راءُ رحمتك المبرقع بسر قولك وما أرسلناك إلا رحمة

للعالمين، وواو ورود وحيك المنزل عليهِ بلسان عربي مبين، وجاءُ حقيقتك المطمئن بحصن والله يعصمك من الناس، والمفتخر بباهر سر إنا كفيناك المستهزئين روح المعرفة الساكن بجسم الحقيقة المتحرك في أعضاء الطريقة الواقف بميدان الشريعة الناطق بكلامك القديم الآمر بأمرك الفخيم الممدوح بقولك: وإنك لعلى خلق عظيم، الموصوف بالأديادي الطويلة والأحوال النبيلة والمكارم الجزيلة والأخلاق الجميلة والذات الفضيلة القائم بأوامرك الكثيرة والقليلة، روح العناية المتوطن بقلب الصدق المتكلم بلسان الحق الهادي لجميع الخلق القائم بالإحسان والرفق، حامل لواء العز فاتح مغلاق الرمز سر مظهر الأنس مظهر سر القدس صاحب المعجزات الباهرات والبينات القاهرات حماية اللاجئين وقاية الخاطئين عناية العارفين هداية الكاملين فتوح السالكين روح الطالبين، روح الوصول السالك بطريق القرب الموصول بمدد الرب الموصل لمقام الحب المذكور بجملة الكتب محراب مسجد القبول، مسجد محراب الوصول سيف الحق المسلول كرم الله المأمول عين الخلق بصر الصدق حسن الخلق حلو النطق آية الله الكبرى مصدر خطاب المدد الأعلى، بسبحان الذي أسرى روح النعيم نعيم الروح ختام الأنبياء نظام العظماء باب الأولياء ملاذ الصلحاء تجلي الحق بالوجوه والأنواع حقيقة التجلي بالاتضاع والارتفاع، مآل الطالب آمال المطالب أمل الراغب روح الطالب روح السر روح المعرفة روح العناية روح الوصول روح النعيم بهجة الكل مدد الكل حقيقة الكل سر الكل معرفة الكل عناية الكل وصول الكل نعيم الكل سيد الكل فالكل لأجلهِ كان وبهِ نظم فكان معنى الكل لذوي الإدراك بمعنى لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك وسلم اللهم عليهِ وعلى آلهِ وأصحابهِ الواقفين ببابهِ القائمين بأمر جنابهِ وعلى أولاده وأولادهم والتابعين لحزبهم على منهج الحق المبين ليوم الدين واغفر اللهم لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولإخواننا المسلمين وألحقنا وإياهم بالصالحين واحشرنا جميعًا بزمرة نبينا الطاهر الأمين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وهنا نذكر أحزابهِ الشريفة فمن أحزابهِ قدس سرهُ هذا الحزب واسمهُ حزب الحصن وهو: بسم الله الرحمٰن الرحيم اللهمّ بتلألأ نور بهاء حجب عرشك من أعدائي أحتجبت وبسطوة الجبروت ممن يكيدني استغثت، وبطول حول شديد قوتك من كل سلطان تحصنت، وبديموم قيوم أبديتك من كل شيطان استعذت، وبمكنون السر من سر سرك من كل همّ وغمّ تخلصت، يا حامل العرش عن حملة العرش يا شديد البطش يا حابس الوحش احبس عني من ظلمني واغلب من غلبني ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز﴾ [المجادلة ٢١] وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبهِ وسلم والحمد لله رب العالمين. ومن أحزابهِ الشريفة هذا الحزب المبارك واسمهُ حزب الستر

وهو: بسم الله الرحمٰن الرحيم اللهمَّ إني أسألك بسر الذات وبذات السر هو أنت أنت هو لا إلـٰه إلا أنت احتجبت بنور الله وبنور عرش الله وبكل اسم لله من عدوي وعدو الله ومن شر كل خلق الله بمائة ألف ألف مرةٍ لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ختمت على نفسي وديني وأهلي ومالي وولدي وجميع ما أعطاني ربي بخاتم الله القدوس المنيع الذي ختم بهِ على أقطار السمٰوات والأرض حسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على خير خلقهِ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين آمين. ومن أحزابهِ هذا الحزب الشريف واسمهُ حزب البركات وهو: بسم الله الرحمٰن الرحيم اللهمَّ إني أسألك بعظمتك الجليلة وبذاتك الجميلة وبيد قدرتك الطويلة وبمظهر غيبك وبباهر حكمة قدسك وبدقيقة عنوان علمك وبسرك الذي لا يطلع عليهِ أحد غيرك وبحقائق أسمائك كلها ما علمت منها وما لم أعلم، يا الله يا رحمٰن يا رحيم يا ملك يا قدوس يا سلام يا مؤمن يا مهيمن يا عزيز يا جبار يا متكبر يا خالق يا بارىء يا مصور يا غفار يا قهار يا وهاب يا رزاق يا فتاح يا عليم يا قابض يا باسط يا خافض يا رافع يا معز يا مذل يا سميع يا بصير يا حكم يا عدل يا لطيف يا خبير يا حليم يا عظيم يا غفور يا شكور يا علي يا كبير يا حفيظ يا مقيت يا حسيب يا كريم يا رقيب يا مجيب يا واسع يا حكيم يا ودود يا مجيد يا باعث يا شهيد يا حق يا وكيل يا قوي يا متين يا وليّ يا حميد يا محصي يا مبدىء يا معيد يا محيي يا مميت يا حي يا قيوم يا واجد يا ماجد يا واحد يا أحد يا فرد يا صمد يا قادر يا مقتدر يا مقدم يا مؤخر يا أول يا آخر يا باطن يا ظاهر يا ولي يا متعال يا برّ يا تواب يا منتقم يا عفو يا رؤوف يا مالك الملك يا ذا الجلال والإكرام يا مقسط يا جامع يا غني يا مغني يا معطي يا مانع يا ضار يا نافع يا نور يا هادي يا بديع يا باقي يا وارث يا رشيد يا صبور يا من لا إلـٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين وأنت أرحم الراحمين، وقد جئت بذنبي وتجردت من عذري فسامحني واغفر ذنوبي وكمل مقاماتي بك في السر والجهر وجمل فؤادي بعنايتك واكفني بفضلك وقني شرّ أعدائي وتوفني مؤمنًا أنا وأهلي وإخواني وولدي وشيخي ومقري والمسلمين أجمعين واكفني شرّ الحاسدين وشرّ عداوة المعادين وارفع رتبتي واغنني عن خلقك وأرض عني مشايخي وقيدني لخدمتهم بطاعتك وصلّ على نبيك الذي اخترتهُ من جوهر خلقك محمد ﷺ وارضَ بحقه عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وعن الستة الكرام البررة الذين بايعوه تحت الشجرة وعن الحسن والحسين وعن أُمهما وعن أتباعهم أجمعين وعن التابعين لحزبهم إلى يوم الدين، واغفر لي إنك على كل شيء قدير واغفر لإخواننا في طريقنا وللآخذين منهم والمقلدين عنهم واغفر لأصحاب كل طريقة ومنهج وعطف علينا قلوب أوليائك وأحبابك واغفر لهم بفضلك وأيد ولي أمرنا بالنصر وسلكه في سبيل الشريعة في كل أمر وجازه على حفظ الدين المحمدي

بالعز، وأشغل الناس لهُ بدعاء الخير وميل قلوب أمة محمد أجمعين لسيرنا وطريقنا، وقدنا وإياهم إلى تقواك بحبل عطفك وهيّء لنا آمالنا بالخير والإقبال واكفنا همّ زماننا هذا وصروف غمه وبدعه واغفر بفضلك العميم لكافة المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات وصلّ وسلم بجلالك وجمالك على جميع النبيين والمرسلين وعلى آلهم وصحبهم أجمعين والحمد لله رب العالمين. اللهم أمتنا وأحينا على حقيقة لا إلٰه إلا الله، وهنا الواجب على الإخوان أن يقرؤوا كلمة التوحيد خمسة وعشرين مرة ويقولون: لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلهِ وأصحابهِ وأهل بيتهِ الطيبين الطاهرين أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وعلى نية القبول لروح حضرة الرسول ولأرواح المشايخ الكرام وأهل الطريقة العلية الرفاعية وكافة أصحاب الطرق، ولقبول الدعاء ورد القضاء ونجاح الأمور وإصلاح القلوب الفاتحة ثم يقولون: سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ومن أحزابهِ الشريفة هذا الحزب واسمهُ حزب الأسرار وهو: بسم الله الرحمٰن الرحيم اللهم اجعلنا ممن ركبت على جوارحهم من المراقبة غلاظ القيود وأقمت على سرائرهم من المشاهدة دقائق الشهود، فهجم عليهم نشر الرقيب مع القيام والقعود فنكسوا رؤوسهم مع الخجل والحياء برحمتك وفرشوا لفرط ذلهم على بابك نواعم الخدود فأعطيتهم برحمتك غاية المقصود صل على محمد وعلى آلهِ أهل الكرم والجود وسلم. اللهم ارزقنا منك طول الصحبة ودوام الخدمة وحفظ الحرمة ودوام المراقبة ونشر الطاعة وحلاوة المناجاة ولذة المغفرة وصدق الجنان وحقيقة التوكل وصفاء الود ووفاء العهد واعتقاد الفضل وتجنب الزلل وبلوغ الأمل وحسن الخاتمة بصلاح العمل صلّ على محمد وعلى آلهِ ما طلع نجم وأفل وسلم. اللهم يا من أجرى محبتهُ في مجاري الدم من المشتاقين وقطع سطوة الشك بحسن اليقين أثبتنا اللهم في ديوان الصديقين، ونسألك عزم أولي العزم من المرسلين حتى تصلح بواطننا بلطائف المؤانسة ونفوز بالغناء يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا مَن أتى الله بقلب سليم، وألبسنا اللهم جلباب الورع الجسيم وأعذنا من البدع والضلال الأليم صلّ على محمد وعلى آل محمد الهادي إلى صراطك المستقيم وسلم، اللهم إنا نسألك بصدق الحاجة والاعتذار والإقلاع عن الخطايا والاستغفار أمرتنا اللهمّ بالسؤال فجاءتك قلوبنا بالانكسار، ونظرت إليك مقل الأسرار بسلطان الافتقار فاجبر اللهمّ ذل انكسارنا بلطف الاقتدار وجنبنا الإصرار ومخالطة الأغيار، يا حليم يا ستار يا جليل يا جبار يا عزيز يا غفار يا مقلب القلوب والأبصار وصلّ على محمد وعلى آلهِ الكرام الأبرار وسلم،اللهمّ يا مَن حمل أولياءه على النجب والسباق ورفعهم على أجنحة

الزفير والاشتياق وأجلسهم على بساط الرهبة وحسن الأخلاق وأهطل على لممهم سحب الآماق وشعشع أنوار المعرفة في قلوبهم كبرق الشمس عند الإشراق وكشف عن عيونهم حجب سائر الظلمة وأجلسهم بين يديه بتفريد القلوب واتصال العزم وسمو الهمم، اللهمّ صلِ على محمد وعلى آله سادات الأمم وسلم، اللهمّ أرخص ما يقربنا إليك وغلِّ علينا ما يباعدنا عنك واغننا بالافتقار إليك ولا تفقرنا بالاستغناء عنك وأخلص أعمالنا بإرادتك واجعلنا نتوكل عليك وبك نستعين، اللهمّ بجاه أهل الجاه وبمحلّ أصحاب المحلّ وبحرمة أهل الحرمة وبمن قلت لهُ الم نشرح لك صدرك اشرح اللهمّ صدورنا بالهداية كما شرحت صدره ويسر أمورنا كما يسرت أمره يسر لنا من طاعتك ما تحول بهِ بيننا وبين معاصيك ولا تؤاخذنا بالغفلة والمهلة والفترة إنك على كل شيء قدير، اللهمّ أطلق ألسنتنا بذكرك وطهر قلوبنا عمن سواك وروّح أرواحنا بنسيم قربك، واملأ أسرارنا بمحبتك وأطوارنا بنية الخير للعباد، وألف أنفسنا بعلمك واملأ صدورنا بتعظيمك وحيز كليتنا إلى جنابك واجعلنا ممن يأخذ ما صفى ويدع الكدر صل على محمد وعلى آلهِ خير البشر وسلم، اللهم اجعلنا ممن يعرف قدر العافية ويشكر عليها ويرضى بك كفيلاً لتكون لهُ وكيلاً ووفقنا لتعظيم عظمتك وارزقنا لذة النظر إلى وجهك الكريم تباركت وتعاليت يا ذا الجلال والإكرام لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدًا عبدك ورسولك، اللهمّ إنا نسألك بأحدية ذاتك ووحدانية صفاتك وفردانية أسمائك أن ترزقنا سطوة من جلالك وبسطة من جمالك ونشطة من كمالك، حتى يشيع فيك شهودنا ووجودنا ونطلع على شهودنا ومشهودنا وأطلع في شمس كوننا نور معرفتك ونور أفق عيوننا بنور حكمتك وزين سماء زينتنا بنجوم محبتك واستهلك أفعالنا في فعلك واستغرق تقصيرنا في طولك وأشخص إرادتنا في إرادتك واجعلنا لك عبيدًا في كل مقام قائمين بعبوديتك متفرغين لألوهيتك مشغولين بربوبيتك لا نخشى فيك ملامًا ولا ندع علينا غرامًا، وأرضنا اللهم والطف بنا فيما ينزل من القضا واجعل لنا لما ينزل من الرحمة من سمائك أرضًا وافننا في محبتك كلاً وبعضًا، صحح اللهمّ فيك مرامنا ولا تجعل في غيرك اهتمامنا وأذهب من الشر ما خلفنا وأمامنا، اللهمّ إنا نسألك بمكنون هذه السرائر يا من ليس إلا هو يخطر في الضمائر صلّ على محمد سيد السادات ومراد المرادات وقطب دائرة السعادات، حبيبك المكرم ونبيك المعظم النبي الأمي والرسول العربي وعلى آله وصحبهِ وسلم، اللهمّ إنا نسألك بالألف المعطوف وبالنقطة التي هي مبدأ الحروف وبباء البهاء وبتاء التدقيق وبثاء الثبوت وبجيم الجلال وبحاء الحلم وبخاء الخوف وبدال الديمومية وبذال الذكر وبراء الحرمة وبزاي الزكاء وبسين السناء وبشين الشكر وبصاد الصبر وبضاد الضمير وبطاء الطول وبظاء الظهور وبعين العناية وبغين الغنا وبفاء الفردانية وبقاف القهر وبكاف الكفاية

وبلام اللطف وبميم الملك وبنون النور وبهاء الهداية وبواو الولاية وبياء اليقين وبلام ألف لا إلٰه إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدًا عبدك ورسولك الفاشي في الخلق حمدك الباسط بالجودِ يدك لا تضار في حكمك ولا تنازع في سلطانك وملكك وأمرك، تملك من الأنام ما تشاء ولا يملكون منك إلا ما تريد، إن الله وملائكتهُ يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا، سبحانك اللهم صل على محمد وآل محمد وسلم سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

ومن أحزابهِ الشريفة هذا الحزب المبارك الجليل واسمهُ الحزب الكبير وقراءته مجربة لنيل المرادات وقضاء الحاجات ولقرب السالك من الله ووسيلة عظمى للفتوح وهو: بسم الله الرحمٰن الرحيم اللهم إني أسألك يـا الله بالحقوق الأزلية والنعوت الإلٰهية والصفات الربانية والكلمات القدسية والأقسام العلوية والمعاني الملكوتية والأجسام السماوية والملائكة العرشية والأفلاك الدائرة النورانية والقلوب الوالهة في عشقها على بساط الديمومية والعلوم المتلاطمة أمواجها في بحار الصمدانية والعقول المتحيرة في إدراك حقائق المشيئة والنفوس المشتاقة لصفات العبودية والأرواح المحترقة في مكاشفات حضرة الربوبية، والأعمال المقدسة الصادقة الزكية، والأسرار المعظمة الشريفة الخفية والعجائب المنزهة عن مناسبات البشرية، والأسماء المكنونة في خزائن اللاهوتية واللطائف الخارجة عن الكيفية، والرسوم البادية في صحراء وجود الديمومية والمعالم المعلومة في معالم الإنسانية، والعظائم المنعوتة في سرادقات الجبروتية، وأسألك يا رب عشر مرات ببهجة تبلج أنوار غرر وجوه عرائس معالي صفات بديع جمال فردانيتك يا فرد عشر مرات، وبهيبة توهيج أسرار درر ثغور نفائس معاني نعوت رفيع بديع جلال لاهوتيتك يا هو عشر مرات، وبعزة عظمة معالي عوالي شامخات باذخات جوامع موانع كمال قيوميتك يا قيوم عشر مرات، وبتشييد تأييد تأكيد متين قوة قواعد أصول بقاء أبدية خلود دوام ديموميتك يا دائم عشر مرات، وبعجيب غريب لطيف خفي غامض مخزون مكنون جواهر معادن ثغور بحور أسرة معالم علوم أزليتك يا أزلي عشر مرات، وبشرائف لطائف دقائق نشر عطر نسمات رحيق بحر وجود ستر روح فائق حسن نضارة أزهار روض بساتين عرف حضائر رحمانيتك يا رحمٰن عشر مرات، وبلين إعطاف إلطاف حسن تقويم تركيب صورة عوالي تعالي بكور قصور خزائن صناديق سر رحمتك يا رحيم عشر مرات، وأسألك يا الله بتلألؤ بروق شعاعات توهجات سطعات لمعات سبحات نور وجهك الكريم الأكرم يا كريم عشر مرات، الذي أشرقت بشعاع نور وجوده شمس الوجودات يا جواد عشر مرات، يا رب الأرباب مربي الكل بربوبيتهِ أسر عليّ سريان لطفك حتى

أشهد لطيف اللطف من كل جهة الإشارة عليها حتى أغرق في بحار لطفك مبتهجًا بحلاوة ذلك البحر، حلاوة تعدو بأرواح المرتاحين لفهم أسرارك وامنحني اسمًا من أسماء نورك اتدرع بهِ، وقني شر ما يخرج من الأرض وما ينزل من السماء وما يعرج إليها إنك لطيف خبير وكشفت باطلاع السر شهود ظلمات المعدومات وقام ببركة كنه نور عطفهِ نظام الموجودات وصلح بحركة سر لطفهِ أمر الدارين وأسألك بجلال جمال كمال تمام غاية نهاية حقيقة عزة عظمة اسمك العظيم الأعظم الذي تعلقت بذيل معنى حقيقتهِ كليات حقائق معاني بواطن أرواح أنوار أسمائك يا الله، وتمسكت بعروة سر دقائق مثاني ذوات نفوس أسرار آلائك يا الله، أن تصلي وتسلّم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وأصحابهِ وأن تظهر قلوبنا من المعارضات وتزكي أعمالنا من الغرضيات وتلهمنا لخدمتك في جميع الأوقات وتنورنا بأنوار المكاشفات وتزين أبداننا بأنواع الطاعات وتحيد أفكارنا وأفهامنا وعقولنا في ملكوت الأرض والسمٰوات وتجعلنا يا ربنا ممن يرضى بالمقدور ولا يميل إلى دار الغرور ونتوكل عليك في جميع الأمور ونستعين بك في نكبات الدهور، اللهم اقض حوائجنا واغفر لنا ذنوبنا وطهّر قلوبنا ومتعنا بقربك ونعمنا بحبك واجعلنا في سترك مقيمين ولا تجعلنا يا رب بغيرك واثقين واحفظنا يا رب من المكروهات في ليلنا ونهارنا وقرارنا وأسفارنا وحياتنا ومماتنا واجعلنا ممن يرضى بقضائك وقدرك وأنت راضٍ عنا برحمتك يا أرحم الراحمين آمين آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ وسلّم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

ومن أحزابهِ الشريفة هذا الحزب واسمهُ الحزب الصغير وهو بسم الله الرحمٰن الرحيم اللهمّ إني أسألك بعظيم قديم كريم مكنون مخزون أسمائك وبأنواع أجناس أنفاس رقوم نقوش أنوارك وبعزيز إعزاز أعزّ عزتك وبحول طول جول شديد قوتك، وبقدر مقدار اقتدار قدرتك، وبتأييد تحميد تمجيد عظمتك وبسموّ نموّ علوّ رفعتك وبحيوم قيوم ديموم دوام أبديتك وبرضوان غفران أمان مغفرتك وبرفيع بديع منيع سلطانك وبصلاة سعاة بساط رحمتك، وبلوامع بوارق صواعق صحيح وهيج بهيج وهيج نور ذاتك، وببهر فهر جهر ميمون ارتباط وحدانيتك، وبهدير تيار أمواج بحرك المحيط بملكوتك، وباتساع انفساخ ميادين بواذخ كرسيك وبهيكليات علويات روحانيات أملاك عرشك، وبالأملاك الروحانيين المديرين لكواكب أفلاكك وبحنين أنين تسكين المريدين لقربك، وبحرقات زفرات خضعات الخائفين من سطوتك، وبآمال نوال أقوال المجتهدين في مرضاتك، وبتحمد تمجد تهجد تجلد العابدين على طاعتك وبتخضع تخشع تقطع مرائر الصابرين على بلوائك، يا أوّل يا آخر يا ظاهر يا باطن يا قديم يا مقيم اطمس بطلسم بسم الله الرحمٰن الرحيم شر سويداء قلوب أعدائنا وأعدائك ودق أعناق رؤوس الظلمة بسيوف

نمشات قهر سطوتك، واحجب بحجبك الكثيفة عن لحظات لمحات أبصارهم الضعيفة بحولك وقوتك صب علينا من أنابيب ميازيب التوفيق في روضات السعادات آناء الليل وأطراف نهارك واغمسنا في أحواض سواقي مساق برك ورحمتك، وقيدنا بقيود السلامة عن الوقوع في معصيتك يا أول يا آخر يا ظاهر يا باطن يا قديم يا مقيم، اللهمّ ذهلت العقول وانحصرت الأفهام وحارت الأوهام وبعدت الخواطر وقصرت الظنون عن إدراك كنه كيفية ما ظهر من مبادىء عجائب أنواع قدرتك، وقصرت الظنون دون البلوغ إلى تلألؤ خطاب لمعان بروق شروق أسمائك، اللهم محرك الحركات ومبدىء النهايات لغايات ومشقق صم الصلاديد الصخور الراسيات المنبع منها ماء معينًا للمخلوقات المحيي بها سائر الحيوانات والنباتات والعالم بما اختلج في سرهم نطق إشارات خفيات لغات النمل السارحات، ومن سبحت وقدست وعظمت ومجدت بجلال جمال كمال إفضال عزك ملائكة السبع السمٰوات، اجعلنا اللهمّ يا مولانا في هذه الساعة المباركة ممن دعاك فأجبتهُ وسألك فأعطيتهُ وتضرع إليك فرحمتهُ وإلى دارك دار السلام أدنيتهُ وقربتهُ، جد علينا بفضلك يا جواد عاملنا بما أنت أهلهُ ولا تعاملنا بما نحن أهلهُ إنك أهل التقوى وأهل المغفرة يا أرحم الراحمين ارحمنا ثلاث مرات.

ومن أحزابهِ الشريفة هذا الحزب المبارك واسمهُ حزب الفتوح وهو: بسم الله الرحمٰن الرحيم حضر الفتوح وجاء المدد وأقبل الإقبال بحل العقد وانفلق الدجى وأفلح الرجا وجلي الظلام ورفعت الأعلام وصحت النقول وركبت الخيول وذهب الحرج وجاء الفرج بسم الله فتح باب الله بسم الله توكلت على الله بسم الله وما النصر إلا من عند الله بسم الله حسبي الله بسم الله قل كل من عند الله بسم الله ما شاء الله ما كان من نعمة فمن الله بسم الله ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك الله وفتحت السماء فكانت أبوابًا وذلك فضل الله إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا فسبح بحمد ربك واستغفره إنهُ كان توابًا، الحمد لله مولانا أقبلنا عليك بذنوب كبار وتوجهنا إليك متجردين من الأعذار علمك بالحال يغني عن السؤال وأنت قلت في كلامك القديم المنزل على نبيك الكريم ادعوني أستجب لكم فها نهن واقفين بباب العطا متأزرين بأزر الرجا متكلمين بلسان الدعا، يا من لك الأرض والسماء ومآل الكل الفناء ولك البقاء سبحانك أنت الرؤوف مولانا وربنا وخالقنا همتنا مع عظمتك شيءٌ حقير وذنبنا مع كرمك لا يعد شيئًا وإن كان كبيرًا، وخطانا مع عفوك عشر من فتيل وذلنا مع رأفتك مآلهُ العز والتبجيل، يا مفتح الأبواب يا ملهم الصواب يا مؤنس الأحباب يا موصل الطلاب يا مسبب الأسباب يا مسهل الأمور الصعاب يا رحيم يا رحمٰن يا كريم يا ديان يا حنان يا منان، أسألك بأسرار الأرواح وبحركات الأشباح

وبنورك الوضاح وبحقيقة سر معنى اسمك الفتاح أن تفتح لنا بابًا من فتوحاتك السبحانية ومدخلاً من مداخل إنعاماتك الربانية لنشغل بك عن غيرك ونتخلص ببركة هذا الفتح الرحماني من علاقة القلق النفساني ونكون ممن سبقت لهم الحسنى ونطلع على أسرار أسمائك الحسنى ونتملى بأنوار جمال معاني إشارات مظاهر ذات سر الحسناء، ونشاهد بك ما كان وما يكون ونفهم بسرك حقيقة ن والكاف والنون ونكون بك ومعك ولك ومنك وإليك من غير لهوٍ ولا خلل ولا التفات ولا كسل ولا انحراف ولا ملل مع الراحة للأجسام الضعيفة والقلوب الملهوفة شدت النفس علينا وثاقها وضيقت خناقها وما لنا ملجأ إلا أنت ولا معتمد إلا إياك، فبحق حبك لمحمد وبحقهِ عليك وبحرمتهِ عندك وبحرمة الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين والعلماء العاملين وأمة محمد المقبولين وأحبابك المقربين وبحرمة طٰه وطس وحمعسق ويٓس وكهيعص والم والر وطسم وبراءة وحم، وبسر كلامك القديم وبمدد اسمك العظيم نسألك أن تحل وثاقنا وأن تسهل أرزاقنا وأن تكتبنا في دفتر المحبوبين مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، واكفنا هم الدنيا وبلاء الآخرة واغننا عن الناس وثبت سر الإيمان في قلوبنا بلا زيغ ولا انحراف ولا شك ولا خلاف، وعلمنا من علومك اللدنية علمًا نسلم بهِ من دسائس الشيطان ونقاد بذمامه لمنازل الإحسان وننزل ببركتهِ بمقامات العرفان ونكفى بصيانتهِ أذية الظلم والعدوان ونأمن بسره من غضب السلطان ونحفظ بعنايتهِ من خيانة أهل الزمان ونحشر ببركة مدده مع أهل الإيمان وندخل بسبب حقيقتهِ بلا حساب للجنان ونتزوج بلطافة بهجتهِ من الحور الحسان ونستخدم بدقة مدده الولدان ونكون بطلعة نوره بجوار إبراهيم خليل الرحمٰن نحن ووالدينا وباقي الإخوان وأهلنا وجيراننا والمسلمين وأهل الإيمان، تقبل اللهم رجاءنا واستجب دعاءنا ولا تردنا بعد الدعاء مطرودين ولا بعد الرجاء خائبين، وأدخلنا في باب القبول وأوصلنا بحبل الوصول وأكرمنا بالخير والإيمان والبركة والإحسان واهدنا هداية أهل العرفان واغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا بالإيمان واغفر لكل المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات وصل وسلم على حبيبك الأكرم ونبيك الأعظم محمد ﷺ وعلى آلهِ وأصحابهِ وأهل بيته الطيبين الطاهرين والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وهذا الورد الذي كان يفتتح بهِ الذكر في وقت المقابلة وهو لقضاء الحاجات واسمهُ ورد الفيوضات وهو: بسم الله الرحمٰن الرحيم تقرأ فاتحة الكتاب مرة وسورة سبح اسم ربك الأعلى مرة وسورة ألم نشرح لك صدرك مرة وسورة الإخلاص ثلاث مرات والمعوذتين والفاتحة ومن أول البقرة إلى المفلحون، وإلٰهكم إلٰه واحد لا إلٰه إلا هو

الرحمٰن الرحيم وآية الكرسي، ولله ما في السمٰوات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم بهِ الله إلى آخر سورة البقرة وتقول: يا أرحم الراحمين ثلاثًا ورحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنهُ حميد مجيد إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا إن الله وملائكتهُ يصلّون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلّوا عليه وسلّموا تسليمًا، اللهم صل وسلم على سيدنا محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمدٍ كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في العالمين إنك حميدٌ مجيدٌ عدد خلقك ورضاء نفسك وَزِنَةَ عرشك ومداد كلماتك كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون عشر مرات، وتقول: اللهمّ صلِ أفضل صلاةٍ على أشرف مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله وصحبهِ وسلم عدد معلوماتك ومداد كلماتك كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون ثلاثًا، وتقول: اللهمّ صلِ على سيدنا محمد عبدك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبهِ وسلم عدد ما في السمٰوات وما في الأرض وما بينهما وأجرِ يا رب لطفك في أمورنا والمسلمين أجمعين يا رب العالمين ثلاثًا، واللهمَّ صلّ وسلّم على سيدنا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ وسلّم عدد ما كان وعدد ما يكون وعدد ما هو كائن في علم الله ثلاثًا، واللهمَّ صلّ على روح سيدنا محمد في الأرواح وصلّ وسلّم على جسده في الأجساد وصلّ وسلم عَلى قبره في القبور وصلّ وسلّم على اسمهِ في الأسماء ثلاثًا، واللهمَّ صلّ وسلّم على سيدنا محمد صاحب العلاّمة والغمامة وصلّ وسلّم على سيدنا محمد صاحب الشفاعة والكرامة وصلّ وسلّم على سيدنا محمد صاحب النبوة والرسالة.

اللهمَّ صلّ وسلّم على سيدنا محمد الذي هو أبهى من الشمس والقمر وصلّ وسلّم على سيدنا محمد عدد حسنات أبي بكر وعمر وعثمان وحيدر، وصلّ وسلّم على سيدنا محمد عدد نبات الأرض وأوراق الشجر، اللهمَّ صلّ وسلّم على سيدنا محمد النبي المليح صاحب المقام الأعلى واللسان الفصيح، اللهمَّ صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد الذي جاء بالحكمة والموعظة والرأفة والرحمة وعلى آلهِ وصحبهِ وسلّم أفضل صلواتك وسلامك وعدد معلوماتك وزنة مخلوقاتك ومداد كلماتك كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون، اللهمَّ صلّ وسلّم على سيدنا محمد عبدك الذي جمعت بهِ أشتات النفوس ونبيك الذي نورت بهِ ظلام القلوب وحبيبك الذي اخترتهُ على كل حبيب اللهمَّ صلّ وسلّم على سيدنا محمدٍ الذي جاء بالحق المبين وأرسلتهُ رحمةً للعالمين وشفيع المذنبين يوم يقوم الناس لرب العالمين اللهم صلّ وسلّم على سيدنا محمد كما ينبغي لشرف نبوتهِ ولعظيم قدره العظيم، وصلّ وسلّم على سيدنا محمد حق قدره ومقداره العظيم وصلّ وسلّم على سيدنا محمد الرسول الكريم المطاع الأمين اللهمَّ صلّ

وسلّم على سيدنا محمد الحبيب وعلى أبيهِ إبراهيم الخليل وعلى أخيهِ موسى الكليم وعلى روح الله عيسى الأمين وعلى عبدك ونبيك سليمان وعلى أبيه داود وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون، اللهمَّ صلّ وسلّم وبارك على عين العناية وزين القيامة وكنز الهداية وطراز الحلة وعروس المملكة وشمس الشريعة ولسان الحجة وإمام الحضرة ونبي الرحمة أسعدنا محمد وعلى آدم ونوح وإبراهيم الخليل وعلى أخيهِ موسى الكليم وعلى روح الله عيسى الأمين وعلى داود وسليمان وزكريا ويحيىٰ وشعيب وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى آلهم كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون، اللهمَّ يا دائم الفضل على البرية يا باسط اليدين بالعطية يا صاحب المواهب السنية يا غافر الذنب والخطية صلّ وسلّم على سيدنا محمد خير الورى سجية وعلى آلِهِ وأصحابِهِ البررة النقية واغفر لنا يا ربنا في هذه العشية لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ يا سيدي يا رسول الله يا سيدي ويلا ملاذي وذخري أنت تكفيني لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ:

يا صاحب الوقت يا غوث الزمان ويا ... خلاصة الأنبيا يا جوهر الكونِ

لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ:

ويا رفيع الورى يا جوهر الفقرا ... وأنت عين الورى يا صاحب العينِ

لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ:

جعلت مدح رسول الله معتمدي ... لعلهُ عند تكفيني يكافيني

لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ:

إذا أتاني بشير والذي معهُ ... بفضلهِ عند تلقيني يلاقيني

لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله ﷺ على النور المبين أحمد المصطفى سيد المرسلين وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين، يا الله يا رحمٰن ارحم المسلمين، صلاتي وسلامي على البدر التمام إلى يوم القيامة وفي طول الزمان وصلاة الله على مَن لهُ الشامة علامة شفيعنا محمد المظلل بالغمامة يا مصطفى شيءٌ لله يا سرّا من سر الله يا مصطفى شيءٌ لله يا فيضًا من فيض الله يا مصطفى شيءٌ لله يا نورًا من نور الله يا متجلي ارحم زلي يا متعالي أصلح حالي:

يا رسول الله غوثًا ومدد ... يا رسول الله عليك المعتمد

يا حبيب الله كن لنا شافعًا ... أنت والله شفيع لا ترد

يا رب أنت الله يسر لنا علم لا إلـٰه إلا الله لا إلـٰه إلا الله عليها نحيى وعليها نموت وبها نبعث من الآمنين برحمة الله، ثم يدعو بما يريده. وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله، الصلاة والسلام عليك يا حبيب الله، الصلاة والسلام عليكم يا أنبياء الله، يا إلـٰهي تب علينا واعف عنا يا كريم، يا إلـٰهي تب علينا واعف عنا يا كريم يا رجانا تب علينا واعف عنا أجمعين بجاه سيد المرسلين ألف ألفين صلاة وألف ألفين سلام عليك وعلى آلك يا سيد المرسلين، ألف ألفين صلاة وألف ألفين سلام عليك وعلى آلك يا حبيب رب العالمين، ألف ألفين صلاة وألف ألفين سلام عليك يا خليل رب العالمين ألف ألفين صلاة وألف ألفين سلام عليك وعلى آلك يا خليفة رب العالمين، ألف ألفين صلاة وألف ألفين سلام عليك يا كليم رب العالمين، ألف ألفين سلام عليك يا كلمة رب العالمين، ألف ألفين صلاة وألف ألفين سلام عليكم يا أنبياء الله أجمعين، ألف ألفين صلاة وألف ألفين سلام عليكم يا ملائكة الله أجمعين، ألف ألفين صلاة وألف ألفين سلام عليك يا سيد الأولين والآخرين يا حبيب رب العالمين وعلينا وعلى عباد الله الصالحين سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين فاتحة وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين، فاتحة اللهم اجعلنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ومن الذين دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

ومن أوراده رضي الله عنهُ هذه الصلاة المباركة واسمها صلاة الأنس ولها أسرار عجيبة وبركات غريبة وهي مجربة عند كثير من أهل المعرفة والكمال من أصحاب هذه الطريقة العلية نفعنا الله بهم وهي: بسم الله الرحمـٰن الرحيم اللهم صلّ على ألف أنس إنسان الأزل بحكمة باء برهان مَن لم يزل أصل الأياء الكلية آدم في حقيقة البداية آثر السر في آثار خفايا المظاهر الخفية أول الكل في أول الأولوية، إنسان دار الغيب المبرقع بطلسم وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين وإنا أعطيناك ذات القرب المخاطب بلولاك لولاك لما خلقت الأفلاك، أحمدي الصفات المتجلي في سماء المعرفة بظهور مظهر شهادة الرحمـٰن، محمدي الذات المدلى إلى قاب الوحدة بتجلي موكبي العناية والإحسان، أوحدي المعنى المطرز بطراز الجمال الوحيدي بحقيقة حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، أنوري المحيا المجمل بخلعة حجة بردة فضيلة بينة وإنك لعلى خلق عظيم، إمام الأنبياء والمرسلين في جامع جوامع الحكم والدقائق الرحمانية المنبسطة سبحًا جيدها في سدة مجلس الكاف أفضل العالمين، المتصدر في رحاب الأسرار في

مركز دائرتي القبول والإلطاف، المنفرشة بسطها في حومة العز وميدان السعد وروضة الإسعاف أصل السبب في الإيجاد فالكل منهُ والكل إليهِ خزانة الأسرار فالوارد والذاهب عنهُ وعليهِ آية إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، آخذ شرف المحبوبية بأعلا الوثاق المفتخر بإنا أعطيناك الكوثر، أول مخاطب بأحلا خطاب فدنى فتدلّى أشرف معظم بنصيحة سبح اسم ربك الأعلى، أجمل متوج بتاج قرب القرب فما انفصل عنهُ القرب ولا نأى، أسعد مهيكل بهيكل مجد ما كذب الفؤاد ما رأى، فبحقه يا رب وبحق حرمته وقدره عندك صلني إليك من بابهِ وأدخلني عليك من أعتابهِ وعرفني سرك بواسطة جنابهِ وصلّ عليهِ وعلى آلهِ وأصحابهِ المتأدبين بآدابهِ واكفني وإخواني والمسلمين هم البعد والهجر والدين والفقر والسلطان والدهر والأحزان والعسر والشيطان والقهر والزمان وارفع على رأسي ورؤوسهم علم الإقبال والنصر والسعد والفخر والمجد والشرف والإحسان، وتوفنا عند انتهاء الأجل على الإيمان واختم لنا بخواتم السعادة وارزقنا القرب والفضل والحسنى والزيادة، وصلّ وسلّم بجلالك وجمالك على جميع النبيين والمرسلين وآلهم وصحبهم أجمعين ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والحمد لله رب العالمين. قلت: وقد ذكر شيخنا المقبل على الله المعرض عن الناس السيد محمد بهاء الدين مهدي الرواس قدس سره العزيز أن هذا الحزب سيف قاطع للمهمات وحبل موصل للمقصودات ولهُ أسرار غريبة وشؤون عجيبة وسيأتي ذكر البعض منها، وذكر سند هذا الحزب الجليل والورد الجميل بسلسلتهِ إلى السيد الكبير قدس الله سره ورضي الله عنهُ.

ومن أوراده هذا الورد الشريف وسيأتي ذكر سنده: بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمٰن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين. الحمد لله الذي خلق السمٰوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، فأرادوا بهِ كيدًا فجعلناهم الأسفلين ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين، كذلك لنصرف عنهُ السوء والفحشاء إنهُ من عبادنا المخلصين، فوقاه الله سيئات ما مكروا ما هم ببالغيه، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم، وسنقول لهُ من أمرنا يسرا أعداؤنا لن يصلوا إلينا بالنفس ولا بالواسطة لا قدرة لهم على إيصال السوء إلينا بحال من الأحوال، وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا وذلك جزاءُ الظالمين، ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقًا علينا ننج المؤمنين، لهُ معقبات من بين يديه ومن خلفهِ يحفظونهُ من أمر الله وإنا لهُ لحافظون، إنهُ لذو حظ عظيم وإن لهُ عندنا لزلفى وحسن مآب، أعداؤنا لن يصلوا إلينا بالنفس ولا بالواسطة لا قدرة لهم على إيصال

السوء إلينا بحال من الأحوال فصب عليهم ربك سوط عذاب وتقطعت بهم الأسباب جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب، وجعلنا لهُ نورًا يمشي بهِ في الناس فلما رأينهُ أكبرنهُ وقطعن أيديهنَّ وقلنَ حاشا الله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم، قالوا تالله لقد آثرك الله علينا إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكهُ من يشاء شاكرًا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم، وآتاه الله الملك ورفعناه مكانًا عليًا وقربناه نجيًا، وكان عند ربهِ مرضيًا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيًا، أعداؤنا لن يصلوا إلينا بالنفس ولا بالواسطة لا قدرة لهم على إيصال السوء إلينا بحال من الأحوال وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعًا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنهُ عزيز حكيم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله سيَنَالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا. وإذا أراد الله بقوم سوء فلا مردَّ لهُ، خاشعةً أبصارهم ترهقهم ذلة لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيتهُ خاشعًا متصدعًا من خشية الله فلا تبتئس بما كانوا يعملون. ولاتك في ضيق مما يمكرون، فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون إنا كفيناك المستهزئين فسلام لك من أصحاب اليمين، لا تخف نجوت من القوم الظالمين لا تخاف دركًا ولا تخش لا تخف إني لا يخاف لدي المرسلون لا تخف ولا تحزن إنني معكما أسمع وأرى لا تخف إنك أنت الأعلى، فإذا الذي بينك وبينهُ عداوة كأنهُ ولي حميم، إذا أخرج يده لم يكد يراها وأضلهُ الله على علم وختم على سمعهِ وقلبهِ وجعل على بصره غشاوة ليذوق وبال أمره ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله وخشعت الأصوات للرحمٰن فلن يضروك شيئًا، إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً فاصبر لحكم ربك فاصبر صبرًا جميلاً ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا قليلاً فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلاً، أليس الله بكاف عبده ومن أصدق من الله قيلاً وينصرك الله نصرًا عزيزًا، أعداؤنا لن يصلوا إلينا بالنفس ولا بالواسطة لا قدرة لهم على إيصال السوء إلينا بحال من الأحوال ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً والله أشد بأسًا وأشد تنكيلاً وذلك جزاءُ الظالمين، إنك اليوم لدينا مكين أمين ورفعنا لك ذكرك وألقيت عليك محبة مني إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي إني جاعلك للناس إمامًا إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا، أعداؤنا لن يصلوا إلينا بالنفس ولا بالواسطة لا قدرة لهم على إيصال السوء إلينا بحال من الأحوال ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون صم بكم عمي فهم لا يرجعون، كبتوا كما كبت الذين من قبلهم فأغشيناهم فهم لا يبصرون، إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون، ولقد آتيناك سبعًا

من المثاني والقرآن العظيم. أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون، ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربهِ ثم أعرض عنها إنا من المجرمين منتقمون إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقرًا، وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولو أعلى أدبارهم نفورًا، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذًا أبدًا، أفرأيت من اتخذ إلـٰهَهُ هواه وأضلهُ الله على علم وختم على سمعهِ وقلبه وجعل على بصره غشاوة عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم دمر الله عليهم ثم عموا وصموا كثيرًا منهم والله أركسهم بما كسبوا وذلك جزاءُ الظالمين، ومن يتق الله يجعل لهُ مخرجًا ويرزقهُ من حيث لا يحتسب ومَن يتوكل على الله فهو حسبهُ، فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم، وقل رب أدخلني مدخل صدقٍ وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانًا نصيرًا، قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم إن معي ربي سيهديني عسى ربي أن يهديني سواء السبيل، إن وليي الله نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين، رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السمٰوات والأرض أنت وليّ في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين، أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا لهُ نورًا يمشي بهِ في الناس وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيهِ سكينة من ربكم وبقية، قالوا ربنا أفرغ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانًا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء، قل أغير الله أتخذ وليًا فاطر السمٰوات والأرض إنهُ كان بي حفيًا وجعلني نبيًا وجعلني مباركًا أينما كنت وما توفيقي إلا بالله عليهِ توكلت وإليهِ أنيب، أعداؤنا لن يصلوا إلينا بالنفس ولا بالواسطة لا قدرة لهم على إيصال السوء إلينا بحال من الأحوال صمٌ بكم عمي فهم لا يعقلون، صم وبكم في الظلمات يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وذلك جزاء الظالمين، إنما وليكم الله ورسولهُ والذين آمنوا وما بكم من نعمة فمن الله وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة، يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاءُ يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فضرب بينهم بسور لهُ باب باطنهُ فيهِ الرحمة وظاهره من قبلهِ العذاب والله من ورائهم محيط، بل هو قرآن مجيد والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليًا وكفى بالله نصيرًا فلا تخشوهم قلوب يومئذٍ واجفة أبصارها خاشعة تصيبهم بما صنعوا قارعة وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة كأنهم خشب مسندة، أو لم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة فستذكرون ما

أقول لكم وأفوّض أمري إلى الله وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئًا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرًا، واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآويكم، يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليك إذ همّ قومٌ أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم، يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض لا إله إلا هو عسى ربكم أن يهلك عدوكم عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين ومكر أولئك هو يبور، فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمتهُ عليكم ذلك تخفيف من ربكم ورحمة، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاء يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر، قل إن هدى الله هو الهدى يؤتكم كفلين من رحمتهِ ويجعل لكم نورًا تمشون بهِ، أعداؤنا لن يصلوا إلينا بالنفس ولا بالواسطة لا قدرة لهم على إيصال السوء إلينا بحال من الأحوال وما لهم من ناصرين وذلك جزاء الظالمين، عليهم دائرة السوء دمر الله عليهم أولئك في الأذلين فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين إن الله لا يصلح عمل المفسدين وإن الله لا يهدي كيد الخائنين، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين إن الله يدافع عن الذين آمنوا يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم الله حفيظ عليهم طوبى لهم وحسن مآب، وهم من فزع يومئذٍ آمنون أولئك لهم الأمن وهم مهتدون أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار، وجعلنا لهم لسان صدق عليًا ولقد اخترناهم على علم على العالمين واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم وآويناهم إلى ربوة ذات قرار ومعين وإن جندنا لهم الغالبون، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء إلا قيلاً سلامًا سلامًا وينقلب إلى أهلهِ مسرورًا، أعداؤنا لن يصلوا إلينا بالنفس ولا بالواسطة لا قدرة لهم على إيصال السوء إلينا بحال من الأحوال وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ومزقناهم كل ممزق سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق فاستمسك بالذي أوحي إليك إنك على صراط مستقيم، فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين، فلا أقسم بمواقع النجوم وإنهُ لقسم لو تعلمون عظيم وإنهُ لهدى ورحمة للمؤمنين، هو الذي أنزل عليك الكتاب منهُ آيات محكمات هنَّ أم الكتاب. تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياتهِ يؤمنون، لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزلهُ بعلمهِ والملائكة يشهدون وكفى بالله

شهيدًا وكفى بالله وكيلاً وكفى بالله نصيرًا وكان الله على كل شيء مقيتًا، قل لو كان البحر مدادًا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثلهِ مددًا، أعداؤنا لن يصلوا إلينا بالنفس ولا بالواسطة لا قدرة لهم على إيصال السوء إلينا بحال من الأحوال ولا إلى قومنا فسيعلمون من هو أضعف ناصرًا وأقل عددًا فسيعلمون من هو شر مكانًا وأضعف جندًا وجعلنا لمهلكهم موعدًا ولن يفلحوا إذًا أبدًا، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى إن هؤلاء متبر ما هم فيهِ وباطل ما كانوا يعملون وخسر هنالك المبطلون، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا أولئك هم الغافلون كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون، أعداؤنا لن يصلوا إلينا بالنفس ولا بالواسطة لا قدرة لهم على إيصال السوء إلينا بحال من الأحوال ووقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ينطقون والله أركسهم بما كسبوا هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين، قلنا: يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم وأرادوا بهِ كيدًا فجعلناهم الأخسرين إن ربي على صراط مستقيم والله من وراءهم محيط بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ، وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

قلت وإن هذا الحزب الذي تحرر حزب جليل التأثير عظيم البركة ويسمى بين الرجال الأحمدية بالسيف القاطع، قال سيدنا ومولانا السيد محمد بهاء الدين المهدي الرواس قدس سره العزيز إن هذا الحزب المبارك حصن حصين ودرع متين من توسل به إلى الله نال بإذن الله مناه ما دعى بهِ داع وخاب ولا توسل بهِ متوسل إلا وفتح لهُ الله الباب أخذه شيخنا السيد محمد مهدي الرواس قدس سره عن شيخهِ الإمام العارف بالله السيد عبد الله الراوي عن شيخهِ السيد أحمد الكبير الراوي قدس سره عن شيخهِ صاحب المعالي القدسية والمعاني الربانية سيدنا السيد نور الدين حبيب الله الحديثي والشيخ نور الدين قدس سره، أخذه عن الإمام العارف بالله السيد حسين برهان الدين الصيادي الخزامي البصري، وهو أخذه عن أخيه الشيخ نور الدين بن عبد العلام بن خزام قدس سره عن أبيهِ عن عمهِ الشيخ سراج الدين رضي الله عنهُ، وسند الشيخ سراج الدين قدس سره العزيز إلى سيدنا الغوث الأكبر والعلم الأشهر السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ سيأتي في بقية هذا الباب انتهى.

ومن أوراده رضي الله عنهُ هذا الورد المبارك وقد ثبت من طريق شيخنا الأستاذ الأجل والقطب المبجل لابس ثوب الخفاء وشارب كأس الاختفاء المقبل على الله

المعرض عن الناس مولانا السيد محمد بهاء الدين مهدي الرواس نفعنا الله بهِ، إن هذا الورد هو الذي كان يفتتح فيهِ الذكر في رواق أم عبيدة ولا ينافي أن يكون افتتاح الذكر حصل بهذا الورد وبالذي سبق فيما تقدم وقد شاهدنا لهذا الورد الشريف بركة عجيبة ونورانية عظيمة لا تخفى عند قراءته على صاحب ذوقٍ وقلبٍ سليم، وما أحسن ما قال فيهِ بعض الرفاعية:

عليك بأوراد الرفاعي إنها ... إلى شيخ أشياخ الطرائق تنسبُ
وداوم عليها فهي حصن وجنة ... ودرع لدفع النائبات مجرّبُ
وباب لوصل العبد بالله عامر ... ونهج بهِ للمصطفى يتقرّبُ

وهو هذا: بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمٰن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين. محمد رسول الله وقف فرض والذين معهُ أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًا يبتغون فضلاً من الله ورضوانًا سيما هم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التورية ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقهِ يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا. بسم الله الرحمٰن الرحيم سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوّى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى فجعلهُ غثاءً أحوى سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاءَ الله إنهُ يعلم الجهر وما يخفى ونيسرك لليسرى فذكر إن نفعت الذكرى سيذكر مَن يخشى ويتجنبها الأشقى الذي يصلى النار الكبرى. ثم لا يموت فيها ولا يحيى قد أفلح مَن تزكى وذكر اسم ربه فصلّى بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى. بسم الله الرحمٰن الرحيم إنا أنزلناه في ليلة القدر وما أدراك ما ليلة القدر ليلة القدر خيرٌ من ألف شهر تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر سلام هي حتى مطلع الفجر. بسم الله الرحمٰن الرحيم إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجًا فسبح بحمد ربك واستغفره إنهُ كان توابًا. بسم الله الرحمٰن الرحيم قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لهُ كفوًا أحد. بسم الله الرحمٰن الرحيم قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات في العقد ومن شر حاسد إذا حسد. بسم الله الرحمٰن الرحيم قل أعوذ برب الناس ملك الناس إلٰه الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس. بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمٰن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين

اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين. بسم الله الرحمٰن الرحيم اللهم صلِّ وسلِّم وبارك وشرف وعظم بكلِّ وقت من الأوقات وساعة من الساعات ملء الأرضين والسمٰوات على سيد السادات وإمام القادات ورئيس الكل في الحضرات وعلى آلهِ وأصحابهِ أصحاب الكمالات وعلى المشايخ العارفين أرباب الحالات والسلام على الفرد الأمجد القطب الغوث الأوحد النائب عن حضرة رسول الله في ملك الله والآمر بأمر الله في سمٰوات الله وأرض الله ورضي الله تعالى عن الإمامين والسبعة الأقطاب وعن الأبدال والأنجاب والأطراز الأحباب والأوتاد والأفراد والرجال أهل الإرشاد والقائمين بمصالح العباد وعلى صلحاءِ المسلمين رحمة الله وبركاتهُ إنهُ البر المعين، ونسأل الله أجمعين أن يمدنا بمدد رسولهِ الأعظم وحبيبهِ الأكرم ﷺ وبمدد حضرات الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام ونسألهُ أن يعطف علينا قلب صاحب الزمان وأهل حاشيتهِ الكرام الأعيان، جعلناهم وسيلتنا إلى الله في كل أمر حسن يدل على الله دفعنا بهم شر الزمان والسلطان والإخوان الخوان والأعداء من الإنس والجان أخذناهم درعًا لرد كل بلاء ودفع كل قضاء، قبلناهم بابًا لنيل كل خير دنيوي وأخروي خفي وجلي كلي وجزئي، والسلام علينا وعلى عباد الله الصالحين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله رب العالمين الرحمٰن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين آمين. لا إلـٰه إلا الله عدد مائة وإحدى عشر مرة. الله عدد مائة وإحدى عشر مرة، ويختم الذكر بالفاتحة أيضًا ويقوم كل من جماعة الورد ويتوجه للقبلة ويقول: الصلاة والسلام عليك يا سيدنا يا رسول الله الصلاة والسلام عليك يا حبيبنا وحبيب الله. الصلاة والسلام عليك يا وسيلتنا إلى الله الصلاة والسلام عليك يا أول خلق الله وخاتم رسل الله، الصلاة والسلام عليكم يا أنبياء الله أجمعين، ويختم الصلوات بالفاتحة أيضًا وهنالك يدعو الشيخ بما تيسر. قلت: وإن هذا الورد المبارك راتبه الكبير أن تقرأ السور والآيات والصلوات ثلاثًا ثلاثًا ولا إلـٰه إلا الله ثلاث مائة وثلاثًا وثلاثين مرة واسم الذات كذلك، وراتبه الصغير أن يقرأ كل من السور والآيات والصلوات مرة مرة ولا إلـٰه إلا الله مائة وإحدى عشر مرة واسم الذات كذلك، وحلقتهُ تجتمع في ليلة الجمعة وليلة الاثنين وأكابر هذه الطريقة يقرؤون ذلك كل يوم صباحًا ومساء، وقد قال شيخنا ومولانا الشيخ سراج الدين المخزومي الصيادي قدس سره: إن من داوم على قراءته لا يموت إلا غنيًا بفضل الله ولا يغلبهُ عدو قط ويرجى لهُ حسن الخاتمة ببركة رسول الله ﷺ وتشملهُ بركة الحضرة الرفاعية ولهُ بركات عجيبة لا تحصى انتهى. وإن من راتب هذه الطريقة العلية الرفاعية أن يقرأ المريد في كل يوم بعد

كل صلاة الفاتحة ويذكر الله بعدها بلا إلٰه إلا الله مائة مرة وأقل الذكر عشرون مرة، وأن يستغفر الله بعد الذكر ثلاثًا ويصلي على النبي ﷺ مائة مرة أو عشرين مرة، ومن آدابها أن يستفيض المريد بعد قراءة هذا الورد المذكور من روحانية الحضرة الشريفة الرفاعية ويجعلها واسطة للاستفاضة من الحضرة المكرمة النبوية ولهذه الملاحظة والرابطة بركة عظيمة مجربة عند الطائفة المباركة الأحمدية انتهى.

ومن أوراده هذا الورد الشريف المبارك وهو: بسم الله الرحمٰن الرحيم اللهم صلّ على محمد وعلى آلهِ وصحبهِ وسلّم اللهم إني أسألك بمعاقد العز من عرشك وبمنتهى الرحمة من كتابك وباسمك العظيم وباسمك الأعلى وبكلماتك التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبإشراق وجهك أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد وآلهِ وصحبهِ، وأن تعطيني رزقًا حلالاً طيبًا يا طالبًا غير مطلوب ويا غالبًا غير مغلوب يا واسع المغفرة ويا رازق الثقلين ويا خير الناصرين، اللهم إن كان رزقي في السماء فأنزلهُ وإن كان في الأرض فأخرجه وإن كان بعيدًا فقربهُ وإن كان عسيرًا فسهلهُ وإن كان قليلاً فكثره وإن كان قريبًا فبارك لي فيهِ، اللهمَّ اجعل يدي اليد العليا بالإعطاء ولا تجعل يدي اليد السفلى بالاستعطاء يا فتاح يا رزاق يا كريم يا عليم، اللهم سخر لي رزقي وأعصمني من الحرص والتعب في طلبهِ ومن التدبير والحيلة في تحصيله، ومن الشح والبخل في بعد حصولهِ، اللهم تولى أمري بذاتك ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك واهدني إلى صراطك المستقيم صراط الله الذي لهُ ما في السمٰوات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبهِ أجمعين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين اهـ.

ومن أحزابهِ الشريفة المباركة هذا الحزب وهو: بسم الله الرحمٰن الرحيم اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إلٰه إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن لهُ كفوًا أحد، اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إلٰه إلا أنت المنان بديع السمٰوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام يا حي يا قيوم لا إلٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، الله الذي لا إلٰه إلا هو الرحمٰن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلي الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوي المتين الولي الحميد المحصي المبدي المعيد المحيي المميت الحي القيوم الواجد الماجد

الواحد الأحد الفرد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغني المغني المانع الضار النافع النور الهادي البديع الباقي الوارث الرشيد الصبور، أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق اللهم أنت ربي لا لله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك عليَّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنهُ لا يغفر الذنوب إلا أنت. سبحان الله وبحمده أمسينا وأمسى الملك لله والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك لهُ لهُ الملك ولهُ الحمد وهو على كل شيء قدير، رب اسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها وأعوذ بك من شر هذه الليلة وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر رب أعوذ بك من عذاب النار، أصبحنا وأصبح الملك لله، اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم وسوء الكبر وفتنة الدنيا وعذاب القبر باسم الله الذي لا يضر مع اسمهِ شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاثًا، اللهم بك أصبحنا وأمسينا وبك نحيا ونموت وإليك المصير، اللهم فاطر السمٰوات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه. ثم تقرأ الإخلاص والمعوذتين والفاتحة، وذكر الشيخ الإمام شيخ الإسلام تاج الدين أبو النصر عبد الوهاب ابن سيدنا الشيخ تقي الدين السبكي الأنصاري الخزرجي الشافعي في طبقاتهِ أن من أوراد سيدي أحمد هذا الورد العظيم وهو كان يصلي أربع ركعات بألف قل هو الله أحد ويستغفر كل يوم ألف مرة واستغفاره قول لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين عملت سوءًا وظلمت نفسي وأسرفت في أمري ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم، يا حي يا قيوم لا إله إلا أنت.

وقد قلنا في مقدمة هذا الباب أن أسانيد الإجازة بقراءة كل حزب من أحزاب سيدنا الغوث الرفاعي وأوراده وأدعيتهِ وصلواتهِ وصلت إليّ من ثلاث طرق: الأول من سيدي ووالدي وقرة عيني ووسيلتي إلى الله مولانا السيد الشيخ حسن وادي الصيادي بن السيد علي ابن السيد خزام ابن السيد الشيخ علي الخزام الصيادي الرفاعي الخالدي دفين حيش من أعمال معرة النعمان قدس سره، وسيدي الوالد تلقى الإجازة بكل ذلك من شيخنا الولي الأنجب السيد الشيخ رجب قدس سره، وهو أخذ عن شيخه السيد أحمد عن أبيهِ السيد مصطفى عن السيد العارف بالله مولانا السيد محمد عرفات عن شيخنا صاحب معالي الهمم السيد خير الله الكبير أبي العلم. والطريق الثاني صح لي عن سيدي وشيخي وابن عمي ومولاي المولى العارف بالله السيد علي بن خير الله، وهو عن والده السيد خير الله عن أبيهِ السيد محمد عن أبيهِ السيد خير الله الكبير صاحب العلم، وهو عن أبيهِ

السيد أبي بكر عن ابن عمهِ السيد محمد بن حجازي عن ابن عمهِ الشيخ أبي بكر عن أبيهِ الشيخ عمر عن جده الشيخ موسى الكبير عن أبيهِ الشيخ عبد السميع عن أبيهِ الشيخ شمس الدين محمد عن أبيهِ السيد صدر الدين علي عن أبيهِ الغوث الفرد الجواد السيد أحمد عز الدين الكبير الصياد عن أخيهِ السيد عبد المحسن أبي الحسن عن جده عقد هذه السلسلة شيخ من لا شيخ لهُ كعبة الآمال وأستاذ أهل الحال القطب الغوث الجامع الشهير سيدنا السيد الشيخ أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنهُ. والطريق الثالث فهو عن سيدي ومولاي ومالك عقد ولاي تاج رأسي وقرة عيني وغذاء روحي المقبل على الله المعرض عن الناس السيد محمد بهاء الدين مهدي الرواس قدس سره وهو أخذ عن شيخه الأمام العارف بالله السيد عبد الله الراوي عن شيخهِ السيد أحمد الراوي عن شيخهِ السيد نور الدين حبيب الله الحديثي عن السيد حسين برهان الدين الخزامي الصيادي عن أخيهِ السيد نور الدين عن أبيهِ السيد عبد العلاّم الخزامي عن عمهِ إمام العارفين السيد سراج الدين عن جده السيد محمود الصوفي عن أبيهِ السيد محمد برهان عن أبيهِ السيد حسن الغواص عن أبيهِ السيد الحاج محمد شاه عن أبيهِ مقتدي الرجال الأعلام السيد محمد خزام دفين الموصل عن عمهِ السيد ملك المندلاوي عن أبيهِ السيد محمود الأسمر عن أبيهِ السيد حسين العراقي عن ابن عمهِ السيد تاج الدين عن ابن عمهِ السيد عبد الرحمٰن شمس الدين عن جده السيد محمد خزام السليم عن أبيهِ السيد شمس الدين عبد الكريم أبي محمد الواسطي عن أبيه السيد صالح عبد الرزاق عن أبيهِ السيد شمس الدين محمد عن أبيهِ السيد صدر الدين علي عن أبيهِ قطب الأفراد السيد أحمد الصياد عن عمهِ القطب المتمكن أبي الحسن عبد المحسن عن جده لاثم يد الرسول المكرم غوث العرب والعجم أبي العباس مولانا السيد أحمد الكبير الحسيني الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ وعنهم أجمعين.

وإني أجزت لكل من وقع في يده هذا الكتاب المستطاب أو وصل إليه ورد أو حزب من رواتب هذا الغوث المستجاب لهُ بلا ارتياب أن يقرأها مفتتحًا ومختتمًا بالصلاة والسلام على النبي الأواب والآل والأصحاب ويتبعها بالفاتحة لصاحب هذه الأحزاب الكريمة والأوراد المباركة العظيمة والله ولي التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق.

الباب الثامن

في ذكر مشايخهِ وآداب طريقتهِ وعلو مسلكهِ وتربيتهِ وذكر موكبه وعلامتهِ وما كان عليهِ أوصل الله رضوانهُ ورحمتهُ إليهِ

لا يخفى أن سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ أخذ العهد والطريقة وليس الخرقة من شيخهِ الشيخ علي الواسطي القارىء وهو لبسها من الشيخ أبي الفضل بن كامخ، وهو لبسها من الشيخ غلام بن تركان وهو لبسها من الشيخ ابن علي الروزبادي، وهو لبسها من الشيخ علي العجمي، وهو لبسها من الشيخ أبي بكر الشبلي، وهو لبسها من الشيخ الإمام أبي القاسم الجنيد البغدادي، وهو لبسها من خالهِ الشيخ سري السقطي، وهو لبسها من الشيخ معروف الكرخي، وهو لبسها من الشيخ داود الطائي، وهو لبسها من الشيخ حبيب العجمي وهو لبسها من الشيخ أبي سعيد سيدنا الحسن البصري، وهو لبسها من زوج البتول وابن عم الرسول مولانا وسيدنا الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجههُ ورضي الله عنهُ وعنهم أجمعين، وهو لبسها من النبي المعظم والرسول المكرم ﷺ، وهو ﷺ قال: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[1]. وَمن طريق آخر أخذ سيدنا السيد أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنهُ الطريقة، ولبس الخرقة من يد خالهِ شيخ الشيوخ صاحب الفتح الصمداني سيدنا منصور البطائحي الرباني، وهو لبسها من خالهِ سيدنا الشيخ أبي المنصور الطيب وهو لبسها من ابن عمهِ الشيخ أبي سعيد يحيىٰ البخاري الأنصاري، وهو لبسها من الشيخ أبي القرمذي، وهو لبسها من الشيخ أبي القاسم السندوسي الكبير، وهو لبسها من الشيخ أبي محمد دويم البغدادي، وهو لبسها من الشيخ الإمام تاج العارفين أبي القاسم الجنيد البغدادي، وهو لبسها من خالهِ الشيخ سري

---

(١) الحديث أخرجه في كنز العمال عن ابن مسعود (٤٠٦/١١) باب في فضائل متفرقة تنبىء عن التحدث بالنعم، حديث رقم: ٣١٨٩٥.

السقطي، وهو لبسها من الشيخ معروف الكرخي، وهو لبسها من إمام الزمان وحجة أهل العرفان الإمام ابن الإمام علي الرضى وهو لبسها من أبيه نور حدقة العناية والإمامة ونور حديقة الولاية والكرامة ملجأ الأولياء الأعاظم أبي الحسن موسى الكاظم، وهو لبسها من أبيهِ صاحب القدم السابق الإمام جعفر الصادق، وهو لبسها من أبيهِ صاحب السر الطاهر الإمام محمد الباقر، وهو لبسها من أبيهِ كهف المحتاجين وإمام الأفراد أبي محمد الإمام زين العابدين علي السجاد، وهو لبسها من أبيهِ أحد سبطي رسول الله شهيد كربلا الإمام الحسين أبي عبد الله، وهو لبسها من أبيه إمام الأئمة ومجن هذه الأمة صاحب القدر العظيم والشرف الجلي أمير المؤمنين الإمام أبي الحسن علي رضي الله عنهُ وعنهم أجمعين، وهو لبسها من سيد المرسلين وأكرم المخلوقين وحبيب رب العالمين صلى الله عليه وعلى آلهِ وأصحابهِ الطيبين الطاهرين أجمعين آمين، ولا يخفى ما ذكره الإمام اللقاني في كتابهِ هداية المريد لجوهرة التوحيد عند قولهِ:

ومالك وسائر الأئمة كذا أبو القاسم هداة الأمة

فواجب تقليد حبر منهم كذا حكى القوم بلفظ منهم

قال: وأما قولهُ: كذا أبو القاسم فيعني بهِ أن أبا القاسم الجنيد سيد أهل التصوف علمًا وعملاً من هداة الأمة أيضًا أي طريقه مقوم مثل طريقهم في الصحة والسداد خالٍ عن الابتداع والزيغ في الاعتقاد، دائر من سبيلي التسليم والتفويض والتبري من النفس ومن كلامهِ الطريق إلى الله تعالى مسدود على خلقهِ إلا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ ومن كلامهِ أيضًا رأيت في المنام أني أتكلم على الناس يعني يعظهم فوقف عليّ ملك فقال: ما أقرب ما تقرب بهِ المتقربون إلى الله سبحانهُ فقلت: عمل خفي بميزان وفي قولي وهو يقول كلام موفق والله أعلم انتهى.

قلت: فمن ذلك علم لديك أن علماء الشرع رضي الله عنهم أوجبوا تقليد الإمام الجنيد البغدادي في طريقه قدس سره، وقد رأيت أن الطريقة العلية الرفاعية تنتهي تحقيقًا إلى تقليد الإمام الجنيد البغدادي وقد ظهر لك من سيرة سيدنا السيد أحمد الرفاعي قدس سره ورضي الله عنهُ أنه أشد القوم اقتفاء لآثار رسول الله ﷺ، وقد بلغ من تمكينه في مرتبة الاقتداء بالنبي ﷺ أن قال رضي الله عنهُ: لو بلغنا أن رسول الله ﷺ أمر بقص الأعناق لقصصناها امتثالاً لأمره الشريف، وقد ذكرت في كتابنا هداية الساعي ترتيب الدخول بسلوك طريقتهِ العلية كما وصل إليَّ من مشايخي وكما رأيتهُ في كتب سلوك الطريقة الأحمدية، وقد اتفق رجال هذا الطريق العالي على أنهُ لا يتم ولا تحصل النفحة فيهِ للسالك إلا بمتابعة الشارع ﷺ وأن يجمع السالك العارف بالمتابعة

بين الظاهر والباطن فلا يدخل الفرق بينهما، فإذا تمسك بهذا المسلك كان ذلك السالك كاملاً وينبغي لطالب همة الحضرة الرفاعية المشتاق لدخول طريق السادة الأحمدية أولاً أن يبايع في هذه الطريقة لمرشد كامل متشرع متدين عارف في أصول الطريقة وأركانها وآدابها وخلواتها وجلواتها وأذكارها وأسرارها وسلوكها مطابق للشرع الشريف في أقوالِهِ وأفعالِهِ وأحوالِهِ، عارٍ من الكبر والعجب والحقد والحسد والكذب، خال من دسائس النفس متواضع ذو حرمة للفقراء والمشايخ والغرباء، طلق اللسان في تعريف السلوك غير عنين في الجواب مهذب الأخلاق صاحب قلبٍ ولسانٍ ثابت قدم، متسلسل بإجازةٍ مربوطة واصلة إلى رسول الله ﷺ، فمبايعة مثل هذا المرشد هي من أهم المهمات ومن أعظم اللازمات للمطالب لأن المرشد هو حبل الوصول وسلم الترقي، وقد جرت العادة وجربت بأن التطهير من النجاسات المعنوية وأدناس الطوية والخضوع والخشوع في الصلوات وسائر العبادات بمشهد أن تعبد الله كأنك تراه المعبر عنهُ بمقام الإحسان لا يتيسر في الغالب الأكثر إلا بالسلوك على يد شيخ عالم كامل خبير بعلاج هذه الأمراض وحكمة معاملاتها ذوقًا وتجربةً، بل لو حفظ المبتلي بهذه العلل كتبًا متعددة لا يستغني بها عن التربية على يد مثل هذا الشيخ ليخرجهُ من رعونات نفسهِ الأمارة ودسائسها الخفية.

قال الإمام الشعراني قدس سره في كتابهِ مشارق الأنوار القدسية في العهود المحمدية أخذ علينا العهد العام من رسول الله ﷺ أن لا نغتر بحفظ العلم الذي يطلب منا العمل بهِ من غير عمل كما عليهِ غالب الناس اليوم، وما هكذا كان السلف الصالح رضي الله عنهم ثم قال قدس سره: ويحتاج مَن يريد العمل بهذا العهد إلى سلوك على يد شيخ ليرقيه إلى درجات المراقبة لله تعالى والخوف من عذابهِ كما كان عليهِ العلماءُ العاملون. وسمعت شيخنا شيخ الإسلام زكريا رحمهُ الله يقول: كل فقيه لا يجتمع بالقوم فهو كالخبز الجاف بلا أدمة، وسمعت سيدي عليًا الخواص رحمهُ الله يقول: لا يحمد طالب العلم إلا بالاجتماع على أحد من أشياخ الطريق ليخرجهُ من رعونات النفس ومن خطرات تلبيس النفس ومن لم يجتمع على أهل الطريق، فمن لازمهُ التلبيس غالبًا ودعوى العمل بما علم، وكل من نسبهُ إلى قلة العلم أقام لهُ الأدلة التي لا تمشي عند الله ومن شك في قولي هذا فليجرب، واسلك يا أخي على يد شيخ والزم خدمتهُ واصبر على جفائهِ لك وتغرباتهِ عليك، فإن الذي يريد أن يطلعك عليهِ أمر نفيس لا يقابل بالأعراض الدنيوية فإن للعلم رئاسة عظيمة وللنفس فيهِ دسائس، فربما خفيت على مشايخ العلم فضلاً عن الطلبة والله يهدي مَن يشاء إلى صراط مستقيم، وروى مسلم وغيره أن رسول الله ﷺ كان يقول في دعائهِ: «اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع

وعلم لا ينفع»، وروى الطبراني مرفوعًا: «كل علم وبال على صاحبهِ إلا من عمل به» وفي رواية لهُ أيضًا مرفوعًا: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة عالم لا ينفعهُ الله بعلمهِ» انتهى ملخصًا وهذا الأمر لا يذوقهُ الطالب إلا بالسلوك على يد شيخ ناصح فإذا أراد العمل بهِ فليطلب لهُ شيخًا يرشده إليهِ وإلا فلا سبيل لهُ إلى ذلك ولو عبد الله بعبادة الثقلين، ومن هنا افترق السالكون والعابدون فربما مكث العابد يعبد ربهُ على علة خمسمائة سنة والسالك يخرج من العلة من أول قدم يضعهُ في الطريق، لأن بداية الطريقة التوحيد لله تعالى في الملك ثم الفعل ثم الوجود والعابد لا يذوق لهذه الثلاثة طعمًا فوالله لقد فاز من كان له شيخ وخسر مَن لم يتخذ لهُ شيخًا، أو لو اتخذه ولم يسمع لنصحهِ، وذكر ابن أيمن في رسالتهِ أنهُ كان الإمام أحمد والإمام الشافعي رضي الله عنهما يترددان إلى مجالس الصوفية ويحضران معهم في مجالس ذكرهم فقيل لهما: ما لكما تترددان إلى مثل هؤلاء فقالا: عندهم رأس الأمر كله وهي تقوى الله عزّ وجلّ ومعرفتهُ انتهى. وقال سيد الهمام العارف بالله الشيخ أحمد الصاوي الخلوتي المالكي قدس سره في رسالتهِ «الأسرار الرحمانية»: لا يسلك مريد من غير شيخ البتة فلا بد من شيخ عارفٍ تستند إليهِ، قال بعضهم: الزم بابًا واحدًا تفتح لك الأبواب واخضع لسيد واحد تخضع لك الرقاب، وقال الفقيه محمد بن الحسين البجلي رضي الله عنهُ: رأيت النبي ﷺ في المنام فقتل: يا رسول الله أي الأعمال أفضل؟ قال: وقوفك بين يدي وليّ الله كحلب شاة أو كشي بيضة خير لك من أن تعبد الله حتى تتقطع إربًا إربًا، فقلت لهُ: حيًا كان أو ميتًا؟ فقال: حيًا كان أو ميتًا.

وقال الإمام الغزالي رحمة الله عليهِ في رسالهِ أيها الولد: اعلم أنهُ ينبغي للسالك شيخ مرشد مربي ليخرج الأخلاق السوء منهُ بتربيتهِ ويجعل مكانهُ خلقًا حسنًا انتهى. فإذا بايع الطالب للمرشد الكامل وربط حبل قلبهِ بالاعتقاد والتسليم لذلك المرشد، فيجب حينئذٍ على الطالب معرفة الآداب التي تطلب منهُ في حق المرشد، قال الشيخ العارف بالله سيدي سراج الدين الرفاعي الصيادي قدس سره: ومن آداب المريد اللازمة أولاً حفظ قلب شيخهِ ومراعاته في الغيبة والحضور وعدم التفاخر عليهِ وإن كبر شأنهُ وسما مقامهُ، والتواضع لهُ ولذريتهِ وأقاربهِ وثبوت القدم على خدمتهِ وأوامره كليها وجزئيها وربط القلب بهِ واستحضار شخصهِ في قلبهِ في جميع المهمات واستمداد همتهِ والفناء فيهِ، وأن يكون ملازمًا لهُ لا يفتر عنهُ طرفة عين ولا ينكر عليهِ ما ظهر منهُ من صفة عيب فلربما يظهر من الشيخ ما لا يعلمهُ المريد ويكون مراد الشيخ بذلك امتحان المريد حينئذٍ بالأمور الصعبة في المحن والعياذ بالله تعالى من ذلك، كما وقع لبعضهم أنهُ دخل على شيخهِ فرأى عنده امرأة جميلة يلاعبها ويعانقها ويجامعها فخرج منكرًا على شيخه فأخذ منهُ حالاً جميع ما

استفاده من شيخهِ، ومع ذلك إن الامرأة امرأة الشيخ وزوجتهُ وجعلها امتحانًا للمريد فأعوذ بالله من تغيير قلوب المشايخ، فإن من تغيرت عليهِ قلوب المشايخ لا يفلح أبدًا، ومن آداب المريد أن لا يطيع في حق شيخهِ قولاً ولا يصاحب لهُ عدوًا ولا يباعد لهُ صديقًا ولا يباغضهُ، وكذلك لا يجالس من يخرج على شيخهِ ويقول: أنا ما عندي شيخ إلا فلانًا الذي لم يتصدر لمشيختهِ قط لينفر بذلك المريد عن طريق شيخهِ، وقال سيدي أحمد الصاوي: الآداب التي تطلب من المريد في حق الشيخ أوجبها تعظيمهُ وتوقيره ظاهرًا وباطنًا وعدم الاعتراض عليهِ في شيء فعلهُ ولو كان ظاهره أنهُ حرام، ويؤول ما يبهم عليهِ ولا يلتجي لغيره من الصالحين إلا بإذنهِ، ولا يزور صالحًا إلا بإذنهِ ولا يحضر مجلس غيره ولا يسمع من سواه حتى يتم سقيه من ماء سر شيخهِ، ولا يقعد وشيخهُ واقف ولا ينام بحضرتهِ إلا بإذنهِ في محل الضرورات، ولا يكثر الكلام بحضرتهِ ولو باسطهُ ولا يجلس على سجادتهِ ولا يسبح بسبحتهِ ولا يجلس في المكان المعد لهُ، ولا يفعل فعلاً من الأمور المهمة إلا بإذنهِ ولا يمسك يده للسلام وهي مشغولة بشيء بل يسلم عليه بلسانهِ، ولا يمشي أمامهُ ولا يساويه في مشيهِ إلا بليل مظلم ليكون مشيهُ أمامهُ صونًا لهُ، وأن لا يذكره عند أعدائه وأن يحفظهُ في غيبتهِ كحفظهِ في حضوره، وأن يلاحظهُ بقلبهِ في جميع أحوالهِ ويرى كل نعمة وصلة لهُ من بركتهِ، وأن لا يعاشر من كان الشيخ يكرههُ وأن يصبر على جفوتهِ وإعراضهِ عنهُ وأن يحمل كلامهُ على ظاهره فيمتثلهُ إلا لقرينة صارفة عن إرادة الظاهر، وأن يلازم الورد الذي رتبهُ فإن مدد الشيخ في ورده فمن تخلف عنهُ حرم المدد، وأن يقدم محبتهُ على محبة غيره ما عدا الله ورسوله فإنهما المقصودة بالذات ومحبة الشيخ وسيلة انتهى.

فإذا أتقن السالك معرفة هذه الآداب اللازمة المطلوبة منهُ في حق مرشده علمًا وعملاً فحينئذ يلزم عليهِ أن يدخل باب القوم رضي الله عنهم بفناء النفس والإعراض عن الدنيا بالكلية والإعراض عن الخلق، والأدب والانفراد إلى الله وملازمة الكتاب والسنة وخلع ثوب الحقد والحسد والكبر، وأن يعود نفسهُ على الخدمة والمداومة على ذكر الله والصلاة على رسول الله ﷺ والاستناد إلى الله والتفويض لهُ بالرضا في جميع الأحوال، ومحبة الإخوان والمسلمين والقيام بحقوق الله والتوكل على الله والعصمة بالله والالتفات عن غير الله وعدم التفاخر وترك الدعوى وستر الأحوال وكتمان الأسرار، والسخاوة والسياحة وبذل المال والجاه في طريق الله، وترك البخل والحرص وموافقة الأطباع على ما بهِ موافقة الشرع وإعانة الفقراء واحترام الغرباء وعدم الإنكار على أحد من خدمة الطرائق كلها لا في الباطن ولا في الظاهر، وأن يكون مراعيًا لإخوانهِ محبًا لهم ولا يخصص نفسهُ بشيء دونهم، ويحب لهم ما يحب لنفسهِ ويعودهم إذا مرضوا ويسأل عنهم

إذا غابوا وليبتدرهم بالسلام وطلاقة الوجه وأن يراهم خيرًا منهُ ويطلب منهم الرضا ولا يزاحمهم على أمر دنيوي بل يبذل لهم ما فتح عليهِ بهِ، يوقر كبيرهم ويرحم صغيرهم ويتعاون معهم على حب الله، وليجعل رأس مالهِ مسامحة إخوانهِ بخدمتهم ولو بتقديم النعال لهم فإذا دخل من باب القوم رضي الله عنهم بهذه الأوصاف، فاللازم عليهِ أن يلبس خرقة التوبة والتسليم للمرشد، وأن يجاهد نفسهُ على التخليص من الأخلاق الردية والدخول في الأطباع المرضية، وأن يلبس الزي المشروط عند السادة الرفاعية وهو التاج الأبيض المعبر عنهُ بالعرقية والزي الأسود المائل للخضرة، وأن يتغرب ولو أيامًا قليلة وأن تكون تلك الغربة بأمر المرشد وأن يجبر نفسهُ على الانفراد للشيخ بترك أحبابهِ الأوائل لكي لا يشغلونهُ عن خدمة المرشد، وأن يترك الكلام في ما لا يعنيه وأن يتركه قطعًا بحضرة المرشد وأن يحفظ نفسه من الإنكار على حال من أحوالهِ، وأن لا يجادلهُ ولا يسألهُ وأن يخلع رداء الفجور والضحك واللعب في حضرتهِ، وأن يلبس ثوب الحياء والخشية والأدب بمجلسهِ دائمًا، وأن ينسلخ من الرياء وطلب السمعة والشهرة في السلوك فإن الرياء وطلب السمعة يفسدان العمل الكثير ويجلبان التدمير، فإذا تم بخدمة المرشد معرفة هذه الخصال واتصف بهذه الأوصاف وتخلق بأخلاق السادات السالفين على ضمن ما ذكرناه، فحينئذ يفتح لهُ المرشد باب السير ويسلكهُ في طريق الخير كما سلك على يد شيخه في هذه الطريقة الشريفة، وإني رأيت كثيرًا ممن تصدر لمشيخة هذه الطريقة العليا الرفاعية لا يعرفون أصولها ولا فروعها ولا خلواتها ولا أورادها وبسبب جهلهم ظن أكثر الناس أن هذه الطريقة العلية بلا أوراد ولا سلوك ولا خلوات، لأن تلك الفرقة التي ذكرناها غاية ما عرفوا في هذه الطريقة اللعب بالنار والدبوس والحيات وغيرها، وادعوا أن هذه البراهين كرامات لهم حاشا بل كل ذلك في الحقيقة من بركات أسرار حضرة صاحب الطريقة قدس الله سره، وأن هذه الحماية والحفظ الذي يصدر من جانب فيض كرم الله من ضرر النار والسلاح والحيات هو سر ساري في جميع الملتمسين لخدمة طريقة هذا الغوث السيد قدس سره، وهي مروءة وغيرة منهُ على ستر الطريق خوفًا من فضيحة شرف الطريق بين العوام.

وقد قال السيد أحمد قدس سره ورضي الله عنهُ: من رغب لإظهار الكرامات وخوارق الأحوال وإفشاء براهين الأولياء قاصدًا بذلك التفاخر وجلبًا لحسن الظن بهِ وسلمًا لصيد الدراهم فأنا بريء منهُ في الآخرة هو عدوي وأنا عدوّه وأصل الرخصة في عمل هذه الأشياء في طريقتنا يكون في وقت إنكار أحد الكافرين على أصل هذا الدين، أو كان طالبًا من براهين هذا الدين دليلاً بشرط بعد مشاهدته لهذا البرهان المحمدي أن يصير مندرجًا في سلك أمتهِ ﷺ، فلا بأس هنالك في إظهار هذه الأحوال خفيها وجليها

كليها وجزئيها وإلا فلا رخصة في عمل شيء منها قطعًا، وأن مَن اشتغل بها آثم واقع في الحرام عاصيًا للشرع، وقال بعض السادات: لا بأس بذلك في حضور المنكرين للطريقة العلية بنية تخليصهم مما هم فيهِ من البلية حمانا الله، فالمقصود هذه الطريقة المباركة بنيت على الكتاب والسنة بالأصول والفروع أسرارها عجيبة وأحوالها غريبة، وهمم رجالها تتدكدك منها الجبال فإذا أراد الصوفي الداخل فيها أن يكن مطلوق العنان فليحافظ على أمور الدين على الحقيقة والشريعة لقول مَن قال: مَن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق ومن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق، وعلم الشريعة المطلوب من السالك أن يعلم الأوامر والنواهي وأن يلازم حقائق أمر الشرع الشريف كما هي فأول السلوك في هذهِ الطريقة الرفاعية المباركة هو حضور القلب مع الله ولفته عن غير الله، لأن ترك الأغيار هو عين التصوف عند العارفين والمطلوب في كل الأحوال الحضور مع الله في دائرة القلب بحيث يقر الذكر في سر القلب قرارًا قويًا وباب الدخول على الحضور مع الله في أصول سلوك طريقتنا الاشتغال بالصلاة على رسولهِ ﷺ على مقتضى أمر المرشد، لأن الصلاة على النبي ﷺ حبل المقطوعين وسلم الواصلين للسالكين، ومعلوم أن مَن ذاق لذة وصال المصطفى ذاق لذة وصال ربهِ، لأن الحضرة واحدة ومن بلغ الوسيلة شهد المقصد ومن فرق بين الوصالين لم يذق للمعرفة طعمًا، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة﴾ [المائدة: ٣٥] ولا وسيلة في الدارين بين الأولين والآخرين أعظم وأقرب منهُ ﷺ وهو باب الله الأعظم ولهذا أشار القطب سيدي محمد بن وفا قدس سره بقولهِ:

وأنت باب الله أي امرئٍ ... أتاه من غيرك لا يدخلُ

وليس مقصود العارفين بكثرة الصلاة على النبي ﷺ حصول الثواب لهم أو نفعهُ بذلك وإن كان ذلك حاصلاً في نفس الأمر، ولكن القصد حصول فيوضاته النبوية ونفحاتهِ المحمدية ولكون الصلاة عليهِ أعظم الأسباب لشهود أنواره الذاتية ووسيلة عظمى لزوال الحجب التي بينهُ وبين ذلك المصلى عليهِ، قال العارف بالله مرداش رضي الله عنهُ:

ليس قصدي من الجنان نعيمًا ... غير أني أريدها لأراكا

وإن شهود رسول الله ﷺ هو الغاية القصوى لأهل الله، ولذلك قال أبو الحسن الشاذلي قدس سره: لو غاب عني رسول الله ﷺ طرفة عين ما عددت نفسي من المسلمين، وقال الإمام البوصيري رضي الله عنهُ:

ليتهُ خصني برؤية وجهٍ ... زال عن كل مَن رآه الشقاء

وقال الفارضي نفعنا الله بِهِ:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

وقال السيد الرفاعي قدس الله سره العالي:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبل الأرض عني وهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

وقصة هذين البيتين مشهورة، وقيل لرسول الله ﷺ: أرأيت صلاة المصلين عليك ممن غاب عنك وممن يأتي بعدك ما حالهما عندك؟ فقال: «أسمع صلاة أهل محبتي وأعرفهم وتعرض عليَّ صلاة غيرهم عرضًا اهـ. وغاية المقصد أنه هو ﷺ باب الله والصلاة عليه باب قربهِ فمن أكثر من الصلاة عليهِ صار قريبًا منهُ، ومتى وصل إليه وصل إلى الله بلا شبهة قطعًا بالاتفاق، ولهذا كانت عادة السادة الرفاعية رضي الله عنهم إذا انتسب لخدمة طريقهم أحد أولاً يأمرونهُ بالصلاة على النبي ﷺ ولها صيغ مربوطة، قلنا: إن كان السالك أميًا فيكفي أن يقرأ بعد كل صلاة على حسب أمر المرشد: اللهمَّ صلِّ على سيدنا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ وسلِّم ثم ينتقل للذكر وهو لا إلٰه إلا الله كذلِك على حسب أمر المرشد، وإن كان السالك قارئًا فصيحًا فعليهِ أن يقرأ بأمر مرشده أحد الصلوات الخمسة المعروفة بين السادة الرفاعية وسنذكرهم إن شاء الله تعالى، ومن المعلوم أن السالكين على قسمين: منهم مَن يلتمس الطريقة العلية للتبرك انحسابًا على صاحب الطريق قدس سره ومنهم مَن يلتمسها مجتهدًا في سائر حالاتهِ على ممر أوقاتهِ لتحصيل فيوضات الحقيقة ولنيل رموز غوامض أسرار الطريقة، فمن كان دخولهُ في الطريقة تبركًا فحده في العمل ورد يصدر لهُ من مرشده للتبرك بحسب الإلهام، ومن كان دخوله للسلوك فسلوكه يكون على مقتضى ما ذكرناه من الأخلاق والأوصاف، وعلى ما سنذكره من العمل والأصول، وهنا نذكر صيغ الصلوات الخمسة التي كان حضرة سيدي أحمد يفتح بهنَّ أبواب السلوك للإخوان: الصيغة الأولى: اللهمَّ صلِّ على سيدنا محمد سيد السادات ومنبع الكمالات وباب الهدايات وكنز العنايات وبحر الإفادات ومظهر السعادات وسلم الرقايات وعين الخيرات وعلى آلهِ وأصحابهِ والتابعين لهم في كل الحالات واجعلنا يا رب من المقبولين عنده والمقربين لديهِ والعارفين بهِ إنك سميع قريب مجيب الدعوات الثانية اللهمَّ صل وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي المليح صاحب المقام الأعلى واللسان الفصيح وعلى آلهِ وأصحابهِ أصحاب المدد العالي والقدم الصحيح آمين الثالثة اللهمَّ يا الله صلِ على محمد ومن والاه عدد ما تعلمهُ من بدءِ الأمر ومنتهاه وسلم عليهِ وعليهم كثيرًا الرابعة اللهمَّ صل على سيدنا محمد عدد ما كان وعدد ما هو

كائن في علم الله وعلى آلهِ وصحبه وسلم الخامسة اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي الطاهر الزكي صلاة تحل بها العقد وتفك بها الكرب وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم. وفتح باب السلوك للطالب يكون بصيغة من هذه الصيغ الخمسة وهو أن يقرأها الطالب بعد كل صلاة خمسين مرة أقل العمل وشرط القراءة بعد تمام الفريضة والسنة استقبال القبلة وحضور القلب وربط القلب بالمرشد والتخيل النبوي وهو أن يتخيل كأنهُ يقرأ هذه الصيغة بحضور النبي ﷺ مع الأدب والخشوع والانكسار والخضوع ويستغفر الله ثلاث مرات قبل القراءة ويقرأ الفاتحة لروح النبي ﷺ ويبتدي بالقراءة فإذا أتم العدد يستغفر الله ثلاث مرات ويقرأ الفاتحة لروح سيدي أحمد الرفاعي قدس الله سره، ويبتدىء بكلمة التوحيد كذلك خمسين مرة مع الخضوع والأدب والحيا والخشية وكل مرة من القراءة التي تجري على لسانهِ يلزم أن يجري ببالهِ لا إلٰه غيره يعبد ولا رب سواه يقصد ما سواه فانٍ وهو باقٍ.

وقال البعض من السادات الرفاعية: جريان كل هذه النية على خاطر المبتدي صعب والأولى أن يجري على خاطره لا معبود بحق إلا الله فإذا أتم العدد وقرأ الفاتحة يأخذ بقلبهِ الرابطة الأحمدية وهي أن يتخيل حضور حضرة صاحب الطريق سيدي أحمد الكبير قدس الله سره في تلك الحضرة، وهو واقف بين يديهِ ويستمد منهُ قدس سره في لسان القلب على حسب الإلهام، وإذا ألم بهِ عارض وسواس فليفتح عينيهِ ويستغفر الله ويرجع إلى الرابطة حتى تحصل لهُ اللذة الخفية المعروفة بين أهل الطريق وتلك تكون على حسب خلوص الطالب، وشرط الاستمداد في وقت الرابطة التخلي عن الغير ونسيان الأهل والأولاد والبيع والشراء وقطع الفكر الدنيوي والأخروي، وهناك يجعل حضرة صاحب الطريق واسطة لرسول الله ﷺ، فإذا استدام الطالب على هذه الحالة تحصل لهُ حالات وتظهر عليهِ إشارات وينقطع فكره عن الغير ويندهش بالفكر الحقيقي، فيكون مستغرق الأوقات في حب الشيخ، وهذا المقام أول مقامات السلوك وهو مقام الفناء في الشيخ، فإذا عرف الشيخ المرشد من المريد الطالب حقيقة الصدق في الفناء وجربهُ ووجده في بحر الإخلاص غرقان ومن خمر المحبة سكرانَ فحينئذٍ يعرفهُ قرار حلاوة الذكر في قلبهِ ولسانهِ بشروط الذكر وأصولهِ المعروفة ويدخلهُ في التربية، وهي تهذيب نفس الطالب ونقلها من الطمع إلى الزهد ومن البخل إلى السخاوة ومن الاعتراض إلى التسليم ومن التدبير إلى التفويض ومن الجهل إلى المعرفة ومن الكسل إلى العبادة ومن الكبر إلى التواضع ومن الحمق إلى حسن الخلق ومن العداوة إلى المصالحة ومن إيذاء الناس إلى نفعهم ومن الغفلة إلى الخوف، فإذا تهذبت نفسه وحصل بكأس الذوق أنسه وصار كالجوهرة النقية فحينئذٍ يعرفهُ المرشد حقائق الذكر ومعاريج القلب ودقائق إلهام

الحق وإدخال القلب في ميدان السلسلة الرفاعية المسماة بسلسلة الذهب ويعرفهُ حقيقة التوحيد وحقيقة التصوف وحقيقة الخلوة وشروطها، والتوجه وربط القلب بالشيخ والفناء فيهِ والفناء في الرسول وربط القلب فيهِ والفناء في الله وربط القلب فيهِ، وهناك إذا وصل لهذا المقام يجول في ميدان قول القطب سيدي محمد بن وفا:

وبعد الفنا في الله كن كيفما تشا فعلمك لا جهل وفعلك لا وزر

صاحب هذا الوصف يقال لهُ في اصطلاح القوم في حضرة الإطلاق ويقال لهُ من الأحرار لكونهِ مطلوقًا من طبايعهِ ومن كل ما سوى مولاه باقٍ بربه لا يشهد إلا علاه، ولا يتم للسالك الدخول في باب التربية إلا بالتوبة الكاملة وطهارة القلب والنية والميل عن الحرام والوقوف في أبواب الطريقة بالخشوع والأدب وخلع الأخلاق الردية، فإن القلب المشغول بالناس المعمور بالوسواس الغافل عن الله الخائض في بحور الجهل ومحارم الله هو القلب المنافق حمانا الله تعالى.

قال الشيخ عبد الغني النابلسي قدس سره: تنقسم القلوب على ثلاثة أقسام قلب مذبوح وقلب مشروح وقلب مطروح، فالقلب المذبوح هو قلب الكافر والقلب المشروح هو قلب المؤمن والقلب المطروح هو قلب المنافق والعياذ بالله تعالى، وقلب المنافق لا يجلي بالتربية بل يزداد نفرةً وقسوة ولذلك لا يحسن حال المريد إلا بالتوبة الكاملة الخالصة وبطهارة القلب وبصفاء خالص النية لقولهِ عليه الصلاة والسلام: «إنما الأعمال بالنيات»[1] الحديث، وتعريف النية حقيقة حكم محل وزمن كيفية شرط ومقصد حسن، وشرط النية القصد والتعيين ونية الفريضة حقيقتها قصد الشيء مقترنًا بفعلهِ، وحكمها الوجوب وكيفيتها أن يميز العبادة من العادة وشرطها الإسلام والبلوغ والعقل، والمقصود أن يقصد بها المخدوم لا الخادم والتعيين الذي يعين الفرض من العبادات، والفريضة هي الفرض وهي للخادم دون المخدوم، والنية عند أهل الحقيقة زبدة الأشياء لسر قولهِ ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىءٍ ما نوى»[1]، فإذا طهر المريد قلبه وأخلص بنيتهِ فحينئذٍ يكون دخولهُ من باب التربية على بيت الإرشاد بتلقين الذكر والأوراد، وقد جعل ساداتنا الرفاعية للذكر آدابًا أربعة: الأول: طلب الحق، والثاني: الإعراض عن الخلق، والثالث: أن يجعل شيخهُ بين عينيهِ قبل الذكر، والرابع: أن يقف كالميت لا يتحول عن الباب والذكر الذي يلقن للمريد في طريقتنا الرفاعية أولاً لا إلٰه إلا الله وللاشتغال بهذا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري عن عمر بن الخطاب (١/ ٣)، كتاب بدء الوحي، حديث رقم ١. وأخرجه مسلم عن عمر بن الخطاب في كتاب الإمارة (٢/ ١٥٧) باب قوله ﷺ إنما الأعمال بالنيات. والزبيدي في إتحاف السادة (٩/ ٢٢).

الذكر شروط وهي الحضور وفهم المعنى وطرد الخواطر عن القلب وخلع الأكوان والانفراد للرحمٰن والتخلي عن ما سواه تعالى، وطهارة الثوب والبدن والوضوء الجديد واستقبال القبلة وتغميض العينين والجلوس في مكانٍ خالٍ وخفض الصوت بحيث يسمع صوت نفسه ولا يسمعهُ غيره، والتخلص من واردات الرياء والوقوع في بحر الإخلاص واستمداد الهمة من شيخهِ عند ابتداء الذكر وربط قلبهِ بهِ لكونهِ هو الواسطة لهُ إلى الله في طريقهِ، وأن يجعل شيخهُ باب الدخول لباب الله وحضرة الحضور وقت الذكر على الخصوص لأن الذكر محل الفيوضات الرحمانية فإذا استفاض المريد بتلك الحضرة مدد الفيوضات من قلب شيخهِ بالتصوير المعنوي يحصل لهُ الفيض الحقيقي ويسري سر شيخهِ فيهِ ويلحق بسلسلة الطريقة المباركة، وتزرع في فضاء قلبهِ حبة المعرفة فتثمر شجرة لبهِ أنواع المعاني والحكم الخفية، فإذا علم المرشد الكامل قرار حلاوة لا إلـه إلا الله بأصولها وفروعها وشروطها مع حقائق الذكر وشروط الاشتغال بهِ على ما ذكرناه قرارًا قويًا في قلب المريد السالك، وظهر لوح إشارة حلاوة الذكر على لسانهِ واستدام على الأوراد المباركة المخصوصة لهُ في العادة ورأى منهُ الإخلاص في العمل ولمع نور سريرتهِ على وجههِ وأثمرت شجرة عملهِ خدمةً وزهدًا وورعًا ومحبةً لشيخهِ وشغفًا فيهِ فهنالك يأمر المرشد بالذكر الشريف بعدد مربوط في الأوقات الخمسة بعد كل صلاة أقلهُ ألف مرةٍ بقاعدة الذكر الشريف من غير عجلة ولا تضييع معنى ولا غيبة قلب، فمتى سار التوحيد في قلب ذلك المريد السالك وأشرق قلبهُ بنور الذكر وأثمر ذلك النور فكرًا وخشية وربط قلبه بحبل الصدق فحينئذٍ ينقلهُ المرشد من ذكر النفي والإثبات إلى الذكر الأوحد وهو اسم الذات وشروط الاشتغال بهذا الذكر كما تقدم آدابًا، والملاحظة فيهِ هي أن يلاحظ مع كل مرة من قولهِ: الله لا إلـه إلا هو، وأن يكون الذكر بفتح الألف الأولى وتشديد اللامين والمد بين اللامين والهاء وتسكين الهاء والقطع بعد الهاء في كل مرة والابتداء باللفظة الثانية، وشرط الصوت في الذكر كما قررنا أولاً أن يكون غايتهُ ما يسمعهُ هو بنفسهِ، وتعريف الذكر أن يأخذ الألف الأول من الروح من تحت ثديهِ الأيمن وأن يجري مد اللامين كالحبل إلى القلب الصنوبري الذي محلهُ تحت الثدي الأيسر فيسكن الهاء في قلبهِ فمتى قر سر ذلك الاسم في روحهِ وقلبهِ وظهر نوره عليهِ فهناك يأمره المرشد بالذكر الشريف بعدد مربوط كذلك كما تقدم في الأوقات الخمسة بعد كل صلاة أقلهُ ألفين وخمسمائة مرة مع حضور القلب واستحضار روحانية المرشد وإجراء قاعدة الذكر الأوحد الذي هو ذكر اسم الذات على شروطهِ المذكورة، ويكون ذلك الاشتغال برهة زمانية أقلها للسالك ثلاثة أشهر لكي ينجبل الذكر الشريف بقلبهِ ويظهر نوره على وجههِ وتخرج ينابيع حلاوتهِ القدسية على لسانهِ، فإذا كان الأمر كذلك تقدم لمرتبة

الشاويشية بمقتضى أصول الطريقة الرفاعية. ويشتغل بخدمتهِ الفقراءُ ويبقى على قرار ذلك الذكر الشريف فهنالك يعاملهُ المرشد بالرياضات والخلوات على أصولها وعدد الرياضات المربوطة في هذه الطريقة المباركة للمريد السالك بعد دخولهِ في مرتبة الشاويشية أربع رياضات: الأول ثلاثة أيام والابتداء يوم الأحد، الثانية: ثلاثة أيام والابتداء يوم الاثنين الثالثة: أربعة أيام والابتداء يوم الثلاثاء، الرابعة: خمسة أيام والابتداء يوم الأربعاء وشرط الأكل في هؤلاء الرياضات أن يأكل المتريض في الصباح بحسب الكفاية الجزئية، وهو ما يسد الرمق وفي المغرب كذلك، وشرط الطعام أن لا يدخلهُ شيءٌ ذي روح وأن يكون المتريض محجوبًا عن الناس بالكلية في محل مخصوص طاهر لا يدخل على أحد ولا يدخل عليهِ أحد لا من عيالهِ ولا من أولاده، وإذا خرج لقضاء حاجة فليخرج تحت قناع وستر من غير انحراف إلى طريق آخر وأن يشتغل بالذكر الأجمل في كل وقت من أوقات الصلاة وهو: يا رحمٰن بعدد مربوط أقلهُ بكل وقت ثلاثة آلاف مرة مع آداب الذكر المذكورة أولاً وتعريف الصلاة بالرياضات بالسنن الكاملة، وبالقواعد المطلوبة التامة في الصلاة والوضوء على حسب أمر الشرع بالكمال مع حضور القلب في الصلاة والخوف والخشوع، وأن يجري آداب السنن مستحبها وواجبها، وأن يتهجد في الليل باثنتي عشرة ركعة وأقل التهجد أربع ركعات وبعد كل ركعتين من السنة يصلي على النبي ﷺ ثلاث مرات، وبعد كل فريضة يصلي على النبي ﷺ ثلاثة وعشرين مرة ويختم بالفاتحة ويشتغل بذكره الذي هو فيه، والذكر المربوط للرياضة الثانية بعد كل صلاة يا رحيم أقلهُ أربعة آلاف مرة، والذكر المربوط للرياضة الثالثة بعد كل صلاة يا وهاب أقلهُ خمسة آلاف مرة والذكر المربوط للرياضة، الرابعة بعد كل صلاة يا قدوس أقلهُ ستة آلاف مرة والوقت الذي جعل بين الخروج من الرياضة والدخول في أختها عشرة أيام وفي اليوم الحادي عشر يدخل للرياضة إلى أن يتم الرياضات الأربعة، وبعد خروجهِ من الرياضة الرابعة يأمره المرشد بذكر التعظيم وهو ذو الجلال والإكرام في كل يوم ألف مرة ويبقى على هذه الحالة إلى أن تصدر للمرشد إشارة في شأن ذلك السالك من طرف أهل السلسلة المباركة الرفاعية، فإذا صدرت إشارة التقريب للمرشد في شأنهِ فحينئذٍ يجعلهُ المرشد نقيبًا ويعاملهُ بالرياضات المربوطات للسالك بعد دخولهِ في مرتبة النقابة، وعدد الرياضات المربوطات للنقيب خمسة: الأولى أربعة أيام والابتداء يوم الخميس، الثانية خمسة أيام والابتداء يوم الجمعة بعد الصلاة، الثالثة ستة أيام والابتداءُ يوم السبت، الرابعة سبعة أيام والابتداء يوم الأحد الخامسة ثمانية أيام والابتداء بالدخول في الرياضة المذكورة يوم الاثنين، والطعام المعين للسالك في تلك الرياضات الخمسة خبز الشعير والملح والزيت والسعتر بحسب طاقتهِ من القلة ويكون الطعام المذكور صباحًا ومساءً موزونًا بقدر واحد والأسماء التي تقرأُ

في الرياضات المذكورات في الرياضة الأولى يا حق أربعة آلاف، وفي الثانية يا حنان خمسة آلاف، وفي الثالثة يا حليم ستة آلاف، وفي الرابعة يا حي سبعة آلاف، وفي الخامسة يا حافظ ثمانية آلاف، وهذا العدد المذكور يكون بعد كل صلاة مع إتقان الصلوات المفروضات والسنن بأحسن إتقان والفرصة التي جعلت بين الخروج من الرياضة والدخول في أختها خمسة أيام، فإذا أتم السالك حد الرياضات الخمسة فهناك يأمره المرشد بذكر الاستغاثة وهو: سبحانك لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين في كل يوم بعد كل صلاة خمسمائة مرة ويبقى على هذه الحالة إلى أن تصدر للشيخ إشارة من طرف السلسلة المباركة الرفاعية بتقريب ذلك السالك لمجالس حضرات هممهم السنية، فعند صدور الإشارة يدخلهُ المرشد بخلوة التهذيب وهي إحدى وأربعين يومًا على الأصح، وشرطها صيام الأيام المذكورة ويكون الفطور والسحور على خبز الشعير وماء السكر واللوز.

قال بعض السادات الرفاعية: وشرط الأكل في الفطور والسحور أن يكون بوزن واحد فوزن الخبز ثلاثة وعشرين درهمًا، والماءُ والسكر سبعة وعشرين درهمًا واللوز تسعة عشر درهمًا، ويكون النوم في الليل بعد قراءة الورد وذكر العشاء أقلهِ ساعتين وأكثره أربعة ثم يقعد متهجدًا إلى الفجر ويذكر الله ويصلي الصبح ويبتدىء بالورد الشريف، والاسم المربوط لهذه الخلوة واحد وهو يا حميد في اليوم والليلة الأولى ألف مرة، وفي كل يوم يزيد الذكر ألف مرة إلى ختام الواحد وأربعين يومًا فيكون عدد الذكر بيوم الختام واحد وأربعين ألفًا، فبعد خروجهِ يأمره بذكر مناجاة الطالبين وهو: ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدًا بعد كل صلاة خمسمائة وسبعة وخمسين مرة، ويبقى على هذه الحالة إلى أن تظهر لمرشده إشارة من طرف أهل السلسلة المباركة الرفاعية بتقريبهِ لمجالس أنسهم البهية، فحينئذ يجعلهُ خليفة لهُ ونائبًا بطريقة مشايخهِ الكرام ويأذن لهُ بالورد المربوط للخليفة بعد الخلافة وهو سورة الإخلاص في كل يوم مائة مرة، وسورة سبح اسم ربك الأعلى سبع مرات، والصلوات على النبي ﷺ مائة مرة ولا إلـه إلا الله مائة مرة والحزب أو الورد التي تحصل فيهِ الرخصة من جانب المرشد من الأحزاب والأوراد المنسوبة لسيدي الغوث قدس سره، وفي ليلة الجمعة على الخصوص منفردًا أستغفر الله العظيم مائة مرة وسبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم مائة مرة، والصلاة على النبي ﷺ بهذه الصيغة اللهمَّ صل على سيدنا محمد النبي الأمي الطاهر الزكي صلاةً تحل بها العقد وتفك بها الكرب وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم مائة مرة، وسورة الفاتحة سبع مرات وبعد هذا الأوراد يكون إجراءُ الرابطة الأحمدية والفاتحة وعلى

الخليفة حتمًا لازمًا في أصول طريقتنا الرفاعية في كل سنة خلوة سبعة أيام، وابتداء الدخول في الخلوة يكون في اليوم الثاني من عاشوراء، ويكون الطعام خالٍ من كل ذي روح، وذكر هذه الخلوة المباركة باليوم الأول لا إلـٰه إلا الله ثلاثة عشرة ألف مرة، وعلى رأس كل مائة هذا الدعاء-وهو: اللهمّ اغرس في قلبي شجرة لا لله إلا الله وأظهر على لساني ينابيع حكمة لا إلـٰه إلا الله وانشر على وجهي برقع نور لا إلـٰه إلا الله وأغرق روحي في بحر معرفة لا إلـٰه إلا الله، واحفظني يا رب من كل شك وكفر ورياء ومن مكر الماكرين وحسد الحاسدين وعداوة المعادين ومن شر نفسي وشيطاني ودنياي وهواي بعناية وقاية حفظ لا إلـٰه إلا الله، وذكر اليوم الثاني: الله سبعة وعشرين ألف مرة، والدعاء: اللهمّ اسقني من خمر المشاهدة وأغرقني في بحر المراقبة وفهمني دقائق المعرفة وحقائق الحقيقة لأكون منك خائفًا وبك عارفًا يا الله.

وذكر اليوم الثالث: وهّاب اثنين وثلاثين ألف مرة ودعاؤه اللهمّ ارزقني من مواهبك الربانية موهبة اطلع ببركتها على مخفيات الرموز ومغيبات الكنوز فتجلى عين بصيرتي بكحل موهبتك يا وهّاب، وذكر الرابع حيّ خمسة وثلاثين ألف مرة ودعاؤه: اللهم أحيني حياةً طيبة أذوق بها حياة الحب وطعم شراب القرب فأكون بك حيًا ولك وليًا فأموت بك تقيًا وأحيا بك مرضيًا يا حي، وذكر اليوم الخامس: مجيد ثمانية وثلاثين ألف مرة ودعاؤه: اللهمّ مجد قدري بحبك وشرّف مرتبتي بقربك حتى أكون بحبك ممجدًا وبقربك مؤيدًا وأطّلع على دقائق المجد ورقائق المدد والجد وألبس من تيجان المجد والسعد بفضل براهين مجدك يا مجيد، وذكر اليوم السادس: معطي أربعين ألفًا وثلاثمائة مرة ودعاؤه: اللهمّ أعطني من فضلك عطاءً وفيًا أتقرّب بسببهِ لأبواب محبتك وأكون من أهل حضرتك وأشاهد أسرارك القدسية فأفوز بعطية جودك الوفية يا معطي، وذكر اليوم السابع: قدوس خمسة وأربعين ألف مرة ودعاؤه: اللهم قدس سري وروحي بسر سرك وبروح روحك وأدخلني لمنازل الأنس واسقني من مشارب القدس، فيكون سري بك مقدسًا مطهرًا من كل عيب ودنس عرضي أو وهمي بثبوتي أو خاطري ببركة قدسك يا قدوس، هذه الخلوة المخصوصة بالخليفة وللأخوان خلوة كذلك في كل سنة باليوم الثاني من يوم عاشوراء سبعة أيام، وهي حتمًا لازمًا على كل مَن أخذ الطريقة الرفاعية والتمس لأهلها من المرداء والإخوان كثر الله منهم، وشروطها صيام السبعة أيام المذكورة وأن يكون الصائم دائمًا متوضيءً وأن لا ينام في تلك السبعة أيام مع عيالهِ بفراش قطعًا، وأن لا يأكل من كل ذي روح وأن يحفظ لسانهُ من التكلم بكلام الدنيا وأن يربط قلبهُ في الله بسائر أوقاتهِ بخلواتهِ وجلواتهِ مع استحضار همة مرشده. والذكر المربوط للإخوان بهذه الخلوة هو بعد كل صلاة مائة مرة يا

وهاب، وبعد الذكر مائة مرة يقول: اللهمَّ صلِّ على سيدنا محمد النبي الأمي الطاهر الزكي وعلى آلهِ وصحبهِ وسلّم، والفاتحة عند ابتداء الذكر والورد وعند الختام لحضرة سيد الأنام ﷺ ولأصحابهِ وأولاده ولصاحب الطريق رضي الله عنهم، والسلسلة المباركة الرفاعية ولوالد شيخهِ ولإخوانهِ المسلمين أجمعين، قال السيد الكبير قدس سره: خلوة السبعة سبب الفيض للسالك وللمريد الصادق في كل سنة من جهة أهل السلسلة، وقال إمام أهل طريقتنا القطب الجواد السيد الشيخ أحمد الصياد قدس الله سره: خلوة السبعة حبل التذكار بين المريد وبين أهل السلسلة رضي الله عنهم، وقال السيد المصباح سراج الدين الصيادي الرفاعي قدس سره العزيز:

وخلوتنا في سبعة توصل المنا ... إذا دخل المشتاق من غير سمعة
ومن جهل كذاب أتاها بسمعة ... وأمل أن يدعى وليًّا بسبعة

وقال السيد جندل الرفاعي قطب حمص قدس سره:

على خلوة الأسبوع لازم مدا المدا ... وفي كل عام جل بميدان عزها
فتلك هي الحبل الموصل للمنا ... إذا أسلمتها النفس من طعن رمزها

وقال سيدي قاضي القضاة نقيب الأشراف بدمشق السيد محمد عجلان الرفاعي قدس سره:

بخلوة السبعة إن دخلت من غير ريا ... تنال ما تطلبهُ من فيض ونور وضيا

فشروط الخلوة التجرد من الرياء والسمعة، والشروط المطلوبة في وقت الذكر سواءً كان الذكر بالخلوة أو بغيرها فهي استقبال القبلة بالخضوع والأدب والسكون والحياء من الله، واستمداد همة أهل السلسلة وحضور القلب وصرف الخاطر عن غير الله، واستحضار معاني الذكر في القلب والروح، والأهم الحضور مع الله في الدائرة القلبية بحيث يقرر الذكر في لب القلب وهذا المسلك عند العارفين أقرب من التشبث بالعبادة الظاهرية الزائدة عن العبادة المقيدة كالجوع المفرط والصلوات الكثيرة والتريض وغيرها، فكل ذلك مع غفلة القلب لا يفيد بشيءٍ ولا يضر التظاهر بنعمة الله فيها من المأكل والملبس مع حضور القلب كما قال بعض العارفين بالله:

ليس التصوف لبس الصوف والخَلِقِ ... بل التصوف حسن الصمت والخُلُق
فالبس من اللبس ما تختار أنت وقم ... جنح الظلام وأجر الدمع بالغسق
فرُبَّ من يلبس الديباج أشغلهُ ... حب الذي خلق الإنسان من علقِ

وكم فتى لابس للخيش تحسبهُ ناجٍ وذلك عند العارفين شقي
فذا مع اللبس لم يحجبهُ ملبسهُ وذاك باللبس محجوب فلم يفقِ

وقد سألت مرة من سيدي الشيخ محمد مهدي الرواس رحمهُ الله تعالى عن أقرب المسالك إلى وصول الله تعالى فقال: دوام الحضور مع الله تعالى واستدل بقول حضرة الغوث الرفاعي قدس سره:

إذا مرضنا تداوينا بذكركم فنترك الذكر أحيانًا فننتكسُ

ثم قال: ولدي مرتبة حضور القلب أقرب من الرياضات والمجاهدات والجوع والسهر وإنا إذا علمنا صدق الحضور وصحة الإخلاص من السالك نأمره بالأذكار المربوطة في السلوك بلا رياضة ولا جوع، لأن المقصود من الرياضة حفظ القلب من العوارض الوسواسية وحضوره مع الله تعالى في جميع أحواله، فإذا كان السالك صاحب حضور فشغلهُ بالذكر من غير رياضة أليق، وقد كان الشيخ علي أبو الحسن الشاذلي قدس سره العزيز يقول لأصحابهِ: كلوا من أطيب الطعام واشربوا من ألذّ الشراب وناموا على أوطىء الفراش والبسوا ألين الثياب وأكثرْوا من ذكر ربكم فإن أحدكم إذا فعل ذلك وقال: الحمد لله رب العالمين يستجيب كل عضو فيهِ الشكر، بخلاف ما إذا فعل ضد ذلك فإنهُ يقول: الحمد لله وعنده اشمئزاز وبعض سخط على مقدور الله تعالى، ولو أنهُ نظر بعين البصيرة لوجد إثم اشمئزاز والسخط الذي عنده يرجح على إثم مَن تمتع في الدنيا المباحة، أخف بيقين من حصول الاشمئزاز والسخط، وكان سيدي أبو المواهب الشاذلي قدس سره يقول: طريقنا إظهار النعمة في الملبوس وغيره دون التقشف لما فيهِ من عدم انشراح النفس بهِ، فثياب أحدنا كثياب الأغنياء وقلبهُ قلب فقير، فلا يكاد أحد ينسبهُ إلى الفقر لما هو عليهِ من الفخامة وأكل الأطعمة الفاخرة.

وقال المحقق العلاّمة الشيخ علي القاري الحنفي رحمهُ الله في شرح كتابهِ: ليذكرون الله أقوام في الدنيا على الفرش الممهدة يدخلهم جنات العلى من الحصن الحصين، وفيهِ دليل على أن الملك والأمراء ومَن يجري مجراهم من أهل الدنيا المرفهين لا تمنعهم حشمتهم ورفاهتهم عن ذكر الله تعالى، وهم في ذلك مأجورون ومثابون ويدخلهم برحمتهِ الجنات العلى انتهى. فالأحسن حفظ القلب دائمًا ومراعاة ذكر الله في الباطن كما يراعي أمره تعالى في الظاهر وبحيث ثبوت ذكر الله في القلب أمر عظيم يصل العبد بهِ إلى الله تعالى بوقت قريب. قيل المشتغل بالأحوال الظاهرية جهده وقلبهُ مشوش لأن القلب محل نظر الحق تعالى لا الأعمال الصورية كما ورد: «إن الله تعالى لا ينظر

إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم»[١] وكما ورد: إن في جسد ابن آدم مضغة لآخر الحديث الشريف، لأن القلب ملك مدينة الجسم والجوارح فعمل القلب يكون ملك الأعمال ولذلك ورد ذرة من أعمال الباطن خير من الظاهر كالجبال الرواسي، لأن الأعمال الظاهرية قد يعارضها النفس والشيطان، وأعمال الباطن لا معارض لها قطعًا. وذكر في أسباب النزول أن هذا الحديث ورد في معاوية رضي الله عنهُ فإنهُ في مبادىء إسلامهِ لم يكن لهُ مشرب الذوق الباطني، فقال ﷺ: «ذرة من أعمال الباطن» لآخر الحديث، وفي حديث آخر: «قليل العمل مع العلم كثير وكثير العمل مع الجهل قليل»[٢] وذكر في أسباب النزول أن معاوية رضي الله عنهُ كان يجتهد في كثرة العمل فقال ﷺ: قليل العمل مع العلم لآخرة، وذكر في أسباب النزول أيضًا أنهُ ليس المراد من إسناد الجهل إلى معاوية رضي الله عنهُ الجهل المستقبح، بل ذلك كناية عن أنهُ رضي الله عنهُ كا رجلاً زاهدًا ولم يكن لهُ مشرب التجليات الذوقية فأرشده ﷺ بقولهِ: «قليل العمل مع العلم كثير» ثم اعلم أن هذا الحديث وأمثاله مصروفة على نوافل الطاعات ومحمولة على زوائد الأعمال لا على أصول الأعمال والفرائض التي هي بين الناس مشتركة.

وقال سيدي السيد محمد مهدي الرواس نفعنا الله بهِ: ولا بد من الخدمة والسلوك في طريقتنا العلية الرفاعية لأن السلوك والخدمة القصد منهما معرفة الآداب، ومن جهل الآداب مقره اصطبل الدواب، وقد قال سيد الأنام عليه الصلاة والسلام: «أدبني ربي فأحسن تأديبي»[٣] والأدب عند أهل الطريق هو باب رسول الله ﷺ، وهو ﷺ باب الله ولا يدخل السالك على باب رسول الله إلا بالأدب ورعاية حفظ معرفة الآداب الدينية وإدراك ملاحظ مواقع الآداب القلبية، فإذا أتقن معرفة هذه المعاني وفهم رموزها ومواقع أسرارها بخدمة المرشد الكامل وحافظ على رعاية العمل بها، فحينئذٍ يفتح لهُ باب الدخول من جانب حضرة الرسول، ومن دخل من هذا الباب وصل إلى الرحاب وقد أحسن سيدي محيي الدين العربي بقولهِ في صلاتهِ الفيض الرحماني: فهو بابك الذي من لم يقصدك منهُ سدت عليهِ الطرق والأبواب ورد بعصا الأدب إلى اصطبل الدواب، وفي هذا السير سرُّ الفنا في الشيخ والفناء في الرسول والفناء في الله لأنهُ لا يتم للطالب أمر

---

(١) الحديث أخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي هريرة (٢/ ١٢٠) كتاب البر والإحسان، باب الإخلاص وأعمال السر، حديث رقم: ٣٩٤، وأحمد في المسند (٢/ ٥٣٩)، ومسلم في البر والصلة، باب ٣٤، حديث رقم: ٢٥٦٤.

(٢) الحديث أخرجه في كنزل العمال عن أنس (١٠/ ١٥٦) كتاب العلم، باب الترغيب فيه، حديث رقم: ٢٨٨٠٠.

(٣) سبق تخريجه.

الوصول إلى الله إلا بالدخول من باب فضل رسول الله ولا يتم لهُ الدخول من باب فضل رسول الله إلا بالآداب وإتقان رعاية تطهير القلب والخاطر وهذه المعاني لا تحصل للطالب إلا بخدمة المرشد الكامل والمقصود من الخدمة للمرشد الفناء بهِ، والفناء حقيقة سر الاعتقاد بهِ من سر قولهِ عليهِ الصلاة والسلام: «لو اعتقد أحدكم على حجر لنفعه»[1] قال السيد سراج الدين الرفاعي الصيادي قدس سره: حقيقة الفنا في الشيخ أن يفني المريد فكره عن غير الشيخ من الخلق بحيث لا يرى لنفسهِ شيئًا ولا مالاً ولا أهلاً ولا حضورًا مع أحد ولا خطابًا لأحد ولا خاطرًا بأحد ولا التفاتًا لأحد إلا للشيخ بالشيخ، حتى لو أفنى جميع ما يملك على الشيخ لا يرى بعد إتلاف ذلك لنفسهِ مزية عند الشيخ، وأن يجعل الشيخ محل نظره من العالم فلا يوجه نظره القلبي والبصري إلا للشيخ، وأن يعتقد أن شيخهُ مدار العالم وكنز مدد الله وعلى فيض الله في هذا العصر وإمام المرشدين، وبطاعتهِ يصل إلى الله وأن يخلو في أمر خدمة الشيخ من الوساوس والظنون الفاسدة والعوارض السيئة، والطمع والبخل ونظر السوء لهُ في الباطن أو في الظاهر، وأن يعتقد أن جميع ما يصل لهُ من الخيرات من طرف الله تعالى ببركتهِ، فهذه الشروط شروط الفناء في الشيخ ولا يفتح باب الفتوح لمريد في السلوك إلا بعد ثبوت الفناء في الشيخ فيهِ، وحقيقة الفناء في الرسول ﷺ هو حفظ شريعتهِ المطهرة في الباطن والظاهر، وملاحظة سره النبوي في جميع الأوقات والساعات بحيث إن أراد الضحك فضلاً عن الخطايا المشهورة، وكان حينئذٍ في البر الأقفر يطرقهُ الحيا من الحضرة النبوية ويتخيل أنهُ واقف بين يدي رسول الله ﷺ، وأن يجعلهُ سلم أموره ومحل أسراره ومصدر شكواه، وأن يتحقق في الباطن والظاهر كما تحقق جمهور السادات العارفين والعلماء الكاملين أن لا مدد يصدر من الله ولا عناية ولا همة ولا نفحة إلا وتمر بقلبهِ الشريف، وهو يتحنن بها على صلحاء أمتهِ ومحبيه القائمين بأمره العالي على منهاج شريعته، وأن لا يسمع إلا كلامهُ ولا يرى في الكونين إلا شخصهُ ولا يستمد إلا منهُ ولا يدخل إلا من بابهِ، ولذلك أشار القطب الولي العارف بالله سيدي محمد بن وفا رضي الله عنهُ بقولهِ:

وأنت باب الله أي أمرء ... أتاه من غيرك لا يدخلُ

وقال في هذا المقام سيدي القطب الشاذلي الكبير قدس سره العزيز: والله لو حجب عني رسول الله ﷺ طرفة عين لما عددت نفسي من المسلمين وحقيقة الفناء في

---

(١) أخرجه الألباني في السلسلة الضعيفة حديث رقم: ٤٥٠.

الله الخوف منهُ وحسن الظن بهِ وملازمة أوامره وترك ما نهي عنهُ والإعراض عما سواه، وأن يتحقق المريد بأن الكل منهُ والكل إليهِ وأن يتوكل في جميع الأمور عليهِ، وأن يتفكر في مصنوعاتهِ ويمنع الفكر عن الخوض بذاتهِ وأن يستحيي منهُ بخلواتهِ وجلواتهِ، وأن لا ينسى ذكره تعالى لا بالقيام ولا بالقعود ولا باليقظة ولا بالرقود ولا مسافرًا ولا مقيمًا، وإن خطرت الدنيا على قلبهِ خطرة جزئية تاب وآب واستغفر الله العظيم، وأن لا ينسى مصيره إليهِ ووقوفهُ بين يديهِ وأن يتخيل بالخيال الحقيقي أنهُ في جميع أوقاته بين يدي قدرتهِ معترفًا بالخطأ، طالبًا للرضا فهذه المعرفة إلهام من الله تعالى يجريها في قلب الصادق من أحبابهِ وهي عين المعرفة لقولهِ عليهِ الصلاة والسلام: «مَن عرف نفسهُ فقد عرف ربه»(١) فمتى علم الرجل السالك وتحقق أنهُ بجميع أحوالهِ وأقوالهِ وأفعالهِ مع الله وبالله ولله، وهو الحقير الفاني والله العظيم الباقي، وكانت هذه المعرفة ثابتة في لوح قلبهِ من غير نسيان في مجمع جميع حالاتهِ وبسائر أوقاتهِ في حركاتهِ وسكناتهِ فهنالك يكون فانيًا في الله:

وبعد الفنا في الله يوصل للبقا وعين البقا بالله ترك الخواطرِ

ومن سر الفناء يحصل للسالك البقاية سبحانهُ فتحيى روحه بنقطة الحياة الصمدانية وتنبع بميدان قلبهِ ينابيع الحكمة الربانية فيكون بالله من الله إلى الله مع الله يسمع بالله ويتكلم بالله ويبطش بالله ويكرم بالله ويقهر بالله ويوصل بالله ويقطع بالله، ويكون من مظاهر الحق بالإرشاد للخلق، يهدي الله بهِ إلى الصواب ويفتح لمريده بسببهِ باب الصواب، ويطلعهُ على السر المكنون ويدخلهُ في سلك من قال في حقهم تعالى: ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [يونس: ٦٢] وقال سيدي العارف الغوث الكبير السيد أحمد الرفاعي قدس سره العالي: الفناء والبقاء بالله ترك ما سواه، وقال سيدي سراج الدين الرفاعي قدس سره: الفناء في الله هو أن يلاحظ السالك في جميع أقوالهِ وأفعالهِ وأحوالهِ أنهُ ميت وموقوف بين يدي الله تعالى، ولا سماء ولا أرض ولا خلق ولا شيء ولا نفسه بذاتهِ ولا باطل ولا حق موجود في الوجود بحق إلا الله، وهذه الملاحظة سرها نسيان غير الله بالكلية كما قال سلطان العاشقين حضرة سيدي عمر بن الفارض رحمهُ الله:

ولو خطرت لي في سواك إرادة على خاطري يومًا حكمت بردّتي

---

(١) الحديث أخرجه في كشف الخفاء (٢/ ٢٦٢)، باب العين، حديث رقم: ٢٥٣٢.

وقال سيدي سراج الدين الرفاعي أيضًا: أما نسيان غير الله بالكلية فهو فناء العوام من أهل الحال، وأما فناء الخواص هو أن لا يعرف السالك شيئًا غير الله فينساه ولا يرى مطلبًا بالوهم والفهم والمعنى والخاطر بالعرض سوى الله فيتركه، فإذًا مَن كان لا يعرف إلا الله لا يحتاج إلى نسيان غيره ومَن كان لا يطلب إلا الله لا يحتاج إلى ترك السوى، وهذا المقام هو المسمى بمقام الوحدة عند العارفين ومن هذا المعنى، قال سيدي السيد محمد مهدي الرفاعي شيخ السادة بالبصرة:

إن عيني غيركم ما نظرت عميت عن غيركم فأبصرت

وقال سيدي الغوث الكبير السيد أحمد قدس سره العزيز ونفعنا بهِ:

طلبت في الكون باق كي أهيم بهِ غير الحبيب فسر الحب وافاني
وقال لي خلِّ عنك الغير منخلعًا عن السوى فسوى من تدره فاني
فصرت منهُ لديهِ فيهِ عنهُ بهِ والغير راح بلا تركي ونسياني

فهذه منزلة فناء الخواص نفعنا الله بهم وترك الأغيار فناء العوام، لأن الخواص ينظرون بعين البصيرة فيرون ما في الدار غيره ديار، فبهذا النظر لا يحتاجون لترك الأغيار، اللهمَّ بلغنا وصول هذه المقامات العلية، وعرفنا بكرمك حقيقة هذه المعاني الدقيقة، وفهم هذه المعاني لا يحصل بالتعريف كما قال سيدي محمد البوني نفعنا الله بهِ في كتابهِ أسرار الحروف والفهم بالإلهام: لا يوجد بالطلب ولا بالدراية ولا بالقياس، وإنما هو موهبة الله لأوليائهِ المؤمنين الذين لا تشتغل بواطنهم بغيره طرفة عين أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب:

هم القوم من أصفاهم الود مخلصًا تمسك في أخراه بالسبب الأقوى
هم القوم فاقوا العالمين مناقبًا محاسنهم تحكى وآياتهم تروى

أمدّنا الله من فيض إمداداتهم وجعلنا الله من المنظومين في عقد خدامهم ومثل هذه الأسرار الباهرة لا يطلعون عليها ساداتنا أهل الطريق إلا لمن خلع ثوب الكبر والعظمة، وتردى برداء المذلة والانكسار والخدمة وسلك بهذه المسالك مع القيام بواجب حقوق السلوك في كل المناهج بالانقياد والتسليم خلافًا لبعض المشايخ الآن ممن رأيتهم في سياحتي بطرف العراق والشام وغيرها، وقد كنت في بعض البلاد أذهب لزيارة المشايخ بنية نيل فائدة من مطلوبي، فكنت إذا سألت الشيخ عن أحوال السلوك وخلواتهِ واللازم فيهِ من الخدمة يجاوبني بذكر كرامات آبائهِ وأجداده ويفتخر بذلك، وأكثر وقوع هذا الداء في مشايخ القرى بنواحينا الآن الأكثر منهم إذا سألهُ المريد عن الورد المربوط لطريقتهِ لا

يعرفهُ، وإذا ذكر أحد العارفين بمجلسهِ يضحك ويقول: متى صار هذا ويتكلم بالمعنى عليَّ، وإلا فالثناء كلهُ كذب، وقد سألت مرة من بعض المشايخ الرفاعية عن شروط الخلوة الأسبوعية المعروفة بين جميع أصحاب الطريقة الرفاعية فقال: جدي دخل الخلوة المذكورة وفي الليلة الثالثة كشف لهُ الغطاء وخرج من الخلوة، فقلت: وهل جناب سيدنا دخل الخلوة كذلك؟ فقال: كفتنا خلوة الجد المرحوم.

قال صاحب التاجية الشيخ الإمام المحقق تاج الدين الهندي الحنفي النقشبندي المدفون بمكة المكرمة قدس سره: اعلم أن مكافأة بعض حقوق الشيخ لا تتيسر إلا برعاية حسن الأدب فالتعظيم لمشايخ الطريقة من معظمات حقوقهم والإهمال عين التقصير والخسران، لأن له نسبة الأبوة المعنوية قلت: وهذه النسبة عند أهل المحبة الإلـٰهية أشرف من نسبة الأبوة الظاهرية وهي التي جعلت بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي رضي الله عنهم من أهل البيت وأبعد عنها أبو طالب ولم تنفعهُ نسبة العمومية التي هي أقرب الأنساب الأهلية وإلى هذه النسبة أشار سلطان العاشقين ابن الفارض قدس سرّه الفائض بقولهِ:

نسب أقرب في شرع الهوى ... بيننا من نسب من أبوي

انتهى. وقال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين العربي قدس سره الأنور في كتابهِ الأمر المحكم المربوط ويجب على الشيخ إذا رأى شيخًا آخر فوقهُ أن ينصح نفسهُ ويلزم خدمة ذلك الشيخ الآخر هو وتلامذتهُ، فإنهُ صلاح في حقهِ وحق أصحابهِ ومتى لم يفعل هذا فليس بمنصف ولا ناصح نفسهُ ولا صاحب همة، بل هو ساقط الهمة ضعيفها بل ربما هو محب في الرئاسة والتقدم، وهذا في طريق الله تعالى نقص ألا ترى محمدًا ﷺ كيف قال: لو كان موسى حيًا لما وسعهُ إلا أن يتبعني، وإلياس وعيسى تحت حكم شريعة محمد ﷺ انتهى. وقال الشعراني قدس سره في المنن الكبرى: ثم إني إذا رأيت أحدهم أعرف مني بالطريق تلمذت لهُ ولو كنت مأذونًا قبل ذلك من شيخ آخر، لأن المقامات ليس لها حد يقف عليها العبد انتهى. وما القصد من هذا الكلام الطعن بالمشايخ بل هو ترغيب لهم بخدمة طرائقهم وحسن السلوك فيها على أصل مسالك الأسلاف الطاهرين رضي الله عنهم أجمعين، لأنَّ الكسل في مثل هذا العمل من أعيب المعيبات والعمل بهِ وتمام معرفتهِ من أهم المهمات، والقيام بإرشاد العباد على مَن كانت مطوية فيهِ أسرار معرفة الإرشاد على منوال الأصل الذي بيناه حكم الواجب بل هو الواجب، وعلى الخصوص إن كان متبحرًا في علوم الشريعة والحقيقة وأمر أشياخه لهُ، فاللازم عليهِ أن ينشر فوائد الطريقة ودعوة الخلق إلى الحق

على بصيرة باتباع سبيل المبعوث رحمة للخليقة لتكثر السالكون ويعم الهدى لما في الحديث الشريف: «لأن يهديَ الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حمر النعم»[١] وقولهُ تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعي إلى الله﴾ [فصلت: ٣٣] وقال ﷺ: «الدال على الخير كفاعله»، وقال ﷺ: «من سن سنة حسنة فلهُ أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»[٢]، وفي الحديث: «أوحى الله إلى داود يا داود من رد إليّ هاربًا كتبتهُ جهبذًا ومن كتبتهُ جهبذًا لم أعذبهُ أبدًا» ويحرم عليهِ الإخفاء وكتم هذه الفوائد عن طلابها وغيرهم لقوله عليهِ الصلاة والسلام: «مَن كتم علمًا أُلجم بلجام من نار يوم القيامة»[٣] وقال ﷺ: «إذا ظهرت البدع والفتن فليظهر العالم علمهُ»[٤] فالظهور في مثل هذا السير من أحسن الأمور وكتمهُ عين القصور، وقد قال العارفون: ليس الرجل من كمل في نفسه بل من كمل بهِ غيره، ولا من زال عنهُ الخوف في نفسهِ ولكم من زال بهِ الخوف عن غيرهِ، وفي الحقيقة الدال على الله تعالى هو الوارث الداخل في قولهِ ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»[٥]، فلهذا كانت رغبة السلف الصالح في إعطاء الطريق للعام والخاص، وذلك بقصد الإرشاد لهم وبخلوص النية رأفة على المسلمين مع حسن الظن بالله أن يلهم التوفيق، وبأقوى اتفاق آراء السادة العارفين أن التقليد في هذا الطريق ينقلب تحقيق، وأما المتشبهون بلبس الخرق المنهمكون في الشهوات وأنواع الجهالات ولا يعرفون من طريقة شيخهم إلا اسمها وينكبون على الدنيا انكباب الأسد على الفريسة، ويخترعون أمورًا لا تحل في الشرع كالطبول والزمور والكاسات خصوصًا في مساجد الله، ويكثرون من وقيد الزيت والشموع ويزعمون أنها طريقة الرحمٰن، كلا والله بل طريقة الشيطان لأن الطريقة الصحيحة هي العمل بالواجبات والمندوبات حسب الإمكان، وترك المنهيات والتخلي عن فضول المباحات، ولها أركان وشروط وآداب تحصل للطالب بخدمة المرشد الكامل العارف، وكل معانيها على منهاجها الحقيقي توصل للحقيقة حيث استوفى المريد الشروط والآداب والأركان وإلاً كان كحمار الرحى غاية

---

(١) الحديث أخرجه مسلم عن أبي هريرة (٢/ ٣٦١)، كتاب فضائل الصحابة، باب ٤.

(٢) الحديث أخرجه في مجمع الزوائد عن واثلة بن الأسقع، (١/ ١٦٧)، باب في من سنّ خيرًا أو غيره.

(٣) أخرجه في كشف الخفاء عن أبي هريرة (٢/ ٣٧٣)، باب الميم. وأخرجه في كنز العمال عن ابن عمرو، باب آفات العلم ومن لم يعمل به (١٠/ ٢١٧)، حديث رقم ٢٩١٤٧.

(٤) أخرجه في كنز العمال (١٠/ ٢١٦)، باب آفات العلم ومَن لم يعمل به، حديث رقم: ٢٩١٤٠.

(٥) أخرجه في كنز العمال عن علي (١٠/ ١٣٤)، كتاب العلم، باب الترغيب فيه، حديث رقم: ٢٨٦٧٧.

مبتداه، قال سيدي القطب محمد البكري نفعنا الله ببركات علومهِ الشريفة:

ومن لم يكن في الشوق والشوق صادق أحاديثهُ بين المحبين لا تروى

وقلت:

طريق رجال الله غايتهُ قصوى ونعمتهُ عظمى وسلمهُ التقوى
وزبدتهُ ترك السوى في سلوكهِ وكتم المعاني والتخلي عن الدعوى
فهذا هو السير السليم من الجفا ومذهبهُ عند الرجال هو الأقوى

فهذه حقيقة آداب السلوك في طريق القوم وملخص باب المشيخة هو نصح المسلمين ومحبة الخير والترقي لهم لا غير، وأما من كان ينكر على المشايخ العارفين المتصدرين للإرشاد فهو مخطي إن كان من أهل الفضل لعلمهِ بحقيقة قصدهم الذي بيناه وإن كان جاهلاً فلا تفاضل بينهُ وبين الأشياخ الجهلة وللأشياخ العارفين أسوة بالرسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًا من المجرمين﴾ [الفرقان: ٣١] فهي للأشياخ بحكم الإرث والإنكار على مثل هؤلاء المشايخ من أسوأ التدبير والسبب الأقرب للتدمير والتسليم لهم رضي الله عنهم عين السلامة وسلم الفوز بيوم القيامة، ومن أبوابهم تحصل المرادات وبتوجهاتهم تقضى الحاجات.

شعر:

لله قوم إذا حلوا بمنزلة حل الرضاءُ وسار الجود إن ساروا
تحيى بهم كل أرض ينزلون بها كأنهم لبقاع الأرض أمطارُ

وللفقير شعر:

قوم إذا نزل العاني بساحتهم نال العلا والمعاني من معاليها
هم سادة سرهم كنز الوصول وهم من بابهم تحصل الدنيا وما فيها

ويجب على اللابس خرقة الخلافة أن يخلص المحبة لجميع الأولياء ولجميع أصحاب الطرائق، وأن يستمد همة رجال الغيب رضي الله عنهم في جميع أوقاتهِ وأن يلازم بقلبهِ التوجه لقطب الزمان ساكن الكعبة وأقطاب الدائرة السبعة أصحاب الأقاليم، والخلفاء الأربعين سكان الشام والنقباء السبعين سكان مصر والأبدال الثلاثمائة سكان الغرب، وأن يلازم بقلبهِ التوجه لحضرة الخضر عليهِ السلام لكونهِ نقيب الرجال وأن يجعل الواسطة بينهُ وبينهم للتوجه صاحب الطريق رضي الله عنهُ وشيخهُ المرشد، وملاحظة استمداد همة رجال الغيب رضي الله عنهم من أعظم اللوازم للخليفة المأذون،

لأن الاستمداد الباطني منهم حبل الوصول إليهم وهو السبب لعطف قلوبهم الشريفة ونظرهم الإكسيري العالي، فإذا انطوت في الخليفة هذه المعاني وفهم أسرار معارف السادة الصوفية رضي الله عنهم فحينئذ يجب عليهِ القيام بإرشاد العباد كما تقدم معنا، والقصد من المشيخة دلالة الخليق على الحق وإن كان أكثر الطالبين الآن للطريقة العلية طلبهم للعلة، فالواجب على المرشد حسن الظن بإخلاص المريد لهُ كما يجب على المريد الاعتقاد الكامل بشيخهِ، وقد سألت مرةً من سيدي وشيخي الشيخ محمد مهدي المرحوم الرفاعي المعروف بالرواس عن حال طلاب هذا الزمان من الفقراء المتصوفين وغيرهم وعن حال تقليدهم في السير، فقال نفعني الله بهِ: يا ولدي اللازم عليك إدخالهم بباب الطريق وحسن الظن بهم والنصح لهم فإن التقليد في طريقنا هذا ينقلب تحقيقًا بإذن الله والمجاز قنطرة الحقيقة والريا قنطرة الإخلاص والتكرار يثبت الدعوى.

وقال بعض السادات الرفاعية أنا أتكفل لمن دخل بطريقنا أن ينقلب تقليده تحقيقًا، وهذا مقام حسن الظن بالله أن يلهم التوفيق، ودليل التحقيق وفور ذكر الله بصدر المريد وهذه مرتبة عظيمة لقولهِ تعالى بالحديث القدسي: «ما وسعني سمائي ولا أرضي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن التقي» وهذه المرتبة مرتبة أكابر العارفين وفي هذا المعنى قال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين العربي قدس سره: مَن لم يذق لم يعرف، وقال أبو يزيد البسطامي قدس الله سره:

شربت الحب كأسًا بعد كأس فما نفد الشراب ولا رويت

وهذا مقام الاستغراق بذكر الله تعالى بحيث لا يسمع ولا يدري ولا يتكلم إلا بذكره تعالى، ولما وصل أبو يزيد لهذا المقام قال: لو ألقي العرش ألف ألف مرة في زاوية من زوايا قلب العارف ما أحسن بهِ، وابتدأ أمر الإرشاد للمريد الطالب لا يكون إلا بالذكر وهنا اختار بعض المشايخ الإذن للمريد بالذكر الخفي كما ذهب إليهِ السادة النقشبندية، وباقي أكابر ساداتنا الرفاعية اختاروا الجهري وقالوا: هو أولى لكل شخص ابتداءً وانتهاء لأنهُ عمل كثير ولهُ ثواب عظيم، وقال ابن حجر: الذكر الكامل ما اجتمع فيه ذكر القلب واللسان وهذا دأب السادة الرفاعية في أمر الإرشاد وآدابهم كلها هكذا، وهي مراعاة حفظ ذكر الله دائمًا في القلب وحسن الاشتغال به في اللسان، وذكر في شرح المشارق أن أفضلية الجهر والإخفاء إنما هو بحسب المقام، والشيخ المرشد قد يأمر المبتدي برفع الصوت لينقلع عن قلبهِ الخواطر الراسخة فيهِ، لأن الجهر في الذكر والدعاء ليس لإعلام الله تعالى بل التصوير النفس بالذكر ورسوخه فيها ومنعها عن الاشتغال بغيره

وهضمهما بالتضرع، وقال لي مرة سيدي الشيخ محمد مهدي الرواس: يا محمد لم تكثر من الذكر الخفي وتقلل من الجهري فقلت: سيدي احترص من الرياء، فقال: عجب والله أذكر في المنارة بأعلى صوت في محل اجتماع الناس ولا أخاف من وقوع الرياء لأني مشتغل وتعبان وأتحقق إذا علمتُ رياء ذهب الثواب وبدل بالعقاب وراح التعب بلا جزاء، وإذا لم أراني حصلت الفائدة وأرضيت الرب وما ضيعت التعب، فببركة هذه القاعدة لا أرائي قطعًا فببركة الشيخ المذكور من تعالى عليَّ بوقوع سر هذه القاعدة بفكري، وقال بعض المشايخ: ينظر إلى شأن الذاكر فإن كان خالصًا من الرياء فالجهر أولى في حقهِ وإن لم يخلص فالإخفاء في حقهِ أولى، قال سيدي الغوث الكبير السيد أحمد الرفاعي قدس سره: طريقنا هذا طريق تقًى وإخلاص فمن أدخل في عملهِ الرياء والفجور فقد بعد عنا وخرج منا، وقال سيدي القطب الجواد السيد أحمد الصياد صاحب السجادة الرفاعية بعد جده الغوث الكبير رضي الله عنهما: لو علم الناس تجارتنا في طريقتنا ورأس مالنا فيها لما تاجروا إلا فيها، فقال لهُ الشيخ عبد المعطي اللاونجي الرفاعي قدس سره: وما تجارتكم ورأس مالكم فيها؟ فقال: تجارتنا العمل ورأس مالنا الإخلاص ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾ [البقرة: ١٩٧] هذا معراج السير وسلم الوصول بسلوك طريقتنا وإن الرياء وترك العمل يجلبان التدمير ويورثان الكسل انتهى. وشروط البيعة للمريد في هذه الطريقة العلية الرفاعية: أولها أن يأمر المرشد للمريد بالوضوء الجديد وبصلاة ركعتين بنية التوبة، ثم يجلس المرشد على السجادة ويجلس المريد مقابلاً لهُ بالأدب والخضوع لاصقًا ركبتيه بركبتي المرشد مطرقًا خاضعًا لله تعالى متجردًا من وساوس النفس الخبيثة ومن الدسائس الشيطانية، فحينئذ يقرأ المرشد ثلاثة فواتح سرًا ثم يقرأ: الاستعاذة وآية المبايعة وهي: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسهِ ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا﴾ [الفتح: ١٠] ثم يقرأ ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون﴾ [النحل: ٩١] ثم يقول: استغفر الله العظيم الذي لا إلـه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه من جميع الذنوب ثلاثًا، ويتابعهُ المريد سرًا بالاستغفار ثم يمسك بيده اليمنى في يد المريد ويلقنهُ الذكر وهو القول: لا إلـه إلا الله ثلاثًا، ثم بعدانتهاء قول المرشد يقول المريد مثل قول المرشد، ثم يلقنهُ الشيخ العهد وهو أُشهدُ الله وملائكتهُ وكتبهُ ورسلهُ وأنبياءه والحاضرين من خلقه إني تائب إلى الله تعالى ورسولهِ من جميع الخطايا راغبًا في امتثال أوامر الله مجتنبًا لمحارمهِ مجتهدًا في طاعتهِ منيبًا إليهِ مواظبًا على خدمة الفقراء بحسب الطاقة، وإن الطاعة تجمعنا والمعصية تحول بيننا والعهد عهد

الله ورسوله، وإن اليد يد سيدنا وشيخنا السيد الكبير والغوث الشهير القطب الداعي سيدي أحمد الرفاعي وهو شيخنا في الدنيا والآخرة والله على ما نقول وكيل، ثم يقول المرشد مخصوصًا بنفسه: العهد عهد الله واليد يد الله والبيعة بيعة رسول الله والهمة همة الشيخ الأعظم قدوة الأولياء شيخ مشايخ العرب والعجم قطب الأقطاب سلطان العارفين سيدنا الشيخ أحمد الرفاعي الكبير قدس الله أسراره العلية ثم يقرأ الفاتحة سرًا ويقرأ: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وفي هذا المقام قال بعض كبار السادة الرفاعية: ينبغي أن يقول المرشد للمريد: قمْ مريدًا بالطريقة العلية الرفاعية واقعد كذلك، ثم يقرأ الفاتحة لأهل العهد قال العالم العلاّمة الشيخ ناصر البغدادي في كتابهِ معراج السالكين إلى المقام الأمين: سألت القطب العارف بالله السيد حسين برهان الدين ابن السيد عبد العلام ابن السيد عبد الله شهاب الدين المبارك الزبيدي الرفاعي عن سر البيعة فقال: حد من حدود الحق يقف عند أهل الصدق الذين صدقوا ما بايعوا الله عليهِ وعاهدوا الله فخافوا سؤالهُ وعظموا جلالهُ فتغلب على قلوبهم سلطان الهيبة وأخذهم من علة نفوسهم إلى حضرتهِ العلية، فانطمست قوابس أوهامهم بأشعة أنوار عظمتهِ فإذا سوَّل لهم الشيطان خروجًا أو دخولاً وقفوا على قدم الاستقامة ذاكرين الله قائلين: إن العهد كان عنهُ مسؤولاً أولئك الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا، وانحجبت بصائرهم عن غيره فأبصروه بها وعن الأغيار تعاموا وعلى طريق رضاه قعدوا وإلى داعيه قاموا، وما البيعة إلا بيع النفس وقطع علائقها والأعنة ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾ [التوبة: ١١١] فإن انطبع المبايع على الصدق ودخل حضرة قوم تجردوا من علائق رطبهم ويابسهم، فقد لوحظ من النبي ﷺ بمعونة النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وعلى ذلك يقوم منار الأمر ويتم نظام الخير وتصح الوصلة إلى الله ويأخذ القلب عن الله ويصير العبد صفة من صفات الله، يصل بالله ويقطع بالله ويتكلم عن الله ويستهدي بالله ويسير إلى الله ويعان من الله، أجل قال الله لحبيب الله: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ [الفتح: ١٠] وإن بيعة الإمام المبين والصادق الأمين عليهِ الصلاة والسلام نافذة سارية باقية هي هي تتلقاها الأنفس السليمة وتعقد عليها الأكف الكريمة لا تبديل لكلمات الله، وأهل الله نواب رسول الله وبهذا سبقت إرادة الله، فنوّر بصدق البيعة مضمونك وانشق نُسَيْمَة قولهِ تعالى: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك﴾ انتهى.

وقال بعض أهل هذه الطريقة إن كيفية المبايعة أن يأمر المرشد للمريد بالوضوء الجديد وبصلاة ركعتين بنية التوبة ثم يجلس المرشد على السجادة، ويجلس المريد أمامهُ بالأدب والخضوع لاصقًا ركبتيه بركبتي الشيخ مطرقًا خاضعًا لله تعالى متجردًا من وساوس النفس الخبيثة ومن الدسائس الشيطانية، فحينئذ يقرأ الشيخ ثلاث فواتح سرًا ثم يقرأ آية المبايعة وهي: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسهِ ومن أوفى بما عاهد عليهُ الله فسيؤتيه أجرًا عظيمًا﴾ [الفتح: ١٠] تيمنًا وتفاؤلاً يتحقق المبايعة في الطريق كالشريعة إلا أن يبدي الله لهم أعلام الحقيقة، ثم يقرأ هذا الحديث الشريف المستخرج من صحيح الإمام البخاري رضي الله عنهُ الباري عن عبادة بن الصامت رضي الله عنهُ أنهُ قال: قال رسول الله ﷺ وحولهُ عصابة من أصحابهِ: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترون بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا في معروف، فمن أوفى منكم فأجره على الله ومَن أصاب من ذلك شيء ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفى عنهُ وإن شاء عاقبهُ»، فبايعنا على ذلك. وفي حديث آخر عن عبادة أيضًا أنهُ قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره ونقول الحق حيث كنا ولا نخاف في الله لومة لائم»، ويبايع المريد على مآل هذين الحديثين ثم يقرأ: ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً إن الله يعلم ما تفعلون﴾ [النحل: ٩١] ثم يقول الشيخ والمريد معهُ: استغفر الله العظيم الذي لا إلـه إلا هو الحي القيوم وأتوب إليهِ ونسألهُ التوبة والمغفرة والهداية لنا إنهُ هو التواب الرحيم ثلاث مرات، ثم يمسك بيده اليمنى في يد المريد ويلقنهُ العهد وهو: أشهد الله وملائكتهُ ورسلهُ وأنبيائهُ والحاضرين من خلقه أنني تائب إلى الله ورسولهِ من جميع الذنوب والخطايا راغبًا في امتثال أوامر الله ورسولهِ مجتنبًا لمحارمهِ مجتهدًا على طاعتهِ منيبًا إليهِ مواظبًا على خدمة الفقراء والمساكين على حسب الطاقة، وأن سيدنا وقدوتنا إلى الله تعالى القطب الغوث الداعي السيد أحمد الرفاعي شيخنا في الدنيا والآخرة، الطاعة تجمعنا والمعصية تفرقنا والله على ما نقول وكيل، ثم يقول الشيخ: العهد عهد الله واليد يد الله ورسولهِ ويد شيخنا وقدوتنا إلى الله شيخ المشايخ أحمد الرفاعي وهمتهُ ثم يقول: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ثم يجلس على ركبتيهِ ويغمض عينيهِ واضعًا يديهِ على ركبتيهِ ويلقنهُ قول: لا إلـه إلا الله ثلاث مرات وفي الرابعة محمد رسول الله ويقول المريد كذلك، ويقرآن والحاضرون الفاتحة ويهدونها إلى أهل القبور وإلى جميع المؤمنين، وبعدها يلزمهُ المرشد المداومة على الذكر كما تقدم بشروطهِ المعروفة اهـ.

وذكر أيضًا الشيخ ناصر البغدادي في كتابهِ معراج السالكين ما نصهُ قال: سألت سيدي القطب العارف بالله السيد حسين برهان الدين رضي الله عنهُ عن أكمل الذكر. فقال: ما حصل من لسان صادق وقلب واثق ولبٍّ عاشق وحضور مع المذكور وغيبة عن الأغيار وفهم صحيح واعتقاد راجح وعزم ما شابه الكسل وذوق ما خالطهُ الملل وروح حنت إلى داعي ألست بربكم في الأزل، ونفس ما خرجت عن طور الروح، وفكر عطرته نفحات الفتوح، وحال عن باب الحبيب ما حال، وقال غير اسم المحبوب ما قال، ووجد أنتجه إيمان وسكون صححه عرفان وأدب كامل وعلم الآداب الشريعة شامل، ولا يكون الذاكر ذاكرًا حتى يعلم ويعتقد ما قررتهُ العلماء من أن الله واحد لا شريك لهُ فرد لا مثال لهُ صمد لا ضد لهُ متفرد لا نِدَّ لهُ قديم أزلي مستمر الوجود أبدي قيوم وأنهُ الحي المقيت المحيي المميت الأول الآخر الظاهر الباطن لا يماثل موجودًا ولا يماثلهُ موجود، وليس كمثلهِ شيءٌ ولا هو مثل شيء، لا يحده المقدار ولا تحويهِ الأقطار ولا تحيط بهِ الجهات ولا تكتنفهُ السمٰوات، العرشُ وحملتهُ محمولون بلطف قدرتهِ ومقهورون في قبضتهِ، بائن بصفاتهِ عن خلقهِ ليس في ذاتهِ سواه ولا في سواه ذاته، مقدس عن التغيير والانتقال منزه عن الغيبة والزوال قادر جبار بارىء قهار لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يحيط بهِ شيءٌ، لا تدركه ٱلأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير لا حول ولا قوة إلا بالله سبحانهُ وتعالى عما يقولوا الظالمون علوًا كبيرًا، ولا تصح لهُ نفحة الوصلة في الذكر حتى يفتح الباب بالاستفاضة من جناب الباب الأعظم نبينا وسيدنا وهادينا أبي القاسم محمد ﷺ، ولا يصل إلى ذلك المدرك بحق إلا بواسطة شيخهِ، فإن الشيخ سلم المريد يصل بهِ إلى معالي الأمور، ويلزم على المريد بعد الاستفاضة من الباب المحمدي أن يقطع العلاقة القلبية عن الخلق بالكلية ولا يشرك بعبادة ربهِ أحدًا. ثم سكت قدس سره، وسألتهُ حقَّه الله بألطافهِ عن أول علامات الفتوح فقال: وقوع ذكر الموت في القلب لأنهُ يقطع الأمل ويزهد في الدنيا والزهد أول قدم القاصدين إلى الله لأن القلب متى تعلق بالخلق انفصل عن الخالق ومتى انفصل عن الخلق وصل إلى الخالق، ولا قاطع للقلب عن الخلق أعظم من وقوع ذكر الموت، ومتى حصل ذلك تنشطت الهمة وصحت العزيمة في طلب الحق، وإذا لم يحصل ذلك كسلت الهمة وتأخرت العزيمة عن طلب الحق وأسرع جواد العزم في طلب الأغيار، لأن الغفلة والانتباه ضدان ولهما رفيقان رفيق الغفلة طلب الخلق ورفيق الانتباه طلب الحق، قال الشيخ ناصر البغدادي في كتابهِ المذكور: وسألتهُ أيضًا لا زال قدوة وإمامًا عن سر تلقين الأسماء الحسنى للمريدين، فقال: أما الذكر والدعاء بأسماء الله تعالى فقد صح فيه التلقين القرآني على لسان الرسول عليهِ الصلاة

والسلام بقولهِ تعالى: ﴿اذكروني﴾ [البقرة: ١٥٢] وغيرها من الآيات الآمرة بالذكر وبقولهِ تعالى: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ [الأعراف: ١٨٠] وغيرها من الآية المشيرة إلى طلب الدعاء، إلا أن الحال المحمدي أفيض إلى قلوب اختصها الله باقترابهِ واقتراب نبيهِ فانطبع في ألواحها الذوق المحمدي الذي كان يصدر من قلبه الشريف عليهِ السلام حالة الذكر والدعاء فأفرغوا على محبيهم حالة التلقين شمة الشوق وحالة الذوق، ولذلك نرى أن السالك إذا تلقى عن شيخهِ كلمة التوحيد، وذكر الله بها يرى لها حالاً في الحال غير الحال الأول الذي كان يجده حالة قوله لا إلـه إلا الله قبل التلقي، وما ذلك إلا سر الحال المحمدي المفاض من صدره عليهِ الصلاة والسلام المتدلي بحسب التلقي إلى صدر المرشد وعلى حسب حالهِ واستعداد السالك وهذا سر عظيم قل إدراكه في هذا الزمان. وسكت قدس سره.

وسألتهُ أيدنا الله بنفحة إرشاده عن قول الطائفة النقشبندية إن طريقتهم أقرب الطرق إلى الله لأن ذكرها خفي يذكره المريد بالقلب من دون لفظ فقال: قرب الطريقة وبعدها عن الله تعالى لا يتعين لأن هذا يوهم مكانًا ومسافةً وهذا خطأ كبير وأمر خطير والعياذ بالله تعالى، وأما قول طائفة من الصوفية طريقة فلان قريبة من الله إنما هي عبارة عن جذب الغافل من حالة غفلتهِ عن ربهِ إلى الانتباه إلى أمر الله وكأنهم يقولون: إن طريقة فلان فيها هذا الانتباه أكثر من غيرها، وعلى هذا ظن الطائفة النقشبندية من اشتغالهم بالذكر القلبي أنهم انفردوا بهذا الشأن دون غيرهم من رجال الطرق العلية، وهذا غلط بين فإن الطرق الباقية وبالخاصة طريقتنا الرفاعية لها حضرة وسلوك، فأما الحضرة فهي الجمعية التي يراها الناس جهرًا يذكرون الله بها قيامًا وقعودًا وجهرًا وهمسًا ويتنبهون وينبهون ويذكرون فترى سر حضرتهم يسري في عامة الناس وخاصّتهم ويسمعون في حضرتهم أحسن القول فيتبعونهُ، وتشتغل قلوبهم وقوالبهم بخدمة الله فأجسامهم متحركة لله وألسنتهم ناطقة بالله، وقلوبهم ذاهبة إلى الله دالة على الله وفيوضاتهم واردة من الله، وهذا الشأن من أصول السنة المحمدية فرع عظيم ومن طرق الشريعة الأحمدية طريق مستقيم، وأما السلوك فهو ما يأخذ بهِ المرشد زمام المريد ويسلك بهِ الطريق إلى المبدىء المعيد وفيهِ الذكر الخفي وهو وقت العبد مع الله وسلم وصلته إلى باب الله وسريرته التي لا يطلع عليها الملائكة الكروبيون ولا الروحانيون، وحالتهُ التي يدق مدركها عن ملاحظات العيون وحضرتهُ المجللة ببرقع الأدب والحياء من رب الأرض والسماء، وساحته المطهرة من شوائب الغرض والرياء، وفيها تعلو درجاته وتعظم بركاته وما هذا الأمر بالحال المخصوص بطريقة من الطرائق أو بعلاقة من العلائق، إنما هو فضل الله يختص بهِ من يشاء وإحسان الله يودعه أين شاء، ومن

ظن غير هذا فقد ارتكب جهلاً، اللهمّ لا سهل إلا ما جعلتهُ سهلاً انتهى. وإن أمر الطريقة العلية الرفاعية لما قام على الكتاب والسنة كان سلوك هذه الطريقة بعد الأعمال المفروضات التقرب إلى الله بالنوافل الكثيرة، وقد جعلوا أول ذلك كثرة الصلاة على النبي ﷺ ليتنور العبد بمحبة النبي عليه الصلاة والسلام، ولتلزمه محبة النبي ﷺ حسن الاتباع لقولهِ عليه الصلاة والسلام: «ما نهيتكم عنهُ فاجتنبوه وما أمرتكم بهِ فافعلوا منهُ ما استطعتم»[١] الحديث، وأتبعوا الصلاة على النبي ﷺ بكثرة الدعاء والحمد والشكر والاستغفار والذكر والوقوف عند حدود الله آخذين بحديث أبي ذر رضي الله عنهُ عن النبي ﷺ فيما يروي عن الله عزّ وجلّ أنهُ قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلتهُ بينكم محرمًا فلا تظالموا، ياعبادي كلكم ضال إلا من هديتهُ فاستهدوني أهدكم، يا عبادي كلكم جائع إلا مَن أطعمتهُ فاستطعموني أطعكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لم تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألتهُ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المحيط إذا دخل البحر، يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن عمل خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسهُ»[٢]. وقال بعض العارفين: سلوك القوم اجتمعت فيهِ أحكام العبودية وشيدت فيها أركانها قولاً وفعلاً ونية فهم أهل الجمع الخالص بين النية والقول والفعل، وهذا هو مذهب السادة الرفاعية في سلوك طريقهم وتسليكه لمريديهم، فإن قال قائل: إن من أوراد السلوك وأحزابهِ ما هو لجماعة من المشايخ ولم يكن بالمأثور إنما هو مما جرى بهِ الإلهام، فالجواب: إن ذلك استنبط من صريح السنة والأحاديث النبوية بتقريره عليهِ الصلاة والسلام كما ذكر ذلك غير واحد من الفضلاء والأذكار والأدعية سمعها عليهِ الصلاة والسلام من كثير من أصحابهِ بألفاظٍ متباينة ومعانٍ واضحة في أوقات مختلفة، وأثنى عليها وعليهم مع أنهُ لم يتقدم لهم تعليم ولا تعلم منهُ عليهِ الصلاة والسلام في

---

(١) أخرجه في كنز العمال الجزء (٣) حديث رقم: ٧٩٤٧.

(٢) أخرجه في كنز العمال الجزء (١٥) حديث رقم: ٤٣٥٩٠.

ألفاظها وإن كان هو المعرف لمعانيها والمشيد لمبانيها، فمن ذلك حديث معاذ بن جبل رضي الله عنهُ أنهُ ﷺ سمع رجلاً يقول: يا ذا الجلال والإكرام فقال: استُجيب لك فسل تُعْطَه» أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وفي حديث أنس أن النبي ﷺ مرّ بأبي عياش الزرقي وهو يصلي ويقول: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إلـٰه إلا أنت يا حنان يا منان يا بديع السمـٰوات والأرض، يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام فقال: «لقد دعا الله باسمهِ الأعظم الذي إذا دُعي بهِ أجاب وإذا سئل بهِ أعطى» أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحهِ. وقد وقع من ذلك في الأذكار والأدعية ما يفيد الجواز المحض بوجه لا يمكن دفعهُ وكيف وقد أقر عليه الشارع العظيم ﷺ وهذا الأصل وكفى، ولا يخفى أن السلف الصالح قوم يصح بهم الاقتداء لكونهم أنابوا حق الإنابة إلى الله والله تعالى قال: ﴿واتبع سبيل من أناب﴾ [لقمان: ١٥] كيف وقد صحت أعمالهم بالسنة والتقوى وتكلموا عن هدى لا عن هوى وتركوا الدعوى ظاهرًا وباطنًا وأحكموا أمرهم بالبصيرة النافذة والعمل الصحيح فهم ممن يقتدى بهم ويهتدى بهديهم، وعلى الخصوص صاحب هذه الطريقة الرفاعية مولانا وسيدنا ووسيلتنا إلى الله الشيخ السيد أحمد الرفاعي الحسيني رضي الله عنهُ، فقد كان من أعظم القوم مكانة في وقتهِ وأكبرهم منزلة، ووقع إجماع أهل عصره على قبول طريقتهِ في حياتهِ وبعده أيضًا، لرسوخ قدمهِ وتمكنهِ في دينهِ وكمال عقلهِ وحسن خلقهِ وصحة عملهِ وسداد طريقتهِ وحفظ لسانهِ مما لا يشكل تأويلهُ، كما وقع لغيره من قادة المشايخ قدست أسرارهم ولكونهِ أمر بالتمسك في كل الأحوال بالسنة المحمدية، وكذلك اتباعه فإن سلوكهم صدق التوكل على الله والعمل بشريعة رسول الله والانقطاع عن كل باب غير الباب المحمدي، علمًا بأنهُ عليهِ الصلاة والسلام باب الله فلا تصح الوصلة إلى الله إلا بواسطتهِ واتباعهِ وصدق محبتهِ والفناء فيهِ عن غيره بدليل قوله عليهِ الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنهُ فيما أخرجهُ البخاري من حديث عبد الله بن هشام حين قال لهُ عمر: أنت أحب إليَّ يا رسول الله من كل شيءٍ إلا نفسي التي بين جنبي. فقال لهُ عليهِ الصلاة والسلام: «لا تكون مؤمنًا حتى أكون أحب إليك من نفسك»، فقال عمر: والذي أنزل عليك الكتاب لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي التي بين جنبي، فقال: «الآن يا عمر قد تم إيمانك»، وقيل لرسول الله ﷺ: متى أكون مؤمنًا صادقًا؟ قال: «إذا أحببت الله»، فقيل: ومتى أحب الله؟ فقال: «إذا أحببت رسولهُ»، فقال: ومتى أحب رسولهُ؟ قال: «إذا اتبعت طريقتهُ واستعملت سنتهُ وأحببت بحبهِ وأبغضت ببغضهِ وواليت بولايتهِ وعاديت بعداوتهِ» الحديثَ وقال ﷺ:

«لا يؤمن أحدهم حتى أكون أحب إليهِ من نفسهِ ومالهِ وولده ووالده والناس أجمعين»[١].

وقد وفقني الله أن ذكرت نبذة صالحة في كتابي ضوء الشمس في معنى قوله ﷺ: «بني الإسلام على خمس»[٢] تشير إلى حسن اتباعهِ وصدق محبتهِ عليهِ الصلاة والسلام، لأن ذلك هو الطريق إلى الله عند من عرف الله بلا ريب، وهذه النبذة المذكورة بحروفها ومن خصائصه ﷺ أن الله تعالى خاطبه باسم الرسول واسم النبي في القرآن دون سائر أنبيائهِ عليهم الصلاة والسلام، وإذا أطلق النبي أو الرسول في القرآن أو السنة، فالمراد نبينا ورسولنا ﷺ وهو الرسول المطلق لكافة الخلق من الأولين والآخرين، فرسالتهُ عامة ودعوتهُ تامة ومزاياه كاملة ورحمتهُ شاملة ونعمهُ متواصلة وكل مَن تقدم من الأنبياء الكرام والرسل العظام عليهم الصلاة والسلام فهم نواب عنهُ ﷺ، وهو أولهم خلقًا وآخرهم بعثًا، فإنهُ ﷺ خلقت أنواره قبل خلق آدم فهو سابق عليهِ في الوجود لأن آدم كان في عالم الغيب وهو ﷺ في عالم الشهود، ولذلك أشار بعضهم بقولهُ على لسان حال سيدنا محمد ﷺ:

وإنـي وإن كـنـت ابـن آدم صـورة — فـلـي فيهِ معـنـى شـاهـد بـأبـوتـي

ولي من قصيدة فيهِ ﷺ:

لك الفخار انجلى قدمًا وآدم في — مهد التكون شكلاً كان فخارًا

وقبل نشأتهِ الأولى وصيغتهِ — نورت في الملأ القدسي أبصارًا

وكيف لا وهو ﷺ الواسطة العظمى لإيجاد هذه الأمم بعد سبق العدم، ولولاه لم يخلق الله آدم ولا غيره فهو الواسطة لإيجادنا بل ولوصول كل نعمة إلينا ولمزيد فضل الله علينا، لأنهُ باب الله الأعظم وحبيبهُ الأمجد الأكرم ولله در القائل:

وأنـت بـاب الله أي امـرءٍ — أتـاه مـن غـيـرك لا يـدخـل

وجميع العلماء والأولياء والصلحاء والأتقياء والأقطاب والأفراد والأنجاب والأوتاد والأئمة أهل الرشاد الذين فاضت بركاتهم على العباد وملأ ذكرهم البلاد ملتمسون من رسول الله ومستمدون من إمداداتهِ ومستفيضون من فيوضاتهِ ومشمولون بإحساناتهِ ومنعمون بإنعاماتهِ، أيادٍ لهم شاملة وألطافهُ لديهم متواصلة ولله درّ البوصيري حيث قال:

وكـلـهـم مـن سـول الله مـلـتـمـس — غرفًا من البحر أو رشفًا من الديم

(١) أخرجه في كنز العمال الجزء (١) حديث رقم ٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (١/ ٩)، كتاب الإيمان، حديث رقم ٨، والترمذي في سننه الجزء (٥ حديث رقم: ٢٦٠٩، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٠٤)، حديث رقم: ٥٦٧٦.

فينبغي لكل من منّ الله عليهِ بالإسلام أن يكون في جميع حالاتهِ متابعًا لهُ عليهِ الصلاة والسلام قولاً وفعلاً وتقريرًا، ويعضُ على سنتهِ وسنة الخلفاءِ الراشدين من بعده بالنواجذ قال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١] وقال تعالى: ﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليمًا﴾ [النساء: ٦٥] أي ينقادوا انقيادًا وقال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾ [الأحزاب: ٢١] والأسوة القدوة وهل يجهل ذو لب وبصيرة أن شريعتهُ الطاهرة وكلمتهُ القاهرة شريعة العدل الأكمل وكلمة الحق الذي لا يتحول والفارقة بين الحق والباطل والكافلة لحفظ حق الضعاف من تسلط الأقوياء، ونعم الكامل والدالُ على خيري الدنيا والدين والممدودة الظلال لحماية العجزة والمساكين، وما أحسن ما قلت بهِ بفضل الله تعالى:

كفي الضعيف عن الأحزاب ثم حمى ... حمى الفقير الذي أعناه ظالمهُ
وأيد العدل حتى قال قائل من ... في الأرض هذا رسول العدل حاكمهُ
فكل مفتقر تلقاه كافلهُ ... وكل باغٍ عنيد فهو قاصمهُ

فيجب على كل منصف وصاحب طبع سليم تجردت نفسهُ من الأغراض السقَيمة واندرجت طبيعتهُ في سلك الطباع السليمة أن يقتدي بهِ عليهِ السلام، وأن ينصب نفسهُ لتأييد أحكام شريعتهِ التي هي مهد الأمن للأنام وهذا الشأن من أهم المهمات لمن آمن بهِ ﷺ واتبعهُ وأحبهُ، ولا شك أن مَن أحبَّ الرسول ﷺ كان لقولهِ سميعًا ولأمره مطيعًا، فدعوى محبتهِ مع كثرة مخالفتهِ من دعاوي النفس المجردة عن البيان والعارية عن الحجة والبرهان ولله در القائل:

تعصي الإله وأنت تظهر حبهُ ... هذا لعمري في القياس بديع
لو كان حبك صادقًا لأطعتهُ ... إن المحب لمن يحب مطيع

وفي الحديث الشريف: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة». زاد في رواية: «وكل ضلالة في النار» وفي حديث آخر: «مَن اقتدى بي فهو مني ومَن رغب عن سنتي فليس مني» وعن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنهُ قال: «إن أحسن الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها»[1] وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنهُ

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ٦٠) حديث رقم: ١٤٤٣٨.

قال: «المتمسك بسنتي عند فساد أمتي لهُ أجر مائة شهيد»[١]، وعن أنس قال: قال عليه الصلاة والسلام: «من أحيا سنتي فقد أحياني ومن أحياني كان معي»[٢] وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنهُ سنَّ رسولُ الله ﷺ وولاةُ الأمر بعده سننًا الأخذ بها تصديق لكتاب الله واستعمال لطاعة الله وقوة على دين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها ولا النظر في رأي مَن خالفها، مَن اقتدى بها فهو مهتدٍ ومَن انتصر بها فهو منصور، ومَن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا. وقالوا: الاعتصام بالسنة نجاة وعن عطاء في قولهِ تعالى: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾ [النساء: ٥٩] أي إلى كتاب الله وسُنَّة رسولهِ ﷺ، وقال سهل التستري: أصول مذهبنا ثلاثة: الاقتداء بالنبي ﷺ في الأخلاق والأفعال والأكل من الحلال وإخلاص النية في جميع الأعمال، وفي الحديث: «من رغب عن سنتي فليس مني»[٣]، وانظر يا أخي ما قالهُ السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ: لو بلغنا أن رسول الله ﷺ أمرنا بقص الأعناق لقصصناها اتباعًا وامتثالاً لأمره ﷺ وقال لولد بنتهُ القطب المقرب أبي إسحٰق السيد إبراهيم الأعزب الرفاعي قدس سره: ما أخذ جدك طريقًا لله إلا اتباع رسول الله ﷺ فإن من صحت صحبتهُ مع سر رسول الله ﷺ اتبع آدابهُ وأخلاقهُ وشريعتهُ وسننهُ، ومن سقط من هذه الوجوه فقد سلك سبيل الهالكين انتهى.

ويكفيك في النهي عن مخالفة السنة النبوية والطريقة المحمدية ما جاء من الآيات الفرقانية والنصوص القرآنية قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ [النور: ٦٣] وقال تعالى: ﴿ومَن يشاقق الرسول من بعد ما تبين لهُ الهدى نولّه ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا﴾ [النساء: ١١٥] ومعلوم أن الله تعالى ما أرسل هذا الرسول إلا ليطاع، وما بين ﷺ أحكام سنتهِ السنية إلا لأجل الاتباع، والخير كله لمن اهتدى فاقتدى واتبع، والشر كلهُ لمن زلّ فضل وابتدع ولذلك قال في الجوهرة:

وكـل خيـر فـي اتبـاع مَـن سـلـف　　　وكـل شـرّ فـي ابـتـداع مَـن خـلـف

والنبي ﷺ بلغ الرسالة وأدى الأمانة ولم يترك خيرًا إلا وحضنا عليهِ كثيرًا ولا شرًا إلا وحذرنا منهُ تحذيرًا، فمن أراد عز الدنيا والآخرة فشرعهُ ﷺ أعظم دليل ومن فارقهُ

(١) أخرجه في الترغيب والترهيب (١/ ٨٠) باب الاقتصاد في السنة أحسن من الاجتهاد في البدعة.
(٢) أخرجه في كنز العمال (٧/ ٥٠٤) حديث رقم: ١٩٩٨١.
(٣) أخرجه مسلم في الصحيح (٢/ ١٠٢٠) ١٦ـ كتاب النكاح، باب (١) حديث (٥/ ١٤٠١)، والنسائي (٦/ ٥٨)، باب النهي عن التبتل.

قيد شبر فقد ضلّ سواء السبيل، ومعلوم أن مَن أدمن على الاقتداء بهِ ﷺ ورغب في متابعتهِ فقد فاز بمحبتهِ، ومَن أحبهُ كان معهُ في الجنة ولنعم المعية، روى أنس رضي الله عنهُ أنهُ أتى رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ قال: «ما أعددت لها»؟ قال: ما أعددت لها من كبير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكني أحب الله ورسولهُ، فقال: «أنت مع مَن أحببت»[1]، وعن صفوان بن قدامة قال: هاجرت إلى النبي ﷺ فأتيتهُ فقلت: يا رسول الله ناولني يدك أبايعك، فناولني يده فقلت: يا رسول الله إني أحبك، فقال: «المرء مع مَن أحب»[2]. وعن أمير المؤمنين سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهُ أن النبي ﷺ أخذ بيد الحسن والحسين رضي الله عنهما فقال: «مَن أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة» وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنهُ أن رسول الله ﷺ قال: «من أشد أمتي لي حبًا ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهلهِ ومالهِ» وقد كان الصحابة ومن بعدهم من التابعين وأئمة المسلمين يحبون رسول الله ﷺ حبًا لا يقاومهُ شيء، فقد كان خالد بن معدان لا يأوي إلى فراشهِ إلا وهو يذكر من شوقهِ إلى رسول الله ﷺ وإلى أصحابهِ الأخيار وللمهاجرين والأنصار، ويسميهم بأسمائهم ويقول: هم أصلي وفصلي وإليهم يحن قلبي طال شوقي إليهم فعجل ربي قبضي إليك حتى يغلبهُ النوم، وسأل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهُ وكرّم الله وجههُ كيف كان حبكم لرسول الله ﷺ؟ قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ، ويحكى أن عليًا كرّم الله وجههُ وقف عند قبر رسول الله ﷺ وبكى جهده حتى كادت تزهق نفسهُ الكريمة وأنشد:

كنت السواد لناظري فبكى عليك الناظرُ
مَن شاءَ بعدك فليمت فعليك كنت أحاذرُ

وبكت السيدة فاطمة رضي الله تعالى عنها عند قبر أبيها صلوات الله وسلامهُ عليهِ وعليها بكاءً شديدًا وأنشدت:

ماذا على من شم تربة أحمدٍ أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صُبّت عليّ مصائب لو أنها صبت على الأيام صرنَ لياليا

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه عن أنس (١/ ٢٥٥) حديث رقم: ٧٨، وأخرجه في كنز العمال عن أنس (٩/ ١١) كتاب الصحبة، حديث رقم: ٢٤٦٨٨.

(٢) أخرجه في كنز العمال (١٥/ ٩٠٤) حديث رقم: ٤٣٥٦٢.

وقد كانت رضي الله عنها دائمة البكاء بعد وفاتهِ عليهِ الصلاة والسلام متواصلة الأحزان حتى لحقت بهِ ﷺ بعد وفاتهِ بستة أشهر، وعلى ذلك كان الأصحاب العظام عليهم رضوان الملك العلام فإنهم رضي الله عنهم لا يفترون عن ذكره عليهِ الصلاة والسلام ولا عن القيام بواجب محبتهِ والعملِ بسنتهِ، حتى أن أحدهم يود فراق الدنيا للحوق بهِ عليهِ الصلاة والسلام رجاء بأن تُلْحِقه محبتهُ بجواره، وأن يتملى بمشاهدة لامع أنواره على أن المرء مع مَن أحب معيةً تلحق المحب بالتشرف بنظر المحبوب، فما أكثرهم رضي الله تعالى عنهم حبًا لرسول الله ﷺ وما أحسن ما قلت في هذا المعنى بفضل الله عزَّ وعلا:

عشقتهُ أرواح المحبين الأولى ... فـفـدوه لـلإخـلاص بـالأرواحِ
وتحققوا أن الممات بحبهِ ... وصـل يـصـح بـفـرقـة الأشـبـاحِ

ومما ورد أن بلالاً رضي الله تعالى عنهُ لما احتضر صاحب امرأتهُ: واحزناه، فقال: «واطرباه غدًا ألقى الأحبة محمدًا وحزبهُ»، ويروى أن امرأة قالت لعائشة رضي الله تعالى عنها: اكشفي لي قبر رسول الله ﷺ فكشفتهُ لها فبكت حتى ماتت، قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمدٍ محمدًا، ومن أعظم علامات حبه ﷺ أن يؤثره الإنسان على كل شيء وأن يتبع سيرتهُ النبوية وطريقتهُ المحمدية وشريعتهُ الأحمدية وأخلاقهُ المصطفوية، ويوافقهُ في مأكله ومشربه وقعوده وقيامهِ ونومهِ وكلامهِ وخوفهِ وخشيتهِ وتواضعهِ وبكائهِ وعبادتهِ وسائر أخلاقهِ وصفاتهِ، حسب الطاقة وقدر الاستطاعة، ومن علامات محبتهِ ﷺ كثرةُ ذكره بأسمائهِ الشريفة وأوصافهِ المنيفة فإن مَن أحب شيئًا أكثر من ذكره انتهى.

ألا ترى قول سيدنا السيد حسين برهان الدين الصيادي الرفاعي قدس سره حين سُئل عن شيخهِ في طريقتهم العلية فقال: شيخي أخي السيد نور الدين ابن أبي السيد عبد العلام من آل خزام آل السيد أحمد الصياد سبط علم الأتقياء وعين الأولياء السيد أحمد الكبير الرفاعي الحسيني رضي الله عنهُ، وابن ابن أختهِ وابن عمهِ قُدِّست أسرارهم مشيخة يدٍ وعهدٍ، وشيخي صاحب هذه الطريقة مشيخةُ مقامٍ وقلب، وشيخي رسول الله ﷺ مشيخة هدىً وأدب، يا ولدي لا يصح للفقير طريق القوم إلا على هذا المنوال وإن لم يربط اليد بيد شيخ ويعاهده على الصفا والوفا فليس بذي يدٍ ولا عهدٍ، ومَن لم يحصل على مقام صاحب طريقته بخلق وعلى قلبه بفيض فليس بذي مقامٍ ولا قلبٍ، ومَن لم ينتفع بهدى رسول الله ﷺ وأدب شريعته فليس بذي هدىً ولا أدبٍ، وكيف يكون الفقير فقيرًا بلا يد ولا عهدٍ ولا مقامٍ ولا قلبٍ ولا هدى ولا أدب قال تعالى: ﴿إن الذين

يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ [الفتح: ١٠] وقال: ﴿إن العهد كان عنهُ مسؤولا﴾ [الإسراء: ٣٤] وقال تعالى: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾ [البقرة: ١٢٥] وقال تعالى: ﴿إن في ذلك لذكرى لمن كان لهُ قلب﴾ [قٓ: ٣٧] وقال تعالى: «إن الله يحب المهتدين»[1] وقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ [آل عمران: ٣١] وهذا الأدب لا سواه فألزمت آية اليد الخشية، وألزمت آية العهد الوقوف عند الحد، وألزمت آية المقام الوقوف مقام الشيخ السابق، والطلب من حيث طلب، وألزمت آية الهداية سلوك ما يوجب لك الحب وعرفتك آية الاتباع أن أدبك بصحة اتباع نبيك هو ما يوجب لك الحب ويقربك من الرب وهو غاية الطريق ونهايتهُ، وعلى ذلك بايعت الله والحمد لله وتلا هذين البيتين وسكت قدس سره:

يد وعهد ومكث في المقام مع الـ ـقلب السليم ونيل الهدى بالأدبِ
طريقة القوم من بدء الطريق إلى أقصى النهاية فالزم واضح السبب

هذا مما جاد بِهِ الزمان من جمع مآثر سلوك هذه الطريقة العلية والمحجة الصحيحة الأحمدية وإني أحب أن أختم هذا الباب بذكر شيء من مراسم هذه الطريقة ومواسمها وعاداتها وحالاتها، مع بيان سر كل عادة متبوعة وقاعدة موضوعة، فلا يخفى عليك أن مشرب السادة الرفاعية رضي الله عنهم البشر والتواضع والذل والانكسار ونقل الأغيار والوقوف مع الحق في الحركة والقرار والتسليم لله بصدق الافتقار، ومن مراسمهم الخلوة الأسبوعية ولبس العمامة السوداء والقعود على السجادة والاجتماع في حلقة بصدق عزيمة ووجد على ذكر الله، ومن مواسمهم دق الدف في ليلة الجمعة وأيام الأعياد وحمل الرايات، وأما خوارقهم التي تصدر منهم فقد سبق لك منها ما يلزم ذكره وينتشق عطره، وأما الخلوة الأسبوعية فهي عبارة عن اعتكاف يشتمل على صيام وقيام وتريض في الطعام، واشتغال بذكر الله الملك العلام، وعزلة عن الخلق بصدق الالتجا إلى الحق، وكل ذلك مسنون ومن النوافل التي تقرب إلى الله. وأما لبس العمامة السوداء فهي سنة ثابتة، ذكر الإمام الترمذي في الشمائل المحمدية راويًا عن محمود بن غيلان عن وكيع عن حماد بن سلمة عن أبي الزبير عن جابر قال: دخل النبي ﷺ مكة يوم الفتح وعليهِ عمامة سوداء.

قال الشيخ إبراهيم الباجوري رحمهُ الله في كتابهِ المواهب اللدنية على الشمائل المحمدية وحكمة إيثاره السواد على البياض الممدوح الإشارة إلى ما منحهُ الله ذلك اليوم

(١) ليست بآية كما يتبادر إلى الذهن.

من السؤدد الذي لم يتفق لأحد من الأنبياء قبله، وإلى سؤدد الإسلام وأهلهِ، وإلى أن الدين المحمدي لا يتبدل لأن السواد أبعد تبدلاً من غيره، وصح عن جعفر بن عمر بن حريث عن أبيهِ أن النبي ﷺ خطب الناس وعليهِ عمامة سوداء. وفي هذا كتب السنة طافحة، فلا يحتاج إلى التطويل. وأما القعود على السجادة والاتكاء على الوسادة فقد ثبت كلاهما عن النبي العظيم وعليهِ مضى أصحابهُ رضوان الله عليهم، كما صحَّحَ الحافظ السيوطي وغيره. وأما الدق بالدف أيام الأعياد وليالي الجمع فإن حكمتهُ الشرعية معلومة والإباحة بدق الدف بأيام الأعياد ولإعلان النكاح مقررة شرعًا، وقد صح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دخل عليّ رسول الله ﷺ وعندي جاريتان تلعبان بالدف، ودخل أبو بكر رضي الله عنهُ فنهرهما فأقبل عليهِ رسول الله ﷺ فقال: دعهما الحديث، وقال في خزانة المفتيين لا بأس بضرب الدف يوم العيد، وقد تقدم ذكر الإباحة لإعلان النكاح، وإن الطائفة الرفاعية رضي الله عنهم علموا أن الجمعة عيد المؤمن وأن إعلان وقت الذكر شأن يسوق الناس إلى ذكر الله فجمعوا بذلك بين هذين الأمرين المستحسنين والمقصدين المرغوبين، وأما الرايات فإنها رفعت في عسكر رسول الله ﷺ. وقد ثبت أنهُ عليهِ الصلاة والسلام كان لواؤه أبيضًا ورايتهُ سوداء، وفيها مضمرات معنوية بعد الإباحة والاستناد إلى السنة تشير إلى الوقوف تحت لواء كلمة الحق، ومع عسكر الفقر أين كانت وكانوا، وما بقي عندنا إلا ما اصطلح عليهِ الصوفية من إلباس الخرقة وكتابة سلاسلهم لإخوانهم ومحبيهم، وفي هذين الأمرين أرى أن أحسن ما قيل قول جدنا الخامس السيد حسين برهان الدين قدس سره حين سألهُ تلميذه العلاّمة الشيخ ناصر البغدادي عن معنى لبس الخرقة فأجابهُ قائلاً: حقيقتهُ التزيي بزيّ المرشد في الأفعال والأحوال، وقد وصفوا هذا الأمر بوصف الكسوة وعظموا شأنهُ وجعلوه كالمحسوس، واتبعوه بالمحسوس أيضًا ليتعين عند من سلك طريق القوم أن الشرط عندهم أن يتزيًا صاحبهم بزيهم، فمتى تزيًا بزيِّهم ترتب عليهِ العمل بأعمالهم، والتخلق بأخلاقهم والوقوف معهم في أحوالهِ، ألا ترى الرجل الجندي متى لبس كسوة الجند تعين عليهِ خوض المعامع والمعارك واختراق الصفوف والوقوف أمام السهام وإذا رآه أحد عرف بالبداهة أنهُ ممن ترتبت عليهِ هذه الأفعال بدليل كسوتهِ لا غير، وإذا لبس لباس العامة لم ينظر من راء بذلك النظر ولا تمر على خاطر مَن يره هذه الأفعال وتنسلخ عنهُ واجباتها بمجرد تجرده من كسوة الجند، وكذلك متى لبس الخرقة، ولذلك قال سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ لفقير رأى عليهِ جبة صوف: يا ولدي انظر بزي من تزييت وبخلعة مَن تلبَّست، لبست لباس الأنبياء والمرسلين وتزييت بزي الأولياء والصالحين، فاحفظ حق زيهم بالتخلق بأخلاقهم والعمل بأعمالهم وإلا فاخلعهُ عنك، وإن للقوم خوافي حكم قلبية في إلباس

الخرقة يطوونها حالة الإلباس للمريد، فيصلح الله تعالى شأنهُ كما طوى رسول الله ﷺ الأمن والإيمان في بردتهِ الشريفة التي ألبسها كعب الصحابي صاحب بانت سعاد، وهناك وراثة محمدية أخذها أهل القلوب عن الرسول المحبوب ﷺ.

قال الشيخ ناصر البغدادي: وسألتهُ رضي الله عنهُ أيضًا عن ما اصطلح عليهِ القوم من كتابة سلاسلهم لإخوانهم ومحبيهم وعن أسبابهِ، فقال: كما أن حفظ أسماء آبائك في النسب من المروءة فكذلك حفظ أسماء آبائك في القلب من المعرفة والصدق، وما اصطلح عليهِ القوم لا ليدرك المريد صحّة وصل يده ببيعة رسولهِ عليه الصلاة والسلام وصحة ربط قلبهِ بحضرتهِ وصلاً وربطًا انقطعت دونهما حبال الشك والريبة وتوهم الكيفية الباطلة، لأن المريد يقول: وصلت يدي بيد فلان وفلان، وصل يده بيد فلان إلى اليد الكريمة العظيمة التي قال فيها الله تعالى: ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾ [الفتح: ١٠] ويقول المريد أيضًا: ربطت قلبي بقلب فلان وفلان بقلب فلان إلى القلب الذي أنزل فيهِ رافع السماء باسط الثرى: ﴿ما كذب الفؤاد ما رأى أفتمارونهُ على ما يرى﴾ [النجم: ١١، ١٢] وهذا أصح للقلب وأقرب لطمأنينتهِ وأتم لحاله من القول بوصلة مجهولة التسلسل وربط مجهول التوصل، ألا ترى أن المحدثين يهتم أحدهم لصحة سند الحديث وصدق رواتهِ بأسمائهم لتحصل لهُ الطمأنينة فيما نقل لهُ عن لسان نبيهِ أنهُ كلامهُ عليهِ الصلاة والسلام، وإن كان الحديث المنقول موافقًا لكتاب الله وسنة رسولهِ ﷺ وما هو إلا لنيل بركة النفس المطوي في الحديث المروي، وفي هذا حال من أحوال المعرفة وسر من أسرار الصِّدق لا يخفى على صاحب بصيرة وأنشد قدس سره:

ربطوا القلوب بحبهِ فتنورت	وتطهرت من لوث داهية العما
وتسلسلت أيدي الرجال بوصلةٍ	ليدٍ بصاحبها تشرفت السما
فلسر ما كذب الفؤاد دافق ترى	سرًا بقلبك كم إلى العليا سما
وترى بطرز يد اتصالك منتهى	إن الذين يبايعونك إنما

وسكت قدّس سرّه. قال الشيخ ناصر البغدادي: وسألتهُ أيضًا رضي الله عنهُ لا برح دليلاً هاديًا عن أدب طريقتهم فقال: الأدب الصحيح في كل طريقة أدب الشرع فإن من تأدب بأدب الشرع فهو ممن سلك الطريق، ويرجى لهُ الوصول ومن لم يتأدب بأدب الشرع، فقد ضل الطريق وركب طرق الوعر والجبال وتمزق حالهُ ولن يصل إلى مقصوده أبدًا. وإن ما اختاره مشايخنا في طريقتنا من آداب الشرع للسالك أولاً الصحبة لتنقلب طباعه بمغناطيس الصحبة من الغفلة إلى اليقظة ومن البخل إلى السخاء ومن الحرص إلى

الزهد ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق ومن كل حال دني إلى كل حال زكي، فمتى أسست الصحبة أركان محبته الخالصة لشيخهِ وانقلع من طبعهِ ألفة القواطع وصهرت نفسهُ، يأمره الشيخ بالصلاة على النبي ﷺ بعدد كثير حتى يستغرق كليتهُ حب رسول الله ﷺ بحيث إذا تقهقه في ضحكهِ وهو في البر الأقفر وحده يستحي من صاحب الشريعة عليهِ أفضل الصلاة والسلام، ثم يلحق لهُ بعد الصلوات على النبي ﷺ الاستغفار بعدد معلوم وبعد الاستغفار ذكر الله تعالى بشرط التجرد حالة ذكر الله من المخلوقين عظيمهم وحقيرهم كبيرهم وصغيرهم وفي أثناء السير يعالجهُ طبيب روحه شيخهُ بالرياضة إذا مست الحاجة إليها وبالسياحة وبالتجرد وبالخلوة وبالسهر وبالتهجد وببذل ما في اليد وبالخدمة الشاقة على النفس، ومع ذلك يجعلهُ مؤسس البنيان ممهد الأركان على المراتب الثلاثة المندرجة فيما قررناه وهنَّ حب الشيخ بالانقطاع عن غيره لتصح الصحبة وتكمل طهارة النفس وتنقلع ألفة القواطع من طبع المريد واستغراق القلب واللسان بمحبة النبي ﷺ، ليصح لهُ الاقتداء بهِ عليه السلام والتمسك الصحيح بشريعتهِ وأحكام سنتهِ، والتجرد عن الخلق بصحة الإخلاص في عبادة الحق وعدم رؤيا الأغيار بالكلية. وهذه المزية أدب من أدب الرسول وشرط عظيم في الطلب، فإذا تمهدت هذه الأركان الثلاثة للمريد فقد أدرك المقصود بإذن الله، وقد شرط أهل هذه الطريقة الاستفاضة القلبية من قلب الشيخ علمًا بأن هذا الفيض متدلٍ من قلب صاحب الطريقة، وإليهِ من قلب روح العوالم ﷺ وأدبها الجلوس على السجادة واستقبال القبلة والتفرغ من العلائق الخاطرية وأخذ الشيخ على الباب وربط القلب بقلبهِ والوقوف هناك، ما دامت الروح مطيبة والنفس مطمئنة والخواطر مندفعة، فإذا ضاق حال الروح وشبت النفس ولعبت الخواطر يفتح المريد عينيه ويستغفر الله ويختم مجلس الاستفاضة بالفاتحة، ويباشر بعدها الصلاة على النبي ﷺ وبعدها الاستغفار، ثم الذكر كما تقرر أولاً. ومن رجال هذه الطريقة من شَرَط الاستفاضة بعد الورد المذكور قائلاً إن حلاوة الاستفاضة إذا بقي أثرها في القلب يدخل من ذلك الأثر شيءٌ حالة الذكر حضيرة القلب، ومن أدب الإخلاص أن لا يوجد للغير أثر، وقال: من شرط الاستفاضة قبل الورد أن الاستفاضة باب يتوصل بهِ المريد من شيخهِ إلى صاحب طريقتهِ إلى نبيهِ، ومتى وصل إلى النبي فقد وصل إلى الله بنص ﴿إن الذين يبايعونك﴾ [الفتح: ١٠] الآية وبعد فتح الباب يباشر الورد متجردًا عن الغيرية وهذا الأليق بمقام السير، والذي أقولهُ إن هذا الشأن يدرك من حال المريد، فإن رأيناه استفاض قبل الورد وتتغلب عليهِ آثار الاستفاضة حالة الذكر تأمره بالاستفاضة بعد الورد، وإن لم تغلبهُ آثار الاستفاضة حالة الذكر نأمره بالاستفاضة قبل الورد، وهذا الصحيح وعليه أهل العرفان كافةً، ومن أحكام هذه الطريقة الخلوة الأسبوعية في كل عام وابتداء دخول الخلوة في

اليوم الثاني من عاشوراء يعني اليوم الحادي عشر من محرم الحرام إلى مساء اليوم الثامن عشر من محرم، وقد جعلوها شرطًا على كل مَن انتسب إلى هذه الطريقة العلية وطعامها خالٍ من كل ذي روح وذكرها في اليوم الأول لا إلـه إلا الله بعدد معلوم وفي اليوم الثاني الله وفي اليوم الثالث وهاب وفي اليوم الرابع حي وفي اليوم الخامس مجيد وفي اليوم السادس معطي وفي اليوم السابع قدوس، وشرطوا في الخلوة بعد كل صلاة تلاوة هذه الصلاة على النبي ﷺ مائة مرة وهي: اللهمَّ صل على سيدنا محمد النبي الأمي الطاهر الزكي وعلى آلهِ وصحبهِ وسلم، وذكروا لهذه الخلوة من الفتوحات المحمدية والعنايات الأحمدية ما لا يحصى، وكم شاهدوا لها من برهان عظيم وشأن كريم. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وسكت قدس سره.

قال الشيخ ناصر البغدادي: وسألتهُ أيضًا رضي الله عنهُ وعمنا بره عن أكمل أسباب الوصلة وعن السبب التي تقوم بها تلك الأسباب، فقال: أكمل أسباب الوصلة في الأول والآخر والباطن والظاهر وفي جميع المباطن والمظاهر محبة النبي ﷺ، والسبب المقوم لتلك الأسباب كثرة الصلاة والسلام عليهِ، ومن ظن غير هذه الطريقة طريقة وغير هذا الباب بابًا فهو مغرور ومطرود ممكورٌ به مبعود عن باب ربهِ، ﴿لا يؤمنون حتى يحكموك﴾ [النساء: ٦٥] الآية والتحكيم هذا فيما شجر بينهم من حالة نفسية أو روحية أو مالية أو غير ذلك. والشمول بديهي لأنك لو عبدت الله برأيك كفرت ولو عبدتهُ بما أمرك بهِ رسولك أثبتُّ وشكرت فاقطع علائق خاطرك عن التعلق بغير أذيالهِ واصرف وجهك وقلبك عن الاقتداء والتمسك بأحوالٍ أو أفعال غير أحوالهِ وأفعالهِ:

هو الوصلة العظمى إلى الله باطنًا وروح الهدى المرئي للعين ظاهرًا

انتهى. وقد شرط بعض السادة الرفاعية لنقل المريد من مرتبتهِ المريدية إلى مرتبة الشاوشية وهي مديرية الحلقة، ويعبرون عن صاحبها بخادم المجلس شروطًا وشرطوا أيضًا لنقل الشاوش إلى مرتبة النقابة التي يعبرون عن صاحبها مقدم الفقراء وخادم الرواق شروطًا، ولنقل النقيب إلى مرتبة الخلافة شروطًا وكلها شروط أدب طووا تحتها أسرارًا تدل على الحق وتجذب للصدق، فنقول: شروط نقل المريد لمرتبة الشاوشية هي أن يأمره المرشد بوضوءٍ جديد وبصلاة أربع ركعات كل ركعتين بتسليمة، ويقرأ شروط البيعة كما تقدم ذكرها، ثم بعد الإتمام يقول المرشد: قبلناك شاوِشُنا موظفًا لخدمة الزاوية والإخوان، ويعقد المرشد بوسطهِ عقدة بحزام أبيض ويقومون جميعًا ويقرؤون الفاتحة لمن تسلسل من الشوّاش المتقدمين والمتأخرين المتسلسلين بطريقة سيدي أحمد رضي الله

عنهُ ويحلّون العقدة، ويأمره المرشد بمصافحة الإخوان جميعًا وشروط نقل الشاوش لمرتبة النقابة هي أن يأمره المرشد بوضوء جديدة وصلاة ست ركعات ويبايعهُ بالبيعة المتقدم ذكرها، ثم بعد تمامها يقول المرشد للمريد: ولدي قبلناك نقيبًا ومقدمًا على الفقراء وخادمًا للزاوية ولمن دخلها من الغرباء، ويعقد الشيخ بوسطهِ أربع عقد بالفواتح ويحلونهم بالفواتح ويقومون جميعًا ويقرؤون فاتحةً لمن تسلسل من النقباء المتقدمين والمتأخرين والمتسلسلين بخدمة الطريقة العلية الرفاعية، وهذه شروط الخلافة في الطريقة المباركة وهي أن يأمر المرشد بإحضار الإخوان وصلحاء الخلفاء اللائقين للحضور بذلك المحضر، فإذا حضروا يتحلقون جميعًا بالخضوع والأدب ويأخذ النقيب الصينية ويخرج إلى خارج المجلس ويقرأ الفاتحة لأرباب الطرائق والحقائق، وكل طريقة ويضع الصينية قدامهُ وهو جالس على ركبتيهِ مستقبل القبلة بمكان طاهر، ويأتي بحوايج المشدود ويضعهم في الصينية وكل حاجة يقرأ عليها الفاتحة، فإذا فرغ من ذلك يقرأ عليها ثلاثة فواتح ويقوم من مكانهِ بفاتحة ويجيءُ إلى باب الجمع بثلاثة فواتح، وكل فاتحةٍ بخطوة ينقل بالشمال ويتبع باليمين ويقول بالخطوة الأولى: السلام على الجمع ومن فيهِ حاضر، وفي الخطوة الثانية يقول: السلام عليكم يا نجوم الزواهر، وفي الخطوة الثالثة يقول: السلام عليكم يا من نورتم السرائر، ويقف في باب الجمع ويقرأ الفاتحة ويقول: دستوركم يا معدن الجود والفخار وكنز الهيبة والوقار ومَن زادوا بالحلم والذوق والمعرفة على موج البحار، عبدكم على بابكم وخادم تراب أعتابكم، من افتخر على أقرانهِ وساد وشاع ذكره في سائر البلاد، ويسألكم أن تشملوه بنظركم الفالح وعملكم الصالح فيقول: شيخ صنعته أهلاً وسهلاً ويقرأ الشيخ أو وكيلهُ كلام السيد الكبير.

شعر:

ومن جاءنا يأمر حبًا بقدومهِ	يجد عندنا حبًا صحيحًا ثبوتهُ
ومن صدّ عنّا حسبه الصدّ والجفا	ومن فاتنا يكفيه أنّا نفوتهُ

فعند ذلك يأتي النقيب بصينية المشدود ويضعها في صدر المجلس ويقرأ الفاتحة عند وضعها ويضع فوق الصينية العرق الأخضر، ويمسك المتخلف بيده ويعود إلى باب الجمع ويدخلهُ على المجلس مكشوف الرأس حافي القدمين ويكون الدخول بثلاث سلامات فإذا وصل إلى حضور المرشد فيقول النقيب: السلام عليكم أجمعين أهل مجلس الطريق والصدق والتحقيق أخوكم فلان قاصد الباب الأحمدي، وجاء ليلتمس طريقة الفقراء ماذا تشهدون فيهِ؟ فيشهدون لهُ بحسن الحال فحينئذٍ يقرأون الفاتحة جميعًا ثم يأخذ النقيب السجادة من الصينية ويمدها بأصولها، ويقوم المرشد ويصلي ركعتين

ويسلم ويقرأ الفاتحة للنبي ﷺ وإلى حضرة جبرائيل عليهِ السلام ويطوي طرف السجادة الأول ثم يصلي ركعتين ويسلم ويقرأ الفاتحة ويهديها إلى حضرة النبي ﷺ ولحضرة ميكائيل عليهِ السلام، ويطوي طرف السجادة الثانية أيضًا، ثم يصلي ركعتين ويقرأ الفاتحة للنبي ﷺ ولإسرافيل عليهِ السلام ويطوي طرف السجادة الثالث ويصلي ركعتين ويقرأ الفاتحة للنبي عليهِ السلام ولحضرة عزرائيل عليهِ السلام ويطوي طرف السجادة الرابع، ثم يأمر المتخلف أن يصلي على هذا المنوال وبعد الصلاة الفواتح كما تقدم ويبدأ المتخلف بالفتح لأطراف السجادة كما بدأ المرشد بالطيّ وينوي بالصلاة بنية التوبة ثم يجلس المرشد على السجادة متوجهًا إلى القبلة والمتخلف بين يديهِ ويغطيهما النقيب بالإيزار الأبيض، وينشر عليهما العلمين المنسوبين لسيدي أحمد ويجعل النقيب يده بين كتفي المتخلف من وراء الإيزار، ثم يمد يده المرشد ويحط يد المتخلف في يده والفقراء ضاربين حلقة حولهم ويقولون لا إلٰه إلا الله جميعًا، فهناك يلقنهُ المرشد العهد وأسرار البيعة ويأذن لهُ بالخلافة المباركة ويجعلهُ نائبًا عنهُ، ويتلو كلمات العهد والمبايعة التي ذكرناها أولاً ويكون الحزام في حجر المرشد ثم يأخذ الحزام المذكور ويلقهِ على وسط المتخلف ويعقده من أمامهِ ويقرأ الفاتحة بحيث يسمع الحاضرون ويقول بصحائف أرباب المراتب والطريقة ويعقد عقدةً ويقرأ الفاتحة، ثم يعقد عقدة أخرى في طرف المئزر مَن جهة اليمين ويقعد، ثم يرجع إلى طرف الميزر من جهة الشمال فتصير العقد ستة من يمين وشمال، فيكون عدد العقد سبعة: واحدة في وسط الشد وثلاثة من طرفهِ من اليمين ومثلهم من الشمال، ثم يرفع الشيخ الإزار وبيده طرف الميزر ويسلمهُ للنقيب بالفاتحة فيبيع العقد المذكورة النقيب ويشترونها الإخوان والعقدة السابعة يحلها المرشد بالفاتحة ونسأل الله الثبات.

قال الشيخ شهاب الدين السمرقندي رحمهُ الله: إذا سئلت يا أخي على أي شيء بني الطريق فقل: على ستة أركان: التوبة والتسليم والقناعة والإرادة والرياضة والعزلة، وإن سئلت عن أحكام الطريق فقل: ستة: المعرفة والسخاء والغربة والتوكل والتفكر والتصديق، وإن سُئِلت عن أركان الطريق فقل: ستة: العلم والحلم والصبر والرضاء والإخلاص والشوق، وإن سئلت عن الخرقة ما مكتوب على زيقها فقل: مكتوب يا واحد يا أحد يا فرد يا صمد، وإن سُئِلت عن ظاهر الخرقة وباطنها وزيقها وذيلها وسنتها وفروضها فقل: ظاهرها المعرفة وباطنها الأدب وزيقها العزلة وذيلها الخدمة وسنتها أيدي المشايخ وفرضها أكل الحلال، وإن سئلت عن إيمان الخرقة وقبلتها وغسلها ومفتاحها وصلاتها وفرضها ونظافتها فقل إيمانها الستر ومفتاحها التكبير وصلاتها الهداية وفرضها المحبة ونظافتها الحياء، وإن سئلت ما مكتوب في ذيل الخرقة فقل: يا صبور يا شكور يا

كريم، نسأل الله أن يوفقنا إلى سلوك هذا الطريق السامي وأن يلهمنا فهم معرفة أسرار هذه المعاني مع الإخلاص بالعمل من غير كسل ولا ملل، لأن ثمرة شجرة الطريق لا تكون إلا بخالص العمل ولذة حلاوة الطريق لا تدرك إلا بالسلوك، هذا إن كان الفيض كسبيًا وإن كان وهبيًا فذلك فضل الله يؤتيهِ مَن يشاء ولله طرائق بعدد أنفاس الخلائق، وقال سيدي أحمد الصياد قدس الله سره العزيز: بنفحة تقع الصلحة، وقال أيضًا: بنظرة تفتح الحضرة، وقال الجنيد البغدادي قدس الله سره السامي: نظرة من عين العناية تجعل الكافر وليًا وكثير من أهل الحقائق، يؤمرون بإرشاد قوم فيسافرون لأجل إرشادهم من اليمن إلى الشام ومن المغرب إلى العراق، وبمجرد وقوع نظرهم عليهم يلبسونهم خرقة الخلافة من غير عمل ولا سلوك ويأمرونهم بإرشاد الناس، وقد وقع مثل هذا لكثير من أهل الكمال.

وقد قلت مرةً لسيدي الشيخ محمد مهدي الرفاعي الرواس رحمهُ الله تعالى سيدي كيف يكون فهم من أذن بالخلافة من غير سلوك؟ وكيف يكون لهُ ذوق أهل الطريق، مع أنهُ جاهل جيء بهِ من الباب إلى المحراب؟ فقال رحمهُ الله: يا ولدي إن كان الذي ألبسهُ الخرقة من أهل الكمال والعنايات فيكون قد عرف أن التربية الإلهامية جرت على مرّ يده من جانب حضرة الإلهام الرباني، وتكون قد انقضت أيام سلوكهِ وهو لا يدري ويمضي سلوكهُ كالعادة بلا تكليف ولا مشقة، وربما يكون الأمر أيضًا بخلوص نية المرشد بقصد إرشاده وأن يكون ذلك المريد سببًا لإرشاد غيره كما كان دأبُ سيدي القطب النبوي السيد أحمد البدوي قدس سره لما يأتيهِ المريد ينظر إليهِ ويبلغهُ بذلك المجلس إلى مرتبة الشهود، ويعطيهِ الخلافة بذلك الوقت ويرسلهُ لبلدة للإرشاد، ثم قال سيدي محمد مهدي قدس سره: وإن كان المرشد مثلي غبيًا فعلى قدر فهم المرشد وذوقهِ يكون فهم الخليفة اهـ. وقد نسب الغباوة لنفسهِ رحمهُ الله لطفًا منهُ وقصد بذلك الهضم لنفسهِ، ثم قال رحمهُ الله: وعلى كل حال المنزلة الكسبية أرفع من المنزلة الوهبية، لقول العارفين: الماء بعد العطش أعذب والوصل بعد الهجر أطيب، وقال السيد الأعظم ﷺ: «أدّبني ربي فأحسن تأديبي»[1] وهو ﷺ سلطان المتأدبين والمؤدبين، وقد أمره تعالى وجعلهُ هاديًا لخلقهِ ورسولاً وعلمهُ وفرض عليهِ الصلاة والصيام والزكاة والحج والجهاد وتبليغ الرسالة، فمن سر هذا المقام كان الكسبي بالتعب والمشقة أعلا مقامًا من الوهبي عند عامة العارفين.

---

(١) سبق تخريجه.

وقال بعض أكابر المشايخ نفعنا الله بهم: السالك لا يقدر على كسب هذه المسالك إلا بموهبة الله جلّ وعلا، فالكسبي عين الوهبي، قلنا: فلما كان الكسبي عين الوهبي وكان سلك هذه المسالك في الطريق الكسبي زيادة عند العارفين صار المقام الكسبي أعلا من المقام الوهبي، وكلاهما مقام واحد من مدد الفرد الواحد والله أعلم بالصواب. قال سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ: الصبر على الكسبي من المدد الوهبي، وهنا أورد معنى عجيبًا نفعنا الله بمدده العالي في الدنيا والآخرة انتهى. وأما ما عليهِ هذه الطائفة الرفاعية من الاجتماع على ذكر الله فعليهِ كافة العلماء والأولياء ورجال كل طريقة ومع ذلك فإني أذكر لك يا أخي بعض فضل الذكر وما حث الشارع الكريم عليهِ من أمر الذكر منها قولهُ ﷺ: «إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر في الأرض فارتعوا في رياض الجنة، قالوا: وأين رياض الجنة؟ قال: مجالس الذكر فاغدوا وروحوا في ذكر الله وذكروه أنفسكم ومن كان يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله ينزل العبد من حيث أنزلهُ من نفسهِ»[1]. وكان ﷺ يقول: «رياض الجنة حلق الذكر فإذا مررتم بها فارتعوا»[2] يعني اجلسوا معهم فيها، ويحكى أن الشبلي رحمهُ الله تعالى مرض فأرسل الخليفة لهُ طبيبًا غير مسلم ليعالجهُ فصار كلما عالجهُ يزداد مرضهُ، فقال لهُ الطبيب مرةً: يا شيخ المسلمين لو علمت أن شفاءك في قطع عضو من أعضائي لفعلت، فقال لهُ الشبلي: شفائي في قطع زنارك، فأسلم الطبيب ووثب الشبلي قدس سره فرحًا مسرورًا وكأنهُ قد نشط من عقال، فلما بلغ ذلك الخليفة قال: ظننت أني أرسلت الطبيب إلى المريض والحال أنني أرسلت المريض إلى الطبيب، وكان ببلاد الهند شيخ كبير السن ضعيف القوى وكان يعبد صنمًا فوقع لهُ أمر مهم فاستغاث بالصنم وقال لهُ: عبدتك مدةً طويلة فأغثني في هذا الأمر الذي وقعت بهِ، فلم يغثهُ فرمق بطرفهِ إلى السماء وهمت عينهُ بالبكاء مستحييًا من الله غاية الاستحياء وبادر بالتضرع والدعاء ونادى: يا صمد، فسمع صوتًا في الهواء يقول: لبيك يا عبدي اطلب ما تريد، فتبرأ من عبادة الأصنام ووحد الله الملك العلام فقالت الملائكة: ربنا عبد الصنم مدّةً من السنين والأعوام وبقي يدعوه جملةً من الليالي والأيام ولم يجب نداه ولم يرحم شكواه، ودعاك مرّةً واحدةً فأجبتهُ ولبيتهُ وتقبلت دعاءه،

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٧٠)، كتاب الدعاء والتهليل والتسبيح والذكر، حديث رقم: ١٨٢٠، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/ ٤٠٥)، باب الترغيب في حضور مجالس الذكر، حديث رقم: ٩.

(٢) أخرجه في الترغيب والترهيب عن ابن عباس، (١/ ١١٢)، باب الترغيب في مجالسة العلماء. وأخرجه في مجمع الزوائد عن ابن عباس، (١/ ١٢٦)، باب مجالسة العلماء وفضل العلم.

فقال: يا ملائكتي إذا دعا الصنم فلم يجبهُ ودعا الصمد فلم يجبهُ فما الفرق حينئذ بينهما، وفي الحديث: «مَن قال لا إلـه إلا الله مخلصًا ـ وفي رواية صدقًا ـ وفي رواية: من قلبهِ ـ دخل الجنة» رواه البزاز عن أبي سعيد، قال المناوي ورجالهُ ثقاة، وفي حديث آخر «مَن قال لا إلـه إلا الله نفعتهُ يومًا من دهره يصيبهُ قبل ذلك ما أصاب» قال المناوي لأنهُ لما أخلص عند قول لا إلـه إلا الله أفاض الله على قلبهِ نورًا أحياه بهِ، فبذلك النور طهر جسده فنفعتهُ عند فصل القضاءِ، وفي الحديث المشهور: «سبعة في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظلهُ رجل ذكر الله ففاضت عيناه ورجل يحب عبدًا لا يحبهُ إلا لله ورجل قلبهُ معلق بالمساجد من شدة حبهِ إياها، ورجل يعطي الصدقة بيمينهِ فيكاد يخفيها عن شمالهِ، وإمام مقسط في رعيتهِ ورجل عرضت عليهِ امرأة نفسها ذات منصب وجمال فتركها لجلال الله، ورجل كان في سرية مع قوم فلقوا العدو فانكشفوا فحمى آثارهم حتى نجا ونجوا أو استشهد»[1] وإذا تأملت في هذا الحديث عرفت أن أعظم هؤلاء السبعة الذين يظلهم الله في ذلك اليوم الشديد الأهوال العظيم النكال الثقيل الأغلال هو من ذكر الله خاشعًا خاشيًا، وتنبهت إلى أن الذكر من أعظم العبادات وأجزل الطاعات وأحسن القربات لرب الأرضين والسمٰوات، ولا سيما ذكر الله تعالى بقول لا إلـه إلا الله أتى خبر الرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى أنها أفضل ما قالها هو والنبيون من قبلهِ انتهى.

وقد نبهوا عن الذكر باسم الذات وهو لفظ الله سبحانهُ وتعالى حتى نصَّ كثير من العلماء والأئمة الفضلاء على أنهُ هو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي بهِ أعطى وإذا سئل بهِ أجاب، وهذا ما اختاره كثير من المحققين وعدم استجابة الدعاء بهِ عاجلاً إنما هو لعدم استجماع الشروط، ولذلك سئل بعضهم عن اسم الله الأعظم فقال: هو الله بشرط أن تذكر الله وليس في قلبك إلا الله، فدلَّ على أن من شروط الدعاء تفرغ القلب لله سبحانهُ وتعالى وعدم تعلقهِ بشيءٍ سواه، وقد ذكر هذا الاسم الكريم في القرآن العظيم ألفين وثلاثمائة وستين مرة وأعظميتهُ باعتبار مدلولهِ لأنهُ اسم أي علم على الذات وبقية الأسماء أعلام على الصفات، ولا يخفى ما بينهما من الفرق الكلي ومما يدلك على مزيد شرف هذا الاسم الكريم أنك لو حذفت الألف لقلت لله ولو حذفت اللامين معًا لقلت آه وهو اسم من أسماء الله تعالى، ولو حذفت إحدى لاميه ونطقت بما بقي من حروفهِ لكان إلـه، ولو حذفت الألف مع اللام الأولى لقلت لهُ، ولو حذفت الألف مع اللامين لقلت: هو فهو بتصرفاتهِ جميعها دالٌّ على الذات الأقدس سبحانهُ وتعالى بخلاف بقية الأسماء

---

(١) الحديث أخرجه في كنز العمال، (١٥/ ٩٠٤)، حديث رقم: ٤٣٥٦٢.

الجليلة، فإنك لو فككتها لم تستفد منها ما استفيد من لفظ الجلالة، وما أحسن ما قالهُ المرحوم الشيخ محمد وفا أفندي الرفاعي رحمهُ الله في ذلك:

تناسقت أحرف الجلالة ... أربعة للبدور ناله
فواحدًا إن حذفت صارت ... لِلّه في الرسم لا محاله
وثانيًا إن حذفت تبقى ... لهُ وقد أثبتت كماله
وثالثًا إن حذفت كانت ... هوية حقّقت جلاله
الله الله لا سواه ... فدن بذا فالجميع إله

انتهى. هذا ما لخّصناه في هذا الباب، ونسأل الله حسن المآب.

الباب التاسع

في ذكر بعض أعيان ذريته ومشاهير أصحابهِ وأتباعهِ وأهل خرقتهِ، على سبيل الاختصار اكتفاء بشهرتهم التي هي كالشمس في رابعة النهار، وسنذكر إن شاء الله في هذا الباب جماعة من رجال الوقت شاع ذكرهم في الآفاق وانتشر صيتهم في الغرب والعراق

قال الإمام العلامة سلطان المحدثين، الشيخ عز الدين أحمد الفاروثي الواسطي قدس سره في كتابهِ النفحة المسكية ما نصهُ: إن السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ تزوج في بدايتهِ بالشيخة الصالحة الست خديجة بنت سيدي أبي بكر أخي الشيخ منصور الرباني ابن سيدي يحيىٰ البخاري الأنصاري، فأولدها السيدة فاطمة والسيدة زينب رضي الله تعالى عنهم أجمعين، ثم توفيت فتزوج بعدها بأختها الصالحة الزاهدة العابدة الست رابعة، فأولدها السيد صالح رضي الله عنهُ وقد توفي قطب الدين صالح المشار إليه رضي الله عنهُ في حياة أبيهِ ولم يتزوج ودفن في قبة جده سيدي يحيىٰ النجار، وأما السيدة فاطمة بنت السيد أحمد الكبير فقد زوجها أبوها بابن أخته وابن ابن عمهِ السيد علي مهذب الدولة شيخ وقتهِ قطب الزمان ولي الرحمٰن بن عثمان، فأعقبت لهُ الأستاذ الأكبر والعلم الأشهر غوث زمانهِ بحبوحة الكرم عظيم الهمم القطب الأقرب أبا الفقراء سيدنا محيي الدين الأعزب رضي الله عنهُ والسيد نجم الدين أحمد الأخضر، وتوفيت ولم تخلف غيرهما، وتزوج بعدها بنفيسة بنت سيدي محمد بن القاسمية، فأولدها السيد إسماعيل والسيد عثمان والسيدة عائشة والسيدة زينب والسيدة خديجة والسيدة فاطمة، وعقبهم معلوم، وأما السيدة زينب بنت سيدنا السيد أحمد الكبير فقد زوجها أبوها رضي الله عنهُ بابن أختهِ وابن ابن عمهِ صاحب القدم السابق والشرف الباسق والخلق الكريم والقلب السليم، ممهد الدولة والدين سيدنا السيد عبد الرحيم بن عثمان رضي الله عنهُ، فأولدها السيد شمس الدين محمد والسيد قطب الدين أحمد والسيد أبا الحسن علي والسيد عز الدين أحمد والسيد أحمد أبا القاسم والسيد أبا الحسن والسيدة عائشة والسيدة فاطمة، ثمانية، ذكورهم ستة وإناثهم اثنتان كما في الترياق، وزينب هذه رضي الله عنها

أم الرجال تزوج ولدها السيد شمس الدين محمد بالسيدة خديجة بنت سيدنا السيد علي بن عثمان، فأعقب السيد أحمد وكبر السيد أحمد هذا وتزوج، وأعقب السيد أبا القاسم والسيدة خديجة والسيد عبد الله، ولكل شعبة وأهل. ثم إن السيد قطب الدين أحمد ابن السيدة زينب تزوج أيضًا، وأعقب السيد نجم الدين يحيىٰ والسيدة فاطمة ولهما ذرية ثم إن ولدها الثالث السيد أبا الحسن علي الملقب بعبد المحسن تزوج، فأعقب السيد شرف الدين أبا بكر والسيد علي أبا الحسن والسيدة العابدة نسب، فأعقب أبو بكر السيد أحمد وأعقب السيد أحمد هذا أبا الفضائل السيد علي، وأما السيد علي أبو الحسن ابن السيد عبد المحسن أبو الحسن علي، فإنهُ سكن قرية حرير من أعمال البصرة وهاجر إلى الشام وتزوج بأرضها، ولهُ ذرية وتخرج بصحبة جم غفير من الرجال. ومنهم الشيخ علي أبو محمد الحريري بن أبي الحسن بن منصور المروزي رحمهُ الله، قلت: وقد كان ابن منصور هذا على حال إلا أنهُ قد غلبت أحواله عليه، فما قدر على قبض لسانهِ فقيل فيهِ ما قيل، ثم إن ولد السيدة زينب الرابع مولانا السيد عز الدين أحمد الصغير تزوج، وأعقب السيد سيف الدين عثمان ولم يعقب غيره، ثم إن ولدها الخامس السيد أبو القاسم عز الدين أحمد الكبير ويلقب بالصياد هاجر من العراق إلى الحجاز ثم إلى اليمن ومصر، وتزوج فيها من آل الملك الأفضل، وأعقب بها السيد علي وتركهُ عند أخوالهِ وهاجر إلى الشام، كل ذلك خيفة الشهرة ولكيلا يشتغل بالخلق عن الخالق، وسكنَ في نهايتهِ قرية يقال لها متكين من أعمال معرَّة النعمان من أعمال حلب، سكنها حتى مات وتزوج فيها، وأعقب السيد موسى ويقال لهُ الكبير والسيد صدر الدين علي والسيد شمس الدين محمد والسيد أحمد أبو بكر، وترك في العراق ولدًا لهُ سماه السيد عبد الرحيم، وقد اشتهر أمر السيد أحمد عز الدين أبي القاسم الصياد، ويقال لهُ في الشام أبو علي وفي اليمن أبو الخير وقد حملهُ جده بيده وعظم شأنهُ وبشر به وأثنى عليه، وقال فيه: ستكون لهُ دولة عظيمة وتزوره الأسود، ثم إن ولد السيدة الجليلة زينب السادس سيدنا محمد أبو الحسن تزوج في أم عبيدة، وأعقب السيد شمس الدين محمد إمام الوقت، فأعقب السيد شمس الدين الشيخ الأجل السيد تاج الدين والسيد أحمد أبو الحسين، ولكل منهم عقب وذرية صالحة، شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء، انتظم فيها أكابر الأقطاب وأقطاب الأولياء رضي الله عنهم وعنا بهم آمين، هذا ما لخصتهُ لك من آل الرفاعي الذين تؤول نسبتهم إلى سيدنا ومولانا السيد أحمد الكبير من بنتيهِ الكريمتين زوجتي ولدي أختهِ وابني ابن عمه، فما أعلاها من نسبة اتصلت من كل جهة بالرسول العظيم والنبي الكريم عليهِ أفضل الصلاة وأجل التسليم، زكت فروعًا وأبناءً وعلت أصولاً وآباءً.

نسب كأنَّ عليهِ من شمس الضحى ... نورًا ومن فلق الصباح عمودا

انتهى. قال سيدنا أحمد بن جلال في كتابهِ جلاء الصدا ما نصهُ: إن أول مَن ولّي الخلافة بعد السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ الإمام المحتشم والسيد المحترم، ذو الفضائل العلية والخصال المرئية والمقامات الشامخة والدرجات البازخة، سيد الأجلة المخصوص بالفضائل والأدلة الثابت البنيان والعالي الأركان قطب الزمان ولي الرحمٰن شيخ الوقت السيد علي بن عثمان جعل الله قبره روضة من رياض الجنان وسقاه رحيق الوصل على بساط القرب المعتق بالدنان، استخلف بعد السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ، وكان ذا خلق عظيم وكف كريم وجود عميم، فقام بعده بسيرة حسنة كما يحب أن يكون لهُ، ولم يزل قدس سره مراعيًا لأصحاب خاله ويكرمهم ويبجلهم في جميع أحوالهِ، وكل من عرض عليهِ حاجة دنيوية أو أخروية يقضيها لهُ، وكان يقول للفقراء: أي سادة من كان لهُ منكم حاجة فليلزمني بها، ومن شكى من سلطانهِ أو شيطانهِ أو زوجتهِ أو دابتهِ أو أرضه إن كانت لا تنبت أو نخلة لهُ لا تثمر أو دابة لا تحمل، فليلزمني بها فإني مجيب لهُ ودركه عليّ. وكان يصنع المعروف إلى أهلهِ وغير أهلهِ على الدوام، ويفيض الجود من كفهِ فيض الغيث من الغمام، وكانت الدنيا منقادة لهُ تأتي لهُ راغمة حيث شاء، ويقول للفقراء: خذوا الدنيا مني نهبًا، وكان يتحبب إلى الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام، لهُ تواضع وخشوع دائم كثير ويعظم شأن أم عبيدة وأهلها، ويقول لابنهِ السيد إبراهيم: من يقدر أن يكون مثل أهل أم عبيدة قوم يمسون ويصبحون متنعمين بالنظر إلى وجه جدك، وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يوصي الفقراء بخدمتهِ ويعظمهُ ويرفع قدره ومنزلتهُ ويكرمهُ ويبجلهُ، ويقول لهُ: أي علي أنت الذي فضلك الله على أهل بيتك وشرفك عليهم وجعلك شيخهم وقدوتهم، وأمر الفقراء باتباعه والاقتداء بقولهِ وفعلهِ، وكان السيد علي قدس سره سريع الغضب والرضاء كريم الكف سخي النفس مليح الملتقا بشاش البشر طليق الوجه، يمنح السائل ويبذل وما رد سؤال سائل ولا خيب قط آمل، وفيهِ يقول الشاعر:

آيات مجدك ما لها تبديل	وعلو قدرك ما إليهِ سبيل
فاقت صفاتك كل جيل قد مضى	في العالمين فكيف هذا الجيل
شهدت لك الأفعال بالمجد الذي	كل الأنام سواك فيهِ دخيل
ذهل الأنام لكل فضل حزتهُ	لم يحوه التشبيه والتمثيل
قد عزّ بيت أنت من ساداتهِ	وأمور أقوام إليك تؤول
يا من لهُ في الناس ذكر سائر	كالشمس يشرق نورها ويجول

فإذا تهجد في الظلام فحسنهُ ... من نور غرتهِ لنا قنديل
هذا هو الشرف الذي لا يدعى ... هيهات ما كل الرجال فحول

وكان إذا أتوه الفقراء يقول: جاء أحباب الله وأحبابنا قوموا نغتنمهم ونغتنم مجالسهم وبركتهم، ويتلذذ بهم ويحمل إليهم طوائف الأطعمة وألوان الحلاوة، ويخدمهم بنفسهِ ويدخل على قلوبهم السرور، وكان إذا اجتمع الفقراء حولهُ في أم عبيدة يلازمهم ويجلسهم عنده، ولا يقدر أحد منهم يفارقهُ ويتمتع بالنظر إليهم ويقول: ثلاثة أشياء تجلي البصر وتصرف الهم وتزيد في الحكمة: النظر إلى المصحف والنظر إلى وجه الأخوان والنظر إلى وجه الوالدين وأنشد قدس سره:

قوموا لنقضي طيب عيش فاتنا ... مع من نحب فهذه أوقاتنا
ونقول للاحي رويدك لا تلم ... اذهب ودعنا نستريح بذاتنا
أهل العقيق وحقكم أي سادتي ... نحن العبيد وأنتم ساداتنا
من قال عنا أننا لا نبتغي ... غير الوصال فذاك من عاداتنا

وكان قدس سره يحب النفقة على الفقراء والأخوان في السر والإعلان، ويقول: ثلاث لا يطالب الرجل عليها: النفقة على عيال البيت والنفقة على الأخوان والنفقة في سبيل الله عزّ وجلّ، وكان قد أجرى الله الحكمة على لسانهِ وأتبع عيون الفطنة في قلبهِ، وكان قويًا في الله متمكنًا بأمر الله ما خالف أمره أحد إلا قتلهُ الله، وكان لهُ غيرة عربية وهمة عالية وهيبة عجيبة وسطوة غريبة، لا يقدر أحد يقابلهُ لهيبتهِ ولا أن يدانيه لهيبتهِ ولمخالفتهِ مع تواضعهِ ورأفتهِ وإحسانهِ ولطافتهِ، وكان دائم الهم والغم والفكر والحزن والاضطراب، لهُ قلب رحماني وسر روحاني. وكان رضي الله عنهُ يظهر الكرامات ويقول: إظهار الكرامات يقين في يقين المريدين، وله آيات مشهورة وكرامات معروفة، منها: ما قالهُ الشيخ ظفر عنهُ قال كنا نمشي مع السيد علي والسيد عبد الرحيم إلى السفر، فوصلنا في الطريق إلى الشيخ عبد المحمود فدخلنا عليه، فما قام الشيخ عبد المحمود لأجل السيد علي فخرج السيد علي من عنده، فقال السيد عبد الرحيم: أي عبد المحمود لم لا قمت على رأسك لأجل أخي، أي عبد المحمود ما تعلم أن أخي ممن يقال في شأنهم شعر:

إذا عاينتهُ من بعيد ترجلت ... وإن هي لم تفعل فحل حمامها

أي عبد المحمود وبين أخيه، فذكرت القصة لسيدي علي بعد أن وصلنا إليهِ فخلع قميصهُ ومئزره وأعطاني إياه ثم مشى، ثم ناداني: أي ظفر ما قال أخي فرددت

عليهِ قولهُ فأعطاني قميصًا ومئزرًا آخر، وكذلك صار يمشي ساعة ويناديني ويسألني عما جرى بينهما، وأخبره وهو يعطيني قميصًا ومئزرًا آخر، حتى أعطاني خمسة عشر قميصًا وخمسة عشر مئزرًا، ثم منعني أصحابه عن الأخذ، وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يبجلهُ ويقدمهُ على الفقراء، ويقول لهُ: أنت الشيخ بعدي فسمعهُ السيد إبراهيم الأعزب يقول لهُ الشيخ ولم يقل لهُ السيد، فسألهُ عن ذلك فقال لأن العرب تقول الشيخ فقال رضي الله تعالى عنه، قال الله تعالى في شأن يحيىٰ بن زكريا عليهما الصلاة والسلام: ﴿سيدًا وحصورًا﴾ [آل عمران: ٣٩] أي إبراهيم تب إلى الله تعالى مما قلت، وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ قد وصاه، وقال لهُ: أي علي خذ نصيبك من الليل فإن كل ليلة ينزل من الحضرة الربوبية نثار إلى الأرض، لا يحصل منها على شيء إلا من هو مستيقظ، فقال: أي سيدي أنا ما أعلم من القرآن، فإن قمت ليلاً بما اشتغل فقال أي ولدي توضأ وضوءًا جديدًا وصلّ ركعتين واقرأ الحمد فيهما، ثم ضع رأسك على ركبتيك واعترف بتقصيرك حتى يحصل لك منها نصيب.

وقال رضي الله تعالى عنهُ لهُ: أي علي إذا كان الغني يصلي عشر ركعات ويتصدق بعشرين دينارًا والفقير يصلي ركعتين ويتصدق بدرهم، كان المزيدة والرجحان للفقير فيها، أي علي ينبغي أن تكون الدنيا وما فيها عندك هينة حتى يسهل عليك أمورها، ولا تخجلني عند الله تعالى، ثم جعل السيد علي نصيحتهُ ووصيتهُ نصب عينهِ واقتدى في جميع الأمور بهِ، ودخل على السيد علي قدس سره فقيه، فقال لهُ: أي سيدي أنت تسأل مني وأنا أسأل منك، فقال أنت اسأل مني، فقال الفقيه: كيف أسألك ولست بفقيه ولا عالم، فقال لهُ: أنت اسأل يمكن أن أقدر على الجواب، فقال الفقيه فسر لي قولهُ تعالى: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة﴾ [النمل: ٣٤] فقال: تريد تفسيرنا أو تفسيركم، قال: أفرق بين تفسيرنا وتفسيركم، قال: نعم، فقال: ما تفسيركم؟ فقال: الملك هو الله عزّ وجلّ والقرية قلبك فسد المنزل على المتوطنين وأزعجهم، والمراد بالمتوطنين الرياء والنفاق وسوء الخلق والتزوير والبهتان والفساد والطغيان، وكل ما هو خلاف رضاء الرحمٰن، والمراد بالأعزة تلك الشياطين فيذلهم ويهينهم، فلما سمع الفقيه قولهُ صدقهُ وتعجب.

قال صاحب أُم البراهين: حدَّثني الشيخ مقدام، قال: خرج السيد إلى السفر وكانت أول أسفاره بعد وفاة خاله، فنادى النقيب الفقراء إلى السفر فخرجوا واجتمعنا حولهُ يمينًا وشمالاً، وهم خلق كثير وفيهم الفقراءُ المخلصون والمشائخ المعتبرون والعلماء المقربون، فقال لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله وبكى ورمى نفسهُ من المطية ووقع على

الأرض مغشيًا عليهِ، فلما أفاق كشف رأسهُ وجعل يمرغ وجههُ في التراب ويقول: أي رب إلى متى تفضحني بين هذه الخلائق ومن أنا وأيش أنا، لا آية من كتاب الله ولا خبر عن رسول الله ﷺ، ثم بكى زمانًا طويلاً ورأسهُ ووجههُ وشيبتهُ ممرغة بالتراب، ثم قام وكادت نفس الفقراء تزهق من البكاء، فركب المطية وقال شعرًا:

ما للعواذل في هواك ومالي ... أنا قد رضيت بأن أموت بحالي
ها قد مددت يدي لأسأل عفوكم ... فبحقكم ردوا جواب سؤالي

قال وقد ظهرت منهُ في تلك السفرة أشياء عجيبة. وقال الشيخ محبوب: خرج عن أم عبيدة السيد علي رضي الله تعالى عنهُ، فخرج كبار مشائخ الجمع والفقراء في فم الدير، فلما دخلوا عليهِ وقبلوا يده قال لهم: مرحبًا بكم وأهلاً وسهلاً وأنشد:

حياكم الله وأحياكم ... ولا عدمنا قط رؤياكم
ولا حضرنا قط في مجلس ... مستحسن إلا ذكرناكم

قال: فأجلسهم وأحضر لهم الطعام، فلما فرغوا من الأكل قال لهم: أي سادة قولوا لي هل لكم من حاجة فتقضى، مع ما أنا عندكم تقضى الحوائج وإلى عندكم تشد الرحال وإلى بابكم مقصد الرجال ومعراج الأحوال، فقالوا: جئناك شوقًا إليك ومحَبة لك لأنك اليوم شيخنا وإمامنا وصاحب الوقت والمشار إليه وكل الحوائج إليك وأنت الباب إلى كل الأسباب وفيك الحكمة وفصل الخطاب، فقال: أي سادة الإنصاف من الأشراف، إن أردتم الخبز والتمر والثياب فعندي، وإن أردتم الحق سبحانهُ وتعالى ورضاه فبين سواري رواق أم عبيدة، وأي حاجة كانت لكم فاطلبوها في أم عبيدة ثم زودهم الدراهم والثياب، ودعى لهم وسألهم الدعاء وشيعهم إلى خلف فم الدير. ذكر صاحب الشفاء أيضًا هاتين الحكايتين في كتابهِ، وقال: كانت خلافتهُ خمس سنين وأشهر، وتوفي في يوم الأربعاء قبل صلاة الظهر الحادي والعشرين من صفر سنة أربع وثمانين وخمسمائة في فم الدير، وحمل إلى أم عبيدة عمَّرها الله تعالى بأوليائهِ ودفن في قبة خالهِ رضي الله تعالى عنهما، وكان السيد علي لا يريد أن يدفن في فم الدير، فحضر عنده في مرض وفاتهِ ابن أخيه السيد شمس الدين محمد قدس سرهما، فقال: أي سيدي أخبرني بما سمعتهُ، يقول: أي علي أنت مني بمنزلة الصديق أبي بكر رضي الله تعالى عنه من رسول الله ﷺ، فقال السيد محمد من يشهد معك في هذا الخبر؟ فقال: أبوك عبد الرحيم وعمك عبد السلام وجماعة آخرين من الفقراء، فشهد لهُ جماعة من الفقراء الحاضرين. فقال السيد محمد: أي سيدي كيف الصديق مع النبي في الدفن؟ فقال: رأسهُ عند سرتهِ المباركة، ثم قال السيد علي: إذا أنا مت فاحملوني إلى أم عبيدة. ومنهم أخوه الشيخ

الكبير والعارف الخبير زبدة الأولياء وعمدة الأصفياء، ذو القدر الرفيع والعز المنيع والقدم السابق والشرف الباسق، صاحب الخلق الكريم والقلب السليم، السيد عز الدولة والدين عبد الرحيم، تخلف بعد أخيهِ النبيه فقام بعده بأخلاق مرضية وسيرة علوية، لا تأخذه في الله لومة لائم، كان يراعي حقوق الله تعالى في كل حال ويقرب من كان هو المقرب من خالهِ، ويراعي حقوقهُ في جميع أحوالهِ ويتمسك ويقتدي بخالهِ وخصاله، يقول حقًا ويعطي صدقًا. كان لليتامى كالأب الشفيق وللأرملة كالزوج الأليف، ويقول فرحي وتجارتي إذا فرح المسكين واليتيم، وكان ذا همة عالية ويرى جميع ما في يده من الدنيا عارية، ويراعي مَن كان يخدم الفقراء خاصة، وكان ذا طرب وصوت حزين ووله وحنين ودمعة جارية وقلب عن غير الحق خلي وكشف جلي وخلق سني، وكان معروفًا بسوء الخلق فشكى إلى خالهِ من ذلك مرة فقال رضي الله تعالى عنهُ: إذا أعطاك الله تعالى خلقًا حسنًا فلا بأس ولا يغيرك إذا عرفوك بسوء الخلق لك خلق سني، فحرفوها بالتصحيف ويقولون لك خلق سيء، وكان سريع الغضب سريع الرضا وإذا غضب يرعد كما ترعد الشجرة من الريح العاصف، ولهُ غيرة عجيبة غريبة وكان إذا غضب من أحد بان عليهِ أثر غضبهِ، غضب مرة على ابنهِ السيد عز الدين أحمد فهلك، وقال مرة للسيد إبراهيم: أهلك عمك بعدد خوص النخل نخل بستان السيد يحيىٰ النجار من الخلائق، وذلك موضع وسيع في جوار الرباط، وكان السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ يبجلهُ ويدنيهِ ويحبهُ دون أخوتهِ، ويقول لهُ: كل من أخوتك إذا مشى إلى مكان لحاجة أنا منهم مطمئن القلب، إلا أنت إذا مشيت إلى جهة أنا لا أزال خائفًا عليك من أهل تلك الجهة، لأنهم إن يقضوا حاجتك فلحوا وإن لم يقضوا حاجتك أخاف عليهم من الهلاك، وكان ذاكر الله تعالى على البأساء والضراء، وفي يقظتهِ ورقدتهِ وقد استولى عليهِ الذكر، حتى كان إذا أراد أن يقص شاربهُ لا يقدر حتى يلزم شفتيهِ بيده، وكان إذا نام يستمع منهُ زجل الشيخ، وكان يرغب أولاده بحفظ القرآن والاشتغال بالعلوم، فمن امتنع منهم من ذلك يمرض وربما منعهم من الطعام، قال صاحب أم البراهين: حدث عن السيد عبد الرحيم أنهُ قال: بينما أنا نائم ذات ليلة من الليالي، إذ رأيت كأنهُ قد نزل من السماء سيفان طولهما واحد وكسوتهما واحدة، فسلّم إليّ سيف وإلى أخي سيف فتقلدنا بهِ، فجاء سيفهُ أطول من سيفي، ثم جذب أخي سيفهُ فانجذب وندبهُ فانتدب وهزه فبرق ضوءه حتى ملأ ضوءه الشرق والغرب والسهل والجبل، حتى كان يسلب العقول ويغشى الأبصار، فجذبت سيفي فلم ينجذب

فانتبهت، وأتيت لعند سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ وأخبرتهُ بذلك، فقال لي: أي عبد الرحيم لا يضيق صدرك ولا تحزن ﴿ذلك فضل الله يؤتيهِ مَن يشاء﴾ [المائدة: ٥٤] أي عبد الرحيم أخوك محتاج إلى السيف، لأنهُ في موضع مظلم بين الأعراب ولهُ السيف ولذريتهِ، ولك العلم والكرسي والمحراب، وأنا لك وأنت في هذا الباب لا تحتاج إلى ذلك والقصد إليك وإلى بابك، ومع هذا كله فالحق أعرف بخلقهِ. ثم قال: أي عبد الرحيم وحق العزيز سبحانهُ أبيت أن يكون إلا فيك وأبت الربوبية أن تكون إلا بأخيك، وكان كما أراد الحق سبحانهُ كل شيء بإرادة العزيز، لكوني أردت أن يكون إليك والحق أراده لأخيك، وإني أردت أن لا يكون في أم عبيدة سوق والحق أراد وكان ذلك، وأردت أن لا أعرف والحق أراد. وفي بعض السير كان السيد عبد الرحيم يأخذ ويعطي ويثبت ويمحو، ويقول الولي يحيي ويميت بإذن الله تعالى إذا صار كلهُ لله، وكان الحق معهُ كيف يشاء. انتهى ما كان في ذلك السيرة. وكان يقول متى كان الفقر بإرادتهِ تعب، وإذا كان كلهُ لله كان الله معهُ ومَن أطاع الله تعالى أطاعهُ كل شيء. وقيل لهُ: أي سيدي لك بصيرة فقال: لا ما لي بصيرة لا أخي على البصيرة ولكن لي قلب كلما يريد هو إرادة الربوبية أيضًا.

قال الشيخ أبو الدر قدس سره، لما غدا عنده وقد غفر الباري سبحانهُ لعبد الرحيم بن عثمان وذريتهُ، وقد عرض أعمالهُ في سوق المعرفة فلم يرد عليهِ منها حرف، حكي عن جماعة من الفقراء قالوا: كنا في السفر مع السيد عبد الرحيم قدس سره، وكان زمان قحط فوصلنا إلى الصحراء، وقد زرعوا الشعير واصفر لعدم الماء، فنظر السيد عبد الرحيم إلى الأرض زمانًا ثم قال: أنزلوني عن المطية، فأنزلوه ومشى بين الزرع. ثم قال شعرًا:

رجال إذا الدنيا دجت أشرقت بهم ... وإن أجدبت يومًا بهم نزل القطر
ولو وطئوا يومًا على ظهر صخرة ... لانبته الصماء من وطئهم خضر
فكانوا على ظهر لأرض عمودها ... وصاروا ببطن الأرض فاستوحش الظهر
فيا شامتًا بالموت لا تشمتن بهم ... حياتهم فخر وموتهم ذخر

ثم مشى فما وصلنا إلى البلد حتى أمطرت للخلائق ودام المطر أيامًا، حتى لم يتمكنوا من الخروج من البيوت فاستغاث الفقراءُ الذين معاشهم من التردد، من الجوع. فخرج السيد عبد الرحيم من البيت ودعى فانكشف الغمام وطلعت الشمس، وكانت مدة خلافتهِ اثني وعشرين سنة، وما سافر في تلك المدة إلا ثلاث سنين، ثم ترك السفر فقال لهُ الفقراء في ذلك، فقال ما أسافر حتى يحصل لي الإذن من الله تعالى، وتوفي قدس

سره صبيحة يوم الأربعاء خامس شهر شوال سنة أربعة وستمائة، وغسلهُ الشيخ عبد الجبار والشيخ أبو شجاع ودفن في رباط أخيهِ السيد عبد السلام. ومنهم السيد المقرب العالي المقام والسند المهذب القمقام الإمام الولي المقدم والهمام الصفي المكرم، صاحب الأسرار السبحانية وفائض الأنوار الرحمانية، ذو الحكمة اللقمانية والحياة العثمانية، الحبيب إلى القلوب والسليم من العيوب، سمي خليل الله وكنيه شيخ أولياء الله، وصفيه ذو القرب الأقرب والورد الأعذب، سيدي محيي الدين أبو إسحٰق إبراهيم الأعزب قدس الله أسراره ونفعنا بهِ آمين، تخلف بعد عمهِ فقام بعده بأخلاق مرضية وسيرة حسنة، وكان حياؤه من الله تعالى في مرتبة أنهُ ما رفع رأسهُ إلى السماء أربعين سنة، يقنع بالدون من العيش في الدنيا الدنية، ويمنع نفسهُ من لذيذ الأطعمة والأشربة الشهية، يلبس القصير الخشن من الثياب رغبة ورهبة إلى الملك العزيز الوهاب، لم يجمع بين قميصين ولم يجاوز قميصه رؤوس أصابعه، أسوة بجده الإمام الأجل، وكانت عمامتهُ ذراعًا أو أقل، ما يبرد الماء لأجلهِ قط باختيار، وكان طبقه الأرض وصابونه الجدار، يراعي الأرامل والأيتام، ويصاحب الغرباء على الدوام، الاقتداء بآثار جده شعاره والتمسك بهديهِ دثاره والسخاوة والحياء اختياره، وكان يقول: أنا يتيم الرواق. وبذلك كان افتخاره وهكذا قال لهُ جده إمام الآفاق: أي إبراهيم أنت يتيم الرواق، يوقر الكبار ويراعيهم ويرحم الصغار ويداريهم، التواضع والخضوع سنتهُ والتخضع والقنوع ديدنهُ، يحترم المشايخ والعميان ويذل أهل الدنيا ويهينهم، ولا يقوم لهم كائنًا مَن كان، مسكنهُ بحيث يدفع عنهُ الحر والبرد، والبكاء في الليل كان لهُ وردًا، والفقراء في زمانهِ كانوا ذوي عزة واحترام يبجلهم ويراعيهم بالإكرام، وكان من نعم الله تعالى عليهِ أنهُ تربى على مخدة جده وأبيهِ وعمهِ، وكان إذا سئل عن حال ولي أو نبي يخبر عن أحوالهم، فسئل عن حال الخليل عليهِ الصلاة والسلام، فقال مجموع صفاتهِ وبين كيفية أعضائهِ، وكان في مجلسهِ رجل من أهل العلم، فقال لهُ الفقراء ما قالهُ السيد إبراهيم في شأن الخليل، فقال الفقيه ما وجدنا ذلك في كتاب ولا سمعناه عن أحد، فسمع السيد إبراهيم قولهُ فتبسم وأشار بيده إلى نحوه، فنظر الفقيه إلى ذلك المكان فصرخ صرخة وقام ووقع على وجههِ مغشيًا عليهِ، فلما أفاق قال للفقراء: رأيت الخليل عليهِ الصلاة والسلام وقد تعرى ويرى أعضائهُ السيد إبراهيم، وكان يسافر كثيرًا ويقول كلفني الله تعالى بالسفر. قال السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ للسيد إبراهيم يومًا في الخلوة: قم واخلفني، فقام وخلفهُ وأدخل لسانهُ في فيهِ وجعل يزيده فيه، فدخلت عليهما الست رابعة فحردت، وقالت: ينبغي أن يكون ذلك لولدك صالح، فقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ صالح ولدك وإبراهيم أيضًا ولدك، صالح غني وإبراهيم مسكين، وقال السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ لهُ في حكاية

طويلة: أي إبراهيم رمى العزيز محبتي ومحبتك في الماء والهواء، فكل من شرب الماء وشم الهواء أحبني وأحبك، فمثل ما يحبوني يحبونك. وكان السيد إبراهيم يمدح نفسهُ بهذا البيت شعرًا:

ترى تخلف الأيام مثلي لكم فتى … طويل نجاد السيف رحب المقلد

وكان ينشد أيضًا:

أيكم يجعل الجبان شجاعًا … أيكم يورث السماح بخيلاً

ولهُ أيضًا:

حسبت وشاة الحي أن لم يرحموا … دنفًا تعلل بالهوى أسقامهُ

وذكر الهمداني في كتابهِ بهجة الأسرار، الذي ألفهُ في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره، عند ذكر الشيخ إبراهيم الأعزب نفعنا الله بهِ ما نصهُ: ومنهم الشيخ أبو إسحٰق إبراهيم بن علي الملقب بالأعزب رضي الله عنهُ، هذا الشيخ من أعيان مشائخ البطائح وأعلام العارفين وصدور المحققين، صاحب الكرامات الظاهرة والأحوال الفاخرة والمعارف الزاهرة والحقائق الباهرة، والعلوم اللدنية والمعاني النورية صاحب المقامات الجلية والمراتب العلية، والفتح الموفق في معادن الأسرار والكشف المشرق في مطالع الأنوار والاطلاع الموضح عن حقائق الآيات والنظر الجالي بعرايس المغيبات، له المجلس العالي في حضائر القدس والمشرب الحالي من مناهل الوصل، والمقر السامي في أرائك القرب والمنهاج الموطأ على متن الملكوت إلى ملك الجبروت والمعراج الأعلى فوق مراقي الصعود إلى حضرة الشهود، ولهُ التقدم في التعالي والتصدر في التداني، والسبق إلى حلبات المحامد والمعالي، والجمع بين أطراف السعادة والتهاني، ولهُ الباع الطويل في علوم المنازلات، واليد البيضاء في معاني المشاهدات، والذراع الرحب في التصرف الخارق، والقدم الراسخ في التمكين الواسع، وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود وصرفهُ في الكون وخرق لهُ العادات، وأظهر على يديهِ الخارقات وأنطقهُ بالمغيبات وأجرى على لسانهِ الحكم، ومكنهُ من أحوال النهاية ومَلَّكَهُ أسرار الولاية، ونصبهُ قدوة وحجة، وهو أحد أركان هذا الشأن وإمام أئمة ساداتهِ، وأعلم العلماء بأحكامهِ، وأولى الأيدي والأبصار بمناهجهِ، علمًا وعملاً وزهدًا وتحقيقًا ورياسة وجلالة، صحب خالهِ الشيخ أبا العباس أحمد بن أبي الحسن بن الرفاعي رضي الله عنهُ، وأخذ عنهُ عهد الطريق وتخرج بهِ ولقي جماعة من مشايخ العراق رضي الله عنهُ، انتهت إليهِ رياسة هذا الشأن بالبطائح في وقتهِ وتخرج بهِ غير واحد من أهل البطائح وغيرهم،

وانتمى إليه جماعة من الأكابر وتلمذ لهُ خلق من الصلحاء، واجتمع عنده أمة من المريدين الصادقين وانتفعوا بكلامِهِ وصحبتهِ، وخلف أباه الشيخ أبا الحسن عليًا بعد وفاتهِ في المشيخة برواق أم عبيدة، وكان أجل أهل زمانهِ يومئذ، وكان فيما بلغني أنهُ يحل المشكلات الواردة مؤيدًا في كشف مخفيات الأحوال، وكان ظريفًا جميلاً كريمًا متواضعًا خاشعًا ذا حياء وافر وعقل ودين، صلب محبًا لأهل العلم مكرمًا لأهل الدين شديد التواضع محفوظ الجناح دائم البشر، مشتملاً على أكرم الشئم وأشرف الصفات وأجمل الأخلاق وأكمل الآداب، وكان عالمًا فقيهًا على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنهُ يلبس لباس العلماء ويتكلم على أصحابهِ، وكان لهُ كلام عال على لسان أهل المعارف منهُ رؤية الأصول باستعمال الفروع وتصحيح الفروع بمعارضة الأصول، ولا سبيل إلى مشاهدة الأصول إلا بتعظيم ما عظمهُ الله تعالى من الوسائط والفروع، وذكرك منوط بك إلى أن يتصل ذكرك بذكره، فحينئذ ترفع وتخلص من العلل، فما فارق حدث القدم إلا تلاشي الحدث وبقي الأصل وذهبت الفروع كأن لم تكن، والتبرع إلى استدراك علم الانقطاع وسيلة والوقوف على حد الاختيار نجاة، واللباد[١] بالهرب من علم الذنوب وصلة والاستماع قبول الخطاب والانبساط في محل الأنس عزة، والتصوف مراقبة الأحوال ولزوم الآداب، ومن تجلى بشاهده قصم ومن تجلى بشاهد الحق عصم، ومنهُ كل حال طرَقَكَ وأشكل عليك فاطلبهُ في مفاوز العلم، فإن لم تجده ففي ميدان الحكمة، فإن لم تجده فزنهُ بالتوحيد، فإن لم تجده في هذه المواضع فاضرب بهِ وجه الشيطان، وتوبة الاستجابة أن يتوب العبد حياء من ربهِ عزّ وجلّ، والتواضع قبول الحق ممن كان والتوكل أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع شدة فاقتك إليها وأن لا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق، والصبر الوقوف مع البلاء بحسن الأدب، والرضى نظر القلب إلى قديم، اختيار الله تعالى للعبد وللعبودية في أربعة خصال: الوفاء بالعهود والحفظ للحدود والرضاء بالموجود والصبر على المفقود، والاستقامة انفراد القلب لله عزّ وجلّ، والأدب حسن معالة الله تعالى سرًا وجهرًا، والمعرفة على ثلاثة أركان: الهيبة والحياء والأنس، والعلم الأكبر الهيبة والحياء، فمن عري عنهما فقد عري عن الخيرات، والمحبة إقامة العتاب على الدوام والشوق احتراق الأشياء، وتلهب القلوب وتقطع الأكباد، وإذا عاين القلب أربعة أشياء يرى الأشياء كلها: الله عزّ وجلّ ملكًا، ومن الله تعالى ظهورًا، وبالله تعالى قيامًا وإلى الله تعالى قيادًا وإلى الله تعالى مرجعًا، فقد أخذ من النفس ومن علامات الولي أربعة أشياء: صيانة سره بينهُ وبين الله عزّ وجلّ، وحفظ جوارحه فيما بينهُ وبين أمر

(١) اللباد: صانع اللبود ومنه اللبادة وهو ما يلبس من اللُّبود للوقاية من البرد.

الله تعالى، واحتمال الأذى فيما بينهُ وبين خلق الله تعالى، ومداراته للخلق على قدر تفاوت عقولهم، وأركان الوصل بين العبد وبين الله تعالى ثلاثة: الاستغاثة والجهد والأدب، فمن العبد الاستغاثة ومن الله عزّ وجلّ القربة، ومن العبد الجهد ومن الله عزّ وجلّ التوفيق، ومن العبد الأدب ومن الله عزّ وجلّ الكرامة، ومن تأدب بآداب الأولياء صلح لبساط القربة ومن تأدب بآداب الصديقين صلح لبساط المشاهدة، ومن تأدب بآداب الأنبياء عليهم السلام صلح لبساط الأنس والانبساط، وإذا كانت نفسك غير ناظرة لقلبها فأدبها، ومَا ركَنَ أحد إلى الدنيا إلا لزمهُ غيب القلوب، ومنهُ المقامات كلها تبع للقلب والقلب واقف مع الله عزّ وجلّ، وحكم المبتدىء أن يهتدي بالحقائق ويسير بالعلم ويجهد في العمل، ومن علامات المقربين أن يرفع الحجب بين القلوب وبين علام الغيوب، ومن ركب النهاية في بدايتِهِ كان ذلك علمًا على قربِهِ، فقوم شهدوا الداعي وقوم شهدوا النداء وقوم شهدوا البلاء، فمن سمع النداء سار إلى الجنة ومن شهد البلاء انتهى إلى الدرجات، ومن شهد الداعي صار إلى الله عزّ وجل، وهم خواص الخواص الذين لا يحجبون عن الله عزّ وجلّ طرفة عين، أولئك عباد ربطوا قلوبهم بأزمة التيقظ ورعى عزمهم عز وجل عن الفتور، وحرس نياتهم عن طوارق الاعتلال، وقطع إرادتهم عن التطلع إلى غيره، واظمأ قلوبهم من الاشتياق إلى رؤيته وأيقظ عقولهم في حكم صنعته، وأطلع أفئدتهم على قرب مراقبتِهِ، وتحوّل أرواحهم بين نسائِم صفاتِهِ وأدناهم إدناء مَن آنس بِهِ، وناجاهم مناجاة مَن أمنهُ وفاوضهم مفاوضة مَن ارتضاه لسره، سيماهم الحياء في حال الأدنى رضي الله عنهم، وكان يتمثل بهذه الأبيات:

تكشف غيم الهجر عن قمر الحب ... وأسفر نور الصلح عن ظلمة العتب
وجاء نسيم الاتصال مخففًا ... فصادفهُ حسن القبول من القلب
ودبت مياه الوصل في روضة الرضا ... فصار الهوى يهتز كالغصن الرطب
فلم ندرِ من طيب الوصال وحسنهِ ... أفي نزهة كنا هنالك أم حرب
فيا من سبا عقلي هواه تركتني ... أفكر ما بين التعجب والعجب

أخبرنا أبو الفرج عبد الوهاب بن الحسن بن الإربلي قال: سمعت الشيخ الأصيل العارف نجم الدين أبا العباس أحمد ابن الشيخ الجليل أبي الحسن علي البطايحي يقول: كان أخي الشيخ أبو العباس إبراهيم دائم المراقبة كثير الخشوع شديد الهيبة، ملازم الإطراق لا يرفع رأسهُ إلى السماء حياء من الله عزّ وجلّ، ورأيت الأسود غير مرة تأتيه وتمرغ وجوهها على قدميهِ، ورأيتهُ نائمًا في الرواق في يوم صيف شديد الحر وعند رأسِهِ حية عظيمة في فمها باقة نرجس تروحهُ بها، وشهدتهُ مرة وقد أتاه رجل ومعهُ شاب وقال

لهُ هذا ابني وقد أكثر من مخالفتي وزاد في عقوقي، فرفع الشيخ رأسهُ وكان مطرقًا ونظر إلى الشاب فمزق ثيابهُ وأخذ من نفسهِ وحواسهِ وغدا إلى البطيحة، وبقي شاخصًا إلى السماء يأوى إلى السباع لا يأكل ولا يشرب، وبقي على هذه الحالة أربعين يومًا، ثم جاء أبوه يشكو إلى الشيخ سوء حالهِ على ولده فأعطاه خرقة وقال لهُ: امسح بهذه وجه ابنك، فذهب وفعل فأفاق ابنهُ، وجاء إلى الشيخ ولزم خدمتهُ وكان من بعض أصحابهِ، أخبرنا أبو الفرج عبد الملك بن محمد بن عبد المحمود الرابعي الواسطي قال: سمعت شيخنا الشيخ نجم الدين أبا العباس أحمد ابن الشيخ أبي الحسن علي البطايحي يقول: كان أخي الشيخ إبراهيم الأعزب ظاهر التصريف في البواطن والظواهر، وكان إذا قال لأشد الناس خوفًا من النار اذهب إلى النار فلم يشعر بنفسهِ إلا في النار، ويمكث فيها ما شاء الله عزّ وجل ويخرج منها وما احترقت ثيابهُ ولا ضرت منهُ شيئًا، كان وإذا قال لأشد الناس خوفًا من الأسد اذهب إلى الأسد فلم يشعر بنفسهِ إلا وهو راكبهُ أو قائده من غير أن يروعهُ ولا يضره، وإذا أحب رجلاً لا يقدر ذلك الرجل على مفارقتهِ ويجد باعثًا من نفسهِ يقوده إليهِ طوعًا وكرهًا، وإذا كره رجلاً يجد ذلك الرجل في نفسهِ مانعًا يصده عن الشيخ على محبتهِ لهُ.

أخبرنا الشيخ أبو زيد عبد الرحمٰن بن سالم بن أحمد القرشي قال: سمعت الشيخ العارف الواسطي بالإسكندرية يقول: حكى لي الشيخ الصالح أبو المجد سعد الله بن سعدان الواسطي يقول: كان حاضرًا مجلس الشيخ أبي إسحٰق إبراهيم الأعزب رضي الله عنهُ، وكان يتكلم على أصحابهِ فقال في بعض كلامهِ: أعطاني ربي عزّ وجلّ التصريف في كل من حضرني، فلا يقوم أحد ولا يقعد ولا يتحركُ في حضرتي، إلا وأنا متصرف فيه، فقلت أنا في نفسي: فها أنا أقوم إذا شئت وأقعد إذا شئت، فقطع كلامهُ والتفت إلى جهتي وقال: يا سعد الله إن قدرت على القيام فقم، فنهضت لأقوم فلم أستطع وإذا أنا كالمقيد لا أستطيع الحركة فحملت إلى داري على أعناق الرجال فبطل شِقّي، وبقي حالي كذلك شهرًا، وعلمت أن ذلك بسبب اعتراضي على الشيخ، فعقدت التوبة مع الله تعالى وقلت لأهلي: احملوني إلى الشيخ، ففعلوا، فقلت: يا سيدي إنما كانت خطرة فنهض وأخذ بيدي ومشى ومشيت معهُ فذهب ما كان بي. أخبرنا الشيخ الصالح أبو الفرج عبد المجيد بن معاني بن هلال العباداني قال: سمعت أبي يحدث عن أبيهِ قال: سمعت الشيخ إبراهيم الأعزب رضي الله عنهُ يقول: لا يزورنا أحد إلا إذا أردناه، قال: فقصدت مرة زيارتهُ وخطر في نفسي هذا الكلام، وقلت في نفسي ها أنا أزوره إن أراد أو لم يرد، فلما أتيت باب الرواق رأيت ثم أسدًا عظيمًا هالني منظره فكر عليَّ، فوليت على عقبي مدبرًا وقد اشتد هلعي وكنت معتادًا بصيد الأسد وقتلها، فلما أبعدت منهُ وقفت أنظره وإذا الناس يدخلون ويخرجون ولا

يعترضهم ولا يرونهُ في ظني، فأتيت من الغد وإذا هو موضعهُ على حالهِ، فلما رآني قام إليَّ ففرت منهُ وصار حالي كذلك شهرًا لا أستطيع الدخول ولا القرب من الباب، فأتيت إلى بعض مشايخ البطائح وشكوت إليهِ حالي فقال: انظر في نفسك أي ذنب أتيت بهِ، فذكرت لهُ خطرتي، فقال: من هنا أتيت والأسد الذي رأيتهُ هو خال الشيخ إبراهيم، قال: فاستغفرت الله تعالى ونويت التوبة من الاعتراض ثم أتيت إلى باب الرواق، فقام الأسد ودخل إلى أن أتى إلى الشيخ ومازحهُ وغاب عني، فلما قبلت يد الشيخ قال لي مرحبًا بالتائب.

أخبرنا أبو العفاف موسى ابن الشيخ أبي المعالي عثمان بن موسى البقاعي، قال: سمعت أبي رحمهُ الله تعالى يقول: حكى لي أبو المعالي غانم بن مسعود العراقي التاجر الجوهري، قال: عزمت في بعض السنين على السفر إلى بلاد العجم في تجارة، فأتيت الشيخ إبراهيم مودعًا فقال لي: إن وقعت في شدة فنادني باسمي، فلما توسطنا صحراء خراسان خرج علينا خيل فأخذوا أموالنا وساقوها بين أيديهم ونحن ننظر وذهبوا، فذكرت قول الشيخ وكنت في جماعة معتبرين من رفقتي فاستحيت منهم أن اذكر اسم الشيخ بلساني فاختلج في سري الاستصراخ بهِ، فلم يتم خاطري حتى رأيتهُ من بعد على جبل بيده عصى يومي بها نحو أولئك الخيل، فلم نشعر حتى جاؤوا بجميع أموالنا وسلموها إلينا، وقالوا لنا: انطلقوا راشدين فإن لكم نبأ، فقلنا: وما هو؟ فقالوا: رأينا رجلاً على الجبل وبيده عصى يومي إلينا يرد أموالكم وقد ضاق علينا الفضا من هيبتهِ ورأينا الهلاك في مخالفتهِ، وكان منا مَن تصرف ببعض أموالكم فرده حتى جمعنا بعصاه، ثم رأيناه وما نظنهُ إلا من السماء. أخبرنا أبو محمد سالم بن علي الدمياطي الصوفي، قال: سمعت الشيخ صالح بقية السلف أبا العزائم مقدام بن صالح البطايحي نزيل الحدادية بها، قال: زرت مع الشيخ إبراهيم الأعزب رضي الله عنهُ قبر الشيخ أبي محمد الشنبكي رضي الله عنهُ بالحدادية، فقال الشيخ إبراهيم: سلام عليكم دار قوم مؤمنين، فسمعت الشيخ أبا محمد من قبره يقول وأنت فعليك السلام يا شيخ إبراهيم، فتواضع لهُ الشيخ إبراهيم، فقال لهُ الشيخ أبو محمد مثلك من يكون شيخًا مكملاً، ثم قال لهُ: يا شيخ إبراهيم هبني مقدامًا يقيم عندي، فإني أحب تلاوة القرآن، فقال الشيخ إبراهيم: يا سيدي أنا ومقدام بين يديك، فقال: لا بد من إذنك لهُ في ذلك، فقال لي الشيخ إبراهيم يا مقدام قد سمعت ما قال الشيخ، فقلت: سمعًا وطاعة وودعت الشيخ إبراهيم، وجلست عند قبر الشيخ أبي محمد أتلو القرآن، قال أبو محمد الدمياطي: فكان مشايخ البطائح يقولون: إن الشيخ إبراهيم جلس عند قبر الشيخ أبي محمد الشنبكي رضي الله عنهُ ثلاثين ألف ختمة. أخبرنا أبو الفرج نصر الله بن

يوسف بن خليل الأزجي الحنبلي، قال: سمعت الشيخ أبا العباس أحمد بن إسماعيل بن حمزة الأزجي المعروف بابن الطبال قال: سمعت الشيخ المعمر أبا المظفر منصور بن المبارك بن الفضل الواعظ الواسطي المعروف بجراده، قال: عدت مع الشيخ أبي إسحٰق إبراهيم الأعزب مريضًا عليهِ جرب كثير، فشكى إلى الشيخ منهُ ضررًا كثيرًا، فالتفت الشيخ إلى خادمهِ وقال لهُ أتحمل هذا الجرب عن هذا الفقير؟ فقال: نعم يا سيدي، فقال الشيخ: قد حملتهُ عنك وحملتهُ هذا، يشير إلى خادمهِ فانتقل جميع ما على الرجل من الجرب إلى خادم الشيخ، وبقي جسد الرجل كالفضة البيضاء، ثم خرج الشيخ ونحن معهُ وخادمهُ يشكو من الألم، فلما كنا ببعض الطريق رأينا خنزيرًا، فقال الشيخ لخادمهِ: قد حملت عنك هذا الجرب وحملتهُ لهذا الخنزير، فانتقل الجرب إلى الخنزير وعوفي الخادم لوقتهِ.

أخبرنا الشريف أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي العباس الخضر بن عبد الله الحسيني الموصلي، قال: سمعت الشيخ العالم العارف أبا الفرج حسن الدويرة المصري المقرىء يقول: حكى لنا بعض أصحابنا الصلحاء: أنهُ حضر سماعًا بأم عبيدة فيهِ الشيخ إبراهيم الأعزب، وفيهِ أكثر من سبعة آلاف رجل وأنا في آخر الناس، بحيث تعسر عليَّ رؤية الشيخ إبراهيم لبعده عني، فخطر في نفسي إنكار على رؤية الشيخ إبراهيم لبعده عني وخطر في نفسي إنكار على جمعهم، فلم يتم خاطري حتى جاء الشيخ إبراهيم يشق صفوف الناس، حتى وقف عليَّ وعرك أذني وقال: يا بني إياك والاعتراض على أهل الله تعالى ولو وجدت ما وجدت لا تنكر عليهم، ثم ولى عني فخررت لوجهي مغشيًا عليَّ، فحملت إليهِ فقال لي: يا بنيّ ألم تعلم أن قلوب الخلق بين أيدينا كالمصابيح من وراء الستارة، نشهده رأي العين، وهل يخفي الحبيب عن حبيبهِ شيئًا. أخبرنا الفقيه العالم الناسك برهان الدين أبو إسحٰق إبراهيم ابن الشيخ الصالح بقية السلف أبي زكريا يحيىٰ بن يوسف العسقلاني الحنبلي قال: سمعت أبي رحمهُ الله تعالى يقول: مرضت مرضًا ظننت أني منهُ ميت، فذكرت ذلك للشيخ إبراهيم الأعزب رضي الله عنهُ وكنت عنده يومئذ زائرًا بأم عبيدة، فأطرق الشيخ ساعة ثم قال: لي يا سيدي أنت ما تموت في هذه المدة قد بقي من عمرك عدة زمان طويل، قال: وعاش والدي رحمهُ الله تعالى بعد ذلك أكثر من خمسين سنة. أخبرنا الشيخ الصالح أبو المحاسن يوسف بن أبي العباس أحمد بن شبيب المقرىء المصري، قال: سمعت الشيخ المقرىء العالم العدل أبا طالب عبد الرحمٰن بن أبي الفتح محمد بن عبد السميع الهاشمي الواسطي يقول: جمع أبو إسحٰق إبراهيم الأعزب رضي الله عنهُ مريديه ذوي الأحوال وخطبهم فأبلغ، ثم قال: استخرت الله تعالى لكم في أن آخذ منكم أحوالكم

وأدخرها لكم عند الله تعالى، ليزكيها لكم عنده فإن آفات الحياة كثيرة وإني خفت عليكم منها. أخبرنا أبو محمد أحمد بن أبي النجا سالم بن يوسف الهاشمي الموصلي، قال: سمعت الشيخ العالم العارف أبا عبد الرحيم عسكر بن عبد الرحيم النصيبيني بها، قال: حضرت برواق أم عبيدة سماعًا فيهِ الشيخ إبراهيم الأعزب رضي الله عنهُ فأنشد القوال:

رماني بالصدود كما تراني ... وألبسني الغرام فقد براني
ووقتي كلهُ حلو لذيذ ... إذا ما كان مولاي يراني
رضيت بصنعهِ في كل حال ... ولست بكاره ما قد رماني
فيا من ليس يشهد ما أراه ... لقد غيبت من عيني تراني

فتواجد الشيخ إبراهيم ووثب على الهوى على رؤوس الناس، ثم أنشد يقول:

إن كنت أضمرت غدرًا أو هممت بهِ ... يومًا فلا بلغت روحي أمانيها
أو كانت العين مذ فارقتكم نظرت ... شيئًا سواكم فخانتها أماقيها
أو كانت النفس تدعوني إلى سكن ... سواك فاحتكمت فيها أعاديها
وما تنفست إلا كنت في نفسي ... تجري بك الروح مني في مجاريها
كم دمعة فيك لي ما كنت أجريها ... وليلة كنت أفني فيك أفنيها
حاشا فأنت محل النور من بصري ... تجري بك النفس منها في مجاريها
ما في جوانح صدري بعد جانحة ... إلا وجدتك فيها قبل ما فيها

ثم أنشد أيضًا:

مجال قلوب العارفين بروقه ... الهيبة من دونها حجب الرب
معسكرة فيها ومجنى ثمارها ... تنسم روح الأنس بالله في القرب
حباها فأدناها فحازت مدى الهوى ... فلولا مدى الآمال ماتت من الحب

فصاح الشيخ إبراهيم ونادى: يا للرجال، قال: فرأيت رجال الغيب ينزلون عليهِ من الهوى مثنى وثلاث ورباع يقولون لبيك لبيك. سكن رضي الله عنهُ أم عبيدة بأرض البطائح وبها مات سنة تسع وستمائة ودفن بها وقبره هناك ظاهر يزار، وكسفت الشمس يوم موتهِ، فقال الشيخ علي القرشي رضي الله عنهُ وكان حينئذٍ بدمشق قد كسفت اليوم شمس السماء وغابت شمس الأرض، فقيل: ومن شمس الأرض؟ فقال الشيخ إبراهيم

الأعزب وقد مات اليوم. وروي عن بعض مشائح البطائح رآه بعد موتهِ، فقال لهُ: ما فعل الله بك؟ فأنشد:

لاحظتهُ حين أرآني ولاحظني ... فغبت عن رؤيتي عني بمعناه

وشاهدت همتي حقًا ملاحظتي ... لما تحققت معنى كون رؤياه

فلا إلى فرقتي وصلي ولا سكني ... إلى سواه فشاني طيب لقياه

وذكر القطب الرباني والعارف الصمداني سيدي الإمام عبد الوهاب الشعراني في مننهِ ما نصهُ: وكان سيدي إبراهيم الأعزب بالعراق لهُ خمسون ألف مريد، فورد عليهِ فقير، فقال: كيف يقدر هذا على تربية هؤلاء ومعرفتهم؟ فلما دخل على الشيخ وجد عليهِ قميصًا أزرقًا وطاقية زرقاء فقال لهُ مكاشفًا: ليس عليَّ تعب في تربيتهم لأن الله تعالى جعل قلوب الكل بيدي، ثم قام فوقف على باب الرواق وجمع أصابع كفهِ في الهواء وإذا بهم يهرولون من كل مكان حتى امتلأ الرواق، ثم بسط أصابعه فرجع كل واحد منهم من حيث جاء، حتى لم يبق في الرواق أحد فلا هو كلمهم ولا هم كلموه. فانظر يا أخي إلى هذا التصريف العظيم انتهى.

ومناقب سيدنا إبراهيم الأعزب قدس الله سره كثيرة لا تحصى، اكتفينا منها بهذا المقدار تبركًا بآثاره العظيمة المنار، ومنهمالسيد الجليل والعلم الطويل قرة عين الأولياء وإمام أكابر الأصفياء عز الملة والطريقة والحق والحقيقة، الغوث الجامع القطب الجواد أبو القاسم المعروف بأبي علي السيد أحمد الصياد رضي الله عنهُ، قال الإمام الفاروثي في النفحة المسكية السيد أبو القاسم عز الدين أحمد الكبير ويلقب بالصياد، هاجر من العراق إلى الحجاز ثم إلى اليمن ومصر وتزوج فيها من آل الملك الأفضل، وأعقب بها السيد علي وتركه عند أخوالهِ، وهاجر إلى الشام، كل ذلك خيفة الشهرة ولكيلا يشتغل بالخلق عن الخالق، إلى أن قال وقد اشتهر أمر السيد أحمد عز الدين أبي القاسم الصياد، ويقال لهُ في الشام أبو علي وفي اليمن أبو الخير، وقد حملهُ جده بيده وعظم شأنهُ وبشر بهِ وأثنى عليهِ، وقال فيهِ: ستكون لهُ دولة عظيمة وتزوره الأسود. انتهى.

وقال في جلاء الصدا: إن جده رضي الله عنهُ أجلسهُ على ركبتهِ في زمان طفوليتهِ وقبلهُ، ولم يكن ذلك بعهد منهُ لأحد، وقال رضي الله تعالى عنهُ يكون لهُ دولة عظيمة وشأن كبير وشهرة، وبعدي تزوره الأسود التي في هذه البقعة اهـ ثم لما اشتهر شأن السيد أحمد الصياد رضي الله عنهُ وعظم أمره وعلا صيتهُ وكبر مقامهُ وخفقت في الخافقين أعلامهُ، وبلغ عمره ثمانية وأربعين سنة، ففي تلك السنة خرج رضي الله عنهُ مهاجرًا من

العراق إلى زيارة جده سيد الأنام عليهِ أفضل الصلاة والسلام، وفي سنة خروجه رضي الله عنهُ توفي الخليفة أبو العباس أحمد الناصر لدين الله، وتلك سنة الاثنين والعشرين والستمائة، فزار النبي المعظم ﷺ ثم حج واعتمر وجاور بمدينة جده عليهِ الصلاة والسلام تسع سنين، وظهرت على يديهِ الكرامات وبنى رباطًا في المدينة المنورة بالقرب من ثقيفة الرصاص معروفًا برباط الرفاعي، وأخذ عنهُ الطريقة ابن نميلة الحسيني حاكم المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والإمام عبد الكريم محمد الرافعي القزويني صاحب الشرح الكبير علي الرجيز، والشيخ علم الدين علي بن محمد السنجاوي صاحب شرح الشاطبية والمفضل في شرح المفصل وغيرهما من الكتب في كل عام، والشيخ العارف بالله العالم العلامة تاج الدين الأبيدري وغيرهم رضي الله عنهم، وتلمذ لهُ أناس لا يحصى عددهم فخاف على نفسهِ من آفة الشهرة والاشتغال بالخلق عن الخالق، فهاجر أيضًا بعد الإشارة الباطنية بنشر طريقتهِ العلية إلى اليمن، وأخذ عنهُ جماعة كثيرة ينتهي إليهم الشيخ أبو بكر العدني صاحب كتاب النجم الساعي، والشيخ أبو شكيل الأنصاري والشريف محمد العلوي والشيخ أبو بكر الضجاعي وغيرهم، وبنى فيها الزوايا الكثيرة وخاف على نفسهِ من آفة الاشتغال بالخلق، فهاجر منها إلى مصر بعد أن مكث في اليمن سبع سنين على الصحيح، فأقام بمصر في المسجد الحسيني وكانت سنة ستمائة وثمانين وثلاثين فأقبل عليهِ الناس وتلمذ لهُ العلماء والشيوخ وأكابر الرجال والأشراف، وحضر مجلسهُ وحلقة ذكره جمال الدين أبو عمرو بن الحاجب رحمهُ الله، وانتسب إليه خلق كثيرون وبنى لهُ فيها رباطًا مباركًا في محلة السباع، وتزوج بمصر وهاجر منها بعد أن أقام بها سنتين لا زيادة وترك قدس سره زوجتهُ حاملة، فولدت لهُ سيدي علي المعروف بأبي الشباك في تلك السنة، وتوفيت بعد ولادته وبقي رضي الله عنهُ في بيت أخواله آل الملك الأفضل وبقي إلى أن بلغ حد الرجال، وزهد وتصوف وعظم أمره وكبرت شهرتهُ في مصر، وأعرض عن الدنيا بالكلية وبنى لهُ الرباط المشهور المدفون فيهِ الآن بمحلة سوق السلاح بالقرب من الرملية وهو معروف بمصر ويزار فيها إلى الآن.

ثم إن والده صاحب الترجمة مولانا السيد أحمد الصياد رضي الله عنهُ نزل بتلك السنة، الشام وهي السنة التي توفي فيها الخليفة أبو جعفر المنصور الملك العادل المشهور، فأقام بها قليلاً ورحل منها رضي الله عنهُ إلى حمص، فأقام فيها رضي الله عنهُ ثلاث سنين وبنى فيها رباطًا، وأخذ عنهُ رجال أعاظم قدم عليهم بحمص الشيخ جمال الدين بن محمد الأمير، وأبقاه بعده شيخ الرباط بحمص، وتتلمذ لهُ رضي الله عنهُ خلق لا يحصى عددهم، وهاجر منها إلى متكين قرية من أعمال معرة النعمان من أعمال حلب

في سنة ستمائة وثلاثة وأربعين، وكان إذ ذاك في القرية المذكورة من أهلها الشيخ صالح الصوفي الزاهد الشيخ عبد الرحمٰن، وفي بيتهِ أختهُ الصالحة الخضراء أم الخير، وكانت في غاية الجمال إلا أنها أقعدت من أربع سنين، ففي تلك الليلة رأت في منامها رجلاً يقول: عليك بهذا، وأشار لها إلى رجل أسمر اللون حسن المنظر أسود اللحية طويل القامة خفيف الوجود وسيع الجبهة، ثم قال لها هذا صاحب الوقت تمسكي بحبل ولايتهِ ويعافيك الله، فلما أصبحت أخبرت أخاها الشيخ عبد الرحمٰن بذلك، وقالت: بالله عليك تتفقد قريتنا علّ أن يقدم عليها اليوم أحد أهل الوقت، فإن هذه الإشارة إشارة صادقة، فقام الشيخ عبد الرحمٰن وتفقد القرية فرأى الشيخ الأجل والقطب الأكمل سيدنا السيد أحمد الصياد قدس سره ومعهُ ابن أخيهِ القطب الجليل الشيخ شرف الدين أبو بكر، نجل مولانا الشيخ عبد المحسن أبو الحسن بن عبد الرحيم رضي الله عنهما، فدعاه وابن أخيهِ إلى بيتهِ وذكر لهُ رؤيا أختهِ وطلب منهُ أن يقرأ عليها ما تيسر، فطلب منهُ أن يعقد لهُ عليها فأجاب، فعقد لهُ فدخل عليها رضي الله عنهُ وأخذ بيدها وقال لها قومي بإذن الله فقامت في الحال وتزوج بها رضي الله عنهُ، وقال بعد ذلك لابن أخيهِ يا شرف الدين طاب المتكأ في متكين، يشير بها إلى طول المكث في القرية المذكورة، وفي الحقيقة أقام بها وبنى فيها الرباط الكبير المشهور المدفون فيهِ الآن، وكثرت أخوانهُ وعظم شأنهُ وقصدتهُ الرجال من الشام والعراق وأظهر الله على يديه خوارق العادات، وانقطع عن الخلق وأعرض عما في أيدي الناس وعمت بركتهُ وعظمت حالتهُ، وكان إذا حل بالناس قحط وجدب استسقوا لهُ فيسقون ببركتهِ، وقد مرّ على أرض مزروعة كاد زرعها أن يتلف من عدم المطر، فنزل عن دابتهِ ومشى بين الزرع وبكى، وقال متمثلاً بقول الشاعر:

رجال إذا الدنيا دجت أشرقت بهم ... وإن أمحلت يومًا بهم ينزل القطر

فيا شامتًا بالموت لا تشمتن بهم ... حياتهم فخر وموتهم ذخر

وخرج إلى الزرع فما خرج إلا والسماء هطلت بالمطر وبقيت على ذلك أيامًا، حتى استغاث الناس من المطر فدعى الله فانكشف المطر وطلعت الشمس. ونقل مثلها عن أبيهِ القطب الكريم مولانا السيد عبد الرحيم رضي الله عنهُ، قال الشيخ شرف الدين أبو بكر بن عبد المحسن أبي الحسن الرفاعي، كنا مع السيد أحمد الصياد قدس سره حين سافر الحجاز، فمررنا في طريقنا من مشرق هيت بأرض خالية يقال لها الجرف، وقد أضرنا العطش حتى كادت القافلة أن تهلك فتفقدنا الماء فلم نجد أثرًا للماء، فجاء كل من القافلة وبكى أمام السيد أحمد فتواجد وضرب بعصاه الأرض فنبع ماء غلظ الأصبع من

محل ضرب العصى، فشربت القافلة والدواب ومشينا على أحسن حال، ثم رجعت بعد أن مشت القافلة فلم أرَ الماء، فقلت: يا سيدي غاب الماء ليت لو بقي للناس، فقال: شربت وشرب الناس من ماء العناية والله تعالى رحيم رؤوف بعباده فدع الخلق إلى الخالق، ثم قال الشيخ شرف الدين قدس سره وكنا كلما مررنا على نهر ماء استقبلهُ السمك من النهر إلى الشاطىء وازدحم على قدميهِ رضي الله عنهُ، وكذلك الدواب والهوام والغزلان في البر الأقفر، حتى أن الحيوانات نراها تقف لهُ على حافتي الطريق كالرجال المذعنة تزدحم على شم قدميهِ الشريفين، وقال بعض تلامذتهِ: وقع في زرع أهالي متكين نار عظيمة في يوم كثير الهواء شديد الريح، فالتجأ الناس إليه قدس سره فخرج من باب زاويتهِ واتجه إلى محل النار، وقال: لا إلـٰه إلا الله، فما تم كلامهُ إلا والنار خمدت ولم يبق لها أثر، ومات أحد أخوانهِ فجأة فجاءت إليهِ أم الميت وهو ساجد في صلاة الضحى فتأخر في سجوده، فقالت: وحقك لو بقيت إلى يوم القيامة ساجدًا لما تركتك إلا بولدي، فرفع رأسهُ الشريف باكيًا وإذا بالمريد وقد قام حيًا فسجد شكرًا لله على نعمته التي أنعمها عليهِ، وذكر المناوي أنه سجد سجدة واحدة فامتد سجوده سنة كاملة ما رفع رأسهُ، حتى نبت العشب على ظهره، ثم أفاق من غيبتهِ وذهولهِ ورفع رأسهُ رضي الله عنهُ. واتفق فقراءُ هذه الطريقة على أن السيد أحمد الصياد قدس سره لم يرفع طرفهُ إلى السماء قط، حياء من الله.

وكان كثير الحياء والخشوع، كثير البكاء قليل الكلام، أجازه جده القطب الكبير الرفاعي حال موته رضي الله عنهُ وهو ابن أربع سنين، وسلك بعد الكمال على يد أخيهِ لأبيهِ أبي الحسن عبد المحسن رضي الله عنهُ، وتفقه وتلقى علم التفسير والحديث من الشيخ عبد المنعم الواسطي مفتي الجن والإنس، وكان حسن الصوت في القراءة، وإذا قرأ القرآن لا يصبر السامعون عن البكاء والتواجد والحال، ألف كتابًا في الطريقة سماه الأنوار المحمدية في الوظائف الأحمدية، ولهُ شعر لطيف على لسان القوم، وأوراد شهيرة وأحزاب كثيرة، منها حزبهُ الكبير المعروف بحزب الجوهرة، وهو مجرب للفتوح ولقضاء الحاجات وعلى العدو كالسيف القاطع وهو:

بسم الله الرحمـٰن الرحيم الحمد لله رب العالمين، إلى الضالين، الله لا إلـٰه إلا هو الحي القيوم، إلى العظيم. محمد رسول الله، إلى آخر السورة. يا رب إني مغلوب فانتصر ٢١، الله على كل شيء قدير ٢١، حسبي الله ونعم الوكيل ٢١، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ٢١، إنا لله وإنا إليه راجعون ٣، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، قل كل من عند الله، إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد، فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم، بسم الله ما شاء الله، لا يسوق الخير إلا الله، بسم الله ما شاء الله لا يصرف

السوء إلا الله، بسم الله ما شاء الله ما كان من نعمة فمن الله، بسم الله ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهمَّ لك الحمد والشكر ومنك النفع والضر، سبحانك لا نحصى ثناءً عليك كيف وكل ثناء يعود إليك، جل عن ثنائنا جناب قدسك أنت كما أثنيت على نفسك، إلٰهي أسألك بحضرة السر وبسر الحضرة وبسترة حضرة الحضيرة، وبحضور أهل الحضرة وكل حضرة لك في قلوب أهل حضورك وحضرتك، إلٰهي أسألك برمز الوجد وبوجد الرمز وبسقف العز وبدعائم الهيبة وببيت العظمة، وبأركان القدرة وبأسرار الحقيقة وبأنوار المعرفة، وبطرقات العناية وبمدارج الرقاية وبمناهج الهداية، وبكل سرّ صمداني طويتهُ في قلوب أهل ودك أو أخفيتهُ عن جميع خلقك أو أكننتهُ في خزانة غيبك، أو غيبتهُ عن غيبك في علمك، إلٰهي وأسألك بسر الحال وبحال السر، وبألف الإحاطة وبباء البركة وبتاء التوحيد وبثاء الثبوت، وبجيم الجلال وبحاء الحسن وبخاء الخشية، وبدال الديمومية وبذال الذل وبراء الروح وبزاي الزيادة، وبسين السر وبشين الشهود وبصاد الصبر وبضاد الضياء وبطاء الطب وبظاء الظهور، وبعين العناية وبغين الغيب وبفاء الفرق وبقاف القرب وبكاف الكرم، وبلام الألوهية وبميم المجد وبنون النور وبهاء البهاء، وبواو الولاية وبلام ألف اللاهوتية وبياء اليد القاهر القاتلة الواهبة السالبة الرافعة الواضعة المعزة المذلة، إلٰهي وأسألك بكل خط غيبي خطته أقلام سرك على صحف إرادتك، فكشفت بذلك حقائق الحكمة لأصحاب ودك وأرباب معرفتك وحبك، فنطقوا بالحكمة فأظهرت فيهم منك تأثيرًا، وانتشر عليهم علم يؤتي الحكمة مَن يشاء ومَن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا، إلٰهي وأسألك بالنقطة الراكزة المركزة الراسخة في قلب باء البداية البادية البعيدة الباسطة البارة البارئة البارية الباذخة البارقة البارعة البادعة، التي هي بدء مبادي بدايات أسرار حقائق البداية الأصيلة الأصليَة السابقة في ميدان السبق القديم الأول، الدائرة في كل مدار راسخ ومحول، إلٰهي وأسألك بالجرة التي هي جوهرة الأمر ومدة السر وحبل الإرادة وطائل الإرادة وطريق التدوير ومنهج الغيب ومسلك الإبداع وحائل الوهم وحجاب القطع وباب الوصل وسلسلة الهز وسبيل العز ومراح الحق، جرة جيم جوهر جمع مجموع جوامع مجمع جميع مجامع جمعيات الجلال والجمال والجلالات والجلجلة والجلوات والجبروتيات والجولات والجوليات والجولات والجهريات والجريان والجاريات والجارات والمجرورات، إلٰهي وأسألك بنور الأصل وأصل النور ن ن والقلم وما يسطرون، نادرة نثر منثور الغيوب نجم آلة سمٰوات القلوب، نقطة جيم جوهرة كليات الكل وجرة جزم جيم جوهرة جزئيات الجزء، عالم السر الذي هو سر عالم كل عالم عالم

الحضرة المعلم لكل عالم، آية البيان بنيان الحال حقيقة الأحوال جوهرة الحقيقة في كل حقيقة سر جوهرة حقيقة كل طريقة، آيتك في كل آية وعنايتك في كل عناية حبلك المتين الذي ربطت به كل موصول، بحبلك الرباني حصنك الحصين الذي حصنت بهِ كل محفوظ بحفظك الصمداني، جوهرة خاتم أمرك بين أهل وصلك، جوهرة ختم إرادتك في جحفل أنبيائك ورسلك، حبيبك محبوبك قلم كتابة أسرارك لوح محفوظ، مكتوماتك عرش جمال عطايتك كرسي كمال إنعاماتك النعمة المنزلة والرحمة المرسلة، أول حرف خط أول قلم خط، أديب مجلس دولة، إنا أعطيناك، آخذ مذثور، فخر بولاك لولاك راية عواطف إنعام مددانا، كفيناك علم تعطفات رأفة، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، مظهر قوة لطيف مذاكرات ألم يجدك يتيمًا فآوى، قابلية سعادة سؤدد سلطنة إحسان، فدنا فتدلى سرير ملك فيض عظيم عظمة برهان، سبحان الذي أسرى جبل فخر مدحة لوح فضل لسان، وإنك لعلى مزية الأولوية أولوية المزية فيضتك الجوالة نعمتك الهطالة، مظهر رسم ظاهر مظاهر الجلالة مبين قوافي خوافي بواطن دقائقها على كل حالة، أمير دولة النبوة أمين أسرار الرسالة، إلٰهي أسألك قبل السؤال بهِ لا بغيره، فهو الباب الأول وعليهِ في دائرة الغيب والحضور المعول، أن تصلي عليهِ صلاة غيبية قدسية رحمانية ربانية صمدانية برهانية سبحانية سلطانية كاملة شاملة كافية وافية، ملفوفة بإزاء حبك مطرزة بطراز عطفك، محمولة على نجائب رفقك مرسلة مع حجاب بشارتك مقدمة بأيدي كرامتك، سيالة مع بحر العلم مع بحر الكرم مع بحر المدد مع بحر القدم مع بحر التأييد مع بحر التأبيد مع بحر الدوام، مع بحر البداية مع بحر النهاية مع بحر الغيب مع بحر القدس مع بحر الرحمة مع بحر الربوبية مع بحر الصمدانية مع بحر البرهانية مع بحر الدور مع بحر الملك، خاتم الأبحر، وسلم اللهمَّ عليهِ سلامًا سيالاً مع كل ذلك وفوق ذلك ومع كل حركة وسكنة وطرفة وإرادة وحادث وصاعد ونازل ومتكلم وصامت، وعلى ساداتنا أخوانهِ من النبيين والمرسلين وآل كل وصحب كل أجمعين، إلٰهي وأسألك بحق قدره وقربهِ منك وبحق قدر أخوانهِ وقربهم وبحق آلهم وأصحابهم، وبحق كل عبد لك قربتهُ منك أو بينت لهُ سرك أو جعلتهُ من محبيك أو من محابيبك، وبحق السر الذي أودعتهُ في الجميع قبل القبل وبعد القبل وقبل البعد وبعد البعد، إلٰهي وأسألك بأسرار كلماتك التي لا تنفد ولا يعلمها بحالها غيرك أحد، إلٰهي وأسألك بكل ما سألك بهِ حبيبك الذي لأجلهِ أحببت من أحبهُ أن ترزقني حقيقة محبتهِ بأحق حقيقة وأصدق محبة، وأن تشملني منك بعناية توفقني إلى حقيقة الإخلاص لهُ، وأن تتعطف عليَّ بنهضة قبول منهُ تدلني على طريق الوصول إليه، فاحفظ بهِ من كل وهم وثابت وعرض ومعارض وخطر وخاطر وعدو وصاحب ومسلم

وكافر وبر وفاجر وجن وإنس وشيطان ونفس، ومن كل طارق وسارق وحاكم وظالم وعين ومعاين ورفيق خاين وزمان غادر وسلطان قاهر، واجمعني اللهمَّ بحقهِ عليهِ وقربني بهِ إليهِ واجمع بي على شتاتي وبارك لي في أوقاتي وقلب لي قلوب عبادك، فأنتفع من صالحهم وأحفظ من طالحهم، واجعل لي هيبة من هيبة حضرتهِ المحمدية وسلطنة عزه الأحمدية فاقهر بها كل معاند وأقوى بها على كل خصم ومعادي، وارزقني لسانًا مصطفويًا من سر لسانهِ المبارك المتكلم المكرم بجوامع الكلم، وأيدني بدولة وحيدية من حاشية ذات دولتهِ الممدودة بمدد ديموميتك الدوامية، وأتحفني بصولة أحيدية من عين صولة صولتهِ المؤيدة ببركة، إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، وأغثني ببركة يسينية من قلب مدد بركته المبرقعة، ببشارة إنا أعطيناك الكوثر فصلّ لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر، فأبقى ببقائهِ وأفنى بفنائهِ وأموت بهِ الموتة الأولى الثانية عند أهل الذوق، وأحيى بهِ الحياة الأولى الباقية مع الحق، فأكون محفوظًا محميًا منصورًا مؤيدًا مكفيًا مباركًا قويًا راضيًا مرضيًا مكرمًا غنيًا محترمًا عليًا، محفوظًا بالعافية والسلامة والأمن والإيمان والبركة والاحسان والهداية والاطمئنان، وأقتل بسيفهِ القاطع أعدائي وأُحفظ بستره الوافي من أمامي وورائي، سبحانك لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، وأنت أرحم الراحمين، صلّ وسلّم على سيدنا وسيد كل من لك عليهِ سيادة محمد الواحد في ذاتهِ الوحيد في صفاتهِ، وعلى الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والأولياء العارفين والأقطاب المؤيدين والأوتاد المعروفين والرجال الأربعين والأكابر الموظفين وأهل الديوان المتصرفين وأهل الحضرة والصالحين، وعلى إمام القوم صاحب الوقت الخليفة القائل الإنسان الكامل الغوث الفرد المقدم الواسطة المنفذ رضي الله عنهُ، وعليهِ السلام مني في كلّ وقت وآن، اللهمَّ عطّف قلبه الشريف عليَّ وعطّف عليَّ وعليهِ قلب نبيك سيد الأنام ومصباح الظلام ﷺ، اللهمَّ اغفر لي وللمسلمين واحفظنا أجمعين، وأحينا شاكرين وأمتنا مؤمنين واحشرنا تحت لواء سيد المرسلين، واجعلنا من الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وارزقنا الحلال ويسر لنا بالخير الآمال، واجعلنا عبيدًا لك على كل حال، واغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين، وصلّ وسلّم بجلالك وجمالك على جميع النبيين والمرسلين وآل كل وصحب كل أجمعين، والحمد لله رب العالمين. ومن شعره بلسان الغيبة عن الأكوان والوجد المعروف بين أهل هذا الشأن هذه القصيدة الفريدة والدرة الوحيدة، وهي صدرت جوابًا عن سؤال ورد لهُ من الشيخ سعيد الطنتطواىء وهو:

كيف عنك المقام يا درة الحي	كيف فيك التماس من ينشر الطي
كيف منك المقال كيفهُ حتى	يحصل الرشد لي وأهدى من الغي

فقال رضي الله عنهُ مجاوبًا لهُ:

عبد أهل الطريق خدام ذي الحي — ولذا الالتماس أرجو من الحي
إذ من الناس ما نجى الله قيلا — دمت بالرشد يا نجيًا من الغي
وإذا السكر راعني حال محوي — وشهدت الجمال من منشر الطي
وترويت في ثياب ابتهائي — وانتمائي لظلمة الجمع والغي
وانتميت الجلال أخبرك أني — كاف كن أنت مورد القوم للري
وأنا النون قبل ذي النون ملقى — في بطون الرضا قويمًا بلالي
صرت موسى فدك طور اشتياقي — صرت عيسى ومريم الدهر كفي
صرت في الربع يوسفًا قال قلبي — صرت يعقوبي دبراني خليلي
صرت إدريس وارتقيت المعاني — وفهمت الرموز بالأين والأي
صرت داود صار حالي سليما — ن وصارت أضداد حالي بنوطي
سخر الريح لي فمديت كفًا — وحبيبي قد مد بالريح كفي
لان لي قاسي الحديد ولكن — لنت للحب ما حديدي وما اللي
كل أهل القلوب مني استفادوا — مظهر السعد واللطائف والطي
لم أخف هجره ومن ظن هذا — فهو صخر لا يعرف اللوح والزي
أنا في القلب لا أروم شهودي — لحبيبي بل شهودي بعيني
مَن أتاني ولاذ في ظل بابي — عنده جملة الزمان كلا شيء
أنا شيخ العراق والشام والكر — خ وأقصى بلاد كرمان والري
فتملى بزورتي يا مريدي — وتهنى يا قاصدًا جاء للحي
أنا عين الأقطاب غوث البرايا — وطراز البرهان في الشمس والفي
أنا شبل الحسين وابن علي — وابن آل بذكرهم يدفع العي
أنا ذاك الصياد سبط الرفاعي — ويكفي اقتنصت بالقلب سبعي
فخذ الفيض من شريعة قلبي — وانتسب لي ولا تعول على مي
فلقلبي سهم تأجج نارًا — من تعدى على ذويهِ عطي الكي
ولهُ جذبة عجيبة عزم — تجذب اللائذين فيهِ إلى الحي
سلسلتني إلى الرسول بطون — من أعز الأصلاب من أكرم الحي

فعليهِ الصلاة تنشر مسكًا أزليًا من السلام بهِ ري

ولهُ رضي الله عنهُ:

صاحبت أهلك في هواك وهم عدا ولأجل عين ألف عين تكرم

قال الشيخ موسى الكبير: صدر الشعر بلسان الوجد والفكر من الحضرة الصيادية في البداية، وانقطع عنها حبل الأغيار بالكلية في النهاية انتهى. وقد كان رضي الله عنهُ في نهاية أمره كثير الفكر والبكاء والأحزان مشغولاً بالله عن الأكوان يقطع الأوقات بالأذكار والتلاوات، قلبه بمحبوبهِ مشغوف وسره عليهِ مشغول ملهوف، وكان كثيرًا ما يتمثل بقول الواسطي:

روحي الفدا للنازلين بمهجتي والحاضرين مع الفؤاد الغائب

أبكي إذا ذكرت طلول[1] ربوعهم ألمًا من القلب الكثيب الذائب

وأتوب عن ذكر السوى طمعًا بهم والاستقامة أصل صدق التائب

ومع إعراضهِ عن الخلق بلغت مريدوه إلى مائتي ألف في حياتهِ، وعم نفعهُ الخاص والعام وأيد الله ببركة إرشاده الإسلام، خلف من زوجتهِ الصالحة العارفة خضرا أم الخير أربعة أولاد ذكورًا، الأول سيدنا السيد الجليل والعلم الطويل القطب الفرد السيد صدر الدين علي، والثاني السيد شمس الدين، والثالث السيد أحمد أبو بكر، والرابع السيد موسى، فتزوج كل منهم وأعقب الكل ذرية وتفرقت ذراريهم في الجهات، فمنهم من عاد إلى العراق ومنهم من سكن الشام ومنهم مَن أقام في قرى حلب ومع العرب بالبادية، وتوفي سيدنا أحمد الصياد قدس سره العزيز ورضي الله عنهُ في سنة الستمائة والسبعين، ولهُ من العمر ستة وتسعون سنة ودفن في القبة المباركة تجاه جامع الرباط، وفي سنة وفاتهِ توفي ابن أخيهِ الشيخ شرف الدين أبو بكر بن أبي الحسن عبد المحسن بعده بأيام قلائل، ودفنوه في الجامع ملاصقًا لحائط باب الجامع عند الشباك تجاه باب قبة الغوث الجامع، مولانا السيد أحمد الصياد قدس سره، وسبب شهرة مولانا المشار إليه بالصياد، هو أن ملك العجم جاء إلى زيارته في واسط فأعجبهُ حاله وما هو عليهِ وحسن اعتقاده فيهِ، فقال لهُ يا سيدي لا صنعة لك ولا كسب وإني أريد أن أعطيك لمعيشة عيالك وفقرائك من القرايا ما تصلح بهِ شأنك، فقال رضي الله عنهُ لي صنعة وهي الصيد وأدخل بيده تحت مرقعته، فرمى في المجلس أسدين مربوطين بحبل من ليف النخل، وقال وعزة

(١) الطلول: جمع طَلَلٌ وهو ما يبقى شاخصًا من آثار الديار.

ربي صدتهما من فلاة بربع الخراب، فقال الملك أنعم بك من صياد، واشتهر بذلك وكانت تلك الشهرة سبب هجرته من واسط. قال في البهجة: ولد السيد أحمد الصياد الكبير في سنة الخمسمائة وأربعة وسبعين، قبل وفاة جده الغوث الأعظم والإمام المقدم السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ بأربع سنين، وفي السنة التاسعة عشر بعد ولادته تزوج ببنت عمهِ السيد عبد السلام بن عثمان المسماة برقية بنت السيدة فاطمة بنت الشيخ أبي بكر النجاري، خال الشيخ الكبير السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ ووالد زوجته السيدة رابعة رضي الله عنها، فأعقب منها السيد عبد الرحيم فقط، قلت: وذكر صاحب أم البراهين أن والد السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ مولانا السيد علي أبو الحسن تزوج بالست فاطمة بنت سيدي يحيىٰ النجاري الأنصاري قدس سره، فولدت الشيخ المشار إليه والمعول عليهِ سيدي أحمد والسيد عثمان والسيد إسماعيل والسيدة ست النسب، فتزوج بست النسب ابن عمها سيدي عثمان بن حسن بن عسلة بن حازم جد السيد أحمد الرفاعي، وعقد سلسلة هذا البيت المبارك، فأعقب منها السيد علي والسيد عبد الرحيم والسيد عبد السلام عم السيد أحمد الصياد ووالد زوجته رقية أم ولده عبد الرحيم رضي الله عنهم أجمعين، ولا يخفى على ذي فكر ما للسيد أحمد الصياد في البلاد الشامية والنواحي الحلبية وغيرها من الشهرة والشأن وكثرة المحبين والمعتقدين والخلان، والكرامات المتواترة المنقولة والذرية المباركة المقبولة التي سيأتي ذكر بعض أفراد رجالها الأنجاب في هذا الباب، وقد أثنى على السيد أحمد الصياد قدس سره العزيز رجال عصره وأولياء وقته ثناء جميلاً.

قال سيدنا أحمد بن جلال، عند ذكره في كتابهِ جلاء الصدا: هو الإمام الكبير والعارف الخبير الزكي الأعراق والزاكي الأخلاق ذو الخصائل الحميدة، سمي النبي العظيم وكني الرسول الكريم، السيد أحمد أبو القاسم بن السيد عبد الرحيم، كان قدس سره من خيار القوم ذا حياء عظيم وخلق حسن، تاليًا كتاب الله أناء الليل وأطراف النهار بالخشوع والتذلل والبكاء والتدبر، ولما رجع من بيت الله الحرام زاده الله شرفًا، اختار الخلوة في رواقهِ وذكر الحي الذي لا يموت، مع المداومة على صيام النهار وقيام الليل والسكوت نفعنا الله بهِ وبأجداده وبأولاده وأحفاده أمين .اهـ. وقال في جلاء الصدا: ومنهم الإمام الصدر الحليم والهمام الحبر الحكيم، حاوي محاسن الخصائل وجامع شتات الفضائل طائر عش الولاية وباسط فرش الهداية، البعيد الغاية الرفيع الراية أبو السادة الأحمدية وسيد القادة الرفاعية، صاحب المعارف والمعالي والمناصب العلية العوالي، سمي حبيب الله المرشد الداعي إلى الله سيد شمس الشريعة والدين، محمد أكرمهُ الله تعالى باللقاء المؤيد، استُخلف بعد ابن عمهِ فقصد الإرشاد للخلائق ودعاهم

إلى حقيقة الحقائق، كان مسكن البلاء ومعدن الحياء ذا خلق فائح ورأي صايب ناجح، وصوت شجي وعقل سني وسر خفي يبكي في خلوتهِ كثيرًا وكان لهُ حزنًا عظيمًا، وإذا قرأ كتاب الله تعالى يفرح كثيرًا ولا يظهر الكرامات قط، ويقول إظهار الكرامات استدراج وإخفاءها سر، وما ينبغي أن يظهر الأسرار، يقتفي آثار جده رأس المهتدين ولا يتهاون بأمر يتعلق بالدين، يشاور الأصحاب ولا ينطق إلا بالصواب، كان جده يحبهُ ويوصيه ويبجلهُ ويدنيه ويلقبه سديد ورمانة القبان، وقال يومًا للفقراء: أي فقراء علي خليفتي وعبد الرحيم خليفتي ولا فرق بيني وبين محمد، وسألت العزيز سبحانهُ أن يعطيهُ أكثر مما أعطى مثلهُ أو دونهُ فأعطاه، ولما ولد أذّن السيد الكبير في أذنهِ اليمنى وأقام في اليسرى، وأدخل أصبعهُ في حلقهِ وضمهُ إلى صدره ودعى لهُ بمجامع الكلام، وقال للسيد عبد الرحيم ابنك محمد حكيم الوقت، وقال أيضًا لهُ في صوتك سر من أسرار الله تعالى وكلمة الحق، وقال أيضًا: لمحمد سر خفي من الخلق، وقال عمهُ السيد علي قدس سره: لو جربني أهل السمٰوات وأهل الأرض فإني أغلب عليهم، إلا محمد ابن أخي فإني أراه بحرًا ما لهُ ساحل، وقال السيد إبراهيم الأعزب قدس سره في شأنهِ: إنهُ بحر لا ساحل لهُ ولا يعرفهُ إلا الله تعالى، نقل أنهُ لما توفي السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنهُ أخذ كل واحد من أهل بيتهِ قطعة من خرقتهِ، وقيل للسيد محمد أنت خذ قطعة من خرقتهِ، فقال أنا ما أرضى من جدي بقطعة من خرقتهِ، أنا أطلب من جدي خلقهُ. ونقل أيضًا أنهُ كان في بغداد وقد التمسوا منهُ أن يصف لهم شيئًا من مناقب جده، فقال لهم: كيف أثني على شجرة أنا فرعها، فقالوا: الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما ينقلان مناقب رسول الله ﷺ وأفعاله، فقال لاستنباط الشريعة منها، وكان كثيرًا ما ينشد هذه الأبيات ويقول هذه صفة أهل الزمان، شعرًا:

الناس في زمن الإقبال كالشجرة ... من حولها الناس ما دامت بها الثمره

حتى إذا ما انقضت من حولها نفروا ... عنها جميعًا وقد كانت بهم بروه

مروءة الناس هذا الشأن كلهم ... إلا القليل فأين العشر من عشره

فإن ظفرت بمن تبقى مودتهُ ... فاعقد عليه يدًا واحفظ لهُ خطره

ولا تقف لامرءٍ من غير تجربة ... فربما لم يوافق علمه نظره

وكان قدس سره ينشد شعرًا:

الحب بحر لا يروم قراره ... ضحضاحه[1] للعاشقين يغرق

(١) الضحضاح: الماء القليل العمق.

وكان بعد وفاة جده ينشد شعرًا:

والله ما طلعت شمس ولا غربت إلا وذكرك مقرون بأنفاسي
ولا جلست إلى قوم أحدثهم إلا وكنت حديثي بين جلاسي
ولا شربت لذيذ الماء من ظمإ إلا وجدت خيالاً منك في الكاسي

وكان ينشد أيضًا شعرًا:

بعدكم ما لدار طيبه لا ولا الأوطان أوطان

وكان قدس سره ينشد أيضًا شعرًا:

بي منك نيران الهوى تلسع فكيف من هجرك لا أجزع
فإن لي مذ غبت عن ناظري في كل عضو مقلة تدمع
أجابني الشوق إلى نظرة منكم فمن ذا منكم يشبع

كانت مدة خلافتهِ سبع سنين وأشهر، وتوفي أول شهر رجب سنة تسع عشر وستمائة، وغسلهُ محمد النقيب ودفن عصْر يومهِ في قبة جدهِ، ومنهم السيد السند والإمام المعتمد بحر الحقائق وغوث الخلائق وارث العلوم المحمدية وكاشف الرموز الأحمدية، صفوة خيار الرجال وحقيقة كبار الأبطال، علم الهدى ومصباح الدجا قطب دائرة الولاية وشمس سماء العناية، ذو النور الباهر والقدر العلي سيدي قطب الحق والدين، أبو الحسن علي، استُخلف بعد أخيهِ وكان ذا جاه وسيع وقدر رفيع وشأن منيع، ذا هيبة في قلوب أبناء الدنيا وحرمة في قلوب أبناء الآخرة، وكان محدثًا عالمًا مفتيًا واعظًا تقيًا، يتلو كتاب الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار، وكان سليم الصدر نقي القلب طروبًا لا يرى أحد لهُ عضوًا، أمر الآخرة عنده عظيم وأمر الدنيا عنده هين، وكان في شأن المؤمن كالجمل الألوف والمؤمن هين لين، وكان لهُ أولاد نجباء وأصحاب أدباء، من صحبه لا ينساه ولا يقدر أن يصحب أحدًا سواه، وكان ذا أمراض وأسقام وأوجاع وآلام يعد البلاء من النعماء، ودأبهُ التسليم لذي القدرة والقضاء يجيب من دعاه ويسمع ممن قال ولا يخيب من رجاه على كل حال، يكرم الأرامل والأيتام ويعظم شعائر الإسلام وكان الظل للظليل والعز للذليل والمعاد للضعيف والملاذ للهيف[1]، لا يجازي بالسيئة السيئة ابتغاء مرضاة الحي الذي لا يموت، ويراعي أهل الفضل والعلم من شهد لهُ بالخير تبينت عليهِ إمارته، ومن شهد لهُ بالشر ظهرت عليهِ علاماته، حزنهُ دائم وبكائهُ متواصل يحب الخلوة

(١) الهيف: ضامر البطن دقيق الخصر يقال هو أهيف وهو هيفاء.

مستجاب الدعوة، ذا لسان فصيح وقول صحيح وكلام مليح ووجه صبيح، وصوت حزين وقلب حنين إذا جلس وحدث يشفي العليل ويبرد الغليل، كان معروفًا بإجابة الدعاء من إلـٰه الأرض والسماء، نقل أنهُ في بعض السنين انقطع عنهم المطر ويبس الشجر والمدر فألزمهُ كبار الفقراء ليدعو الله تعالى، فدعى ربه المفضال فأمطروا في الحال حتى استغاثوا من كثرة المطر، فالتمسوا منهُ الدعاء لذلك فدعى الله تعالى فوقف المطر في الحال، ونقل أن في بعض السنين كان قد انقطع عنهم ماء الدجلة في الشتاء فألحت عليهِ الفقراء ليدعو ربهم ليغيثهم بالغيث، وقالوا لهُ: قل للماء أكثر حتى يكثر ببركة كلامك وكان ذلك نصف النهار، فدعا ربه فما جاء الليل حتى كثر ماء الدجلة فوق مطلوبهم وسقوا أشجارهم وزروعهم ببركة دعائهِ وهمته، وكان افتخاره في خدمة باب مولاه ويقول: لست بشيخ أنا خادم إن صلحت، وكان يقول: أنا لا أصلح أن أكون مع أهل هذا الوقت، ويقول: أنا خير الخير وكان في آخر عمره ينشد:

سيذكرني قومي إذا جد جدّهم وفي ليلة الظلماء يفتقد البدر

كانت مدة خلافته ستة عشر سنة وأشهر، وتوفي يوم الخميس الرابع عشر من جمادى الأولى سنة ثلاثين وستمائة، وغسلهُ أحمد بن عبد الرحمـٰن بن يعقوب الكراز وحسين بن عبد الجبار ودفن في قبة جدّه.

نقل عن بعض الفقراء قال: كنت عند الشيخ عثمان القصير حين جاء خبر وفاة السيد قطب الدين أبي الحسن علي الرفاعي، فقال كان علي الرفاعي أمانًا لأهل الأرض وظلاً ظليلاً على سائر الخلق وبعده تظهر آثاره فإنهُ ليس من القنوت التخلف عنهُ، فمات بعده بأيام قلائل، ومنهم الإمام السعيد والسيد الرشيد والعلم الراسخ والقدر الشامخ والمجد البازخ والفضائل العالية والخصائل السامية والبركات النامية، در صدف الهاشمية وأبو السادة الرفاعية صاحب السر الخفي والنور الجلي، السيد نجم الحق والدين قدس الله روحهُ، ووالى من فيضهِ الأقدس فتوحهُ، استُخلف بعد ابن عمهِ وكان ذا سيرة حميدة زكية وأخلاق سديدة رضية كان وحيد دهره وفريد عصره، عمَّر الله القلوب بمحبتهِ وملأ الصدور من هيبتهِ، وعم الأقطار بذكره وعطر الآفاق بنشره اليتيم والمسكين، كانا مكرمان عنده وكانت الدنيا قد أقبلت عليه تخرج بصحبته جماعة كثيرة من أعلام الطريق وتلمذ لهُ خلق لا يحصون من أرباب الأحوال الصادقة، وانتمى إليه عالم عظيم في كل قطر ويتبعهُ جم غفير من كل جهة، حمل من الأثقال ما عجز عنهُ كثير من الرجال وأوذي كثيرًا ولاقى عظيمًا من الأهوال، صاحب مواهب جزيلة لا تنسى ومناقب جليلة لا تحصى، منها ما قالهُ صاحب أم البراهين: حدثني الشيخ إبراهيم عن ابن عبد الرحمـٰن شيخ

الحرمين، قبل موتهِ بأيام قال: رأيت كأني بأرض فسيحة وكان في تلك الأرض قصرًا عاليًا بنيانهُ عليه طيور كثيرة خضراء، وحول القصر عالم لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، فقلت لبعضهم لمن هذا القصر، قال للسيد أحمد الرفاعي، فقلت لأي سيد أحمد الرفاعي، السيد أحمد في بني الرفاعي كثير، فقال السيد نجم الدين الأخضر بن علي، قلت: فما هذه الطيور التي حول العرش؟، فقال: هذه أرواح الصالحين يسلمون عليه، قلت: ومن هذا الخلق العظيم؟ قال: هؤلاء يأخذون كتب أمانهم من النار، قلت: فأنا صاحبهُ أريد أن أحضر مع الناس وآخذ مثلهم كتابًا، فأتيت باب القصر فوجدت خادمهُ علي بن بدران فسلمت عليهِ وقلت لهُ يا أخي أريد أن أدخل على سيدي نجم الدين وأسلم عليهِ، فقال إنهُ دخل القصر وما تقدر أن تدخل عليه اليوم فقلت ادخل أنت وبلّغه سلامي وقل إنه يريد كتابًا مثل كتاب هؤلاء الناس، فدخل وغاب عني ساعة وأتى ومعهُ كتاب أبيض مكتوب فيهِ بالنور، فأخذتهُ ورجعت، قال: فسألناه ما كان فيهِ فأبى أن يقول لنا.

وقال صاحب أم البراهين، حدثنا الشيخ السيد محمد خطيب الحصن قدس الله روحهُ، قال: كنت ذات ليلة مظلمة باردة في البيت وأنا قائم أصلي وقد انقضى من الليل أولهُ، وإذا أنا برجل ينادي من يرحم الغريب ويأويه من هذا البرد ويسد جوعتهُ، فلما سمعتهُ قلت: ما لي لا أكسب حسنة وأدخلهُ البيت يبيت عندي ويأكل شيئًا، فخرجت وقلت أي فقير تعال، فأتى وأدخلتهُ وأجلستهُ على التنور وقدمت لهُ طعامًا، وقلت لهُ: بسم الله كُل فمدَّ يده وقال: أي محمد هذا الخبز يابس بلا أدم، فقلت في نفسي ما هذا إلا فضولي وندمت على دخولهِ في بيتي، وكان قلبي مائلاً إلى محبة السيد أحمد ابن ست الكرام، فقلت لهُ: أهو القطب؟ فضحك وقال لي: اسكت أي محمد ظننت أنك تعرف سيدي محمد ابن ست الكرام يموت، فرضني كلامهُ وقلت لهُ رأيت الموت أخذ روحك وغضبت عليهِ غضبًا شديدًا، ثم قلت لهُ من القطب فقال القطب نجم الدين أحمد بن علي، الذي هو يكون صاحب الأمر والنهي وصاحب الحكم في اليقين، فلما سمعت كلامهُ حردت، فقال لي كأنك ضاق صدرك مني، فقلت: نعم واسكت، ثم سكت عني وبقيت أنا متفكرًا فيهِ وفي قولهِ، فلما كان وقت الفجر قمت لأنبههُ وأطرده فلم أجده مكانه ورأيت الخبز مكانهُ ما أكلهُ، فقلت: قد يكون خرج وخلى الباب مفتوحًا فأتيت فوجدتهُ مغلقًا، فعلمت عند ذلك أنهُ كان من الرجال، ثم صليت الصبح وتوجهت إلى أم عبيدة وأنا فزعان على سيدي أحمد الرفاعي ابن ست الكرام، فلما وصلت دخلت الرواق فوجدت السيد أحمد الرفاعي جالسًا في الرواق وهو في عافية ففرحت وسلمت عليه،

وقلت في نفسي قد كذب الشيطان ثم أقمت في الرواق يومين فلما كان اليوم الثالث، قيل قد حم اليوم السيد أحمد الرفاعي ابن ست الكرام ولم يخرج إلى صلاة الصبح، وبقي ثلاثة أيام وتوفي إلى رحمة الله تعالى، فجاء عليهِ أمر عظيم ثم اجتمع الناس للعزاء والسيد نجم الدين أحمد مع الناس، فبينما أنا أمشي إذ هو ناداني: أي محمد تعال، فجئت إليه وسلّمت عليهِ وقبلت يده، فقال: أي محمد العلامة صحيحة، فذكرت قول ذلك الرجل وقلت نعم أي سيدي، وكان رضي الله عنهُ ما تصدر في المجلس ولا جلس على المخدة تواضعًا من أعيان المشايخ وإجلال العارفين وأكابر المحققين، وكان يقول مَن أنا وأيش أنا حتى أجلس على مخدة سلطان العارفين، ويقول هذا ابتداء مني حتى لا يجلس أحد بعدي على مخدتهِ، ويقول أنا آخر الأخبار، وكان السيد أحمد الكبير يحبهُ ويأمر بمحبتهِ ويقول أحمد بضعة مني وحملهُ وهو في القماط، وقال في شأنهِ عرض عليهِ الدولة الأبدية السرمدية وسيف الولاية، وهو يكون صاحب الوقت وسيف الولاية لهُ، كانت مدة خلافتهِ خمس سنين وأشهر وتوفي يوم الجمعة رابع عشر شهر شعبان سنة واحد وأربعين وستمائة، وغسلهُ الشيخ محبوب النقيب ودفن في فم الدير رضي الله تعالى عنهُ.

ومنهم السيد الإمام والسند الهمام والحر الكريم والدر اليتيم، والشريف النسب واللطيف الرتب والجدير بالمدايح والكريم بالمنائح، ذو المعارف والعوارف العلية والمعارف السنية والآيات المشهورة والكرامات المذكورة، والأصل الموصل والمجد المؤثل، صاحب الشأن العالي والمقام الطائح، السيد قطب الحق والدين الصالح قدس الله تعالى سره، وكان أدرّ الله عليه بره تاليًا كتاب الله تعالى آناء اليل وأطراف النهار وكان قد حفظهُ واشتغل في الفقه، وكان يكتب خطًا مليحًا وكان مجتهدًا في العبادة، وكان ذا صوت حزين وشوق حنين وخلق كريم وقلب سليم، معروفًا بالفصاحة مشهورًا بالجود والسماحة، أم بين يدي أبيهِ وصعد الكرسي ووعظ الناس، حُكي أن أباه رضي الله تعالى عنهُ قال قبل وفاتهِ بستة أشهر: أي فقراء أي أخواني مات ولدي صالح وعاد مرارًا، حتى قطع الدمع من عينهِ ثم صاح وسقط رداؤه وغشي عليهِ ساعة وتغير لونهُ، ثم أفاق وقال لا إلٰه إلا الله مات ولدي صالح لا إلٰه إلا الله، أين مثل ولدي صالح كل صباح ومساء كان يقرأ فاتحة الكتاب وآية الكرسي كل واحدة اثنتي عشرة مرة ويخفيها عن الخلق، وقال مرة بعد وفاتهِ ما عبر ولدي صالح حتى وصل إلى مقام مثل سيدي الشيخ عزاز وسيدي مهبوب وأشباههم مزاين للناس، مثل ولدي صالح ما بات ليلة حتى قرأ سورة يس وتبارك الملك، نقل أن السيد أحمد الرفاعي قدس الله سره نزل مرة في الماء وأقبل جماعة من الجن، ومشى إلى أم عبيدة وتوب أهلها ونصب فيهم، وقيل إنهُ يريد في حياة

أبيهِ المشيخة والمخدة فمات، ومنهم الشيخ سعيد والإمام الرشيد صاحب الهمم العالية والنفس الزكية، الزاهد الأواب الخاشع عند تلاوة الكتاب، ولي الله الملك العليم السيد عبد السلام رحمة الله عليهِ، كان كثير التلاوة فإذا تلى القرآن يتغير لونهُ ويميل كما يميل الشجر من الريح العاصف، وربما قرأ آية ويرددها كثيرًا فقيل لهُ في ذلك فقال ليسمع من الله تعالى مرة أي سمع إجابة، ودليل ذلك ما جاء في السنة كقول المصلي سمع الله لمن حمده، وكقول الله تعالى: ﴿قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها﴾ [المجادلة: ١] الآية وكان يلبس من ثياب الصوف الخشنة القصيرة، ويقنع من الدنيا باليسير وشهد لهُ خالهُ، أن قلبهُ مصباح منير وكان رضي الله تعالى عنهُ يسميه الدرة اليتيمة، وقال رضي الله تعالى في شأنهِ: إنه كان ابن عشر سنين ويعرض عليهِ هذه الدولة الأبدية وسيف الولاية، ويلتمس منهُ أن يؤذن وينشر صيتهُ بالعلم وهو يأبى ويتذلل، وقال رضي الله تعالى عنهُ في شأنهِ أيضًا أنهُ يكون لهُ دولة في الآخرة، وكان سيدي عبد السلام قدس سره يخفي أحوالهُ وأسراره، وما عاد قط مريضًا إلا شفاه الله تعالى.

نقل أن جماعة من الأولياء الذين دأبهم السير في أقطار العالم، التمسوا من السيد أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه، أن يأمر عبد السلام بمصاحبتهم ومرافقتهم في السير، فقبل مأمولهم وملتمسهم وأمره أن يسير معهم، فبكى السيد عبد الرحيم لفراق أخيهِ فترجى السيد أحمد الرفاعي فمنعهُ من مرافقتهم، وتوفي يوم العشرين من ربيع الآخر سنة ثمانين وخمسمائة في خلافة أخيهِ السيد علي، ومنهم الشيخ المعظم والإمام المقدم لشرع المحامد والمعالي متبوع الأماجد والأعالي صاحب المقامات العلية والأحاديث السنية، السيد الممجد الولي الكريم السيد عز الدين أحمد ابن السيد عبد الرحيم، كان قدس سره حسن الخلق طليق الوجه بسام الثغر شريف المعاني لطيف الشمائل، لم يكن في هذا البيت أكرم منه ما كان للدنيا عنده قدر ولا قيمة كان طروبًا في السماع وتلاوة القرآن، صاحب وجد عظيم وخلق كريم وقلب سليم وهمة عالية، ورغبة في الاتفاق سامية ينفق على مَن يحبه ويتفقده، ودفن في قبة جده رضي الله تعالى عنهما. ومنهم سيدنا العارف بالله والدال على الله صاحب القدر العلي والشرف الجلي، القطب الجليل مولانا السيد صدر الدين علي ابن القطب الفرد الجواد، السيد عز الدين أحمد الصياد قدس سرهما، ولد سيدنا السيد صدر الدين علي قدس سره في سنة ستمائة وخمسة وأربعين، وتركهُ أبوه رضي الله عنهما ولهُ خمسة وعشرون سنة، تلقى الفقه الشافعي عن القاضي عز الدين محمد ابن الصائغ وحضر أيضًا على العالم الحجة جمال الدين بن واصل الشافعي الحموي وغيرهما، ورجع بعد طلب العلم إلى رواقهِ الشريف وانقطع في خلوتهِ كما تقدم، وكان وقورًا عظيم الهيبة لا يتمكن الإنسان

من النظر إلى وجههِ الشريف، أسمر اللون مشربًا بحمرة عظيم الرأس وسيع الجبهة معتدل القد حلو المكالمة لين العريكة حسن الخلق، وكان يقول لإخوانه رضي الله عنهم أجمعين: الكرامة الاستقامة، وكان يقول عمرك ساعتك التي أنت فيها. وكان يقول طيب العمر من سلم وتدارك وقتهُ. وكان يقول إذا فقدت الصديق فعليك بالكتاب. وكان يقول لقمة الجهل سم. وكان يقول هم الجاهل بطنهُ. وكان يقول إظهار الكرامة مرض وكتمانها سر، وكان يقول أحسن الأيام يومك الذي إن قعدت فيهِ قعدت ذاكرًا، وإن قمت فيهِ قمت شاكرًا، وإن نمت فيهِ نمت راضيًا، وأحسن منهُ رضاء الله عنك .اهـ. اجتمعت فيهِ مكارم الأخلاق وتخرج بصحبتهِ خلق كثير، وقصدوه من العراق والحجاز وغيرهما، وأخذ عنهُ الولي العارف بالله نزيل الشام إبراهيم بن أحمد الرقي، والولي الحجة أبو الحسن الواسطي والشيخ القاضي زين الدين بن محمد الشافعي الخليلي قاضي حلب وغيرهم رضي الله عنهم، وأوقع بالإنكار عليهِ جماعة من العلماء، لما وقع منهُ في حلقة ذكره مرة أنهُ خطى في الهواء على رؤوس الناس وشنعوا في حقه، وسألوا من تلميذه القاضي زين الدين عن كرامات الأولياء من خرق العوائد كالمشي في الهواء وما أشبه ذلك، أحق هي؟ فأجاب بخطه: كرامات الصالحين حق أؤمن بذلك من قلب صميم واعتقده اعتقادًا جازمًا بتوفيق الله وهدايتهِ، وهذا هو مذهب أهل السنة وعليهِ جماهير الأمة المكرمة سلفًا وخلفًا، ومصنفات الأئمة الأعلام الموثوق بنقلهم المرجوع إلى قولهم مشحونة بذلك، ودلائلهم من الكتاب العزيز والسنة النبوية كثيرة ومن لهُ صحبة مع القوم يرى من عجائب أحوالهم وغرائب أقوالهم وأفعالهم، بحسب استعداده ما يثلج موائد فؤاده ولقد منّ الله عليّ بصحبة بعضهم فعاينت من الكرامات في أقوالهِ وأفعالهِ شيئًا كثيرًا مع فرط قصوري وبعدي عن هذا المقام، فيا خيبة منكر ذلك ويا بعده عن قصد المسالك، وأنّى يرى ضوء الشمس فاقد البصر أو يشاهد الأعشى نور القمر، فما في صلاح منكر ذلك مطمع، فليصور نفسهُ بين يديهِ وليكبر عليهِ أربعًا، كتبهُ عبد الله بن محمد الشافعي.

وكان لسيدنا صدر الدين علي قدس سره شعر رائق على عادة القوم، ومنهُ قولهُ:

أسفي عليك أضرني	فإلى متى أسفي عليك
كلي إليك وقد تلفـ	ـت فخذ إذًا كلي إليك

وقولهُ:

لعبت نهلة الغرام بفكري	فتراني معربدًا سكرانا
سكر العاشقون في الحب حينا	وذهولي وغفلتي أحيانا

وقال قدس سره:

خيام بني سعد وسكانها لهم ... حبال لقلبي عقدت تحت إضماري

متى هب في تلك الخيام من الصبا ... نسيم لطيف أججت في الحشا ناري

وقال قدس الله سره العزيز:

قسمًا بفيحاء البطاح ومن بها ... سكنوا ومن هاجت بلابلهم لهم

إني على العهد القديم بحبهم ... أرجو النجاة بهم وأطلب فضلهم

فلعلني أحظى بهم بعد الجفا ... ولعلهم ولعلهم ولعلهم

وقال قدس سره:

عظموا ذكر حبيبي ... فبهِ المكسورِ يجبر

واتركوا الأغيار طرًّا ... ولذكر الله أكبر

توفي قدس سره في سنة الستمائة وخمسة وتسعين، ودفن محاذيًا لأبيهِ في قبتهِ رضي الله عنهُ، وعمل لهما صندوق واحد كبير شمل القبرين الشريفين، جلس رضي الله عنهُ على سجادتهِ وتصدر لإرشاد الناس وظهر أمره في الأقطار وانقطع في خلوتهِ عن الناس، لا يخرج إلا للصلاة والذكر والوعظ، ويعود إلى خلوتهِ رضي الله عنهُ، وكان بعد أذكاره الشريفة يدعو بحزبهِ المبارك، الذي سماه الحصن الحصين وهو:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، اللهمّ يا من لا تراه العيون ولا تخالطهُ الظنون ولا يصفهُ الواصفون، ولا تغيره الحوادث والدهور، يعلم مثاقيل الجبال وميكال البحار وعدد قطر الأمطار وورق الأشجار، وما يظلم عليهِ الليل ويشرف عليهِ النهار، لا يوارى عنهُ سماء ولا أرض ولا جبل ولا بحر إلا يعلم ما في قعره، الهم إني أسألك أن تجعل خير عملي خواتمهُ وخير أيامي يوم ألقاك إنك على كل شيء قدير، اللهم من عاداني فعاده ومن كادني فكده ومن بغى عليَّ بهلكة فأهلكهُ ومن نهب لي مالاً فخذه، واطف نار من شب لي ناره واكفني هم من أدخل عليَّ همهُ وادخلني في درعك الحصين واسترني بسترك الوافي يا من كفاني كل شيء اكفني ما أهمني من أمر الدنيا والآخرة، وصدق قولي وعملي يا شفيق يا رفيق يا قوي الأركان يا من رحمتهُ في كل مكان وفي هذا المكان، ولا يخلو منهُ مكان، فرج عني الهم والغم والضيق ولا تحملني ما لا أطيق، أنت إلٰهي الحق الحقيق، يا مشرق البرهان احرسني بعينك التي لا تنام واكنفني بكنفك الذي لا يرام، اللهم إني قد تيقن قلبي لا أهلك وأنت معي يا رجائي فارحمني يا الله، يا عظيمًا يرجى لكل عظيم يا حليم يا عليم أنت بحاجتي عليم وعلى خلاصها قدير وهو عليك

يسير، وإنما أنا فقير فامنن عليّ بقضائها يا أكرم الأكرمين ويا أرحم الراحمين وودني بنفحة من نفحاتك واجعلني وادًا لك يا رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلِهِ وصحبِهِ أجمعين، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. انتهى. ومنهم البحر الخضم والقطب المعظم الولي الجليل المؤيد أبو المعالي السيد شمس الدين محمد بن الإمام الهمام مولانا السيد صدر الدين علي الصيادي الرفاعي شيخ الرواق والزاوية الصيادية بعد أبيه، تركهُ أبوه ولهُ من العمر ثمانية عشر سنة، تلقى العلم عن أبيهِ وأخذ عنهُ الطريقة وسلك مسلك أبيه، ولد السيد محمد شمس الدين المشار إليهِ في سنة الستمائة وسبعة وسبعين، ولم يزل منكبًا على الطريقة منذ شب إلى أن مات رضي الله عنهُ، قال خادمهُ الشيخ محمد بن سلامة: ما عاد مريضًا إلا شفاه الله لوقتهِ، أسلم على يديهِ خلق كثير وتخرج بصحبتهِ جماعة من كبار العصر، منهم الشيخ علي الحريري حفيد الشيخ علي الحريري الكبير والشيخ أبو الفضل أحمد الموصلي وغيرهم، وتلمذ لهُ أهل القطر الشامي على الغالب، ونمت طريقته في جميع الأقطار، ومن أدعيته هذا الدعاء وهو مجرب لدفع الكرب وحصول الفرج، بإذن الله وهو هذا:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، اللهمّ أنت المدعو والمرجو فلا يدعى غيرك ولا يرجى إلا خيرك، اللهمّ لا تقطع حبل رجائي ولا تمنع عن بابك دعائي، اللهمّ فرّج كربتي وارحم حوبتي واغفر لي ذنبي ونور بنور معرفتك قلبي، اللهمّ إن أبواب المخلوقين مغلقة الأقفال وقلوبهم مشتتة الأحوال وعقولهم مختلفة الآمال وألسنتهم عجيبة الأقوال، فلا تجعل بفضلك وكرمك إلى أبوابهم رجوعي ولا إلى أحوالهم خضوعي ولا على عقولهم معولي ولا على أقوالهم توكلي، واصرف وجهي إليك اجعل توكلي عليك، وأغثني وأدركني في كل حال ومقال بنبيك سيدنا محمد ﷺ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. توفي ولهُ من العمر ثلاثة وثلاثون سنة في سنة السبعمائة وعشرة، وكانت وفاتهُ في بطاح واسط البصرة، لما ذهب لزيارة أجداده الطاهرين رضي الله تعالى عنهم أجمعين .اهـ. ومنهم الولي الحكيم والأستاذ المبارك الفخيم ولي الله السيد شمس الدين عبد الكريم الصيادي الواسطي ابن الإمام زكي الأعراق كريم الأخلاق السيد صالح عبد الرزاق ابن السيد شمس محمد بن السيد صدر الدين علي الصيادي الكبير، قدست أسرارهم. ولد السيد عبد الكريم قدس سره في سنة السبعمائة وثلاثة وعشرين، وبعد أن كبر تلقى العلوم العالية عن الإمام الفاضل محمد بن عبد العظيم المنذري وعن الإمام الحجة الحافظ أبي عبد الله إبراهيم بن عمر الفاروثي الواسطي وغيرهما، وأتقن علم الظاهر في كل فن واشتغل بهِ وقرأ الدروس العديدة،

وندب إلى المناصب والقضاء فأبى، ومنَّ الله عليهِ بالقبول التام عند الخاص والعام، قال الشيخ نصر بن سلامة البغدادي: تصدر أبو محمد عبد الكريم الواسطي كتصدر الملوك وَتُذَلِّلَ لله كتذلل المملوك، أفرط رضي الله عنهُ في الاجتهاد وما غير وضع استقامتهِ منذ وضع أول قدم في الطريق إلى أن مات، وفيهِ قيل:

عبد الكريم العراقيّ الإمام لهُ ... مناقب صححت فيها الأسانيد
لله عن غيره لا زال منقبضًا ... كذاك آباؤهُ الصيد الصناديد

وقال فيهِ محمد بن مهنا:

صدر العراق وشيخه ... وإمامه القطب المؤيد
غوث البرية عينها ... عبد الكريم أبو محمد

وقال الشيخ عثمان بن القصير الموصلي: ما وقف على باب الحق في هذا العصر رجل أعظم من الشيخ شمس الدين عبد الكريم أبي محمد الواسطي، وقال لو أن النبوة تنال بالمجاهدة والانكسار، لنالها أبو محمد عبد الكريم، وقال الشيخ أحمد بن عواد العشايري كان أبو محمد عبد الكريم أفقه وأعلم وأفضل أهل زمانهِ وهو المعول عليهِ في عصره وقال مرة لأحد تلامذتهِ: أنت رأيت الشيخ عبد الكريم فقال: نعم. فكررها عليهِ فكلما كررها يقول رأيتهُ فبكى وقال: والله لقد رأيتَ نائب رسول الله بلا ريب، نعم الشيخ شيخك كان حليمًا كريمًا سليمًا مستقيمًا عظيمًا مهابًا سخيًا تقيًا نقيًا، وبالاختصار كان بركة وقته وصاحب زمانه. وقال الشيخ إبراهيم بن عمر الأوكادي: كان من أدعية الشيخ عبد الكريم في خلواتهِ هذا الدعاء المبارك، وقد تلقيتهُ عنهُ وأجازني بهِ ورأيت لهُ منافع لا يحصى عددها وعلمته لجماعة كثيرة، فرأوا بركتهِ وبسببهِ فرَّج الله عنهم كثيرًا من المصائب ويسّر لهم بسببهِ وببركتهِ من الخير العجيب وهو هذا:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، اللهمّ خذ بزمام قلبي إليك واجمعني بك عليك على ما يرضيك عني، واقطع علائق قلبي من سواك وحبال أملي من غيرك، وخلصني من لوث الأغيار بخالص توحيدك، واجعل لساني لهجًا بذكرك وجوارحي قائمة بشكرك ونفسي سامعة مطيعة لأمرك، واجعلني من خواص عبادك الذين ليس لأحد عليهم سلطان، واجعل حركاتي بك وسكوني لك واعتمادي في كل الأمور عليك، واكلأني بعين حراسة تمنعني من كل يد تمتد إليّ بسوء، واجعل حظي منك حصول كل مطلوب، وزين ظاهري بالهيبة وباطني بالرحمة وهب لي ملكة الغلبة لكل مقاوم، واجعلني على بصيرة منك في أمري برحمتك يا أرحم الراحمين، وصلى الله على سيدنا محمد وآلهِ وصحبهِ

أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل. توفى مولانا السيد عبد الكريم شمس الدين أبو محمد الواسطي الرفاعي المترجم رضي الله عنهُ في سنة السبعمائة وتسعة وستين، ولهُ من العمر ستة وأربعون سنة ودفن في مراقد أهلهِ في فم الدير. انتهى. ومنهم الإمام العلاّمة والبحر الحبر الفهامة شيخ العلماء العاملين، وإمام أئمة المرشدين مولانا السيد سراج الدين الدين الصيادي المعروف بالمخزومي، بسبب أمه الست سعدية بنت عبد الرحمٰن المخزومي، ولد في سنة ست وستين وسبعمائة قدس سره، ولقب واشتهر دون أخوته بالمخزومي، ابن خالد بن سليمان أبي المعالي بن محمد، المعروف بابن الرئيس ابن الحاجي جعفر الرئيس أبي علي المنيعي المروزدوي بن سعيد بن حسان بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن منيع بن خالد بن عبد الرحمٰن بن خالد سيف الله الصحابي رضي الله عنهُ ابن الوليد بن المغيرة المخزومي، المشهور أمير بني مخزوم ورئيسها، وخالد رضي الله عنهُ أول مَن شرب السم في الإسلام كما اتفق عليهِ، وذلك حين بعثهُ أبو بكر الصديق رضي الله عنهُ مقدمًا على سرية إلى الخيرة فلما نزل بعث إليهِ أهلها عبد المسيح بن عمرو بن نفيلة وفي يده شيء، فبعد كلمات سألهُ خالد رضي الله عنهُ عن الذي في يده، قال سم ساعة، قال وما تصنع بهِ قال ماذا تردني بهِ فإن كان فيهِ صلاح لقومي وإلا شربتهُ فقتلت نفسي ولم أعد إليهم بما يكرهون، قال: أرنيهِ فناولهُ إياه فقال: بسم الله لا يضر مع اسمه شيءٌ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم وشربهُ، فأخذتهُ غشية ثم أفاق يمسح العرق عن وجههِ، فرجع ابن نفيلة إلى قومهِ وقال: ما لكم طاقة بهؤلاء القوم، فصالحوهم على ما يريدونهُ ففعلوا، ورجع خالد رضي الله عنهُ مؤيدًا مظفرًا منصورًا، وشهد رضي الله عنهُ حنينًا في مقدمة النبي ﷺ، فأصابتهُ جراحات كثيرة فتفل عليها النبي ﷺ بعد هزيمة المشركين فبرء ونهض.

وروى صاحب الأسد الغابة: أن خالد بن الوليد رضي الله عنهُ لما توفي، لم يبقَ امرأة في المدينة إلا وقصّت شعرها لأجلهِ وكثر البكاءُ في المدينة، فسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ عن ذلك فقيل لهُ يبكين خالد بن الوليد فإنهُ قد مات، فقال عمر رضي الله عنهُ: ما عليهن أن يبكين أبا سليمان إلا أن يشققن الجيوب. ونسب خالد رضي الله عنهُ يجتمع مع نسب رسول الله ﷺ في مُرة بن كعب بن لُؤي، وفتوحاتهُ رضي الله عنهُ وشيمهُ وهممهُ أجلُّ من أن تحصى، وفضلهُ أشهر من أن يذكر، كيف لا، وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «نعم العبد خالد ونعم فتى العشيرة»[1] وقال فيه عليهِ

---

(١) أخرجه في كشف الخفاء (١/ ٣٧٣)، حرف الحاء، حديث رقم: ١١٩٥. وأخرجه في كنز العمال (١١/ ٦٧٨) باب في ذكر الصحابة وفضلهم، حديث رقم: ٣٣٢٧٨.

السلام أيضًا: «خالد سيف الله وسيف رسولهِ وخالد سيف من سيوف الله سلّهُ الله على المشركين» رضي الله عنهُ وعن أصحاب رسول الله أجمعين، قلت: ونسب سيدي السيد سراج الدين لأمهِ أعظم نسب ينتمي إلى المولى الأمير الجليل خالد بن الوليد رضي الله عنهُ، وذكر الإمام شيخ الإسلام ابن السبكي رحمهُ الله في طبقاتهِ: فضل سادس أجداد مولانا سراج الدين لأمهِ الحاجي جعفر الرئيس أبي علي المنيعي ما نصهُ حرفيًا: جعفر بن سعيد بن حسان بن محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن منيع بن خالد بن عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد المخزومي، الرئيس أبو علي المنيعي الحاجي، أما المنيعي فنسبتهُ إلى جده منيع بن خالد، وأما الحاجي فلغة العجم في النسبة إلى مَن حج، يقولون للحاج إلى بيت الله الحرام: حاجي، وأبو علي هذا هو واقف الجامع المنيعي بنيسابور الذي كان إمام الحرمين خطيبهُ، وقبلهُ أبو عثمان الصابوني شيخ الإسلام كان الرئيس أبو علي من أهل مرد الرود، وكان في أول أمره تاجرًا إلى أن نما مالهُ وتزايدت النعمة عليهِ وعلت منزلتهُ، وصار مشارًا إليهِ عند السلطان، وفقهُ الله فحج إلى بيت الله الحرام ثم عاد وأنفق أموالاً جزيلة في بناء المساجد والرباط، وتنوع في المعروف وبنى جامعًا بمرد الرود تقام فيهِ الجمعة والجماعة، قال عبد الغافر عم الآفاق بخيره وبره وكان يدخل نيسابور في أوائل أمره ويعامل أهلها، فلما رأى اضطراب الأمور وتزايد التعصب من الفريقين قبل أن يجلس ألب أرسلان رحمهُ الله على سرير ملكهِ، ويتزين وجه الآفاق بطلعة نظام الملك، ملكه انقطع حتى انقطعت مادة الأحواء وطوى بساط العصبية، بطب نظام الملك عن حريم الملة الحنيفية ومساعدة سلطان القوم الوقت المذعن إلى الخير المنقاد إلى المعروف ألب أرسلان، وعند ذلك سأل الرئيس أبو علي السلطان والوزير في بناء الجامع المنيعي بنيسابور، فأجيب إلى مسألته فعمد إلى خالص مالهِ وأنفق في بنائهِ الأموال الجزيلة، وكان لا يفارقهُ ساعة من ليل ولا من نهار مخافة تغيير الأمور واضطراب الآراء، إلى أن تم وأقيمت فيهِ الجمعة وصار جامع البلد المشهور، وهو الذي كان إمام الحرمين خطيبهُ.

قال ابن السمعاني: بلغني أن عجوزًا جاءت بنيسابور ومعها ثوب يساوي نصف دينار، قالت: سمعت أنك تبني الجامع فأردت أن يكون لي في النفقة المباركة أثر فدعى خازنهُ، واستحضر ألف دينار واشترى بها منها الثوب، وسلم المبلغ إليها ثم قبضهُ منها الخازن وقال لهُ: أنفق هذه الألف منها في عمارة المسجد، وقال: احفظ

هذا الثوب لكفني ألقى الله فيهِ، وكان أبو علي على قدم عظيم من الاجتهاد في العبادة والتواضع والبر وكثرة الصدقة والصلاة، يقوم الليل ويصوم النهار ويلبس حسن الثياب مع كثرة الأموال الجزيلة والجاه العريض في الدنيا ونفاذ الكلمة، ولما وقع القحط بتلك البلاد في شهور سنة إحدى واثنتين وستين وأربعمائة أنفق أموالاً عظيمة، وكان ينصب القدر كل يوم ويطبخ للفقراء طعامًا كثيرًا، كل ذلك غير ما يتصدق بهِ سرًا وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والملوك تسعى إليهِ وتحترمهُ، حتى قيل إن السلطان ألب أرسلان قال: في مملكتي من لا يخاف مني وإنما يخاف من الله، مشيرًا إليهِ وكان كلما أقبل الشتاء يتخذ الجباب والقمص والسراويلات، ويكسو قريبًا من ألف فقير، وبالجملة كان كثير المحاسن، وقد سمع من ابن طاهر الزيادي وابن القاسم بن حبيب وابن الحسن السقا وجماعة، روى عنه محيي السنة البغوي وأبو المظفر عبد المنعم القشيري ووجيه الشحامي وغيرهم، قال عبد الغافر القازي لو تتبعنا ما ظهر من آثاره وحسناتهِ لعجزنا، توفي في يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة سنة ثلاث وستين وأربعمائة، ومن الفوائد عنهُ وهو الذي لقنهُ القاضي الحسين مسألة ليغالط بها فقهاء مرد إذا قدم عليهم، وصورتها رجل غصب حنطة في زمن الغلاء وفي زمن الرخص طالبهُ المالك، فهل يطالب بالمثل أو القيمة؟ فمن قال إنهُ يطالب بالمثل فقد غلط، ومن قال يطالب بالقيمة فقد غلط، لأن في المسألة تفصيلاً: إن تلفت الحنطة في يده كما هي قبل الطحن، كما إذا احترقت وجب المثل. وإن طحن وعجن وخبز وأكل فعليهِ القسمة، لأن الطحن والعجين من ذوات القيم، وقد نقل ذلك أبو سعيد الهروي في الأشراف والرافعي في الشرح. انتهى كلام ابن السبكي. قلت: وأكثر أجداد الشيخ سراج الدين لأمهِ أصحاب فضائل وفواضل وعوارف ومعارف، كالرئيس ابن علي بل منهم من هو أجلّ منهُ قدرًا وأشرف ذكرًا، ولولا خوف الإطالة والخروج عن دائرة مقصودنا لشرحنا أحوالهم رضي الله عنهم بما تسرّ بهِ النفوس وتزدان بهِ الطروس[1].

وأما فضل مولانا سراج الدين قدس سره فقد اشتهر في الآفاق وملأ الشام والعراق، عرف بشيخ الإسلام بين أقرانهِ الأعلام، وكتبهُ ومؤلفاتهُ مشهورة، منها: سلاح المؤمن، في الحديث. وجلاء القلب الحزين، في التصوف. وكشف الغطا عن أسرار كلام محي الدين، في التصوف أيضًا. والبيان في التفسير، والنسخة الكبرى في علم الحروف وغير ذلك، ومن كلامه رضي الله عنهُ ما نقلهُ عنهُ الشيخ الإمام عبد الوهاب الشعراني قدس سره في كتابهِ اليواقيت والجواهر، وهو قولهُ كان شيخ الإسلام سراج

(١) الطروس: جمع طرس وهو الكتاب إذا محي ثم كتب.

الدين المخزومي يقول: إياكم والإنكار على شيء من كلام الشيخ محي الدين، فإن لحوم الأولياء مسمومة وهلاك أديان مبغضهم معلومة، ومن بغضهم تنصر ومات على ذلك، ومن أطلق لسانهُ فيهم بالسب ابتلاه الله بموت القلب، وقال الشعراني في اليواقيت أيضًا: كان شيخ الإسلام المخزومي يقول: لا يجوز لأحد من العلماء الإنكار على الصوفية، إلا أن يسلك طريقهم ويرى أفعالهم وأقوالهم مخالفة للكتاب والسنة، وأما الإشاعة عنهم فلا يجوز الإنكار عليهم ولا سبهم وأطال في ذلك، ثم قال وبالجملة فأقل ما يحق على المنكر حتى يسوغ لهم الهم بالإنكار، أن يعرف سبعين أمرًا ثم بعد ذلك يسوغ لهُ الإنكار، منها غوصهُ في معرفة معجزات الرسل على اختلاف طبقاتهم، وكرامات الأولياء على اختلاف طبقاتهم ويؤمن بها، ويعتقد أن الأولياء يرثون الأنبياء في جميع معجزاتهم، إلا ما استثني، ومنها اطلاعهُ على الكتب والتأويل وشرائطهُ، ويتبحر في معرفة لغات العرب في مجازاتها واستعاراتها حتى يبلغ الغاية، ومنها كثرة اطلاعهِ على مقامات الخلف والسلف في معنى آيات الصفات وأخبارها ومن أخذ بالظاهر ومن أوّل ومن دليلهُ أرجح من الآخر، ومن تبحر في علم الأصوليين ومعرفة منازع أئمة الكلام، ومنها وهو أهمها معرفة اصطلاح القوم فيما عبروا عنهُ من التجلي الذاتي والصوري، وما هو الذات؟ وذات الذات، ومعرفة حضرات الأسماء والصفات والفرق بين الحضرات وبين الأحدية والوحدانية والواحدية، ومعرفة الظهور والبطون والأزل والأبد وعالم الغيب والكون والشهادة والشؤون وعلم الماهية والهوية والسكر والمحبة، ومَن هو الصادق في السكر حتى يسامح ومن هو الكاذب حتى يؤاخذ وغير ذلك، فمن لم يعرف مرادهم، كيف يحل كلامهم أو ينكر عليهم بما ليس من مرادهم؟!

ومن كلامهِ قدس سره تجردك عنك أولى من تجردك عن غيرك، ووقوفك معك أضر من وقوفك مع غيرك، ومن كلامهِ سلامة المركب أخت سلامة الراكب، وكان يقول لأصحابهِ رضي الله عنه وعنهم: أم المنافع معرفة الحدود رغم أنف الحسود. وكان يقول: روح الطالب ترك المطالب. وكان يقول رب نفحة أخذت قلب الغافل إلى المعرفة، ورب صدمة أخذت قلب العارف إلى الغفلة، فعلى الرجلين ترقب الحالين فترقب العارف خوف وترقب الغافل رجاء، فخوف العارف أمان ورجاء الغافل إيمان، والله الحنان المنان. وكان يقول: رب جبرة قلب تجبر شقوى عنتر، ورب كسرة قلب تكسر كرسي قيصر، وكان يقول: الله أكبر الغفلة بنت الأمن واليقظة بنت الخوف والحجاب بينهما الآمر، وكان يقول الوقوف عند حدود الله العلم الأعظم. وكان يقول العالم من علم ما لهُ وما عليه. وكان يقول:

طيلست[١] البركة عبدًا غاب عن هذا وذاك، وتعلق بما وراءهما. وكان يقول كل العقل التخلص من الحجب المستعارة. وكان يقول أجهل الناس من ظن أن ثوبهُ يستر عيبهُ، وأن قالبهُ ينفع قلبهُ، وأن كذبهُ يملأ جيبهُ، وأن صبغهُ يبدل شيبهُ. وكان يقول: هذا الزمان عجوز كذابة تبدو بصورة عذراء حسناء. وكان يقول لعبت الآمال بعقول الرجال. وكان يقول ثكلتك أمك يا سراج! قام القوم وقعدت ووصل القافلة وانقطعت ووجد الراكب وضيعت، إلى م وعلى م، هي وأختها على حد سواء. وكان يقول: عُمران الدنيا والآخرة بثلاث: بالعلم الصادق، والهمة العالية، والحزم السليم. وكان يقول: كل العقل أن تعرف نفسك، وكل الإيمان أن تعرف ربك، ولن تعرف ربك إلا بمعرفة نفسك. وكان يقول صرح أهل الله على رؤوس الأشهاد أن أهل الغفلة لا يدخلون حضرة القرب، وأن مَن تعدى حده لا يفيق من غفلتهِ، وأن من أشرك الجاهل في سره كمن نقل المصحف إلى أرض العدو، وأن من أفشى الحكمة لغير أهلها كمن طلب الرقيا من الحية، وأن من وقع على الرجل وضيعه كمن مات برأيه وترك أمر القرب من الله طمعًا في موهوم من رئاسة غير ممكنة مع حال مستحيل، ومن قام برأيهِ متباعدًا عن الشرعة البيضاء، كمن رأى الخلق كافة على طريق مستقيم وسلك معارضًا للخلق الطريق المعوج وأمل الظفر بالسلامة. وكان يقول آداب حضرات الحق تعالى إصلاح أستفيد في الأمورَ المشروعة، وآداب مقام الاختصاص ربط القلب بالله تعالى، وآداب معاملة الناس الصحبة للكامل والاقتداء بالعاقل والإعراض عن الجاهل.

ومن أدعيتهِ العجيبة وأحزابهِ العظيمة، هذا الدعاء المبارك وهو من المجربات لنيل المآرب، وحصول المطالب والبركة والفتوح العظيم، وهو هذا: بسم الله الرحمٰن الرحيم، الٓمٓ ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين، الٓمٓ الله لا إلٰه إلا هو الحي القيوم المص الٓر الٓر الٓر الٓمر الٓر الٓر كهيعص طٰه طسم طس طسم الٓم الٓم الٓم الٓم يٓس صٓ حٓمٓ حٓمٓ حمعسق حٓمٓ حٓمٓ قٓ نٓ، بسم الله الرحمٰن الرحيم، اللهمَّ يا حق يا رقيب يا ودود يا الله يا الله يا نور يا قيوم يا جواد، يا الله يا الله يا بارىء يا متكبر، أسألك ببسم الله الرحمٰن الرحيم، فلما رأينهُ أكبرنهُ وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرًا إن هذا إلا ملك كريم ٣، سلام قولاً من رب رحيم ٣، بطد زهج واح طاعتيني الأرواح، ودود حب ود بدوح، وألقيت عليك محبة مني، فجش ثظخذ، يا فرد يا جبار يا شكور يا تواب يا طاهر يا خبير يا زكي، آلٓم المص آلٓر آلٓمر كهيعص طٰه طسم طس طسم يس صٓ حٓم حمعسق

---

(١) طيلست: طلس طيلسًا أي انمحى، والثوب أخلق وصار أطلس، أو كان أغبر إلى السواد، والطيلسان لبسه.

قّ نّ، يا من يقل للشيء كن فيكون كـن لي الإجابة يا رب الإجابة، يا حي يا قيوم يا رب يا رحيم، أسألك بحقك وبالآيات كلها وبهذا الاسم الاسم الأعظم، رضاء لا سخط معهُ وغناء لا فقر يتبعهُ وعلوّا لا سقوط بعده وحفظًا لا تتعدى من خلفهِ الإجابة والخير، وأعذني مع سلامة جسمي من عوارض المحن والآفات، يا بديع الأرض والسمٰوات لا إلـٰه إلا الله فوق رأسي ظلاً، ومحمد رسول الله حصني مكملاً، وأبو بكر الصديق عن يميني حرزا وكيلاً، وعمر بن الخطاب عن يساري عزّا وتجملاً، وعثمان بن عفان من خلفي قوة وحولاً، وعلي بن أبي طالب أمامي مهابة ٣، مهابة مني في قلوب العدا والحاسدين والناظرين إليّ بسوء، حتى يغشاهم نوري وترتعد من مهابتي فرائضهم، والله من ورائهم محيط بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ، محمد رسول الله والذين معهُ أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعًا سجدًا، سجدت لي الرقاب وخضعت لي الأعناق وعظمت في أعين الناظرين من الإنس والجن، يا عظيم عظمتك وقائي من القوم الظالمين وحمائي من العالمين، واعضدني بالملائكة أجمعين واستجب لي يا أرحم الراحمين، ثم يقول القارىء ملتفتًا أمامه ٦: يا الله ومثلهُ عن اليمين ومثلهُ عن الشمال ومثلهُ خلفهُ، ثم يدعو بهذا الدعاء: بسم الله الرحمٰن الرحيم، اللهمّ إني أسألك بقوة جلال هيبتك يا الله ٣، وبعز ظلال بهاء نور سطع لمع برق لمعان وجهك يا الله ٣، وبهيكل قدس تقدس أفعال أقوال ربوبيتك يا الله ٣، وبهيبة عزيز برهان سلطان أزلي أزليتك يا الله ٣، وبسر باء اسم.توحيد عظيم اسمك يا الله ٣، وبسين سر بحر علوم غيب روح أنس أنسك يا الله ٣، وبميم مكنون مصون مخزون عوالم بحار أسمائك يا الله ٣، وبألف تقوم تقديم تكريم إكرام معرفة اسمك يا الله ٣، وبألف الألوهية بعين العظمة، بجيم الجبروت بفلق القدرة، أسألك أن تصلي على سيدنا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ، وأن تجعل بيني وبين أعدائي سرك الذي لا تخرمهُ نوافذ الرماح ولا تقطعهُ بواتر الصفاح ولا تفرقهُ عواصف الرياح، لا إلـٰه إلا أنت أحون قاف آدم حم هاء آمين، شتوش هموش أطوش، شرح خمدت النار من مخافتهِ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأسألك اللهمّ بسر الألف القائم بنفسهِ الذي ليس قبلهُ سابق، وباللامين اللذين لممت بهما الأسرار وأخذت عليهما العهود والمواثيق، وبالهاء المحيطة بالعيون الجوامد والمتحركة والصوامت والنواطق، الذي هديت بها قلوب عبادك فصارت لذكرك لا تفارق، أغثني أغثني يا مغيث فإنك متفضل جواد واسع ورازق، وأسألك اللهمّ أن تغرس فيّ أشجار توحيدك وتمجيدك، لأقتطف منها ثمار تسبيحك وتقديسك، اللهمّ اسق قلبي من سحائب رحمتك وغذه بلطائف أنوار معرفتك، أسألك اللهمّ بهذا الاسم العظيم الذي هو ظاهر اسمك الذي يشار إليك وباطن اسمك الذي أمرت أن تدعى بهِ، أن تصلي وتسلم على سيدنا محمد وعلى آل محمد،

وأن تسلمني ببركته أنا وأهلي وعيالي وأولادي، اللهمّ اغمسني في بحر نور هيبتك حتى أخرج منهُ وفي وجهي شعاعًا فاقت أنوار هيبتهِ من هيبتك، أخطف بها أبصار الحاسدين من الإنس والجن والهوام، فامنعهم عن رمي سهام الحسد واحجبني عنهم بحجاب النور، الذي باطنه النور وظاهره النور، وأسألك باسمك النور الذي أضاء بهِ كل نور أن تحفظني في أهلي وعيالي وأولادي، من كل نقص يمازج مني جوهرًا أو عرضًا إنك نور الأنوار وواهب العقول والأسرار، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين. ومن أحزابهِ الشريفة هذا الحزب المبارك، وقد شاهد أكابر رجال هذه الطريقة من المداومة عليهِ نور البركة والفيوضات والفرج السريع عند المهمات، وهو بسم الله الرحمٰن الرحيم:

سبحانك أنت الله المؤمن المهيمن سبحانك أنت الله السلام القدوس
سبحانك أنت الله العزيز الحكيم سبحانك أنت الله الخالق الباري
سبحانك أنت الله المصور الحكيم سبحانك أنت الله البر الهادي
سبحانك أنت الله الحي القيوم سبحانك أنت الله الواسع اللطيف
سبحانك أنت الله العلي الكبير سبحانك أنت الله الحميد المجيد
سبحانك أنت الله الشكور الحليم سبحانك أنت الله الغفور الرحيم
سبحانك أنت الله الباعث الوارث سبحانك أنت الله الواحد الأحد
سبحانك أنت الله الفرد الصمد سبحانك أنت الله الطاهر المطهر
سبحانك أنت الله الغفور الغفار سبحانك أنت الله الغفور الصمد
سبحانك أنت الله المحسن البارىء سبحانك أنت الله المحيي المميت
سبحانك أنت الله الحنان المنان سبحانك أنت الله السابق العدل
سبحانك أنت الله الرفيع العلي سبحانك أنت الله النصير المفضل
سبحانك أنت الله الوكيل الكافي سبحانك أنت الله المعيد الدائم
سبحانك أنت الله المعيد الحق سبحانك أنت الله الفاطر الصادق
سبحانك أنت الله أرحم الراحمين سبحانك أنت الله خير الناصرين
سبحانك أنت الله خير الرازقين سبحانك أنت الله العزيز الحكيم
سبحانك أنت الله الرؤوف الرحيم سبحانك أنت الله لا إلـٰه إلا أنت
سبحانك أنت الله العلي العظيم سبحانك أنت الله رب العالمين

سبحانك أنت الله إني كنت من الظالمين، فاستجبنا لهُ ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين، ومن كلامهِ المبارك على لسان القوم السالمين من اللوم هذه القصيدة العلية، الجامعة لكل حكمة سنية وهي:

تدل من الأكوان للحضرة الكبرى ... ودع عندها الدنيا لعمرك والأخرى
وغب عن شؤون الحادثات ببابها ... وجدد إلى ساحاتها صحة المسرى
ولا تنس خلع النفس دون رحائها ... فذاك بخلع الروح يا صاحبي أحرى
رحاب بهِ كل المعاني تجمعت ... وعنهُ لسان الكون في نطقهِ ورّى
به من خفايا دولة الأمر رونق ... عجيب هو الأولى لدى القوم والأخرى
تجلت لديهِ الذات في عرش ذاتها ... فقام بها والسطر من لوحها يقرى
وقام بهِ خمار حانة حبها ... فصارت لديهِ ناس حضرتها سكرى
وكم فيهِ من خلع العذار عجائب ... تلونا بهِ على أهل نشأته عذرا
وسرنا بهم في بيد حضرة قدسهِ ... فلاحت لنا من كل أطرافه البشرى
فلا الكون عن هذا حجاب ولا العلا ... نقاب ولا آلاء يعرف أو يدري
وطرنا بجنح النجح حتى توصلت ... عزيمتنا منهُ إلى المنهل الآمرى
شربنا فطبنا واستراحت قلوبنا ... ومتنا بهِ ذوقًا وعشنا بهِ ذكرا
وكان مقام الفرق في مبدأ السرى ... فاخجلهُ الجمع الذي نور السرى
وقام من الفرا مقام مزاحم ... فلما انطوى الأغيار أعقبت السرا
فكل بهذا جاهل وهو مظهر ... لمعرفة المقصود من منتهى الأسرى
وهيكل عين الغير عين مهيكل ... لسر مرادي تحت هيكلهِ صرّى
وما جملة الأكوان في أمر فرقها ... على العدم المحض الذي ظاهرا يدرى
فما ثم غير والمقاصد أزلفت ... عن الحكمة الأولى وحضرتها الكبرى
وفصل معناها وعنوان فرقها ... إمام صدور المرسلين أبو الزهرا
تبجح بالأسر فأبدا خفيها ... وشاهد مجلاها فسبحان مَن أسرى
تذكر إذًا يا صاح أسرار غيبها ... فإن لذي الإيمان قد تنفع الذكرى

ولو أردنا ذكر كرامات الشيخ سراج الدين رضي الله عنهُ، وبسط مناقبهِ وشعره ومؤلفاته وكلماته، لأملأنا الدفاتر، لكن قد ذكرناه على سبيل الاختصار تبركًا، لكونهِ

أشهر من أن يذكر، تولى مشيخة الإسلام بالشام كما ذكر شيخ الشعراني بكتبه، وأخذ عنهُ معظم رجال الحديث في وقتهِ وانتقل إلى العراق وسكن بغداد، وانتهت إليه رئاسة العلم والطريق بها، وتوفي بها رضي الله عنهُ ولهُ من العمر اثنتي وتسعين سنة وكانت وفاته في سنة الثمانماية وخمسة وثمانين رضي الله عنهُ، ونفعنا بهِ. انتهى. وممن اشتهر بالمخزومي أيضًا سراج الدين أبو حفص عمر المخزومي الحمصي وهو أيضًا من أجلاَّء علماء عصره، ومن أعيان القبيلة الخالدية الساكنة في نواحي الشام، ولي مشيخة الإسلام في الشام، وندبه ملوك مصر إلى المناصب والقضاء، وشهرتهُ بين علماء وقتهِ كبيرة ومصنفاته كثيرة، وهو من عنصر أخوال الشيخ سراج الدين المخزومي البغدادي الصيادي قدس سره، ومنهم الشيخ الكبير والعارف الشهير صاحب الكرامات والأحوال الشيخ إسماعيل الكيال قدس سره ابن السيد إبراهيم البلخي الحسيني ينتسب قدس سره إلى الإمام الحسيني رضي الله عنهُ من جهة آبائهِ، وللعنصر الرفاعي الحسيني من جهة أمهِ فإن أمهُ السيدة فاطمة بنت السيد نجم الدين يحيىٰ بن السيد صالح عبد الرزاق بن السيد شمس الدين محمد الصيادي الرفاعي، وأم والدتهِ السيدة الأصلية خديجة بنت الشيخ قطب الدين ابن الشيخ شمس الدين محمد الأعزبي الرفاعي، أخذ الطريقة العلية الرفاعية عن الشيخ نجم الدين الرفاعي وهو أخذها عن والده الشيخ قطب الدين عن والده الشيخ شمس الدين عن عمهِ السيد إبراهيم الأعزب عن عمهِ السيد عبد الرحيم عن أخيهِ السيد سيف الدين علي الرفاعي عن خالهِ وابن عم أبيه، غوث الرجال وقطب أهل الكمال السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ، سكن السيد إسماعيل الكيالي قرية ترنبه من أعمال حلب كان ينفخ على العسل ويسقيه لإخوانهِ وقد أجرى الله على يديهِ الخوارق وتسلسلت في بيتهِ الأولياء من ذريتهِ إلى عهدنا هذا، وقد ركب الجدار حالة ولهٍ وجذبته فسار به، وأمر الكيل أن يكتال القمح فبارك الله بالقمح واكتال الكيل للناس بنفسهِ من دون رجل، توفي في حدود التسعمائة وذريتهُ في سرمين وأدلب وبنفس حلب الشهبا ونواحيها مشهورة، ومناقبهم مأثورة وممن كان في عصرنا منهم القطب الشهير والأستاذ الكبير صاحب المدد والإرشاد الشيخ إسماعيل ابن الأستاذ الشيخ عبد الجواد قدس سرهما، وولده تاج الأكابر الأستاذ الشيخ عبد القادر وولده الولي المؤيد الشيخ محمد، انتهت إليهم رئاسة هذا الشأن بحلب وشهد لهم رجال الوقت بعلو الرتب، نفعنا الله بهم أجمعين.

ومنهم الشيخ علي أبو الحسن الحريري ابن الشيخ السيد عبد المحسن أبي الحسن علي بن السيد عبد الرحيم الكبير الرفاعي، قال في النفحة المسكية: سكن قرية حرير من أعمال البصرة وهاجر إلى الشام وتزوج بأرضها ولهُ ذرية، وتخرج بصحبتهِ جم غفير

من الرجال، منهم: الشيخ علي أبو محمد الحريري بن أبي الحسن بن منصور المروزي رحمهُ الله، قلت: وقد كان ابن منصور هذا على حال إلا أنهُ قد غلبت أحوالهُ عليهِ فما قدر على قبض لسانهِ، فقيل فيهِ ما قيل. انتهى بحروفهِ. وقد شنع طائفة كثيرة من العلماء على الشيخ علي المروزي الحريري هذا، وأخذ على الألسن والذي أظنهُ أن السبب الأعظم في ذلك انقلابهُ عن الطريقة العلية الرفاعية وأخذه عن الشيخ علي المغربل، تلميذ الشيخ رسلان التركماني الحصري نفعنا الله بهِ، في حياة شيخهِ الشيخ علي البصري الحريري الرفاعي، وقد اتفق القوم على أن الواقف بين شيخين كالواقف بين سيفين، فلذلك كان من أمره ما كان كما هو مفصل في كتب التاريخ، ثم بعد ذلك التجأ إلى شيخهِ الشيخ علي الحريري البصري الرفاعي، ولزم رواقهُ بقرية يسر ويقال لها بصر قرية من أعمال حوران وبهامات في سنة خمس وأربعين وستمائة، ومنهم مَن رده من قبلهُ والذي ثبت عنهُ أنهُ مات على أحسن حال ولهُ كرامات وأحوال، وقد ذكرناه هنا ليعلم أن العائلة الحريرية الرفاعية غير الطائفة الحريرية المروزية، فإن السيد علي أبا الحسن الرفاعي الحريري لم يطعن فيهِ طاعن، ولم يذكره بسوء ذاكر، كان على قدم أجداده الطاهرين متمسكًا بآثار سيد المرسلين، انتهت إليهِ رياسة الخرقة في وقتهِ، أعقب ذرية مباركة -منهم الشيخ محيي الدين، نزيل حما وصاحب الزاوية الرفاعية فيها أخذ عن أبيهِ السيد يحيىٰ، عن أبيهِ السيد علي أبي الحسن الرفاعي. وبقيت ذرية الشيخ محيي الدين الحريري الرفاعي في حما على سير حسن وقدم طاهر وصحة منهج، وقد تسلسل فيهم الخضوع والانكسار والبذل والسخا وحب الفقراء، وثبات التمسك بشريعة سيد الأنبياء سيرًا على قدم سلفهم الطاهر في الباطن والظاهر، وكان من بقيتهم ممن عهدناه في عصرنا الشيخ الأجل والصالح الأكمل وارث أخلاق الأولياء وناصر حزب الفقراء، المرحوم الشيخ عمر الحريري شيخ السجادة الرفاعية في حماة المحمية، توفي في سنة الألف والمائتين والثمانين ودفن في صالحية الشام، وقد نقلت عنهُ الكرامات الكثيرة وسيرتهُ بالصدق والسخاء وعلو القدم في الديار الشامية شهيرة وعقبهُ في بلدتهم معروف، أيدنا الله وإياهم والمسلمين بنفحة من نفحات سيد المرسلين. آمين.

ومنهم الشيخ محمد الحديدي الرفاعي دفين الحديثة، بلدية تقرب من راوة بين الخابور وبغداد، كان ينفخ على الحليب ويسقيه لأخوانهِ، ولهُ خوارق عظيمة ومناقب كريمة، منها: أن الأسود كانت تزوره في زاويتهِ، ينتهي نسبهُ إلى السيد شمس الدين محمد بن عبد الرحيم الرفاعي، مات قدس الله سره في حدود التسعمائة ومناقبهُ أكثر من

أن تذكر، ومنهم الإمام الكبير والعارف النحرير[١] ولي الله السيد رجب الرفاعي الكبير، ولد رضي الله تعالى عنهُ في البصرة سنة تسعين وستمائة، وهو الأخ الصغير لسيدنا الشيخ تاج الدين ابن السيد شمس الدين محمد الرفاعي الكبير، سكن أم عبيدة وبها ولد صار شيخ الرواق. الأحمدي بأم عبيدة وهو ابن أربعة عشرة سنة، أحرز مشيخة الرواق في سنة أربع وسبعمائة السنة التي توفي بها أخوه الشيخ تاج الدين بن شمس الدين بن الرفاعي، شيخ الأحمدية بأم عبيدة، كما ذكر ذلك ابن كثير في تاريخه، وقد كبر شأن السيد رجب قدس سره وبرع وعظم حالهُ وأخذ عنهُ الطريقة الرفاعية أجلاءُ مشايخ العراق، وانعقد عليهِ إجماع الرجال في واسط وشهرتهُ في البطاح العراقية غنية عن التعريف، وعكف على علوم الحقيقة واشتغل بأمر الطريقة، وأعرض عما في أيدي الخليقة، كان كثير السكون عظيم الأخلاق مهابًا مبجلاً رمقهُ رجال عصره بأعين الاحترام، ورويت عنهُ الكرامات التي لا تحصى، منها: أنهُ مسّ على عين رجل انطمست باصرتهُ فأبصر بإذن الله في الحال، تسلسلت في ذريتهِ المباركة الأولياء في العراق وسكن بعض ذريتهِ البصرة بعد خراب واسط، وبقيت فيها إلى عهدنا هذا ومن بقيتهم أحد رجال عصرنا العالم الجليل والسيد النبيل عمدة العلماء والأشراف، ومفخر آل عبد مناف السيد إبراهيم بن السيد بدر الدين بن السيد مبارك بن السيد صالح ابن السيد رجب الصغير، من بقية آل السيد رجب الكبير الرفاعي قدس سره، ولي السيد إبراهيم نقابة الأشراف في البصرة ثم ولي بعدها منصب الإفتاء وبقي مفتيًا حتى مات، ولهُ التصانيف الكثيرة العديدة والتآليف الحميدة وحسن فيهِ ظن الخاص والعام، وذكروا أنهُ حسنة من حسنات الأيام أثنى عليهِ الصلحاء والعلماء وامتدحهُ البلغاءُ والشعراء، ومن جملة من مدحهُ الشاعر النبيه والفاضل الوجيه المرحوم السيد عبد الغفار الأخرس، نزيل بغداد الموصلي الأصل، فإن لهُ فيهِ عدة قصائد، منها هذه القصيدة الفريدة:

أهاجها حادي المطى فمالها	ولم يهج لما حدى أمثالها
فهل عرفت يا هزيم ما بها	وما الذي أورثها بلبالها
غنى لها برامة والمنحنى	وبالديار ذاكرًا أطلالها
وما درى أيّ جوى آثاره	وعبرة بذكرها أسالها
ذكرها مناخها برامة	فكان ذكر رامة خبالها

(١) النحرير: العالم الحاذق في علمه.

أذكرها مراعيًا من شيخها ... ووردها من مائها زلالها
ذاقت نميرًا في العذيب مائه ... وقد أريقت بعده وبالها
لو كان غير وجده عقالها ... بدار مي أطلقت عقالها
تسأل عن أحبابها دوارسًا ... من الرسوم لم تجب سؤالها
وكلما عاد لها عيد الهوى ... هيج منها عيده بلبالها
تالله تنفك وقد نظنها ... لما بها من الضنا خيالها
حريصة على لقاء أوجه ... غالى بها صرف النوى واغتالها
هي الظعون قوضت خيامها ... وأزعجت يوم النوى جُمّالها
وأوقدت في قلب كل مغرم ... نيران وجد تضرم اشتعالها
وقاطعتنا بالنوى مواصلاً ... لو أنصفت ما قطعت وصالها
وعن يمين الجزع شرقي الحما ... متى أراني ناشقًا شمالها
بيوت حي احكموا ضيوفها ... وحذروا عدوها نزالها
وللغزال دونها ملاعب ... لو اقتنصت مرة غزالها
وقد رمتني عينها نبالها ... فما وقتني أدرعي نبالها
إني لأهوى مجتنى معسولها ... وأختشي من قدها عسالها
تلك ربوع كنت في رباعها ... طوع هواها عاصيًا عذالها
فيا سقت تلك الربوع ديمة ... تصب من صوب الحيا سجالها
ساحبة على الحما سحابها ... تجرّ في دياره أذيالها
قد قطبت طلعتها وبشرت ... من شام بالغيث العميم خالها
من مثقلات المزن ما إن جلجلت ... بالرعد إلا وضعت أثقالها
شاكرة آثارها منها لها ... أدبارها بالري أو إقبالها
ورُبَّ ليل أطبقت ظلماءه ... بحيث لا يهدى أمرء خلالها
قلقلت فيهِ الموقرات بالسرى ... حتى لقد كدت أرى كلالها
ولست أنفك ولي مآرب ... أرجو إذا أزمعت أن أنالها
تحملني لابن النبي ناقة ... إن بلغتهُ بلغت آمالها
فإن إبراهيم حيث يممت ... كان منالها إن يكن مآلها

تكاد من وفر نوال فضلهِ تطمع أن يبلغها محالها
نفس لهُ زكية عارفة بالغة بدركها كمالها
وتستمد العارفون فيضها وترتجيها جاهها ومالها
لو لم يكن في الأرض من أمثالهِ زلزلت الأرض إذًا زلزالها
إذا دعا الله لكشف حادث أهالها أمّنها أحوالها
هو الشفاء لعضال أمة يبرىءُ من أدواءها عضالها
واتخذتهُ المسلمون أن دعت ضراعها لله وابتهالها
من النجوم المشرقات بالهدى المدحضات بالدجا ضلالها
ما برحوا في الأرض بين خلقهِ أقطابها الأنجاب أو أبدالها
إذا دعوا إلى الجميل أسرعوا ولن ترى لغيره استعجالها
واقتحموها عقبات أزمة إلى علا توقلوا جبالها
همُ الغيوث ابتذروا نوالها هم الليوث ابتدروا نزالها
قائلةٌ فاعلةٌ بقولها سابقةٌ أفعالها أقوالها
إن قربت من الأعادي قربت إلى العدا همتهم آجالها
همُ الذين ذللوا صعابها همُ الذين دوخوا إقبالها
وحرموا من ربهم حرامها وحللوا بأمره حلالها
بحر من العلم طمي[1] خِضَمُّهُ وارد كل وارد نوالها
سل ما تشاء عن عويص مشكل فإنهُ لموضح أشكالها
أين الأعادي من علوّ قدره إن طاولتهُ في المعالي طالها
لو رام أعلا بغية يرومها ولو غدت مثل النجوم نالها
تسكرنا عذوبة من لفظهِ إذا أدار لفظهُ جريالها
لهُ التصانيف التي كأنها تروي بحسن صبها جمالها
رقت حواشيها فلو قرأتها على الخصوم مرة أمالها
مثل السماء بالسناء والسنا قد طلعت خلالهُ خلالها

---

(١) الطمي: الطين، يحمله الماء.

كـم حـجـة أوردهـا قـاطـعـة وحـكـمـة فـي كلمات قـالـهـا
خـذهـا إلـيـك سـيـدي مـقـطـوعـة واجـعـل رضـاك سـيـدي إيصـالـهـا

وقد ذكرنا هذه القصيدة تبركًا بالممدوح وإظهارًا لفضل المادح، فإنها قصيدة طريفة بليغة لطيفة، أخذت بلاغة من الشعر على أكمل منوال وكادت تكون أرق من النسيم وأشهى من الجريال، ومن المعلوم أن من بقية آل السيد رجب الكبير قدس سره آل النقيب الموجودين في البصرة الآن ومنهم نقيبها ورئيسها وعين أشرافها السيد محمد سعيد أفندي ابن المرحوم السيد طالب الرفاعي، ولهُ بنو عم وأولاد أعيان أمجاد أمدهم الله بمدد أجدادهم الكرام، وجعلنا وإياهم تحت حماية الجد الأعظم عليهِ الصلاة والسلام، ومنهم ولي الله الشهير السيد الشيخ أبو بكر الكبير الصيادي من بقية آل السيد شمس الدين محمد بن السيد صدر الدين علي بن السيد القطب الجواد السيد أحمد الصياد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ، فإن جميع الإجازات الصيادية التي في النواحي الشامية والحلبية تتصل بهِ قدس سره، ولهُ شهرة بالأحوال الصادقة والكرامات الخارقة، وبعد وفاتهِ جلس على سجادتهِ ولده السيد الشيخ محمد خير الله الأول واشتهر بالعنايات الخفية والجلية والهمم العلية الباطنية والظاهرية، ومن وقع لهُ أنهُ اعتدى عليهِ شيخ المشايخ السعدية الموجود حينئذ وكسر خاطره بمحفل عظيم، وأقام عليهِ دعوى عند حاكم الوقت فامتنع الحاكم بعد أن سمع الدعوى عن الحكم بذلك، وأمر أن ترفع لدى أهل الطريق خوفًا من سهام أهل التحقيق، فبرز شيخ السعدية وقال أيها الوزير: اسمع مني ما بهِ أشير أريد أن أصنع بين يديك في رأس هذه القلعة علمين، ونصيح عليهما نحن الاثنين فالذي يأتيه علمهُ فهو صاحب الطريقة المتبعة وخلافتهُ ثابتة، والذي يغلب يكون منفيًا وتأخذ إجازتهُ، فأعرضوا القضية على الشيخ محمد خير الله فسكت، وقال: توكلت على الله. فأحضروا العلمين بين يدي الوزير فقال الشيخ السعدي هيا انده عليهِ يأتك، فقال الشيخ محمد خير الله أنا لا أكون متقدمًا على مَن هو بمقدار والدي بل أكون ثانيًا، فاستنجد الشيخ السعدي وصاح بأعلى صوتهِ أربعين صيحة على العلم فلم يأتِ إليهِ، بل يرون العلم وهو يتحرك، فلما استقر وفرغ من صيحاتهِ تقدم الشيخ محمد خير الله المذكور وقال بعد أن رمق بطرفهِ إلى السماء وقد لبسهُ الحال: اللهمَّ إن جبرائيل قال لخليلك إبراهيم وهو في النار ألك حاجة فقال أما إليك فلا وأما إليهِ فحسبي من سؤالي علمه بحالي، فلم يلبثوا إلا والعلمين طارا إلى أن أتيا فوق رأسهِ فضجت لذلك أهل البلدة، وقد كان شيخَ المشايخ الرفاعية حينئذ الشيخ عبد الله محلول الزنار، فوقعت محبة حضرة الشيخ بقلبهِ فأفرغ عليه في حال حياتهِ مشيخة المشايخ، وبقيت على ذريتهِ المباركة محفوظة إلى هذا الآن، ولما توفي رحمهُ الله وقدس سره

دفنوه عند أبيهِ بالمدفن المبارك المعروف بمدفن الشيخ العرابي، ثم تولى المشيخة والسجادة بعده ولده الأمجد شيخنا السيد الشيخ محمد، وكان حضرة السيد محمد المذكور من أهل الأحوال ومن خواص أهل الورع وكان دينًا جدًّا لا يحب العصاة، وكثيرًا ما جرى لهُ براهين ظاهرات مع الجهلة ويكون ذلك سببًا لتوبتهم، فمنها: ما جرى لهُ مع أحد الآخذين عليه الطريق وهو شاب جاهل، فنهاه مرارًا إلى أن كان أحد الأيام والشيخ رحمهُ الله جالسًا في أحد قهوات قرلق وإلى جانبهِ عمود من حجر، يعجز عن تحريكهِ ثلاثون رجلاً فإذا والمريد مقبل وهو سكران، فاحتدَّ الشيخ من ذلك إذ سمع عندها أحد العالم يتكلم بما لا يليق ويقول انظروا ذلك السكران، فإنهُ من أهل الطريقة وأن هذا شيء غير لائق، فانتهض بالشيخ الحال وقد وصل المريد إلى مقابلتهِ، فصاح بهِ فوقف، فقال لهُ: يا فلان أما نصحتك عن شرب المسكرات، فقال: نعم. فقال: ما هذه الحالة التي أنت بها فقال: يا سيدي لا تؤاخذني بما نسيت، فقال الشيخ الذي ينسى حقهُ أن يبلى ومال إلى العمود ورفعهُ في يده وأرماه به، وعند رفعهِ لهُ فرَّ المريد ليهرب فلكمهُ الحائط فوقع على وجههِ وأتى العمود مصلبًا فوقهُ من الحائط إلى الأرض، فمن خوفهِ انقطعت قوة أعصابهِ وبقي كسيحًا، فأخذوه إلى داره وبقي مدة على تلك الحالة وأمهُ تتردد على حضرة الشيخ وتسألهُ بجده، أن يذهب إليهِ وهو يقول لها: حتى يؤون الأوان ويتوب، ففي يوم أتت وقالت إنهُ يقول قد تاب والله خير الشاهدين، فذهب من حينهِ إليهِ واستعاد التوبة منهُ وكانت توبة نصوحة، فقال لهُ: قم بإذن الله وأخذ بيده وأقامهُ فبرىء بإذن الله وترامى على أقدامهِ، ولهُ مثل ذلك قدس سره أمور كثيرة لا تنكر، ولما توفي رحمهُ الله تعالى ضجت لموتهِ البلدة وقد تركت جميع أسبابها ودفنوه رضي الله عنهُ عند أبيهِ وجده بالمدفن المتقدم ذكره، ثم تولى المشيخة والسجادة ولده المرشد الكامل والسيد الفاضل العالم العامل معدن الفضائل، السيد الشيخ محمد خير الله الثاني، المشهور بالكرامات الظاهرات والمتكلم بحقائق الأسرار بأصرح الكلمات وأصح العبارات المتستر قدس سره في حلة الزهد والانزواء والمتحلي بحلية الرشد والتقوى.

وكان رحمهُ الله لا يكسر خاطر أحد ولو أنهُ ذو دعوى، إلا إذا كان منكرًا فيريهُ برهانًا قويًا ويجلبهُ للطريقة باطنًا وظاهرًا وهكذا يروى، ومما شاع وذاع وسمع من أكابر أهل الطريق وخلاصة أهل التحقيق ما جرى لهُ مع الشيخ السعدي الذي أتى من دمشق الشام وكان ذلك الرجل من أكابر أهل زمانهِ مشهورًا بالمعرفة والكمال، ومظنة من أهل الاتصال فنمى ذكره في البلد وزاره الشيخ والولد، إلا حضرة شيخنا السيد محمد خير الله المذكور فلما قرب وقت رحيلهِ من البلد، سأل أحد التلامذة عن جناب الشيخ وقال:

عجبًا إن سيدنا الشيخ الصيادي لم يزرنا لعلهُ تكبّر علينا فنحن أحق أن نزوره، ثم توجه مع جملة من تلامذتهِ حتى قرب من زاوية الشيخ، فقال أحد مريديه: يا سيدي إن الشيخ في ذلك الحانوت وهو يلعب في المنقلة، فتعجب من ذلك الشيخ السعدي وأنكر حالهُ فوصل إلى أن حاذاه فلم يلتفت إليه ومضى عليهِ نصف ساعة ولم يكلمهُ، فبادر الشيخ السعدي بالمكالمة لهُ وقال لهُ: يا سيدي أتيتك قاصدًا لأني أخبرت أنك ذو معرفة وقد اشتريت هذه المسبحة على أنها عظم ناقة وبعض العالم يقولون إنها ليست بناقة، فأخذها من يده الشيخ وقال: أظنك الشيخ السعدي الشامي، فقال: نعم، فتأمل الشيخ بالمسبحة قليلاً وقبض عليها فنزل منها الحليب إلى أن ملأ أحد بيوت المنقلة، وأعطاه إياها وقال: أشهد أنها ناقة وهذا حليبها، فقال الرجل الذي هو جالس يلعب مع الشيخ أظن هذا الحليب لا يخلو من السر، ووضع فمهُ عليهِ وشربهُ فلم يستقر في جوفهِ إلا وقد مزق أثيابهُ وقام مجزوبًا لوقتهِ، فوقع الشيخ السعدي على يديهِ وطلب منهُ المدد فدعا لهُ وانصرف. ولهُ مثل ذلك كثير يعجز قلم الحصر عدها، ولما توفي رحمهُ الله تعالى وقفت جنازتهُ عند قبور جميع الأولياء إشارة إلى الزيارة، ولحدوه لجانب والده في مدفنهم المذكور سابقًا، وألبسوا الكسوة فوق قبره المبارك إلى ولده النجيب الشاب التائب الحبيب السيد الشيخ محمد، وإنهُ كان في وقته وحياة والده سيد أهل عصره في الشجاعة، وكان بعد أن جلس على السجادة أشد الناس انكسارًا وخضوعًا لبس ثوب الحياء فكسي خلعة العناية، وطوى نفسهُ بطي التواضع فنشر لهُ علم الولاية، ومكث بعد والده على السجادة برهة يسيرة، وتوفي رحمة الله عليهِ ودفن في مدفنهم المتقدم ذكره، ثم تولى المشيخة والسجادة بعده أخوه الأستاذ الكامل والسيد الواصل المشهور بالأخلاق الحميدة والكرامات العديدة، مجدد بنيان الطريقة بسر إرشاده ومشيد أركان الحقيقة باجتهاده، شيخنا السيد الشيخ الحاج علي نفعني الله ببركاته، وكان حضرة السيد علي المشار إليهِ صاحب قلب ولسان وجاه وشأن، شهرته في النواحي الحلبية كافية عن ذكر أحوالهِ وسيرته في خدمة الطريقة الرفاعية، بترك التصدير والتظاهر في جميع أفعالهِ أقرّ لهُ بعلو الهمة الخواص ببلدتهِ والعوام، واتفق على أمر الاعتقاد بحضرتهِ رأي النصارى والإسلام. نشر مطوي أسرار المسالك الصيادية في كل نادي، وفتح باب الحضرة الأحمدية للصادي والغادي، اختصرنا عن ذكر بعض كراماتهِ لكثرتها واقتصرنا عن كتابة أوصاف حضرته لشهرتها، توفي قدس سره في هذه السنة المباركة في آخر جمادى الأولى وصار لموتهِ بحلب الشهبا يومًا عظيمًا، ووقع في كل قلب من قلوب أهلها حزن وكرب جسيم، ونطق لسان فؤاد الأسف بألف لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأرّخه كثير من فضلاء الشعراء وفصحاء الأذكياء، وقد كنت في

وقت حلول هذه المصيبة بدار السعادة إسلامبول المحمية صانها الله من كل عارض ونازل وخطر وبلية، فلما ورد هذا الخبر أصبحت في بيت الكدر مسجونًا وفي مراكز الحزن مرهونًا، وطرقني طارق الفراق بالكدر الوفي ولكمني عارض البعد بالمرض الخفي، وقلت شعرًا:

إذا ذكرت نفسي زمانًا تصرمت ... لياليه بالشهبا وشملاً تجمعا

هتفت بهاتيك الصحاب كأنني ... وليد تمنى في العشية مرضعا

وحصرت فكري قاصدًا أن أتدرج بسلك مادحيهِ، وأن أؤرخه على قدر الحال فمنعني الهم الحزن والغم، فطلبت من بعض الأحباب تاريخًا لحضرته الكريمة، فأجاب لطفًا قائلاً بلسان التأسف على فراق هذا السيد السند والمرشد المعتقد شعرًا:

زر من بني الصياد خير ولي ... من آل أشرف مرسل ونبي

وأرق دموعًا أو نجيعًا أو دمًا ... أسفًا على ذاك الفتى العلوي

قد كان في الشهباء ركن حقيقة ... بطريقة الصياد والمكي

حجبتهُ أطباق الثرى عن أعين ... تبكيه من حزن بكل عشي

خلت الزوايا من خباياها وقد ... ملئت برزء فراق خير تقي

فسحائب الرضوان تسقي لحده ... في كل هطال وكل روي

ولدى زيارتنا لهُ أرّخ نرى ... نور الرفاعي من مقام علي

١٢٨٩

وكان دفنهُ رحمهُ الله ونفعنا بهِ في زاويتهِ التي عمرها بمحلة بنقوسا، فهنيئًا لها ضمت جسمًا حسينًا وأسدًا هاشميًا، أحوالهُ بسلوك الفضل منظومة وكراماته بين الخلق معلومة، ثم تولى المشيخة والسجادة بعده ولده النجيب اللبيب الأديب السيد محمد خير الله، وأنا أسأل الله بحرمة أجداده العظام وآبائهِ الكرام، أن يفتح لهُ باب التوفيق والفتوح إنهُ قدوس سبوح. ومنهم الشيخ الإمام العالم الفاضل الهمام شيخ وقتهِ وفريد عصره شمس الدين محمد بن عجلان، وهو أخو الشيخ صدر الدين الرفاعي صاحب الكرامات الظاهرة والمناقب الفاخرة والمقام الشهير بمصر القاهرة لأمهِ، أخذ عن عمهِ شقيق والده العارف بالله والدال عليهِ شيخ المشايخ العارفين ومربي المريدين، الشيخ صدر الدين المشار إليهِ وهو أخذ عن عز الدين حسن بن أحمد الرفاعي، وهو أخذ عن أبيهِ شمس الدين أحمد بن محمد الرفاعي وهو أخذ عن والده الشيخ تاج الدين محمد بن أحمد الرفاعي، وهو أخذ عن الشيخ شمس الدين أحمد بن محمد بن عبد الرحيم الرفاعي وهو

أخذ عن الشيخ نجم الدين أحمد بن علي الرفاعي، وهو أخذ عن الشيخ قطب الدين أبي الحسن علي بن عبد الرحيم الرفاعي، وهو أخذ عن الشيخ شمس الدين محمد المعروف ببيض القبان الرفاعي، وهو أخذ عن الشيخ محيي الدين إبراهيم بن علي الرفاعي، وهو أخذ عن الشيخ مهذب الدين الرفاعي وهو أخذ عن الشيخ سيف الدين علي بن عثمان الرفاعي، وهو أخذ عن الشيخ الإمام العارف المحقق مربي المريدين ومرشد السالكين وقطب الواصلين العلم المشهور والبيت المعمور سيدنا وأستاذنا السيد أحمد بن الرفاعي، صاحب هذه الطريقة الغراء التي نحن سالكون عليها قدس الله سره العالي ونور ضريحهُ المتلالي، وأما نسب الإمام الفاضل السيد الشريف أبي البشائر محمد بن عجلان لأبيه، فهو الشريف محمد بن الشريف عجلان بن الشريف علي بن الشريف محمد بن الشريف جعفر بن الشريف حسن السجاع بن الشريف العباس بن الشريف حسن بن الشريف العباس بن الشريف حسن بن الشريف حسين أبي الجن بن الشريف علي بن الشريف محمد بن الشريف علي بن الشريف إسماعيل الأعرج بن الإمام الجليل جعفر الصادق ابن الإمام الجليل محمد الباقر ابن الإمام الجليل علي زين العابدين ابن الإمام الجليل الشهيد سيدنا الحسين ابن سيدة نساء العالمين، السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها بنت سيد الأولين والآخرين محمد ﷺ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين.

وإن ذرية السيد محمد بن عجلان المذكور بدمشق الشام، لم تزل تحوي الفضائل والمفاخر ويتوارثون نقابة الأشراف بها كابرًا بعد كابر، وهم أعيان تلك الجهة وقاداتها نفعنا الله بأجدادهم الطاهرين وأفاض علينا من بركاتهم أجمعين، ومنهم إمام العارفين وقدوة الواصلين قائد ركب الصالحين الكرام مولانا السيد حسين برهان الدين ابن السيد عبد العلام، من آل خزام قدس سره، هاجر من العراق مع أخويهِ السيد علي والسيد محمد إلى البلاد الشامية في مستهل شهر جمادى الأولى لاثني عشر يوم خلت منهُ سنة أربعة عشر ومائة بعد الألف، فلما وصلوا في سيرهم إلى معرة النعمان خرجوا قاصدين زيارة جدهم مولانا السيد أحمد الصياد قدس سره العزيز، ففي طريقهم مروا بقبيلة بني خالد وقد نصبوا خيامهم على حافتي الطريق، وكان إذ ذاك شأن القبيلة المذكورة في تلك الديار عاليًا، وقوتهم وكثرتهم ووحدة كلمتهم معلومة، وكان شيخ القبيلة الخالدية إذ ذاك رجل من المشاهير يقال لهُ مراد بن جابر الناصر، ومن المعلوم أن القبيلة المذكورة ينتهي نسبهم إلى الصحابي الجليل سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنهُ، وكان لشيخ القبيلة مراد بن جابر المتقدم ذكره بنتًا مقعدة لم تقم منذ ثلاثة أعوام، فلما مر السيد حسين برهان الدين وأخوتهُ بالقبيلة المذكورة حسن اعتقاد كل من القبيلة بهم، وأتوا بهم إلى صيوان شيخ القبيلة وذكروا لهُ أن يطلب من السيد حسين المشار إليه أن يمر بيده على بنته

المقعدة، لعل الله أن يشفيها ببركة السيد حسين قدس سره، فطلب شيخ القبيلة من السيد حسين نفعنا الله بهِ أن يمر بيده المباركة على البنت المذكورة وأن يدعو لها، فقال السيد حسين قدس سره: لا أفعل ذلك إلا إذا عقدت لي عليها، فولى شيخ القبيلة وجههُ مغضبًا لما سمع كلام السيد، فقال لهُ أكابر عشيرتهِ وأصحاب رأيه لا تغضب، وافعل ما أمر بهِ السيد فإن عافاها الله فقد صاهرت سيدًا ووليًا ولك الشرف بذلك، وإن لم تشف فهي عندك ولا يأخذها أحد، فعقد لهُ عليها ودخل السيد حسين قدس سره خدر البيت، وأخذ بيدها في الحال وقال لها: قويم بإذن الله يا أم العيال، فقامت بإذن الله صحيحة قوية فعظم فرح القبيلة، وكبر شأن السيد حسين برهان الدين لديهم، فتزوج بمخطوبتهِ وأقام في القبيلة، فقال كل من أخويهِ لا بد من أن تأذن لنا بالحج ففعل. وذهب السيد محمد وأخوه فلما وصلا إلى الشام، توفي السيد محمد بالشام ودفن بالصالحية وبنى بعض معتقديهِ عليهِ قبة هناك، ويعرف مزاره بالشيخ محمد البغدادي عند أهل الصالحية، وأما السيد علي فإنهُ تزوج من آل السيد فاتك الحسني بنتًا يقال لها درة بنت السيد سليم ابن السيد ناصر ابن السيد فاتك ابن السيد وديان ابن السيد ناصر ابن السيد حسن ابن السيد فلاح ابن السيد حسن ابن السيد ناصر ابن السيد جميل ابن السيد بريد ابن السيد كميل ابن السيد قعود ابن السيد بريد ابن السيد سعيد ابن السيد مال ابن السيد فاضل ابن السيد جميل ابن السيد إبراهيم ابن السيد علي ابن السيد إبراهيم ابن السيد منصور ابن السيد علي ابن السيد حسين ابن السيد فارس ابن السيد نجيب ابن السيد علي النعيمي ابن السيد جميل ابن السيد فلاح ابن السيد محمد ابن السيد عبيد ابن السيد طعمة النعيمي ابن الحسن ابن الركن ابن المشرف بن بنانة بن القمقمي بن محمد بن أحمد بن عبد الله ابن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الإمام الحسن المثنى ابن الإمام الحسن السبط رضي الله عنهُ ابن سيدتنا فاطمة الزهراء رضي الله عنها، بنت سيد المخلوقين حبيب الرحمٰن سيدنا محمد ﷺ، وأقام معهم في بادية دمشق بالقرب من قرية حران، وأعقب ذرية مباركة تفرقت في تلك الأطراف، وهم الآن يعرفون لدى أهل دمشق الشام ونواحيها بعشيرة الصياد، وقد أطبق القبائل وأهل تلك النواحي على حرمتهم والاعتقاد بهم، ودفن جدهم السيد علي المشار إليهِ بالقرب من حران في ذيل تل هناك، وكذلك أولاده رضي الله عنهم، وأما السيد حسين برهان الدين جد العائلة الخزامية، وعقد سلسلتهم الزكية ولد في سنة ست وتسعين وألف، وتوفي سنة ست وأربعين ومائة وألف ولهُ من العمر خمسون سنة، تلقى العلوم والفنون العالية عن جماعة منهم: عمهُ السيد حسين المبارك الريعي الجليل المحدث القدوة العلامة، والشيخ العلامة الفاضل حسين السويدي البغدادي، والشيخ عبد المنعم البغدادي وبرع وتفنن، وألف كتبًا كثيرة منها تخريج

أحاديث الإحياء، والاتقان في علم تجويد القرآن، والصراط الأقوم في بيان قصة معراج النبي ﷺ، ورسالة صغيرة في التصوف سماها حالة أهل الحقيقة، ولهُ شعر لطيف ولسان عذب ظريف ومن شعره:

تركتم جفوني ساهرات اللياليا ... ودمعي على خدي يحاكي اللاليا
وألفتُم بين السهاد وناظري ... وفرقتمُ ما بين عقلي وباليا
وعذبتُم قلبي بآلام هجركم ... وصيرتم جسمي نحيلاً وباليا
أيا جيرة هزوا رماح قدودهم ... وسلوا ظبا[1] ألحاظهم لقتاليا
خذوا عن غرامي وانقلوا عن صبابتي ... وبثوا اشتياقي واشرحوا ما جرى ليا
لئن كان قتلي في شريعة حبكم ... حلالاً فقد حللتموا ما حلاليا
تولعت في مبدأ غرامي فعندما ... تمكن من قلبي الهوى حال حاليا

ومن شعره قدس سره أيضًا:

أشكو شكاية عاشق هجر الورى ... ونفى الكرى وحبيبه متباعد
يرجو من الأيام قرب حبيبهِ ... والدهر إن شاء القضاء يساعد

ومن شعره قدس الله روحه:

لم يترك البين لي صبرًا ولا رمقا ... يوم الرحيل فليت البين لا خلقا
لئن تخلّف قلبي عن ركائبهم ... من النحول فدمعي صار منطلقا
أستودع الله من سارت رواحلهم ... وأودعوا مقلتيَّ الدمع والأرقا
إذا شكوت إليهم ما أكابده ... من الصبابة قالت أدمعي صدقا

ومن شعره في المناجات:

يا من تلوذ ببابهِ الألباب ... أبدًا وتطلب قربهُ الأحباب
وتهيم أسرار الورى بجمالهِ ... ولعزه تتواضع الأرباب
أجبر كسيرًا مذنبًا هجر السوى ... ما أنَّ لهُ إلا إليك مناب
قد أقعدتهُ ذنوبهُ ورمى بهِ ... دهر وما أرخت لديهِ عياب
لا يجتدي من غير فضلك مطمعًا ... إذ ليس فيهِ غير بابك باب

---

(١) ظبا: جمع ظُبَة وهو حد السيف والخنجر.

كن لي كما قد كنت لي يا سيدي … في حضرة أسمائها الحجاب

فوسيلتي لك مصطفاك المحتبى … سر الوجود الخاشع الأواب

صلّى عليهِ مسلمًا أبد المدى … رب الأنام المنعم الوهاب

وبالجملة فقد كان السيد حسين المشار إليهِ نادرة زمانهِ علمًا وعملاً، وكان على قدم عظيم من الأدب وحسن الأخلاق، وأجرى الله على يديهِ أمر الإرشاد في هذه الطريقة العلية، ولهُ فيها ما يزيد عن مائة خليفة، منهم: الشيخ الفاضل والعالم العامل أبو البركات محمد بن حسين السويدي البغدادي، والشيخ عبد الرحمٰن بن فرج الموصلي، والشيخ عبد الله بن إسماعيل النعيمي، والشيخ علي الطفيح الرهاوي، والشيخ أبو محمد عردوك الخابوري، والشيخ الكبير طعمة الرفاعي البيتماني، والشيخ محمود كبير الكف الجسري، والشيخ الولي الصالح المعروف بالدرويش محمد البسامسي، والشيخ العالم الشريف العارف بالله الشيخ محمد العارف الأريحاوي ابن السيد أحمد ابن السيد محمد ابن السيد إبراهيم ابن السيد إسماعيل ابن السيد الشرفي يحيىٰ ابن السيد علي ابن السيد موسى ابن السيد أحمد تاج الدين ابن السيد محمد ابن السيد جلال أحمد ابن السيد علي ابن السيد قاضي جلال محمد ابن السيد أحمد ابن السيد محمد ابن السيد أبي السنا محمود ابن السيد إبراهيم ابن السيد أحمد ابن السيد محمد ابن السيد أمين يوسف ابن السيد الشرفي علي ابن السيد إسحٰق ابن السيد محمد ابن السيد عبد الله ابن السيد جعفر ابن السيد موسى ابن السيد محمد ابن السيد يحيىٰ ابن السيد إسحٰق المؤتمن ابن السيد محمد التقي ابن السيد علي الرضى ابن سيدنا الإمام موسى الكاظم ابن سيدنا الإمام جعفر الصادق ابن سيدنا الإمام محمد الباقر ابن سيدنا الإمام علي الزاهر، زين العابدين ابن سيدنا وولي نعمتنا سيدنا الإمام الحسين ابن سيدنا وولي نعمتنا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين. اهـ. ومن خلفائهِ أيضًا الشيخ أحمد الصيادي الملسي، وغيرهم ممن علت شهرتهم ونفذت كلمتهم، وقد أقام رضي الله عنهُ في الديار الحموية منزويًا في قبيلة بني خالد، معرضًا عن الخلق وأعقب من زوجتهِ زيانة الخالدية، مولانا السيد الكبير الشيخ علي الخزام، وسنذكر إن شاء الله ترجمتهُ، وأعقب منها أيضًا السيدة فاطمة التي تزوج بها ابن عمهِ الشيخ أبو بكر الملكي الصيادي المندلاوي الكبير، نزيل قرية كفر زيتا من أعمال حما ودفين جبل بيروت من أعمال الشام وصاحب القبة والمزار المعروف هناك، والمقصود من الناس للتبرك والتوسل، فأعقبت السيدة فاطمة نفعنا الله بها من ابن عمها السيد أبو بكر المشار إليه الشيخ الجليل المشهور صاحب الكرامات المأثورة والمناقب المشهورة المعروفة، السيد خير الله الكبير نزيل حلب وشيخ مشايخها صاحب

العلم أبو محمد، الذي شهرتهُ في النواحي الحلبية غنية عن البسط والتعريف، دفين المقبرة العرابية بحلب، وقد تزوج مولانا السيد حسين برهان الدين، صاحب الترجمة أيضًا بالسيدة صالحة بنت السيد يس الباني، فأعقب منها السيد يونس فأعقب السيد يونس الشيخ الكبير صاحب الكرامات السيد عرفات وذريته في قرية كفر زيتا موجودة وشهرتهم بآل عرفات معلومة، وتزوج السيد حسين برهان الدين المشار إليهِ أيضًا بالشيخة الصالحة فاطمة بنت الشيخ محمود الغابي الجنيدي، فأعقب منها السيد طالب والشيخ محمد العجاج نزيل كفرسجنه، وإليهِ ينسب آل الشيخ عثمان الذين منهم الشيخ الولي البركة المعتقد السيد رجب صاحب الزاوية والشهرة بقرية كفرسجنه من أعمال معرة النعمان، وذريته فيها مشهورة بارك الله بهم وسلكهم بفضلهِ أقوم الطريق إنهُ ولي التوفيق، ثم إن السيد محمد العجاج نزيل كفرسجنه هاجر بنفسهِ في آخر عمره إلى قرية الزراعة من أعمال حمص وبنى فيها زاوية وتزوج بها وأعقب ذرية مباركة ومات بها قدس سره ودفن بزاويتهِ في الزراعة، وسكن أولاده بعده طرابلس الشام وذريتهُ فيها معروفة للآن، وأما السيد طالب أبو بكر ابن السيد حسين سكن حلب وأقام بها في زاويتهِ بمحلة الأكراد بحلب، ونشر الطريقة الرفاعية بها واشتهرت ولايتهُ لدى الخاصّ والعامّ، ومدحهُ أعيان الوقت وفيهِ يقول المولى الولي الفاضل أحمد الشاكر أبو الصفا الدمشقي نزيل حلب، ذاكرًا مزاياه ومنها عما خصهُ بهِ الله:

أبانت لطرفي جلسة المتراقب ... من الطيف ندبا لو رعت حكم واجب
وليس عليها من وجوب وإنما ... يصح مع البرهان حق السوالب
ليهنى لها قلبي مقامًا وأضلعي ... ضرامًا ودمعي موردًا للركائب
لئن سرّها إن مت فيها صبابة ... فيا حبذا فيها حصول مطالبي
وآلت غداة البين أنك هالك ... وما بينها إلا وصال الأجانب
قفا عند بان الجزع وقفة سائل ... معالمهُ عن غيده[1] والربارب[2]
ولا تحبسا فيهِ قلوصكما فما ... به غير إرهاف[3] القنا والقواضب[4]
أضاء لنا حيث الإضا ومض بارق ... يشير بكف البشر فوق المضارب

---

(١) غيده من غَيِدَ غَيدًا إذا تمايل وتثنى في لين ونعومة فهو أغيد وهي غيداء.
(٢) الربارب: جمع ربرب وهو القطيع من الظباء.
(٣) إرهاف: من رهف رهافة رقّ ولطف.
(٤) القواضب جمع القضب وهو ما أكل من النبات المقتضب غضًا.

فما خال صحبي من سناه إخالة ... تلمعتها من ثغرها المتراطب
وأيقظهم من بانة الأيك صادح ... يرجع في تغريده صوت نادب
ولم يشجهم ما قد شجاني صبابة ... ولا فهموا من شجوه والرغائب
وليلة قرب نلت فرصة أنسها ... ببدر تمام بات فيها مصاحبي
بحيث يدير الراح بدر كأنما ... تجلت لنا شمس الضحى بالكواعب
سلافة سرّ صانها الدهر أن ترى ... بحجب خفاها عن كثافة شارب
فلو ظهرت للعين ما كان غيرها ... ولكن تبدت خلف ستر العجائب
ولا غيرها في كل حال وإنما ... تصاوير أوهام رعت للكواذب
تجلى سناها للكليم على طوى ... فجاء كلام الحق من كل جانب
وعيسى بها أحيا وأبرأ أكمهًا ... وأنشأ بالإيجاد طير الغياهب
وناولها جبريل بالقدح الهنى ... لمن نال بالمعراج أسنا المراتب
وفي ليلة الإسرى حديث قديمها ... لهُ الرفع إسنادًا بصدق المناقب
فوافى بها من قاب قوسين حضرة ... بحيث شهود العين من غير حاجب
هي السرّ سرّ الغيب من سر أحمد الـ ... ـرسول إلى تلك القلوب الرواتب
بها هام معروف الكمال مع السرى ... وللشبل منها صافيات المشارب
ومنها حبيب والجنيد لبازهم ... أدارا سلافًا راحها بالتجاذب
ومذ عربد الحلاج فيها فجاد بالـ ... ـحياة لها والأمر ضربة لازب
وللقوم فيها فيض علم يدق عن ... مدارك أفهام العقول النواضب[1]
ترفع عزًّا قدرها وتميزت ... على خفض هاتيك الحروف النواصب
أقاموا عليها طلسم[2] الكتم غيرة ... وقد سلكوا فيها بأقوى المذاهب
وصانوا حماها عن نفوس ذميمة ... فدست بتلبيس العمى والمعائب
ولما اجتلاها ابن الرفاعي أحمد ... فنال ارتفاعًا عندها غير شاحب
ومدت يد المختار وهي إشارة ... لعهد خفي سره غير غائب
فلا زال منهُ السر سار بنوره ... لسر بنيهِ طيبًا لا طائب

---

(١) النواضب: جمع ناضب وهو البعيد.

(٢) طلسم: يقال طلسم الرجل إذا كرّه وجهه وقطبه.

إلى أن تلألأ برق ذلك مشرقًا ... على نجلهِ بدر الفضائل طالب
فتى سعدت فيهِ الليالي وأشرقت ... بأنواره الأقطار بيض الجوانب
همام رقا بالمكرمات إلى العلا ... وساد بأصل طيب الغرس ناجب
وشهم يروع الليث لحظًا كأنما ... أشار بسهم حالة الرأي صائب
فسل صافنات الأعوجية عنهُ إن ... جهلت علاه أو صفاح القواضب
وسل كل قوداء التليل إذا سعت ... رحيبة مد الباع بين السباسب[1]
إذا ما شجاها باسمه صوت سابق ... تحن كمشتاق لذكر الحبائب
وأرعن يحموم[2] إذا الريح طالبت ... لهُ عقبا أبقا لها في العواقب
أقب بروق البرق صقل أديمهِ ... لهُ أبدًا في السبق أخذ المقانب[3]
إذا ما سرى بالقافلين كأنما ... يسيرون في ظل من الأمن هائب
بكل يباب[4] آل بالآل رمضها ... وقفر بعيد الأنس وحش الهواضب
فغير زئير الأسد لم يصغ سامع ... لديها وتهدار القروم السلاهب[5]
بواد تبيد الباسل البأس رهبة ... ولو كان عمرو أو عياض بن ناشب
ولو أن جيشًا أم ذلك دونهُ ... لأصبح نهبًا للأسود الكوالب
ويسري بهم سير الهلال كأنهم ... بنو هاشم من تحت راية غالب
إلا أن تاج المجد نسج ابن هاشم ... وطالبهُ من طالب غير خائب
بني هاشم لا فخر بعد فخاركم ... ولا نسب من بعدكم لمناسب
نجاركم من جوهر الفضل خالص ... بسيط على أعراضكم بالمراتب
لكم كوثر في الجود جار على الورى ... وفاه وثان فيهِ حتف المحارب
لكم دولة المجد الذي لم يقم بها ... سواكم لدى أعجامها والأعارب
علية مجد لا ينال سنامها ... فتى غيركم في جمعها والكتائب
بني بضعة المختار أي تنافس ... لغيركم إن قام سوق التناسب

---

(١) السباسب جمع سبسب وهو شجر يتخذ منه السهام.
(٢) يحموم: الشديدة الحرارة.
(٣) المقانب: جمع مقنب وهو شيء يكون مع الصائد يجعل الصيد فيه.
(٤) يباب: أرض يباب أي خراب.
(٥) السلاهب: جمع سلهب وهو الطويل عامة وقيل الطويل من الرجال، وقيل الطويل من الخيل.

فحبكم فرض على كل مسلم ... ومدحكم مفتاح كنز المآرب
فإن العليّ صلى عليكم برحمة ... وبارك رضوانًا لرغم المغاضب
وفي قول لا أسألكم الحق ظاهر ... وصية حق في وداد الأقارب
فيا أيها المولى الذي قد تنزهت ... خلائقهُ عن عتب كل معاتب
ومن قد بدا في وجههِ نور جده ... دليلاً على أفضالهِ والتقارب
سقى الله بالإحسان مربع بصره ... وجاد حماها من ملث[1] السحائب
وغرّتك الشهباء مذ لاح نورها ... على حلب الشهباء أهدت لراغب
إليك بأبكار المعاني بضايعًا ... تجار الأماني بادرت بالمطالب
قلائد حمد في جيود الزمان لا ... تزال تبث الطيب بين الأطايب
ومدحي من أفضالكم فيض همة ... وإن يدعي فهمي لهُ في الرواغب
سريرة حب قابلتها قلوبنا ... من الغيب صفوًا قبل كون القوالب
ففضلكم نار الكليم وغيركم ... إذا ما ادعى فضلاً كنار الحباحب[2]
وليس طريق الشعر لي مذهبًا وقد ... عفى أفقه من نوأ تلك الكواكب
إذا وفد الراجي بهِ يلق أوجهًا ... توارت من الشح الزري بعصائب
وإنك ممن يعرف الفضل حيث ما ... بدا ويفيد القصد حسن المكاسب
وحسبي بها حسن القبول وما الدنا ... بأمر كبير أرتجيهِ ولا أبي
وما القصد إلا منكم بعض نظرة ... تكون حمى لي من صروف النوائب
ودم راقيًا في ذروة العز سالمًا ... إلى كل عيد من خطوب العواقب
فإن وصلت نعماكم حبل شاكر ... فقد عاد من أمناحكم غير خائب

توفي السيد طالب أبو بكر الرفاعي الصيادي المشار إليه بحلب سنة سبعة وسبعين ومائة وألف، ودفن في مقابر الصالحين بالجهة القبلية من حلب بالقرب من الشيخ أبي الحسين النوري رضي الله عنهُ، وأعقب لهُ بنت اسمها مريم الزكية، ولم يعقب غيرها رحمهُ الله ونفعنا بهِ. وقد أعقب السيد حسين برهان الدين صاحب الترجمة السيد سعد الدين أيضًا فمات عقيمًا، وأعقب إليه عبد الله وهو الذي أبقاه بعده في العراق قبل

---

(١) الملث هو سواد الليل حين يقبل الظلام ولا يشتد سواده.
(٢) الحباحب من الغلمان والإبل الضئيل الجسم.

هجرته، فأعقب السيد عبد الله المشار إليه السيد محمد فأعقب السيد عبد الله السيد كاظم الفاضل المشهور، فأعقب السيد محمد خميس فأعقب السيد محمد طاهر والسيد كاظم بارك الله بهم وبأعقابهم أجمعين آمين. وإن للسيد كاظم المشهور رحمةُ الله من الشعر البليغ النفيس ما يزري بأجنحة الطواويس، منها هذه الرباعية الفريدة في الحضرة الرفاعية الحميدة:

يا ابن الرفاعي تدارك ... لمن أتى واستجارك
شيخ العريجا أغثني ... أصبحت في الحي جارك
يا بغية المتمني ... أخذت قلبي مني
لا تلو طرفك عني ... إني أروم انتصارك
يا أحمد الأصفياء ... يا وارث الأنبياء
سلطنت في الأولياء ... وما لمست عذارك
يا شيخ كل الوجود ... يا بحر فضل وجود
كم للعدو الحقود ... أوقدت للبطش نارك
سبقت أهل الكمال ... وسدتهم بالمعالي
بكل علم وحال ... أضحى الكبار صغارك
كم قائل بالتساوي ... لجهل خافي المطاوي
وعند رفض الدعاوي ... لم يدن قطب غبارك
وطأت بالانكسار ... هام مقام الفخار
والله في كل دار ... أعلا على الناس دارك
قطعت حدّ التناهي ... بعزم سر إلٰهي
وكان ترك التباهي ... والافتقار شعارك
قبلت كف الرسول ... ما بين كل القفول
بذاك يا ابن البتول ... أعلا أبوك جدارك
للعارفين طريق ... للوصل أنت حقيق
بحر ولكن عميق ... ما جاز شيخ قرارك
مددت عصبة أهلك ... واللائذين بحبلك
وفي بنيك لأجلك ... تبارك الله بارك

أقطاب كل زمان | بنوك حزب الأمان
وأنت لله باني | على الخشوع افتقارك
طاولت حزب الأعالي | بكل حال وقال
طويت دون الرجال | فوق الخضوع إزارك
هذا يواليه شطح | يغيب فيهِ ويصح
وأنت لا زلت تمح | بالانكسار فخارك
يا ابن الرسول أغثني | فقد تعاظم حزني
فإن تغاضيت عني | يصير عاري عارك
صلى الإله وسلّم | على النبي المعظم
والآل ما قال مغرم | يا ابن الرفاعي تدارك

ولهُ أيضًا على لسان الحال:

عج[1] بها ليلاً إلى أرض البطاح | وأطعمنها عشب هاتيك النواح
وأنخها بين نمام وشيخ | وخزامٍ وانشقا عرف الأقاح
وأنهزنها لفيافي واسط | نهزة الفجر على قرب الصباح
وإذا ما نشطت فانشط بها | وأسمعنها صوت حي على الفلاح
وإذا ما أخذت من جانب الـ | ـماء ضحضاحًا وحنت للمراح
فانزلن عنها بواد طالما | عفرت وجهًا بهِ شوس[2] الرجاح[3]
مدفن الغوث الرفاعي الذي | كرع الخمرة فردا وهو صاحي
أحمد القطب الذي من بابهِ | انتشرت للقوم أعلام النجاح
شمسهم في كل عصر شيخهم | وفتاهم إن يقم سوق الصلاح
واحد الأفراد علمًا وتقا | رأسهم حال اختتام وافتتاح
أسد الأقطاب حجاجهم | إن علا في محنة غوش الصياح
كم لهُ من خارقات ما انقضت | أثبتت تصريفه رغمًا للاحي

(١) عج: رفع صوته وصاح. (٢) شوس من شَوِسَ إذا جَرُؤ وشَجُعَ.
(٣) الرجاح: يقال امرأة رجاح أي عجزاء، وكتيبة عجزاء أي كرارة وثقيلة.

تخمد النار لعليا اسمهِ وتراه مثلما حد السلاح

وانقلاب السم ماء شاهد لعلاه بالبراهين الصحاح

واليد البيضا التي أحرزها جاز فيها الحد من غير جناح

أقصرت باع فحول الأوليا حين طالت لحما غير مباح

هكذا الهمة إن ما ذكرت تغرق العمر بعزٍّ وانشراح

رضي الله تعالى عنهُ ما عطرت ذكراه أردان[1] الرياح

ولهُ غير ذلك من القصائد النبوية والمدائح التصوفية ما لا يسعهُ هذا المقام رحمهُ الله آمين. قلت: وإن لسيدنا الشيخ حسين برهان الدين من الدعوات المستجابة والأحزاب المستطابة، ما يمدح شأنها ويلمع برهانها، منها هذا الحزب المبارك وهو:

بسم الله الرحمٰن الرحيم، يا من تحل بهِ عقدة المكاره ويا من يفثأ[2] بهِ حد الشدائد، ويا مَن يلتمس منهُ المخرج إلى روح الفرج، ذلت لقدرتك الصعاب وتسببت بلطفك الأسباب وجرى بقدرتك القضاء ومضت على إرادتك الأشياء، فهي بمشيئتك دون قولك مؤتمرة وبإرادتك دون نهيك منزجرة، أنت المدعو للمهمات وأنت المفزع في الملمات، لا يندفع منها إلا ما دفعت ولا ينكشف منها إلا ما كشفت، وقد نزل بي يا رب ما قد تكابدني ثقلهُ وألمّ بي ما قد بهضني[3] حملهُ، وبقدرتك أوردتهُ عليَّ وبسلطانك وجهتهُ إليَّ، فلا مصدر لما أوردت ولا صارف لما وجهت ولا فاتح لما أغلقت ولا مغلق لما فتحت ولا ميسر لما عسرت ولا معسر لما يسرت ولا ناصر لمن خذلت ولا خاذل لمن نصرت، فصلّ على محمد وعلى آل محمد، وافتح لي يا رب باب الفرج بطولك، واكسر عني سلطان الهم بحولك، وأنلني حسن النصر فيما شكوت، وأذقني حلاوة الصنع فيما سألت، وهب لي من لدنك فرجًا قريبًا واجعل لي من عندك مخرجًا وحبًا، ولا تشغلني بالاهتمام عن تعاهد فروضك واستعمال سننك، فقد ضقت مما نزل بي يا رب ذرعًا وامتلأت بحمل ما حدث علي همًّا، وأنت القادر على كشف ما ابتليت بهِ ودفع ما وقعت فيهِ، فافعل لي ذلك وإن لم أستوجبه منك يا ذا العرش العظيم. وقد كان أعظم أولاد السيد حسين برهان الدين قدرًا وأشهرهم اسمًا وذكرًا، مولانا السيد علي الخزام دفين قرية حيش من أعمال معرة النعمان، وصاحب المرقد والقبة المنورة بها، وسنذكر حالهُ تفصيلاً. وأما السيد حسين فإنهُ اشتاق في نهاية

---

(١) أردان جمع رِدْن وهو الكم.

(٢) يفثأ: من فثىء اللبن إذا تغير وتقطع.

(٣) بهضني: من بهضه الأمر إذا شقّ عليه.

أمره إلى زيارة أخيهِ السيد علي المقيم بحوران ببادية دمشق، فذهب لزيارتهِ فقبل وصولهِ توفي السيد علي قدس سره، ثم بعد أن وصل السيد حسين إلى بيت أخيهِ أصابهُ مرض البطن، فتوفي بعد أخيهِ بأيام قلائل مبطونًا شهيدًا، ودفن بجانب أخيهِ ولهُ قبة هناك معروفة تزار نفعنا الله بهِ وبأسلافهِ الطاهرين. فلما جاء خبر موته قدس سره انتصب بعده في القبيلة والناحية ولدهِ الشيخ علي الخزام، فعلا قدره وعظم أمره واعتقده الناس وأظهره الله بعنايتهِ وأكرمهُ بولايتهِ ورزقهُ الكشف والتمكين والقوة واليقين والتصرف الخارق والسر البارق، ولد قدس سره كما ذكره الشيخ محمد الوفائي بمجموعة لهُ، في سنة عشرين ومائة وألف وتوفي سنة سبع وسبعين ومائة وألف ولهُ من العمر سبعة وخمسون سنة، قال الشيخ محمد الوفائي: كان الشيخ علي الخزام الصيادي الخالدي صاحب عزم وتصريف وحال مكين وبطش متين، ولهُ أحوال عجيبة ومناقب غريبة، منها: أنهُ زار أختهُ والدة السيد خير الله الكبير بحلب، فمرَّ يمشي في أحد شوارع حلب وكان في الشارع جماعة فيهم بعض الحسدة للشيخ، ومنهم مَن لا يعرف الشيخ، فسأل عنهُ، فقال رجل مصارع يكره الشيخ: أنا أعرفهُ ووقع بعرض الشيخ وذكره بالسوء وولى وجههُ عن الطريق الذي مرّ به الشيخ، وقال: ليتهُ يأت إليّ في محل الصراع حتى أصارعه وأكسر رجليهِ، فسكت الجماعة وقام كل إلى بيتهِ وذهب القائل إلى محل مكثه، فلما جاء الليل نام فرأى أنهُ تجرد للمصارعة ودخل عليهِ الشيخ علي الخزام، فقال: تعال نتصارع فقبض كل منهما على الآخر فرفعهُ الشيخ بيده وضرب بهِ الأرض فانكسرت رجلتاه، فاستيقظ مكسور الرجلين بفراشهِ فصاح على مضيفهِ، وذكر لهُ القصة وطلب منهُ أن يحملهُ إلى الشيخ، فحملوه على أعناق الرجال إلى الشيخ، فلما رآه قال قدس سره مرتجلاً مواليًا:

أمرُّ تغضي وتحرف وجهك العباس	لأنك حسيني ولأنك من بني العباس
إن كان قصدك تلاعبني فالعب باس	فكم ملاعب لرجلي حين ألعب باس

فبكى أمام الشيخ وتاب وقبل رجلهُ، فقال لهُ: قم بإذن الله فقام الكسير المذكور صحيحًا، والحاصل كراماتهُ كثيرة ومناقبه شهيرة وزيارة قبره بركة، ولهُ على العائلة الخزامية الفضل واليد البيضاء؛ بل الله ثراه ورفع قدره وأعلاه آمين. وما أحسن ما قالهُ فيهِ المرحوم السيد كاظم الخزامي الصيادي طيب الله مرقده:

من عراق حوّل الركب لشامْ	وتذكر أهل هاتيك الخيام
واضرب الأينق ضربًا هينًا	فهي لا تحتاج ضربًا باللثام
واذكر الشيخ لها من بيْدِها	ومن الدراج مسكي الخزام

وأعنها بحويد شيق ... يذكر الشيخ علي بن خزام
لترى أخفافها تفرى الفلا ... وبهذا ما عليها من ملام
ذاك قطب الغرب مصباح الهدى ... شبل شمس الشرق أستاذ الأنام
فلك دار بهِ دور العلا ... فعلا حتى سما أعلا مقام
وإمام جمع المجد بهِ ... من ذوي خال وأعمام كرام
وإلى آبائهِ في مشرق الأ ... رض شأن ذاع في البيت الحرام
نسب طاب واصل كلما ... لاح غاب الفجر في ذيل الظلام
وإذا رام محب مدحه ... أخذ القرآن في سلك النظام
مدحة الله تعالى لهم ... أقصرت عن شأوها[1] باع الكلام
برسول الله منهم حسب ... جاء يروي من إمام عن إمام
للإمام ابن الرفاعي الذي ... قد سرت أسراره حتى القيام
كل يوم منهُ شأن ولهُ ... دولة بين الملا في كل عام
ولهُ من آلهِ جرثومة ... هم أسود الغاب في يوم الصدام
كعلي شيخنا بحر التقى ... علم المجد ومرفوع العلام
شرفت فيهِ بنو خالد والـ ... ـعصبة الغراء من آل خزام
سيد أوصافه من بعضها ... إنهُ للملتجي أعظم حامي
وولي كلما ناديتهُ ... وأبيهِ قام معنا بالمرام
وإذا استعطفتهُ جاد وإن ... قلت أدرك جاء مسلول الحسام
وعلى الأعداء إن حولتهُ ... أحرقتهم منهُ نار الاصطلام
علوي أحمدي عارف ... بحر فضل بصنوف الخير طامي
أنا لا أخشى من الدنيا ولي ... منهُ عين دائمًا ترعى مقامي
يا ولي الله يا ابن السيد الـ ... ـسند الصياد يا شبل الإمام
أنا ذاك المرتجي خذ بيدي ... علّ بين القوم أحظى بانتظام
وعسى أدخل في موكبكم ... بجوار المصطفى يوم الزحام

---

(١) شأوها: الشأو: الشوط.

وأراني بالمعالي في الدنا ولدى الموت أرى حسن الختام
وعليكم آل طه أبدًا صلوات الله مع أزكى السلام

وقد تزوج السيد علي الخزام من قبيلة بني خالد، وأعقب السيد خزام ولد على ما فهم من حساب تاريخ والده في سنة خمسة وستين ومائة وألف، وتوفي على ما عُلم سنة تسع ومائتين وألف ولهُ من العمر أربعة وأربعون سنة، وكان كريم الطبع رحب الصدر، أعقب السيد علي، وُلِدَ على ما عَلِمُوه سنة ست وثمانين ومائة وألف، ونشأ على أحسن حال من التقوى والسخاء والكمال، وبقي على قدم استقامتهِ إلى أن توفي رحمهُ الله في سنة سبع وأربعين ومائتين وألف ولهُ من العمر إحدى وستون سنة، ودفن بمقبرة خان شيخون، أعقب السيد حسن فأعقب السيد خلف والسيد سليمان، ولكل منهما ذرية مباركة، وأعقب السيد خزام أيضًا السيد علي فأعقب السيد حسن وادي والسيد حسين والسيد موسى، فالسيد موسى مات عقيمًا، والسيد حسين أعقب السيد علي الخزام والسيد محمد والسيد سليمان، فالسيد سليمان مات عقيمًا، ولكل من السيد علي والسيد محمد ذرية وهم في قرية الشعته من أعمال حماة الشام، مع قبيلة بني خالد، وأما السيد الجليل والشيخ الفاضل الأصيل شيخ العائلة الصيادية وصاحب السجادة الرفاعية مولانا الوالد السيد الشيخ حسن وادي أفندي حفظهُ الله وأبقاه وحرسهُ بعين الكرامة والعناية وحماه آمين، ولد طوّل الله عمره في سنة خمس وأربعين ومائتين وألف قبل وفاة والده رحمهُ الله بسنتين، ونشأ بين أهله وأقاربه إلى أن بلغ عمره الثمانية عشر، فجذبتهُ يد العناية بنفحة من نفحات الرحمٰن فدلتهُ إلى جناب شيخهِ الولي البركة الشيخ رجب الصيادي دفين كفرسجنا المتقدم ذكره، فالتفت بكليتهِ إليهِ وأقبل بقلبهِ عليهِ فأقامهُ خليفة عنهُ، فجلس على السجادة الرفاعية بزاويتهِ المعمورة بتقوى الله المشهورة في قصبة خان شيخون الملحقة الآن بمعرّة النعمان من أعمال حلب، واشتهر أمره وسار في البلاد ذكره وانتسب لهُ خلق كثير من القبائل والقرى والمدن، وانتفع بهِ جماعة كثيرة من الموحدين، ولهُ مناقب مأثورة وعنايات مشهورة، ومما منَّ الله بهِ عليهِ أن يقرأ على قطعة من السكر وإن لم يوجد فعلى أي شيء كان مما يصلح أكلهُ ويطعمهُ للناس، فمن أكلهُ لا يضره سم الحيات وغيرها من المسمات ولا يؤثر فيهِ ضرر الكَلْب العقور وغيره من الحيوانات المضرة بإذن الله، وإذا قرأ على السكر أو غيره باسم رجل وحفظ السكر من أن يلمس بيد أحد في صرة، وكان الرجل المقروء باسمهِ في بغداد والسكر في الشام ولدغت الحية أو غيرها من المسمات أو عض الكلب إلا كلب ذلك الرجل وهو في بغداد، لا يضره أمرهم بإذن الله تعالى وببركة الحضرة الرفاعية، وإذا سم رجل في بلدة وكان الشيخ صاحب الترجمة في بلدة أخرى، وتعذر حمل المسموم إليهِ وجاء رسول المسموم وسمى

نفسهِ باسم المسموم، فإن الشيخ المشار إليه يقرأ على قطعة من السكر أو غيرها من المأكولات كما تقدم، ويطعمها لرسول المسموم الذي سمى نفسهُ باسمهِ، ويضربهُ بيده ضربة خفيفة، فإن المسموم بإذن الله يبرأ من البلدة الأخرى، كما هو مشهور في البلاد الحلبية وغيرها عنهُ: ومن مناقبهِ الشريفة أيضًا أن الله تعالى قد منّ عليهِ ببركة اليد الكريمة، فإذا وضع يده على عليل أو مَنْ بهِ وجع يشفيهِ الله على الغالب، وأما سخاؤه وكرم طبعهِ ففي نواحيهم أشهر من أن يذكر. وأما علوُّ مظهره ومعونة الله لهُ في أموره وتأييد ظهوره، فهي أشهر من نار علم وما عانده في أمره بقصد خفض شأنه أحد، ولا تعدى عليهِ وعلى أهلهِ ومتبعيهِ المخلصين متعد إلا وأخذ بإذن الله أو ذل وقهر، وكل ذلك معروف مشهور، وكل ما حصل لهُ من الفتوح والبركة، سببهُ الأجلُّ كثرة الصلاة على النبي ﷺ، فإنهُ كثير الصلوات على سيد السادات، وهي ورده الأعظم وطريقهُ الأقوم وقد برزت عليهِ أنوارها وظهرت آثارها، قصد لأخذ الطريقة العلية من أكثر الجهات والبلدان، وسارت بذكره الركبان وانتسب إليهِ خلق لا يحصى عددهم وزادت خلفاؤه عن المائة خليفة، سكن حفظهُ الله حلب الشهباء من سنين يسيرة وعمر الزاوية الرفاعية فيها، وكثر بأطرافها مريدوه وأخوانه وعلت شهرتهُ في حلب الشهباء ونواحيها، وحسن فيهِ اعتقاد الناس ومدحه الفضلاء والبلغاء وأعيان الناس، ومن الجملة مدحه بالقصيدة الآتية الفاضل الكامل سلالة الأماجد الأفاضل السيد عبد القادر أفندي القدسي أحد أعيان حلب الشهباء، وابن المرحوم نقيبها المشهور تقي الدين أفندي القدسي، وهي كما هي درة يتيمة وصحيفة كريمة:

إن ضاقت بك الأيام فالجأ ... بحسن وسيلة لحما الرسول
فإن حمى الرسول وحق ربي ... أمان كل آن للدخيل
وأقرب ما توصلت البرايا ... بهِ للمصطفى آل البتول
هُم الطهر الكرام بنو المعالي ... شموس الكون جيلاً بعد جيل
لهم جاه وعز مستفاض ... من المختار بالفيض الجزيل
هُم الوارث للمختار طه ... هُم أهل الرداء المستطيل
وودهُم بأمر الحق فرض ... وهذا أجر مولانا الرسول
إذا أدَّيْتَ حق الود فيهم ... فأبشر بالسعادة والقبول
ودونك سيد السادات شيخي ... فَلُذ بجنابهِ العالي الجليل
هو الحسن الحسيني الخزامي ... خلاصة عترة العلم الطويل

لهُ شرف الحضور حضور قلب ... مع المختار غياث النزيل
فتى بيت الرفاعي الغوث روح الـ ... ـطريق وقلة الشرف الأثيل[1]
ضيا هذا الزمان أبو الموالي ... سليل الآل مولود الفحول
إمام القوم زبدة آل طه ... ملاذ الملتجي باب الوصول
همام من بني الكرار شهم ... يقابل ذا الإساءة بالجميل
أمير من بني الصياد فرد ... تذل لهُ الرجال بكل قيل
عليّ القدر رحب الصدر مولى الأ ... يادي صاحب الباع الطويل
فللمختار جدُهم صلاة ... من الرحمٰن ترقى في نزول
وأصحاب وأولاد كرام ... غياث الناس في اليوم المهول
مدى الأزمان ما وافى محب ... يحسن وسيلة لحمى الرسول

انتهى. وهو الآن بحمد الله على قدم استقامتهِ القديمة الأصلية على أحسنِ حال، معرض عن غير الله متوكل على الله مسلم لهُ الحال معتمد عليهِ تعالى في الأقوال والأفعال، أعقب حفظهُ الله أولادًا أمجادًا، الأحياء منهم أولهم هذا الفقير حيث أني بينهم الكبير والسيد محمد نور الدين ولقبهُ أبو المجد والسيد عبد الرزاق ولقبهُ أبو النصر أبقاهم الله أجمعين وحمانا وإياهم والمسلمين بمدده ونصره المبين آمين. وهذا نسب جدهم صاحب الترجمة السيد حسين برهان الدين قدس سره إلى الجد الأعظم ﷺ، كما ضبطهُ العلاّمة الشيخ ناصر البغدادي في كتابهِ معراج السالكين: فهو السيد حسين برهان الدين ابن السيد عبد العلام ابن السيد عبد الله شهاب الدين المبارك الزبيدي الرفاعي البصري ابن السيد محمود الصوفي ابن السيد محمد برهان ابن السيد حسن الغواص ابن السيد الحاج محمد شاه ابن السيد محمد خزام، دفين الموصل، ابن السيد نور الدين ابن السيد عبد الواحد ابن السيد محمود الأسمر ابن السيد حسين العراقي ابن السيد إبراهيم العزبي ابن السيد محمود ابن السيد عبد الرحمٰن شمس الدين ابن اسيد عبدِ الله قاسم نجم الدين المبارك ابن السيد محمد خزام السليم ابن السيد شمس الدين عبد الكريم ابن السيد صالح عبد الرزاق ابن السيد شمس الدين محمد ابن السيد صدر الدين علي ابن السيد عز الدين أحمد الصياد ابن السيد ممهد الدولة والدين عبد الرحيم الرفاعي ابن الإمام ولي الرحمٰن السيد عثمان ابن السيد حسن ابن السيد عسلة ابن السيد الحازم ابن السيد أحمد ابن السيد

علي المكي ابن السيد رفاعة، ويقال لهُ الحسن نزيل المغرب، ابن السيد المهدي ابن السيد أبي القاسم محمد ابن السيد الحسن ابن السيد الحسين أحمد ابن السيد موسى الثاني ابن السيد إبراهيم المرتضى ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين علي الأصغر السجاد ابن الإمام الهمام علم الإسلام عين الأئمة الأعلام سبط الرسول عليهِ الصلاة والسلام، الذي امتحن بأنواع المحن والبلا أمير المؤمنين مولانا الإمام أبي عبد الله الحسين الشهيد بكربلاء، ابنِ إمام الأئمة وأمير نحل هذه الأمة سيد أئمة الأولياء وقائد أزِمَّة الأصفياء، الذي كل مقام شريف لهُ ممنوح، المشبه بكبار الأنبياء كآدم وإبراهيم ونوح الذي قدره كاسمهِ حسن وعلي أمير المؤمنين الإمام أبي الحسن علي، رزقهُ من زوجتهِ فاطمة سيدة نساء العالمين بنت سيد المخلوقين عليهِ أفضل صلوات رب العالمين وعلى آله وأصحابهِ الطيبين الطاهرين أجمعين .اهـ.

ومنهم القطب العارف بالله المقبل على الله المعرض عن الناس، فرد زمانهِ أبو البركات مولانا وسيدنا السيد محمد بهاء الدين مهدي الرواس، رحمهُ الله وقدس سره، ابن السيد علي ابن السيد نور الدين ابن السيد أحمد ابن السيد محمد ابن السيد بدر الدين ابن السيد علي الرديني ابن السيد الكبير، العارف بالله ولي الله الشيخ محمود الصوفي الصيادي الرفاعي قدس سره، وُلد السيد محمد مهدي الرواس رحمهُ الله في سنة عشرين ومائتين وألف وتوفي في سنة سبع وثمانين ومائتين وألف، ولهُ من العمر سبع وستون سنة، ولد في سوق الشيوخ بليدة من أعمال البصرة سكنها أبوه بعد الطاعون الذي وقع في البصرة، وتوفي والده وبقي يتيمًا قدس سره ثم توفيت أمهُ وقد بلغ من العمر خمس عشرة سنة، وكان قد قرأ القرآن على رجل هناك يقال لهُ ملا أحمد وكان من الصالحين، ففي سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف جذبهُ القدر إلى السياحة، فخرج طالبًا بيت الله الحرام وجاور بمكة سنة، ثم تشرف بزيارة جده عليهِ الصلاة والسلام، وجاور بالمدينة المنورة سنتين وفيها اشتغل بطلب العلم على رجال الحرم النبوي، ثم ذهب إلى مصر ونزل في الجامع الأزهر وبقي فيهِ ثلاث عشرة سنة يتلقى العلوم الشرعية عن مشائخ الأزهر وفضلائهِ، حتى برع في كل فن وعلم وهو على قدم التجرد والفقر والانكسار، ثم عاد سائحًا إلى العراق فاجتمع بالشيخ العارف بالله ولي الله السيد عبد الله الراوي الرفاعي، فأخذ عنهُ الطريقة ولزم خدمتهُ والسلوك على يديهِ مدة وأجازه قدس سره وأقامهُ خليفة عنهُ، ثم طاف البلاد وذهب إلى الهند وخراسان والعجم والتركستان والكردستان، وجاب العراق والشام والقسطنطينية والأناضول والروملي، وعاد إلى الحجاز وذهب إلى اليمن ونجد والبحرين، وطاف البادية والحاضرة، واجتمع على أهل الأحوال الباطنة

والظاهرة، وأكرمهُ الله بالولاية العظيمة والمناقب الكريمة والأخلاق الحميدة والطباع الفريدة، والقطبية الكبرى والمرتبة الزهرا، وقد تجرد بطبعهِ عن التصرف والظهور والتزم الطريق المستور وعد نفسهُ من أهل القبور، وكان كثيرًا ما يعاود في سياحتِهِ إلى بغداد، وكان يتجر لدفع الضرورة والتخلص من الاحتياج ببيع رؤوس الغنم المطبوخة، فإذا وجد منها ما يدفع الضرورة البشرية، ترك البيع إلى أن تنفذ دراهمهُ، فيعود إلى البيع، وكان لا يمكث في بلدة سبعة أشهر قط وأكثر إقامتهِ في البلاد تحت الثلاثة أشهر، وكان يلبس ثوبًا أبيض وفوقهُ دراعة زرقاء وعباءة قصيرة من دون أكمام وحزامهُ من الصوف الأسود، وعلى رأسهِ عرقية من الصوف الأبيض ويحزم رأسهُ بعقال من الصوف الأسود، عملاً بالأثر الرفاعي والسنة المحمدية واختفاء عن ظاهر الشيخ، وكان قدس سره إمام الوقت وشيخ العصر علمًا وعملاً وزهدًا وأدبًا، براهينهُ باهرة وسريرتهُ طاهرة وقدمهُ متين وعزمهُ مكين وكشفهُ عجيب وحالهُ غريب، منَّ الله عليَّ بالاجتماع عليهِ والانتساب إليهِ في بغداد دار السلام، في حضرة الباز الأشهب والطراز المذهب مولانا الشيخ عبد القادر الجيلي قدس سره ورضي الله عنهُ، وتبركت بخدمتهِ وتشرفت ببيعتهِ وتنورت بمشاهدتهِ وتعطرت بمشافهتهِ، وأخذت عنهُ الطريقة ولبست منهُ الخرقة وتلقيت عنهُ بعض علوم الشريعة والحقيقة، فهو شيخي ومعيني وأستاذي وقرة عيني وملاذي وعياذي ومحلَّ اعتقادي وواسطة استنادي، بلى والله وهو الشيخ الجليل العارف بالله المتردي برداء الخفاء المشغول بالله عن غيره، السائح العابد الزاهد صاحب المعارف والعوارف والبركات واللطائف، والعلم الغزير والقلب المنير والسر الصادق والمدد البارق والحال العجيب والشأن الغريب والعلوم العظيمة والهمم الكريمة والآداب المقبولة والكلمات المنقولة، منها هذه الصلاة المباركة العجيبة المجربة عند أهلها للفتح والوصول وحصول مدد الرسول ﷺ وهي:

وجهي على تراب أعتابك يا رسول الله ٣ مرات، بسم الله الرحمٰن الرحيم الصلاة والسلام من حضيرة القدس الأقدس عليك يا مهبط سر نفس الجناب الإلٰهي المقدس، يا باب الرحمة الرحمانية الخاصة العامة القائمة بكل شيء ومع كل شيء وهي السبب في كل شيء، يا باب الله الأعظم الذي هو عين الدخول على حضرة الله الأكرم، يا سر الله القديم المنزه بلسان التعظيم المخاطب برقائق حكم التكريم، وإنك لعلى خلق عظيم، يا روح كل حقيقة وروح الأشياء في حقيقة كل دقيقة، يا ينبوع مدد الله يا أصل فيض فضل الله الجاري في ملك الله وملكوت الله والممدود على كل شيء لله بإذن الله، يا كتاب الله الذي لا يرفض، يا رقيم سر القيوم الذي لا ينفض، يا آية القصد من كل مقصود، يا حركة الوجود في كل موجود، يا روح روح الحق الموجودة

مع كل كائن، يا علم سر القهر والجبر في كل غائب وبائن، يا لوح محفوظ سر حقايق علوم غيب الله في سمٰوات الله وأرض الله، يا دولة قلم أمر الله الخاط بقدرة الله في صحائف ملك جناب الله، يا بدل الحقيقة الإلٰهية في المعاني المعنوية وعين الذات المظهرية في باطن الرموزات العينية، يا آلة المنح والمنع وكل رمز غيبي في العرش والفرش وسطح القدرة وأرض المقادير وجدران التقديرات ودور الكائنات والمكونات الكليات، والجزئيات العلويات والسفليات الباطنيات والظاهريات في كل ماض وآتٍ، باختلاف الحالات والدرجات، ومع الماضيات والحاضرات والذاهبات والآتيات، يا محمد الحقائق الذاتية يا أحمد الدقائق الصفاتية يآدم آدم، يا أبا العالم يا عين الكل ولولاك لما كان، يا روح الكل ولأجلك خلق وكان، وكذا الظرف والمظروف والكون والمكان، أنا عبد أعتابك ألوذ بجنابك التجيء والتجئت داخلاً على باب إحسانك، يا سيد ملوك الدنيا والدين يا تاج هامات أماجد سلاطين النبيين والمرسلين، التفت لي بعين عناية عطفك وكرمك وجودك، الذي إن وقعت نقطة منهُ عن غير قصد مقصود على جبال الأرض وقطع شطحات مواقع الآخرة، صيرتها جوهرًا جمانيًا وإن لمعت بوارق دهشة عواطف منها بلا مراد على عصاة بدوي قلبتها مهندًا إيمانيًا، بحق عينك الطاهرة الشريفة المطلعة عليَّ وعلى كل شيء في الفوق الأعلى والتحت الأدنى الأقصى، وبفضلك عند ربك وبجاهك عليك لاحظني بعين إحسانك ومددك العالي، وانظرني بنظر حنانك ورحمتك ورأفتك واصنع بشأن نبوتك ومحبوبيتك عند حضرة رب العالمين ما أنت لهُ أهل من الشيم المحمدية والغارة الأحمدية والغيرة المصطفوية، وأمر بفضلك صاحب الزمان وأهل حاشيتِهِ الأعيان أن يساعدوني في قضاء كل حاجة تحدث أو حدثت لي من حوائج ديني ودنياي، فإنك قادر بإذن ربك على ما تشاء والصلاة والسلام عليك وعلى آلك وأصحابك وأتباعك يا سلطان الأنبياء، يا ساكن البطحاء يا سيد أهل الأرض والسماء، والحمد لله رب العالمين، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. ولهُ أيضًا قدس سره هذه الصيغة، وسماها التوجه المحمدي وسره باقتبال القبلة والآداب القلبية والوضوء الجديد، وصلاة ركعتين والنداء: يا صاحب قاب قوسين يا جامع سر العين يا كاشف وهم الغين، يا حامل علم العلمين يا واحد دار الدارين يا أوحد من في الكونين، يا أول ثاني اثنين يا مظهر سر الرمزين يا نور كل قلب، ويا قرة كل عين بحق عين قدسك الطاهرة، يا ملك ملوك الدنيا والآخرة، توجه بقلبك الرحيم ولطفك العميم وجودك المستديم، وتحنن عليَّ بقضاء حاجتي وتعطف بفضلك عليَّ بنيل آرابي، وأكرمني بفضلك المخصوص الخاص لكي أتوجه إلى خدمة أعتاب فضلك وفيضك بالإخلاص، صلى الله عليك ما دار الدوران واختلف الملوان

وكر الجديدان ولمع الفرقدان، في كل وقت وزمن وآن، وعلى آلك وأصحابك أجمعين والحمد لله رب العالمين ولهُ قدس سره هذه الصيغة أيضًا وهي:

اللهمَّ صلّ على السيد الذي رفعت بهِ الكدر، ومنعت بهِ عن أمتهِ الشرك والضرر، والمحبة من خلاصة ربيعة وعدنان ومضر، وأسألك اللهم بهِ ﷺ وبأهلهِ وأحبابهِ وأخوانهِ وأولاده وبوراثه، في السر والعلم والعمل وبالقطب الغوث الفرد الجامع وبنوابهِ وأهل حاشيتهِ، وبصاحب الخلافة النبوية من بعده وبأصحاب دائرتهِ الواقفين في باب الخفا تحت برقع الستر المنتظرين فتح باب فضلك بأمرك، وبحرمة العمال والرجال وأهل التوبة والأبدال والقائمين بمصالح العباد وبأقطاب الهداية والإرشاد، وبصاحب القاف والواو والإشارة المتممة للمقام برموز المعرفة بين أهل الديوان الأعلام، ادفع اللهمَّ ما كتبتهُ في غيبك لي من كل ما يؤذيني، واصرف عني الأذى وامح بفضلك سطر الشين والشين من صحيفة قلبي، وارفع جزاء ذلك من علم جبهتي وبعد عني ما رسم في مركز الحضرة الغيبية من كل غم وهم وكرب وقطع وبلية، واجعل مركز ذاتي غير المركز الذي أنا عليهِ الآن من الحال والأفعال، وحوّل الحال إلى أحسن حال يا محوّل الأحوال، بحرمة من مال وقال وقال وما مال، وبمدد أهل الحال وبسر من طاف على ظهر الكعبة وجال، وبمدد التجلي الذي دكت لهُ الجبال، وافتح باب الخير والهداية والعناية والتوفيق لي واكفني الحزن ووفقني للقول الصالح الحسن، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين. ولهُ قدس سره هذه الصيغة أيضًا وهي: السلام من السلام والرحمة المخصوصة من ربك، عليك يا سيد الأنام يا علم العالمين يا قمر الخافقين يا مولى سادات الدارين يا عين كل عين، أعن أغث التفت تعطف تكرم تحنن تفضل عليَّ، يا إمام المرسلين يا من قال لك مولاك: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء: ١٠٧] يا غوثاه يا مصطفاه يا نبياه يا سراج الحرمين، صلى الله عليك وعلى آلك وأصحابك الطاهرين أجمعين، وكان يأمر بقراءة هذه الاستغاثة عند الضيق وهي:

يا قادرًا قدرتهُ أقدر من قدرة كل قدير، عجل فرجي يا من تيسير العسير عليك يسير يا قدير. وكان يقرأ قدس الله روحهُ في كل يوم بعد صلاة الصبح، هذا الاستمداد المبارك ثلاثًا، وفي يوم الجمعة بعد الصلاة سبع عشرة مرة، يا مدد الممدين ومدة الممدودين ومادة المادين، يا من أنت المدد ومنك المدد ومن غيرك لا مدد، أسألك بالمدد الممدود منك إلى ممدوديك، أن تمدني بمدد عظيم أحصل فيهِ مناي، وأقهر فيهِ أعدائي وأحمي بهِ حمائي، واجعلهُ حصني من أمامي وورائي واستجلب فيهِ صلاحي واستدفع بهِ قضائي، وأكون من الممدودين الممدين المستمدين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، تحت

طي إشارة بشارة ستارة حقيقة دقيقة، رمز الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين واجتمع ببركة حركة عنوان بيان برهان سر طريقتها الخفية الجلية البهية المنشورة المطوية على الرجال الأربعين، وأحيا بمحيي سلك ملك فلك درك عز كنز عنايتها، بمحيي القلوب الكائنة في صدور سدد أفئدة العارفين فهنالك يفتح الباب ويكشف الحجاب وتحصل الآراب وتذهب الأتعاب ويلذ الخطاب، ويذهب الخطأ ويأتي الصواب، بعناية قدسك يا معطي يا وهاب، وصلى الله على الحقيقة الجامعة لمبدء السر ومنتهى الأمر وعلى الآل والأصحاب ما مرض مريض وطاب وطلع نجم وغاب، وسلم تسليمًا كثيرًا، ولنذكر من شعره العالي هذه القصيدة وهي مما يدلك إليها النبيه على مقامِهِ الجليل ومكانة مكانِهِ النبيل، وها هي:

طف بوادي القدس من نادي تهامه ... وافرش الخدين في أطلال رامه
وانزل الفيحاء فيحا المنحنى ... حيثما أعلا الندا الطامي خيامه
ولـك الله إذا وافـيـتـهـا ... وأنخت الركب فيها بالسلامة
خذ سلامًا لأُصيحاب الحما ... من كئيب حرَّكَ الركب غرامه
واذكر السقم الذي أودى بهِ ... علهم أن يرحموا يومًا سقامه
غلبتهُ يوم بانوا شدة ... أوقعت فيهِ فما شد حزامه
وهو لا زال كما هم علموا ... ثابت الأقدام زين الاستقامه
هجرت أخلاقهُ حال امرءٍ ... جمل يومًا وفي الثاني نعامه
باعهم نفسًا نأت عن غيرهم ... وعليهم حملت عبأ الملامه
وإذا قالوا لها موتي جوى ... أنشدت للموت حبًا وكرامه
يا أخا الركبان بالله التفت ... أن تعي من موثق الوجد كلامه
مسّ عني ترب ذياك الحما ... وأجل في بابهِ وجها وهامه
باب رحب نزل الروح بهِ ... وبهِ القرآن قد سل حسامه
موطن الإيمان والعلم الذي ... لمعت منهُ على الكون العلامه
حضرة الرحمة مضمار الهدى ... مهبط الوحي وميزاب الكرامه
مشهد كم شوهدت من ركنهِ ... دولة الغيب وأعلام الإمامه
كيف لا والمصطفى من هاشم ... فيهِ ثاوٍ شرَّف الله مقامه
خير مَن مسَّ بنعليهِ الثرى ... وأجل الخلق قدرًا وشهامه

والنبي العربي المجتبى — والذي ظُهرًا أظلتهُ الغمامه
سل تراب الغار عن ما نسجت — عنكبوت الغار ليلاً مذ أقامه
وسل الباب الذي شرفهُ — كيف حامت حول ركنيه الحمامه
وسل الماء الذي من كفهِ — فاض والجيش بهِ نال مرامه
لا تسل عن معجزات ظهرت — منهُ جلّت وهي تبدو للقيامه
كان في الدين ربيعًا عمره — صامهُ لله بالله وقامه
وهو نور أزليٌّ طرزه — صار في وجه وجود الكون شامه
جحفل الرسل الذي قدمًا أتى — زين الله بمجلاه ختامه
بابهُ للأنبيا باب الرجا — وترى كل الورى يبغي استلامه
وهو ركن المجد مرفوع الذرى — حصن علم الغيب مكنون الدعامه
طُويَ العالم في جبتهِ — وعلى العرش علت منهُ العمامه
لو دعا البحر لوافى سايغًا — أو دعى المنقض من ميت أقامه
شرفت جبريل منهُ خدمة — حولت فيهِ عن الدين لثامه
وبهِ الرحمٰن أعلا صولة الـ — حق جهرًا وبهِ شاد نظامه
مضمر من حضرة القرب بدا — ما استطاع الطمس في الغيب اكتتامه
علة الخلق ومن هذا نرى — أوجب الله على الخلق احترامه
وعلى يافوخ[1] إنسان العلى — شيد الجبار بالعز مقامه
ولهُ في مقعد الصدق ابتنى — منزلاً صيره دار الإقامه
ذلك اللوح الإلٰهي الذي — كتبت أيدي العمى فيهِ الرقامه
وهو قلب غرس الذكر بهِ — ما رأى حراسهُ آنا منامه
سجد الأقمار عزًا لاسمهِ — علّ أن تحسب منهُ في القلامه
أينها من ذلك النور الذي — عدل المولى من الوجه قوامه
فعليه الله صلى سرمدًا — وعلى آل حسوا منهُ مدامه
وعلى الأصحاب ما حادٍ حدى — طف بوادي القدس من نادي تهامه

---

(١) اليافوخ: اليأفوخ يقال: مسّ أو حكّ بيافوخه إذا علا قدره.

وقال قدس الله روحهُ وقد ورد عليهِ وارد الكرم:

ظهر السبع من بطين الغاب وبدا صائلاً بغير نقاب
وتجلى الهلال في بهرجان الـ ـليل يبدى ضياه للأحباب
هذه آية سماوية السر علت نشأة بطي الحجاب
فلك الغيب دار منها فلما تمم الدور مال للإنحجاب
مظهر بارع بمعنى خفي ومقام مجمل بالثواب
نصبت لي بسدتيهِ الكراسي وكؤوسي تنورت بالشراب
ومقام افتخار دولة عزي ساد معنى ففاق فخر جنابي
دهشة أحمدية ذات مهيا ومحيا بدا لذي الألباب
فأنا القطب في دكيكين طبخى وأنا الغوث في رسيس[1] ثيابي
وأنا الشيخ والرجال تلاميـ ـذي وعلمي فشا إلى الطلاب
وأنا الفرد في الزمان بشأني وأنا المرشد الشريف انتسابي
وأنا السيد المعلى جلالي سار جيش الشيوخ حول ركابي
وفحول العراق تمشي بظلي واستظل الزمان تحت قبابي
قلمي آمر وحكمي جاري أذعن الدهر طائعًا لكتابي
دولتي في الجنوب والغرب دارت وبأقصى الشرقين طول رحابي
وبمنهى السدين صولة بأسي وبمعلا الدورين سمر حرابي
دارت الطالبون حولي لأني كعبة للرجال والأقطاب
حرم طيب بهِ يأمن الدا خل جهرًا من شوبة الأتعاب
وطريقي باب الوصول إلى اللـ ـهِ وفيضي يجري إلى الأنجاب
دولة لا تزال تنفث سرًا بعد موتي والسر تحت ترابي
وخفائي لا شك عين ظهوري وبُعيد التستير يفتح بابي
سترى لي في دورة الشام والشهـ ـباء نورًا يعلو بنور شهابي
وترى لي مظاهرًا تتسامى وتسامي الشيوخ في كل باب

---

(١) رسيس: بدء الشيء أو بقيته أو أثره.

وترى نوبتي تضج واسمي ... يتباها بذكره نوابي
وترى الحال في زوية ذكري ... وترى المرتجين في أعتابي
إن ترم نفحتي عليك بسلكي ... فسلوكي المفتاح للأبواب
وطريقي نور التجلي وسيري ... عقدة الوصل من يد الوهاب
طف ببابي ولا تمل عن مداري ... وانح نحوي واسمع لذيذ خطابي
لا تمل نحو جاهل أشغلتهُ ... عن علانا دنياه بالاكتساب
ذمك الكاذبون جهلاً فخاضوا ... فرأيناهُم بسوءِ المآب
سلبوا الدين بعد ذاك وراحوا ... ومآل الرواح بالأعطاب
كم يقولون ما لهذا ضمير ... إنما فخره بلين الثياب
فسمعنا منهم وعنك أجبنا ... لا يضر السحاب نبحُ الكلاب
إن تكن عامرًا مع الله خلِ ... شخص دنياك تحت طي الخراب

وقال لي قدس الله سره وقد كان يتفضل عليَّ ببعض إشارات معنوية، وقد طرق خاطري هم عظيم لبعض أمور خطرت في سري، فقطع حديثهُ الأول ورمقني بعينهِ المباركة متبسمًا وقال: فتح عليَّ بيتين خطابًا لك ثم أنشد:

إنَّ باديك الذي أكننتهُ ... هو باد ظاهر في حاضرك
أجل قلبًا في حمانا إننا ... نحن قمنا بالذي في خاطرك

ولو أردنا بسط ما رأيناه من كراماتهِ وحفظناه من غرائب كلماتهِ، لطال المطال واتسع المجال، وإنا نرى بالذي ذكرناه لأرباب البصائر كفاية، نفعنا الله بهِ وبإخوانهِ أهل العناية، آمين. وليعلم أننا التزمنا ذكر بعض المشاهير المتقدمين والعصريين، من أعيان الذرية الأحمدية المتشرفين بالخرقة المباركة الرفاعية، وقد آن أن نشرع في ذكر بعض رجال طريقتهِ الآخذين بوثيقتهِ من أعيان المسلمين وأكابر هذا الدين، ممن علت شهرتهم وزكت سيرتهم وسريرتهم، ولم نعتبر في التقديم والتأخير، الصغير منهم أو الكبير، فإن الله أعلى مناصبهم وأجل مراتبهم وأعزهم جميعًا ومنحهم جاهًا رفيعًا، وإن أجلَّ زمرة أتباعهِ وأصحابهِ وأشياعه جماعة منهم: الشيخ أبو شجاع الشافعي الفقيه المحدث المشهور، والشيخ الإمام العالم العابد الحجة عمر أبو الفرج بن أحمد بن سابور بن علي بن غنمة الفاروثي الواسطي، الشيخ الكبير شيخ وقتهِ في العلوم الشرعية وإليه انتهت رئاسة العلم والطريق بواسط وبطاخ العراق، وهو جد سلطان المحدثين عز الدين أبو العباس أحمد الفاروثي.

قال ابن كثير عند ذكر حوادث سنة أربع وتسعين وستمائة: توفي الفاروثي الشيخ الإمام العالم العابد الزاهد الخطيب عز الدين أبو العباس أحمد ابن الشيخ محيي الدين إبراهيم بن عمر أبي الفرج بن أحمد بن سابور بن علي بن غنمة الفاروثي الواسطي، ولد سنة أربع عشرة وستمائة، وسمع الحديث ورحل فيه وكانت لهُ فيهِ يد جيدة، وفي التفسير والفقه والوعظ والبلاغة، وكان دينًا عالمًا ورعًا زاهدًا وقد قدم إلى دمشق، إلى أن قال ابن كثير كان فيهِ بر وإيثار ولهُ أحوال صالحة، وذكر أنهُ تقدم يومًا إلى محراب فسجد ابن هشام ليعقد النية فالتفت عن يمينهِ وقال: اخرج فاغتسل فلم يخرج أحد، ثم ثانية وثالثة فلم يخرج أحد، فقال: يا عثمان اخرج فاغتسل فخرج رجل فاغتسل ثم عاد وجاء إلى الشيخ يعتذر إليه، وكان الرجل صالحًا وذكر أنهُ أصابهُ قبض من غير أن يرى شخصًا، فاعتقد أنهُ لا يجب عليهِ غسل، فلما قال الشيخ ما قال اعتقد أنهُ يخاطب غيره فلما عينهُ علم ذلك، ثم قال ابن كثير وكان قد درس بالنجيبية وبدار الحديث الظاهرية وترك البلد وسافر إلى وطنهِ، فمات بهِ بكرة يوم الأربعاء مستهل ذي الحجة وكان يومًا مشهودًا بواسط، وصلي عليهِ بدمشق وغيرها رحمهُ الله، ثم قال ابن كثير بعد كلمات أخر، خَلَّفَ ألفي مجلد ومائتي مجلد، وحدث بالكثير وسمع منهُ البرزالي كثيرًا صحيح البخاري وجامع الترمذي وسنن ابن ماجه، ومسند الشافعي ومسند عبد ومعجم الطبراني الصغير ومسند الدارمي، وفضائل القرآن لابن عبيد وثمانين جزءًا غير ذلك. انتهى. قلت: وأما مؤلفاتهُ في الحديث والتفسير والتصوف فهي كثيرة جدًا، عدَّدها العلماء في كتبهم، وهو صاحب النفحة المسكية في السلالة الرفاعية الزكية، وقد ذكر فيها أن جده الشيخ عمر الفاروثي رضي الله عنهُ، كان من حجاج العام الذي مدت فيهِ يد النبي ﷺ من قبره الشريف للسيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ. ومناقب سيدنا الشيخ عمر الفاروثي ومناقب ولده وحفيده مسطورة في كتب العلماء والصوفية كثيرة جدًا، اكتفينا منها بهذا المقدار.

ومنهم الغوث الأكبر والأسد الغضنفر أبو الفتيان وقطب أهل العرفان، مغيث الأسير مولانا السيد أحمد البدوي الحسيني الشهير قدس الله سره العزيز، لبس الخرقة من الشيخ بري وهو لبسها من الشيخ علي بن نعيم البغدادي وهو لبسها من سيدنا السيد أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنهُ، قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني في طبقاتهِ الوسطى عند ذكر الرجال، ومنهم: شيخ الخرقة أبو العباس أحمد البدوي الحسيب النسيب رضي الله عنهُ، وشهرتهُ في مصر والشام والحجاز واليمن والهند والسند والروم والغرب تغني عن تعريفهِ، ولكن نذكر لك يا أخي جملة من أحوالهِ على سبيل التبرك، فأقول وبالله التوفيق: اعلم أن مولده بمدينة فارس بالمغرب فإن أجداده الشرفاء انتقلوا

أيام الحجاج إلى أرض المغرب، لما كثر القتل في الأشراف ولما بلغ سبع سنين، سمع أبوه قائلاً يقول لهُ في منامهِ: يا علي انتقل من هذه البلاد إلى مكة فإن لنا في ذلك شأنًا، وذلك في سنة ثلاث وستمائة، قال الشريف حسن أخو سيدي أحمد فما زلنا ننزل عند عرب ونرحل من عرب ويتلقوننا بالترحيب والإكرام، حتى دخلنا مكة في مدة أربع سنين، فتلقانا شرفاء مكة كلهم وأكرمونا وجلسنا عندهم في أرغد عيش، حتى توفي والدنا سنة سبع وعشرين وستمائة ودفن في باب المعلي، وقبره هناك ظاهر يزار في زاوية.

قال الشريف حسن: فأقمت أنا وإخوتي وكان أحمد أصغرنا سنًا وأشجعنا قلبًا، وكانِ لكثرة ما يتلثم سمَيناه بالبدوي، فأقرأتهُ القرآن مع ولدي الحسين، ولم يكن في فرسان مكة أشجع من أخي أحمد، حتى كانوا يسمونهُ في مكة العطَّاب، فلما جاءتهُ المواهب الإلـهية وحدث عليهِ حادث الوله، تغيرت أحوالهُ واعتزل عن الناس ولازم الصمت، فكان لا يكلم الناس إلا بالإشارة فلما حصلت لهُ الجمعية استغرقتهُ إلى الأبد، ولم يزل حالهُ يتزايد حتى كان من أمره ما كان ثم إنهُ في شوال سنة ثلاث وثلاثين وستمائة رأى في منامهِ ثلاث مرات، قائلاً يقول لهُ: قم واطلب مطلع الشمس فإذا وصلت مطلع الشمس فاطلب مغرب الشمس ثم سر إلى طندتا فإن بها مقامك أيها الفتى، فاستيقظ من منامهِ وشاور أهلهُ وسافر إلى العراق فتلقاه أشياخها الأحياء والأموات، فلما زارهم وأقام عندهم مدة خرجنا بعد ذلك قاصدين طندتا فأحدق بنا الرجال من سائر الأقطار يعارضوننا، فأومأ إليهم سيدي أحمد فوقعوا ثم رجعوا هاربين، ومضينا إلى أم عبيدة فزرنا سيدي أحمد ابن الرفاعي، وذهب سيدي أحمد البدوي إلى فاطمة بنت بري، وكانت امرأة لها حال عظيم وجمال بديع وكانت تسلب الرجال الواردين على العراق أحوالهم، فسلبها سيدي أحمد وتابت على يديه وأخذ عليها العهد أنها لا تتعرض لأحد بعد ذلك اليوم، وكان قد اجتمع معها قبائل كثيرة من العرب عونًا لها على سيدي أحمد فرجعوا كلهم إلى أماكنهم وكان يومًا مشهودًا بين الأولياء، ثم إن سيدي أحمد سمع قائلاً يقول لهُ سر إلى طندتا وربي الرجال، وذلك في شهر رمضان سنة أربع وثلاثين وستمائة، فدخل رضي الله عنهُ إلى مصر أولاً، ثم قصد طندتا فدخل في الحال مسرعًا إلى دار ابن شحيطه شيخ البلد، فصعد إلى مسطوح غرفتهِ فأقام فوق السطح نحو اثنتي عشرة سنة، وكان طول نهاره وليلهِ واقفًا شاخصًا ببصره إلى السماء، وقد انقلب سواد عينيه بحمرة تتوقد كالجمر، وكان يمكث الأربعين يومًا فأكثر لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، ذكره الحافظ ابن حجر رحمهُ الله، ثم إنهُ نزل من السطح إلى ناحية فيشا المنارة فصحب بها عبد العال وعبد المجيد، فأما عبد المجيد فسألهُ أن يكشف لهُ عن لثامهِ ليرى وجههُ،

فقال سيدي أحمد يا عبد المجيد كل نظرة بنفس، فقال يا سيدي أرني وجهك ولو مت، فكشف اللثام عن وجههِ فخر عبد المجيد ميتًا، وأما عبد العال فعاش إلى أن مات سيدي أحمد، واستخلف بعده وربي الرجال وفرقهم في نواحي البلاد، وكان سيدي أحمد يربي بالنظر، فإن سيدي عبد العال يأتيه بالرجل الجاهل الخالي من المدد فينظر إليه نظرة فيملأه مددًا ويقول لهُ: قل لهُ يسكن البلد الفلاني هكذا تربيتهُ للرجال، كان يقلب أعيانهم بالنظر من غير مجاهدة وكل ذلك كان بالسطح الذي كان فوقهُ في دار ابن شحيطه، ومن هنا كان الناس يقولون فلانًا من أصحاب السطح ويقولون سيدي أحمد السطوحي، قالوا: ولما دخل سيدي أحمد طندتا كان هناك سيدي حسن الصايغ الأخناي، وسيدي سالم المغربي، وكان سيدي حسن يقول لما قرب مجيء سيدي أحمد ما بقي لنا إقامة هنا، صاحب البلاد قد جاء لها فكان الناس لا يعرفون مراده، فلما دخل سيدي أحمد خرج سيدي حسن إلى أخنا فقام بها إلى أن مات وقبره ظاهر يزار إلى الآن، وأقام سيدي سالم المغربي فسلم لسيدي أحمد إلى أن مات بطندتا وقبره قريب من مقام سيدي أحمد، وأنكر بعضهم على سيدي أحمد فسلب وانطفى اسمهُ وانتصر جماعة من خطباء طندتا لسيدي وجه القمر، صاحب الإيوان العالي بها، وبنوا لهُ منارة فجاء سيدي عبد العال ورفسها برجلهِ فغارت إلى وقتنا هذا، ولما دخل سيدي أحمد إلى مصر خرج الملك الظاهر بيبرس أبو الفتوحات هو وعسكره فتلقوا سيدي أحمد وأكرموه غاية الإكرام وأنزلهُ في دار الضيافة، وكان ينزل لزيارتهِ لما أقام بناحية طندتا وكان يعتقده اعتقادًا عظيمًا. انتهى.

وليعلم أن سيدي أحمد البدوي أخذ البيعة في بدايتهِ، عن الشيخ عبد الجليل ابن عبد الرحمن النيسابوري ومنهُ بسبعة وسائط، تنتهي بيعتهُ إلى الإمام داود الطائي إلى الأستاذ حبيب العجمي إلى سيد التابعين الحسن البصري، إلى ابن عمر المصطفى الإمام علي المرتضى كرم الله وجههُ، وإنما سلوكه وبلوغه النهاية وإيصالهُ الغاية، وقع على يد الشيخ بري الرفاعي قدس الله سره كما تقدم، قال الإمام الشعراني في طبقاتهِ الوسطى: وقد رأيت سؤالاً وجوابهُ لشيخ الإسلام الحافظ الشيخ شهاب الدين بن حجر في سيدي أحمد البدوي، فأحببت ذكره هنا ليعتمد العلماء عليهِ، فإن أصحاب كتب الرقائق يحكون في مؤلفاتهم ما لم يصح، بخلاف المحدثين رضي الله عنهم، فأقول وبالله التوفيق قدم بعض الفضلاء سؤالاً صورتهُ، ما يقول سيدنا ومولانا شيخ الإسلام الحافظ أمير المؤمنين في الحديث نفع الله به المسلمين، في سيدي أحمد البدوي؟ فقال رضي الله عنهُ: هو أبو الفتيان أحمد بن علي بن أبراهيم بن محمد بن أحمد، وأقام بمكة المشرفة ومات بها أبوه سنة سبع وعشرين وستمائة، ودفن بباب المعلى وقبره الآن ظاهر يزار وعرف بالبدوي

لملازمتهِ اللثام، ولبس لثامين حتى كان لا يفارقهما وعرض عليه التزويج فامتنع لإقبالهِ على العبادة، وكان قد حفظ القرآن كلهُ، ثم قرأ شيئًا من الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنهُ واشتهر بين الناس بالعطاب لكثرة عطبهِ لمن يؤذيهِ، ثم لازم الصمت حتى كان لا يتكلم إلا بالإشارة ثم اعتزل الناس جملة لما ظهر عليهِ الوله، ثم لما دخل المحرم سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ذكروا أنهُ رأى في النوم قائلاً يقول لهُ ويبشره: بأنه سيكون لهُ شأن عظيم وحالة حسنة بمصر، ثم إن أخاه حسن بن علي رحل إلى العراق وأخذه معهُ، ولازم سيدي أحمد الصيام حتى كان لا يفطر إلا كل أربعين يومًا، فكان يمكث الأربعين يومًا لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، وكان أكثر أحوالهِ شاخصًا ببصره إلى السماء وعيناه كالجمرتين، ثم رحل إلى مصر سنة أربع وثلاثين وستمائة، فدخل إلى ناحية طندتا من الغربية في أسفل مصر فأقام بها على سطح دار لا يفارقهُ لا ليلاً ولا نهارًا، وكان إذا عرض لهُ الحال يصيح صياحًا عظيمًا متصلاً وكان يكثر من الصياح في أغلب أوقاتهِ، وأما صفتهُ رضي الله عنهُ فكان طويلاً غليظ الساقين عبل الذراعين كبير الوجه ولونهُ بين البياض والسمرة، ويؤثر عنهُ كرامات كثيرة وخوارق شهيرة من أشهرها قصة المرأة التي أسر ولدها الفرنج فلاذت بهِ فأحضره إليها في قيوده، ومرَّ بهِ رجل يحمل قربة لبن فأشار الشيخ بإصبعه إلى القربة فانقدت، فانسكب اللبن وخرجت منهُ حية عظيمة ميتة قد انتفخت، قال شيخ الإسلام رحمهُ الله ويؤثر عنهُ شعرًا لكنهُ مع كونهِ موزونًا غير معرب، قال وقد لازم جماعة من أهل تلك البلاد خدمتهُ رضي الله عنهُ وبنوا على قبره مقامًا، واشتهرت كراماته وكثرت النذور التي تحمل إليه من البلاد وعظم أمره وأثنوا عليه وميزوه عن أشياخ عصره، وقام بأتباعه صاحبهُ الشيخ الصالح عبد العال فسموه خليفة الشيخ أحمد وعمّر بعده طويلاً حتى مات سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة، واشتهر أتباعه بالسطوحية وحدث لهم بعد مدة عمل المولد الشريف النبوي عنده، وصار يومًا مشهودًا تقصده الناس من النواحي البعيدة، قال وشهرة هذا المولد في عصرنا تكفي عن وصفهِ، وقد قام جماعة من العلماء وممن يتزين من الأمراء في إبطالهِ فلم يتهيأ لهم ذلك إلا في سنة إحدى وخمسين وثمانمائة. انتهى ما ذكره الحافظ ابن حجر رحمهُ الله في جوابهِ، وقد رأيت أيضًا بخط سبطهِ الإمام العالم المحدث العدل الرضي أبي المحاسن يوسف، ترجمة لسيدي أحمد البدوي، حين سئل فقال: هو أحمد بن علي بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر البدوي المعروف بالسطوحي رضي الله عنهُ، أصلهُ من بني بري قبيلة من عرب الشام، تسلك على يدي الشيخ بري أحد تلامذة الشيخ أبي نعيم، أحد مشائخ العراق وأحد أصحاب سيدي أحمد بن الرفاعي، ومولده بفاس سنة ست وتسعين وخمسمائة، وطاف البلاد وأقام بمكة والمدينة ثم بمصر، ثم دخل طندتا سنة أربع

وعشرين وستمائة، وأخذ عنهُ الشيخ المعمر عبد العال كما سيأتي بيانهُ في ترجمتهِ، بعد إحدى وستين شيخًا من هذه الطبقات، وبيان جميع من بلغنا أنهُ من أصحاب السطح وأتباعهم المفرقين في أقاليم الأرض، ومما بلغني من جماعة من أهل بيروت قالوا: أسرتنا الفرنج وكنا اثني عشر رجلاً فأقمنا في بلاد الفرنج يستخدمونا في الأعمال الشاقة، حتى كدنا نموت فألهمنا الحق تعالى يومًا أننا قلنا يا سيدي أحمد يا بدوي: إن الناس يقولون إنك تأتي بالأسرى إلى بلادهم، وقد سألناك بالنبي ﷺ أن تردنا إلى بلادنا، قالوا: ففي ذلك اليوم نزلنا مركبًا ليس فيها أحد، وقدفنا فلم يشعر بنا الفرنج حتى سرنا في البحر نحو ميلين، فخرجوا ورائنا فلم يدركونا إلى أن وصلنا بلادنا ببركة سيدي أحمد البدوي رضي الله عنهُ، انتهى بحروفهِ من الطبقات الوسطى. وقد تخرج بصحبة سيدي أحمد رضي الله تعالى عنهُ جم غفير وحزب عظيم من أكابر الأولياء وكان رضي الله عنهُ يربي بالنظر.

قال السخاوي رحمهُ الله: كان سيدي أحمد البدوي إذا نظر المريد نظرة مخصوصة، يوصلهُ بتلك النظرة إلى مقام الشهود، وأما كيفية اتصال نسبهِ بالمصطفى عليه الصلاة والسلام، فهو رضي الله عنهُ سيدنا السيد: أحمد البدوي بن علي بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن عمر بن علي بن عثمان بن حسين بن محمد بن موسى بن يحيىٰ بن عيسى بن علي بن محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن السبط سيدنا الحسين ابن سيدة نساء العالمين، فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، قال الشيخ الشعراني قدس سره عند تعداد أصحاب سيدي أحمد، ومنهم سيدي الشيخ عبد العال خليفة سيدي أحمد البدوي رضي الله تعالى عنهما، كان من أجل أصحاب سيدي أحمد وهو صاحب البشت الأحمر الذي يلبسهُ الخليفة في المولد كل سنة، وهو الذي بنى مقام سيدي أحمد والمأذنة ورتب السماط والإشائر وأصغر الخبز، وهو من أكبر أصحاب السطح الذين صحبوا سيدي أحمد وهو مقيم فوق سطح دار ابن شحيط، شيخ طندتا فإنهُ رضي الله تعالى عنهُ أقام فوق السطح اثنتي عشرة سنة وقيل عشر سنين ولذلك سمي السطوحي، وسمي أكابر أصحابهِ السطوحية، وكان صورة صحبتهم لهُ كما أخبرني بذلك شيخنا الشيخ محمد الشناوي الأحمدي رضي الله تعالى عنهُ، أن سيدي عبد العال كان يأتي إلى سيدي أحمد البدوي بالذي يبول في ثيابهِ، فينادي سيدي أحمد من فوق السطح، فيأتي فينظر إلى ذلك الشخص نظرة واحدة فيملاؤه مددًا ثم يقول لسيدي عبد العال أرسلهُ إلى البلد الفلانية، فيكون فيها مقامهُ إلى أن يموت وكان سبب اجتماع سيدي عبد العال بسيدي أحمد، أن سيدي أحمد قبل دخوله طندتا مر على ناحية

فليشا المنارة وعيناه متورمتان، فطلب من سيدي عبد العال بيضة من بيض الدجاج يجعلها على عينيه، وسيدي عبد العال صغير يلعب مع الصغار، فقال لسيدي أحمد: وتعطيني هذه الجريدة الخضراء الذي معك فقال سيدي أحمد: نعم. فذهب سيدي عبد العال إلى أمهِ فقالت: ما عندنا بيض، فرجع إلى سيدي أحمد وقال ما وجدت شيئًا لك يا عم، فقال سيدي أحمد: ارجع تجد الصومعة كلها بيض، فرجع إلى أُمهِ فأخبرها بذلك فنظرت إلى الصومعة فوجدتها ملئت بيضًا، فخرجت مع ولدها إلى سيدي أحمد، ورأت ولدها يتبعهُ لا يستطيع أن يمنع نفسهُ عن اتباعه، فقالت يا بدوي الشؤم علينا، فقال: قولي يا بدوي السعادة، سيصير لولدك هذا شأن عظيم، فقالت: من أين عرفت ولدي، فقال لها: من يوم أخذه الثور في قرونهِ وشرد فما أخذه من قرونه إلا أنا، فتذكرت أنها كانت وضعت سيدي عبد العال وهو في القماط في معلف الثور، فجاء الثور ليأكل فدخلت قرون الثور في قماطهِ فحملهُ، وهج الثور فلم يستطع أحد أن ينزلهُ من قرونهِ فمد سيدي أحمد يده وهو في ناحية الدهنا قريبًا من الينبوع فخلصهُ ووضعهُ على مسطبة الدهنا، فاعترفت أمهُ بذلك واستغفرت، ومضى سيدي أحمد إلى طندتا إلى أن كان ما كان رضي الله تعالى عنهُ.

ومما شهدتهُ من كراماتهِ في سنة سبع وأربعين وتسعمائة، أن شخصًا راود امرأة عن نفسها في قبتهِ فسمره ويبس أعضاءه فكان يصيح حتى كاد أن يموت فأخبروني بهِ، فمضيت إلى قبره وأمرت بعض الفقراء أن يسأل سيدي عبد العال في الصفح عنهُ، فقرأ الفاتحة ودعا فانتشرت أعضاؤه وتاب إلى الله من ذلك اليوم، وصار من الفقراء الملاح وكراماته كثيرة مشهورة في بلاده وبين فقراء الأحمدية وغيرهم رضي الله تعالى عنهُ .اهـ. وممن تخرج بصحبة السيد أحمد البدوي قدس سره العزيز الشيخ الصالح الشيخ عبد المجيد، أخو سيدي عبد العال وهو الذي ذكر الإمام الشعراني عنهُ، أنهُ طلب رؤية وجه سيدي أحمد وكان سيدي أحمد بلثامين لا يرى الناس منهُ إلا عينيهِ، فقال: يا عبد المجيد كل نظرة برجل، فقال: يا سيدي رضيت فكشف سيدي أحمد لهُ اللثام فرآه فخر ميتًا .انتهى. ومنهم الشيخ عبد الوهاب الجوهري قال الشعراني في طبقاتهِ: كان رضي الله عنهُ من أجلّ أصحاب سيدي أحمد البدوي، وكراماته رضي الله عنهُ كثيرة مشهورة في بلاده، ومنهم الشيخ عز الدين الموصلي رضي الله تعالى عنهُ كان نائبًا في طرابلس، هاجر إلى سيدي أحمد لما كان بالعراق، فصحبهُ وخرج عن الدنيا وكراماته كثيرة، مات بالموصل رضي الله عنهُ، ومنهم الشيخ الجليل والعلم الطويل أحمد بن علوان اليمني رضي الله عنهُ، صحب سيدي أحمد البدوي بمكة أوائل جذبه، وهو شيخ الطريقة العلوانية المشهورة في اليمن والحجاز، وكراماته مستفيضة مستمرة إلى عهدنا هذا.

هذا ولو أردنا تعداد أصحاب سيدي أحمد وكراماتهم ومناقبهم، للزم أن نفرد لهم كتابًا مخصوصًا وقد اكتفينا بشهرتهم لكونها غنية عن الإيضاح رضي الله عنهم أجمعين، وقد سبق لك أن سيدي أحمد البدوي رضي الله عنهُ أخذ الطريقة عن سيدي بري عن سيدي علي بن نعيم عن سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنهم. وقد ذكر الشيخ الحجة أبو المحاسن الشاذلي الفاسي في سنده: أن الشيخ الإمام والقطب العارف الهمام مولانا الشيخ أبا الحسن الشاذلي شيخ الخرقة الشاذلية رضي الله عنهُ صحب الشيخ نجم الدين الأصفهاني، وتلقى الطريقة عن الشيخ عبد السلام بن مشيش، وتخرج بصحبة الشيخ العارف بالله سيدنا بري خليفة الشيخ علي بن نعيم البغدادي، أحد خلفاء الأستاذ الكبير سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ، ولبس خرقتهُ وتأدب بآدابهِ. كذا ذكره أبو المحاسن قدس سره في سنده، ولا يخفى ما كان عليهِ الشيخ أبو الحسن الشاذلي من علو المرتبة، وقد ترجمهُ الشيخ تاج الدين بن عطاء الله: بأنهُ قطب الزمان وحجة الله على الصوفية، وكان الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهُ، وشهرة سيدي أبي الحسن وكثرة أصحابهِ وعلو مناقبهِ غنية عن التفصيل، ومن كلامهِ: مَن أكرمهُ الله عزّ وجلّ بكرامة الإيمان ومتابعة السنة، واشتاق إلى غيرها فهو مفتر كذاب. ومنهُ أيضًا: من دعا الناس إلى غير ما دعا لهُ رسول الله ﷺ فهو بدعي. ومن كلامه إذا انتصر الفقير لنفسهِ وأجاب عنها رجع إلى وراء. قلت: وقد سبقهُ في هذه شيخ مشايخهِ أستاذ الطائفة أبو العلمين، السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ، فإنه قال: الفقير إذا انتصر لنفسهِ تعب وإذا سلم الأمر لمولاه نصره من غير عشيرة ولا أهل. اهـ.

ومن أتباع سيدنا الإمام أحمد الرفاعي، بل من أجلّ أصحابهِ سيدنا الولي الجليل الشيخ أبو الفتح الواسطي رضي الله عنهُ، قال الشيخ الشعراني قدس سره في طبقاته الوسطى: إن الشيخ أبو الفتح الواسطي رضي الله عنهُ، هو من أجلّ أصحاب سيدي الشيخ أحمد بن الرفاعي رضي الله عنهُ، وهو الذي أشار عليه بالإقامة في مدينة إسكندرية، وربى بها الرجال كالشيخ عبد السلام القليبي والشيخ عبد الله البلتاجي والشيخ تاج الدين بكوم النجار والشيخ بهرام الدميري والشيخ جامع الفضلين الدنوشري، وغيرهم من مشائخ بلاد الغربية، وكلما في الغربية من المشائخ فهم من تلامذتهِ وتلامذة تلامذتهِ رضي الله تعالى عنهُ، وكان عالمًا بالشريعة والحقيقة، وعقدوا مجلس المناظرة أول مجيئهِ من بلاد المشرق، فقطع العلماء بالحجج فأذعنوا لهُ إلا شخصًا من خطباء إسكندرية، فبقي على إنكاره عليهِ فبينما هو يخطب، إذ تذكر أنهُ جنب فمد لهُ الشيخ كمّهُ فوجده كالزقاق فدخل قبة، فانتهى إلى نهر جار فاغتسل فيهِ ورجع فإذا هو على المنبر، فأذعن

للشيخ واعتقده وصار من أجلّ تلامذتهِ، ومناقب الشيخ كثيرة مشهورة ولم أجد لهُ كلامًا في الطريق فأذكره، ونقلوا عنهُ أنهُ لم يضع جنبهُ إلى الأرض منذ دخل الطريق، وكان إذا مرض يستند إلى مخدة رضي الله تعالى عنهُ، مات بإسكندرية وقبره بها ظاهر يزار .اهـ.
وقال الشعراني قدس سره أيضًا في مننهِ الكبرى: كان الشيخ صفي الدين بن أبي المنصور يقول إن جماعة أبي الفتح الواسطي بمدينة الاسكندرية، الذين كانوا يحضرون ورده كل يوم خمسة آلاف منهم الشيخ عبد العزيز الديريني رحمهُ الله، والشيخ عبد الله البلتاجي والشيخ عبد السلام القليبي والشيخ عبد الله الجيلي والشيخ ضرغام المسيري وغيرهم، وكان الشيخ أبو الفتح من أعظم تلامذة سيدي أحمد بن الرفاعي رضي الله تعالى عنه، وكان يتكلم على أرباب الأحوال، ويقول: اسمعوا هذا الكلام الذي لهُ خمسة آلاف سنة ما تكلم بهِ أحد غيري، وكان الشيخ أبو الفتح الواسطي مع كثرة تلامذتهِ الزائدين على الألوف، لا يصحب إلا أرباب الأحوال، ومناقبهُ كثيرة أكثر من أن تحصى رضي الله تعالى عنهُ. انتهى. ومنهم الشيخ الجليل العلامة والإمام النبيل الفهامة إمام علماء الشريعة الأعيان، ورئيس أكابر الصوفية أهل الشأن، مولانا الشيخ عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميري الشافعي المعروف بالديريني، تخرج بصحبتهِ الرجال وانتمى إليهِ صدور العلماء الأبطال، وممن لبس خرقته الشيخ صدر الدين يحيىٰ السبكي رضي الله عنهُ وغيره، قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني في طبقاتهِ الوسطى حين ذكره: إن الشيخ عبد العزيز الديريني كان شيخًا زاهدًا ورعًا زائد الأحوال والكرامات الخارقة والمصنفات الكثيرة الشائعة في الفقه والتفسير والأصول وغير ذلك، ولهُ نظم كثير شائع، وكان مقيمًا ببلاد الريف ويقصده الناس للزيارة من سائر الأقطار وكانوا يرسلون لهُ مشكلات المسائل من مصر، فيجيب عنها بأحسن جواب، وكان كل كتاب صنفه في بلد يتركهُ فيها ولا يحملهُ معهُ. قال الشيخ الإمام الحجة قاضي القضاة شيخ الإسلام تاج الدين عبد الوهاب السبكي قدس سره في طبقاتهِ، راويًا عن عم أبيهِ الشيخ صدر الدين يحيىٰ السبكي قدس سره: إن الإمام الهمام عبد العزيز الديريني قدس سره كان يقول:

الله ربـي وحـسـبـي ... الله أرجـو وأحـمـد
وشـافـعـي يـوم حـشـري ... خـيـر الـخـلائـق أحـمـد
صـلـى عـلـيـهِ إلـٰهـي ... أوفـى صـلاة وأحـمـد
ومـالـك والـحـنـيـفـي ... والـشـافـعـي وأحـمـد
وسـيـدي ابـن الـرفـاعـي ... قـطـب الـحـقـيـقـة أحـمـد
هـذا مـقـال الـدمـيـري ... عـبـد الـعـزيـز بـن أحـمـد

ومن حكم سيدنا الشيخ عبد العزيز الديريني رضي الله عنهُ، ما نقلهُ ابن العماد في كشف الأسرار أيضًا من قولهِ:

وفيك سر نسخة الوجود فانظر فأنت أقرب الشهود
فالحزن في النفوس والأفراح مثالها الظلمة والإصباح
ومثلهُ المعرفة المحققة كالشمس في حالة صحو مشرقة
والعلم يبدو مثل نور البدر والفهم كالنجوم حين تسري
والغيم والسحاب مثل الجهل والعقلاءُ لاحتياج العقل
وربما يخشى من الكسوف في الشمس مثل البدر في الخسوف
وشبهوا الركون للآمال بالشامخ الراسي من الجبال
وشبهوا الأسرار في البواطن كأنها جواهر المعادن
وشبهوا الودق في الأعضاء مثل العيون في انبعاث الماءِ
وشبهوا الجهر مع الأسرار كالبرق في الآفاق والبحار
ثم اختلاف البخل والسخاء كحالي الشدة والرخاء
ثم الضيا في العين والحرارة والدم كالربيع في النضارة
والحرّ واليبس لدى الشباب كالعسف والصفراء بالتهاب
والبرد واليبس لدى الشتاء مثل اختلاف الشيخ بالسوداء
والبرد واليبس لدى الخريف كبلغم المكهل الضعيف
والريق والدمع الغزير الجاري كالعذب والملح من البحار
ودمعة الأحزان تجري مالحه ودمعة الأفراح تبدو صالحه
تشابه البرزخ للبحرين حلو وملح جريا من عين
والشعر من موضعهِ المخصوص كالأرض في النبات بالتخصيص
والنار في الطحال مثل المعده والكبد اللطيفة المنفرده
كالنار في لهيبها فإن عرض في حرها نقص فأسباب مرض
وشبهوا الأنفاس بالرياح ويعجز الفهم عن الأرواح
فانظر وفكر في جميع العالم وردد الفكرة في المعالم
وكلما سوى القديم العالم فهو المسمى جملة بالعالم

فإن من ينظر في البناء يراه محتاجًا إلى بَنَّاء
والفكر في عجائب الصنايع يتقنهُ علم وجود الصانع
الواجب الوجود وهو الله وما لنا مدبر إلا هو
الظاهر المعروف بالدليل الباطن العالي عن التمثيل
الأول القديم لا بداية لكونهِ فما لهُ نهايه
إذ كل حادث فلا يستغن عن صانع منزه عن وهن
الآخر الباقي بلا نهاية وكل منته لهُ بداية
والواجب الذي استحال ضده فلا يجوز نفيه ورده
والمستحيل لا يجوز عقلا وجوده فلا يكون أصلا
والجائز الممكن بالتصوير وجوده والنفي بالتقدير
وعدم القديم مستحيل إذ الوجود وضعهُ المعقول
فالتزم التنزيه للخلاق واستعمل التنزيه في الأخلاق
واترك خصال الشرّ كي لا تشتبه بالمعتدين والقباح فانتبه
ككبر إبليس فمكر الثعلب وحدة الليث وخبث العقرب
والحرص في الكلب وجهل النمر وشره الخنزير حين يجري
والغدر في الذئب وظلم الحية وحمق الضباع في البرية
فمن نفى المذموم بالرياضة طهر من أسراره رياضة
حتى يصير موطنًا للغرس ولاجتناء ثمرات الأنس
فنزّه القصد عن انتقاص كالعجب والرياء بالإخلاص
ونزّه العهد عن الخيانة بصحة الوفاء والأمانة
وطهّر الباطن ثم الظاهر واعمل بما يرضي الإلٰه القادر

فهذه الأبيات قد اشتملت على بعض ما في الإنسان من جميع المخلوقات، فما من مخلوق إلا وفي الإنسان خصلة منهُ، إما صورية وإما معنوية، انتهى.

وذكر الشيخ الشعراني في طبقاتهِ راويًا عن عمهِ الشيخ عبد الرحمٰن، أنهُ لما حضرت والده الوفاة دعى بكتاب طهارة القلوب للشيخ عبد العزيز الديريني، وقال لأخي أحمد أقرأ لي أحوال القوم عند طلوح روحهم، فصار يقول وهو يتنهد سبقونا على خيل دُهْم ونحن وراءهم على حمير، قلت وكتاب الشيخ عبد العزيز المسمى بطهارة القلوب،

كتاب لم تكتحل عين الزمان بثانيهِ لرقة ألفاظهِ وعذوبة معانيهِ، رتبهُ على نمط عجيب وأسلوب غريب، أتى بهِ بالموعظة الحسنة ففتح بهِ أقفال القلوب واجتذب الناس إلى علام الغيوب، ومن كلامهِ فيهِ في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياتهُ زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون﴾ [الأنفال: ٢] المؤمن حقًا من كانت هذه صفاتهُ، الوجل عند ذكر الله، والخشوع عند سماع كتاب الله، والتوكل على الله ولزوم طاعة الله، والجود بما أعطاه الله، في الصحيح عن رسول الله ﷺ، أنهُ قال: «لا يدخل النار مَن بكى من خشية الله حتى يلج اللبن في الضرع» وقال رسول الله ﷺ: «لا يدخل النار عين سهرت في سبيل الله، لا يدخل النار عين غضت عن محارم الله، لا يدخل النار عين بكت من خشية الله» قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿إذا الشمس كورت﴾ [التكوير: ١ ـ ١٠] فلما بلغ ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ خرَّ مغشيًا عليهِ وسمع مرة أخرى قارئًا يقرأ سورة الطور، فوقف فلما بلغ قولهُ تعالى: ﴿إن عذاب ربك لواقع ما لهُ من دافع﴾ [الطور: ٧ ـ ٨] استند إلى الحائط ساعة وذهب إلى منزلهِ فمرض شهرًا والناس لا يدرون ما سبب مرضهِ، وكان سفيان الثوري إذا جلس مع الناس كأن النار أحاطت بهِ لما يرى من شدة خوْفهِ وجزعهِ. ولما نزل قولهُ تعالى: ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ [الحجر: ٤٣] صاح سليمان الفارسي صيحة ووضع يده على رأسهِ وهام على وجههِ ثلاثة أيام. وكان عبد الله بن عمرو بن العاص يقول: ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا، فوالله لو يعلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوتهُ، وصلى حتى ينكسر صلبهُ. واجتمع أصحاب الحديث يومًا على باب الفضيل رحمهُ الله، فاطلع عليهم من كوّة وهو يبكي ويرجف، فقال: عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة هذا زمان بكاء وتضرع ودعاء كدعاء الغريق، هذا زمان احفظ لسانك واخف مكانك وعالج قلبك، وخذ ما تعرف ودع ما تنكر، وهذا أخذه الفضيل من حديث عقبة بن عامر، لما ذكر النبي ﷺ اختلاف الزمان، فقال: ما النجاة يا رسول الله؟ قال: أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابكِ على خطيتك»[1] وكان الفضيل يومًا يمشي فقيل لهُ: إلى أين، قال: لا أدري، وكان والهًا من الخوف. ووقف قوم بعابد وهو يبكي فقالوا لهُ: ما يبكيك؟ قال: روعة تجدها الخائفون في قلوبهم. قالوا: وما هي؟ قال: روعة النداء بالعرض على الله عزّ وجلّ. وجاءت مولاة لعمر بن عبد العزيز، فقصّت عليهِ أنها رأت في المنام كأن الصراط قد

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه عن عقبة بن نافع (٨/ ٢٧١)، باب ذكر من اسمه حاجب، حديث رقم: ٤٣٦٧. وأخرجه في الترغيب والترهيب عن عقبة بن عامر (٣/ ٢٢٤)، باب الترغيب في الصمت إلا عن خير، حديث رقم: ٥.

مد على جهنم وهي تفور على أهلها، وذكرت أنها رأت رجالاً مروا على الصراط فأخذتهم النار، قالت: ثم رأيتك يا أمير قد جيء بك، فوقع عمر مغشيًا عليهِ وبقي زمانًا يضطرب وهي تصيح في أذنهِ رأيتك والله قد نجوت. قال أبو طارق شهدت ثلاثين رجلاً أتوا إلى مجلس الذكر صحاحًا، فتصعدت قلوبهم من خشية الله فماتوا كلهم في مجلس واحد.

قصّوا عليَّ حديث من قتل الهوى إن التـأسّـي روح كـل حـزيـن

قال منصور بن عمار دخلت الكوفة، فبينما أنا أمشي في ليلة مظلمة إذ سمعت بكاء رجل بصوت شجي من داخل دار، وهو يقول إلٰهي وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك ولكن عصيتك بجهلي، فالآن من عذابك مَن يستنقذني، وبحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني، واذنوباه واغوثاه يا الله، قال منصور فأبكاني كلامهُ وبكاؤه فوقفت وقرأت: ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ [التحريم: ٦] فسمعت للرجل اضطرابًا شديدًا وصياحًا، فوقفت حتى انقطع الصوت ومضيت، فلما أصبحت أتيت إلى الدار فوجدت الرجل قد مات والناس في تجهيزه، وعجوز تبكي فسألت عنها فقيل لي: هي أمهُ فتقدمت إليها وسألتها عن حالهِ فقالت: كان يصوم النهار ويقوم الليل، ويكتسب الحلال فيقسم كسبهُ أثلاثًا، ثلث يفطر عليه وثلث ينفقهُ عليَّ وثلث يتصدق بهِ، فلما كان البارحة مرَّ بهِ إنسان وهو يقرأ فسمع آية من القرآن ففارق الدنيا. وسمع مسروق بن محمد قارئًا يقرأ ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمٰن وفدًا ونسوق المجرمين إلى جهنم وردًا﴾ [مريم: ٨٦] فشهق شهقة لحق منها الآخرة. وسمع يحيىٰ البكاء رجلاً يقرأ ﴿ولو ترى إذ وقفوا على ربهم﴾ [المائدة: ٣٠] فصاح صيحة مرض منها أربعة أشهر يعاد من أطراف البصرة. انتهى.

وذكر الإمام العلاّمة أبو العباس أحمد بن العماد الأقفهسي، نفعنا الله بهِ في كتابه كشف الأسرار أن سيدنا الشيخ عبد العزيز الديريني رضي الله عنهُ قال: وإنما تحصل القسوة من مبالغة دواعي الشهوة، فإن الشهوة والصفرة لا يجتمعان في الخاطر، والذي يخطر في القلب إن كان باعثًا إلى الخير، فهو من جهة الملك ويسمى إلهامًا، وإن كان باعثًا على الشر فهو من جهة الشيطان ويسمى وسوسة، فالخاطر معفو عنهُ بالإجماع، وإذا خطر في قلب الشخص الزنا أو السرقة أو فعل معصية، فتارة يعرض الإنسان عنهُ وتارة يهمّ بفعلهِ، فإذا همَّ بفعلهِ فتارة يعزم عليهِ ويصمم، وتارة ينحل عزمهُ وينصرف عنهُ همهُ، فإن صرف عنهُ همهُ ولم يعزم لم يؤاخذ، وإن عزم على الفعل وصمم ولم

يفعل فقد اختلفوا في تأثيمهِ، فقيل: لا إثم عليهِ، لقولهِ ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت بهِ أنفسها ما لم تتكلم أو تعمل»[1] وهذا لم يتكلم ولم يعمل بهِ إلى الآن، والصحيح أنهُ يأثم بالتصميم والعزم على الفعل كما يأثم المصر على فعل المعصية، ولقولهِ ﷺ: «إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل يا رسول الله: هذا من القاتل فما بال المقتول؟ قال: إنهُ كان حريصًا على قتل صاحبهِ»[2] فانظر كيف دخل النار بالحرص على القتل وإن لم يقتل، وأجيب عن الأول بأنهُ إنما أُثم لأنهُ قد عمل بما صمم عليهِ، فإنهُ شهر السلاح على أخيهِ، فدخل في قوله ﷺ: «ما لم يتكلم بهِ أو يعمل» فيكون آثمًا بذلك، فبنوا على هذا الخلاف ما لو اشترى سلاحًا للتجارة، ثم قصد إمساكهُ لقطع الطريق، فإن قلنا: لا يأثم بالتصميم سقطت عنهُ زكاة التجارة، كما لو نوى إمساكهُ للفتنة، وإن قلنا: يأثم لم ينقطع حول التجارة. ذكر ذلك في الكفاية إذا علمت ذلك. فالمصلي إذا خطر بقلبهِ خاطر وصرفهُ عنهُ بهمة واشتغل بالصلاة لم يؤاخذ بذلك، ولا يكون ذلك قادمًا في حصول هذا الأجر، ويشهد لذلك قولهُ ﷺ: «لا يحدث فيهما نفسهُ» وإنما يحدث نفسهُ إذا كان فاعلاً للحديث، أما إذا كانت نفسهُ تحدثهُ وهو لا يجيبها ولا يحدثها ويصرف همهُ عنها، لم يضره ذلك. انتهى.

ومواعظهُ رضي الله تعالى عنهُ كثيرة وكراماته شهيرة، مات في حدود الستمائة رضي الله تعالى عنهُ وعن أولياء الله أجمعين، وأتباع الشيخ أبي الفتح الواسطي تلميذ سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ كثيرون، منهم الشيخ أبو السعود بن أبي الشعائر الواسطي، أخذ عنهُ سيدي داود الأعزب وسيدي خضر الكردي، الذي تلمذ لهُ الملك الظاهر أبو الفتوحات، نزل بمصر وأقام فيها حتى مات، قال الشيخ الشعراني: هو شيخ الخرقة السعودية في مصر وقراها، ثم قال وكان من أجلاَّء المشائخ، وكان السلطان بمصر ينزل إلى زيارتهِ ويتأدب بين يديهِ، كآحاد الناس، وكان الناس يسمعون عند خلع نعلهِ أنينًا كأنين المريض، فسألوه عن ذلك فقال: هي نفسي أخلعها عند النعال فتئن عند زوال تكبرها ورياستها، وصام في المهد رضي الله تعالى عنهُ، ومات بالقاهرة في يوم الأحد تاسع شوال سنة أربع وأربعين وستمائة، وقبره بالقرافة ظاهر يزار كل يوم أربعاء

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في كتاب الطلاق (٦/ ٢٠٧) باب ١١، حديث رقم ٥٢٦٩. ومسلم عن أبي هريرة كتاب الإيمان، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر في القلب إذا لم تستقر، (١/ ٦٥).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي بكرة في كتاب الرهن، باب ما جاء في الفتن (١٣/ ٢٧٣) حديث رقم: ٥٩٤٥. وأخرجه مسلم، باب الفتن حديث رقم: ٢٨٨٨.

وكل يوم سبت، ولهُ كرامات وخوارق مذكورة في الطبقات الكبرى، وكان يقول: المريد الصادق كتابةُ قلبهُ. وكان يقول: من كان شغلهُ الطلب لطريق الله يوشك أن لا يضل، ومن كان الله شغلهُ يوشك أن لا يقف. قال والطلب شغل الظاهر والمطلوب شغل الباطن، ولا يستقيم ظاهر إلا بباطن كما لا يسلم لأحد باطن إلا بظاهر. وكان يقول لا نأمن من الغش ممن يغش نفسهُ. وكان يقول: من رأيتهُ يميل إليك لأجل نفعهِ منك فلا تركن إليهِ فإنهُ بئس الصاحب. وكان يقول من مدح الدنيا في مجلسك ففرّ منهُ، ومن أغفلك عن مولاك فأعرض عنهُ. وكان يقول: عليك بالاشتغال بالله فإن لم تقدر على ذلك فاشتغل بما يقربك إليهِ، ولا أرى لك عذرًا في ترك ما يقربك إليهِ، لأنها أول الدرجات. وكان يقول: صلاح القلب في التوحيد والإخلاص، وفساده في الشرك والرياء وكان يقول: إذا لم تستقم في نفسك فكيف تقوّم غيرك. وكان يقول: أستغفر الله عدد أنفاسي في تقصيري، في كل عبادة تقربت بها إليهِ. وكان يقول: جميع الأخلاق المحمودة تنشأ من القلب، وجميع الأخلاق المذمومة تنشأ من النفس. وكان يقول: ما وصل أولياء الله إلى ما وصلوا بالأعمال، وإنما وصلوا بالأدب في الأعمال. وكان يقول الأصول الذي يبني عليها المريد أساسهُ أربعة: اشتغال اللسان والقلب بالذكر، وجبر القلب على مراقبة الرب، ومخالفة النفس والهوى من أجله، وتصفيه اللقمة من الشبَهات وهي القطب وبها تذكو الجوارح.

وكان يقول: المراقبة لله هي مفتاح كل سعادة وبها يطهر القلب، وكان يقول: لا يستقيم لمريد أمره في الطريق، إلا بإدخال النفس في كل شيء يغمها ويؤلمها من الطاعات، وذلك حتى تذل وترجع مطيعةً لصاحبها، فإن النفس إذا استولت على الإنسان أسرتهُ وصارت الولاية لها على القلب، فإن تحركت تحرك القلب وإن سكنت سكن القلب. وكان يقول: من أعرض عنهُ الخلق كلهم فتغير منهُ شعرة، فهو واقف معهم مشرك بربهِ، ومن ابتلي بكل مرض فتغير منهُ شعرة فهو واقف مع نفسه في حجاب عن ربهِ، ومن تغير في حال الذل ولم يكن كما هو في حال العز، فهو محب للدنيا بعيد من حضرة ربهِ. وكان يقول: كلما أشغل القلب عن ذكر الله فهو دني وكلما أوقف القلوب عن طلبهِ فهو دني، وكلما أنزل الهم بالقلب فهو دني، والأمر وراء ذلك كله. وقد ذكرنا من كلامهِ جملة صالحة في الطبقات الكبرى، وهو من أوسع الأولياء دائرة في علم السلوك رضي الله تعالى عنهُ، ورحمهُ رحمة واسعة بِمنِّهِ وكَرَمِهِ انتهى.
قال الشعراني قدس سره في طبقاتهِ الوسطى: ومنهم الشيخ علي المليجي رضي الله عنهُ، هو من أجلّ أصحاب الشيخ أبي السعود بن أبي العشائر، وكان معاصرًا لسيدي أحمد البدوي وهو أول المشايخ يعمل مولده كل سنة قبل جميع أشياخ الغربية،

ويحضره خلايق وتجار وغيرهم، وكان سيدي أحمد البدوي إذا أرسل سيدي عبد العال في حاجة إلى مصر، يقول: إذا وصلت إلى ناحية جمزور فاخلع نعلك، فإن من هناك خيام المليجي ضربت فلا تمش بين خيامهِ بنعل، وطلب سيدي أحمد شخصًا يبني عنده في مقامهِ فأبى، وكان يبني عند سيدي علي المليجي في مقامه الذي عمره لهُ السلطان محمد بن قلاون، فسقطت يد البناء حين خالف سيدي أحمد. فجاء البناء بيده في قفة النجارى مقطوعة، فأخذها سيدي علي وبصق عليها فالتصقت بإذن الله تعالى، وأرسل يقول لسيدي أحمد ليس الرجل من يفصل وإنما الرجل من يوصل وهو بباسطهُ في الكلام، وكان رضي الله تعالى عنهُ يقول: عليكم بكثرة الاحتمال للناس في سائر أصناف الأذى، فإن الرجل لا يكمل عندنا إلا بذلك، وكان يقول: لا ينبغي لفقير أن يمد يده قط لشبهة، فإن كل لقمة منها تقلب قلب الفقير وتدنسهُ شاء أم أبى. وكان يقول: الفقير في حجر تربية الحق كاليتيم في حجر وليهِ، فإياك أن تؤذي أحدًا من الفقراء، فإنك تحارب الله تعالى، وكان يقول إذا قلت البركة في رزقك فاعلم أن ذلك من غفلتك عن الله عزّ وجلّ. ودخل لزيارتهِ السلطان محمد بن قلاون مرة على غفلة، وكان طعام الشيخ نحو قدح من العدس بشيءٍ من الدهن، فقال للسلطان وجماعته: قد عملنا لكم غداكم فلا تطبخوا شيئًا، فغطى الشيخ القدر وصار يغرف منها، حتى كفى عسكر السلطان كلهُ فلما استعجب الناس من ذلك، قال: وعزة ربي أقدر بفضل الله أغرف منها للناس إلى يوم القيامة رضي الله عنهُ، وكان من أجلِّ أصحاب سيدي عبد العزيز الديريني، وكان ينسج القطن ويجعل على كل خيط انقطع نقطة زعفران، واشتهر عنهُ أنهُ كان ينزل سوق مليج يبيع فيهِ الخام، ثم يأتي بفواكه من الشام ومن بلاد المشرق فبلغ ذلك سيدي عبد العزيز، فقال: يا علي، الفقير في هذه الدار كالشخص في بيت الخلا فيجب عليهِ رد الباب، حتى تقضى حاجتهُ في هذه الدار. فقال: أنا أمشي لا أحس بنفسي إلا في اسكندرية أو الشام ولم أقصد ذلك، فقال هذا عذر لا يكفي من مثلك، إنما الرجل من يعرف حركاته وسكناته، فتاب سيدي علي من ذلك وستر كراماته حتى مات رضي الله عنهُ. انتهى. ومنهم الشيخ عبد الله البلتاجي رضي الله تعالى عنهُ، هو من أجلِّ مشائخ عبد العزيز الديريني وكان إمامًا في العلوم النقلية والكشفية، صاحب التصريف الكبير والأنفاس، ولهُ كرامات كثيرة جمعت في مجلد ضخم، وكان سيدي عبد السلام القليبي يهدي لهُ كل سنة حمل حمارته بصلاً، فيحملها لهُ فاكهة من فواكه الشام وليس ببلاده حينئذ فواكه.

وزاره سيدي يوسف العجمي مرة، فضاعت حمارة الشيخ يوسف، فقال لهُ وهو في القبر: يا عبد الله رد لي حمارتي وإلا لم أعد أزورك فطلع الشيخ عبد الله من القبر، وأتاه

بالحمارة من البرية وقد جعل برذعتها على رأسهِ، وقال: يا يوسف إذا جئت لزيارتنا مرة أخرى فقيد حمارتك بقيد من حديد وهو متبسم، وكان يقول: لا يبلغ الرجل عندنا مراتب الكمال إلا إن علم جميع شرائع الأنبياء، ثم يستخرجها كلها من القرآن العظيم. وكان يقول: كل فقير لا يؤثر أخوانهُ على نفسهِ في جميع الأعراض، فرّوا منهُ بقلوبهم. وكان يقول: من لم ينظر في أخلاق السلف الصالح وما كانوا عليهِ، شقي ولا ينفعهُ عمل. وكان يقول: كل فقير كان لهُ فراش للنوم فهو والبهائم سواء. وكان يقول: مَن أكل من أطعمة الناس اسود قلبهُ، ولا تفي أعمالهُ بجلائهِ، فالصادق من أكل من عمل يده والسلام. وكان لهُ بنت، فقالت أُمها: لا أزوج بنتي إلا لشيخ الإسلام، فقال الشيخ: قد خطبها مني فلان التاجر وأنا أستحي أن أزوجها لغيره، فقالت: لا بد من تزويجها لشيخ الإسلام، فقال الشيخ: نوليه لأجلك شيخ الإسلام، فاستبعد الناس ذلك، فبلغ الخبر السلطان أن صهر الشيخ من العلماء الكبار، فأرسل وراءه وولاه شيخ الإسلام بمصر، وقال لهُ الشيخ: كل سؤال جاءك، فانظر تجد الجواب مكتوبًا في الحائط أمامك، فل يزل شيخ الإسلام إلى أن مات بعد ثلاث سنين، وكراماتهُ كثيرة مشهورة في بلاد الغربية وغيرها رضي الله تعالى عنهُ ورحمهُ رحمة واسعة بمنهِ وكرمهِ، ومنهم الشيخ عبد السلام القليبي رضي الله عنهُ كان من أكابر الأئمة الراسخين في علم الظاهر والباطن، وظهر لهُ كرامات لا تحصى وتواترت الأخبار أنهُ كان يعدي من نحو أبيار على حجر إذا لم يجد المعدية، وفي بعض الأوقات كان ينزل البحر بثيابهِ فيمشي تحت الماء إلى ذلك البر، من غير أن تبتل ثيابهُ. وكان يقول: من لم يقرأ كتب الشريعة والخلاف العالي بين المذاهب، لا يقتدى بهِ في الطريق. وكان يقول: من شرط الفقير ملازمة باب الحق دون الخلق. وكان يقول: من غفل عن الله نفسًا واحدًا عد من الغافلين، وكراماتهُ مشهورة في بلاد الغربية رضي الله تعالى عنهُ ورحمهُ الله. انتهى بحرفهِ من الطبقات الوسطى. قلت: ومن بعض من ينتسب إلى الأعتاب الرفاعية بواسطة ولي الله الشيخ أبي الفتح الواسطي رضي الله عنهُ، سيدنا شيخ الإسلام وإمام رجال عصره الكرام معدن الفضل والعرفان والكمال مولانا الشيخ أحمد بن جلال، قال في خاتمة كتابهِ جلاء الصدا ما نصهُ: حلالي أن أمتثل أمر التحدث بالنعم وأنشر بهِ على رأسي، أرفع علم مما قد منَّ الله عليَّ بهِ من تشبهي بأهل الإرادة وتشبثي بذيل السادة، بما قد وصل من سلسلتي إلى حضرة ولي الله تعالى عى الإطلاق، قطب الإرشاد وغوث العباد بلامين ولا اختلاف الخاضع لديهِ أعناق ذوي الكمال عجمًا وعربًا، والطامح إليهِ أحداق أولي الآمال بعدًا وقربًا، الذي في ممالك الولاية نفذت أحكامه، وانهزمت عساكر الغواية حيث بدت أعلامه، الذي شراح كمالهِ كليلة وبضائع

المدائح في ساحات جلالهِ قليلة، الرافع ألوية الهدى في الطريقة والجامع بين أنوار الشريعة وأسرار الحقيقة، الشيخ الإمام المقتدى رأس من إلى الحق اهتدى مفيض الفيوض القدسية، والمفاض عليهِ من بحر الكرم الوافي، زين الحق والحقيقة والصدق والطريقة والملة والشريعة والدين، أبي بكر بن محمد بن علي الخوافي، خلد الله تعالى ظلال جلال تربيتهِ وإرشاده وأشرق بإشراق أنوار هدايته أقطار بلاده، وذلك أنهُ أخذ الطريقة عن شيخهِ شيخ المشائخ، ذي المجد السامي والعز الشامخ الإمام المشهور والعلم المنشور قطب الأقطاب وغوث الأحباب، أوحد الدعاة إلى الله الباري نور الحق والدين، عبد الرحمٰن القرشي المصري وهو قد تربى بتربية الشيخ الإمام المحقق العارف، مجمع المعاني والمعارف ظهير الحق والدين، عيسى الأبيدري المصري الأحمدي، وهو أخذ الطريقة عن شيخ الإسلام وعلم الأعلام مرشد الأنام إلى الملك السلام، عبد السلام القليبي وهو عن الشيخ الإمام والمرشد الهمام صاحب البارقة رفيع المنزلة والمقام العارف بالله والداعي بالله إلى الله، أبي الفتح الواسطي وهو عن قائد أزمة الطريقة وسيد أئمة الحقيقة، سراج طرائق الصدق بالاتفاق وصباح معارف أهل الحق على الاطلاق، سلطان العارفين بالله الخبير محيي الحق والدين أبي العباس السيد أحمد الكبير. اهـ هذا وإن أتباع الشيخ أبي الفتح الواسطي رضي الله عنهُ لا تحصى ومناقبهُ لا تستقصى رضي الله عن أشياخه وأصلافهِ وأتباعه في طريقهِ وأخلافهِ آمين.

وإن من أجل الطريقة الرفاعية الشيخ الإمام بقية آل الرسول الكرام، ذو الجناحين ومفخر آل الحسين الشيخ الشريف أبو بكر بن عبد العيدروس العلوي الحسيني، أخذ الطريقة الرفاعية عن شيخهِ الإمام الهمام الشيخ عبد الله بن أحمد بن مخزمة، وهو عن الشيخ أبي شكيل محمد بن مسعود بن شكيل الأنصاري، عن القاضي الشيخ محمد بن سعيد كين عن الشيخ أحمد الرداد عن الشيخ إسماعيل بن أحمد الجبرتي، عن الشيخ محمد بن أبي بكر الضجاعي عن الشيخ إبراهيم بن عبد الله الضجاعي، عن الشريف الشيخ محمد ابن الشيخ حسين السمرقندي عن السيد حسين ابن السيد أحمد الرفاعي، عن أبيه السيد أحمد الرفاعي عن الشيخ تاج الدين ابن السيد شمس الدين محمد الرفاعي، عن السيد أحمد ابن السيد محمد الرفاعي عن السيد أحمد ابن السيد علي الرفاعي عن السيد علي الرفاعي عن السيد محمد الرفاعي عن القطب الأقرب السيد إبراهيم الأعزب، عن عمهِ الأجلّ سيدنا السيد ممهد الدين عبد الرحيم عن أخيهِ السيد الجليل سيف الدين علي بن عثمان، عن سيدنا الغوث الأجلّ السيد أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنهُ، ولا يخفى أن مؤلفات الإمام أبي بكر العيدروسي قدس سره في علوم

الشريعة والحقيقة كثيرة جدًا، وقد خدم الحضرة الرفاعية بكتاب مخصوص ألفهُ في مناقب سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي، وشرفهِ وأحوالهِ وكراماتهِ وأقوالهِ، سمّاه النجم الساعي في مناقب الغوث الرفاعي، وله الهمم العظيمة والمآثر الكريمة، قال في المشرع الروى في مناقب آل علوي: أبو بكر بن عبد الله العيدروس بن أبي بكر بن عبد الرحمٰن رضي الله عنهُ، السيد الكبير عديم المثيل والنظير وحيد زمانهِ على الاطلاق، وحائز قصبات السبق على أقرانهِ بالاتفاق، الذي لم ينسج الدهر بعده بمثالهِ وعجز من بعده أن ينسج على منوالهِ، رافع راية المجد والكرم والمقلد بمواهبه رقاب الأمم من العرب والعجم، سيد السادات الأشراف ومنتقى جوهرها الشفاف، أفرد ترجمته بالتأليف العلامة محمد بن عمر بحرق في كتابهِ مواهب القدوس في مناقب ابن العيدروس، إلى أن قال ولد رضي الله عنهُ سنة إحدى وخمسين وثمانمائة بتريم المحروسة، وقد ذكر العلامة محمد بحرق بعد أن وصف الشيخ أبي بكر العيدروسي العدني المشار إليه بقطبانية وقتهِ، وعدد لهُ المناقب الكثيرة والكرامات الوفيرة، قال توفي يوم الثلاثاء لأربع عشرة خلت من شوال، سنة أربع عشر وتسعمائة ببندر عدن المشهور، قال في المشرع الروي: وقبره بهِ كالشمس الضاحية يقصد للزيارة من كل ناحية، ورثاه جماعة من الأدباء بمراثي عظيمة، وعدن بلد مشهور بساحل الهند من ناحية اليمن، سميت باسم عدن بن سنان بن إبراهيم الخليل عليهِ الصلاة والسلام، إلى آخر ما قال وهو كما لا يخفى رجل سيد كبير وإمام، فضلهُ شهير رضي الله عنهُ وعن أسلافهِ الطاهرين أجمعين.

ومنهم شيخ الإسلام ومقتدى الأئمة الأعلام، الإمام الهمام سيدنا الشيخ شمس الدين الجزري رضي الله عنهُ، تلمذ له أكابر الرجال وتلقى عنهُ الطريقة، فحول وقتهِ الأبطال، وممن أخذ عنهُ شيخ الإسلام الشيخ كمال الدين إمام الكاملية، وتخرج بصحبتهِ جماعة كثيرون وانتهت إليهِ مشيخة الأقراء والقراءات السبعة، وكان على جانب عظيم من التبحر في علوم الشرع، قال الشيخ الشعراني قدس سره حين ترجمهُ: ومنهم الشيخ الصالح العالم الزاهد الشيخ شمس الدين الجزري الشافعي الغمري رضي الله تعالى عنهُ، كان على قدم عظيم في ضبط اللسان والجوارح لا يكاد كاتب الشمال يجد شيئًا يكتبهُ الجمعة وأكثر، وكان وقتهُ كلهُ معمورًا بالعلم والعمل والأوراد، وما سمعتهُ قط يذكر أحدًا بسوء، ولا يأكل لأحد من المتهورين في مكاسبهم طعامًا، وكان يحسب مالهُ ويخرج زكاتهُ على التمام والكمال، وكان كثير الصدقة سرًا ويتفقد جيرانهُ بالطعام كل ليلة، وكان حلو اللسان كثير الحياء كثير الأدب كثير الحلم والعلم، وبالجملة فقد كان عديم النظير في عصره وأوصافهُ كثيرة رضي الله تعالى عنهُ ورحمهُ، ومنهم شيخ الإسلام أمير المؤمنين في الحديث الحافظ الكبير والإمام الشهير ولي الله الشيخ جلال الدين السيوطي رضي الله

عنهُ، شهرتهُ بين المسلمين في المشرق والمغرب غنية عن تعريفه، أخذ الخلافة ولبس الخرقة الرفاعية من سيدي الشيخ كمال الدين إمام الكاملية رضي الله عنهُ، وهو أخذها عن الشيخ شمس الدين الجزري وهو أخذها عن الشيخ زين الدين المراغي، وهو أخذها عن عز الدين أحمد الفاروثي الواسطي عن أبيهِ عن جده، عن شيخ الشيوخ مولانا وسيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهم أجمعين. قال الإمام الشعراني قدس سره عند ذكره في طبقاتهِ: ومنهم شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ جلال الدين السيوطي رحمهُ الله تعالى، وقد كان رضي الله تعالى عنهُ يقول: قد أشاع الناس عني أنني ادعيت الاجتهاد المطلق، كأحد الأئمة الأربعة، وذلك باطل عني وإنما مرادي بذلك المجتهد المنتسب، فإن الاجتهاد على نوعين: أحدهما المجتهد المطلق المستقل، وهذا النوع قد فقد من القرن الرابع ولا يتصور وجوده الآن ولم يَدَّعِه أحد بعد الإمام الشافعي إلا ابن جرير خاصة، النوع الثاني المجتهد المطلق المنتسب وهذا هو المستمر إلى أن تقوم الساعة وفي أصحاب الشافعي من أهل هذا النوع كثير، كالمزني وابن سريج والقفال وابن خزيمة وابن الصباغ وإمام الحرمين وابن عبد السلام وتلميذه ابن دقيق العيد والشيخ تقي الدين السبكي وولده عبد الوهاب، فإنهُ كتب مرة لنائبِ الشام أنا مجتهد الدنيا على الاطلاق لا يقدر أحد يرد عليَّ هذه الكلمة، فكل هؤلاء مجتهدون منتسبون، وكذلك القول في أصحاب الإمام مالك كابن وهب وأضرابه بلغوا الاجتهاد المطلق في مذهب مالك، وكذلك أبو يوسف ومحمد بلغا الاجتهاد المطلق في مذهب أبي حنيفة، قال الشيخ جلال الدين: ومع ذلك فلم يخرج هؤلاء عن تبعيتهم لإمامهم فمن أنكر الاجتهاد مطلقًا فهو جاهل انتهى. فنزل يا أخي هذا على ما نقلهُ عنهُ في شأن الاجتهاد كذلك، وقد كان الشيخ جلال الدين رحمهُ الله تعالى على قدم السلف الصالح، من العلماء العاملين والأكابر من العارفين، وكان رضي الله تعالى عنهُ لهُ مكاشفات غريبة وخوارق وعلوم جمة، ومصنفات جيدة كثيرة الفوائد، أرسل لي ورقة مع والدي بإجازتهِ لي بجميع مروياتهِ ومؤلفاتهِ، ثم لما جئت إلى مصر قبيل موتهِ اجتمعت بهِ مرة واحدة، فقرأت عليهِ بعض أحاديث من الكتب الستة وشيئًا من المنهاج في الفقه تبركًا، ثم بعد شهر سمعت ناعيه ينعي موتهُ فحضرت الصلاة عليهِ عند الشيخ أحمد الأباريقي بالروضة عقب صلاة الجمعة، وفي سبيل المؤمنين وعند الجامع الجديد بمصر العتيق رضي الله تعالى عنهُ، وقد جمع الشيخ عبد القادر الشاذلي بعض مناقبهِ في جزء وها أنا ملخص لك عيونهُ، فأقول وبالله التوفيق: كان الشيخ جلال الدين رحمهُ الله تعالى مجبولاً على الخصال الجميلة من صفاء الباطن وسلامة السريرة، حسن الاعتقاد زاهدًا ورعًا مجتهدًا في العلم والعمل، لا يتردد إلى أحد من الأمراء والملوك

وغيرهم مدة حياتهِ رضي الله تعالى عنهُ، وكان يظهر كلما أنعم الله تعالى عليهِ من الأخلاق والعلوم، ولا يكتم منها إلا ما أمر بكتمهِ عملاً بقولهِ تعالى: ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾ [الضحى: ١١] وكان من لا يعرف مقصده يقول فلان عنده دعوى عظيمة وسيأتي ما يشهد له أوائل ختم هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، وكان رضي الله تعالى عنهُ يفتي بتحريم الاشتغال بعلم المنطق، وينقل تحريم ذلك عن شيخهِ علم الدين البلقيني، وألف كراسة في ذلك سماها الغيث المغدق في تحريم المنطق، وكتبهُ جماعة قال: وهذه الواقعة أول وقائعي التي قام الناس عليّ فيها.

وكان يقول: ينبغي للمدِّرس أن يقرأ سورة تبارك الذي بيده الملك، وسورة الإخلاص والمعوذتين والفاتحة، كلما يريد أن يدرس وينقل، فعل ذلك عن شيخ الإسلام علم الدين صالح البلقيني رحمهُ الله تعالى، وكان يقول أخذت علم الحديث عن ستمائة نفس، وقد نظمهم في أرجوزة، قال: وهم أربع طبقات الأولى من يروي عن أصحاب الفخر بن البخاري والشرف الضمياطي ووزيره والحجار وسليمان بن حمزة وأبي أحمد بن الشيرازي ونحوهم، الثانية من يروي عن السراج البلقيني والحافظ أبي الفضل العراقي ونحوهما، وهي دون التي قبلها في العلو، الثالثة من يروي عن الشرف بن الكويك والجمال الحنبلي ونحوهما وهي دون الثانية، الرابعة من يروي عن أبي زرعة العراقي وابن الجزري ونحوهما وهذه لتكثير العدة وتكبير المعجم، ولم أروِ عنها شيئًا لا في الإملاء ولا في التخريج ولا في التأليف، وصنف رحمهُ الله تعالى في مكة لما حج وجاور، كراسة على نمط عنوان الشرف في يوم واحد تحتوي على نحو ومعاني وبديع وعروض وتاريخ، وكان يقول: لما حججت شربت ماء زمزم على نية أن أكون في الفقه كالشيخ سراج الدين البلقيني، وفي الحفظ للحديث كالحافظ ابن حجر، وكان يقول: انقطع إملاء الحديث بالديار المصرية بعد الحافظ ابن حجر عشرين سنة، فابتدأت في إملاء الحديث مستهل سنة اثنين وسبعين وثمانمائة في جامع ابن طولون، قال: وأول من أملا الحديث فيهِ الربيع بن سليمان، صاحب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنهُ، قال: وإنما اخترت الإملاء يوم الجمعة بعد الصلاة اتباعًا للحفاظ المتقدمين، كالخطيب البغدادي وابن السمعاني وابن عساكر، خلاف ما كان عليهِ العراقي وولده وابن حجر، فإنهم كانوا يملون يوم الثلاثاء، قال: وكان بداية إفتائي سنة إحدى وسبعين وثمانمائة وخالفني أهل عصري في خمسين مسألة، فألفت في كل مسألة مؤلفًا بينت فيهِ وجه الحق، قال: ولما بلغت مرتبة الترجيح لم أخرج في الافتاء عن ترجيح النووي، وإن كان الراجح عندي خلافهُ، ولما بلغت إلى مرتبة الاجتهاد المطلق، لم أخرج في الافتاء عن مذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنهُ، كما كان القفال يفتي بعد بلوغهِ درجة الاجتهاد المطلق، فكان يفتي بمذهب الإمام الشافعي لا باختياره،

ويقول السائل: إنما سألني عن مذهب الإمام الشافعي لا عن ما عندي أنا من العلم، مع أني لم أختر شيئًا خارجًا عن المذاهب إلا يسيرًا جدًا، وبقية ما اخترتهُ هو من المذهب، إما قول آخر للشافعي قديم أو جديد أو وجه في المذهب لبعض أصحابهِ، وكل ذلك راجع إلى المذهب وليس بخارج عنهُ، ولهُ من المؤلفات أربعمائة وستون مؤلفًا مذكورة في كتاب فهرسة كتبهِ من عشر مجلدات إلى ما دونها، وانتشرت مؤلفاتهُ في البلاد الحجازية والشامية والحلبية وبصرى والروم وبلاد التكرور والمغرب والهند واليمن وغيرها، وكان يقول: مما أنعم الله بهِ عليَّ هؤلاء الجماعة الذين انتصبوا لعداوتي وآذوني، وذلك ليكون لي أسوة بالأنبياء والمرسلين. وقد كان أبو الحسن الشاذلي يقول: لما علم الله عزّ وجلّ ما سيقال في أنبيائهِ وأصفيائهِ من الزور والبهتان قضى على قوم بالشقاء، فنسبوا لهُ زوجة وولدًا ونسبوا الأنبياء إلى السحر والجنون، حتى إذا ضاق ذرع الولي من كلام قيل فيهِ نادتهُ هواتف الحق أما ترضى أن تكون لك أسوة بي وبأنبيائي، فيما نسب إليَّ وإليهم من البهتان، فهناك يسكن قلب الولي فالحمد لله رب العالمين، وكان يقول: قد رزقني الله تعالى التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع على طريقة العرب والبلغاء لا على طريق المتأخرين من العجم وأهل الفلسفة، قال: ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف والفرائض والإنشاء والترسل والقراءات والطب والحساب. وكان يقول: قد بلغت مقام الكمال في جمعي آلات الاجتهاد المطلق المنتسب، وصرحت بذلك تحدثًا بنعمة الله عزّ وجلّ لا فخرًا بالدنيا، وأي قدر للدنيا حتى يطلب تحصيلها بالفخر، وقد أزف الرحيل وبدأ الشيب وذهب العمر، ولو أني أردت أن أكتب في كل مسألة مصنفًا يحتوي على أدلتها وتفاصيلها وفروعها لفعلت، كل ذلك بفضل الله تعالى لا بحولي وقوتي، وكان يقول: قد استنكر جماعة بلوغي مرتبة الاجتهاد المطلق في الفقه والحديث والعربية لظنهم انفرادي بذلك بعد الأئمة المجتهدين، وغاب عنهم أنها كانت مجتمعة في الشريف تقي الدين السبكي رحمهُ الله تعالى وقبلهُ جماعة اتصفوا بالاجتهاد المطلق لكن في الفقه فقط، وقال الجامعون بين هذه الثلاثة علوم فقليل ولم تجتمع في أحد بعد السبكي غيري، قال: ولا يظن أن مَن لازم الاجتهاد المطلق أن يكون مجتهدًا في الحديث مجتهدًا في العربية، لأنهم قد نصوا على أنهُ لا يشترط في الاجتهاد المطلق التبحر في العربية، بل يكتفي فيها بالتوسط ونصوا في الحديث على ما يؤدي إلى مثل ذلك والاجتهاد في الحديث هو الرتبة التي إذا بلغها الإنسان سمي في عُرف المحدثين بالحافظ، وقد وصف بالاجتهاد المطلق من لم يوصف بالحافظ كالشيخ أبي إسحٰق الشيرازي وأبي نصر بن الصباغ وإمام الحرمين والغزالي، وقد روى هؤلاء

من مؤلفاتهم أحاديث احتجوا بها وهي منكرة نبّه عليها ابن الصلاح وغيره كالنووي، فعلم أن خفاء بعض الأحاديث لا يقدح في مقام الاجتهاد، أوليس من شرط المجتهد أن يحيط علمًا بكل حديث في الدنيا، وقد علق الإمام الشافعي الأخذ بعدة أحاديث خفيت عليهِ على صحتها بعده وقد صحت عند غيره، بل وقع ذلك لأكابر اصحابة كعمر بن الخطاب فكان يقضي بأشياء تخالف الحديث حتى يحدثوه بها، فيرجع عن أقضيتهِ. قال: وقد بلغ الشيخ أبو محمد الجويني رتبة الاجتهاد المطلق وألف كتابهُ المحيط والتزم فيهِ الوقوف مع الحديث وعدم التقيد بالمذهب، فوقع للإمام البيهقي منهُ ثلاثة أجزاء في حياة المصنف فتعقب فيهِ أوهامًا حديثية، وأرسل بذلك إلى الجويني من جملتها: الشيخ أهل أن يجتهد ويتخير ولكن يحتاج إلى ثبوت الحديث الذي احتج بهِ، فإنهُ غير ثابت. فانظر كيف سلم لهُ رتبة الاجتهاد مع خفاء أمر تلك الأحاديث عليهِ، قال: وقد كان سراج الدين البلقيني مجتهدًا مطلقًا وكان من حفاظ الحديث أيضًا، ووصفهُ تلميذه الحافظ ابن حجر بالحفظ وذكره في طبقات الحفاظ، ولكن لم يكن في الرتبة العليا من الحفظ والنقد بل كان معاصره الحافظ أبو الفضل العراقي أحفظ منهُ وأجل في الفن الحديثي والنقد بكثير، وكانت عربية البلقيني وسطى، وأما بقية من جاء من المجتهدين بعد السبكي إلى اليوم فلم يكن فيهم من يبلغ رتبة البلقيني في الحديث.

وأما قبل السبكي فاجتمع الاجتهاد في الأحكام والحديث بخلق، منهم: ابن تيمية وابن دقيق العبد والنووي وقبلهُ أبو اشامة وقبلهُ ابن الصلاح، وأما قبلهُ من المتقدمين فكثير جدًا، وأما الاجتهاد في العربية فلم يجيء بعد ابن هشام من يصلح لأن يوصف بهِ غيري، إلا ما بلغني عن العماري، وقبل ابن هشام خلائق كأبي حيان والأيدي وابن الصائغ وابن مالك، قال: وغالب الناس لا يعرفون الاجتهاد في الحديث والعربية، وإنما يعرفون الاجتهاد في الشريعة فقط. وقد قال الإمام الرازي في المحصول ما نصهُ: المعتبر في الإجماع وكل فن من كان من أهل الاجتهاد في ذلك وإن لم يكونوا من أهل الاجتهاد في غيره انتهى. وألف الشيخ كتبًا في بيان الاجتهاد المطلق منها إرشاد المهتدين إلى نصرة المجتهدين، ومنها تيسير الاجتهاد وبيان ما لهُ من الإسناد، ومنها الرد على مَن أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض، وأطال في ذلك ثم قال: فالعبرة في مسائل الكلام بالمجتهد في الكلام وفي مسائل الفقه بالتمكن من الاجتهاد في مسائل الفقه، فلا عبرة بأهل الكلام إذا تكلموا في الفقه، ولا بأهل الفقه إذا تكلموا في علم الكلام، بل من تمكن في الاجتهاد في الفرائض دون المناسك يعتبر وفاتهُ وخلافهُ في الفرائض دون المناسك، وقال أبو الحسين البصري لا يجوز التقليد في أصول الفقه كما

لا يجوز الاجتهاد في أصول الدين، ولا يكون كل مجتهد فيهِ مصيبًا بل المصيب فيهِ واحد بخلاف الفقه في الأمرين، قال والمخطىء في أصول الفقه غير معذور بخلاف الفقه فإنهُ معذور غير ملوم، فهذه ثلاث قواعد خالف فيها الفقه، لأن أصول الفقه ملحق بأصول الدين ومطالبهُ قطعية انتهى.

فانظر يا أخي إلى كلام الإمام وأبي الحسين، كيف أطلقا الاجتهاد والمجتهد في أصول الفقه وسائر الفنون، ثم قال: ويشكل على هذه الاجتهادات الثلاث، فأما الاجتهاد في العربية فهو أن يحيط بنصوص أئمة الفن من سيبويه إلى زمانهِ هذا، ويحفظ غالب شعر العرب الذين يحتج بأشعارهم في العربية، ولا يضرّ خفاء بعض ذلك عليهِ وليس المراد حفظها عن ظهر قلب، وإنما المراد أن يكون لهُ اطلاع على دواوينهم بحيث يعرف محل الاستدلال بذلك من الكتب، ويكون مع ذلك محيطًا بقواعد النحاة التي بنوا تصرفاتهم عليها، غير القواعد المذكورة في واضحات الكتب، فإن تلك كالأصول لهذه القواعد، وهذا لا يعرفهُ الآن إلا متبحر في الفن، قال: وقد ألفت في هذه القواعد كتابًا يجمع أصول النحو على مصطلح قواعد الفقه، وأما الاجتهاد في الحديث فقال الحافظ المزني. أقل مراتب الحافظ أن يكون الرجال الذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وأحوالهم وبلدانهم أكثر من الذين لا يعرفهم، ليكون الحكم للغالب، وأما ما يحكى عن المتقدمين من قولهم كنا لا نعد صاحب حديث، من لم يكتب عشرين ألف حديث فهو بحسب زمانهم. وكان الحافظ ابن حجر يقول: الشروط التي إذا اجتمعت في الإنسان سمي حافظًا هي الشهرة بالطلب والأخذ من أقوال الرجال والمعرفة بالجرح والتعديل والمعرفة بطبقات الرواة ومراتبهم وتمييز الصحيح من السقيم، حتى يكون ما يستحضره من ذلك أكثر مما لا يستحضره، مع استحضار الكثير من المتون فهذه الشروط من جمعها فهو حافظ، قال: وكان الحافظ ابن حجر يحفظ ما يزيد على مائتي ألف حديث، وكان الشيخ عثمان الديمي يحفظ عشرين ألف حديث، قال: وأما أنا فأحفظ مائتي ألف حديث، ولو وجدت أكثر لحفظتهُ ولعلهُ لا يوجد على ظهر الأرض الآن أكثر من ذلك. وأما الاجتهاد في الفقه فقد ألفنا فيهِ كتبًا.

ولهُ رضي الله تعالى عنهُ سبع سؤالات أوردها على علماء العصر ولم يجيبوه عليها، وهي: ما تقول علماء العصر المدعيين للعلم والفهم في هذه الأسئلة، المتعلقة بألف با تا ثا إلى آخرها، وما هذه الأسماء وما مسماها؟ وهل هي أسماء أجناس أو أسماء أعلام؟ فإن كان الأول فهل هي منقولة أو مرتجلة؟ وإن كان الأول فممّ نقلت، أمن حروف أم أفعال أم أسماء أعيان أم مصادر أم صفات، وإن كانت جنسية فهل هي من أعلام الأعيان

أو المعاني. السؤال الثاني: من وضع هذه الحروف وفي أي زمن وضعت وما مستند واضعها؟ هل هو العقل أو النقل؟ الثالث: هل هذه الحروف مختصة باللغة العربية أم عامة في جميع اللغات؟ الرابع: هل الألف والهمزة مترادفان أم مفترقان؟ وعلى الثاني فما الفرق وأيهما الأصل؟ الخامس: لمَ أجمع علماء اللغة والعدد وغيرهم من المتكلمين على المفردات على الابتداء بحرف الهمزة؟ وهل أمر اتفاقي أو لحكمة؟ السادس: كلمات أبجد هوز إلى آخرها هل هي مهملة أو مستعملة؟ وما عني بها وما أصلها وكيف نقلت إلى المراد بها وما ضبط ألفاظها؟ السابع: ما حكمها في الابتداء والوقف والمنع والصرف والتذكير والتأنيث والإعراب والبناء والنقط والرسم وعند التسمية بها؟ وما حكمها شرعًا عند نقشها على ثوب أو بساط أو حائط أو سيف؟ وهل لها من الحرمة ما للحروف المجتمعة أم لا؟ ومن أجاب عن هذه الأسئلة فهو من الرجال، وإلا فلا مزية لهُ على الأطفال، ومن عجز عن معنى ألف با تا ثا فلا ينبغي لهُ أن يقرر أبحاثًا. انتهى ما نقلتهُ من خطه رحمهُ الله تعالى. وكان الشيخ شمس الدين الكردي السمنودي يقول: عاينت الشيخ وقد كتب في يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفًا وتحريرًا، وكان مع ذلك يملي الحديث ويجيب عن المتعارض منهُ بأجوبة حسنة من غير تكلف، وكان يقول: ما أجبت قط من مسألة جوابًا إلا وأعددت جوابها بَين يدي الله عزّ وجلّ إن سئلت عنهُ، وكان إذا عارضهُ أحد في أجوبتهِ يردفها بأجوبة غيره حتى يبهر العقول، وغسل قبيل موتهِ عدة كتب لا يعلم أهل عصره لها نظيرًا، وسرق بعض المعاصرين لهُ كتابًا ونسبهُ لنفسهِ ولم يكن عند الشيخ غيره، فألف كتابًا في ذلك سماه البارق في قطع السارق، ثم قال: ولعمري إن المؤلف إنما يطلب أجرة من الله في تأليفهِ، فكيف يطلب منهُ أجر ما لم يعلمهُ؟!

وكان رضي الله تعالى عنهُ أعلم زمانهِ بعلوم الحديث وفنونهِ، حافظًا متقنًا يعرف غريب ألفاظهِ واستنباط الأحكام منهُ، وقد بيض ابن حجر لعدة أحاديث لم يعرف من خرجها ولا مرتكبها، فخرج الشيخ وبين مرتبتها من حسن وضعيف وغير ذلك، وأخبرني الشيخ سليمان الخضري الصوفي قال: أرسل شيخ الإسلام تقي الدين الأوجاقي معي عدة أحاديث بيَّض لها الحفاظ، ولم يعرفوا مرتبتها إلى الشيخ جلال الدين وقلب رواتها، فردهم الشيخ إلى مَن لهم رواية عنهُ وبين مرتبتها، فذهب شيخ الإسلام إليهِ وقبل يده وقال: والله ما كنت أظن أنك تعرف شيئًا من هذا فاجعلني في حل، فطالما تغذيت وتعشيت بلحمك ودمك، وأخبرني الشيخ سليمان أيضًا قال: رأيت بينما أنا جالس في الحيضرية على باب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنهُ، إذ رأيت جماعة عليهم بياض وعلى رؤوسهم عمامة من نور يقصدوني من ناحية الجبل، فلما قربوا مني فإذا هم

النبي ﷺ وأصحابهُ فقبلت يده، فقال النبي ﷺ امض معنا إلى الروضة، فذهبت مع النبي ﷺ إلى بيت الشيخ جلال الدين، فخرج إلى النبي ﷺ وقبل يده وسلم على أصحابهِ، ثم أدخلهُ الدار وجلس بين يديه، فصار الشيخ جلال الدين يسأل النبي ﷺ عن بعض الأحاديث، وهو يقول لهُ هات يا شيخ السنة. انتهى. وذكر الشيخ عبد القادر الشاذلي رحمهُ الله تعالى عن الشيخ، أنهُ رأى هذه الرؤيا بعينها، وقال لهُ النبي ﷺ هات يا شيخ الحديث كما سيأتي، وكان رضي الله تعالى عنهُ كثيرًا ما يجيب السائل على البديهة، ثم يقول: الذهن خوّان افتح الكتاب الفلاني وعدّ من الصفحة الفلانية كذا وكذا سطرًا تجد المسألة إن شاء الله تعالى كما قلت، فيفتح الكتاب فيجد الأمر كذلك وكان رضي الله تعالى عنهُ يقول: بنجاة أبوَي النبي ﷺ وأنهما في الجنة، ووافقهُ على ذلك من أهل عصره الشيخ عثمان الديمي، وخالفهُ الحافظ السخاوي: وصنف الشيخ جلال الدين في ذلك ست مؤلفات، وذكر فيها من وافقهُ على ذلك من الحفاظ، وكان رضي الله تعالى عنهُ يجتمع بالنبي ﷺ يقظة، وأخبرني الشيخ عبد القادر الشاذلي أنهُ رأى بخط الشيخ جلال الدين ورقة كتبها لبعض أصحابهِ، حين سألهُ أن يقضي لهُ حاجة عند السلطان الغوري: يا أخي إني أرى النبي ﷺ يقظة وأخاف أن أجالس الغوري، فيحجب عني عقوبة لي ولكن اسأل لك النبي ﷺ، قال: فقلت لهُ يا سيدي فكم رأيت النبي ﷺ يقظة؟ فقال: بضعًا وسبعين مرة. قال: وقد ألف الشيخ كتابًا في ذلك سماه تنوير الحلك في إمكان رؤية النبي والملك، وذكر فيهِ من كان يجتمع بالنبي ﷺ في اليقظة لا في المنام من الأولياء والصحابة والعلماء.

وقد أطال الإمام الشعراني قدس سره في ترجمة الإمام السيوطي رضي الله عنهُ، وذكر من مناقبهِ وكراماتهِ شيئًا كثيرًا، ثم قال: ومناقب الشيخ كثيرة مشهورة، ولو لم يكن لهُ من الكرامات إلا إقبال الناس في سائر أقطار الأرض على كتابة مؤلفاتهِ ومطالعتها، لكان في ذلك كفاية لما اشتملت عليهِ من العلوم والمعارف، فما انفرد بهِ من التأليف ولم يسبق إليهِ كتاب المعاني الدقيقة في إدراك الحقيقة، وإنموذج اللبيب في خصائص الحبيب، وكتاب تزيين الأرائك في إرسال نبينا إلى الملائك، وكتاب نشر العلمين في إحياء الأبوين، وكتبًا كثيرة تعلم من كتاب الفهرسة، مات رضي الله تعالى عنهُ في سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة إحدى عشر وتسعمائة، وكان مرضهُ سبعة أيام بورم شديد في ذراعه اليسار، يقال إنهُ خلط أو انحدار وقد استكمل من العمر إحدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يومًا، وكان لهُ مشهد عظيم ودفن بحوش قوصون خارج باب القرافة رضي الله تعالى عنهُ وقبره ظاهر وعليهِ قبة رضي الله تعالى عنهُ ورحمهُ رحمة واسعة بمنهِ وكرمهِ آمين. ومنهم الشيخ الإمام والبحر الطام كنز المعارف الربانية

وجامع الفيوضات القدسية، شيخ الإسلام وعلامة الأنام القطب العارف الرباني، مولانا الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنهُ ابن الشيخ أحمد ابن الشيخ علي ابن الشيخ أحمد ابن الشيخ علي ابن الشيخ محمد ابن الشيخ زوفا ابن الشيخ موسى أبي العمران ابن السلطان أحمد ابن السلطان سعيد ابن السلطان قاشين ابن السلطان محيا ابن السلطان زوفا ابن السلطان ريان ابن السلطان محمد، أول ملوك درنى في المغرب، ابن سيدي موسى ابن السيد الأمير، والإمام الكبير شبل أسد الله ولي الله، سيدنا محمد بن الحنفية، رزقتهُ من صلب الإمام الأعظم والبحر المطمطم[1] ليث بني غالب صنو رسول الله الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهُ وعنهم أجمعين، ولد في بلاد الريف وحفظ القرآن وهو ابن ثمان سنين، وواظب على الصلوات الخمس في أوقاتها من ذلك الوقت، قال رضي الله عنهُ في مننهِ لا أتذكر أنني أخرجت صلاة عن وقتها إلى وقتي هذا إلا نسيانًا مرة واحدة، فنسيت الظهر في طريق الحجاز حتى دخل وقت العصر، من غير نية تأخير، وكثيرًا ما كنت أصلي بالقرآن كلهُ في ركعة وأنا دون البلوغ، فالحمد لله ، ب العالمين. ولد رضي الله عنهُ سنة تسع وتسعين وثمانمائة، ودخل مصر افتتاح سنة إحدى عشر وتسعمائة وعمره إذ ذاك ثنتا عشرة سنة، فأقام في جامع سيدي أبي العباس الغمري، واشتغل بطلب العلم فحفظ كتاب المنهاج للنووي ثم ألفية ابن مالك ثم التوضيح لابن هشام، ثم جمع الجوامع ثم ألفية العراقي ثم تلخيص المفتاح ثم الشاطبية، ثم قواعد ابن هشام وغير ذلك من المختصرات، وحفظ كتاب الروض إلى باب القضاء وطالعهُ ودرسهُ للناس نحو مائة مرة، وقرأ أكثر كتب الشرع وشروحها على مشايخهِ في العلم وهم نحو خمسين شيخًا، وتبحر في جميع العلوم، وانتهت إليهِ رياسة المذهب الشافعي وتبحر في فقه المذاهب الأربع حتى صار يشار إليهِ بالبنان، وحلّ مشكلات كلمات الصوفية وذب عنهم ونصر الشريعة والطريقة، وألف كتبًا كثيرة في الشريعة غالبها ابتكره ولم يسبق إليهِ.

قال رضي الله عنهُ في مننهِ: ومما من الله تبارك وتعالى بهِ عليَّ تأليفي كتبًا كثيرة في الشريعة، وغالبها ابتكرتهُ ولم أسبق إليهِ وذلك ككتاب البحر المورود في المواثيق والعهود، وكتاب كشف الغمة عن جميع الأمة، جمعت فيهِ أدلة المذاهب الأربعة من غير عزو إلى من خرجها من الحفاظ، اكتفاء بعلم أهل كل مذهب بمن خرج دليلهم، ثم صنفت بعده كتاب المنهج المبين في بيان أدلة المجتهدين، عزوت فيهِ كل حديث إلى من رواه، فكان كالتخريج لأحاديث كتاب كشف الغمة، وكتاب البدر المنير في غريب

(١) المطمطم: الطمطم وسط البحر، قال ابن الأعرابي: طمطم إذا سبح في الطمطام.

أحاديث البشير النذير، وكتاب مشارق الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية، جمعت فيهِ أحاديث الترغيب والترهيب، وجعلتهُ على قسمين: مأمورات ومنهيات فدخل في المأمور المندوب ودخل في المنهى المكروه، وهو كتاب نفيس، وصنفت كتاب لواقح الأنوار القدسية في مختصر الفتوحات المكية، وكتاب قواعد الصوفية، وكتاب مختصر قواعد الزركشي، وكتاب منهاج الوصول إلى علم الأصول، جمعت فيهِ بين شرح الجلال المحلي لجمع الجوامع، وحاشية ابن أبي شريف وكتاب اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، وكتاب الجوهر المصون في علوم كتاب الله المكنون، وهو مشتمل على نحو ثلاثة آلاف علم منثورة على سور القرآن، وكتاب طبقات الصوفية، وهي من أبي بكر الصديق رضي الله عنهُ إلى ختام سنة ستين وتسعمائة، ذكرت فيهِ مناقب كل من كان لهُ كلام أحفظهُ في الحقيقة أو الشريعة لا غير، وذكرت فيهِ العلماء الأحياء والفقراء الأحياء الذين وقع لي بهم صحبة، ومما صنفتهُ كتاب مفحم الأكباد في بيان مواد الاجتهاد، وكتاب لوائح الخذلان على كل من لم يعمل بالقرآن، وكتاب حد الحسام على مَن أوجب العمل بالإلهام، وكتاب التتبع والفحص على حكم الإلهام إذا خالف النص، وكتاب البروق الخواطف لبصر من عمل بالهواتف، وكتاب رسالة الأنوار في آداب العبودية، وكتاب كشف الحجاب والران على وجه أسئلة الجان وهي نيف وسبعون سؤالاً في التوحيد، سألني عنها علماء الجان، وكتاب فرائد القلائد في علم العقائد، وكتاب الجواهر والدرر جمعت فيهِ ما سمعتهُ من العلوم والأسرار من سيدي علي الخواص رحمهُ الله تعالى، وكتاب الكبريت الأحمر في بيان علوم الكشف الأكبر، وكتاب الاقتباس في علم القياس، وكتاب تنبيه المغترين في القرن العاشر على ما خالفوا فيهِ سلفهم الطاهر، وغير ذلك مما سارت بهِ الركبان إلى بلاد التكرور والمغرب، فالحمد لله رب العالمين.

وأشهر من أن يذكر وأكثر من أن يحرر كرامات الإمام الشعراني ومناقبهُ وعلمهُ وفضلهُ وعلو شأنهِ ورفعة مكانهِ وما هو عليهِ من مكارم الأخلاق، الذي شهدت لهُ بها المنن وأقرّ لهُ بها كل منصف وصاحب خلق حسن، لبس الخرقة الرفاعية من يد الشيخ جلال الدين السيوطي، وسند الإمام السيوطي إلى الإمام أبي العلمين السيد أحمد الرفاعي، يتصل بخمسة وسائط، وقد اقتدى خلقًا بالإمام أبي العلمين مولانا السيد أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنهُ، وأفنى عمره في العبادة والذكر والتأليف والتصنيف والانتصار إلى الشرع الشريف، وقد ناهز السبعين وتوفي رضي الله عنهُ بمصر وقبره بها ظاهر يزار ويقصد للبركة. وكتبهُ وآثاره الشريفة تتلى بالتبجيل والتعظيم في جميع الأقطار رضي الله عنهُ وعن أشياخه وإخوانهِ أولياء الله أجمعين. ومنهم الشيخ علي أبو علوك

الشهرزوري البغدادي وينتهي نسبهُ إلى الشيخ عبد العزيز ابن القطب الغوث الصمداني مولانا الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهُ، سكن كركوك التي هي شهرزور وأقام بها حتى مات، وإجازتهُ رضي الله عنهُ تنتهي إلى السيد مهدي نقيب البصرة ابن السيد محمد الرفاعي، والسيد مهدي أخذ عن أبيهِ وهو أيضًا أخذ عن أبيهِ السيد عبد الخضر عن أبيهِ السيد شعبان الرفاعي عن أبيهِ السيد محمد الثاني عن أبيهِ السيد صالح عن أبيهِ السيد عبد الرحمٰن عن أبيهِ السيد عبد الله عن أبيهِ السيد حسن عن أبيهِ السيد حسين عن أبيهِ القطب الكبير والعارف النحرير السيد يوسف عن أبيهِ الولي الأقرب مولانا السيد رجب عن أبيهِ الولي الأمجد تاج العارفين مولانا السيد شمس الدين محمد عن جده سيد الأولياء وقائد ركب الأصفياء مولانا السيد أحمد الرفاعي الكبير رضي الله عنهُ، توفي الشيخ علي أبو علوك قدس سره في حدود الخمسين بعد المائتين والألف ودفن بمقبرة المصلى في كروك، وبنوا عليهِ قبة عظيمة ويوجد حتى الآن في العراق من أدركه ورآه، سيد مراسم الطريقة الرفاعية وأعلا منار الخرقة الأحمدية، وكادت كراماتهُ تبلغ حدّ التواتر في البلاد الشرقية، ولهُ ذرية في كروك وبغداد ونواحيها وزوايا متعددة وتلاميذ واتباع لا تحصى نفعنا الله بهِ وبأسلافهِ الطاهرين آمين. ومنهم وقد أدركناه ورأيناه مرارًا العالم العلامة والحبر الفهامة صاحب المنهج الرابح وبقية السلف الصالح، شيخ العلماء بحلب الشهباء الشيخ أحمد الترمانيني رحمهُ الله، سافر في طلب العلم من قريتهِ ترمانين من أعمال حلب وأقام بمصر في الجامع الأزهر مدة مديدة، وتلقى العلوم الشرعية عن فحول مشايخ الجامع وبرع في كل علم، وأقبل على الله معرضًا عن الأغيار وتمسك بالسنة السنية في الأخلاق والأطوار، وعاد بعد أن تبحر في العلوم الدينية إلى البلاد الحلبية، وسكن حلب الشهباء حتى مات فيها بعد التسعين والمائتين وألف، وكان قد ولي أمر التدريس في جامعها الكبير وقرأ عليهِ معظم علماء البلد، واعتقده الوالد والولد، أخذ الطريقة الرفاعية مأمورًا بالرؤيا المنامية من شيخهِ المرحوم الشيخ محمد الحلوي الحلبي، خليفة الشيخ العارف بالله السيد حسن الحريري الرفاعي الحموي جد العائلة الحريرية الموجودة بحماة الآن، وشهرة الشيخ أحمد الترمانيني في البلاد الحلبية وغيرها من النواحي العربية غنية عن التعريف رحمهُ الله رحمة واسعة.

ومنهم العالم الفاضل والنحرير الكامل صاحب المناقب المشهورة والمآثر المذكورة، الشاعر الأديب واللّسِن الأريب ناصر الفقراء وقدوة المشايخ والعلماء، الشيخ الحاج محمد وفا ابن الشيخ محمد الرفاعي الحلبي، أخذ الطريقة الرفاعية عن أبيهِ، وأبوه أخذها عن شيخ وقتهِ عين الذرية الصيادية وشيخ المشايخ الرفاعية، الأستاذ العارف بالله صاحب العلم مولانا السيد خير الله ابن السيد أبي بكر الصيادي الرفاعي، شيخ المشائخ بحلب

الشهباء وجد آل خير الله، الذين شهرتهم في البلاد الحلبية وغيرها كالشمس في رابعة النهار، أقام الشيخ محمد وفا المذكور منار الطريقة الرفاعية بعد أبيهِ وجدد مراسمها، وأخذ عنهُ الجم الغفير، وطاف البلاد وذهب إلى دار السعادة قسطنطينية، وسافر قبلها إلى بغداد ويقال إنهُ تشرف بزيارة الغوث الرفاعي رضي الله عنهُ، وكان صاحب جاه عظيم عند الحكام ومحفوظ الحرمة والشأن عند الخاص والعام، ومع كل شهرتهِ وما هو عليهِ حفظ ذمة العهد لأشياخه آل خير الله وببركتهم أعزه الله وحماه، وقد شيّد الله قدره وتمم في بلاده أمره ولم يزل رفيع المكانة مرموقًا بأبصار التعظيم حتى مات، ودفنوه بمقبرة الصالحين بحلب وقد ناهز السبعين ووفاته أيضًا في حدود السبعين بعد المائتين وألف، ولهُ ذرية معروفة بحلب، منهم: المرحوم الشيخ محمد بهاء الدين مفتي حلب، خلف أباه في المشيخة في زاويتهم، وقد أجازني في بعض الأوراد الرفاعية، تولى منصب الفتوى بحلب حتى مات، وكان على جانب عظيم من حسن الخلق وظرافة الطبع والوجاهة في البلدة، وقد أسمعني كثيرًا من شعر والده صاحب الترجمة، قلت وإن لهُ أرجوزة تشتمل على ألوف أبيات ذكر فيها الأولياء والعلماء الصالحين المدفونين بحلب، ونظم قصة المولد الشريف على نمط عجيب وطرز غريب تألفه الطباع وتلتذ بهِ الأسماع، ولهُ في الحضرة الرفاعية القصائد الكثيرة والمدائح الشهيرة، ومن مدائحهِ فيه مدحة يتداولها الناس في الأذكار بحلب وهي:

كل الأنام عيال ... عليك يا ابن الرفاعي

يا بحر كل المزايا ... ويا مجيب الدواعي

ومن أدوارها:

هذا الولي الحقيقي ... إمام كل طريق

شيخي بعهد وثيقي ... قطب الوجود الرفاعي

ومنها:

هذا الذي قد أرانا ... نور الطريق عيانا

قلنا لهُ مذ دعانا ... لبيك يا ابن الرفاعي

وغير ذلك من المنظومات والمؤلفات الكثيرة رحمهُ الله تعالى آمين. اهـ. وهنا جملة صالحة نذكر فيها من تشرف بلبس الخرقة الأحمدية من يد سيدنا القطب الغوث الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ وعنهم أجمعين، بشرط ترك ترجمتهم لشهرتها ولكوننا إذ أردنا استقصاء ذكرهم وتراجمهم يطول المطال ويضيق المجال ويلزم لذلك عدة

مجلدات، لأن مآثرهم لا تحصى ومناقبهم لا تستقصى، فمنهم كما ذكره ابن الحاج في أم البراهين: سيدنا الشيخ حيوة بن قيس الحراني رضي الله عنهُ المتصرف في قبره كما ثبت عند القوم كافة، قال ابن الحاج بايعهُ مع جماعة من الرجال على نهر دقلى ولبس خرقتهُ رضي الله عنهما. ومنهم: الشيخ المحدث الجليل عبد العظيم المنذري، والشيخ العارف بالله إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الكازروني الصديقي، صاحب شفاء الأسقام، والشيخ الحجة الولي الأشهر مجرد الأكبر، والشيخ عماد الدين الزنجي بفتح الزاي نسبة لقرية من أعمال واسط يقال لها زنج، وقد كان عماد الدين هذا من حجاب الخليفة المستضيء بأمر الله العباس قبل النفحة والانتساب للحضرة الرفاعية، ومنهم أيضًا الولي المشهور في البقاع الدمشقية الشيخ حسن القطناني الراعي، من أهل قطنه قرية من أعمال دمشق، أخذ عنهُ الخلافة ولبس منهُ الخرقة عام حجه الذي مدت لهُ فيهِ يد النبي ﷺ، كما ذكر ذلك ابن الحاج في أُم البراهين، ومنهم الشيخ عبد المحسن الواسطي ابن شيخهِ سيدنا الشيخ علي الواسطي، والشيخ تقي الدين الواسطي، والشيخ صالح بن بكران، والشيخ منصور البطائحي الصغير، والشيخ أبو أحمد جعفر بن عبد الله بن سيد بونة الخزاعي المغربي، وقد ذكر ما عليهِ من العرفان وعلو الشأن الشيخ محيي الدين العربي في فتوحاتهِ وغيرها من كتبهِ، ومنهم أيضًا الشيخ حسين بن الربيع والشيخ محبوب النقيب، والشيخ الولي الشهير سعد الله البرزباني، والشيخ مقدام الحدادي والشيخ عبد الخبير الحربوني والشيخ أبو بكر خطيب السعدية العلامة الشهير، والشيخ فرج المغني والشيخ أبو القاسم الصلحي والشيخ علي بن نعيم المشهور العارف، والشيخ محمود الحيران الرومي أمير آقشهر من بلاد الترك، ودفينها المتجرد المولع الموله رضي الله عنهُ، ومن خلفائهِ أيضًا الشيخ براق أحد أكابر التركستان، والشيخ أحمد اليسوي شيخ الختن والخطا وبلاد التركستان الملاصقة للجين الأقصى، وفد عليهِ بتلامذتهِ وجماعة من مريديهِ إلى أم عبيدة، وانتسب إليهِ ولبس خرقتهُ وأمره بالعود إلى بلاده، فعاد ونشر الله على يده أعلام الطريقة كما ذكر ذلك الشريف العدني في كتابهِ النجم الساعي، ومنهم الشيخ قنبر الحبشي رضي الله عنهُ والشيخ أبو البدر العاقولي الواسطي ثم البغدادي، الذي ذكر الشيخ محيي الدين مآثره وعرفانهُ في فتوحاتهِ مرارًا، ومنهم الشيخ محمد الأكبر الدوراقي والشيخ مسعود الأنادولي التركي، والشيخ منصور القزويني والشيخ عمر الهروي والشيخ عجلان الحسيني المكي، والشيخ تقي الدين الفقيه النهروندي وغيرهم رضي الله عنهُ وعنهم أجمعين، ونفعنا بهِ وبهم وبجميع عباده الصالحين.

وقد صح أن خلفائي وخلفاءهم بلغت عدتهم المابة والثمانين ألفًا حال حياتهِ رضي الله عنهُ، قال سيدي أبو طه البصري: وعزة الله تعالى إن لسيدي أحمد في الجن مردًا

وخلقًا كما لهُ في الإنس، وكذلك خلف قاف وفي البحر والبر لهُ مردًا من السباع والحيات والهوام والدواب والطيور والسمك والحيتان. وقال سيدي مجرد الأكبر رضي الله عنهُ كنت أمشي تحت جبل قاف فجاء وقت الصلاة فتوضأت وصليت وقرأت الورد الشريف، ثم ذكرت اسم سيدي أحمد فلما أتممت، جاءت حية عظيمة وفي فمها درة فألقتها أمامي ثم أنطقها الله، فقالت: خذ هذه الهدية مني لحضرة سيدي أحمد فتعجبت وقلت: أتعرفين سيدي أحمد؟! فقالت: عجيب هذا، أهَلْ على بساط الأرض من رطب ويابس من يجهل سيدي أحمد الرفاعي؟ بلِّغهُ سلامي فأنا من مردائهِ انتهى. والفروع الرفاعية المنسوبة للحضرة الأحمدية كثيرة جدًا، وأتباعه رضي الله عنهم لا يحصى عددهم، وقد ذكرنا منهم البعض تبركًا بذكرهم وانتشاقًا من عطرهم، وآن الآن أن نختم هذا الباب وإلى الله المرجع والمآب.

الباب العاشر

في ذكر بركة التشبث بأذيالِهِ الفاخرة وفيهِ ذكر جماعة من أخوانهِ ساداتنا الأولياء أهل السرائر الطاهرة

لا يخفى أن بركة المحبة تلحق المحب بالمحبوب وتوصل الطالب إلى المطلوب، وتجعل البعيد قريبًا وتنتج لصاحبها من كنوز العناية نصيبًا، وتقوده إلى التخلق بأخلاق من أحبهم وتلزمهُ أن يتبع شريف آثارهم وأن يكون من حزبهم وأنصارهم، وانظر ما جاء في حديث البخاري عن أنس رضي الله عنهُ، أن رجلاً يسأل النبي ﷺ عن الساعة، قال: «وماذا أعددت لها» قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله ﷺ، فقال: «أنت مع من أحببت»[1]، قال أنس: فما فرحنا بشيء فَرَحْنَا بقول النبي ﷺ: أنت مع من أحببت، قال أنس: فأنا أحب النبي ﷺ وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم .اهـ. وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليهِ الوسيلة﴾ [المائدة: ٣٥] قال في الكشاف: الوسيلة كل ما يتوسل بهِ، أي يتقرب من قرابة أو صنعية أو غير ذلك، فاستعيرت لما يتوصل بهِ إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي وأنشد للبيد:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم إلا كل ذي لب إلى الله واسل

انتهى. وقد ظهر لك من الحديث المتقدم، أن محبة الله ورسوله والصالحين من أعظم الطاعات وأقرب القربات، قال في الكشاف عند تفسير قولهِ تعالى: ﴿وهو يتولى الصالحين﴾ [الأعراف: ١٩٦] ومن عادته أن ينصر الصالحين من عبادهِ وأنبيائهِ ولا يخذلهم، قلت: وإنَّ من نصره سبحانهُ وتعالى لأنبيائهِ وعباده الصالحين ومن عدم خذله

(١) سبق تخريجه.

لهم، أن يستر مجيئهم في الدنيا من الخزي والهوان، وأن يصونهم في الآخرة ويحميهم من القطيعة والنيران، وإذا كان الأمر كذلك وهو كذلك لا شك، فهل من وسيلة إلى الله أعظم من محبة الله ورسوله والعباد الصالحين، وقد روى العارف بالله الشيخ أحمد الصاوي الخلوتي في رسالتِهِ الأسرار الرحمانية: أن الفقيه محمد بن الحسين البجلي رضي الله عنهُ قال: رأيت النبي ﷺ في المنام فقلت يا رسول الله: أي الأعمال أفضل قال: وقوفك بين يدي ولي الله، كحلب شاة أو كشيّ بيضة خير لك من أن تعبد الله حتى تتقطع إربًا إربًا، فقلت لهُ: حيًا كان أو ميتًا، فقال: حيًا كان أو ميتًا. وقد علمتَ أن مَن ذاق محبة النبي ﷺ ذاق محبة الله تعالى، إذ لا وسيلة في الدارين بين الأولين والآخرين أعظم وأقرب منهُ عليهِ الصلاة والسلام، ولا تصح الوصلة الكاملة إليهِ ﷺ إلا بمحبتِهِ الخالصة وصدق أتباعه، والاقتداء بهِ والعمل بشريعتِهِ والتخلق بأخلاقِهِ الكريمة، وقد تبين لكل منصف أن أساس طريقة الإمام الرفاعي رضي الله عنهُ الإلزام بالتخلق بالأخلاق المحمدية، وكسر شوكة النفس بالكلية والاستغراق المحض بمحبة نبينا سيد البرية عليهِ أفضل الصلاة والتحية، ومع ذلك فهو من أجل عباد الله الصالحين ومن أعظم الأولياء المقربين ومن أكابر أهل بيت رسول الله الطاهرين، وقد جرت العادة في طريقتِهِ المباركة وجربت وصحت وثبتت أن من تشبث بذيل ولايتِهِ وأخلص في محبتِهِ وطهر السريرة بالانتساب إليهِ، يربح وينجح بإذن الله ولا يفضح.

قال الشيخ أبو بكر العدني رضي الله عنهُ في كتابِهِ النجم الساعي: أن الشيخ أحمد الزاهد كنز العارفين رضي الله عنه، ذكر بعد كلمات بشر بها عن ظهور السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ ما نصه: يكون محبوه ومريدوه وأخوانهُ كلهم مرادين من جانب إرادة الحق تعالى، إذا حضر واحد منهم مجلسًا سلب قلوب أهلهِ وجلب محبتهم إليهِ بإذن الله تعالى، ثم قال: وتكون فقراؤه ومريدوه موازينهم في طريق الفقر أرجح موازين الفقراء وأهل الأحوال، ومن أجلِ هذا يسر الله لهم هذا المقام الكريم، ولا تنقطع فقراؤه ولا مريدوه إلى يوم القيامة بإذن الله تعالى، بل تزيد طريقتهُ وسلوكهُ لأجل حرمة سيد المرسلين عليهِ أفضل الصلاة والسلام، فإنهُ من أولاده رضي الله عنهم أجمعين .اهـ. وهذه من منن الله عليه ومن فيوضات إحسانِهِ الواردة إليهِ فمحبتهُ رضي الله عنهُ لنسبِهِ فيها محبة رسول الله، ومحبتهُ لولايتِهِ وأخلاقه فيها محبة الله ورسول الله، ومحبة رسول الله محبة الله بلا ريب، وما أحسن ما قلت في هذا المعنى بفضل الله:

إليك يا أشرف خلق الله ... وجهت قلبًا لم يكن باللاهي

حبيك معراج وصولي إنهُ ... حبّ حبيب الله حبّ الله

وما شاع وذاع وتقرطت بدراري رواياتهِ، الآذانَ والتّذّت الأسماع ما ثبت للحضرة الرفاعية من التصرف والإغاثة بإذن الله، لأتباعهِ ومحبيهِ إلى زماننا هذا وإلى كل زمان، جيلاً بعد جيل يراها الراؤون ويعترف بها العارفون والمحجوبون، ورحم الله الأخرس البغدادي حيث قال من قصيدة مدح بها نقيب الرفاعية بالبصرة، يشير إلى المناقب الأحمدية:

وكم رام الحسود لها جحودًا ولكن لا سبيل إلى الجحود

وقال آخر من قصيدة قدمها للعتبة الأحمدية:

لـهُ مدد قد أطفأ النار نوره وعزم بهِ ما السيف إن سلّ باتر
يذل الأفاعي حينما يذكر اسمهُ وتخضع أسد الغاب وهي كواشر
يمدُّ ويحمي الملتجي لطريقهِ سواء بها برّ ومن هو فاجر

ويعجبني قول الأديب الفاضل النبهاني فيهِ رضي الله عنهُ:

أحمد قطب رحى العليا أبو الـ ـعلمين الهاشمي غوث الزمان
روضة العرفان أصل الاهتدا فرع خير الخلق من إنس وجان
جنة من كل غرّ بعدت وجناها لأولي الألباب داني
خفقت في كل أرض راية من هداه فاستنار الخافقان
وبدت أسراره مشرقة فزهى بالنور منها المشرقان
هو باب الله بعد المصطفى بابهُ باب الأماني والأمان
من يساميه علاء وعلا ولهُ فوق الثريا علمان
في تخوم الأرض في أوج السما لم تزل أسراره في سريان
ذو كرامات سمت واشتهرت طاهرات للورى في كل آن
فيمين المصطفى مدت لهُ إذ دعاها وتجلت للعيان
حبذا يا حبذا لما بدت فاشتفت إذ قبلتها الشفتان
هو فيها واحد في دهره قل لمن ينكر هل عندك ثاني
ذاك فضل الله يؤتيهِ لمن شاء لا يثنيه جل الله ثاني
وسواها كم شؤون حازها واضحات فادحات كل شاني
حكم الله بدعوى فضلهِ وعليها شاهدان الثقلان

سَلْ وحوشَ البرِّ والبحر معًا … فهما عما حواه ينبيان
ما سمعنا قبلهُ من عارف … سره عم جميع الحيوان
ناده واهجم على ليث الشرى … تلقهُ في غابهِ كالشعبان
ناده وأقبل على الأفعى تقف … وتناولها تجدها غصن بان
والجمادات لمن يعقل قد … بينت عن سره خير بيان
بردت نار الغضا من ذكره … وغدا كالمبرد السيف اليماني

إلى أن قال:

بحر أسرار أتى من نسلهِ … ألف بحر شامل كل مكان
هم بنو الصياد من حبهم … والشقي ضدان لا يجتمعان
يا فؤادي بهم استمسك فهم … عروة العز ومقراض الهوان

إلى آخرها.

والحاصل أن بركة التمسك بذيل الإمام الرفاعي والثبات على قدمهِ وأتباعهِ، أمر يشهد لهُ نور الفتوح وعلوّ المظهرية الذي لا زال في ذريتهِ ومحبيهِ وأتباعهِ، ويكفيك ما رواه الإمام الحجة المحدث الجليل أبو الفرج عمر الفاروثي الواسطي قدس سره عن بعض أولياء عصره: أنهُ رأى النبي ﷺ في المنام، مثنيًا على السيد أحمد الكبير رضي الله عنهُ قائلاً في شأنهِ: كأن أحمد بن الرفاعي عروس المملكة، عامًا يقتدي بهِ الخلائق فيهتدون ويصلون إلى الله تعالى، سيرتهُ فناء الفناء بالله تعالى، وكان يربى بحالهِ أكثر مما يربى بمقالهِ. وذكر الإمام أحمد بن جلال في كتابهِ جلاء الصدا، عن الشيخ الأصهب الدمشقي قدس سره أنهُ قال: إن الله ختم بالسيد أحمد الرفاعي الولاية كما ختم بمحمد ﷺ النبوة. اهـ. قلت: وقد أول الشيخ ابن جلال وغيره هذه الكلمة الجوهرية والحكمة الأصهبية، بأنهُ لا يكون بعد السيد أحمد الرفاعي من الأولياء من يجمع الحال والخلق المحمدي، ويكون لهُ هذا التمكين في متابعتهِ عليهِ الصلاة والسلام مثلهُ رضي الله عنهُ، وقد شهدت لهُ بهذا الشأن أخلاقهُ العلية وسيرتهُ الزكية، ورحم الله ابن الحاج فإنهُ قال فيهِ رضي الله عنهُ:

مفاخره تأبى عن الحصر إنها … إذا مرّ منها مفخر جاء مفخر
توارثهُ أتباعه فكمالهُ … وآثاره فيهم إلى الحشر تظهر

قال الشيخ عمر الهروي الأنصاري: سألت من الإمام الكبير محمد بن عبد البصري شيخ الأستاذ أبي النجيب السهروردي رضي الله عنهما، عن مرشد يلحقني بأهل الله

ويوصلني إلى الله فقال عليك بالسيد أحمد بن أبي الحسن الرفاعي رضي الله عنهُ، فإنهُ سلم الرجال إلى الله والبركة فيهِ وفي أتباعه إلى يوم القيامة، وإنهُ لشيخ كسر نواميس النفوس ببركة انكساره إلى الله تعالى، وهو وجه لا يخزيه الله في أتباعه أبدًا، والعصر الذي يكون فيهِ السيد أحمد لا يلتجأ فيهِ إلى غيره، وأقول لك إن القوم عرفوا الوجهة التي اتجهها وما عرفوا منتهاه في السير، وفي هذه الرواية ومثلها كتب القوم طافحة والأدلة على مضمونها من أخلاقهِ العلية وآثاره المرضية واضحة، وانظر كيف قال رضي الله عنهُ الشيخ من تظهر آثاره بعده، وما ألطف ما قالهُ فيهِ شيخنا الأستاذ السيد محمد مهدي الرواس قدس سره:

أبو العلمين الغوث ذو الدولة التي ... سرى سرها العالي إلى ساعة الأخرى
ينادونهُ شرقًا وغربًا عواجز ... فتشملهم من روحهِ الهمة الكبرى
فهمتهُ الكبرى إلى الله سلم ... وتفتق رتق الكرب همتهُ الصغرى

ويعجبني ما قالهُ الأستاذ نور الدين حبيب الله الحديثي فيهِ رضي الله عنهُ:

بيتان حج العارفون إليهما ... بيت الرسول وشبله ببطاح
أعني بهِ المولى الرفاعيَّ الذي ... خلقت أناملهُ من الأرباح

وذيَّلهما الأستاذ الرواس قدس سره ببيتين أبدع فيهما وهما:

فسلوكه باب لكل موحد ... وطريقهُ للوصل كالمفتاح
هو في رجال الله سلطان الحما ... عكفت عليهِ عساكر الأرواح

وذيَّل بيتي مولانا السيد محمد مهدي قدس سره، تلميذه الشيخ العارف محمد العبدلي بهذين البيتين:

وافا حميا الغيب وهو خويضع ... وافتضّ قبل القوم كأس الراح
شموه سادات الرجال فعربدوا ... وتراه بعد الذوق أكمل صاح

وذيَّل هذين البيتين السيد الشريف العارف محمد الراوي رحمهُ الله:

فاسلك طريقتهُ وكن من حزبهِ ... وأبشر فإني أنصح النصاح
هو كالصباح الأبلج الصافي الضيا ... إن كان بعض القوم كالمصباح

وأنا ذيَّلتهما تبركًا بهؤلاء السادة فقلت:

هو كعبة العشاق فالزم ركنهُ ... وأبشر بنور القلب والأفراح

ولك الدليل بزمرة مغبوطة　　　تبعتهُ فالتحفت ببرد فلاح

وذكر الشيخ أبو بكر العدني في كتابهِ النجم الساعي عن سيدي إبراهيم الأعزب، أنهُ قال: كنت عاشر عشرة من الفقراء مع السيد الكبير في عام حججنا فيهِ، فصلّى بنا السيد الكبير الصبح بمكة يوم العيد وطفنا معهُ بالبيت ثم توجهنا إلى عرفات، فرأينا الخضر عليهِ السلام مع سبعة أنفار من الرجال فسلموا كلهم على السيد الكبير، وصار لهم مجلسًا عظيمًا بالاجتماع بالسيد الكبير، فلما تم المجلس بتمام النهار قال الخضر عليهِ السلام: يا أبا الصفا قد جاءت لك من جانب الحق خرقة وتاج فاقبلها، والبس التاج. وكان ذلك التاج من القطن الأبيض واسمهُ طاقية، والخرقة كانت من أشياء كثيرة متعددة مختلفة الألوان، فكان فيها قطعة من قطن وقطعة من صوف وقطعة من شعر، وفيها من اللون العسلي والأحمر والأزرق والكحلي والأسود، وفيها من قطع الجلد الملونة ومن قطع الحرير وفيها شيء من جلد السبع وقطعة من السندس، قد اجتمع فيها نحو من ثمانين قطعة ملونة، فسئل السيد الكبير من الخضر عليهِ السلام عن سبب اختلاف هذه الألوان وأنواع الحقائق الذي بهذه الخرقة، قال الخضر عليهِ السلام: هي إشارة إلى أن الله تعالى خلقك أعلى مقامًا من سائر المشايخ، وأن رتبة مشيختك جامعة لسائر رتبهم، وإشارة إلى أن عسكر فقراءك أكثر من فقرائهم ومريديك أكثر من مريديهم، وأنه أجيز لهم أن يلبسوا أي شيء أرادوا من الخرق على أي لون أرادوه، وهذا الشيء خاص بهم دون غيرهم. ونقل عن الشيخ الجليل والولي الأصيل الشريف السيد علي أبي الحسن الرفاعي أنهُ قال: بينما السيد الكبير جالسًا يومًا بالخلوة، وإذا بالنداء من جانب العلي والهاتف يقول: يا أبا الصفا إن الله سبحانهُ وتعالى قد أعطى لك قضاء ثلاث دعوات، فاسأل ما تريد، فإنك عنده من المقبولين فعند ذلك توجه السيد الكبير متأدبًا للتضرع، وقال: يا رب أسألك أن ترحم وتغفر لكل مريد لي، وأسألك يا رب أن ترحم كل من واسى أولادي، وأسألك يا رب أن ترحم كل من كان محبًا مودًا إليَّ ولأهل بيتي، فعند ذلك سمع نداء أحاطهُ يسمع صوتًا ولا يرى شخصًا، والقائل يقول: يا رفاعي قد استجبنا لك بمقتضى قولنا ادعوني أستجب لكم .اهـ.

وقد جرب جماعة كثيرة في مهماتهم التوسل بجاههِ إلى الله، بعد التوجه إلى الشرق جهة مرقده المبارك ففرج الله تعالى كربهم. وذكر مولانا الشيخ سراج الدين قدس سره في بهجتهِ: أن مَن أهمهُ أمر فليتوضأ ويصلي لله تعالى ركعتين بالافتقار والإخلاص، ثم يصلي على النبي ﷺ مائة مرة، ثم يتوجه إلى جهة الشرق نحو البصرة وفلاة أم عبيدة محل مرقد الغوث الرفاعي قدس سره، ويخطي ثلاث خطوات ويقول: اللهم إني أتوسل

إليك بكلامك القديم وبرسولك العظيم وبوليك وعبدك السيد أحمد بن أبي الحسن الرفاعي وبحرمة ولايتهِ عندك، فإنك اصطفيتهُ إليك ودللتهُ عليك وقربتهُ منك وأصلحت لهُ شأنه، فأغثني بحرمتهِ وبحرمة وجههِ وجاههِ عندك وبحرمة جده نبيك وحبيبك ورسولك نبي الرحمة ﷺ، إنك على كل شيء قدير، ثم يقرأ الفاتحة ويهديها إلى روح الإمام الرفاعي رضي الله عنهُ، ويذكر حاجتهُ ويقول بعدها:

أيظلمني الزمان وأنت فيهِ … وتأكلني الذئاب وأنت ليث

ويروى من بنانك كل ظامي … وأظمأ في حماك وأنت غيث

يا سيدي يا أحمد الأصفيا يا سيد الأولياء يا أبا العلمين يا زكي النسبين رضي الله عنك، أغثني ببركة ولايتك فإنهُ لا ينقطع حبل ولاية الله ولا تبديل لكلمات الله، ثم يلتفت إلى القبلة أيضًا ويصلي على النبي ﷺ مرارًا ويختم بالفاتحة للحبيب الأعظم عليهِ الصلاة والسلام، فإنها تقضى حاجتهُ بإذن الله. وقد شوهد هذا الشأن من آباء سيدنا السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ، فإن الناس قديمًا وحديثًا يتوسلون عند زيارة قبورهم بهم إلى الله، فيفرج الله كروبهم ببركتهم ويقضي لهم حوائجهم، وهكذا والله عادة الله في أوليائهِ وأحبابهِ. ذكر الإمام العلامة والمحدث الكبير الفهامة الحافظ الشيخ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت، المعروف بالخطيب البغدادي رحمهُ الله في كتابهِ تاريخ بغداد، عند ذكر مقابر بغداد ما نصهُ: ذكر مقابر بغداد المخصوصة بالعلماء والزهاد بالجانب الغربي في أعلا المدينة مقابر قريش دفن بها موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهِ السلام وجماعة من الأفاضل معهُ اهـ.

أخبرنا القاضي أبو محمد الحسن بن الحسين بن محمد بن رامين الأسترأبادي قال: أخبره أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي قال: سمعت الحسن بن إبراهيم أبا علي الخلال يقول: ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسلت به إلا سهَّل الله سبحانهُ لي ما أحب، قلت وهنا طاب لي أن أقول بهذا الباب:

توسلنا بسيدنا الرفاعي … فشمنا ثورة الأسد الغضنفر

وحلَّ لنا الإلـه بهِ قيودًا … وأعقب عسرنا الأمر الميسّر

عجبنا من تصرفهِ فقالوا … أناس إن شأن ذويهِ أكبر

تراثًا عن أب غوث وجد … لحضرة جده موسى بن جعفر

لزين العابدين إلى الحسين الـ … ـشهيد لأمهِ الزهرا وحيدر

إلى المختار تاج الرسل فانظر … مكارم عصبة للحشر تظهر

انتهى. ولنرجع إلى ما قالهُ الخطيب البغدادي في تاريخهِ، قال: أخبرنا محمد بن علي الوراق وأحمد بن علي المحتسب، قالا: أخبرنا محمد بن جعفر أخبرنا السكوني أخبرنا محمد بن خلف قال: وكان أول من دفن في مقابر قريش جعفر الأكبر ابن المنصور، وأول من دفن في مقابر باب الشام عبد الله بن علي سنة سبع وأربعين ومائة، وهو ابن اثنتين وخمسين سنة، ومقبرة باب الشام أقدم مقابر بغداد، ودفن بها جماعة من العلماء المحدثين والفقهاء .اهـ. وكذلك بمقبرة باب التبن وهي على الخندق بإزاء قطيعة أم جعفر .اهـ. حدّثني أبو يعلى محمد بن الحسين بن محمد بن الفرا الحنبلي، قال: حدّثني أبو طاهر بن أبي بكر قال: حكى لي والدي عن رجل كان يختلف إلى أبي بكر بن مالك أنهُ قيل لهُ: أين تحب أن تدفن إذا مت؟ فقال بالقطيعة وإن عبد الله بن أحمد بن حنبل مدفون بالقطيعة، وقيل لهُ ـ يعني لعبد الله ـ في ذلك، قال: وأظنهُ كان أوصى بأن يدفن هناك، فقال: قد صح عندي أن بالقطيعة نبيًا مدفونًا، ولأن أكون في جوار نبي أحب إليّ من أن أكون في جوار أبي .اهـ. ومقبرة باب حرب خارج المدينة وراء الخندق مما يلي طريق قطر، بل معروفة بأهل الصلاح والخير وفيها قبر أحمد بن محمد بن حنبل وبشر بن الحرث، وينسب باب حرب إلى حرب بن عبد الله أحد صحابة أبي جعفر المنصور، وإليهِ أيضًا تنسب المحلة المعروفة بالحربية .اهـ. أخبرنا أبو عبد الرحمٰن إسماعيل بن أحمد الحيري الضرير، قال: أخبرنا أبو عبد الرحمٰن محمد بن الحسين السلمي بنيسابور، قال: سمعت أبا بكر الرازي يقول: سمعت عبد الله بن موسى الطلحي يقول: سمعت أحمد بن العباس يقول: خرجت من بغداد فاستقبلني رجل عليهِ أثر العبادة، فقال لي: من أين خرجت قلت من بغداد، هربت منها لما رأيت فيها الفساد خفت أن يخسف بأهلها. فقال: ارجع ولا تخف فإن فيها قبور أربعةٍ من أولياء الله عزّ وجلّ، هم حصن لهم من جميع البلايا، قلت: من هم؟ قال: ثم الإمام أحمد بن حنبل ومعروف الكرخي وبشر الحافي ومنصور بن عمار، فرجعت وزرت القبور ولم أخرج تلك السنة. قال الخطيب أما قبر معروف فهو في مقبرة الدير، وأما الثلاثة الآخرون فقبورهم بباب حرب .اهـ. حدّثني الحسن بن أبي طالب قال: أخبرنا يوسف بن عمر القواس، أخبرنا أبو مقاتل محمد بن شجاع أخبرنا أبو بكر بن أبي الدنيا قال: حدّثني أبو يوسف بن حبان، وكان من خيار المسلمين: قال لما مات أحمد بن حنبل رأى رجل في منامهِ كأن على قبره قنديلاً، فقال: ما هذا؟ فقيل لهُ: أما علمت أنهُ نور لأهل القبور، قبورهم بنزول هذا الرجل بين أظهرهم قد كان فيهم مَن يعذب فرحم. انتهى.

أخبرنا أبو الفرج الحسين بن علي بن عبيد الله الطناجيري، أخبرنا محمد بن علي بن سويد المؤدب، أخبرنا عثمان بن إسماعيل بن بكر السكري قال: سمعت أبي يقول: سمعت أحمد بن الدورقي يقول: مات جار لي فرأيتهُ في الليل وعليه حلتين قد كسي فقلت: أيش قصتك ما هذا؟ قال: دفن في مقبرتنا بشر بن الحرث فكسى أهل المقبرة حلتين حلتين. وبنواحي الكرخ منها مقابر عدة، منها مقابر باب الكناس مما يلي تراثًا، دفن فيها جماعة من كبراء أصحاب الحديث .اهـ. ومقبرة الشونيزي فيها قبر سري السقطي وغيره من الزهاد، وهي وراء المحلة المعروفة بالتوثه بالقرب من نهر عيسى بن علي الهاشمي، سمعت بعض شيوخنا يقول: مقابر قريش كانت قديمًا تعرف بمقبرة الشونيزي الصغير، والمقبرة التي وراء التوثه تعرف بمقبرة الشونيزي الكبير، وكانا أخوين يقال لكل واحد منهما الشونيزي، فدفن كل واحد منهما في إحدى هاتين المقبرتين ونسبت المقبرة إليهِ .اهـ. ومقبرة باب الدير وهي التي فيها قبر معروف الكرخي .اهـ. أخبرنا إسماعيل بن أحمد الحيري، قال: أخبرنا محمد بن الحسين السلمي، قال: سمعت أبا الحسن بن مقسم يقول: سمعت أبا علي الصغار يقول: سمعت إبراهيم الحربي يقول: قبر معروف الترياق المجرب .اهـ. أخبرنا أبو إسحٰق إبراهيم بن عمر البرمكي، قال: حدثنا أبو الفضل عبيد الله بن عبد الرحمٰن بن محمد الزهري، قال: سمعت أبي يقول: قبر معروف الكرخي مجرب لقضاء الحوائج، ويقال إنهُ مَن قرأ عنده مائة مرة قل هو الله أحد وسأل الله تعالى ما يريد، قضى الله تعالى حاجتهُ .اهـ. حدثني أبو عبد الله محمد بن علي بن عبد الله الصوري، قال: سمعت أبا الحسن محمد بن أحمد بن جميع يقول: سمعت أبا عبد الله بن المحاملي يقول: أعرف قبر معروف الكرخي منذ سبعين سنة، ما قصده مهموم إلا فرج الله همهُ .اهـ. وبالجانب الشرقي مقبرة الخيزران فيها قبر محمد بن إسحٰق بن سار صاحب السيرة، وقبر أبي حنيفة النعمان بن ثابت الفقيه إمام أصحاب الرأي .اهـ. أخبرنا القاضي أبو عبد الله الحسين بن علي بن محمد الضميري، قال: أخبرنا عمر بن إبراهيم المقرىء، قال: حدثنا مكرم بن أحمد، قال: حدثنا عمر بن إسحٰق بن إبراهيم، حدثنا علي بن ميمون، قال: سمعت الشافعي يقول إني لأتبرك بأبي حنيفة وأجي إلى قبره في كل يوم يعني زائرًا، فإذا عرضت لي حاجة صليت ركعتين وجئت إلى قبره وسألت الله تعالى الحاجة عندها، فما يبعد عني حتى تقضى .اهـ. ومقبرة عبد الله بن مالك، دفن بها خلق كثير من الفقهاء والمحدثين والزهاد والصالحين وتعرف بالمالكية .اهـ.

ومقبرة باب النردان فيها أيضًا جماعة من أهل الفضل .اهـ. وعند المصلى المرسوم كان بصلاة العيد قبر يعرف بقبر النذور، ويقال إنهُ المدفون فيهِ رجل من ولد علي بن أبي

طالب رضي الله عنهُ يتبرك الناس بزيارتهِ، ويقصده ذو الحاجة منهم لقضاء حاجتهِ .اهـ.
حدَّثني القاضي أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي، قال: حدَّثني أبي قال: كنت جالسًا بحضرة عضد الدولة ونحن مخيمون بالقرب من مصلى الأعياد، في الجانب الشرقي من مدينة السلام نريد الخروج معهُ إلى همدان، في أول يوم نزل المعسكر فوقع طرفهُ على البناء الذي على قبر النذور، فقال: لما هذا البنا؟ فقلت: هذا مشهد النذور، ولم أقل قبر لعلمي بطيرتهِ من دون هذا، فاستحسن اللفظة وقال: قد علمت أنهُ قبر النذور وإنما أردت شرح أمره، فقلت: هذا يقال إنهُ قبر عبيد الله بن محمد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ويقال إنهُ قبر عبيد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب، وإن بعض الخلفاء أراد قتلهُ خفيًا، فجعلت لهُ هناك رثبة وستر عليها، وهو لا يعلم فوقع فيها وهيل عليه التراب حيًا، وإنما شهر بقبر النذور، ولأنهُ ما يكاد ينذر لهُ نذر إلا صح ويبلغ الناذر ما يريد ولزمهُ الوفاء بالنذر، وأنا أحد من نذر لهُ مرارًا لا أحصيها كثرة، نذورًا على أمور متعذرة فبلغتها ولزمني النذر فوفيت بهِ، فلم يتقبل هذا القول وتكلم بما دل أن هذا إنما يقع منهُ اليسير اتفاقًا، فيتسوف العوام بإضعافهِ ويسيرون الأحاديث الباطلة فيهِ فأمسكت، فلما كان بعد أيام يسيرة ونحن معسكرون في موضعنا استدعاني في غدوة يوم، وقال: اركب معي إلى مشهد النذور فركبت وركب في نفر من حاشيتهِ، إلي أن جئت بهِ إلى الموضع، فدخلهُ وزار القبر وصلى عنده ركعتين سجد بعدهما سجدة أطال فيها المناجاة بما لم يسمعهُ أحد، ثم ركبنا معهُ إلى خِيَمِهِ وأقمنا أيامًا، ثم رحل ورحلنا معهُ يريد همدان وبلغناها، وأقمنا فيها معهُ شهورًا، فلما كان بعد ذلك استدعاني وقال لي: ألست تذكر ما حدَّثتني بهِ في أمر مشهد النذور ببغداد؟ فقلت: بلى، فقال: إني خاطبتك في معناه بدون ما كان في نفسي اعتمادًا لإحسان عشرتك، والذي كان في نفسي في الحقيقة أن جميع ما يقال فيهِ كذب، فلما كان بعد ذلك بمديدة طرقني أمر خشيت أن يقع ويتم، أعملت فكري في الاحتيال لزوالهِ ولو بجميع ما في بيوت أموالي وسائر عساكري، فلم أجد لذلك مذهبًا فذكرت ما أخبرتني بهِ في النذر لقبر النذور، فقلت: لمَ لا أجرب ذلك فنذرت إن كفاني الله تعالى ذلك الأمر أن أحمل إلى صندوق هذا المشهد عشرة آلاف درهم صحاحًا، فلما كان اليوم جاءتني الأخبار بكفايتي ذلك الأمر، فتقدمت إلى أبي القاسم عبد العزيز بن يوسف ـ يعني كاتبهُ ـ أن يكتب إلى أبي الريان وكان خليفتهُ ببغداد، يحملها إلى المشهد ثم التفت إلى عبد العزيز وكان حاضرًا، فقال لهُ عبد العزيز: قد كتبت بذلك ونفذ الكتاب .اهـ.

هذا ما قالهُ الخطيب البغدادي رحمهُ الله في هذا الباب، ومنهُ يعلم لديك أن السلف الصالح رضي الله عنهم، صح عندهم التوسل بأهل بيت رسول الله وأولياء الله واتخذوا

زيارة مقابرهم والتوجه إليهم والتوسل إلى الله بجاههم، ذريعة لقضاء حوائجهم وبلوغ آرابهم، ونعم الوسيلة فإنهم أهل الحبل الموصول والجاه المقبول، وقد جرَّب الناس بالمشرق والمغرب وسائر الديار زيارة مقابر أهل البيت الأخيار، فوجدوها بابًا لدفع الأكدار وسلمًا لبلوغ الأوطار ولله در القائل:

جئت بطيبة والغرى وكربلا ... والطوس والزورا وسامراء

ما زرتهم في حاجة إلا انقضت ... وتبدل الضراء بالسراء

وقد سبق لك أن السيد أحمد الكبير رضي الله عنهُ بعد الأئمة الاثني عشر رضي الله عنهم، من أجل أعلام بيت رسول الله ﷺ، ويليق أن يقال فيهِ ورث براهين معاليهم وصار الإمام الثالث عشر فيهم، كيف لا وقد انطبعت بهِ المروءة والفتوَّة، وقام هيكلهُ المبارك بأخلاق النبوة، وانظر ما قالهُ الإمام الشيخ حسن البيرقي المندلاوي قدس سره، فإنهُ قال: طالعنا سير كبار الأمة طبقة بعد طبقة فما رأينا في طبقة الأصحاب أكرم خلقًا من سيدنا الإمام أبي بكر الصديق رضي الله عنهُ، وما رأينا في طبقة الأئمة أكرم خلقًا من الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمهُ الله، وما رأينا في طبقة الأولياء وأشياخ الخرقة أكرم خلقًا من السيد أحمد الكبير الرفاعي قدس الله سره العزيز، قلت: ويحسن هنا قول الشيخ العلامة الحجة صدر الدين السبكي رحمهُ الله في الحضرة الرفاعية:

يا ابن الرفاعي يا من شمس دولتهِ ... لها بكل فجاج الكون عنوان

لو كنت في زمن المختار شافعنا ... لجاء في خلقك الممدوح قرآن

فمن كانت أخلاقهُ محمدية وأعراقهُ نبوية وهمتهُ علوية وشيمهُ فاطمية، ولهُ الجاه المقبول عند الله والرسول، فكيف لا يلزم على كل مخلص ذي عقل سليم أن يندرج في سلك أتباعه وأن يكون من حزبهِ وأشياعه، وهذه أحواله المباركة وأطواره وبراهينهُ الظاهرة وآثاره تتقلب مع الأيام تقلب الشمس الطالعة البهية، وتتلمع في حنادس[1] الليالي تلمع الأقمار المضية، ويؤيد ذلك ما ذكره الشيخ أبو بكر العدني قدس سره في كتابهِ النجم الساعي، ناقلاً عن سيدي أحمد الزاهد كنز العارفين أنهُ قال: من كرم العزيز سبحانهُ على السيد أحمد الكبير الرفاعي رضي الله عنهُ أن كراماتهُ كل يوم وكل عصر في ازدياد بإذن الله تعالى، وإن كرامات الأولياء كان الأولياء يتصرفون بها في حال حياتهم خاصة فإذا ماتوا انفصلت عنهم، إلاَّ السيد أحمد الكبير فإن كراماته معهُ

(١) حنادس: جمع الحندس وهي الظلمة.

حيًا ميتًا لا تنفصل عنهُ .اهـ. قلت: ويفهم من قول سيدنا أحمد الزاهد، انفصال تصرف أكثر الأولياء بعد مماتهم، ولكن جاههم لا يرد وبركة التوسل بهم محققة لا تجحد نفعنا الله بهم أجمعين. ونقل العدني عن الشيخ أبي بكر الهوازني: أنهُ سأل من الشيخ الزاهد كنز العارفين، عن أجلِّ المرشدين فقال خمسة: أولهم سيدي أحمد الرفاعي وثانيهم أبو عاصم معروف الكرخي وثالثهم أبو القاسم الجنيد البغدادي ورابعهم أبو يزيد البسطامي وخامسهم الغوث أحمد بن خلف البلخي، ثم قال إن الله سخر للسيد أحمد الكبير الرفاعي الأرض، فإنه يقدر بإذن الله أن يقطع مسافة مائة عام منها بخطوة أو بطرفة عين، وهو يعرف سائر لسان الطيور مثل سليمان بن داود عليهما السلام، وإذا وضع رجلهُ على الأرض وفي الأرض دفين، يناديه الدفين من تحت رجليهِ ويعلمهُ بحالهِ، ويقول لهُ: يا وليّ الله أخرجني واصرفني في مصالح الفقراء، فكان يضرب الأرض برجلهُ ويقول الدنيا ملعون ما فيها، وإن الله تعالى سخر لهُ جميع الأضداد من الوحوش والطيور والحشرات، وسخر لهُ الجن والعفاريت والمردة وعلمهُ الله جميع لغاتهم، وأن الله وهبهُ وأعطاه من الكرامات بقدر كرامة كل ولي، وهو أفاض ذلك بإذن الله لمريديهِ وخلفائهِ ولذلك ترى الكرامات فيهم وتظهر أخلاق القوم عليهم ولا تنقطع منهم، ثم قال الشيخ الزاهد للشيخ أبي بكر الهوازني يا أبا بكر تعلق بأذيالهِ وكن من أهل مجلسهِ ولا تفارق محياه وتشفع بهِ إلى الله تعالى، فإن الله لا يرد شفاعتك بهِ لأنهُ من أكرم أهل البيت على الله تعالى عز وجل .اهـ. وقد شاهد أكابر الرجال وفحول الأبطال بركة التمسك بأذيالهِ وذاقوا لذة الاغتراف من بحر كمالهِ، وعلموا أن طريقهُ طريق النجاح والأمان وأن محبتهُ من أعظم الأسباب المقربة إلى الرحمٰن، ولذلك ألزموا أنفسهم وأهليهم ومحبيهم الأخذ بعهده ووثيقتهِ والتمسك ببيعته وطريقتهِ، وانظر ما قالهُ الأستاذ السيد سراج الدين البغدادي في أبياتهِ هذه:

إذا ذكر الغوث الرفاعي رأيتنا ... سكارى بكأس خمره من فم العرش
إمام رجال الله في سدة الورى ... وسلطانهم في الغيب والعرش والفرش
هو السطر إن خطت على اللوح نقطة ... لجملة أهل الله في مبدء النقش
ومعتقدي إن قام داع باسمهِ ... ونادى أليه وإن كنت في النعش
فيا منشدي زدني هيامًا بذكرهِ ... وكرره كي يخلو بتكراره عيشي
وكن من طريق ابن الرفاعي فإنهُ ... طريق رفيع الباب خال من الغش
هزبر إذا ما كبش قوم طغى بهم ... بضربتهِ يستدخل الرأس في الكرشِ

ولا يغيب عنك يا أخي أن ساداتنا أهل الله رضي الله عنهم، كلهم وسائل إلى الله وأدلاء على الله والخير لمن اتبعهم محقق مجزوم، والفضل والفيض الإلٰهي في طريق متابعتهم حصولهُ معلوم، وستأتيك نبذة صالحة نختم فيها هذا الباب ونجعلها تبركًا حسن الخاتمة لهذا الكتاب، نذكر فيها مآثر بعض الأولياء الكرام وأشياخ الطريق الأعلام، الذين أرشد الله بهم المسلمين وجعلهم المجددين لأمر هذا الدين، فَسُقْ نفسك أن تظفر بسهم من بركة إرشادهم واطبع بلوح قلبك كلمة حبهم ووِدادهم، ولا تنس منهم أهل الخفاء والاستتار والتباعد عن الظهور والاشتهار، فإنهم طائفة تجردوا عن الأكوان بالكلية وأقبلوا على الله بخلوص النية، وقد أحسن من قال فيهم:

لله تحت بساط الغيب طائفة ... أخفاهم عن عيون الناس إجلالا
هم السلاطين في أطمار[1] مسكنة ... جرّوا على فلك الخضراء أذيالا

ولا يصدّنّك عن أصحاب المظاهر منهم أمر ظهورهم، وما هم عليهِ من التحلي بحلية أهل الدنيا فإنَّ الشرط بحفظ القلب وعدم الغفلة عن الرب، وإنَّ القلوب محل نظر خالق البريات وبارىء المسموكات، وكذلك يقول سيد السادات «إنما الأعمال بالنيات»[2] ويحسن أن نذكر هذا البيت وهو لنا:

ما على هيئة القوالب عيب ... إن تكن هيئة القلوب صحيحه

واعمل يا أخي بحرمة أهل الوقت، فإنَّ من حرم حرمة أهل الوقت وقتهُ كلهُ مقت، لأنهم خلف هؤلاء السلف، وأما المتقدمون رضي الله عنهم فإنهم حلق السلسلة الموصلة إلى الحضرة المحمدية المبجلة، ولهم بسبب قربهم منهُ عليهِ الصلاة والسلام على أخلافهم زيادة التبجيل والاحترام، ولهذا أردنا أن نزين خاتمة الكتاب بذكرهم وأن نعطر صحائفهُ بعطرهم، وأن نوضح لك أنهم أئمة الهدى وأن الفلاح رفيق من بهم اقتدى، وأنَّ شيخهم في الخرقة والطريقة وأستاذهم في البيعة والوثيقة سيد التابعين ومقتدى أكابر أهل الله العارفين المرشد الأكمل، شيخ الكل في الكل رئيس الطوائف وإمام كل عارف، خليفة ابن عمر النبي القرشي ووارث مضمر العلم العلوي، إمام العلماء والصوفية: سيدنا أبو سعيد الحسن البصري رضي الله عنهُ، لبس الخرقة من الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجههُ ورضي الله عنهُ، كما صحح ذلك الحافظ جلال الدين السيوطي رحمهُ الله، كان والده من أهل نيسان فسبى فهو مولى للأنصار، قال سفيان الثوري رضي الله عنهُ: الحسن البصري أجلّ أصحاب علي بن أبي طالب عليهِ السلام، وكان يصلي خلف عليّ، وكان

---

(١) أطمار جمع طمر وهو الثوب البالي.
(٢) سبق تخريجه.

ليلة قتلهِ كرّم الله وجههُ يصلي خلفهُ وهو أحد أعيان الفقهاء بعد العبادلة رضي الله عنهم، وكان يغلظ على الظالمين النصح ولا يخاف في الله لومة لائِم، ولما مرض الحجاج مرض موته وسلط الله تعالى عليهِ الزمهرير، فكانت الكوانين تجعل حولهُ مملوءة نارًا وتدنى منهُ حتى تحرق جلده وهو لا يحس بها، فشكى ما يجده إلى الحسن البصري، فقال لهُ: قد نهيتك أن تتعرض للصالحين. ثم لما مات الحجاج سجد الحسن شكرًا لله تعالى، وقال: اللهمّ كما أمتهُ فأمت عنا سنتهُ، ولما قتل الحجاج سعيدًا بن جبير المخزومي رضي الله عنهُ، قال الحسن البصري رضي الله عنهُ: اللهم أنت على فاسق ثقيف والله لو أن من بين المشرق والمغرب اشتركوا في قتلهِ لكبهم الله تعالى في النار، فما كان بعد قليل إلا ودمر الله الحجاج وأنفذ فيهِ سهم دعاء الإمام الحسن البصري رضي الله تعالى عنهُ. قال الزهري رحمهُ الله العلماءُ أربعة: ابن المسيب بالمدينة والحسن البصري بالبصرة والشعبي بالكوفةِ ومكحول بالشام رضي الله عنهم. ولد الإمام الحسن البصري لسنتين بقيتا من خلافة عمر رضي الله عنهُ، وتوفي سنة عشر ومائة، قال أهل الطبقات فيه: كان إمامًا قدوة صالحًا زاهدًا فاضلاً جامعًا عالمًا رفيعًا فقيهًا حجة مأمونًا عابدًا ناسكًا جميلاً وسيمًا، وكان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع من كل فن من علم وزهد وورع وعبادة، أبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنهُ، وأمهُ مولاة أُم سلمة زوج النبي ﷺ رضي الله عنها، وربما غابت أمهُ في حاجة فيبكي فتعطيه أُم سلمة رضي الله عنها ثديها تعللهُ بهِ، إلى أن تجيء أمهُ فيدر ثديها عليهِ، فيرون أن تلك الحكم والفصاحة من بركة ذلك. ذكر الإمام الشعراني في طبقاتهِ الوسطى أن حسن البصري رضي الله عنهُ صلى الغداة بوضوء العتمة أربعين سنة، وكان أكثر مشيهِ حافيًا وكان لهُ هيبة عظيمة، وكان يقول: والله لو كنت ممن أعان على قتل الحسين أو رضي بهِ وعرضت علي الجنة ما دخلتها، حياء من رسول الله ﷺ وخوفًا أن ينظر لي نظرة غضب، وقال: كان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لا يخاف في الله لومة لائم.

وذكر اليافعي رحمهُ لله في تاريخهِ: أن عمر بن هبيرة الفزاري ولي العراق في أيام يزيد بن عبد الملك، وأضيفت إليهِ خراسان فاستدعى الحسن البصري ومحمد بن سيرين والشعبي، وذلك في سنة ثلاث ومائة، فقال لهم: إن يزيد خليفة الله تعالى استخلفهُ على عباده وأخذ عليهم الميثاق بطاعتهِ وأخذ عهودنا بالسمع والطاعة، وقد ولاني ما ترون فيكتب إليّ بالأمر من أموره فأقلده ما تقلده من ذلك الأمر، فقال ابن سيرين والشعبي قولاً فيهِ بقية، فقال ابن هبيرة: ما تقول يا حسن؟ فقال: يا ابن هبيرة خف الله تعالى في يزيد ولا تخف يزيد في الله عز وجل، فإن الله تبارك وتعالى يمنعك من يزيد ولا يمنع

يزيد من الله جل وعلا، ويوشك أن يبعث إليك ملكًا فيزيلك عن سريرك ويخرجك من سعة قصر إلى ضيق قبر، ثم لا ينجيك إلا عملك، يا ابن هبيرة إياك أن تعصى الله تعالى فإنما جعل الله عز وجل هذا السلطان ناصرًا لدين الله عز وجل وعباده، فلا تتركن دين الله تعالى وعباده بهذا السلطان، فإنهُ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فأجازهم ابن هبيرة وأضعف جائزة الحسن، فقال الحسن: سفسفنا لهُ فسفسف لنا، والسفساف الرديء من العطية، وروي أنهُ كتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن رضي الله عنهما يقول لهُ: إني قد ابتليت بهذا الأمر فانظر لي أعوانًا يعينوني عليهِ، فكتب إليه الحسن كتابًا يقول في أثنائهِ: أما أبناء الدنيا فلا تريدهم، وأما أبناء الآخرة فلا يريدونك، فاستغن بالله والسلام.

ورأى الحسن يومًا رجلاً وسيمًا حسن الهيئة عليهِ، فسأل عنهُ فقيل لهُ إن يتمسخر للملوك ويحبونهُ، فقال لله أبوه أو قال لله دره، ما رأيت أحدًا يطلب الدنيا بما يشبهها إلا هذا، قلت: يعني أن الدنيا رذيلة فأخذها بالرذائل أنسب من أخذها بالفضائل. وكان أكثر كلامهِ حكمًا وبلاغة، ولما حضرتهُ الوفاة أغمي عليهِ قبل موتهِ ثم أفاق، فقال: لقد نبهتموني من جنات وعيون ومقام كريم، وقال رجل قبل موتهِ لابن سيرين رأيت كأن طائرًا أخذ حصاة بالمسجد، فقال: إن صدقت رؤياك مات الحسن، فلم يكن إلا قليلاً حتى مات الحسن فتبع الناس جنازتهُ فلم تقم صلاة العصر بالمسجد، وما علم أنها تركت فيهِ مذ كان الإسلام إلا يومئذ، لأنهم تبعوا الجنازة حتى لم يبق مَن يصلي في المسجد. قلت ولهُ رضي الله عنهُ مع الحجاج وقعات عظيمة واجهه فيها بكلام صادع، وسلمهُ الله تعالى من شره. ومما روي من تفخيم الحجاج لهُ أنهُ جاء ذات يوم راكبًا على برذون أصفر فأم الجامع، فلما دخلهُ رأى فيهِ حلقات متعددة فقصد حلقة الحسن، فلم يقم لهُ بل وسع لهُ في المجلس فجلس إلى جنبهِ، قال الراوي فقلنا اليوم ننظر الحسن، هل يتغير عن عادتهِ في كلامهِ وهيئتهِ؟ فلم يغير شيئًا من ذلك، بل أخذ على نسق عادتهِ من غير زيادة ولا نقص، فلما كان في آخر المجلس قال الحجاج صدق الشيخ عليكم بهذه المجالس، فقد قال رسول الله ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنةِ فارتعوا»[١] ولولا ما ابتلينا بهِ من هذا الأمر لم يغلبونا عليها، أو قال لم يسبقونا إليها، ثم أفتر عن لفظ أعجب بهِ الحاضرون، ثم نهض فمشى طريقه. انتهى. وقد أطبق القوم على أن إمام طريق التصوف من التابعين الحسن البصري رضي الله عنهُ، وقد انتهت إليهِ أسانيد الصوفية على الغالب، قال محمد بن الحسن: كان الحسن البصري قدوة وإمامًا في الشريعة والطريقة والسنة،

---

(١) سبق تخريجه.

وقال غيره من القوم اجتمعت سيرة الهداية في الحسن البصري، فمن أحب اتباع سنة رسول الله ﷺ والعمل بما كان عليهِ أصحابه رضي الله عنهم، فليقتدي بهِ فإنهُ نعم القدوة، وكان يقول: أكرم أخوانك هو الذي يدوم لك وده، وليس بأخيك من احتجت إلى مداراتهِ. وكان إذا جلس بين الناس يجلس ذليلاً كالأسير، وإذا تكلم يتكلم كلام رجل قد أمر بهِ إلى النار. وكان يقول من لبس الصوف تواضعًا لله زاده نورًا في بصره وقلبهِ، ومن لبسهُ إظهارًا للزهد في الدنيا والتكبر بهِ على الإخوان في نفسهِ كوّر في جهنم مع الشياطين. وكان يقول: ما كل الناس يصلح للبس الصوف لأنهُ يطلب صفاء ومراقبة لله عز وجل، وقيل لهُ مرة ما سبب لباسك الصوف فسكت، فقيل لهُ: ألا تجيب فقال: إن قلت زهدًا في الدنيا زكيت نفسي وإن قلت فقرًا وضيقًا شكوت ربي. والله تعالى أعلم:

ولو أردنا تتبع آثاره لضاق الوقت وفي هذا كفاية رضي الله عنهُ.

[ذكر مَن كان من أكابر القوم الأعيان وأشياخ الطريق أهل العرفان، مولانا الإمام الكبير والزاهد العارف الشهير خليفة الحسن البصري الإمام أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي رضي الله عنه]

ومن أكابر القوم الأعيان وأشياخ الطريق أهل العرفان، مولانا الإمام الكبير والزاهد العارف الشهير خليفة الحسن البصري، الإمام أبو سليمان داود بن نصير الطائي الكوفي رضي الله عنهُ، قال الخطيب البغدادي في تاريخه: داود بن نصير أبو سليمان الطائي الكوفي، سمع عبد الملك بن عمير وحبيب بن أبي عمرة وسليمان الأعمش ومحمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، روى عنهُ إسماعيل بن عُليه ومصعب بن المقدام وأبو نعيم الفضل بن دُكين، وكان داود ممن شغل نفسه بالعلم ودرس الفقه وغيره من العلوم، ثم اختار بعد ذلك العزلة وآثر الانفراد والخلوة ولزم العبادة واجتهد فيها إلى آخر عمره، وقدم بغداد في أيام المهدي ثم عاد إلى الكوفة وبها كانت وفاتهُ. وجدت في كتاب محمد بن العباس بن الفرات الذي سمعهُ من أبي الحسن إسحٰق بن عباس، قال: أخبرنا محمد بن يونس الكديمي، قال: سمعت أبا نعيم يقول: كنت ببغداد عند داود الطائي وبها المهدي عشرين لَيلة، فسمع صوتًا فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا أمير المؤمنين يا أبا سليمان قال: وهو هاهنا .اهـ. أخبرنا محمد بن أحمد بن رزق، قال: أخبرنا جعفر بن محمد بن نصير الخلدي، أخبرنا محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي، أخبرنا عبد الله بن أحمد بن شبويه، قال: سمعت علي بن المديني يقول: سمعت ابن عيينة يقول: كان داود الطائي ممن علم وفقه. قال: وكان يختلف إلى أبي حنيفة حتى يقلب في ذلك الكلام، قال: فأخذ حصاة فحذف بها إنسانًا فقال لهُ: يا أبا سليمان طال لسانك وطالت يدك، قال: فاختلف بعد ذلك سنة لا يسئل ولا يجيب، فلما علم أنه يصبر عمد إلى كتبهِ فغرقها في الفرات ثم أقبل على العبادة وتخلا.

قال: وكان قد زاره صديق لهُ، وكان يعلم أنه يجيئهُ في آية من القرآن يفسرها ﴿الم غلبت الروم﴾ [الروم: ١] فأتاه يصلي إلى جنبهِ فلما انفتل قال: يا أبا سليمان الم غلبت الروم، فقال: يا أبا الصلت انقطع الجواب فيها مرتين .اهـ. أخبرنا ابن رزق، قال: أخبرنا جعفر الخلدي، أخبرنا محمد بن عبد الله الحضرمي، أخبرنا محمد بن يزيد، حدَّثنا وكيع، قال: قيل لداود الطائي حدِّثنا، قال: أريد أن أقعد مثل المكتب مع قوم يتحفظون سقط كلامي .اهـ. أخبرنا أبو علي عبد الرحمٰن بن محمد بن أحمد بن محمد بن فضاله النيسابوري بالري، قال: أخبرنا أبو الفضل محمد بن الفضل بن محمد بن سليمان السلمي، قال: أخبرنا أبو عمران موسى بن العباس الجويني، أخبرنا جعفر بن الحجاج الرقي، أخبرنا عبيد بن جناد، قال: سمعت عطاء يقول كان لداود الطائي ثلاثمائة درهم، فعاش بها عشرين سنة ينفقها على نفسهِ، قال: وكنا ندخل على داود الطائي فلم يكن في بيتهِ إلا بارية ولبنة يضع عليها رأسهُ، وإجانة فيها خبز ومطهرة يتوضأ منها ومنها يشرب .اهـ.

أخبرنا الحسن بن أبي طالب، قال: أخبرنا علي بن عمر والحريري بن علي بن محمد بن كاس النخعي، أخبرهم قال: أخبرنا أحمد بن أبي أحمد الحنبلي، حدَّثنا محمد بن إسحٰق البكاي، قال الوليد بن عقبة الشيباني قال: لم يكن في حلقة أبي حنيفة أرفع صوتًا من داود الطائي، ثم إنهُ تزهد واعتزلهم وأقبل على العبادة .اهـ. أخبرنا علي بن محمد بن عبد الله المعدل، قال: أخبرنا عثمان بن أحمد الدقاق، أخبرنا إسحٰق بن إبراهيم بن أبي حسان الأنماطي، أخبرنا أحمد بن أبي الحواري، قال: قال أبو سليمان يعني الداري: ورث داود الطائي من أُمهِ دارًا فكان ينتقل في بيوت الدار، كلما تخرب بيت من الدار انتقل منهُ إلى آخر ولم يعمره، حتى أتى على عامة بيوت الدار، قال وورث من أبيهِ دنانير فكان يتقوت بها حتى كفن بآخرها .اهـ. أخبرنا أحمد بن عمر بن روح، قال: أخبرنا المعافي بن زكريا الجريري، أخبرنا محمد بن القاسم الأنباري، حدَّثني أبي حدَّثني موسى بن عبد الرحمٰن حدَّثني محمد بن حسان قال: قال لي عمي قدم محمد بن قحطبة الكوفة فقال: أحتاج إلى مؤدب يؤدب أولادي حافظ لكتاب الله عالم بسنة رسول الله ﷺ وبالآثار والفقه والنحو والشعر وأيام الناس، فقيل لهُ: ما يجمع هذه الأشياء إلا داود الطائي وكان محمد بن قحطبه ابن عم داود فأرسل إليهِ يعرض ذلك عليهِ ويسني لهُ الأرزاق والفائدة فأبى داود ذلك، فأرسل إليهِ بدرة عشرة آلاف درهم، وقال لهُ: استعن بها على دهرك فردها، فوجه إليهِ بدرتين مع غلامين لهُ مملوكين وقال لهما: إن قبل الدرتين فأنتما حران فمضيا بهما إليهِ فأبى أن يقبلهما، فقالا لهُ: إن في قبولهما عتق رقابنا فقال لهما: إني أخاف أن يكون في قبولهما رهق

رقبتي في النار، رداها إليه وقولا لهُ: إن تردهما على من أخذتهما منهُ أولى من أن تعطيني أنا .اهـ. أخبرنا ابن رزق، قال: أخبرنا جعفر الخالدي، أخبرنا محمد بن عبد الله الحضرمي، أخبرنا محمد بن حسان، قال: سمعت إسماعيل بن حسان يقول: جئت إلى باب داود الطائي، فسمعتهُ يخاطب نفسهُ فظننت أنَّ عنده أحدًا، فأطلت القيام على الباب ثم استأذنت فدخلت، فقال: ما بدا لـك في الاستئذان؟ قلت: سمعتك تتكلم فظننت أن عندك أحدًا، قال: لا ولكن كنت أخاصم نفسي، اشتهت البارحة تمرًا فخرجت فاشتريت لها، فلما جئت بهِ اشتهت جزرًا فأعطيت الله عهدًا أن لا آكل تمرًا ولا جزرًا حتى ألقاه .اهـ.

وقال الحضرمي: أخبرني عبد الله بن أحمد بن شبوية، قال: سمعت علي بن الحسن الشقيقي، قال: قال عبد الله بن مبارك: قيل لداود الطائي وحائطهُ قد تصدع فقيل لهُ: لو أمرت برمهِ، فقال داود: كانوا يكرهون فضول النظر .اهـ. أخبرنا عبد الغفار بن محمد المؤدب، أخبرنا عمر بن أحمد الواعظ، أخبرنا محمد بن جعفر المطيلري، أخبرنا الحسن بن علي العبدي، قال: أخبرنا أبو حفص، قال: سمعت ابن أبي عديّ يقول: صام داود الطائي أربعين سنة ما علم بهِ أهله، وكان خرازًا وكان يحمل غداه معهُ ويصدق بهِ في الطريق، ويرجع إلى أهلهِ يفطر عشاء لا يعلمون أنهُ صائم .اهـ. أخبرنا أبي الحسين أحمد بن عمر بن عبد العزيز بن محمد بن الواثق بالله، حدَّثني جدي حدَّثني خلف بن عمرو حدَّثني محمد بن عبد المجيد الدوري حدَّثني الوليد بن عقبة قال: رأيت داود الطائي وقال لهُ رجل: ألا تسرح لحيتك قال: إني عنها مشغول .اهـ. أخبرنا أبو الحسن علي بن القاسم بن الحسن الشاهد بالبصرة أخبرنا أبو روق الهزاني حدَّثنا أبو سعيد السكري قال: احتجم داود الطائي فدفع إلى الحجَّام دينارًا، فقيل لهُ: هذا إسراف، فقال: لا عبادة لمن لا مروءة لهُ .اهـ. أخبرنا أبو القاسم الحسن بن الحسن بن علي بن المنذر القاضي، أخبرنا جعفر بن محمد نصير الخواص، أخبرنا أحمد بن محمد بن مسروق، أخبرنا محمد بن الحسين البرجلاني، أخبرنا أبو سعيد، قال: أخبرنا سهل بن بكار، قال: قالت أخت لداود الطائي: يا داود لو تنحيت من الشمس إلى الظل، قال: هذه خطأ لا أدري كيف تكتب .اهـ. أخبرنا أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد الله الأصبهاني، أخبرنا جعفر الخلدي، أخبرنا أحمد بن محمد بن مسروق، قال: أخبرنا هارون بن سوار المقرىء، قال: سمعت شعيب بن حرب يقول: دخلت على داود الطائي فأكربني الحر في بيتهِ، فقلت: لو خرجنا إلى الدار نتروح، فقال: إني لا أستحي من الله أن أخطو خطوة لذة .اهـ. أخبرنا محمد بن الحسين بن إبراهيم الحقاف، قال: أخبرنا أبو ميسرة قميع بن ميسرة بن حاجب الزهيري، أخبرنا أحمد بن مسروق، أخبرنا

محمد بن الحسين البرجلاني، حدَّثني هريم حدَّثني أبوه أبو الربيع الأعرج، قال: دخلت على داود الطائي ببيته بعد المغرب، فقرَّب إليَّ كسيرات يابسة فعطشت، فقمت إلى دن فيهِ ماء حار، فقلت: رحمك الله لو اتخذت إناء غير هذا يكون فيهِ الماء، فقال لي: إذا كنت لا أشرب إلا باردًا ولا آكل إلا طيبًا ولا ألبس إلا لينًا فما أبقيت لآخرتي، قال: قلت أوصني قال: صم الدنيا واجعل إفطارك فيها الموت، وفرَّ من الناس فرارك من السبع، وصاحب أهل التقوى إن صحبت فإنهم أقل مؤونة وأحسن معونة، ولا تدع الجماعة، حسبك هذا إن علمت بهِ.

أخبرني الأزهري، قال: أخبرني محمد بن العباس الخزاز، أخبرني أبو مزاحم موسى بن عبيد الله، حدَّثني أبو بكر بن مكرم، قال: سمعت محمد بن عبد الرحمٰن الصيدافي يقول: رحل أبو الربيع الأعرج إلى داود الطائي من واسط ليسمع منهُ شيئًا ويراه، فأقام على بابهِ ثلاثة أيام لم يصل إليهِ، قال: كان إذا سمع الإقامة خرج فإذا سلم الإمام وثب فدخل منزلهُ، قال: فصليت في مسجد آخر ثم جئت وجلست على بابهِ، فلما جاء ليدخل من باب الدار قلت: ضيف رحمك الله، قال: إن كنت ضيفًا فادخل، قال: فدخلت فأقمت عنده ثلاثة أيام لا يكلمني، فلما كان بعد ثلاث قلت: رحمك الله أتيتك من واسط وإني أحببت أن تزودني شيئًا، قال: صم الدنيا واجعل فطرك الموت، فقلت: زدني رحمك الله، قال: فرّ من الناس كفرارك من الأسد غير طاعن عليهم ولا تارك لجماعتهم، قال: فذهبت أستزيده، فوثب إلى المحراب وقال: الله أكبر .اهـ. أخبرنا محمد بن أحمد بن رزق، قال: أخبرنا أحمد بن سلمان النجاد، أخبرنا أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا، حدَّثني محمد بن الحسين حدَّثني رستم بن أسامة حدَّثني أبو خالد الأحمر، قال: قال داود الطائي: ما حسدت أحدًا على شيء إلا أن يكون رجلاً يقوم الليل، فإني أحب أن أرزق وقتًا من الليل، قال أبو خالد: وبلغني أنهُ كان لا ينام الليل، إذا غلبتهُ عيناه احتنى قاعدًا .اهـ. وقال ابن أبي الدنيا: حدَّثني محمد بن الحسين حدَّثني إسحٰق بن منصور، قال: حدَّثتني أم سعيد بن علقمة النخعي، وكانت أمةُ طائية قالت: كان بيننا وبين داود الطائي حائط قصير، كنت أسمع حسهُ عامة الليل لا يهدأ، قالت: وربما سمعتهُ يقول: همك عطل عليَّ الهموم وخالف بيني وبين السهاد، وشوقي إلى النظر إليك أوثق مني، وحال بيني وبين اللذات، فأنا في سجنك أيها الكريم مطلوب. قالت: وربما ترنم بآلائهِ فأرى أن جميع نعيم الدنيا جمع في ترنمه، وكان يكون في الدار وحده وكان لا يصبح فيها أي لا يسرج .اهـ. أخبرنا أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن أحمد بن محمد الجواليقي، أخبرنا جعفر بن محمد الخالدي، أخبرنا أحمد يعني ابن محمد بن مسروق، أخبرنا محمد بن حسين، أخبرنا قبيصة بن

عقبة، حدَّثتني جارية لداود ـ يعني الطائي ـ قالت: مكث داود عشرين سنة لا يرفع رأسهُ إلى السماء، قال قبيصة: قد رأيتهُ كان متخشعًا جدًا .اهـ. وأخبرنا الحسين بن الحسن الجواليقي، أخبرنا جعفر الخالدي، أخبرنا أحمد هو ابن مسروق، أخبرنا محمد يعني ابن الحسين، حدَّثني عمرو بن طلحة القناد، قال: ورث داوُد الطائي من ابن عم لهُ لم يكن وارثًا غيره، نحوًا من مائة ألف درهم وعرضًا وغيره، فقال: قد جعلت ما أصابني من ميراثي منهُ صدقة على أهل الحاجة والمسكنة .اهـ. قال عمر: فقسمت والله في الأحياء عن آخرها درهمًا، قال عمرو: وحدَّثني حماد بن أبي حنيفة، قال: قلت لهُ: لو أبقيت بعضها لخلة تكون، قال: إني احتسبت بها صلة الرحم .اهـ. أخبرنا محمد بن الحسين القطان، قال: أخبرنا عثمان بن أحمد الدقاق، أخبرنا محمد بن هشام المستملي، قال: سمعت أبا عبد الرحمٰن المذكر وأنا حدث، قال: كان داود الطائي يحيي الليل صلاة ثم يقعد بحذاء القبلة، فيقول: يا سواد ليلة لا يضيء ويا بعد سفر لا ينقضي ويا خلوتك بي، يقول داود: ألم تستح .اهـ.

أخبرنا ابن رزق، قال: أخبرنا جعفر الخالدي، أخبرنا محمد بن عبد الله الحضرمي، أخبرنا علي بن حرب، أخبرنا إسماعيل بن زبان، قال: قالت داية[1] داود لهُ: يا أبا سليمان أما تشتهي الخبز؟ قال: يا داية بين مضغ الخبز وشرب القيت قراءة خمسين آية .اهـ. أخبرنا الحسين بن علي الضميري، أخبرنا الحسين بن هارون القاضي، قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن سعيد، أخبرنا قاسم بن الضحاك، أخبرنا معاوية بن سفيان المازني عن دثار بن محارب، قال: حدَّثني أبي محارب بن دثار، قال: لو كان داود الطائي في الأمم الماضية لقص الله علينا من خبره .اهـ. أخبرني عبد الله بن يحيىٰ السكري، قال: أخبرني محمد بن عبد الله الشافعي، أخبرني جعفر بن محمد بن الأزهر، أخبرني ابن الغلابي، قال: قال أبو زكريا يحيىٰ بن معين: وداود الطائي ثقة .اهـ. أخبرنا الحسن بن أبي بكر، قال: أخبرنا أبو سهل أحمد بن محمد بن عبد الله القطان، أخبرنا عبدوس وهو عبد الله بن روح المدايني، أخبرنا عبيد الله بن محمد العيشي، أخبرنا سلمة بن سعيد، قال: باع داود الطائي جارية لهُ قال: فقال لهُ بعض أخوانهِ: لو دفعت إليَّ ثمنها فضاربت لك بهِ عشت في فضلها وكانت هي على حالها، فلما ولّى دعاه فقال: هاتها عسى أن لا أفنيها حتى أموت، قال: فوالله ما أفناها حتى مات، قال: وبقي منها شيءٌ فاشترينا لهُ كفنًا .اهـ. أخبرنا محمد بن الحسين بن الفضل القطان، قال: أخبرنا علي بن إبراهيم المستملي، قال: أخبرنا أبو أحمد بن فارس، أخبرنا البخاري: قال

---

(١) الداية: الحاضنة والقابلة.

داود بن نصير الطائي أبو سليمان مات بعد الثوري، قالهُ لي علي، وقال لي ابن أبي الطيب عن أبي داود: مات إسرائيل وداود في أيام وأنا بالكوفة، وقال أبو نعيم مات سنة ستين ومائة .اهـ. وأخبرنا ابن الفضل، قال: أخبرنا جعفر الخالدي، أخبرنا محمد بن عبد الله الحضرمي، أخبرنا محمد بن عبد الله بن نمير، قال: مات داود الطائي سنة خمس وستين ومائة .انتهى.

ومناقب الإمام داود الطائي ومآثره أكثر من أن تحصر، وفيما ترجمهُ بهِ الخطيب كفاية. ومنهم: الشيخ الإمام مقتدى الإسلام مفتي الفريقين وشيخ الطائفتين، أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي الأصل البغدادي القواريري الخزاز، قال السبكي في طبقاتهِ حين ذكر الجنيد: سيد الطائفة ومقدم الجماعة وإمام أهل الخرقة وشيخ طريقة التصوف، وعلم الأولياء في زمانهِ وبهلوان العارفين، وقد أطنب الإمام السبكي وأطال في ترجمة الإمام الجنيد، وكتب كثيرًا من مناقبهِ وكلماتهِ، وسنذكر إن شاء الله في هذه الترجمة البعض منها، وها أنا أذكر لك يا أخي ما ترجمهُ بهِ الأستاذ اليافعي قدس الله سره في تاريخهِ، فإنهُ أتقن وأجاد وشفى الفؤاد، وهذه ترجمتهُ بحروفها، قال عند ذكر حوادث سنة ثمان وتسعين ومائتين: وفيها توفي أستاذ الطريقة وحامل لواء الحقيقة سيد الطائفة تاج العارفين قطب العلوم، أبو القاسم الجنيد بن محمد القواريري الخزاز، بالخاء المعجمة والزاي المشددة المكررة، قدس الله تعالى روحهُ، وقتل سنة سبع وقيل سنة تسع، صحب خالهُ السري السقطي والحارث بن أسد المحاسبي وغيرهما من أجلة المشائخ، وممن صحبهُ من أجلة الأئمة وأعلام الأمة أبو العباس بن شريح الفقيه الشافعي النجيب في العلوم المفحم للخصوم، كان إذا تكلم في الأصول والفروع تكلم بكلام يعجب الحاضرين، يقول لهم: أتدرون من أين لي هذا؟ هذا من بركة مجالستي أبا القاسم الجنيد، وأصل الجنيد من نهاوند ومولده ومنشأه العراق، وكان شيخ وقتهِ وفريد عصره، وكلامهُ في الطريقة وأسرار الحقيقة مشهور مدون، تفقه على أبي ثور صاحب الإمام الشافعي، وقيل: بل كان فقيهًا على مذهب سفيان الثوري.

وسئل عن العارف، من هو؟ فقال: من نطق عن سرك وأنت ساكت. وكان يقول: مذهبنا هذا مقيد بالأصول: الكتاب والسنة، ورُؤِيَ يومًا في يده سبحة، فقيل لهُ: أنت مع شرفك تأخذ في يدك سبحة، فقال: طريق وصلت بهِ إلى ربي لا أفارقهُ. وقال رضي الله عنهُ: قال لي خالي السري: تكلم على الناس وكان في قلبي حشمة من الكلام على الناس، فإني كنت أتهم نفسي في استحقاق ذلك، فرأيت ليلة في المنام رسول الله ﷺ، وكانت ليلة جمعة، فقال لي: تكلم على الناس، فانتبهت وأتيت باب

السري قبل أن أصبح، فدققت الباب، فقال لي: لم تصدق حتى قيل لك، فقعد في غد للناس بالجامع، وانتشر في الناس أن الجنيد قعد يتكلم على الناس، فوقف عليَّ غلام نصراني متنكرًا، وقال أيها الشيخ: ما معنى قول رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن فإنهُ ينظر بنور الله تعالى»؟[1] فأطرقت ساعة ثم رفعت رأسي وقلت لهُ: أسلم فقد حان وقت إسلامك فأسلم الغلام، قلت: والناس معتقدون أن في هذا للجنيد كرامة، وأقول: فيهِ كراماتان ثنتان أحداهما اطلاعه على كفر الغلام والثانية اطلاعه على أنهُ سيسلم في الحال، وكل ذلك باطلاع الله تعالى لهُ تفضيلاً وإكرامًا، وتخصيصًا وإنعامًا وإن لم يكن ذلك مطردًا، فقد يعطى الكرامة المفضول ويمنع الفاضل. وعن أبي القاسم الجنيد رضي الله عنهُ أنهُ قال: ما انتفعت بشيءٍ انتفاعي بأبيات سمعتها. قيل لهُ: وما هي؟ قال: مررت بدرب القراطيس فسمعت جارية تغني من دار، فأنصت لها فسمعتها تقول:

إذا قلت أهدى الهجر لي حلل البلا ... تقولين لولا الهجر لم يطب الحب

وإن قلت هذا القلب أحرقهُ الهوى ... تقولي بنيران الهوى يشرق القلب

فصعقت وصحت، فبينما أنا كذلك إذا أنا بصاحب الدار قد خرج، فقال: ما هذا يا سيدي؟ فقلت: مما سمعت، فقال: أشهد أنها هبة مني لك، فقلت وقد قبلتها، وهي حرة لوجه الله تعالى، ثم دفعتها لبعض أصحابنا بالرباط، فولدت لهُ ولدًا نبيلاً ونشأ أحسن نشوء وحج على قدميهِ ثلاثين حجة على الوحدة. وأخبار الجنيد رضي الله عنهُ كثيرة ومناقبهُ شهيرة وسيرتهُ حميدة، وكراماتهُ عديدة. قيل توفي آخر ساعة من نهار الجمعة، وقيل غير ذلك ودفن بالشونيزيه عند خالهِ السري، وكان عند موتهِ قد ختم القرآن الكريم، ثم ابتدأ بقراءته فقرأ سبعين آية من سورة البقرة ثم مات، وإنما قيل لهُ الخزاز لأنهُ كان يعمل الخز، وإنما قيل لهُ القواريري لأن أباه كان قواريريًا، قلت: وذكر بعض المشائخ أنهُ لما صنف عبد الله بن سعيد بن كلاب كتابه الذي رد فيهِ على جميع المذاهب، قال: هل بقي أحد؟ قيل لهُ: نعم بقي طائفة يقال لها الصوفية، قال: فهل لهم من إمام يرجعون إليهِ؟ قيل: نعم الأستاذ أبو القاسم الجنيد، فأرسل إليهِ يسألهُ عن حقيقة مذهبهِ، فرد الجنيد عليهِ الجواب: بأن مذهبنا إفراد القدم عن الحدث وهجر الأخوان والأوطان ونسيان ما يكون وما كان، فلما سمع ابن كلاب هذا الجواب تعجب من ذلك وقال: هذا شيءٌ، أو قال: كلام لا يمكن فيهِ المناظرة ثم حضر مجلس

---

(١) الحديث أخرجه العجلوني في كشف الخفاء عن أبي أمامة (١/ ٤١)، حرف الألف، حديث رقم: ٨٠. والسيوطي في كتاب تنزيه الشريعة عن أبي أمامة (٢/ ٣٠٥)، حديث رقم: ٧٣.

الجنيد رضي الله عنهُ، وسألهُ عن التوحيد فأجابهُ بعبارة مشتملة على معارف الأسرار والحكم، فقال أعد عليَّ ما قلت، فأعاده لا بتلك العبارة، فقال: هذا شيءٌ آخر، فأعده عليَّ، فأعاده بعبارة أخرى فقال: ما يمكننا حفظ ما تقول فأملِهِ علينا، فقال: لو كنت أجريه كنت أمليه. فقال بفضلِهِ -واعترف بعلو شأنِهِ، قلت: وإلى قولِهِ كنت أجريه أمليه إشارة على لسان حال صاحب الحال الجاري على لسانِهِ كلام بغير اختيار، على طريق التغزل بسلمى وشبهها حيث أقول، حاكيًا لكلام شيخنا قدس الله تعالى روحه في حال غيبتِهِ بالحال الوارد عليهِ:

وما قلت قولاً غير أني أعرتها لساني فأومت للهوى يتكلم
فأسرارها منها علمت وعندما سكرت جليسي سرها منهُ يعلم

أعني يعلم الجليس السر الجاري على لسان المتكلم بواسطة الهوى، المشار إليهِ بالتكلم من جهة المحبوب المكنى عنهُ بسلمى تسترًا.

وروي عن بعض مشائخ الصوفية الأجلَّة أنهُ قال: قال لي الكعبي من كبار أئمة المعتزلة: رأيت لكم شيخًا ببغداد يقال لهُ الجنيد، ما رأت عيني مثلهُ، كان الكتبة يحضرونهُ لألفاظِهِ والفلاسفة لدقة كلامِهِ والشعراء لفصاحتِهِ والمتكلمون لمعانيهِ، وكلامهُ ناءٍ عن فهمهم، وكان رضي الله عنهُ من صغره ناطقًا بالمعارف والحكم، حتى أن خالهُ السري سأل عن الشكر والجنيد يلعب مع الصغار، فقال لهُ: ما تقول يا غلام؟ قال: الشكر أن لا تستعين بنعمهِ على معاصيهِ. فقال السري: ما أخوفني عليك أن يكون حظك في لسانك، قال الجنيد: فلم أزل خائفًا من قولِهِ هذا، حتى دخلت عليهِ يومًا وجئتهُ بشيءٍ كان محتاجًا إليهِ، فقال لي: أبشر فإني دعوت الله عزّ وجلّ أن يسوق لي ذلك على يد مفلح أو قال موفق. اللهمَّ إنا نسألك التوفيق ونعوذ بك من الخذلان والتعويق، بجاه نبيك الكريم عليهِ أفضل الصلاة والتسليم، وعن الأستاذ أبي القاسم الجنيد المشار إليهِ رضي الله عنهُ أنهُ قال: دخلت الكوفة في بعض أسفاري فرأيت دارًا لبعض الرؤوساء، وقد شف عليها النعيم وعلى بابها عبيد وغلمان، وفي بعض رواشنها[1] جارية تغني وتقول:

ألا يا دار لا يدخلك حزن ولا يعبث بساكنك الزمان
فنعم الدار أنت لكل ضيف إذا ما الضيف أعوزه المكان

---

(١) الرواشن: جمع روشن وهو الرَّف والكُوَّة والشرفة.

قال: ثم مررت بها بعد مدة، فإذا الباب مسود والجمع مبدد، وقد ظهر عليها كآبة الذل والهوان وأنشد لسان الحال:

ذهبت محاسنها وبان شجونها والدهر لا يبقي مكانًا سالما
فاستبدلت من أنسها بتوحش ومن السرور بها عزاء راغما

قال: فسألت عن خبرها، فقيل لي: مات صاحبها فآل أمرها إلى ما ترى فقرعت الباب الذي كان لا يقرع، فكلمتني جارية بكلام ضعيف، فقلت لها: يا جارية أين بهجة هذا المكان وأين أنواره وأين شموسه وأين أقماره وأين قصاده وأين زواره؟ فبكت ثم قالت: يا شيخ كانوا فيهِ على سبيل العارية، ثم نقلتهم الأقدار إلى دار القرار، وهذه عادة الدنيا ترحل من سكن فيها وتسيء إلى مَن أحسن إليها، فقلت لها: يا جارية مررت بها في بعض الأعوام وفي هذا الروشن جارية تغني: ألا يا دار لا يدخلك حزن، فبكت وقالت: أنا والله تلك الجارية، لم يبقَ من أهل هذه الدار أحد غيري، فالويل لمن غرّتهُ دنياه، فقلت لها: فكيف قرّ بك القرار في هذا الموضع الخراب؟ فقالت لي: ما أعظم خفاك، أما كان هذا منزل الأحباب؟ ثم أنشأت:

قالوا أتفنى وقوفًا في منازلهم ونفس مثلك لا يفنى تحملها
فقلت والقلب قد ضجت أضالعهُ والروح تنزع والأشواق تبذلها
منازل الحب في قلبي معظمة وإن خلا من نعيم الوصل نازلها
فكيف أتركها والقلب يتبعها حبًا لمن كان قبل اليوم ينزلها

قال: فتركتها ومضيت، وقد وقع شعرها من قلبي موقعًا وازداد قلبي تولعًا. انتهى.
وقد اتفق العلماء على أن طريقة الإمام الجنيد طريقة متبعة ومذهبهُ مذهب سالم، وقد أوجبوا الاقتداء بهِ رضي الله عنهُ، أخذ الطريقة ولبس الخرقة من يد خالهِ السري السقطي رضي الله عنهُ وهو لبسها من يد الإمام معروف الكرخي، وهو لبسها من يد الإمام داود الطائي رضي الله عنهُ وهو لبسها من يد الإمام الحسن البصري رضي الله عنهُ، وهو لبسها من يد سيد الأئمة وإمام الأمة سيدنا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنهُ وكرم الله وجههُ، كما صحح ذلك الحافظ الجلال السيوطي قدس سره، وهو لبسها من يد ابن عمه سيد الأولين والآخرين إمام النبيين والمرسلين سيدنا ونبينا ومولانا محمد الرسول الأمين صلى الله عليه وعلى آلهِ وأصحابه أجمعين، ومن هنا يتبين لك طريق الإمام الجنيد بمن اتصل وإلى من وصل، فإن شيخهُ وخالهُ السري السقطي رضي الله عنهُ ترجمهُ العلماء والأولياء بالمكانة العظمى والمرتبة العليا، وقالوا: كان أوحد أهل زمانهِ في الورع والزهد

والأحوال السنية وسائر مقامات الطريق، وهو أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد وإليهِ انتمى أكثر المشائخ.

قال الجنيد قدس سره: ما رأت عيني أعبد منَ السري، أتت عليهِ ثمان وتسعون سنة ما رُؤي مضجعًا إلا في علة الموت، وشيخ السري سيدنا الشيخ معروف بن فيروز الكرخي رضي الله عنهُ، قال فيهِ علماء الشرع والطريقة إنهُ أجل مشايخ زمانهِ ورعًا وزهدًا وفتوّة ويستسقى بقبره إلى الآن، خدم الإمام علي بن موسى الرضى، وكان من مواليهِ وتأدب بآدابهِ، وصحب داود الطائي ولبس خرقتهُ وتخرج بصحبتهِ، وهو شيخ سلسلة القوم، وإن الإمام الجنيد قدس سره ونفعنا الله بهِ ورث هؤلاء الرجال وشرح مضمر فضلهم وكشف كنوز عرفانهم وجمع لهم مذهبًا وبنى لهم طريقًا يتوصل الناس به إليهم رضي الله عنهم، قام نائبًا عن السلف وإمامًا للخلف، وأخباره كثيرة ومناقبهُ شهيرة وكلماتهُ اللطيفة كادت توري زند العشق، ومحبة الله في قلب كل مَن سمعها من أهل عصره وغيرهم، ذكر منها الإمام السبكي في طبقاتهِ نبذة صالحة منها ما قالهُ: أخبرنا المسند عز الدين أبو الفضل محمد بن ضياء الدين أبي الفدا إسماعيل قراءة عليهِ، وأنا أسمع، قال: أخبرنا أبو الحسن بن النجاري، أخبرنا أبو حفص بن طيرزد، أخبرنا القاضي أبو بكر محمد بن عبد الباقي الأنصاري، أخبرنا هناد بن إبراهيم أبو المظفر القاضي النسفي، قال: سمعت أبا الحسن محمد بن القاسم الفارسي، يقول: كان الجنيد بات ليلة العيد في موضع غير الموضع الذي كان يعتاده في البرية، فلما أن صار وقت السحر، إذا بشاب ملتف في عباءة وهو يبكي ويقول:

بحرمة غربتي كم ذا الصدود ألا تعطف عليَّ ألا تجود
سرور العبد قد عم النواحي وضري في ازدياد لا يبيد
فإن كنت اقترفت خلال سوءٍ فعذري في الهوى أن لا أعود

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، قرأه عليهِ وأنا أسمع، قال: أخبرنا المشائخ أبو بكر بن إسماعيل بن الأنماطي وأختهُ رقية وغيرهما حضورًا، عن أبي بكر بن أبي سعد الصغار، قال: أخبرنا أبو منصور عبد الخالق بن زاهر السجادي، قال: أخبرنا الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد المؤذن، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن باكونه، قال: أخبرنا نصر بن أبي نصر، قال: أخبرنا جعفر بن نصير، قال: سمعت الجنيد قال: حججت على الوحدة فجاورت بمكة، فكنت إذا جنَّ الليل دخلت الطواف فإذا بجارية تطوف وتقول:

أبى الحب أن يخفى وكم قد كتمتهُ فأصبح عندي قد أناخ وطنبا

إذا اشتد شوقي هام قلبي بذكره فإن رمت قربًا من حبيبي تقربا
ويبدو فأفنى ثم أحيا بهِ لهُ ويسعدني حتى ألذ وأطربا

قال: فقلت لها يا جارية أما تتقين الله في مثل هذا المكان، تتكلمين بمثل هذا الكلام، فالتفتت إليّ وقالت يا جنيد:

لولا التقى لم ترني أهجر طيب الوسن
إن التقى شردني كما ترى عن وطني
أقر من وجدي بهِ محبة هيمني

ثم قالت: يا جنيد تطوف بالبيت أم برب البيت؟ فقلت: أطوف بالبيت، فرفعت طرفها إلى السماء وقالت: سبحانك ما أعظم مشيئتك في خلقك، خلق كالأحجار يطوفون بالأحجار ثم أنشأت تقول:

يطوفون بالأحجار يبغون قربهُ إليك وهم أقسى قلوبًا من الصخر
وتاهوا فلم يدروا من التيه منهم وحلوا بحل القرب في باطن الفكر
فلو أخلصوا في الود غابت صفاتهم وقامت صفات الود للحق بالذكر

أخبرنا الحافظ أبو العباس بن المظفر بقراءتي عليهِ، قال: أخبرنا أحمد بن هبة الله بن عساكر بقراءتي عليهِ، قال: أخبرنا إسماعيل بن عثمان القارىء إجازة، قال: أخبرنا هبة الله بن عبد الواحد بن عبد الكريم القشيري سماعًا عليهِ إملاءً، قال: سمعت الشيخ أبا سعيد محمد بن عبد العزيز الصفار، قال: سمعت الشيخ أبا عبد الرحمٰن السلمي، قال: سمعت منصور بن عبد الله، قال: سمعت أبا عمر الأنماطي، قال: قال رجل للجنيد على ماذا يتأسف المحب من أوقاتهِ؟ فقال: على زمان بسط أورث قبضًا أو زمان أنس أورث وحشة ثم أنشأ يقول:

قد كان لي مشرب يصفو بقربكم فكدرتهُ يد الأيام حين صفا

وبهِ إلى هبة الرحمٰن القشيري، قال: أخبرنا أبو صالح أحمد بن عبد الملك المؤذن، قال: أخبرنا أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، قال: سمعت أبا الحسن علي بن هارون ومحمد وأبا بكر محمد بن أحمد المفيد يقولان: سمعنا أبا القاسم الجنيد بن محمد غير مرة يقول: طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة، من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى بهِ .اهـ. وأخبرنا أيضًا أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الخلاطي قراءة عليهِ وأنا اسمع بالقاهرة، قال:

أخبرنا نفيس الدين عبد الرحمٰن بن عبد الكريم بن أبي القاسم، قال: أخبرنا والدي، قال: أخبرنا أبو الفضل عبد الله بن أحمد الطوسي، قال: أخبرنا أبو الحسن محمد بن مرزوق بن عبد الرزاق الزعفراني البغدادي قراءة عليهِ في المحرم سنة سبع وخمسمائة، قيل لهُ: أخبركم أبو الحسن علي بن أحمد بن علي بن عبد الله الحافظ المعتلي، قال: أخبرنا أبو الحسين علي بن هارون بن محمد وأبو بكر محمد بن أحمد المفيد، قالا: سمعنا أبا القاسم الجنيد بن محمد رحمة الله عليهِ، يقول: تفقهت على مذهب أصحاب الحديث كأبي عبيد وأبي ثور، وصحبت الحارث المحاسبي وسرى بن المغلس رحمة الله عليهم، وذلك كان سبب فلاحي، إذ علمنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة، ومن لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث ويتفقه قبل سلوكهِ فإنهُ لا يجوز الاقتداء بهِ .اهـ. أخبرنا الشيخ الوالد رحمهُ الله قراءة عليهِ وأنا أسمع، قال: أخبرنا عبد الرحمٰن بن مخلوف بن جماعة ح، وقال: أخبرنا يحيىٰ بن يوسف المصري قراءة عليهِ وأنا اسمع، قالا: قال أخبرنا عبد الوهاب بن ظافر بن رواح، قال: ابن جماعة سماعًا وقال: شيخنا أجازه، قال: أخبرنا الحافظ أبو طاهر السلفي، قال: أخبرنا أبو الحسن الخلاف، قال: أخبرنا أبو الحسن الحمامي بن أبي بكر أحمد بن جعفر الحنبلي، سمعت أبا القاسم ابن بكر قال: سمعت الجنيد يقول: بُنِيَ أمرنا هذا على أربع: لا نتكلم إلا عن وجود ولا نأكل إلا عن فاقة، ولا ننام إلا عن غلبة ولا نسكت إلا عن وحشة.

ذكر نخب وفوائد عن أبي القاسم الجنيد رضي الله عنهُ، هل الأفضل للمحتاج أن يأخذ من الزكاة أو صدقة التطوع؟ قال الغزالي في الإحياء: اختلف فيهِ السلف، وكان الجنيد والخواص وجماعة يقولون الأخذ من الصدقة أفضل لئلا يضيق على الأصناف ولئلا يخل بشرط من شروطها، وقال آخرون: الزكاة أفضل لأنها إعانة على واجب، ولو ترك أهل الزكاة أخذها أثموا، ولأن الزكاة لا سنة فيها، قال الغزالي: والصواب أنهُ يختلف بالأشخاص، فإن عرض لهُ شبهة في استحقاقهِ لم يأخذ الزكاة، وإن قطع باستحقاقهِ ينظر إن كان المتصدق إن لم يأخذها هذا لم يتصدق فليأخذ الصدقة، فإنَّ إخراج الزكاة لا بد منهُ، وإن كان لا بد من إخراج تلك الصدقة يخير، قال: وأخذ الزكاة أشد في كسر النفس. انتهى. وفي هذا كفاية، فإن مناقب الإمام الجنيد رضي الله عنهُ مثل السحاب تتابعت أنواءه.

ومن أشياخ الخرقة وقادات الطريقة وسادات فرسان الحقيقة، الإمام العارف الرباني والغوث الكبير الصمداني الباز الأشهب والطراز المذهب، الجامع لأشتات المعاني شيخ الإسلام أبو محمد محيي الدين عبد القادر الحسني الجيلاني قدس الله سره ورضي الله

عنهُ، هو ابن أبي صالح جنكي دست موسى بن عبد الله بن يحيىٰ الزاهد بن محمد بن داود بـن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بـن الحسن المثنى بـن الإمام علم الإسلام سبط رسول الملك العلام، صاحب الشرف المخلد ثاني أئمة أهل البيت الحسن أبي محمد بن أسد الله الغالب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجههُ ورضي الله عنهُ وعنهم أجمعين. ولد نفعنا الله بهِ سنة سبعين وأربعمائة وتوفي سنة إحدى وستين وخمسمائة، ودفن ببغداد واشتهر أمره في المشرقين والمغربين، ورمقتهُ باصرة التعظيم والتبجيل كل عين، لمعت أنوار إرشاده في العراق فعمت بأشعتها الآفاق، تخرج بصحبة الشيخ العارف بالله قدوة المحققين أبي الخير حماد بن مسلم الدباس، ولبس الخرقة من يد القاضي أبي سعيد يعلى بن المبارك بن علي المخزومي، ولقي جماعة من أعيان زهاد زمانهِ واجتمع على عظماء العارفين بالعجم والعراق، قدم بغداد على ما في البهجة القادرية المسماة ببهجة الأسرار سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، قال مؤلف البهجة الهمداني، بعد أن ذكر مقدمه المبارك إلى بغداد: قام رضي الله عنهُ في أخذ العلوم الشرعية وفي تلقي الفنون الدينية، حتى فاق أهل زمانهِ وتميز من بين أقرانه، وذكر عند ذكر نسبهِ أنهُ سئل عن مولده، فقال: لا أعلمهُ حقيقة لكني قدمت بغداد في السنة التي مات فيها التميمي، وعمري إذ ذاك ثماني عشرة سنة، قلت: والتميمي هذا هو أبو محمد رزق الله بن عبد الوهاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد، توفي سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وبإسناده قال ذكر أبو الفضل أحمد بن صالح بن شافعي الجيلي الحنبلي رضي الله عنهُ: أن مولد الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنهُ سنة إحدى وسبعين وأربعمائة بجيلان، وأنهُ دخل بغداد سنة ثمان وثمانين وأربعمائة ولهُ من العمر ثماني عشرة سنة، قيل: وهو رضي الله عنهُ منسوب إلى جيل بكسر الجيم وسكون الياء وهي بلاد متفرقة وهي وراء طبرستان، وهناك ولد في نيف قصبة منها، ويقال فيها أيضًا قرية على شاطىء دجلة على مسيرة يوم من بغداد مما يلي طريق واسط، ويقال لها أيضًا جيل بالجيم ومن ثم يقال كيل العجم وكيل العراق، وأبو العبر ثابت بن منصور الكيلي من كيل العراق، والجيل أيضًا قرية تحت المدائن، وقال الرواة أيضًا جيلان منسوب إلى جده جيلان، وأبو عبد الله الصومعي من جملة مشايخ جيلان ورؤوساء زهادهم لهُ الأحوال السنية والكرامات الجليلة. انتهى بحروفهِ.

وقال في البهجة أيضًا: كان شيخنا شيخ الإسلام محيي الدين عبد القادر الجيلي رضي الله عنهُ نحيف البدن ربع القامة عريض الصدر عريض اللحية طويلاً أسمر مقرون الحاجبين حفيا، ذا صوت جهوري وسمت بهيّ وقدر عليّ وعلم وفيّ رضي الله عنهُ، وقال في البهجة وبإسناده، قال: أخبرنا الحافظ أبو عبد الله محمد بن النجار البغدادي،

قال: كتب لي عبد الله النجاري البغدادي ونقلتهُ من خطهِ، قال: قال لي الشيخ محيي الدين عبد القادر الجيلي رضي الله عنهُ أؤمر وأنهى في النوم واليقظة، وكان يغلب عليَّ الكلام ويزدحم على قلبي، فإن لم أتكلم أكاد أختنق فلا أقدر أن أسكت، وكان يجلس عندي اثنان أو ثلاثة يسمعون كلامي وحتى تسامع الناس بي وازدحم الخلق عليَّ، فكنت أجلس بالمصلى بباب الحلبة ثم ضاق على الناس الموضع، فحمل الكرسي إلى خارج البلد وجعل في المصلى، وكان الناس يأتون على الخيل والبغال والحمير والجمال يقفون بما وراء الحلقة والمجلس كالسور، وكان يحضر المجلس نحوًا من سبعين ألفًا. وقال في البهجة أيضًا: أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الخضر الحسيني الموصلي، قال: سمعت أبي كان يقول: الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنهُ يتكلم في مجلسهِ بأنواع العلوم ولا تثبت ما يقول، وكان إذا صعد الكرسي لا يبصق ولا يتمخط ولا يستنخع ولا يتكلم ولا يقوم أحد، هيبة لهُ. وكان يقوم إلى وسط المجلس فيقول: مضى القال وعظنا بالحال، فيضطرب الناس اضطرابًا شديدًا ويتداخلهم الحال والوجد. وكان من بعض كراماتهِ: أن أقصى الناس في مجلسه يسمع صوتهُ كما يسمع أدناهم منهُ على كثرتهم، وكان يتكلم على خواطر الناس في المجلس ويواجههم بالكشف، وكان إذا قام فوق الكرسي تقوم لجلالتهِ وإذا قال اسكتوا اسكتوا، حتى لا يسمع منهم إلا أنفاسهم هيبة لهُ، وكان الناس يضعون أيديهم في مجلسهِ فتقع على رجال بينهم يدركونهم باللمس ولا يرونهم، ويسمعون وقت كلامهِ في الفضاء حسًا وصياحًا، وربما يسمعوا وجبة ساقطة من الجوّ إلى أرض المجلس وذلك رجال الغيب وغيرهم. وذكر أنَّ الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنهُ كان يومًا يتكلم، فتداخل الناس فترة فنظر إلى السماء وقال:

لا تسقني وحدي فما دعوتني إني أشح بها على جلاسي
أنت الكريم وهل يليق تكرمًا أن يعبر الندماء دور الكاس

قال: فاضطرب الناس اضطرابًا شديدًا وتداخلهم أمر جليل، ومات في المجلس واحد وقيل اثنان. انتهى. قلت: وقد ظهر أمر الشيخ عبد القادر رضي الله عنهُ وعلا صيتهُ وكبر شأنهُ، وانتمى إليهِ معظم رجال عصره وشهد لهُ أكابر وقتهِ بالصولة والهمة والسلطنة والقطبية والغوثية، وشهرتهُ في العرب والعجم غنية عن تعريفهِ، وقد أفرده رجال من الصلحاء بكتب مخصوصة ذكروا فيها مناقبهُ وعجائب أحوالهِ الشريفة، وما كان عليهِ من عظيم المنزلة ورفيع المرتبة والوجاهة وعلو الهمة وإقبال الخلق عليهِ والتفات القلوب إليهِ، وقد جاهد نفسهُ رضي الله عنهُ كل الجهاد وأقبل على الله

وأعرض عن العباد، دخل بغداد في التاريخ المتقدم الذي ذكره صاحب البهجة، وتفقه على جماعة من أعيان علماء العراق حينئذ، وهم: أبو الوفا علي بن عقيل وأبو الخطاب محفوظ بن أحمد الكوداني وأبو الحسن محمد بن القاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن محمد الفرا وأبو سعيد بن المبارك المخزومي، وسمع الحديث من جماعة منهم: أبو غالب محمد بن الحسن الباقلاني وأبو سعيد بن عبد الكريم بن حبيش وأبو الغنائم محمد بن علي بن محمد بن ميمون وغيرهم، وقرأ الأدب على أبي زكريا التبريزي رحمهم الله أجمعين، ثم بعد ذلك كله طرقهُ وارد الحال فخرج إلى البراري وترك العمران واشتغل بالمجاهدة.

قال في البهجة وبإسناده إلى الشيخ محيي الدين عبد القادر رضي الله عنهُ: كان يقول على الكرسي ببغداد: مكثت خمسًا وعشرين سنة متجردًا سائحًا في براري العراق وخرابهِ، وأربعين سنة أصلي الصبح بوضوء العشاء، وخمس عشرة سنة أصلي العشاء ثم أستفتح القرآن وأنا واقف على رجل واحدة ويدي في وتد مضروب في حائط خوف النوم، حتى أنتهي إلى آخر القرآن عند السحر، وكنت ليلة طالعًا في سلم فقالت لي نفسي: لو نمت ساعة ثم قمت، فوقفت موضع خطر لي هذا وانتصبت على رجل واحدة، واستفتحت القرآن حتى انتهيت إلى آخره وأنا على هذه الحالة، وكنت من الثلاثة أيام إلى الأربعين يومًا لا آكل ولا أجد ما أقتات بهِ، وكان يأتيني إبليس في صورة فأصيح عليهِ فيذهب، وكانت الدنيا تأتيني في زخارفها وشهواتها في صورة حسان وقباح فأصيح عليها فتفرّ هاربة، وأقمت في البرج المسمى الآن ببرج العجم إحدى عشرة سنة، ولطول إقامتي فيهِ سمي ببرج العجمي، وكنت بايعت الله عز وجل فيهِ أن لا آكل حتى ألقم ولا أشرب حتى أسقى، فبقيت مدة أربعين يومًا لا آكل ولا أشرب شيئًا، فبعد الأربعين يومًا جاء رجل ومعهُ خبز وطعام فوضعهُ بين يدي ومضى وتركني، فكادت نفسي تقع على الطعام من شدة الجوع فقلت: والله لا حلت عما عاهدت ربي تبارك وتعالى عليهِ، فسمعت صارخًا من باطني ينادي الجوع، فلم أرتع لهُ، فاجتاز بي الشيخ أبو سعيد المخزومي فسمع الصارخ فدخل عليّ، فقال: ما هذا يا عبد القادر؟ قلت: هذا قلق النفس وأما الروح فساكنة إلى مولاها عزّ وجلّ، قال: تعال إليّ إلى باب الأزج ومضى وتركني على حالي، فقلت في نفسي: ما أخرج من هذا إلا بأمر، فجاءني أبو العباس الخضر وقال: قم وانطلق إلى أبي سعيد، فجئتهُ فإذا هو واقف على باب داره وينتظرني، فقال: يا عبد القادر ألم يكفك قولي لك تعال حتى أمرك الخضر بما أمرتك، ثم أدخلني داره فوجدت طعامًا مهيئًا فجلس ولقمني حتى شبعت، ثم ألبسني الخرقة بيده ولازمت الاشتغال عليهِ، وكنت قبل ذلك في سياحاتي فأتاني شخص ما رأيتهُ قط، فقال لي: هل

لك في الصحبة؟ قلت: نعم، قال: بشرط أن لا تخالفني، قلت: نعم. قال اجلس هنا حتى آتيك وغاب عني سنة ثم عاد إليّ وأنا في مكاني ذلك، فجلس عندي ساعة، ثم قام وقال: لا تبرح من مكانك حتى أعود إليك، فغاب عني سنة أخرى، ثم جاء وأنا في مكاني فجلس عندي ساعة، ثم قام وقال: لا تبرح من مكانك حتى أعود إليك، فغاب عني سنة أخرى، ثم عاد ومعهُ خبز ولبن، فقال: أنا الخضر وقد أمرت أن آكل معك، فأكلنا، ثم قال: قم وادخل بغداد فدخلنا جميعًا، فقيل للشيخ: من أين كنت تقتات تلك السنين الثلاث؟ قال: من المنبوتات. انتهى.

قال الإمام الشعراني قدس سره في طبقاتهِ الوسطى، إن سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهُ كان يقول: عثر الحسين الحلاج عثرة فلم يكن في زمنهِ من يأخذ بيده، وأنا لكل من عثر مركوبه من جميع أصحابي ومريدي ومحبي إلى يوم القيامة، آخذ بيده كلما عثر حيًا وميتًا، فإن فرسي مسرج ورمحي منصوب وسيفي مشهور وقوسي موتور، لحفظِ مريدي وهو غافل. وكانت والدة الشيخ عبد القادر تقول: لما وضعت ولدي عبد القادر كان لا يرضع ثدييه في نهار رمضان، فكان الناس إذا شكوا في هلال رمضان بعد أن كبر يرجعون إليهِ، فإن صام صاموا وإن أفطر أفطروا لما رأوا من حفظهِ واعتناء الحق بهِ حال رضاعه، وكان رضي الله عنهُ يلبس لباس العلماء ويتطيلس ويركب البغلة وترفع الغاشية بين يديهِ، وإذا تكلم جلس على كرسي عال وربما خطى في الهوى على رؤوس الأشهاد ثم يرجع إلى جلوسهِ على الكرسي، وكان يقول: اتبعوا ولا تبتعدوا وأطيعوا ولا تمزقوا واصبروا ولا تجزعوا وانتظروا الفرج ولا تيأسوا واجتمعوا على ذكر الله ولا تفرقوا وتطهروا بالتوبة عن الذنوب ولا تلطخوا وعن باب مولاكم لا تبرحوا. وكان يقول: كونوا بوابين على باب قلوبكم وأدخلوا ما يأمركم الله بإدخالهِ وأخرجوا ما يأمركم الله بإخراجه ولا تدخلوا الهوى قلوبكم فتهلكوا. وكان يقول: احذروا ولا تركنوا وخافوا ولا تأمنوا وفتشوا ولا تغفلوا فتطمئنوا ولا تضيفوا إلى أنفسكم حالاً ولا مقامًا ولا تدعوا شيئًا من ذلك ولا تخبروا أحدًا بما يطلعكم الله عليهِ من الأحوال، فإن الله تعالى كل يوم هو في شأن في تغيير وتبديل يحول بين المرء وقلبه، فيزيلكم عما أخبرتم الناس بهِ ويعزلكم عما تخيلتم ثباتهُ فتخجلوا عند من أخبرتموه بذلك؛ بل احفظوا ذلك ولا تتعدوا بهِ إلى غيركم، فإن كان الثبات والبقاء فاشكروا ربكم عليهِ، فإنهُ موهبة منه، وإن كان غير ذلك كان فيهِ زيادة علم ومعرفة ونور وتيقظ وتأديب، وكان يقول لا تختر جلب النعماء ولا دفع البلوى، فإن النعماء واصلة إليك بالقسمة استجلبتها أم لا، والبلوى حالة بك ولو كرهتها، فسلم لله في الكل يفعل ما يشاء، فإن جاءتك النعماء فاشتغل بالذكر والشكر، وإن جاءتك البلوى فاشتغل بالصبر والموافقة، وإن كنت أعلى من ذلك فبالرضى

والتلذذ بها، واعلموا أن البلية لم تأت المؤمن لتهلكهُ وإنما أتتهُ لتختبره. وكان يقول: لا تشكو ضرًا نزل بك لغير الله ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف لهُ إلا هو﴾ [الأنعام: ٢٧] واحذر أن تشكو ربك وأنت معافى أو تشكو ضيق رزقك وعندك قوت يوم، فربما غضب الحق عليك فأزال عنك العافية، وعسر عليك أسباب الرزق عقوبة لك على كفرانك النعم.

وكان يقول: لا يصلح لمجالسة الحق تعالى إلا المطهر من رجس الزلات، ولا يفتح أبوابهُ تعالى إلا لمن خلى عن الدعاوى والهوسات، ولما كان الغالب على الناس عدم التطهر ابتلاهم بالأمراض كفارة وطهورًا ليصلحوا لقربهِ ومجالستهِ، شعروا بذلك أم لم يشعروا. وكان يقول: دوام البلاء خاص بأهل الولاية الكبرى وذلك ليكونوا دائمين العكوف على خطابهِ ومناجاتهِ. وكان يقول: لا تظلموا أحدًا ولو بسوءِ ظنكم، فإنهُ لا يجاوز ربكم ظلم ظالم. وكان يقول: إياكم أن تحبوا أحدًا أو تكرهوه إلا بعد عرض أفعالهِ على الكتاب والسنة، كيلا تحبوه بالهوى وتبغضوه بالهوى، واعلموا أنهُ لا يجوز لكم هجر أحد على الظن والتهمة. وكان يقول: إذا رأى الحق ميل وليه إلى ولد أو مال أراحهُ منهما غيرة عليهِ. وكان يقول: قد يلاطف الله تعالى عبده المؤمن ويفتح قبالة قلبهِ باب الرحمة والمنة والإنعام، فيرى بقلبهِ ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، من مطالعة الغيوب والتقريب والكلام اللطيف والوعد الجميل والدلال وإجابة الدعاء وغير ذلك من النعم السابغة على المقربين، ثم في لمح البصر يغير عليهِ ذلك الحال ويفتح عليهِ أنواع البلايا والمحن في النفس والمال والولد والإخوان، ويزول عنهُ جميع ما كان فيهِ من النعم فيصير متحيرًا منكسرًا، إن نظر إلى ظاهره رأى ما يسوءه وإن نظر إلى باطنهِ رأى ما يحزنهُ، وإن سأل الله كَشْفَ ما بهِ من الضر لم يرج إجابة وإن طلب الرجوع إلى الخلق لم يجد إلى ذلك سبيلاً، وإن عمل بالرخص تسارعت إليهِ العقوبات وتسلطت الخلائق على جسمهِ وعرضهِ بالأذى، وإن طلب الإقالة من ذلك لا يقال وإن رام الطيبة والتنعم حل بهِ البلاء ولم يعط ذلك، وحينئذ تأخذ النفس في الذوبان ويشدد عليهِ البلاء حتى تفنى أوصاف بشريتهِ ويبقى روحًا فقط، وهناك يسمع النداء من قلبهِ ﴿اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب﴾ [صَ: ٤٢] ورد الله تعالى عليهِ جميع الخلع وأزيد منها وتولى الحق تربيتهُ بنفسهِ ﴿فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين﴾ [السجدة: ١٧] فإياكم والاغترار بصفاء الأوقات فإن في طيها آفات.

وكان يقول: ما سأل أحد أحدًا من الخلق دون الحق إلا لجهلهِ بالحق، وما تعفف متعفف إلا لوفور علمه بالحق. وكان يقول: إنما كان الحق تعالى لا يجيب في كل ما

سئل رحمة بهِ وشفقة أن يغتر بذلك فيتعرض للمكربة ويغفل عن آداب الخدمة، وكما أنهُ تعالى دعاه إلى فعل كل مأمور فلم يفعل، كذلك دعا العبد ربهُ فلم يجبه جزاء وفاقًا. وكان يقول: من علامة ابتلاء العبد على وجه العقوبة، عدم الصبر عند وجود البلاء والجزع والشكوى إلى الخلق، وعلامة ابتلائهِ على وجه التكفير لخطاياه، وجود الصبر الجميل من غير شكوى ولا جزع ولا ضجر ولا نقل في أداء الأوامر، وعلامة الابتلاء على وجه رفع الدرجات وجود الرضى والموافقة وطمأنينة النفس والسكون تحت جريان الأقدار، حتى تنكشف. وكان يقول: من علامة حب الآخرة الزهد في الدنيا ومن علامة حب الله الزهد فيما سواه. وكان يقول: ما دام في قلب العبد شهوة لشيءٍ يكرههُ الله فهو عدو الله. وكان يقول: كلما جاهدت النفس وقتلتها في الطاعات، كلما حييت وكلما أكرمتها ولم تهنها في مرضاة الله ماتت، قال: وهذا هو معنى حديث: «رجعنا من الجهاد الأصغر يعني في الكفار إلى الجهاد الأكبر يعني جهاد النفس» وكان يقول: من علامة خوف المؤمن من ربهِ عزّ وجلّ، أن يفتش كلما دخل جوفهُ ولا يعتمد على ما قسم فيفوتهُ أجر التفتيش، قال: ومن هنا ورد «المؤمن فتاش والمنافق لفاف» ومناقبهُ رضي الله عنه كثيرة في البهجة وغيرها، وفي هذا القدر كفاية والله تعالى اعلم. انتهى.

ويلذ لي أن أختم ترجمتهُ العطرة بقصيدتهِ هذه التي وردت على لسانهِ المبارك، حالة وروده على بحر الكرم واستغراقه بجلائل النعم وهي:

ما في المناهل منهل مستعذب ... إلا ولي فيهِ الألذّ الأطيب
أوفي الوصال مكانة مخصوصة ... إلا ومنزلتي أعز وأقرب
وهبت لي الأيام رونق صفوها ... فحلت مناهلها وطاب المشرب
وغدوت مخطوبًا لكل كريمة ... لا يهتدي فيها اللبيب ويخطب
أنا من رجال لا يخاف جليسهم ... ريب الزمان ولا يرى ما يرهب
قوم لهم في كل مجد رتبة ... علوية وبكل جيش موكب
أنا بلبل الأفراح أملي دوحها ... طربًا وفي العلياء باز أشهب
أضحت جيوش الحب تحت مشيئتي ... طوعًا ومهما رمتهُ لا يعزب
أصبحت لا أملا ولا أمنية ... أرجو ولا موعودة أترقب
لا زلت أرتع في ميادين الرضا ... حتى وهبت مكانة لا توهب
أضحى الزمان كحلة مرقومة ... تزهو ونحن لها الطراز المذهب
أفلت شموس الأولين وشمسنا ... أبدًا على فلك العلى لا تغرب

ولو أردنا شرح فضائلِهِ وكلماتِهِ ومناقبِهِ وكمالاتِهِ، لضاق الوقت ولكن اكتفينا عن ذلك بشهرتِهِ اللامعة التي هي كالشمس الطالعة رضي الله عنهُ وعن أولياء الله أجمعين.
وقد تقدمت ترجمة القطب الثالث أحد أشياخ الخرقة وأعيان الطريقة وأسود الحقيقة، القطب الغوث العلوي مولانا السيد الشيخ أحمد البدوي رضي الله عنهُ، وقد فصلناها في بابها. وهذه ترجمة الأستاذ الكبير والقطب الغوث الشهير حامل لواء المعالي، وقائد ركبان الأعالي الواقف على متن المنهاج الحقيقي، مولانا السيد إبراهيم الحسيني الدسوقي رضي الله عنهُ، وهو: إبراهيم بن أبي المجد ابن قريش بن محمد بن النجا بن عبد الخالق بن القاسم بن جعفر بن عبد الخالق بن أبي القاسم الزكي بن علي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي الزاهر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، القرشي الهاشمي رضي الله عنهم أجمعين. أخذ الطريقة ولبس الخرقة من الشيخ نجم الدين محمود الأصفهاني، وتخرج بصحبة الشيخ نور الدين عبد الصمد النظري وبصحبة الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهم. ثم برع واشتهر وبرز بإذن الله إلى الوجود وظهر، وشهد لهُ رجال وقته بالولاية الكبرى والقطبية العظمى، وانتهت إليه رئاسة الطريق في وقته. قال الشعراني قدس سره في طبقلته الوسطى حين ذكره: قد ترجمهُ بعضهم بأنهُ أحد الأئمة الذي أبرز الله لهم المغيبات وخرق لهُ العادات وأوقع لهُ الهيبة في القلوب، وانعقد على فضلِهِ إجماع المشائخ، وكان مقصودًا بحل المشكلات وكشف خفيات الموارد رضي الله عنهُ. وترجمهُ بعضهم أيضًا: بأنهُ الشيخ الكامل الراسخ أحد أعيان المشائخ الواصلين وصاحب الكرامات والخوارق في حياتِهِ وبعد مماتِهِ، انتهت إليهِ رئاسة الكلام على خواطر الخلق، وتلمذ لهُ خلائق من العلماء والصلحاء والقضاة، وكان لهُ أربعون خادمًا من أرباب الأحوال، وجاءه مرة سبعة من القضاة يمتحنونهُ، فلما وصل مركبهم إلى البر بناحية دسوق، أرسل النقيب لهم وقال لهُ: ادفعهم خلف جبل ق فوجدوا نفوسهم هناك، فأقاموا سنة يأكلون من حشيش الأرض حتى تغيرت أجسادهم وخلقت ثيابهم، ثم تذكروا ما وقعوا فيهِ فتابوا هناك فأرسل لهم النقيب، فدفعهم فوجدوا نفوسهم على ساحل دسوق، ومسح الله تعالى من قلوبهم تلك الأسئلة كلها واعترفوا بما كانوا جاؤوا لأجله، فقال لهم الشيخ: قولوا ما عندكم من المسائل، فضحكوا وقالوا: يكفينا ما جرى لنا وأخذ عليهم العهد وصاروا من تلامذته حتى ماتوا.

وترجمهُ بعضهم: بأنهُ الشيخ الكامل صاحب الأفهام العرفانية والعلوم اللدنية والأسرار الربانية، من كان لهُ المقام العالي في قلوب العلماء والملوك والمهابة في

الصدور، وقصد للزيارة والتبرك من سائر الآفاق، وأمر التمساح أن يلفظ الصبي الذي ابتلعهُ فخرج التمساح ولفظهُ بحضرة الناس رضي الله عنهُ. وترجمهُ بعضهم: بأن الشيخ الكامل الراسخ من أجلاًء مشايخ مصر والسادات العارفين، صاحب الكرامات الظاهرة والأفعال الفاخرة والأحوال الخارقة والمقامات السنية والهمم الفخيمة، صاحب الفتح الموفق والكشف المخرق والتصدر في مواطن القدس والترقي في معارج المعارف والتعالي في مراقي الحقائق، كان لهُ الباع الطويل في التصريف النافذ واليد البيضاء في أحكام الولاية، والقدم الراسخ في درجات النهاية والطور السامي في الثبات والتمكين، وهو أحد من ملك أسراره وقهر أحوالهُ وغلب على أمره، وهو أحد أركان الطريق. انتهى. وترجمهُ بعضهم بأنهُ صاحب المحاضرات القدسية والمعراج الأعلى في المعارف والمنهاج الأسنى في الحقائق والطور الأرفع في المعالي، والقدم الراسخ في أحوال النهايات واليد البيضاء في علم الموارد والباع الطويل في التصريف النافذ والكشف الخارق عن حقائق الآيات والفتح المضاعف في معنى المشاهدات، وهو أحد من أظهره الله عزّ وجلّ إلى الوجود وأبرزه رحمة للخلق، وأوقع لهُ القبول التام عند الخاص والعام وصرفهُ في العالم ومكنهُ في أحكام الولاية، وقلّب لهُ الأعيان وخرق لهُ العادات ونطقهُ بالمغيبات وأظهر على يديهِ العجائب وصومهُ في المهد.

وكان يقول: أسلم التفسير ما كان مرويًا عن السلف الصالح، وأنكر عند الناس ما فتح الله بهِ على قلب العبد في كل عصر. ولو تحرك تحرك قلوبنا لما نطقت إلا بما ورد عن السلف، فإذا حرك قلوبنا وارد استفتحنا باب ربنا واستأذنا وسألناه الفهم في كلامهِ، فنتكلم في ذلك الوقت بقدر ما يفتح الله على قلوبنا، فسلموا لنا تسلموا فإن فخّارة فارغة، والعلم علم الله لا علمنا. وكان يقول: فيض الربوبية إذا فاض أغنى عن الاجتهاد، وقد يعطي المولى القاصر ما لم يعطهِ لأصحاب المحابر، وليس مطلوب القوم إلا مجالسة الحق في كل أمر سلكوه، فإذا حضروا عنده عرفوا بتعريفهِ كل شيء من غير تعب ولا نصب، وكان يقول: من لم يكن عنده شفقة ورحمة على خلق الله لا يرقى مراقي أهل الله. وقد ورد أن موسى عليهِ السلام لما رعى الغنم لم يضرب واحدة منهن بعصاه إنما كان يهش بها فقط، وكذلك كان لا مجوعها ولا يؤذيها بعطش، وجاء بها مرة إلى نهر ليسقيها فوجد منهن شاة عرجاء لا تقدر على الوصول إلى الماء، فحملها ونزل بها فأسقاها فلما رأى الحق تعالى منهُ قوة شفقتهِ على غنمهِ، بعثهُ الله نبيًا وكليمًا راعيًا لبني إسرائيل، وناجاه بالتورية وغيرها، فمن رحم رعيتهِ وشفق عليها اصطفاه الله من بين الخلائق، والسلام. وكان يقول: والله لو هاجر الناس مهاجرة صحيحة طالبين الله خالصًا ودخلوا تحت أوامره، لاستغنوا عن الأشياخ، ولكنهم جاءوا إلى الطريق بعلل وأمراض

فاحتاجوا إلى حكيم، وكان صورة أخذ سيدي إبراهيم العهد على المريد أن يقول لهُ: يا فلان اسلك طريق النسك على كتاب الله تعالى وسنة نبيهِ محمد ﷺ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت إن استطعت إليهِ سبيلاً، وعلى أن تتبع جميع الأوامر المشروعة والأخبار المرضية، والاحتفال بطاعة الله عزّ وجلّ قولاً وفعلاً واعتقادًا، وأن لا تنظر يا ولدي إلى زخارف الدنيا ومطاياها وقماشها ورياشها وحظوظها، واتبع نبيك في أخلاقهِ فإن لم تستطع فاتبع خلق شيخك، فإن نزلت عن ذلك هلكت، واعلم يا ولدي أن التوبة ما هي بكتابة درج ورق ولا كلام من غير عمل، إنما التوبة العزم على ارتكاب ما الموت دونهُ، فصُف أقدامك يا ولدي في حندس الليل البهيم ولا تكن ممن يشتغل بالبطالة ويزعم أنهُ من أهل الطريق، فإن من اشتهر بالطريق استهزأت بهِ ورفضتهُ.

وجاءه مرة فقير يطلب منهُ أن يلبسهُ الخرقة فنظر إليهِ، وقال: يا ولدي التلبيس في الأمور ما هو جيد، فإنهُ لا يصلح للبس الخرقة إلا من درستهُ الأيام وقطعتهُ الطريق مجهدها، وأخلص في معاملتهِ وقرأ معاني رموز الطريق، ونظر في أخبار أهلها وعرف مقاصدهم في حركاتهم وسكناتهم وأسفارهم وأخلاقهم، فإن كنت يا ولدي تعقد التوبة في هذا الوقت فلا تكن مجانًا ولا لعابًا ولا صبي العقل، فما الأمر بقول العبد تبت إلى الله باللفظ دون القلب، ولا بكتابة الورق والدرج، وإنما التوبة أن يتوب العبد عن أن يلحظ الكون بعيني قلبهِ أو يراعي غير مولاه، فإذا صح للفقير هذا الأمر هناك يرجى لهُ صحة التوبة. وكان يقول: قوة المبتدىء الجوع ومطره الدموع وفطره الرجوع، يصوم حتى يرق ويلين وتدخل الرقة قلبهُ وتنفتح مفاتح لبهِ، فيسمع حينئذ القرآن ومواعظهُ بقلب حاضر فينتفع وأما من أكل ونام ولغى في الكلام وترخص، وقال: ما على فاعل ذلك من ملام فلا يجيءُ منهُ شيء، والسلام. وكان يقول: ما بنيت طريقنا هذه إلا على النار والبحر الهدار والجوع والاصفرار، ما هي بالمشدقة[1] ولا بالفشار دعونا من هذه البطالات، فما وجدنا من أولادنا إلى هذا الوقت أحدًا اقتفى آثار الرجال ولا صلح أن يكون محلاً للأسرار، فآهٍ آهٍ من هذا الزمان الغرار. وكان يقول: من شروط الفقير أن يكون كالسلطان مهابة وكالعبد الذليل تواضعًا ومهنة. وكان يقول: الشيخ حكيم المريد فإذا لم يعمل المريد بقول الحكيم لم يحصل لهُ شفاء. وكان يقول: مذ صرفنا هممنا إلى ربنا لم نعرف سواه ولا نعرف إبليس. وكان يقول: خلوة الفقير سجادتهُ وجلوتهُ سره وسريرتهُ . اهـ. وكلماتهُ كثيرة ومناقبهُ شهيرة وزيارة قبره بركة والتمسك بأذيالهِ ومحبتهِ

---

(١) المشدقة من الشدق وهو تحريك الشدقين للمضغ.

نعمة، وسيرتهُ رضي الله تعالى عنهُ مبسوطة في كتب القوم نفعنا الله بهِ وبهم أجمعين.
ومن أشياخ الخرقة الإمام والجهبذ الهمام صدر الشيوخ والعلماء وأحد أعيان مشايخ الطائفة الكبراء، مولانا الشيخ أبو النجيب عبد القاهر السهروردي شيخ الطائفة السهروردية رضي الله عنهُ، يلقب بضياء الدين وينتهي نسبهُ المبارك إلى الإمام أول الخلفاء الراشدين الأعلام، ناصر دين الله وخليفة رسول الله سيدنا وولي نعمتنا أبي بكر الصديق رضي الله عنهُ.

قال الإمام الشعراني قدس سره حين ترجمهُ في طبقاتهِ الوسطى، انعقد عليه إجماع المشائخ والعلماء بالاحترام، وكان لهُ القبول التام في الصدور والمهابة في القلوب، وتخرج بصحبتهِ جماعة من أكابر المشائخ: كالشيخ شهاب الدين السهروردي والشيخ عبد الله بن مسعود الرومي، واشتهر في الآفاق وقصد من كل قطر، وكان يقول: التصوف أولهُ علم وأوسطهُ عمل وآخره موهبة، فالعلم يكشف عن المراد والعمل يعين على الطلب والموهبة تبلغ غاية الأمل. وكان يقول: أفضل المقامات عندنا عد الأنفاس، فلا يقع لهُ نفس واحد في غفلة عن الله تعالى. وكانت مجاهداتهُ ومجاهدات أصحابهِ فوق الحد، ولهُ كلام عال في الطريق لا يذوقهُ إلا الكُمّل فتركنا، سكن بغداد إلى أن مات بها سنة ثلاث وستين وخمسمائة ودفن بمدرستهِ على شاطىء الدجلة، وقبره بها ظاهر يزار رضي الله عنهُ ورحمهُ رحمة واسعة بمنهِ وكرمهِ .اهـ. ومناقبهُ أكثر من أن تذكر رضي الله عنهُ وعن أولياء الله أجمعين، وأما بقية مشائخ الخرقة رضي الله عنهم، فإنهم فروع هذه الأصول الكريمة وأغصان هذه الأشجار المباركة العظيمة، فلذلك اكتفينا بذكر الأصول العالية عن الفروع المباركة التالية، ولا يغيب عنك أن مبدأ هذا الباب في ذكر بركة التشبث بذكر مولانا السيد أحمد الرفاعي رضي الله عنهُ، وقد شرطنا حالة عقد الباب أن نذكر جماعة من إخوانه سادتنا الأولياء رضي الله عنهم، فوفينا بحمد الله ما وعدنا بهِ وأوضحنا ما شرطنا.

[خـــاتـمة]

وهنا يلذُّ لي أن أختم هذا الباب وأن أطرز حاشية ختم هذا الكتاب بقصيدة خاطبت بها نفسي، مستندًا إلى الله ومتوكلاً عليهِ جل علاه وأتبعها بقصيدتين: إحداهما بمدح حضرة سيد الكونين ﷺ، والثانية بمدح سيدي أبي العلمين رضي الله عنهُ، على أن ختم الكتاب يحسن بذكر النبي الأواب وآل بيتهِ الأنجاب وهذه القصيدة الأولى:

سلم لربك يا محمد	واترك مقالة من تعند
وأرض الزمان بحكمهِ	فهو الكريم بكل مشهد
وهو الرحيم بخلقهِ	وسواه لا يرجى ويقصد
وهو اللطيف وغيره	حاشاه لا يدعى ويعبد
كم مرة ناديتهُ	فحماك إحسانًا وأيد
ودعوتهُ لملمةٍ	فأزَالها والعين تشهد
وقرعت ليلاً بابهُ	فكفاك نار أذًى توقد
ولكم هرعت إليهِ من	خطب فصانك أن تبدد
ولكم رفعت يدًا لهُ	فأجاب قبل إعادة اليد
وبكيت في أبوابهِ	فأعان حيث الدمع في الخد
وأتيتهُ متضرعًا	فوقاك بالحسني من الرد
وقصدتهُ بمعائب	فعفا وكانت لا تعدد
وقرعت سدة فضلهِ	فأتى الفتوح وغيب السد

وغرقت في إحسانهِ حتى غدوت لذاك تحسد
ومع الجميل إساءة وقبائح جازت عن الحد
وترى عواطفهُ عليـ ـك ستورها لا زال تمتد
وتنام في مهد الرضا وبموطىء العز الممهد
في شامخ الركن الذي بجيوش نصرتهِ تأيد
وتراك أعجز عاجز ورفيع مجدك قد تشيد
وعداك دومًا بالعنا وبطالع النحس المنكد
بسهام قدرتهِ غدوا صرعى وشملهمُ مبدد
أفهل أغرت عليهم خيلا أو استحكمت مرصد
أو رمتهم بمكائد دقت فهد الدهر ما هد
أوصلت إذ لاقيتهم بالقاطع العضب المهند
لا والذي رفع السما وكسا العلا ثوب الزبرجد
وعليهِ صف سلاسل الـ الأقمار بالطرز المعقد
فتنوعت أفلاكه وجلت من الأبراج مقعد
وعلى الثرى مذ النبا ت لألأ حسنت وعسجد
بسطت على وجه البسيـ ـطة دونها الدر المنضد
قد أينعت أغصانها وبدوحها القمري غرد
وهو الذي لجنابهِ شكل الوجود لجا ووحد
وعظيم قدرتهِ بمحـ ـلى كل موجود تفرد
للفضل يشكر دائمًا وعلى عميم الجود يحمد
أعلاك قدرًا يا محمـ ـد بالعطا المحض المؤيد
وأزل زمرة باغضيـ ـك وحاسديك ومن تمرد
وحباك منهُ عناية وجليل عون ليس يجحد
فاصبر على ما أنت فيـ ـهِ ففضل ربك لا يقيد
حاشاه ينسى المرتجي إن اتهم المثوى وأنجد
بل كل ذرات الوجو د بفيض بحر نداه تمتد

أنسيت إذ حملتك أمّـ ـك قبل أن تأتي وتوجد
كيف اعتنا بك رحمة فبرزت لا بالجهد والجد
وأتيت عريانًا على ضعف فقيد الرأي والكد
فغشاك بالستر الذي أدلاك من بطن إلى يد
وبقيت محفوظ الجنا ب بأنعم زادت عن العد
وربيت في مهد الهدى خلقًا على الدين المؤيد
والنعمة العظمى خلقـ ـت من أمة الهادي الممجد
وشملت من نظر الرسو ل فصرت من أتباع أحمد
وأخذت اسم طريقه بسلوك مجد لا يقلد
وعلوت فيهِ مراتبًا جذبت لك الشرف المخلد
وسرت بك الركبان في مدح بأقصى الأرض ينشد
وحسبت صدرًا في زما ن فيهِ مثلك لا يسيد
صعب المزاج على الكرا م كأنهُ للغدر مرصد
عسرت لياليهِ ففيـ ـهِ أبيض الأيام أسود
والمخلصون بهِ على خطر عظيم لا يحدد
وبهِ الفواجر والكرا م بليلة تشقى وتسعد
والكاذبون الصادقو ن ووجه عبد السوء فرقد
وعلوت فيهِ جباههم رغمًا وقلبك مثل جلمد
وبعصمة المولى كفيـ ـت شرورهم وعلت لك اليد
فانظر لنعمة خالق سبقت إليك بعالم المد
واشكر إلٰهك راضيًا واذكر ندا الفضل المجدد
وافزع إليهِ ولا تخف من غيره واصبر لترشد
واربط بهِ القلب السلـ ـم مدًا وصل على محمد

وهذه القصيدة الثانية المحمدية:

ما الذي أصنع بالنفس الأبية تطلب المجد ولا تخشى المنيه
وترى أن المعالي تبتغى بكمالات وأخلاق زكيه

ما عليها لو مع البعض ارتدت / لمنال القصد أثوابًا دنيه
طبعت قدما مع الخلق على / همم لو ساعد الحظ عليه
تعشق المعروف للناس وإن / قوبلت عنهُ بأنواع الأذيه
وتكف السوء عن حسادها / لرضا الرحمٰن عن خالص نيه
وتحب البذل من ما وجدت / وترى النقص إذا أبقت بقيه
ولديها والذي صورها / هي والناس جميعًا بالسويه
وعلى ما حملت من عزة / عرفت كالقوم حد البشريه
تشتهي طائفة الفقر وما / عندها للثوب والمال مزيه
شرفت نهجا فلما عظمت / رتبة صارت من المال خليه
أخلصت طبعًا ولما رضيت / عدها أهل النهى نفسًا رضيه
قنعت فالتحفت ثوب الغنى / كل نفس قنعت تلك غنيه
وأعنائي هذه متعبتي / إنما النفس إذا عزت بليه
تكره الذل وترجو أنها / تبلغ العليا بخلق وسجيه
ما درت أن الأماني أصبحت / تحت مطوى ضلوع أشعبيه
وزمان يا لهُ من زمن / أهلهُ ساؤوا بحكم الأغلبيه
كاد يخلو من كرام وإذا / ذكروا قيل أمور أوليه
وإذا طالبت أهليهِ الوفا / فاذكر الحما ولا تذكر حميه
وقضا الحاجات للناس بهم / تحتهُ للطعن أسرار خفيه
طمست شمس المروءات وهل / تطلع الشمس إذا الوقت عشيه
ولكم تنظر بالشخص الحيا / وإذا غاب لهُ لسعة حيه
صاح إن كنت زكي النفس لا / تبغى للنفس الأماني الدنيويه
وإذا ضاقت بك الحال فقف / راجيًا بالعتبات النبويه
وضع الخد على الباب الذي / ظلهُ لاذت بهِ كل البريه
وألق عنك الحمل مثلي عند من / شرفت فيهِ البطاح اليثربيه
مصطفى الحق إمام الأنبيا / من سمت فيهِ البطون القرشيه
علم الإرشاد والهادي إلى / سبل الحق وكشاف الرزيه

سيد الخلق الملاذ المرتجى مدة الدهر إلى كل قضيه
سيف رب العرش مصباح الهدى صبحهُ معنى الصفات الأزليه
هيكل الحكمة ناسوت الرضا مقتدى كل ولي وولـيه
رحمة الله التي قد وسعت كل شيء غوث من يمم حيه
مفزع الأكوان معقود اللوا مطلق الأمة من قيد الخطيه
لا يرى العبد مهما أبدًا إن غدا مولاه أو كان وليه
هو باب الله والبحر الذي أضمرت فيهِ المعاني الأقدسيه
وهو المرجو في يوم غد حينما تبدو من الذنب الخبيه
وهو المدعو للخطب إذا بعد الأهل وفل العصبيه
وهو المأمول إن ضاق الفضا وتوالت كرب الدهر العديه
أو ينسى ما لهُ من مدد وأياد في البرايا أحمديه
وبراهين بدت مفحمة جاحديها دونها الشمس المضيه
وهو للخلق وكل الأنبيا علة للخلق كانت سببيه
ولهُ القرآن أعلى شاهد قائم بالمعجزات الأبديه
أخرس الفصح بما فيه سلكه نظم اللالىء عقودًا جوهريه
فكأن العرب عجمٌ حينما تنجلي منهُ المعاني العربيه
ولهذا المجتبى من آدم فوق وصف الناس أوصاف سنيه
وعلى أخلاقهِ صح الثنا بكتاب الله يا نعم المزيه
ولنا من بابهِ السامي الذرا نفحات الغوث تأتي عبهريه
وعلى مرّ الليالي زيلهُ فوقنا منهُ مروط سندسيه
يا أجلّ الرسل يا من باعه موصلي فضلاً لآمالي القضيه
راعني بالعطف في الدنيا وقل لك منا العيشة الحلوى الهنيه
ومن النار احمني إني أرى لن يرى النار امروٌ كنت نبيه
وأجرني سيدي من دفتر قد أحاط الوزر منهُ كل طيه
وأغثني رحمة من زمن بك فيهِ رتبتي أضحت عليه
فأنا المسكين يا مولى الورى عبدك المحتاج إحسان العطيه

جاء للأعتاب والليل له ... ضجة في عالم الملك قويه
فتدارك يا رسول الله بالـ ... ـهمة العليا وبالأيدي النديه
وعليك الله صلى سرمدًا ... بسلام ضمَّنهُ أزكى التحيه
وعلى آلك والصحب الأولى ... وعلى فاطمة الطهر النقيه
وعلى أبنائها من فيهمُ ... منك صحت لذوي الدين الوصيه

وهذه القصيدة الثالثة الرفاعية:

صاح يمم إن رمت نيل الأماني ... ساحة السيد الرفيع المكان
أحمد الأولياء غوث البرايا ... كعبة السالكين حرز الأمان
شيخنا الجهبز الكبير الرفاعي ... علم العارفين كنز المعاني
من بلثم اليد الشريفة وافى ... رتبة دون ظلها الفرقدان
نظرتها الأقران حين تجلت ... من خباها بمقلة الحيران
رفعة أقصرت مطال المعالي ... عن علا طولها مدى الدوران
يا حويدي الأظعان إن سرت ليلا ... وفرى العيس وجنة القيعان
غنّها بالإخلاص في حالة البعـ ... ـد تراها تهم بالطيران
من لقلب مشت عليهِ المطايا ... حين أمَّتْ سَوح البطاحِ الحسان
ومحتهُ أخفافها وملح الـ ... ـوجد منهُ لا زال في عنفوان
جذبتهُ من واسط نفحات ... أخمرتهُ بحب تلك المغاني
يا خليلي والمودة دَين ... عللاني بذكرها عللاني
إن فيها روحي وسر فتوحي ... ودليل لحظرة الرحمٰن
وطريقي إلى الرسول وذخري ... ومغيثي إذا الزمان دهاني
فارس الغيب قطب دائرة القو ... م إمام الورى عظيم الشان
سيد الصالحين في كل عصر ... شيخ أقطابهم بكل أوان
بعده القوم كالنجوم بليل ... وهو بين الجميع كالزبرقان
أكبرتهُ أخلاقهُ حين حاكى ... حالهُ حال جده العدناني
إن يعادى فصدمة الدهر بؤسًا ... أو يوالى فصالحات الزمان
أعجزت في الورى مناقبهُ الزهـ ... ـر حسابًا عزائِم الأذهان

هو في منصب الولاية والأقـ ـطاب جيش يحف بالسلطان
أي بأس لهُ إذا ذكر احتا طت وفود الخمود بالنيران
أي عزم لهُ إذا قلت غوثًا فلَّ عزم العضب الصقيل اليماني
نال بالانكسار عزا لهُ استصـ ـغر كسرى مشيد الإيوان
ورقى في حضائر القدس متنًا ما رقاه من المشائخ ثان
هيبة حفها شموس شؤون رصعت بالمريخ والميزان
ترجع الطرف خاساء وكليلاً من حسود بورطة الوزرعان
تلك آيات رفعة بينات قمعت زيغ عصبة الشيطان
حملت من أحوال أحمد أحكا م سلوك الرسول والقرآن
وأتتنا تجر ذيل ابتهاج طرزتهُ جواهر العرفان
أرشدتنا إلى الإله فقمنا بمروط اليقين والإيمان
يا لهُ من إمام هدي كبير قد تجلى برهانهُ للعيان
فعليهِ السلام من حضرة القد س يوافي مثواه بالرضوان
ما تدلى على أريكتهِ الفيـ ـحاء عطر الثنا من الأكوان
وعلى حزبه وأتباعهِ الغر أسود الهيجاء في الميدان

اللهمَّ إني أسألك بحرمة وجه نبيك، إمام كل إمام، وبحرمة أنبيائك العظام والأصحاب الأعلام والأولياء الكرام، وبحرمة أسمائك كلها يا ذا الجلال والإكرام، أن تتفضل علينا وعلى المسلمين بدوام الرضا وحسن الختام، والحمد لك كما تحب وترضى، وعلى نبيك وآله وأصحابهِ أفضل الصلاة والسلام.

فهرس المحتويات